

الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة الأمير عبد القادر

للعلوم الإسلامية

قسنطينة

معهد أصول الدين

موضوع البحث

وسائل الإتصال

مختبة جمعية العلماء المسلمين الجزائريين

بحث مقدم لنيل شهادة الماجستير في الدعوة والإعلام

إشراف : الأستاذ الدكتور

عبد الله بوجلال

إعداد الطالبة:

مفيدة بلهامل

لجنة المناقشة

1- د/ زهير إحدادن رئيسا

2- د/ عبد الله بوجلال مشرفا

3- د/ أحمد صاري عضوا

4- د/ عمر لعويبة عضوا

5- د/ محمد زرمان عضوا

سنة 1417 - 1418 هـ

1006 - 1007م

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

جامعة الأمير
عبد القادر للعلوم الإسلامية

الإهداء

إلى أمي وأبي...

إلى أمي وأبي...

إلى أمي وأبي...

إلى أمتي الجزائرية العظيمة
التي تشعق إلى الأمة العربية الإسلامية العظيمة

جامعة الأمير
عبد القادر
بن محمد
الإسلامية

كلمة شكر وتقدير

أرى واجبا علي في البداية، أن أسجل شكري الجزيل للمشرف على هذا البحث الأستاذ الدكتور عبد الله بوجلال الذي أفادني بتوجيهاته العلمية القيمة في تبديد المشاكل الغامضة أمامي، وبسلوكه العملي والمنهجي الذي شجعني كثيرا في مواصلة واستيفاء فصول البحث على طوله وتشعبه حتى خرج -والحمد لله- على هذه الصفة.

ولا يفوتني أن أسجل عرفاني بالجميل الذي ساظل أذكره دائما للأستاذ المحترم محمد دراحي على مساعدته الثمينة لي في مصادر هذا البحث، وللأستاذ الدكتور سامي الكيلاني على تفضله بقراءة بعض فصوله.

وأنوه في الختام بالتشجيعات الثمينة التي أحاطتني بها عائلتي، وأساتذتي من الرعيل الأول بجامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية وكذا زميلاتي الأستاذات في أوقات كثيرة من النصب.

المقدمة :

لقد كان كل شيء في الجزائر، في بداية القرن العشرين ينذر بخطر الذوبان والاندثار للشعب الجزائري بعد أن استطاع الاحتلال الفرنسي القضاء على الانتفاضات الجزائرية الواحدة تلو الأخرى محتكما في ذلك إلى منطلق الإبادة والحرب، وبدت ظلال الغزو الفكري الثقيلة تحيط بالجزائريين من كل جانب وبكل الوسائل هدفها قهر العقول بعد قهر الأبدان مما أضفى على الشعب الجزائري نوعا من الإحباط العام اضطره إلى المرور تلقائيا وجماعيا إلى استخدام ما تستخدمه الشعوب من الآليات الدفاعية الخاصة في أوقاتها الصعبة. وتمثلت هذه في مقاطعة الاستعمار الفرنسي، والهجرة إلى الخارج، والانكفاء على الذات، كل ذلك تعبيرا عن القلق النفسي الحاد إزاء مقوماته أن تهدر وتندثر والتي لم يسأل الاستعمار أسلوبا ولم يقدم وسيلة للنيل منها ومحوها.

وقد استغل الاحتلال الفرنسي من بين الجزائريين فئتين: جماعة النخبة وفئة الطرقية، أما الأولى فقد كانت مهالها المادية والاجتماعية بالإضافة إلى طبيعة تكوينها الفكري والثقافي تدفعها إلى التحالف مع الإستعمار والاندماج فيه وخدمته فتبادت في طلب الحقوق الفرنسية على حساب مقومات الشعب الذي تنتمي إليه وامتدت إلى طلب الجنسية الفرنسية والمطالبة بالاندماج، وأما الثانية فقد استطاع الاحتلال الفرنسي أن يتخذ منها جيشا وجهه في إضفاء الغطاء الايديولوجي لعمليات القهر والتسلط ويتلخص في أن الرضى بالاستعمار الفرنسي إيمان بالقدر، وكانت هذه الفئة وتلك النخبة عوناً للاحتلال الفرنسي في إحكام قبضته على الجزائريين وتكريس اليأس من أمل التحرر.

وفي هذه الظروف الصعبة ظهرت جمعية العلماء المسلمين الجزائريين التي جمعت علماء الإصلاح في الجزائر ممن درسوا في المشرق والحجاز والزيوتونة وعلى رأسهم الامام عبد الحميد بن باديس والشيخ محمد البشير الابراهيمي. وقد مهدت لظهور الجمعية وسائل اتصال عديدة استخدمها علماء الجمعية -أعضاؤها فيما بعد- للدعاية لها، وشرح منافعها للأمة الجزائرية، وتعبئة الجماهير الجزائرية لمساندة مشاريعها المختلفة التي كانت تهدف في حقيقتها إلى بعث الجزائريين عن طريق إحداث ثورة دينية وتعليمية شاملة وعميقة

بالإستناد إلى مقوماتهم الأصيلة ومعطيات حضارتهم الخاصة ، وقد نجحت هذه الوسائل في إخراج الجمعية إلى الوجود وجعلها مطلبا جماهيريا بعدما كانت ضرورة يؤمن بها خاصة العلماء.

ويعرض هذا البحث إلى هذه الوسائل المتمثلة في: التعليم المسجدي، الرحلة، الخطابة، التعليم المكتبي، الصحافة، التأليف، ثم يدرس أهدافها وأساليبها وأهميتها في عملية التأثير والتغيير ضمن مشروع جمعية العلماء واستراتيجيتها لتحرير الجزائريين من الغزو الفكري، وهي الخطوة الأساسية التي تقوده إلى التحرر الكامل.

ونظرا لتنوع مواضيع البحث ومادته فقد تطلب استخدام عدة مناهج هي كما يلي: المنهج التاريخي، والمنهج الوصفي المسحي، والمنهج الاستقرائي والتحليلي. وقد قسم البحث إلى مقدمة ومدخل وثلاثة أبواب وعشرة فصول.

وقد واجهت البحث عدة صعوبات كان أولها صعوبة الحصول على صحافة جمعية العلماء مع توفرها لدى بعض الأساتذة، وفي بعض المكتبات وقد استغرقت رحلة البحث عنها ومحاولة اقتنائها وقتا طويلا مما أثر في تأخر استكمال جمع مادته، واستغرق ذلك من الباحثة جهدا مضميا ونفقات ثمينة كانت في أمس الحاجة إليها. واستطاعت الحصول على مجموعة جريدة "البصائر" لسنة 1936-1937م، وكذا مجموعة جريدة "السنة النبوية" و"الشريعة المحمدية" وكذا "الصراط السوي"، وقد أغنى كتاب "عيون البصائر" أحد أجزاء آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي عن جريدة "البصائر" الثانية لتضمّنه لأغلب مقالاتها. ومع ذلك فقد تعذر الحصول على جريدة "المنتقد"، و"الشهاب".

وبعد متكلة الحصول على المصادر التي توفر للباحثة معظمها تقريبا من الصحافة والآثار والمذكرات وكذا بعض الوثائق، واجهت البحث مشكلة كثافة المادة العلمية وتنظيمها وتوزيعها على الفصول من حيث ارتباطها بالوسيلة الاتصالية موضوع الدراسة من جهة، وبشخصية عالم من علماء الجمعية وبخاصة رئيسها ولذلك سنلاحظ مثلا أن الحديث عن الاتصال عن طريق التعليم المسجدي أو عن طريق الرحلة داخل الجزائر هو الحديث عن الإمام ابن باديس معلما وإماما ومفسرا، وأن الحديث عن الرحلة خارج الجزائر وعن الصحافة بداية من الأربعينات هو الحديث عن الشيخ محمد البشير الإبراهيمي وقد

اضطرت الباحثة في مرات عديدة إلى مراجعة خطة البحث وتعديلها بالطريقة التي تربط فيها الحديث عن وسيلة الاتصال بالتركيز على نتائجها من ناحية وصولها للكثير من الجزائريين وردود أفعالهم العلمية والعملية إزاءها بما يبين أهميتها وقوة تأثيرها هي كوسيلة اتصال أولاً ثم كيفية استغلالها من طرف علماء الجمعية ثانياً.

والله من وراء القصد

الأمير
عبد القادر للعلوم الإسلامية

المدخل :

يتضمن المدخل مجموعة من العناصر الضرورية للتعريف بالبحث، وهي مشكلة البحث، وتحديد موضوعه وإطاره، ودوافعه، وأهميته ومفاهيمه، ومنهجه والدراسات السابقة التي تناولته والخطة المتبعة فيه، وسنتناول فيما يلي كل نقطة من هذه النقاط بالشرح :

1- مشكلة البحث وتحديد موضوعه:

إن أخطر ما كادت أن تنجح فيه فرنسا بعد قرن كامل من احتلالها للجزائر هو تهديد كيان الأمة الجزائرية بالذوبان والاندثار، فبعد أن استحال عليها إبادة الشعب الجزائري جسديا رغم حملاتها المنظمة والمتواصلة لهذا الغرض عمدت إلى إبادة حضاريا - في دينه ولغته وتقاليده- حتى يسهل عليها أن تزرع بدلا منه شعبا جديدا- إن صحح أن يسمّى كذلك- شعبا ممسوخا مشوّها مبتور الجذور، مقطوع الفروع كأنما أحتت من الأرض، والعجيب أن خيرااء النفس والاجتماع والانثروبولوجيا والضباط العسكريين الفرنسيين اعتبروا ذلك مهمة تمدنيّة، ورسالة حضارية إنسانية، والأعجب أن رجال الكنيسة المسيحية قد جعلوا من كل ذلك رسالة مقدسة...

وقد اعتمد الاستعمار الفرنسي في غزوه للجزائر بالإضافة إلى التصاميم الميدانية الحربية، والمخططات العسكرية التي تعود مشاريع دراستها وإعدادها إلى سنوات 1729م 1979م، 1808 م (1)، اعتمد على كم كبير من النظريات المتنوعة في علم النفس، وعلم الاجتماع، وعلم الاتصال مكنته من رسم الخريطة النفسية للشعب الجزائري استغلها في إحكام قبضته على رقاب الجزائريين وإطالة معاناتهم مدة قرن وربع قرن من الزمن، وقد تمثل ذلك في :

- سياسة تهديم معالم الحضارة وآثار المدنية المادية والمعنوية للشعب الجزائري المرتبطة بحضارته الإسلامية والعربية أساسا، بداية من تهديم مؤسسة الوقف، والمساجد والمدارس أو تحويل ملكيتها إلى الفرنسيين مباشرة وتحويل منافعها لخدمة مصالحهم، حتى

(1) أبو القاسم سعد الله: أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، القسم الأول (الجزائر)، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع.

إذا اندرست آثارها سهل على الفرنسيين ترويج ادعاءاتهم في الحضارة والمدنية وقصر الكمال فيها على فرنسا، وبخس الجزائري من كل أثر فيها.

سياسة تجهيل عامة للجزائريين عبر قوانين معلنة وطرق غير نزيهة خفية. استغلت فرنسا للتمكين لها شيوخ الطريقة ورؤساء الزوايا ممن أغرتهم بالأموال والوظائف، وعرضتهم إلى إمتحانات في التجسس والمتاجرة بدينهم وأمتهم، فكانت البدع التي ينشرونها أكبر عون للإستعمار الفرنسي لاستعباد الجزائريين اتخذها مخذرا لعقولهم. وضيق بها ممارستهم لدينهم، وميغ بها المعاني الاجتماعية للشعائر الإسلامية حتى أصبحت الممارسة الدينية على صعيد الجماهير طقسا مفرغا من أي مضمون، يكرس الواقع ويعرقل كل محاولة جادة للنهوض به وبعد أن جعلت منهم سلطة الاحتلال أئمة رسميين وأولت السلطة الروحية إليهم -وبالتالي إليها- أصبحوا جزءا مكتملا لجهاز الحكومة الاستعمارية مفروض عليهم السمع والطاعة، هم في ذلك سواء كالجنود والبوليس الاستعماري، وحولتهم بذلك إلى أداة تهيء بها الغطاء الايديولوجي لعمليات الظلم والقهر والاقناعات على كرامة الانسان الجزائري وعلى حقه في الحياة والحرية وتقرير المصير» (1).

ومن جهة أخرى اصطنعت سلطة الاحتلال الفرنسي نخبة من بين الجزائريين منقفة بالثقافة الفرنسية متمدرسة بمدارسها، فرنسية اللغة استعمارية البرامج، مسيحية الروح، استطاعت أن تكرر غربتها عن انتمائها الطبيعي لتتنكر لمقوتها وتحقر مواطنيها، وتعيش بمطالبها الغريبة في غيبوبة حضارية تمثلت في البحث عن وطن لها في فرنسا(2)، وتعيش بنمط حياتها المتغرب في حيرة من الاختيار الصعب بين الاحتفاظ بأحكام أحوالها الشخصية المستمدة من دينها الاسلامي - دين الشعب الذي تنتمي إليه بمقتضياته - وبين التخلي عنها فتتال في مقابل ذلك الحقوق المدنية الفرنسية.

- سياسة تغريب المخزون الثقافي للجزائريين، بدأ بالاستحواذ على التراث العلمي

(1) حسن عبد الرحمن سلوادي، عبد الحميد بن باديس مفسرا (الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب، 1984م)، ص 29.

(2) صالح عوض، معركة الاسلام والصليبية في الجزائر من سنة 1830-1962م (الجزائر، مطبعة دحلب، 1992م)،

ط2، ج1، ص 201 بتصرف.

الجزائري المكون في المكتبات الجزائرية الكثيرة، والإنكار المطلق للشخصية المعنوية والوطنية الجزائرية، ثم إتباعها بسياسة مسخ إيديولوجي مدروس الوسائل والأساليب شمل تشويه الحقائق التاريخية بوضع كتب جديدة -بأيدي علمائها ومستشرفيها- ذات نظرة استعمارية بحتة تنهي انتماء الجزائريين إلى غير أصولهم الطبيعية الحقيقية، والتفريق بين أبناء الشعب الواحد وجعل ذلك مبرراً للإنتقام والعداوة بينهم امتد عبر نشر دراسات خرافية في الصحافة وفي الكتب المدرسية والجامعية في فرنسا والجزائر(1)، بعيدة عن النزاهة والحقيقية العلمية المجردة..

- سياسة الحملات التيمسية المقصودة والمتواصلة، عرضت الجماهير الجزائرية بها إلى هجوم عنيف ومباشر من طرف بنيات ثقافية مختلفة اجتمعت كلها على إذلال الإنسان الجزائري وتخقير ماضيه وأجداده وأبطاله ورموزه، وغرست فيه عقدا كثيرة كعقدة النقص والعجز المادي حتى يظل على استكانته وتبعيته، وحتى لا يتخذ بنفسه زمام المبادرة في تقرير مصيره بنفسه، وعقدة العار حتى يفتخر الجزائري من ذاته ويعيش وضعه كعار وجودي يصعب عليه احتماله ويبقى في دفاع مستمر ودائم ضد اقتضاح عجزه وبؤسه، ثم عقدة النقص المعنوي بفرض وهم التفوق الحضاري الفرنسي إلى درجة التضييل لإرغامه على قبول الأمر الواقع(2). وبلغ الأمر بالاستعمار الفرنسي أن روجت وسائله الاتصالية المختلفة بأن صفات الاستكانة والهوان والالفاعلية الحضارية هي صفات أزيلية في الإنسان الجزائري ووصفته بابن المستعمرات غير المتقف بالطبيعة، الخشن، غير الطموح، المعادي بصورة نفسية آلية للأجانب... (3)، الخ. ثم أرجعت أسباب ذلك بزعمها إلى دينه ولغته وجنسه، إمعانا منها في عمليات التعقيم والتجميد للجزائريين.

- سياسة فرض حضارة الغالب على المغلوب بقوالبها وأشكالها وإيديولوجيتها.

(1) الفضيل الورتيلاني، الجزائر النائرة (عين مليلة، دار الهدى، 1992م)، ص 395 بتصرف (نقلا عن جريدة "فرانس اوبسرفاتور "France Observateur").

(2) مصطفى حجازي، التخلف الاجتماعي، سيكولوجية الإنسان المقهور (لبنان، معهد الاغناء العربي، 1989م)، ط5، ص 44.

(3) جوان غلسي، الجزائر النائرة، تعريب خيرى حماد (لبنان، دار الطليعة، 1961م)، ص 39.

فقد اعتبرت اللغة العربية أجنبية في الجزائر قانونيا وفرضت اللغة الفرنسية رسميا بدلا منها. وشجعت جميع الرذائل ومظاهر الفساد التي يحرمها دين الجزائريين، كما شجعت التنصير بالأموال وضمّان الحرية وتقديم التسهيلات المعنوية كافة فكان المنصرون يستغلون أوقات المجاعات والأوبئة فرصا لاصطياد الجوع واليتامى والمرضى من الجزائريين ليفتنوهم عن الإسلام بقلعة أو بثوب أو بجرعة دواء. علما >> بأن الاحتلال الفرنسي هو الذي جوع وأعزى، وهو الذي أفقر وأمرض، وهو الذي مكّن للجهد والجمود. كل ذلك عن عمد وقصد. وكل ذلك ليذل ويقبل، ويهيء للمبشرين وسائل التنصير >>(1). فكان من وصايا المسيح كما يقول الابراهيمي >> هي أن لا يطعم البطن إلا إذا أخذ القلب، وأن لا يكسر الظهر إلا بالتجريد من الدين، ولا ينشر تعاليم المسيح إلا باستغلال أزمات الضعفاء والبائيس >>(2).

- سياسة عزلة داخلية وخارجية، الداخلية مثلها قانون الاندجيناً القاضي بمنع كل الحريات عن الشعب الجزائري بمنع حرية الاجتماع والتنقل والتعبير الذي جعل من الجزائر سجنا كبيرا لأهلها(3). وقد عضد بقوانين تمنع إصدار الجرائد باللغة العربية -لغة الجزائريين- وأخرى تمنع إنشاء النوادي والجمعيات، وأخرى تمنع إنشاء المدارس للتعليم العربي وأخرى تمنع التعليم على الأفراد إلا برخصة لا تأتي أبدا... الخ(*)). والخارجية تمنع الجزائريين من الاتصال بباقي الشعوب العربية والإسلامية، وتمنع عنهم وصول أخبار هذه الشعوب إليهم، وذلك بمنع جرائد هذه الشعوب من الدخول إلى الجزائر. وقد هدفت هذه السياسات برسائلها إلى :

1- تضيق الحياة في "الجزائر" المستعمرة >>حتى تصب في قالب يهيئه الاحتلال الفرنسي في كل جزئية من جزئياته خوفا من أن تتيح الحياة المطلقة لمواهب الانسان

(1) عماد البشير الابراهيمي، عيون البصائر (الجزائر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، د.ت)، ص 64-65

(2) المصدر نفسه، ص 85.

(3) أحمد بن نعمان، التعريب بين المبدأ والتطبيق، (الجزائر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1981م)، ص 171.

(*) سوف نعرض إلى هذه القوانين في فصول البحث لاحقا.

الجزائري المستعمر أن تتخذ مجراها الطبيعي إلى النبوغ والعبقرية»⁽¹⁾. فبعد إفراغ الجزائريين من مخزونهم الروحي والحضاري، وتكريس عجزهم عن إعادة صورة ماضيهم وإطفاء وعيهم لقيمتهم وقيمهم، ثم قطع كل سبيل دونهم لتوسل هويتهم وأصالتهم سهل إغراء بعضهم ببعض، وشغل البعض بالبعض فسادت الفوضى والاضطراب وآل أمر الجميع إلى الاحتلال الفرنسي يوجههم كيفما شاء.

- تجنّب الجزائري إمكانية تحوله إلى وسيلة تحريك اجتماعية، وذلك بزغزعة القوالب الموجودة وتفكيك قوى التنظيم في المجتمع الجزائري حتى تستهل عملية جمهرة الشعب الجزائري بتفكيك بنيات نسيجه الاجتماعي الذي صنعت مقوماته المتمثلة في الدين واللغة والتاريخ.. لحمتها >> لأن الشبكات الخاملة وغير المتفاعلة كما تقول المؤرخة الفرنسية آني فولدزيغر "Annie Rey Goldzeiguer" تسمح بالهجومات القوية المتلاحمة والولوج دون عناء لتفكيك السلسلة (2).

وقد توصلت المؤرخة الفرنسية ذاتها في دراستها للسياسة الفرنسية في الجزائر في عهد نابليون الثالث إلى استخلاص صورة الشعب الجزائري قالت بصددتها >> إن زويا الدراسة ومعلومات ومعطيات التحليل والشهادات كلها قد أعطيتني دليلا قاطعا على أن المجتمع الجزائري لم يعد موجودا إلا في حالة سراب بالنسبة للجندى، وللمعمر ولالإداري، وللحكومة المركزية، وكذا بالنسبة للجزائري نفسه الذي حيل دون محاولاته لإعطاء هويته الأصالة الحقيقية المعتدى عليها⁽³⁾. وأضافت مؤكدة بأنه لم يبق من المجتمع الجزائري >> سوى كداس اجتماعي معقد تتعايش فيه مجموعة من المجتمعات مختلفة العقليات والميكانيزمات والمنابع الثقافية - لكنها كانت كلها مقنعة بقناع من العبارات الموّحدة⁽⁴⁾.

وتؤكد آني فولدزيغر "A.R. Goldzeiguer" هدف سياسة الاستعمار الفرنسي تقول:

>>القاعدة العامة عند منظري الاحتلال الفرنسي - هي أن الهجوم الاستعماري هدف لا

(1) مالك بني نبي، شروط النهضة، ترجمة عبد الصبور شاهين، عمر مسقاوي (سوريا، دار الفكر، 1986م)، ص

(2) Annie Rey Goldzeiguer, Le Royaume Arabe, la politique Algérienne de Napoléon III 1861-1870. (Algérie, SNED, 1977), p46.

(3) Ibid, p 47.

(4) Idem.

إلى تصفية الأهالي ولكن إلى تفكيك وتفتيت مجتمعهم، لأنه إذا كان ولا بد من تلاشي واندثار الجسم الاجتماعي للعدو لأسباب أمنية، فإن الأفراد لا بد أن يتحولوا إلى يد عاملة ضرورية للأعمال الشاقة والدونية - الوسيلة الوحيدة لاستغلال الجزائر من طرف الكولون.. وهذه أهداف غايتها تمزيق النسيج الاجتماعي الجزائري (1).

وتنقل الباحثة الجزائرية فضيلة يحيى في كتابها عن المجتمع الإستعماري في الجزائر بين الحربين العالميتين ملاحظة أحد المؤرخين الفرنسيين عما بقي من المجتمع الجزائري قوله: >> منذ 1870م لم يبق من الشعب الجزائري إلا صورة هلامية أو ضبابية حيث فقد كل معاني الوحدة والترابط بين أفراد، ولم يبق من صورة المجتمع الجزائري سوى علاقات واهية مجردة بين أفراد، وفوضى وصراع بين طبقات داخل كداس اجتماعي (2).

ودفع هذا الوضع غير العادي للشعب الجزائري بعض المثقفين والعلماء الجزائريين لمحاولة تغييره والعمل على بعث الأمة الجزائرية من جديد. وشهدت الساحة الجزائرية منذ عشرينات هذا القرن ظهور حركة وطنية اقتسم الأدوار فيها تيارات ثلاثة اختلفت نظرتها في تحليل أسباب هذا الوضع وكذا في مرجعية محاولات التغيير لكل منهم. وليس من مهمة البحث إجراء مقارنة بين هذه التيارات: الاندماجي والثوري، والديني - مع تعرضه لها - وإتاما مهمته دراسة وسائل التيارات الديني المتمثل في جمعية العلماء المسلمين الجزائريين في التعامل مع الواقع الجزائري أولا ثم استراتيجيته أسلوبا وغايات في عملية التغيير مروراً بالاطلاع على تعدد نظرتهم للأزمة الجزائرية تحت قبضة الاحتلال الفرنسي.

وينطلق مشروع التغيير عند جمعية العلماء من مقدمات مبدئية تقول: >> إن طبيعة الأحداث التي سببت النوم للأمة الجزائرية قد حققتها بأنواع شتى من المخدرات، منها ما يفسد الدين ومنها ما يشكك في اليقين، ومنها ما يزلزل العقل، ومنها ما يشل الإرادة. ومنها ما ينسي الماضي، ومنها ما يغير الاتجاه، ومنها ما يزيغ النظر إلى الخير والشر، ومنها ما يفسد الفطرة... (3).

(1) Fadhila, in: Godzeiguer, Op. Cit. p46.

(2) Fadhila yahiaoui, Roman et Société coloniale dans l'Algérie de l'entre deux guerres (Algérie. ENAL, GAM, 1985),p153.

(3) محمد البشير الابراهيمي، عيون البصائر، مصدر سابق، ص 285-286.

التغيير فيها تعني ضرورة حقن الأمة الجزائرية -وبالأحرى ما بقي منها- بأنواع شتى من المنبهات، تقابل كل منها على التسوالي أنواع المخدّرات وتعاكس هدفها، ضمن إعادة تركيب وتكوين وتوجيه يسميها الأستاذ علي مراد (1) بعملية إعادة قولبة للشروط الثقافية الخاصة بالمجتمع الجزائري (1) . ويصفها مالك بن نبي بالرجوع إلى نفس الظروف والشروط التي كان فيها الإنسان المهزوم عنصرا فعلا ومنتصرا (2). تأكيداً للحقيقة المنطقية التي يؤمن بها وهي أن الاستعمار ليس من عبث السياسيين ولا من أفعالهم وإنما هو من النفس ذاتها التي تقبل ذل الاستعمار والتي تمكن له في أرضها، والخلاص من الاستعمار لا يتم إلا بخلاص النفس من القابلية له (3).

دوافع البحث وأهميته : إن ظهور جمعية العلماء المسلمين الجزائريين سنة 1931م

بعد عام فقط من الاحتفال المئوي الفرنسي باحتلال الجزائر الذي صاحبه تصريحات استفزازية لبعض ساسة وعسكري فرنسا مفادها أنه كان احتفالا بجنازة مقومات الشعب الجزائري (4). ثم إعلان الجمعية عن قانونها الأساسي الذي يقضي بمحاربة الآفات الاجتماعية المختلفة، والتذرع بكل ما تراه نافعا لها للوصول إلى غايتها، كالقيام بالجولات عبر القطر الجزائري وتأسيس الشعب وفتح النوادي ومكاتب التعليم الابتدائي... الخ. في وقت تشير معطياته بأنه لم يبق من الشعب الجزائري سوى كداس اجتماعي. حاولت اشكالية البحث تقديم بعض جوانبه، ليعتبر تحدي يمكن وصفه بغير المنطقي ومشروع غير أكيد النتائج، لكن الواقع الذي تثبتته الدراسات التاريخية في المقابل وتؤكد أنه أنسي فولدزيغر عندما تقول: «... إن الشبكات المنحنية والبنيات المتداعية للنسيج الاجتماعي الجزائري كانت في استعداد تام لكي تبعث الحياة من جديد في المجتمع الجزائري» (5). ثم إن ظهور

(1) Ali Merad, Le Réformisme Musulman en ALgérie de 1925-1940, Essai d'histoire religieuse et sociale (Paris, Mouton Ld go, La haye 1972), p334.

(2) مالك بن نبي، شروط النهضة، مرجع سابق، ص 25 بتصرف.

(3) المرجع نفسه، ص 31

(4) لجنة من طلبة الشيخ محمد البشير الابراهيمي، آثار محمد البشير الابراهيمي (الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب،

1985م)، ج4، ص 348.

(5) Annie Rey Goldzeiguer, Op Cit, p 47.

جمعية العلماء نفسها في هذا الوقت مؤثر قوي وحي يؤكد هذا الاستعداد ويشهد على نجاح الفترة التمهيديّة الطويلة لظهورها والتي قادها علماءها - أعضاؤها فيما بعد - منذ 1914م بوسائل كثيرة سبقوا بها الزمن حتى انبثقت عنها الجمعية التي أصبحت مضطّرة جماهيريا بعدما كانت ضرورة يتفق حولها خاصة العلماء فقط.

ومن ثمّ فالاطلاع على وسائل الجمعية التي ميّزت حضورها بالفاعلية والصرامة من بدأت فكرة وحتى أصبحت حقيقة واقعة، جدير أن يحاط بالبحث والدراسة والتحليل لأن هذه الفترة تعد مرحلة فقط من مراحل وجودها ونشاطها وقد ألمحت بنجاح الفترة الرسميّة من حياتها ومن ثمّ مرحلة الثورة المسلّحة، لأن المقدمات الصحيحة تؤدي دائما إلى نتائج الصحيحة.

2- الاطلاع على الوسائل الاتصاليّة للجمعية عن طريق ما تنطق به مصادر الجمعية نفسها من آثار علمائها، ومذكرات أعضائها ومصادرها المكتوبة حتى تشهد بنفسها على وجوه وجوانب نشاط الجمعية الكثيرة، وعلى معطياتها الحقيقيّة بأقلام أصحابها.

3 - لقد استقل بعض الكتاب والصحافيين في تعرضهم للحركة الوطنيّة في الجزائر دور جمعية العلماء، بعدم التوقف إلى جوانب نشاطاتها الكثيرة، وإلى تواجدها المستمر في حياة الجزائريين واستقطابها لهم بطريقة لم ينجح فيها أي تيار وجد في وقتها(1). وقد وصفها بعضهم بصفات تتجاوزها الحقيقة الجردة بكثير، فقال:

أ. «أما حركة الإصلاح فهي خاصة وغايتها محدودة تعتمد على المتقنين والشخصيات والتجار ومهمتها: تكييف الدين وإصلاحه حتى يتماشى مع الوضع القائم والتغيير يكون من الدين لا من الحكم الذي هو الاستعمار.

ب مبدأ الإصلاح محاربة الطرق والزوايا مع مسالمة الحكومة الاستعماريّة.

ج- الإصلاح يعتمد على العقلانيّة المستمدة من الغرب بدل الاعتماد على الإحساس القومي لإنهاض الشعب(2).

(1) Ali Merad, Le Réformisme Musulman en ALgérie, Op Cit, p 9.

(2) محمد قنانش، الحركة الاستقلاليّة في الجزائر بين الحربين 1919-1939م (الجزائر، الشركة الوطنيّة للنشر والتوزيع، 1982م): ص 86، 87. بتصرف.

ومادامت وسائل جمعية العلماء التي يتناولها البحث: التعليم المسجدي، الاتصال عن طريق الرحلة والخطابة، التعليم المكتبي، الصحافة، التأليف، تشهد في حد ذاتها على تجاوز هذه الأحكام فإن هذا البحث يحاول أن يقف عند الحقيقة التاريخية الحية وهي أن جمعية العلماء مجهود جزائري تحت كفل متروعه التغييرى إلى علماء الأمة الذين يمكنهم بالنظر إلى مظاهر الصراع بينها وبين الاستعمار الفرنسي وإنما إلى سر الصراع وأصله. وعلماء الأمة حسب تعريف جمعية العلماء لهم هم: «كل عضو عامل بحقائق الدين مستقل الفكر غير على الإسلام أن تعبت به أهواء المبتدعة، وتشكيكات ملاحدة والمضللين. وعلى فضائله أن تهجر وعلى تاريخه أن يطوي ويقبر...» (1). ومن ثم فقد توسلوا لحل أزمتها كل ما وفره عصرهم من وسائل هي أوفر وأكثر تم هي أفضل حضورا واستمرارا وفاعلية من وسائل التيارات الأخرى - فأعطوا بها مثالا للحضارة وللوطنية وللحفاظ على مقومات الأمة الجزائرية التي لم يريدوا لها الذوبان والاندثار بل وعملوا لبعتها من جديد في إطار هذه المقومات كما يؤكد الإبراهيمي في قوله: نحن إنما بنى لك، ونفصل على مقدارك، ونرشدك إلى ما يجب أن تكوني عليه لتستبدي حالة بحالة وليوسا بلبوس (2).

مفاهيم البحث: عنوان البحث: وسائل الاتصال عند جمعية العلماء المسلمين

الجزائريين: يرمي إلى إحاطة هذه الوسائل بدراستها من حيث أساليبها وأهدافها وتطورها للتدليل على الأهداف البعيدة الحقيقية لجمعية العلماء.

تعريف وسائل الاتصال لغة:

وسائل الاتصال هي الترجمة الحرفية للكلمة الفرنسية "Moyens de communications" (3) وكذا لكلمة "Communication" مع اختلاف دلالة هذه في صيغة المفرد عنها في صيغة الجمع، وتستعمل هذه المفردات للتعبير أيضا عن وسائل الإعلام أو أجهزة الإعلام Moyens d'informations (4).

(1) محمد خير الدين، مذكرات (الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب، د.ت)، ج 1. ص 149.

(2) محمد البشير الإبراهيمي، عبون البعثات، مصدر سابق، ص 278.

(3) Dictionnaire Quillet de la langue Française (Paris, 1983) T. K,P lettre M, sans page.

(4) محمد فريد محمود عزت، قاموس المصطلحات الإعلامية الخليلي-عربي (حنة، دار الشروق، 1984م). ص 85.

وقال الدكتور "محمود فريد عزت" في ترجمة ثم شرح كلمة "Communications": وسائل الاتصال (الإعلام)، كلمة الاتصال في صيغة الجمع تشير إلى الوسائل أو مؤسسات الاتصال، أما كلمة اتصال "Communication" في صيغة المفرد وكصفة فتشير إلى (عملية) الاتصال التي يتم عن طريقها نقل معنى (1).

ويضيف في موضع آخر عن كلمة اتصال بصيغة الجمع "Communications" أنها:

- 1- وسائل الاتصال عموماً.
 - 2- معلومات مبنغة، رسالة شفوية أو خطية.
 - 3 تبادل الأفكار والآراء أو المعلومات عن طريق الكلام أو الكتابة أو الإشارة.
 - 4 - أخبار، تبليغ، إعلام، توصيل... (2).
- وأورد الدكتور "عبد العزيز شرف" التفرقة بين كلمتي Communication في صيغة المفرد والجمع بأن الأولى تعني عملية الاتصال والثانية تعني وسائل الاتصال (3).

تعريف الاتصال في اللغة العربية: جاء في "لسان العرب" في مادة و-ص-ل ما ينبي:

1 وصلت الشيء بالشيء: يصله وصلًا وصللة وصللة وصللة: ضد المجران، لأنه ضد فصله.

2- وصل: لأم في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ (4) بمعنى وصلنا ذكر الأنبياء.

3- اتصل الشيء بالشيء: لم ينقطع.

4 وصل الشيء بالشيء وصولًا وتوصل إليه: انتهى إليه وبلغه.

5 وصله إليه وأوصله: أنهاه إليه وأبلغه إياه (5).

(1) محمد فريد عزت، المرجع السابق، ص 86.

(2) المرجع نفسه، ص 85 بتصرف.

(3) عبد العزيز شرف، المدخل إلى وسائل الإعلام: راديو، تلفزة، سينما، (القاهرة، دار الكتاب المصري، بيروت، دار الكتاب اللبناني، 1989م)، ط2، ص 57-58. وكذا ص 61. تعريفات لغوية في المعنى نفسه.

(4) القصص، 51.

(5) ابن منظور، لسان العرب، إعداد وتصنيف يوسف الحياض (بيروت، دار لسان العرب، د.ت) 3، مادة وصل.

وقد رصد البحث أكثر من عشرين لفظة تحت هذه المادة (1) وتجتمع كلها في تعريف الاتصال بالتبليغ وعدم الانقطاع فيما يدخل في نشاط الانسان وعلاقته بني جنسه والتي لا تختلف عن التعريف اللغويين في القواميس الفرنسية.

تعريف وسائل الاتصال في الاصطلاح:

أشار الباحث الألماني "ميرتين" "MIRTEEN" سنة 1977م إلى أنه يوجد مائة وستون تعريفاً -على الأقل- لمفهوم وسائل الاتصال (2). ومع هذا فإن الأبحاث لم تتوقف. وتعود كثرة التعاريف إلى استقطاب مجال الاتصال لمختلف العلوم الإنسانية والتجريبية ثم استعمال كل عالم مجال اختصاصه وزاوية اهتمامه التي يصل بهما إلى نتائج تستجيب إلى مقياس ما استعمله من معطيات ومناهج ومقدمات.

فأقدم معاني الاتصال هي نقل الأفكار والمعلومات والاتجاهات من فرد إلى فرد. ويرى علماء السياسة المجتمعات على أنها نظم للاتصال. وأدرك علماء الاجتماع أنهم يستطيعون استخدام هذه الكلمة لتصف عملية التفاعل الانساني فقبل بأن الاتصال هو العمليات التي يؤثر عن طريقها الأفراد فيمن حولهم (3).

ويقول الباحث كارل هوفلاند "Hoffland": إن الاتصال هو العملية التي ينقل بمقتضاها الفرد القائم بالاتصال منبهات لكي يعدل سلوك الأفراد الآخرين (مستقبلي الرسالة) (4).

وتنص هذه التعريفات وغيرها على أن الاتصال عملية نقل للأفكار والآراء. عمدية يكون الغرض منها التعديل والتغيير أو التأثير في سلوك أو اتجاهات الآخرين وفق ما يهدف إليه صاحب الرسالة الاتصالية وما يريد تحقيقه من مصالح ثم ضمن ما يتوفر عليه من وسائل يسمح بها التطور التقني.

(1) ابن منظور، المرجع السابق، مادة و-ص-ل بتصرف. مع ملاحظة أن شرح كلمة اتصال وردت بالمعاني نفسها وبالترتيب نفسه الذي ورد في لسان العرب في كتاب: موسى بن محمد الملياني الأحمدي، معجم الأفعال المتعدية بحرف (بيروت، دار العلم للملايين، 1983م)، ط2، ص 433.

(2) جيهان أحمد رشدي، الأسس العلمية لنظريات الإعلام (القاهرة، دار الفكر العربي، 1977م)، ص 53 بتصرف.

(3) المرجع نفسه، ص 55.

(4) المرجع نفسه، ص 50.

وللإشارة فقد أكد السيد "سرجي لوسيف" - العضو في اللجنة الدولية لدراسة مشكلات الاتصال - عدم حيادية مصطلحات الإعلام والاتصال حتى من حيث استعمالها اللغوي والعادي ونبه إلى أن "الغزو الفكري" قد يكون من مفاهيم الاتصال باعتباره محالا للاتصال مضمونا وتوجيها وتقنيات وأشار إلى أن له من الآثار الخطيرة في الإضرار بالثقافات الوطنية للدول النامية وذلك بالتقليل من خطر الدور الذي تلعبه الثقافات الغربية في الإضرار بها (1).

وسوف نلاحظ اختلاف هدف وسائل الاتصال الفرنسي وأساليبه في التأثير على الجزائريين تحقيقا لمصالح الاستعمار والسلطة الفرنسيين، عن وسائل الاتصال عند جمعية العلماء التي تهدف من خلالها إلى تحقيق غايات ومصالح تخدم الأمة الجزائرية، وتواجه بها التأثير الاستعماري فيها.

الإطار الزمني للبحث :

مع أن عنوان البحث هو وسائل الاتصال عند جمعية العلماء. نسسمين الجزائريين فإن الموضوع لن يقتصر على دراسة هذه الوسائل بداية من ظهور جمعية العلماء في 1931م وإنما سيمتد إلى دراستها بداية من ظهور الجمعية كفكرة يتداولها العلماء وخاصة منهم الإمام عبد الحميد بن باديس والشيخ محمد البشير الابراهيمي، لأنها مرت بفترة تمهيدية استغللت أساسا للإعداد لها وكانت حاسمة في ظهورها، وقد بدأت الفترة التمهيدية بوسيلة التعنيم المسجدي وهو أول ما أتبع لنشيخ ابن باديس فتطوع لتعنيم في الجامع الأخضر بقسنطينة يصل النهار بالليل حتى استطاع أن يجمع حوله عددا غير قليل من الجزائريين من سكان عمالة قسنطينة أولا ثم شمل طلبة الوسط والغرب والجنوب الجزائري تدريجيا، وكان دور الرحنة والخطابة من جهتهما غاية في الأهمية المناطق التي تصل إليها. ولما كانت سنة 1925م انطلقت جريدة "المنتقد" بعد أن ضمنت لنفسها مضبعة خاصة بها وأعلنت عن مبادئها - وهي المبادئ نفسها التي كانت صحف

(1) شوماكرويد وآخرون، أصوات متعددة وعالم واحد، الاتصال اليوم وغدا - تقرير اللجنة الدولية لدراسة مشكلات الاتصال (الجزائر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، اليونسكو، 1981م)، ص 567-568 بتصرف.

الديني والاجتماعي والثقافي والسياسي، وآثار كل ذلك على حركة التطور العام لذي شهدته المجتمع الجزائري المسلم خلال فترة ما بين الحربين <(1)>. ويقول بأن تاريخ التطور الديني والاجتماعي في الجزائر في النصف الأول من القرن العشرين لا يمكن فصله بأي حال من الأحوال عن حركة الإصلاح فيها ومن ثمة فالإطلاع على تطور الجزائر المعاصرة يفرض أن تكون دراسة الإصلاح الإسلامي المهمة الأولى لكل باحث في هذا المجال

وقد تناول الدكتور أبو القاسم سعد الله "جمعية العلماء" ضمن كتابه القيم الحركة الوطنية في جزئه الثاني الخاص بفترة 1900-1930م وجزئه الثالث الخاص بفترة 1930-1945م من ناحية أنها حزب إصلاحي وسياسي كبقية الأحزاب التي تناولها والتي كان لها حضورها المميز والحاسم في الساحة السياسية والوطنية عموما في الجزائر، وقد تتبع تطور نشاطات الجمعية وتناول بعض شخصياتها بالدراسة وكذا حلل مواقفها التي ميزتها في هذه المرحلة.

وكان رئيس جمعية العلماء الأول، الإمام عبد الحميد بن باديس موضوعا لعدد من الأبحاث والدراسات، اهتم كل باحث أو كاتب بدراسة جانب من جوانب شخصيته - رحمه الله - وبصماته الصارمة التي طبع بها سيرورة الحركة الإصلاحية الإسلامية في الجزائر، ومواجهة المواقف الحاسمة التي كانت لها صلة مباشرة بالمصير الثقافي والسياسي للشعب الجزائري.

فقد درس "علي مراد" الإمام ابن باديس مفسرا للقرآن الكريم معتمدا، خاصة على "محنة الشهاب"، ودرسه "رابح توكي" من جانب فلسفته وجهوده في التربية والتعليم، ودرسه الأستاذ "حسن عبد الرحمن سلوادي" مفسرا أيضا وتوقف "محمد الميلي" عند جهوده المعتبرة في عروبة الجزائر تحت عنوان "عبد الحميد بن باديس وعروبة الجزائر".

ودرس "صالح عوض" جمعية العلماء المسلمين الجزائريين كطرف حاسم لمواجهة الصليبية في الجزائر.

(1) Ali Merad. Le Réformisme Musulman en Algérie, Op Cit. p 19.

(2) Ibid, p9.

وكانت جمعية العلماء عنوانا لدراسة في مختلف وجوه نشاطاتها ضمن تحديد دورها في الحركة الوطنية الجزائرية، ونذكر من ذلك دراسة " عبد الكريم برالصفصاف": "جمعية العلماء المسلمين الجزائريين ودورها في الحركة الوطنية" التي نشرت في 1981م، ودراسة " أحمد الخطيب" "جمعية العلماء المسلمين الجزائريين وأثرها الإصلاحي" التي نشرت في 1985م، ودراسة " مازن صلاح المظفاني": "جمعية العلماء المسلمين الجزائريين ودورها في الحركة الوطنية الجزائرية 1931-1939م" التي نشرت في 1988م وغيرها.

ويبدو أن الدراسات الأولى قد واجهت صعوبات عديدة في مجال قلة مصادر الدراسة الخاصة بالجمعية والمتمثلة في صحافتها وآثار علمائها وكذا مذكرات أعضائها، والتي عندما توقرت سهّلت مهمة الباحثين لاحقا، فقد اعتمد "علي مراد" متلا على بعض الكتابات الفرنسية معترفا بعدم نزاهتها ونظرتها الاستعمارية في الحكم على المواقف وتحميل الأحداث الوطنية الجزائرية. وجعله يعتمد أكثر على المقابلات الشخصية مع بعض عملاء الجمعية بالإضافة إلى صحافتها: "الشهاب" و"البصائر".

واعتمد "أبو القاسم سعد الله" من جهته على بعض الكتابات الفرنسية وكانت له معها وقفات حاسمة من حيث كشف تحيزها والتنبيه إلى خطورتها مع أنها كانت مادة ثرية ديج بها حركة الوطنية في مختلف أجزائها.

وقد بادرت وزارة الشؤون الدينية في الجزائر في بداية الثمانينات إلى طبع ونشر مصادر الجمعية المتمثلة في آثار الإمام عبد الحميد بن باديس التي بلغت الستة أجزاء. وقام عدد من تلاميذ الشيخ محمد البشير الإبراهيمي بنشر آثاره - رحمه الله - وتلتها مذكرات أعضاء جمعية العلماء كالأستاذ أحمد حماني، والشيخ محمد خير الدين، والشيخ محمد الصالح بن عتيق، بالإضافة إلى سجل مؤتمر جمعية العلماء.

خطة البحث :

أما خطة البحث فقد كانت على النحو التالي :
قسمت الموضوع إلى مقدمة ومدخل وثلاثة أبواب وعشرة فصول: خصصت الباب الأول للتحديث عن وسائل الاتصال في الجزائر من بداية الاحتلال الفرنسي حتى

قيام الحرب العالمية الثانية. وقسمته إلى ثلاثة فصول. تناولت في الفصل الأول وسائل الاتصال الفرنسي بالجزائريين وأساليبه وأهدافه وذلك كما يلي : الاتصال الفرنسي عن طريق النداءات والمناشير، وعن طريق الصحافة، والتعليم، مع تقسيم كل مبحث منها إلى عناوين فرعية أخرى توضّحها وتوصلها بعنوانها، ثم خصّصت المبحث الرابع لتناول الأدبيات الفرنسية وحكمها على الاحتلال الفرنسي حتى أجعل منها مقدمة لفصل الثاني. وتناولت في الفصل الثاني الوسائل الاتصالية للمقاومة الجزائرية من بداية الاحتلال وحتى بداية الحرب العالمية الثانية. خصّصت الحديث فيه عن وسائل المقاومة لشعبية التلقائية جعلتها مقاومة سياسية وأخرى مسلحة حتى سنة 1895م، وعرضت إلى أشكال المقاومة الصامتة المتمثلة في الهجرة، المقاضعة لمشاريع الاحتلال والانكفاء على الذات. لأتبعها بوسائل النضال السياسي الاتصالية ويتعلق الأمر بالتيار الإدماجي والاستقلالي، التي جعلت منها مبرراً منطقياً لظهور جمعية العلماء ومقدمة للفصل الثالث.

وتناولت في الفصل الثالث ظهور جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، وتحدثت فيه عن عوامل ظهور حركة الإصلاح الديني في الجزائر ثم تأسيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين وعرضت إلى تحليل بعض أهم مواد قانونها الأساسي لأتناول بعدها أهداف الجمعية وغاياتها.

الباب الثاني: وسائل الاتصال الشفوي عند جمعية العلماء المسلمين الجزائريين قسمته إلى خمسة فصول. جعلت الفصل الأول منها (الرابع) مدخلاً للباب وعنوانته بالمبررات الواقعية للاتصال الشفوي عند جمعية العلماء وعرضت فيه إلى :
- المعطيات المادية الجديدة للشعب الجزائري .

طبيعة منهج جمعية العلماء في التعامل مع الواقع الجزائري .
مبررات المنهج عند جمعية العلماء .

وتناولت بعدها كل وسيلة اتصالية على حدة، فكان الاتصال عن طريق التعميم المسجدي هو موضوع الفصل الخامس، وعرضت فيه إلى ملامح منهج التعليم المسجدي الذي اختارته جمعية العلماء في الفترة التمهيدية، ضرورته وأولوياته وجعلت من جماعة الرواد أهم نتائج التعليم المسجدي في هذه الفترة، ثم عرضت إلى أهداف التعليم المسجدي

بالنسبة للجماهير الجزائرية ثم بالنسبة لحركة الاصلاح الإسلامي في الجزائر. أما التعليم المسجدي في الفترة الرسمية وهو موضوع المبحث الثالث للفصل، فتناولت فيه:

- التعليم المسجدي والمعطيات الجديدة للجماهير الجزائرية.

الآفاق الاتصالية للتعليم المسجدي عند جمعية العلماء.

نماذج من دروس مجالس التذكير.

الاتصال عن طريق الرحلة هو موضوع الفصل السادس وتضمن مبحثين تناول أولهما رحلات جمعية العلماء داخل الجزائر، دوافعها ونتائجها، وذلك في الفترة التمهيدية ثم في الفترة الرسمية التي ميزتها رحلات رئيس الجمعية ورحلات وفود الجمعية لدعوة والإرشاد وكذا وفود الوعظ في شهر رمضان.

وتناول المبحث الثاني رحلات جمعية العلماء إلى الخارج ويتعلق الأمر رحلات رئيسها الثاني الشيخ محمد البشير الإبراهيمي، دوافعها ونتائجها.

وتناول الفصل السابع الاتصال عن طريق الخطابة. ومهدت للموضوع بتعريف الخطابة وأهميتها الاتصالية، وأهميتها عند جمعية العلماء وعرضت للخطابة عند الجمعية في فترتها التمهيدية ثم في فترتها الرسمية. ففي الفترة التمهيدية تناولت فيها إحياء فريضي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ومحاربة الأمية بتعبئة الجماهير لصالح التعليم وعرضت إلى مواضيع الدروس والخطب أثناء الرحلات والجولات التي كانت تقوم بها الجمعية هذه الأغراض.

أما الفترة الرسمية فتناولت فيها التقرير الرسمي في الوعظ والإرشاد الذي قدم أحد أعضاء الجمعية. وثبت بالتعليق على أهمية التقرير ثم عرضت لأهمية الخطابة عند جمعية العلماء على المستوى النظري والتعليمي والتنظيمي. وتناولت بعدها أنواع الخطابة عند جمعية العلماء فتحدثت عن الخطبة الدينية والاجتماعية، والخطبة الرسمية والخطبة السياسية وبيّنت مميزات الخطابة عند جمعية العلماء وأوردت نماذج من الخطب والقصائد ثم تحدثت عن خطباء الجمعية.

وتناول الفصل الثامن الاتصال عن طريق التعليم المكتبي، الذي مهدت له بانقصود بالتعليم المكتبي، ونقر في المبحث الأول منه التعليم المكتبي وأبعاده الحضارية ومعطيات

التاريخية تم التعليم المكتبي في الفترة التمهيدية التي سميتها بالمرحلة الباديسية، فمرحلة التمهيدية والاتساع 1930 - 1940م فمرحلة إصلاح وتنظيم التعليم العربي الحر في الجزائر تم فترة الركود 1940 - 1943م لثاني بعدها فترة 1944 - 1956م وهي فترة لنشاط أوسع وأشمل. وتناولت في المبحث الثاني أهداف التعليم المكتبي كوسيلة للاتصال وبيّنت فيها: أن التعليم المكتبي عند جمعية العلماء هو على التوالي: مدرسة لتعليم الإسلام الصحيح، برنامج لوحدة القومية للشعب الجزائري، مؤسسة لتكوين الرأي العام، ومدرسة عصرية بكل المقاييس.

والباب الثالث خصصته للاتصال المطبوع عند جمعية العلماء، تناول في الفصل الأول منه (التاسع) الاتصال عن طريق الصحافة وقسمت الحديث فيه إلى ستة مباحث:

الأول: الصحافة الإصلاحية قبل ظهور جمعية العلماء.

الثاني: مشاكل الصحافة الإصلاحية في فترة ما بعد الحرب العالمية الأولى.

الثالث: علماء الجمعية والصحافة.

الرابع: التعريف بصحف الجمعية وعرضت فيه إلى جريدة "المنتقد"، جريدة

"الشهاب" تم مجلة "الشهاب"، جريدة "السنة النبوية المحمدية"، "الشرعية المحمدية".

"الصراط السوي"، "البصائر" الأولى والثانية.

الخامس: خصائص صحافة جمعية العلماء وعرضت فيه إلى :

1- المطبعة ضمان لنحرية والاستقرار والبقاء.

2- صحافة الجمعية عناوين عديدة لمبادئ واحدة.

3- مبادئ صحافة جمعية العلماء.

السادس: أهم القضايا التي عالجتها صحافة جمعية العلماء وتناولت فيه بالتفصيل :

أ صحافة جمعية العلماء وتعدد العقيدة الإسلامية لدى الجزائريين.

1- محاربة الطرقية.

2- محاربة مختلف مظاهر الفساد.

3- محاربة الإلحاد.

4- محاربة التنصير.

ب- صحافة جمعية العلماء وقضية فصل الدين الاسلامي عن الحكومة الفرنسية وعرضت فيه إلى المقصود بفصل الدين الاسلامي عن الحكومة الفرنسية ومقتضياته عند جمعية العلماء ومكائد حكومة الاحتلال لتمسك بالدين الاسلامي :

1 بتسليم تنفيذ قرار الفصل إلى المجلس الجزائري.

2- باصطناع رجال من المسلمين الجزائريين لتطبيق مشاريعها في الفرقة وبث الخلاف.

تم تناول فصل القضاء الاسلامي والحج والصوم عن الحكومة الاستعمارية، وعرضت فيه إلى ادعاء الحكومة الفرنسية باحترام الاسلام والحفاظ عليه وادعاؤها الخصومة والاختلاف بين المسلمين الجزائريين في قضية فصل الدين عنها.

ج صحافة جمعية العلماء وقضايا الأمة العربية والإسلامية: عرضت فيه إلى ضرورة جمعية العلماء لتناول هذه القضايا في فترتها التمهيديّة تم في فترتها الرسمية وضرورت ذلك، وبدأت بقضايا دول المغرب العربي ثم المشرق العربي وخصصت الحديث عن صحافة جمعية العلماء وقضية فلسطين.

أما الفصل العاشر فتحدثت فيه عن الاتصال عن طريق التأليف ومهدت له بمدخل تاريخي لتطور الكتاب في الجزائر، تم للأهمية الإعلامية للكتاب وقسمته بعدها إلى :
المبحث الأول تناول المشكلات والصعوبات التي واجهت جمعية العلماء في ميدان التأليف وأساليبها لتجاوزها وتحدثت فيه عن :

أ- الصعوبات المادية

ب- صعوبات الواقع الجزائري

ج- ندرة المختصين في مجالات التأليف مقصودة لذاتها عند الجمعية.

د- قلة المادة العلمية باللغة العربية.

هـ- قلة الفراغ وكثرة مشاغل علماء الجمعية.

المبحث الثاني : تناولت الحديث فيه عن كتاب "مجالس التذكير" من حيث التعريف به ومضامينه ومصادره وكيفية استفادة المفسر منها. منهج ابن باديس في تفسيره

للمادة القرآنية، خصائص منهج ابن باديس في التفسير وآفاقه الاتصالية. وقدمت نموذجاً لتفسير ابن باديس لآيات من سورة الفرقان، وذكرت كتباً أخرى لابن باديس.

المبحث الثالث: تناولت فيه "رسالة الشرك ومظاهره" للأستاذ مبارك الميلي وعرفت بالكتاب وأهميته والحاجة إليه، مصادره ومضامينه ثم عرضت إلى تقرير جمعية العلماء "لرسالة الشرك ومظاهره".

المبحث الرابع: تناولت فيه كتاب "تاريخ الجزائر في القديم والحديث" للأستاذ مبارك الميلي وتحدثت فيه عن الحاجة إلى هذا الكتاب. ترتيب مواده، أهداف الميلي من كتابه، منهج الميلي في التعامل مع المادة التاريخية وخلصت إلى أن تاريخ الميلي هو عين مذهب جمعية العلماء في الوطنية والسياسة والقومية.

المبحث الخامس: تناولت فيه كتاب: "تقويم الأخلاق" للأستاذ محمد بن لعابد الجيلالي. وبعد تعريف معنى التقويم تحدث عن مضامينه وأهمية التقويم.

المبحث السادس: تناولت فيه "ديوان محمد العيد آل خليفة" وعرضت فيه إلى أهم القضايا الشعرية فيه، الاجتماعية والسياسية والدينية وأهمية الديوان للإصلاح الديني في الجزائر.

الخاتمة: وقد حوت نتائج البحث.

الملاحق: وقد أتبع البحث بمجموعة من الملحقات أتبعتها ترتيب الفصول والأبواب وتنوعت بين الوثائق والصور.

الباب الأول :

وسائل الاتصال في الجزائر من بداية الاحتلال الفرنسي حتى قيام الحرب العالمية الثانية

الفصل الأول : وسائل الاتصال الفرنسي بالجزائريين: أساليبه وأهدافه

الفصل الثاني : أساليب المقاومة الجزائرية ووسائل اتصالها بالجزائريين
حتى بداية الحرب العالمية الثانية.

الفصل الثالث : طهور جمعية العلماء المسلمين الجزائريين

الفصل الأول :

وسائل الاتصال الفرنسي بالجزائريين أساليبه وأهدافه

تمهيد

I- مرحلة التذات والمناشير.

أول نداء فرنسي للسكان الجزائريين.

تحليل النداء في ضوء المفهوم الحديث للاتصال.

II- مرحلة الصحافة.

أ- الصحافة العسكرية.

ب أهداف الصحافة العسكرية حتى 1947م.

ج - صحافة المعتبرين.

د- الصحافة العربية الرسمية.

هـ - الصحافة التحررية الفرنسية.

III- الاتصال الفرنسي عن طريق التعليم.

أهداف الاتصال الفرنسي عن طريق التعليم.

1- نهديم مؤسسة الوقف.

2 - سياسة تهديم المساجد ومؤسسات التعليم.

3- لسياسة الفرنسية إزاء المكتبات الجزائرية والتراث العلمي الجزائري.

IV- الأدب الاستعمارية وحكمها على الاستعمار الفرنسي.

باشرت قيادة الاحتلال الفرنسي - تم سلطته فيما بعد- في موازاة عمليات الغزو العسكري للجزائر، طرقا للاتصال بالشعب الجزائري، استخدمت لها وسائل تنوعت ثم تطورت مع الزمن وخدمت كل منها أهداف ومشاريع الاحتلال الفرنسي لفترة تاريخية معينة مستغلة فيها المعطيات العقلية الاجتماعية والسياسية للجزائريين، فترجمت كل وسيلة منها الوضعية الانتقالية العامة للوطن الجزائري الذي أخذ على حين غفلة ووقع في قبضة احتلال جديد -الاحتلال الفرنسي- قبل أن يسترجع أنفاسه وقوته من حرب عسكرية طويلة، ومواجهة حصارية صعبة مع النصارى الإسبان. فكانت هناك مرحلة للنداءات والمناشير والمعلقات الحائطية، ومرحلة للصحافة، وأخرى للتعليم. وقد استهدفت وسيلة الاتصال في كل مرحلة محاربة مقومات الشعب الجزائري مجتمعة أو متفرقة عن طريق خطة مدروسة بذكاء وحيلة، شملت الهدف المادي والمعنوي، المعلن وغير المعلن، وكانت كلها تصب في الهدف الشامل للاحتلال الفرنسي للجزائر، والمتمثل في الإبادة الحضارية المنظمة للجزائريين. ويمكننا تتبع خطوات تلك الخطة وفصولها فيما نعرضه فيما يلي.

I- مرحلة النداءات والمناشير:

أ- نداء فرنسا للسكان الجزائريين: يعتبر نداء (1) فرنسا إلى الجزائريين عشية الاحتلال أول اتصال للجيش الفرنسي بالجماهير الجزائرية، وكان على شكل منشور وقد

(1) سماه الدكتور أبو القاسم سعد الله >> بيان فرنسا على الجزائريين عشية الاحتلال سنة 1830م. أنظر كتابه: الحركة الوطنية. 1900-1930م. (الجزائر، الحركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1983م)، ط3، ج2، ص 413.

وسماه عبد الحميد روزو: >> أول نداء وزع على الجزائريين في شكل منشور <<. نصوص ووثائق في تاريخ الجزائر المعاصرة (1830-1900م)، (الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب، 1984م). ص 23.

وسماه أحمد توفيق المدني: >> المنشور الفرنسي الذي وزع بالجزائر قبيل الاحتلال، أنظر مذكرات الحاج أحمد الشريف الزهار نقيب أشرف الجزائر: تحقيق أحمد توفيق المدني (الجزائر، المؤسسة الوطنية للنشر والتوزيع، 1980م). ط2، ص 177.

تم توزيعه في 08 جوان 1830م(1). واستخدمته فرنسا كتمهيد لعملية الغزو والمشروع الاحتلال، بعدما تمّ لذلك التهيئة الكافية والإعداد المدروس والموقوت، فالحملة الفرنسية قد حلت بميناء سيدي فرج في 14 جوان 1830م(2).

كان البيان(*) ذو طبيعة مزدوجة تاريخية ودعائية، تاريخية باعتباره وثيقة تظننا على شكل المنشور، وهي نوع من وسائل الإعلام في ذلك الوقت، والطبيعة الدعائية التي تضمنت الخطوات المنهجية لعملية الغزو.

إن القراءة المتعمنة في نداء فرنسا الأول هذا، تبين أنه قد صيغ بطريقة غاية في الذكاء ولكنه ذكاء عارف درس نفسية الشعب الجزائري وأحاط بظروف حياته الخاصة والعامّة بما في ذلك لغته ودينه وتقاليده وعقليته.

كما يكشف تسلسل أفكاره المنطقي عن إعداده بما يضمن معه تحقيق المقصود بمحاولة الإعداد النفسي للجزائريين وتهيتهم لتوقع حدوث الجديد، ويرمي من وراء ذلك إلى غزو عقول الجزائريين قبل غزو الجزائر.

ويتلخص النداء في عدة نقاط هي كما يلي :

1- تحديد دافع الاستعداد الفرنسي لغزو الجزائر، وهو عملية إعلام بالغزو، وتمهيد لإبلاغ السكان بمخباته.

2- تحديد الهدف الرسمي من الحملة: وقد بادر النداء لتحديده مباشرة وبكل ذكاء وحيلة في الانتقام للشرف الفرنسي ورد الاعتبار لعرش فرنسا وملئها المهان حول قضية المروحة التي تعود إلى 29 أفريل 1827م، والتأكيد على أنه ليس انتقام أو حرب لنسكان الجزائريين البتة وعدّد التبريرات لذلك.

3- تقديم الضمانات والوعود: وشملت الحريات الشخصية والكرامة الانسانية وحفظ الأموال والممتلكات، واحترام المعتقدات الدينية بمؤسساتها وأوقافها دون أن يمسّها أي أذى أو أي تغيير.

(1)، (2) عبد الحميد زورر. نصوص وروائق في تاريخ الجزائر المعاصرة (1830-1900)، المرجع السابق، ص 14.

(*) انظر الملحق رقم 1.

4- التأكيد على عبارات الإغراء حيناً والتهديد لمرات عديدة.

ويبدو أن فرنسا قد اهتمت إلى توزيع هذا النداء تمهيدا لعملية الغزو بعدما أعدت لذلك طويلا وقدّرت أن القوة العسكرية وحدها لا تكفي إذا لم تدعمها قوة أخرى إعلامية ودعائية مساندة، تعمل عملها النفسي، وتمهد السبل للعمل المباشر، وقد برع النداء في استخدام الفكرة كسلاح للتأثير النفسي بالتوجه أولا إلى النخبة المثورة في المجتمع وهي جماعة القضاة والأشراف والعلماء وأكابر المشايخ، التي بيدها أمور البلاد. والتجاهل للحاكم أصلا. ثم نفي أن يكون الغزو ضد الشعب الجزائري وإنما هو فحسب ضد الداي حسين(*) شخصيا، والتعرض إلى تعداد "سلبياته" وتبشيع تصرفاته وإظهاره بمظهر الذميمة الأخلاق، المستبد بالحكم والمستأثر بثروات البلاد لإشباع أطماعه فقط... والمقصود من هذا كله إثارة الغضب العام وإيقاظ الأحقاد ضده، وخلق جو من الفوضى وعدم الثقة بين الشعب وحكامه. ومن ثم إظهار الحملة الفرنسية بمظهر المخلص الأمين في شخص ملك فرنسا وقائد حملته ومواتاة طلب المعونة المادية والمعنوية للجيش الفرنسي الشيء الذي يجلب معه الجزاء أو العقاب بالإبقاء على الأملاك والأنفس وغيره من عنده. وهو مقصود عبارات التهديد والإغراء الكثيرة.

وواضحة جدا الأغراض الدعائية التي يرمي إليها النداء والرموز - المفاتيح - المستعملة لخدمتها. وذلك بمحاولة إثبات أفكار معينة لدى السكان صيغت وكأنها حقائق ثابتة وأخبار صادقة، أو هي بالأحرى مسلمة لدى السكان أيضا، مثل شخصية الداي.. وبمحاولة إقرار الفهم الخاطئ لمفهوم القضاء والقدر لدى العوام وبعض الخواص من الناس، ويبدو هذا واضحا في عبارة النداء التهديدية الأخيرة : >> وأيقنوا يقينا مؤكدا أن كلام سلطاننا المنصور المحفوظ من الله تعالى غير ممكن تغييره لأنه مقدر، والمقدر لا يبد أن يكون>>.

وأفاد النداء كثيرا بتقديم الضمانات والوعود. وهي وإن لم تتعد حدود الألفاظ والعبارات فقد أورد النداء الكثير منها فنقرأ مثلا :

(*) الداي حسين: آخر الحكام العثمانيين في الجزائر امتدت فترة حكمه من (1818م إلى 1830م).

- ثم إنني أحقق لكم أنه ليس فينا من يريد بضركم لا في مالكم...

- ولا يتعرض لشيء من ذلك جميعه أحد من قومنا بل....

ومما أضمن لكم أنه...

- فأمنوا بصدق كلامي...

- ثم أننا نضمن لكم أيضا ونعدكم وعدا مؤكدا غير متغير ولا مناول...

وأنه لا يتعرض لكم أحد... الخ.

وتدل كل هذه الضمانات "اللفظية" فيما تدل عليه على مخاوف فرنسا من عدم

انطلاء حيلتها على الأهالي وبالتالي مقاومتهم لها، الشيء الذي تتجنبه بقوة خاصة عند

بداية عمليات الإنزال الأولى.. ومن ذلك أيضا أنها استخدمت عبارات الإغراء والخبث

"الزائفة" إمعانا في جلب ثقة السكان ومحاولة كسب ودهم، فنقرأ مثلا :

- يا أيها ساداتي القضاة والأشرف والعلماء وأكابر المشايخ...

- يا أعز أصدقائنا ومحبينا سكان الجزائر...

- فيا أيها أحبائنا سكان المغرب...

- يا أيها أهل السلام إن كلامنا هذا صادر عن الحب الكامل...

وأكد النداء من جهة أخرى على الخلفية الدينية للألفاظ والمعاني والتلاعب

بالأفكار خدمة للهدف المقصود وهو ما يعطينا فكرة عن الحياة العقلية والفكرية في المجتمع

الجزائري وكيف استغلها النداء كثمرة مناسبة لايقاع التأثير المناسب بالأسلوب المناسب

للسكان الجزائريين عصرئذ، ويدفعنا إلى وصفه بالعبارة والانحطاط والذروشة فنقرأ مثلا :

- أعلموا هداكم الله إلى الرشيد والصواب...

- فمن أعجب الأمور كيف يغبي عنكم أن باشتكم لا يقصد الخير إلا لذاته.

- فيا أيها أحبائنا سكان المغرب أنه عز وجل ما سمح بأن يصدر من باشتكم

الظالم ما فعله من أعمال الخبث والردى إلا إنعاما منه سبحانه وتعالى حتى تحصلوا بهلاكه

وبزوال سلطته على كل خير ويفرج عنكم ما أنتم فيه من الغم والشدة..

(*) يلاحظ على لغة "النداء" أنها مقتبسة من العامية الشرقية وقد استعملت ألفاظا وتعابير غريبة عن مستعمليها.

أوسط الجزائري، ولغة النداء عموما ركيك.

- استيقظوا لكي تتركوا باشتكم هذا وتبعوا شورنا الذي يؤول إلى خيركم...
- والمرجو من الله تعالى أن محادثتنا مع بعضنا بعض تؤول إلى ما فيه منافعكم
وصلاحكم...

- إن عساكرنا المنصورة تحيط بكم بأيسر مرام ودون تعب، وأن الله يسخطها
عليكم.

- فإنه تعالى كما يأمر من يجعل لهم النصر والظفر بالرحمة والمسامحة... فكذلك
يحكم بأشدّ العذاب على المفسدين في الأرض... الخ.

وكل هذه الأمثلة وغيرها مما ورد في النداء تخدم الغرض الخوري لهذه الخمسة
الفرنسية والذي به تتحقق سياسة التفكيك والفرقة بين مواقف السكان وتقويض عرى
التضامن فيما بينهم بمخاطبة كل فئة بأسلوب يستهويها ويستميلها إلى الاستجابة (فئة
النخية - فئة الطبقة الوسطى من أصحاب الأموال والتجار، فئة السكان البسطاء أو
العوام) مما يخدم فرنسا، ثم فيما بينهم وبين الحكام، حين أظالت الوقوف عند تعدد
"مساوي" الداي والتعجب من قبولهم إياه وصبرهم عليه على ذمامة أخلاقه واستبداده...
في حين أن الموقف كان يتطلب في تلك الظروف العصبية الاتحاد بقوة لمواجهة الأجنبي.

ولا نحتاج إلى تسمية النداء بالأكذوبة أو الخدعة أو وصفه بالخث والمكر في كل
عبارة أو في كل كلمة منه بداية من الهدف الحقيقي والرسمي للغزو، إلى شخصية الداي..
إلى قضية المروحة، وقد تناولت كثير من الكتب التاريخية(1) وغير التاريخية كل هذه
المواضيع بالتفصيل أو بالإجمال حسبما تقتضيه مواضيعها، لكننا نقف عند قضية المروحة
دون غيرها وهي تكفينا لفهم كل العناصر الأخرى.

(1) انظر: - حمدي حافظ، وعمود الشرفاري، الجزائر كفاح شعب ومستقبل أمة (الدار القومية للطباعة والنشر،
د.ت)، ص 11-13.

- أبو القاسم سعد الله، الحركة الوطنية، مرجع سابق، ج2، ص 15-16.
- أبو القاسم سعد الله: أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر مرجع سابق، ط2، ص 257-262.
- جوان غليسي، الجزائر النائرة، المرجع السابق، ص 14.
- عبد الحميد زورور، نصوص ووثائق في تاريخ الجزائر المعاصرة، مرجع سابق، ص 10-20.

ويتلخص موضوع ما عرف بمحادثة المروحة أن الدّاي حسين ضرب قنصل فرنسا بمروحة كان يذب بها الذهب وكان ذلك في سنة 1827م ولكن الذي حدث لم يكن إلا ذريعة وسيناريو فرنسي سمحت بتحقيقه ظروف مواتية في الزمان والمكان ومحريات أحداث متتالية وتعود بداية تخطيطه وإعداده إلى سنوات بعيدة ماضية.

في سنة 1808م أنيط الضابط "بوتان" "Boutin" بمهمة التخطيط لغزو الجزائر. وقد أعدّ تصميمًا لذلك (1). ودعمت فكرة احتلال الجزائر نتائج مؤتمر فيينا في سنة 1815م وإكس لاشييل 1817م حول ما أسمته الدول الأوروبية وقتئذ "بالقرصنة الجزائرية" والتي انتهت بحصار الثلاث سنوات للجزائر، ثم بالغزو الفرنسي لها في صيف 1830م وقد أكد السيد حمدان خوجة (*) هذه الخطوات في قوله : >> لم تكن الحملة الفرنسية على الجزائر آتية، ولم يكن الهدف منها تأديب الدّاي أو الثأر للكرامة... ولكنها فكرة اختصرت طويلا في أذهان ملوك وأباطرة فرنسا ابتداءً من هنري الرابع ومرورا بلويس الرابع عشر. ونابليون بونابارت (2).

ويذكر الدكتور سعيد الله أنه >> اكتشف في الوثائق الفرنسية مشروعاً غريباً قدم سنة 1729م إلى الملك الفرنسي عندئذ بهدف احتلال الجزائر، تم في سنة 1791م قدم مشروع آخر لنفس الغرض >> (3). وبعث نابليون برسالة إلى أميره البحري "ديكري" "Decret" سنة 1808م يأمره بإعداد مشروع لمهاجمة الجزائر لأهمية متواحلها، وطلب معلومات كاملة عنها قبل الشروع في الاحتلال (4).

(1) محمد بن عبد الكريم، حمدان خوجة الجزائري ومذكراته (بيروت، دار الثقافة، 1972م)، ص 58.

(*) حمدان بن عثمان خوجة: (1775-1840م) كاتب ومناضل وسياسي جزائري حرّي، ذو ثقافة فقهية وقانونية ولغوية واسعة، كان يجسّن العربية والتركية ويسم بالفرنسية، سافر إلى فرنسا عدة مرات لينافع بقوّة عن حقوق الجزائر والشعب الجزائري، ألف كتاب "المرأة" الذي ضمّه جرائم فرنسا في عام الاحتلال 1830م نقلت سلطة الاحتلال إلى إسطنبول أين توفى سنة 1840م.

(2) محمد العربي الزبيري، أحمد باي وحمدان خوجة وبوضربة (الجزائر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1973م)، ص 129.

(3) أبو القاسم سعيد الله، أمّات في تاريخ الجزائر، مرجع سابق، ج1، ص 255.

(4) المرجع نفسه، ص 256 بتصرف.

وجاء في ردّ الملك شارل العاشر على استفسارات بريطانيا حول مصير الجزائر إذا نجحت الحملة « بأن احتلال الجزائر في حدّ ذاته يجب أن يباركه كل المسيحيين وكل العالم المتحضر »(1). ووعد بالتشاور مع حلفائه بعد الاحتلال. ومن جهة أخرى، فإن مشروع الاحتلال لم يكن أمراً خفياً وسرياً تتداوله مصاح الحكومات وإدارتها الرسمية فحسب وإنما ظهر في كتابات انتشرت وذاعت وتناولها القراء فيما بينهم، فقد اقترح الدوق دوروفيكو "Duc Doroviguo" في كتاب له نشر عام 1828م - أي قبل عملية الغزو بعامين - مبدأ زيادة السكان الجزائريين وإبعادهم إلى الصحاري بعد تجريدهم من أراضيهم كحلّ للتصرف مع أهالي الجزائر(2).

وقد أكدت وقائع اليوم الأول للغزو الفرنسي للجزائر، وعشية توقيع صك التسليم، أو ما عرف "بمعاهدة القصبة" وكذا بمعاهدة الجزائر" في تاريخ 5 جويلية 1830م، نية الاحتلال الدائم وفقدت كل الوعود والضمانات التي وردت في نداءات فرنسا الأولى للجزائريين والتي أقسمت على كل ما ورد فيها بشرف فرنسا، وتقف عدة دلائل واقعية أخرى - دامغة - لتثبيت نية الاحتلال وخلفياته.

إن أسطول الحملة الفرنسية الرهيب الذي زرع الخوف والهلوع في قلوب الجزائريين لكثرة سفنه، كان يضم حسب تقدير الألماني سيمون بفايفر Simon Pvaivar: 200 سفينة حربية و500 سفينة تجارية وكان ينحمل على ظهره أربعين ألف (40000) جندي(3) فهل يعقل أن يكون تأديب "الدّاي" يمثل هذا الأسطول الضخم وهذا الجيش الجرّار الذي قال عنه السياسي النمساوي كليمانت ميترنيخ "Climant Mithernikh": « ليس من أجل

(1) أبو القاسم سعد الله، أبحاث في تاريخ الجزائر، مرجع سابق، ج1، ص 260

(2) محمد العربي الزبيري، المرجع السابق، ص 131 و 155.

(*) وصف شاعر جزائري شعبي كثرة عدد المراكب في قصيدة طويلة عنوانها "دخول الفرنسيين للجزائر حياء في

مطلعها: الفرنسيين حرك لها وخذاها لاهي ميات مركب لاهي بيتين

غاب لحساب وادرق وتلف حسابها الروم حار للبهجة مستدين

انظر: محمد قناس: مرجع سابق، ص 16-19.

(3) سيمون بفايفر، مذكرات أو نغمة تاريخية عن الجزائر- تقديم وتعريب أبو العيد دودو (الجزائر- المؤسسة الوطنية

للنشر والتوزيع، 1974م)، ص 63.

ضربة كاشاشة تقدم فرنسا على إنفاق مائة مليون فرنك، وإرسال حملة من أربعين ألف مقاتل» (1). ثم إن جنود الحملة، كان معظمهم من مجرمي فرنسا وسجنائها وأحكام عليهم بالإعدام والخارجين عن القانون والبطالين... فهل يعقل أيضا أن يجمع مثل هؤلاء لرد الاعتبار والانتقام لشرف فرنسا المهترء... ومع ذلك فقد وجد مؤرخو فرنسا ومن هذا حذوهم فيمن مسحون عار الفضائع وانتهاك الحرمات والمنكرات الشنعاء التي أضحت قانون مدينة الجزائر حين استباحها جنود الحملة دون رقابة أحد وبعيداً عن أعين العالم. فقد نسبها بفايفر إلى «أولئك الأوباش الذين رافقوا الحملة لمجرد السب والنهب» (2). وكذلك فعل مقررو ما عرف " باللجنة الإفريقية" التي كونتها حكومة باريس للبحث والتحقيق في جرائم أعوام الاحتلال الأولى.

وقد ردّ الجنرال كلوزيل " Clauzel " على المناضل الجزائري حمدان خوجة لما طالبه باحترام مواد اتفاق الاستسلام قائلاً: «> إن فرنسا غير ملزمة باحترام هذا الاتفاق لأنه لم يكن في نظرها سوى لعبة حرب» (3). أو خدعة حرب ...

ب- تحليل النداء على ضوء المفهوم الحديث للاتصال:

يعتبر النداء الفرنسي الأول إلى سكان الجزائر مثالا سيبئاً لنموذج واقعي لعممية الاتصال التي انبثقت عن فكر مرحلة ما بعد الحروب الصليبية، وإن كانت الغاية منه تمهيد لحرب منها ضد الجزائر المسلمة. وقد اجتمعت فيه كل عناصر العملية الاتصالية بمفاهيم عدة منها الحرب النفسية، واتصال الغالب بالمغلوب الذي يقصد منه إحداث التغيير. والتأثير في اتجاهات وسلوكات المتصل به (المستقبل) باستغلال كل الوسائل والأساليب. -بما في ذلك الحيلة والخدعة - خدمة لغرض صاحب الرسالة الاتصالية، ونلمس بوضوح بعد تحليل أفكار النداء ولغته وأسلوبه، أن الشعب الجزائري كله، بما في ذلك النخبة أي جماعة العلماء والقضاة والأشراف والمشايخ، ما هم بالنسبة لجيش الحملة أو بالضبط بعد

(1) نور سلمان، الأدب الجزائري في رحاب الرفض والتحرير (لبنان، دار العلم للملايين، 1981م). ص 25.

(2) سيمون بفايفر، المرجع السابق، ص 67.

(3) Revue Africaine, vol n° 1862, (Algérie, OPU), p 153-156

انظر أيضا : عبد الحميد زوزو. نصوص وروائع. مرجع سابق، ص 19.

النداء على لسان حكومة شارل العاشر إلا "جماهير" بالمفهوم الاتصالي للمصطلح الذي يعني أول ما يعنيه الحشد، الفوغاء(1). الهمج والسّدج. وقد أثبتت لغة النداء الركيكة، والتلاعب بالألفاظ، وتقديم الضمانات والوعود الكاذبة، وأسلوب الإغراء والتهديد، والتدجيل باسم الدين بالتركيز على فكرة القدر، كيفية نظر فرنسا إلى أهالي الجزائر، وتعديدهم في نمط من المجتمع القديم الذي تتمثل ملامحه بالحكم المطلق، وعدم الوحدة الاجتماعية، وضمور الفكرة القومية والشعور الوطني وخلوه من الأفكار التنويرية. وقد سمحت لها بهذا التأكيد مرحلة الدراسة الطويلة (منذ 1724م) التي سبقت عملية الغزو المباشر، وتحرير النداء، وهي مرحلة هامة وخطيرة قبل إجراء الخطوات التالية لها وتدخل ضمن سلسلة من مراحل هذا الغرض ومنها:

- 1- مرحلة الدراسة النفسية والاجتماعية للمجتمع الجزائري، وتطلب ذلك دراسته من الناحية الدينية والسياسية والاقتصادية ومن ناحية العادات والتقاليد والنهجات، وعناصر السكان وطرق معيشتهم، والناحية الجغرافية، والهدف من هذا كله تصيّد مافذ المهجوم المعنوي والنفسي وتحديد مكان النزول وتعيّن الفرصة المناسبة للعملية.
- 2- مرحلة العمل لتحديد الرأي العام الأوروبي والمسيحي والفرنسي والعربي الاسلامي :

- أ- بتقديم مبررات الغزو، ومنها تحرير الأسرى المسيحيين وإنهاء الرق في الجزائر ووضع حد للقراصنة الجزائرية، واسترجاع الامتيازات و"الممتلكات" الفرنسية في الجزائر ولم تعدم فرنسا وسيلة في استغلال العواطف الدينية للأوروبيين طلبا لتأييد الكنيسة المسيحية.
- ب- دعوى ردّ الاعتبار والانتقام للشرف الفرنسي المهان ولذا قال شارل العاشر «لاحتلال الجزائر لم آخذ بالاعتبار سوى كرامة فرنسا ولكن للحفاظ عليها فإنني لم استشر سوى مصلحتها»(2).

(1) جيهان أحمد رشقي، المرجع السابق، ص 58 بتصرف.

(2) نور سلمان، المرجع السابق، ص 25.

ج- أما بالنسبة للرأي العام الإسلامي فبشفله بالحروب، فقد شاركت فرنسا وأيدت اليونان ضد الدولة العثمانية في الحرب التي تمّ فيها تهديم الأسطول العثماني والمصري والجزائري وكان ذلك في حرب المورة سنة 1827م في موقعة نافارين(1).

3- مرحلة وضع التصاميم الميدانية والمحططات والإعداد الفعلي لمشروع الغزو. وقد أعدت فرنسا لهذا الغرض مكاتب وإدارات، وجيش من الخبراء والعسكريين والمستشرقين والباحثين والمخبرين(2).

4- مرحلة نشر المخبرين والجواسيس والعملاء من الفرنسيين وغيرهم حول الجزائر وفي داخلها لجمع الأخبار أيا كانت أهميتها ومجالاتها، والتمهيد النفسي للجزائريين بنشر الإشاعات وبث الفوضى وإذاعة المنشورات السرية قصد خلق حو من عدم الاستقرار والهلع، وتدخل في هذا الصدد مثلا المؤامرة التي جرت أحداثها ليلة الاحتفال بعيد الأضحى(3) والتي تمّ فيها قتل مصطفى خوجة بتهمة التآمر على قتل الداي حسين، وقد كان قبل عملية الغزو بأربعة عشر يوما فقط، كان القصد منها إضعاف معنويات الأهالي. وتكمن أهمية هذه الخطوة -المؤامرة- في استغلالها لتحرير النداء، عند التركيز على أخلاق الداي وفساده... بقرب حدوثها ونضج وقائعها في عقول الجزائريين وتقديمتها كمثال حي يفني عن أي جدال أو شك.

5- مرحلة تحرير النداء بلغة الجزائريين(4) -العربية- على ضعف أسلوبها وعمامة ألفاظها وركاكة تعابيرها، ثم ضمان توزيعه بكميات وفيرة(5) داخل الجزائر مع ضمان

(1) انظر حمدي حافظ، محمود الشرفاري، المرجع السابق، ص 12.

(2) راجع موضوع إعداد البيان وتجهيز الحملة في: أبو القاسم سعد الله، أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، مرجع سابق، ج 1، ص 276.

(3) راجع تفاصيل المؤامرة في: أحمد توفيق المدني، مذكرات الحاج أحمد الشريف الزهار... مرجع سابق، ص 196.

(4) وقد حرّره العقيد تونير "Tuner" الذي كان يعرف العربية وصاغه باللهجة العامية الجزائرية المستشرق دي ساسي Dusaci وكان ذلك في نهاية شهر ماي 1830م.

(5) يقول سعد الله بأن المحابرات الفرنسية قد وزعت البيان في كل من تونس والمغرب وتعمل ليبيا أيضا. وكان هدف الحكومة الفرنسية من ذلك ضمان حياض كل هذه الدول حين تبدأ الحملة، انظر: أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، مرجع سابق، ج 1، ص 227.

وصوله إلى السكان في كل أنحاءها، عن طريق المخابرات الفرنسية وعمالها الذين وكلت إليهم هذه المهمة خصيصاً.

6 مرحلة وصول الحملة، وضرورة تعضيد النداء الأول ببيانات ومناشير أخرى. وقد أعقبت فرنسا فعلاً نداءها الأول بندايات وإعلانات ومناشير متتالية، ذكرتها عدة

كتب (1)، ومنها :

أ- نداء موجه إلى الكراغلة، مؤرخ بـ 18 جوان 1830 م (*)

ب- رواية مستشرق أوروبي في الجزائر في 4 جوان 1817م (**)

ج- نداء من الجنرال كلوزيل Clauzel إلى السكان سنة 1830م.

د إعلان إلى السكان عن عزل باي التيطري سنة 1830م.

هـ إعلان إلى السكان الهاربين بالعودة لسنة 1830م.

و- نداء من رجال الدين إلى السكان سنة 1830م.

وتعتبر هذه الأشكال الاتصالية كلها تعضيداً للنداء الأول وتأييداً لما جاء فيها. وقد عذمت كلها أهداف المرحلة التي قصدت عزل الشعب الجزائري عن حكمه وزرع جو عدم الثقة المتبادلة، ونشر الفوضى حتى تسهل عملية تقبل السكان لأفكار النداءات والمناشير وتثق بها، وقد ميّز هذه النداءات الطابع الدعائي والنفسي بالدرجة الأولى، وصاحبت وقائع السلب والنهب والظلم، وانتشار أخبار الإرهاب والتهديد بالخطر (2) والتي استغلها الاحتلال الفرنسي في اغتصابه للممتلكات الجزائرية عن طريق الوستاء اليهود، ويبدو أنها كتبت باللهجة العامية العربية بالأسلوب السذي كتب به النداء الأول نفسه.

II. مرحلة الصحافة : وإذا كانت النداءات الأولى قد طبعت في فرنسا (3) وقد

يكون ذلك في طولون "Toulon" أو في مرسيليا "Marseille" أو في باريز حسبما يفهم من

(1) انظر عبد الحميد زور، نصوص ووثائق من تاريخ الثورة الجزائرية، مرجع سابق، ص 23-59.

(*)، (**). يبدو من تاريخ هذا النداء وكذا تاريخ الرواية، أنهما قد حرّرا قبل وقائع الغزو، وأنهما قد وزعا مع النداء الأول وذلك خدمة للأغراض نفسها وتأكيداً.

(2) محمد العربي الربيعي، المرجع السابق، ص 151.

(3) طبع النداء الأول المرحلة إلى الجزائريين في مطبعة أنجلمان "Injelman" بفرنسا.

رسالة القائد العام للحملة إلى الأمير بولينباك "Polliniqua" حول صدور جريدة "بريد الجزائر"، كما سنرى، فإن بقية النداءات قد طبعتها مطبعة "أفريقيا" التي حملتها سفينة حربية من سفن الحملة الفرنسية، ووضعت على أرض "سيدي فرج" بالجزائر. أين ولدت الصحافة الجزائرية، وشهدت أرض شمال أفريقيا اكتشاف غوتنبرغ Gutenberg العظيم - المطبعة - وأين كانت أول تجربة صحافية في المغرب العربي في 25 جوان 1830م.

وقد حرصت فرنسا عندما أعدت العدة لغزو الجزائر أن يكون ذلك شاملا. فم يفتها أن تضم إلى حملتها بالإضافة إلى خبراء الحرب والعسكريين، رجال الإعلام والفكر والثقافة والمستشرقين لاستخدامهم في ميادين اختصاصهم. ودشن جنود الحملة أخذت غير العادي والتاريخي الذي تمثل في طبع أول جريدة في أرض البدو، وأطلقوا عليها اسم "صحافة أفريقيا" وقد وزع عليهم أول نموذج لها كان في شكل "نشرة" سميت "بنشرة الجيش الفرنسي" (1)، وتضمنت أخبار الحملة منذ إقلاعها حتى وصولها وأخبار أوق انتصاراتها على الجزائريين. وتوالت بعدها عدة نماذج كانت كما يلي:

1- الجرائد العسكرية الرسمية :

أ- جريدة بريد الجزائر : تذهب الدكتور عواطف عبد الرحمن وكذا الأستاذ الزبير سيف الإسلام إلى أن عنوان أول صحيفة في الجزائر كانت تحمل اسم "بريد الجزائر" ولكنهما لم يتفقا على تاريخ صدور عددها الأول. والحقيقة أن "بريد الجزائر" (2)، هذه قد دشنت في حفل أقامه الفرنسيون جنود الحملة - في 26 جوان 1830م ووزعت على شكل نشرة - كنموذج لها - على أفراد الحملة ثم صدرت بعدها في شكل جريدة ظهر العدد الأول منها في 01 جويلية 1830م، والعدد الثاني والأخير في 05 جويلية 1830م. وكان هذه الجريدة عنوانا فرعيا يقول: جريدة تاريخية وسياسية وعسكرية. وكان محرروها كههم عسكريون من جيش الحملة. وقد افتخر قائد الحملة بصدورها أولا لأنها تصدر في أفريقيا

(1) Revue Africaine, VOL n° 1, Année (1856-1857), OpCit, p215.

(2) وردت في عدة كتب مترجمة إلى اللغة الفرنسية على التوالي بـ : "Le courrier d'Algérie", Estafette d'Algérie وبالعربية : "ساعي الجزائر"، "بريد الجزائر" ويبدو أن الترجمة المناسبة هي "البريد الحربي" لأن مسون لعدد "Estafette" يذهب دائما إلى هذا المعنى، راجع نور سلمان: المرجع السابق، ص 72.

وثانيا لأنها ستزسل إلى القراء من ميدان القتال الذي .. سيكسب به أبطال فرنسا أجمل مملكة في مستعمراتها ، حسب تعليق المشرف عليها في طولون Toulon بفرنسا السيد بالو "Ballot"(1).

وتشتمل جريدة "بريد الجزائر" على :

1- جزء رسمي يحتوي على نشرات وتعليمات اليوم وتفاصيل المعارك.

2- تصوير وثائقي للمناطق التي يتم غزوها واحتلالها.

3- معلومات دقيقة خاصة بالمنافع الزراعية والتجارية للمنطقة.

4- معلومات دقيقة عن عادات وطبائع وتقاليد الشعب الجزائري.

5- منوعات مفصلة عن يوميات الجنود وطرائف الحياة العسكرية(2).

ب- النشرات والمعلقات الخائضية العامة (3): انتهت جريدة "بريد الجزائر" بعد

صدور العدد الثاني وحلت محلها النشرات المختلفة والمعلقات الخائضية التي اتخذت من جدران بعض المؤسسات الرسمية والساحات العمومية مكانا للنشر. وقد تضمن بعضها بيانات عسكرية وتعيينات رسمية وأوامر القيادة العامة لجيش الاحتلال، وكانت هذه تقوم مقام الجريدة الرسمية ويحتوي بعضها أخبارا عامة تهم انشغالات المعمرين بما يقضي مصالحهم اليومية الإدارية كأخبار حالة السوق، وحركة الموانئ، وأوقات الأسفار ورسوم البواخر، وكانت هذه الأخبار تهم خاصة الأفواج الأولى المتدفقة منهم. كما كان يحتوي بعضها الآخر على بعض الانطباعات أو الملاحظات العابرة لبعض المتفقيين من الجنود. وقد تأسفت المجلة الأفريقية عن ضياعها نظرا لعدم جمعها لأنها كما يفهم من تعيقها لم تكن تنشر بانتظام، أو نشرت فيما أستمت بأوراق عرضية، آنية الشيء الذي صعب معه العودة إليها عند الحاجة لضياح مصادرها(4)، ويبدو أن هذا النوع من الاتصال قد استمر حتى سنة 1832م صدور جريدة "الممرن الجزائري".

(1) الزبير سيف الإسلام، تاريخ الصحافة في الجزائر، (الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب، 1985م)، ج 1، ص 10.

(2) المرجع نفسه، ص 18-19. بتصرف.

(3) عواطف عبد الرحمن، الصحافة العربية في الجزائر، دراسة تحليلية لصحافة الثورة الجزائرية 1954-1962، (الجزائر،

المؤسسة الوطنية للكتاب 1985م)، ص 26 بتصرف.

ج- جريدة الممرن الجزائري(1): صدر العدد الأول منها في 27 جانفي 1832م في ورقتين تظهر مرة في كل أسبوع، وقد تخصصت في نشر قرارات القيادة العامة الخاصة بمنطقة الجزائر، بينما استمرت النشرات اخلية في عنابة ووهران، حين امتد الاحتلال إليهما، وقد استمرت جريدة "الممرن الجزائري" أكثر من خمسين سنة في الصدور(2). وخدمت أهداف الاحتلال وسأيرت مراحلها المختلفة طيلة فترة صدورها.

د- النشرة الرسمية لعقود الحكومة(3): قررت الولاية العامة للاحتلال إصدار هذه النشرة في 20 أكتوبر 1834م. وهي جريدة باللغة الفرنسية. وكان الهدف من تأسيسها هو تحديد وضبط الطريقة التي تنشر بها القرارات التي كانت تصدر من الوالي العام أو من مختلف مصالح سلطة الاحتلال الأخرى التي كانت تنسق إدارة البلاد وتحدد الوقت الذي تصبح فيه هذه القرارات إجبارية. وقد استمرت جريدة "الممرن الجزائري" في أداء هذه المهمة أيضا. وكانت هذه النشرة تحمل تاريخ استلامها من طرف مكتب الوكيل المدني في آخر الصفحة بدلا من تاريخ اليوم والسنة في رأس الصفحة كما هو المعمول به في الجرائد الأخرى، وغير اسم النشرة إلى "النشرة الرسمية للجزائر والمستعمرات" بداية من 24 جوان 1858م في عهد الامبراطورية الثانية (1852-1870م) الذي اعتبرت فيه الجزائر- مستعمرة فرنسية، وألحقت شؤونها بوزارة مستقلة سميت "وزارة الجزائر والمستعمرات". تم غير اسمها ثالثة إلى "النشرة الرسمية للحكومة العامة" في 01 جانفي 1861م، واستمرت تحمل هذا الاسم إلى غاية 1927م لتحل محلها "الجريدة الرسمية الجزائرية" حتى سنة 1962م(4).

إن هذه الأشكال والنماذج الاتصالية التي أطلقت عليها الصحافة العسكرية الرسمية» قد خدمت بأمانة وقوة المرحلة الأولى من الاحتلال التي تميزت بطبيعتها العسكرية البحتة ولكنها لم تبت نهائيا في قضية الاحتلال الكامل والنهائي للجزائر الذي

(1) تسمى أيضا: جريدة المرشد الجزائري، والعريف الجزائري، وبالفرنسية: "Le moniteur Algerien". أكثر: نور سلمان، المرجع السابق، ص 72.

(2) الزبير سيف الإسلام، المرجع السابق، ج 1، ص 25.

(3) المرجع نفسه، ص 27 بتصرف

(4) المرجع نفسه، ص 27 28 بتصرف.

كان محل جدال عنيف في البرلمان الفرنسي. وقد سايرت الصحافة العسكرية تحولاته المتتالية والعصية(*) فيما يخص مستقبل الجزائر وبالتالي بما يرتبط بها من سياسة ونوع الحكم فيها الذي رجح فيه رأي العسكريين وبالاحتلال الدائم. وقد هدفت صحافة هذه الفترة إلى:

1- خدمة فكرة الاحتلال الكامل والنهائي للجزائر: فقد تواصل الجدل حوله

حتى سنة 1840م خاصة حين لقيت القوات الفرنسية الهزيمة وألحقت بها الخسائر الهائلة عسى يد الجزائريين تحت قيادة الأمير عبد القادر. وطرحتم وقتها فكرة الانسحاب من الجزائر نهائياً، لكن رئيس وزراء فرنسا أعلن - تحت ضغط العسكريين - تصميم فرنسا عسى الاحتفاظ بالجزائر وكان دور المعتزتين في هذا القرار كبيراً. وقد فكر قائد الحملة الجنرال دوبرمون Debourmont منذ الشهور الأولى للغزو في ضرورة توسيع الاحتلال بعد أن استحوذ على الجزائر العاصمة، لأن ذلك وحده لم يكن يكفي لإخضاع البلاد الجزائرية كلها، ثم طرحتم المعارضة الفرنسية في ثورة جوينية 1830م فكرة مصير مستقبل مناطق المحتلة والانسحاب نظر للخسائر الفرنسية الكبيرة فيها. واستطاعت الثورة الفرنسية أن تزيج الملك شارل العاشر وتأتي بلويس فيليب "Luis Philippe" لكنها لم تفلح بالفوز برأي الانسحاب ونزلت الحكومة عند رأي العسكريين وعينت الجنرال "كلوزيل" "Clauzel" (**). في سبتمبر 1830م، الذي كان من أنصار الاحتلال والتوغل إلى الداخل - بدل دوبرمون - ثم عين الدوق دوروفيكو (***) في 26 سبتمبر 1931م صاحب فكرة زيادة الجزائريين، انتصاراً لرأي الاحتلال الكامل والدائم للجزائر.

وتذرعت المعارضة الفرنسية من جديد بضرورة توفير الأموال الفرنسية والجهود التي تبذل في الجزائر واستغلال الخسائر الفادحة فيها لمشاريع تستفيد منها فرنسا ولشعب

(*) فقد تعاقب على حكم الجزائر في هذه الفترة القصيرة تسع حكام بين قائد عام وحاكم عام، وأربعة حكام بالنيابة مما يدل على شدة الاختلاف والتباين في الآراء الرسمية الفرنسية حول مستقبل الحكم الاستعماري في الجزائر (**). الجنرال كلوزيل Clauze! من أكبر منجمي الاحتلال الكامل. وكان يمثل عصر الامبراطورية.

(***) الدوق دوروفيكو Le Duc Doroviguo من رجال البوليس في عهد نابليون، كان يمتاز بالطغيان وعدم احترام التشكيلات تميزت سياسته في الجزائر بالتفريق أولاً ثم إلهاء الشعب بالفضائل قبل استغلاله.

الفرنسي، وطالبت بوقف العمليات العسكرية، مما اضطر الحكومة إلى تكوين لجنة لتحقيق وللتأكد من هذه المعطيات، وتم إرسالها إلى الجزائر وعرفت "باللجنة الافريقية" (1). لكن هذه اللجنة اقترحت في الأخير أهمية الاحتفاظ بالجزائر واعتبارها كسبا قوميا عسى أن يكتفي بالمناطق الساحلية فقط والتي هي محتلة فعلا ونصحت بعدم التوغل إلى الداخل الذي يعني بالنسبة لفرنسا المزيد من الخسائر والتكاليف، ومعنى هذا أن اللجنة قد دعت إلى سياسة الاحتلال المحدود الذي صدر بموجبه قرار في نوفمبر 1833م. لكن الواقع قد أخذ وجهة معاكسة تماما حيث صدر قرار آخر في 22 جوان 1934م يقضي باعتبار ما استولى عليه الفرنسيون من بلاد الجزائر أرضا فرنسية. وعين لذلك الجنرال "دروي ديرلون" "Drouet Derlon" الذي كان من أنصار التوغل إلى داخل الجزائر واحتلالها التام. وتؤكد لنا هذه القرارات وغيرها فيما بعد - التي كانت تتابعها صحافة هذه المرحلة بالتعليق والتأييد والتشجيع - تبييت نية الاحتلال واختمار فكرتها في عقول سياسة فرنسا وجرالاتها وتكذب بشدة مزاعم اتفاقية الجزائر في 5 جويلية 1830م وعودها وكذب مضامين كل النداءات والبيانات الأولى.

2- تشجيع الهجرة الأوروبية إلى الجزائر وفكرة خلق شعب جديد فيها:

1- عن طريق تبني فكرة الإبادة المنظمة: لقد دأبت قوات الاحتلال إلى تحقيق اقتراح "الدوق دورفيكو" الذي ضمنه كتابه منذ 1928م، والقاضي بإبادة الشعب الجزائري وتهجيرهم إلى الخارج أو نفيه إلى المناطق الداخلية والصحراوية. وسطرت فرنسا في ذلك صفحة سوداء في تاريخها. فقد قرّر الجنرال "بيجو" "Bugcaoud" القنصل العام لقوات الاحتلال، أن يبني الجزائريين. وبدأت حملات الإبادة المنظمة فعلا في عهده في

(1) اللجنة الافريقية تقرر تكوينها في 12 ديسمبر 1832 م على إثر الخسائر التي منيت بها قوات الاحتلال عسى بد المقاومة الجزائرية من جهة ومن جهة أخرى بعد موجة الاحتجاجات عن طريق الرسائل والعرائض والشكاوى التي كانت تستنكر وحشية الاحتلال الفرنسي في الجزائر. وتكون هذه اللجنة من: اللجنة المخصوصية التي تتألف من مائة أعضاء وأغلبهم عسكريون، كلفت بزيارة المدن الجزائرية، ومن اللجنة الافريقية التي تتألف من شخصيات عسكرية ومدنية كلفت ببحث الشكاوى والتقارير وإجراء المعاينات. وقد امتدت مهمتها حتى 19 نوفمبر 1833م.

عهد "دي بورمون"، ثم جاء عهد "دورفيكو" الذي أمر بإبادة قبيلة "العوفية" (*) ليلا في أبريل 1833 م، وتلتها حملات إبادة أخرى ذكرتها بعض الكتب التاريخية (100).
أفريقيا، المتمثلة في خلق شعب جديد في الجزائر (1) والتي لا تتم بضبيعة الحال إلا بإبادة الشعب الأصلي فيها واستعباد ما يتبقى منه، ثم بفتح أبواب المهجرة للفرنسيين والأوروبيين لتعمير الجزائر. وقد لعبت الصحافة الفرنسية دورا هاما وخطيرا لتجشيعهم عليها في هذه الفترة بالذات:

- بنشر النداءات المتتالية للأوروبيين وإغرائهم بالمهجرة إلى الجزائر بإذاعة أخبار عن
غنى المناطق المحتلة وخصوبتها وصلاحتها للزراعات المتنوعة، ثم أخبار التسهيلات الإدارية والمالية والمعنوية المغربية لهم بتوفير المسكن المريح والأرض الخصبة والمال الوفير وكذا العبيد (من الأهالي) الذين سيخدمون الأرض بدل المهاجر-السيد-. وقد بلغ لأمر السلطات الاحتلال إلى اضطياد المهاجرين من فرنسا برغم أنوفهم كما يقول الأستاذ محمود الشرقاوي (2). وتدخل في هذا الصدد النشرات المختلفة والمستمرة لبحوث وانطباعات المستشرقين والمؤرخين (*) المصاحبين للحملة العسكرية التي كانت تثرى المادة الإخبارية للصحف وتعزدها. ويقابلها نشر الأخبار المختلفة عن الإرهاب والوحشية التي

(*) قرية العوفية بضواحي الحراش، أفني حنود "دورفيكو" أهلها عن آخرهم لوشاية مفرضة نبت بعد التحقيق براعتهم منها وبشهادة بعض العسكريين بذلك. وقد قتل فيها 180 شخصا ونهب 2000 رأس من الغنم و700 من البقر و30 من الإبل.

(**) في سنة 1845م أبيدت قبيلة كاملة بعدما آوت إل كهف خوفا من بطش الاحتلال الفرنسي، لكن هؤلاء اضرمو النيران عند باب الكهف وقتل 780 شخصا بين امرأة ورجل وطفل اختناقا بغازات الحريق.
على إثر ثورة المقراني 1871م تم إعدام 6000 شخصا وفرضت غرامة 36 مليون فرنك وصادرت نصف مليون هكتار من الأراضي.

- في سنة 1852 أبادت فرنسا ثلاثمائة قرية...

انظر هذه المعلومات وغيرها مثلا في : حمدي حافظ؛ عمود الشرقاوي، المرجع السابق، ص 20-22.

(1) انظر الزبير سيف الإسلام، المرجع السابق، ج1، ص 23 بتصرف.

وانظر:

-Revue Africaine, Vol n°1, Année 1856-1857, Op. Cit, p.4.

(2) حمدي حافظ؛ عمود الشرقاوي، المرجع السابق، ص 24.

سيعاقب بها السكان الجزائريون الذين يرفضون الاستسلام أو التسليم في أملاكهم وأراضيهم والمغزى من هذه الحملة تخويف الأهالي عن طريق السّماسة حتى يضطّرون إلى بيع ممتلكاتهم بأثمان زهيدة.

ويلاحظ أن عدد المهاجرين كان يتزايد سنة بعد سنة من عهد الاحتلال يقابله مصادرة مستمرة لممتلكات الجزائريين التي تحوّل إلى هؤلاء مباشرة ولم تعد إدارة الاحتلال الوسيلة لذلك مستعملة قوة السلاح وقوة القانون وقوة الإغراء أو الإرهاب.

-- بتفذية روح التوسع في عقول جنود الحملة، وقد أصبحت هذه الطريقة من فنون القادة العسكرية ذوي الألقاب السامية في الجيش الفرنسي الذين كان قتل الجزائريين وإبادتهم من قبيل التسيية وليوميات الظرفية بالنسبة لهم، وقد اعترف بذلك أحد الجنرالات، يقول : >> لقد كانت التسيية الوحيدة التي أستطيع أن أسمح بها لمجندي أثناء فصل الشتاء، هي غزو القبائل المعادية التي تسكن فيما بين الحراش وبرقيقة >> (1).

- تضليل الرأي العام الأوروبي والفرنسي : بطمس الحقائق والتكتم عما يجري في الجزائر من حملات إبادة ووحشية إزاء السكان، وقد كانت أمنية أحد الديسوماسيين الفرنسيين أن تحافظ الصحافة الفرنسية على الصمت عما يحدث في الجزائر حتى يعتاد العالم على رؤية فرنسا في الجزائر (2). وبعبارة أخرى -- حتى تتم إبادة الجزائريين في صمت بعيدا عن أعين وآذان العالم خدمة -- دائما -- لأطروحة خلق شعب جديد في الجزائر. ولم يكن يهم حكومة باريز وسطة الاحتلال ولا ذوو الأحلام المثالية حول مهمة الحضارة في إفريقيا، نوعية الإنسان التواء في هذا التكوين البشري الجديد فإذا كان رجال المسيحية يتذرعون بزراع المسيحية في إفريقيا، والانشروبولجيون بخلق الشعب الجديد.

(*) لم يكن المؤرخون والمستشرقون ولا رجال الاعلام يتشعرون إلى هذه الحالات الفكرية بالمعنى الدقيق كسابقها. وإنما هم أدوات الغزو الفكري للجزائر. وقد كونوا فعلا جهاز المحابرات للجنش الاستعماري وكان يميء أكبرهم إلى الجزائر يخلص في دافع الرغبة في التعرف على شعب وقع في قبضتهم أو نافع المغامرة البحتة والفسوس لعمى الديكارتي في النطف على مختلف مبادئ المعرفة، ودليل ذلك أنهم كانوا عسكريين بالمهنة، ونبت جهنهم بالغة العربية، لغة الجزائريين ولما أرخوا للجزائر فمن ناحية جغرافية فحسب.

(1) حمدي حافظ، عمود السرقاري، المرجع السابق، ص 17.

(2) حلال يحيى. السياسة الفرنسية في الجزائر 1830-1960. (مصر، دار معرفة، 1959م). ص 81.

والديكارتيون والمثاليون بتمدين البدو، فإنه لا يعقل أن تعزى هذه المهمة الخطيرة إلى فئة المهترئين من الفرنسيين والأوروبيين الذين ماهم في الحقيقة سوى فئة من المسجونين والشواذ والبطالين والمتسكعين والمجرمين... >> وكل من لا يشرف فرنسا انتسابهم إليها <<(1). كما يقول الأستاذ حلال يحيى، وهكذا فمن التحني على الحضارة والتاريخ والبشرية أن يكون غزاة الجزائر الفرنسيون دعاة حضارة أو رواد مدنية.

3 إعداد وتوجيه الرأي العام الفرنسي بما يخدم أنصار الاحتلال الدائم:

لقد تقبل لفرنسيون أخبار احتلال الجزائر بوجوم ولا مبالاة تامة وصفها المؤرخ شارل آجرون "Ageron" "برد الفعل الضعيف(2). وقد تواصلت حملة المعارضة ضد سياسة الاحتلال لمدة طويلة استغلّت في ذلك تقارير الميزانية فحسب. وكان يهمنى ضرورة الإسراع في تحرير فرنسا من عبء المصاريف العسكرية والخسائر المعترية التي لحقتها في الجزائر، بينما لم يكن يعنىها مصلحة الجزائريين ولا أعمال الإرهاب والبضخ والإبادة في قليل أو كثير، كما لم تكن تعنىها الأعراف الديمقراطية ولا مبادئ حقوق الإنسان(3). ولا قضية التاج المهان. ولم تعد ذرائعها المهاترات الحزبية فحسب في الوقت الذي كان أنصار الاحتلال فيه بمساعدة سلطة الحكومة يتذرعون بتقارير الغنائم، وأحلام المستعمرة الجميلة التي تتركز على ترات خطير من الذرائع الواهية لفرنسا وضرورة التنفيس خارجها. وأخيراً بوجود فرنسا الفعلي القائم والقوي في الجزائر والذي كان أكبر من أن يدمغه تقرير مالي أيل إلى تغيير قريب جداً. ومن ثمة تأتي أهمية التحكم بزمام الأخبار - بالإضافة إلى السلاح في يد العسكريين، تم بفتح منابر للنقاش العريض الذي بادرت

(1) حلال يحيى، المرجع لسابق، ص 110.

(2) Charles Robert Ageron, Histoire de l'Algérie contemporaine, Série "Que sais-je" (France, PUF, 1967); 7ed, p 7

(3) المقصود منه ميثاق حقوق الإنسان الذي عرف بـ "Vitell" والذي ترجمه السيد الشريف حسونة دغير وزير خارجة الحكومة الليبية في ذلك الوقت، الذي أشار إليه السيد حمدان خوجة في مذكراته وبأنه اطع عبد المنصل والمقرة وتقدم على ضوئه بمذكرة إلى اللجنة الإفريقية لإقامة الدليل على وحشية الاحتلال... انظر عمد

العربي الزيربي، المرجع السابق، ص 167.

الصحافة الفرنسية إلى انتهاجه وخاصة في جريدة "المحرر الجزائري" الذي خصّته بعنوان: "معرض الصحافة" وكان منبرا لعرض وجهات النظر المختلفة وطريقة نفسية تكتيكية المقصود منها ربيع الوقت وامتصاص الغضب الفرنسي بإعطاء فرص المراجعة للمعارضة بإيراد أخبار الغنائم وبنفاير الثروات المغربية في الجزائر - الطبيعية والبشرية - التي ستحرر فرنسا من أزمته الاجتماعية الحادة. و دأبت الصحافة بالإضافة إلى هذا إلى متابعة ما تكتبه صحف باريس، أو أوروبا حول شؤون الجزائر فكانت ترد بعنف على مناهضي الاحتلال بينما تفتح صفحاتها لكل من يدعم فكرة الاحتلال الدائم شاكرة مادحة. كما كانت تنقل كل ما يخدمها من مختلف الجرائد.

وقد عملت الصحافة "العسكرية" في هذه الفترة على تفريق الجزائريين، وضرب القبائل ببعضها البعض وإثارة العروضية وتسميم الجو الوطني ونشر الفوضى والبسب في الأفكار بتفنيق الأكاذيب وتزوير الحقائق وإغراء البعض بالوشاية ضد البعض الآخر، وكانت ترفع من قيمة الخونة والعملاء من الجزائريين (1) وغيرهم وتتخذ منهم أدلاء وممنحهم الألقاب العسكرية العالية، وتغريهم بالمال والجاه الكاذب، كما كانت تجتهد في المقابل في الحط من قيمة المجاهدين وضرب سمعتهم الوطنية وتقليل وقع بطولاتهم بأن تنسبها إلى التعصب لا إلى الوطنية الحقة والایمان الراسخ في نتائج الجهاد في سبيل الوطن والدين (2). وكانت تصفهم بالفوضى، وأنهم لا يهدفون وراء معاركهم سوى إلى السلطة والجاه... وكانت تهدف من وراء ذلك إلى تحطيم معنويات الأهالي وتشتيت مجهوداتهم وبث اليأس بينهم في مقاومتهم للاحتلال.

وندرک من خلال ما تقدم أن صحافة المرحلة العسكرية الأولى من عمر الاحتلال الفرنسي قد أدت أصعب مهمة ومثلت الأساس كما مثلت المصير بالنسبة لآفاق الاحتلال

(1) يعرفون بالصباحية أو الزوانف، وقد أشار "كلوزيل" على حكومته بضرورة تجنيد عدد من العرب في كتائب خاصة، يدربون جيدا وتدفع لهم مرتبات مشرفة حتى يغفرون رجال القبائل الأخرى على الدخول في خدمة الفرنسيين وتستطيع فرنسا استغلالهم، لكن الذي وقع هو أن كثر عدد الفارين منهم عائدين إلى قراهم ومختلفين عن نظام السلطة الفرنسية. رجع خلال يحيى، المرجع السابق، ص 87. بتصرف.

(2) انظر أبو القاسم سعد الله، أبحاث وآراء...، مرجع سابق، ج1، ص 31 بتصرف.

في الجزائر، ومهدت بنموذج حي لسياسته ومفاهيمه وقناعاته مدة بقائه الطويلة فيها. ويبدو معها واضحا طبيعتها العسكرية بالنسبة للجزائريين عامة، فضمنان عدم تسرب أخبار الإبادة المنتهكة للأعراف الدولية وشعارات الديمقراطية، لا يتحقق إلا بقوة السلاح والقهر المعنوي.

ويعزى قلة الجرائد في هذه الفترة إلى عدم حرية الصحافة التي كان يفرض عليها التكم والصمت عن الأحداث في الجزائر ولا يسمح بالحرية إلا إلى أحزاب باريز فقط. فالوجود العسكري في الجزائر لا يعبر عنه إلا بألة الحرب(1). المادية منها والمعنوية من جهة ثم تقديم الإنشغالات اليومية للمعمرين وكل ما يخدم استقرارهم عن كل الأخبار الأخرى كما أشارت إلى ذلك "المجلة الافريقية"، حين قالت بأن «> أمور الغزو واستعمار البند كانت على رأس الانشغالات ولهما الأهمية البالغة، وكان لا بد أن نكون أسياد المكان قبل الشروع في الأبحاث العلمية. وقالت: وكان لا بد التفكير والعمل أولا في تهية وضعية حسنة للجندي والمعمر قبل كل شيء، ثم يتبع الباحثون بكل دقة السبل الضيقة التي يستفتحها جنودنا المظفرين هنا وهناك. ووصفت ما يقومون به آنذاك بمرحلة العلم المكافح»(2). وتخلص إلى حقيقة هامة وخطيرة وهي أن جنود الحملة الفرنسية لم يكونوا ينوون الاتصال بالشعب الجزائري أصلا، وتعضد هذا المذهب عدة أسباب منطقية منها دخولهم إلى الجزائر بفكرة الإبادة المنظمة للجزائريين وتؤكد الحملات التي اتخذت منها طريقة عملية وفعلية وقد أغراهم في ذلك قلة عدد الجزائريين وذلك حسب الإحصائيات الأولى التي قرّرت عددهم في المليونين نسمة(3). مع أن الحقيقة كانت رقما أكبر، ثم فكرة خلق شعب جديد، وجاءت قوانين مصادرة الأراضي وبداية طمس معالم المدنية الإسلامية والعربية في الجزائر بتغيير أسماء الأماكن الأثرية والتاريخية من أسمائها العربية إلى أسماء

(1) منعت الصحافة إبان الاحتلال من الخوض في وقائع الحرب والسياسة والادارة الحكومية، وكانت خاضعة مباشرة للرقابة التابعة لوزارة الحرب حتى لا تنتشر أخبار العنف المتيرة.

(2) Revue Africaine, VOI n° 1, Année 1856-1857, Op Cit, p5.

(3) يذكر شارل آجران أن ثلاثة ملايين هو الرقم الأكثر معقولة لعدد الجزائريين انظر:

Charles Robert Ageron, Histoire de l'Algérie contemporaine, Op Cit, p5

والناتج أن هذه الإحصائيات قد وقعت بعد عمليات الإبادة الجماعية المنظمة للجزائريين.

فرنسية لتؤكد هذا الاتجاه، فما الجدوى من مدّ جسور للاتصال مادام لن يبقى في الجزائر وجود لشعب عربي مسلم جزائري أصلا. لكن الذي حدث هو أن فرنسا اضطرت إلى العدول عن مبدأ الإبادة للجزائريين تحت وقع الهزات العنيفة، والخسائر الفادحة التي مني بها الجيش الفرنسي نتيجة استبسال المقاومة الشعبية ومن ثمة شرعت إدارة الاحتلال في التفكير بالاتصال بالشعب الجزائري كما سنرى، ولم يكن ذلك حبا فيه واحتراما لشجاعته ولكن خدمة لأغراض أخرى اتخذت أشكالا جديدة واستهدفت أساسا مقوماته واستوجبت بدورها أشكالا أخرى من المقاومة الجزائرية أحالت هذه الأغراض إلى سرب تماما كما أحالت فكرة الإبادة إلى المحال.

وإذا كان الجزائريون قد أظنّوا على الصحافة كشكل ونماذج، فإنهم لم يتأثروا بالصحافة الفرنسية في تلك المرحلة العسكرية بالذات وخاصة من حيث مضامينها. فقد كانت تكتب باللغة الفرنسية التي كان يجهلها الجزائريون، ولا يفهمها منهم إلا القليل جدا(1)، وهؤلاء قد منعهم من الرد عليها الخوف من بطش الاحتلال. وتكبل جنوده، وحالة الحرب الدائمة، ثم انعدام توفر قناة لرد عليها عند المقاومة المسلحة غير المتكافئة هي أيضا. ومؤكد أن الصحافة الفرنسية في هذه الفترة كانت موجهة للفرنسيين دون الجزائريين كما أن انتغال حكومة فرنسا وسلطة الاحتلال خاصة كان موجهها فقط لقضاء مصالح الجنود والمعمّرين في الجزائر، ولذلك فإنها لم تجد أمامها من يفند كتاباتها أو يعالج تأثيرها على الجزائريين، الذين لم تكن تخصهم إلا بتقديم ترجمة للأوامر والتعيينات الخاصة بقوانين مصادرة الأراضي وإلحاق الممتلكات إلى سلطة الاحتلال وتحويلها مباشرة إلى المعمّرين، ثم ترجمة قوانين تخص الضرائب المنهكة. وكانت لغة الترجمة عربية ركيكة هي أقرب إلى الدارجة أو إلى خليط بعضها عامية عربية وبعضها فرنسية.

(1) يتمثل هذا القليل في بعض الديبوماسيين الجزائريين، والموظفين في ديوان الحاكم الممثل له في الخارج والمبعوثين من طرفه للدول في مهمات سياسية أو لحل صفقات تجارية أمثال السيد حمدان خوجة، وأحمد بوسرية وأضرابهما.

وقد سمح وجود لجنة التحقيق واللجنة الأفريقية.. بالجزائر سنة 1833م لبعض من كانوا يحسنون اللغة الفرنسية من الجزائريين أمثال الحاج أحمد باي(*) قسنطينة، وأحمد بوضربة والسيد حمدان خوجة للتعبير عن آرائهم وتقديم خلاصة انطباعاتهم عن الاحتلال الفرنسي في الجزائر في السنوات الأولى، تقدموا بها إلى اللجنة في مذكرات، قصد أخذها بعين الاعتبار، وقد تنبه أحدهم وهو السيد حمدان خوجة إلى عدم جدوى وجود هذه اللجنة في الجزائر أصلاً، ومن ثمة عدم أهمية تلك المذكرات التي كانت سياسة من سلطة الاحتلال لذر تراب وتأكيد واقع وهو ما عبّر عنه بقوله: «- وإذا كان هناك تشبث بمبدأ الإبادة أو استعمال القوة لدفع هذه الشعوب إلى الصحاري بعد تجريدها من ممتلكاتها الترابية فإنه لا داعي إلى إرسال لجنة...» (1).

2- صحافة المعمرين:

إذا كانت الصحافة "العسكرية" تعبّر عن أنها كذلك إدارة ومحررين فإن صحافة المعمرين لم تكن مدنية أو شعبية بحتة، ويصعب علينا تصنيفها في خانة بعيدا عن أن تكون حكومة الاحتلال هي المشرف المباشر أو الممول المادي لأي جريدة منها أو تكون منضوية تحت إدارة شعبية أو متوارية خلف أسماء مستعارة لتعطيها صبغة شرعية، ومن ثمة فإن هذا النوع يبقى حكومياً رسمياً ولو ادعى غير ذلك.

وإذا كانت الصحافة العسكرية قد انتهجت أسلوب التعقيم الإعلامي والتكتم عن مجازر الفرنسيين في حق نشعب الجزائري فإن هذه تعدت ذلك إلى تقديم التبريرات المختلفة وتصوير ذلك على أنه الحل الوحيد والمناسب، ومن ثمة فقد أدت الأولى دور

(*) الحاج أحمد باي قسنطينة (1786-1850م) كولوغلي جزائري، سياسي محنك، من ألع وجوه المقاومة الجزائرية. بدأ بمواجهة الاحتلال الفرنسي منذ 1831م واضطر إلى الاستسلام في 1848م بعد ما تخلى عنه أنصاره اشترط الأمان من فرنسا والإذن له بالتوجه إلى الشرق فوعده بذلك لكنها أخفقت. بقي تحت الإقامة الجبرية في الجزائر حتى توفي في 1850م. كتب مذكراته أثناء مقامه بالسجن، وهي عبارة عن وصف لجرائم الاحتلال وآرائه في سياسة الحكم الفرنسي في الجزائر ومفاوضاته مع الفرنسي، ن تعد وثيقة تاريخية وسياسة هامة. راجع هذا الموضوع في: أبو القاسم سعد الله، أمحات وآراء، مرجع سابق، ج 1، ص 351-355. وانظر: محمد العربي الزبيرى. المرجع السابق، ص 5-125.

(1) محمد العربي الزبيرى، المرجع السابق، ص 155.

الإرهاب بقوة السلاح، أما هذه فقد لعبت دوراً أخطر وأطول ألا وهو قتل معنويات الجزائريين وزيادة مهمة المسخ الحضاري، والقضاء على الشعب الجزائري ضاربة بذلك شرائع السماء وقوانين البشر وأعراف الأمم عرض الحائط. ويبقى العامل المشترك بين الأولى والثانية مصادرة ميدان المعركة بعد نهايتها وإلحاق ملكيته بالغالب بعد ما حصد فيه الكثير من الضحايا.

وقد بدأت هذه الصحافة في الظهور وبصورة مكثفة بعد استسلام الأمير عبد القادر في 1847م مباشرة، وتزامن ذلك مع إصدار قانون إلغاء الرقابة على الصحافة في 15 مارس 1848م بإعلانه في الصحف (1) والذي تمتعت الجرائد الفرنسية في الجزائر بموجبه بكل بنوده.

ويبدو من هذه الانطلاقة المتحمسة التي انبثقت عنها كثير من العناوين في كل من الجزائر العاصمة ووهران وعنابة وقسنطينة وكذا في كل منطقة داخلية تقريبا، أنه قد بات متيقنا لفرنسا، وللفرنسيين من مستوطني الجزائر، أن الجزائر قد آلت إليهم إلى الأبد ومن ثمة بدأ الاهتمام الجاد بلا تردد وبلا رجوع بالمستعمرة الجميلة لكن الأهم من ذلك بمستقبل المستوطنين فيها.

وقد تميّزت بداية هذه الصحافة بالتواضع شكلا ومضمونا واتسمت خاصة بأنها صحف إخبارية فحسب وكانت تثني عناوينها الرئيسية بعناوين فرعية يظهر منها عدم التخصص في مجال واحد بذاته، وكان غرضها من ذلك جلب القراء والمشاركين إليها ضمانا للبقاء والاستمرار فنجد مثلا العنوان الفرعي لجريدة "فرنسا الجزائرية" (2)، يقول بأنها عسكرية، فلاحية، صناعية، تجارية، أدبية، فنية... دينية وقضائية. وتشترك كل الجرائد تقريبا في نقل البيانات العسكرية والإعلانات والأوامر الرسمية، وقرارات ومراسيم وقوانين الحكومة، وبالإضافة إلى ذلك اهتمت كل منها بنشر أخبار المسافرين وقوائمهم.

(1) أعلن في جريدة الممران الجزائري في تاريخ 15 مارس 1848م.

(2) جريدة "فرنسا الجزائرية" صدرت بالعاصمة سنة 1845م وتوقفت في 28-07-1846م بعد أن صدر لها 141 عددا. وتعتبر بحق جريدة مصالح المستعمرين اسمها بالفرنسية "La France Algérienne".

وأوقات الأسفار، ورسو البواخر وحركة الموانئ أو أخبار السوق والعملات والأسعار. والوفيات في الحالة المدنية، وتقديم صور عن الحياة اليومية للمستوطنين ثم تدرجت إلى أن تكون لسان الدفاع عن حقوق المعمّرين وانشغالاتهم بعد أن بدأ عددهم يزداد يوما بعد يوم وبدأت متطلبات حياتهم تتوسع وتزدهر، إلى أن أصبحت هذه الجرائد جرائد رأي راقية الإخراج متألّقة الشكل تماثل في ذلك صحف باريز نفسها. إلا أن عددها الكبير بدأ يتناقص تدريجيا إذ لم يبق في الميدان إلا الأقوى منها ماديا ومعنويا.

فقد كان المال وراء اختفاء كثير من العناوين لكن الذي تبقى منها كان يرث السياسات السابقة نفسها، وقد شاركت كلها في إثارة القضايا المهمة والدقيقة التي تهتم الاحتلال وتعضده بالدرجة الأولى. والتي تهتم المستوطنين الذين يتأثرون بسياسة الميزوبول وأحداثها، ويتبنون مخططاتها لكن بتصيد الغنيمة الأكبر هم. وقد تبنت صحافة معمّرين كل القوانين بعد أن عملت هي نفسها على تمهيد أرضيتها بالمطالبة بها أولا والدعاية لها ثانيا والمتابعة لجديدها لتكون هي في النهاية روحا للقوانين ومنهجها لبنودها مثل قانون التجنيد الإلجباري 1912م، و قانون 18 أبريل 1845م، وقانون 4 مارس 1848م ومن بعده قوانين 4 جويلية 1865م، وقانون 24 أكتوبر 1870م الخ. ثم قانون الأهالي 1881م وقانون التجنيس في ديسمبر 1866م وقانون الامدماج في 22 جوان 1884م وغيرها. ومن ثمة فقد كانت صحافة المعمّرين في الجزائر لسان الحكومة وروح الإدارة فيها وقد سمحت الممارسة الصحفية للمعمّرين إلى توضيح الأهداف السياسية والميول الاستعمارية التي كانت الصحف تعمل على تحقيقها وتحرض الاحتلال على المزيد منها. ولم تتأخر الكثير منها للتصريح بها والدعوة إليها بكل صراحة وجرأة، كإظهار العدوانية والدعوة إلى إبادة الجزائريين مثل جريدة "صدي وهران" في تعرضها إلى ثورة جبال جرجرة، و"مريشيا الفرنسية" التي كانت أقوى الجرائد وأحقدهم على الجزائر والجزائريين.

- وبالإضافة إلى اهتمام صحافة المعمّرين بكل ما تنشره وتثيره الصحافة العسكرية والدعاية له فقد كانت هذه - مع استمرار معارك المقاومة الجزائرية الشعبية - تبني آراء العسكريين الحربية وتناصر أصحابها وتضع نفسها في خدمتهم كجريدة "فرنسا الجزائرية". ودعايتها لتهديد الجنرال بيجو "Bugcaud" لمحق الجنس العربي في الجزائر حيث قال:

>>ساكسها (يعني القبائل) نهائيا إذا قاومت وألاحق الأعراش في كل مكان >>(1).

- كانت تشارك في الحملات العدوانية ضد الأهالي بإلهاب الحماس في المستوطنين وبت روح الرعب والنفشل في قلوب الجزائريين، فقد طالبت "صدي الجزائر" وبكل حسارة كل الجرائد الفرنسية بعدم التدخل للتعليق على العمليات العسكرية التي كانت تحدث في الجزائر، وترك شؤونها للحكومة الفرنسية فقط.

- أنها ساهمت في تنشيط الشعور بالقومية الفرنسية وفي مسح القومية الجزائرية فقد كانت تهاجم كل فرنسي أو مستوطن يحاول خدمة الحق بتوجيه الجزائريين أو تنبيههم أو مساعدتهم.

- أنها حاربت اللغة العربية، فقد كانت تصدر باللغة الفرنسية وتعتبر العربية لغة أجنبية متبينة أقوالا و آراء صريحة في هذا الصدد، فقد نشرت جريدة "المعز الجزائري" من قبل في أوائل 1833م قولها: >> إن هدفنا هو أن يعرف الأهالي لغتنا لا أن يعرفوا لغتهم، فالعربية ليست مفيدة لنا إلا في علاقاتنا بهم، أما الفرنسية فهي لا تفتح لهم باب العلاقات معنا فقط ولكنها بالنسبة إليهم هي المفتاح الذي يدخلون به كتبنا وأساتذتنا أي إلى العم نفسه >>(2). وكما صرح "الدوق دوروفيقو" قبل أيضا بقوله: >> إن هدفنا هو أن نحل الفرنسية محل العربية بين الأهالي عن طريق السلطة والإدارة ولاسيما إذا أقبل الجيل الجديد على التعلم في مدارسنا >>(3).

وبالإضافة إلى كل هذا فقد كانت صحافة المعمرين تظعن في صميم كيان الوحدة الجزائرية وتنتهج سياسة فرق تسد بين الأهالي بإتسار القبائل وتغذية روح العنصرية عن طريق المقالات المفرضة. وكانت تنقل الأخبار من الجرائد المحلية في الجزائر وكذا تعاليق وأخبار الصحف الأوروبية عامة لتربط المستوطنين بأوطانهم الأصلية، وهي بهذا كنه تنجاهل تماما وجود الشعب الجزائري وتغيب صوت الأهالي وحقوقهم كأنما هي تعيش

(1) الزبير سيف الإسلام، المرجع السابق، ج1، ص 103.

(2) انظر: أبو القاسم سعد الله، أممات وآراء، مرجع سابق، ج1، ص 31.

(3) المكان نفسه.

فوق أرض فرنسا نفسها تماما. ولم تكن تهتم إلا بالمستوطنين وانشغالاتهم ومصالحهم المختلفة.

وقد أغلقت صحافة المعمرين أبوابها دون الجزائريين عن المشاركة في تحريرها إلا نادرا، لكنها قد أثرت فيهم دون أن تقصد. فبعد أن قدمت لهم الصحافة العسكرية شكل الصحف وشيئا من فنيات الإخراج. جاءت هذه لتؤثر فيهم مضمونا وخاصة ما كان يتعلق منه بما كانت تتمتع به من حرية وما تمارسه من سلطات عن طريق مشاركتها الفعالة والقوية في قضايا الحكم بالتعرض إلى قرارات الحكومة بالتبني أو بالمعارضة. وبالنقد اللاذع أو الدعاية المستمرة لبعض المطالب والسياسات. ثم مناصرتها للحكام والعسكريين أو معارضتها لهم وما ينبني على ذلك من نتائج الانتخاب إيجابا أو سلبا. >> وقد انعكس كل ذلك على المثقفين الجزائريين وخاصة منهم الذين ترعرعوا في المدرسة الفرنسية وأدركوا أهمية الدفاع عن حقوقهم والتعبير عن مطالبهم <<(1). وقد استغلوا فيما بعد هذه الطريقة في المطالبة بحقوقهم مستخدمين شعارات فرنسا وتصريحات الفرنسيين لاستخلاص الحرية من فرنسا نفسها(2)، كما اقتنع المثقفون الجزائريون بأهمية الصحافة كوسيلة فعالة لنشر ولتوصيل أصواتهم ومشاكلهم ومطالبهم إلى المسؤولين في الحكومة الفرنسية.

ومع التأكيد بأنه لم يكن المقصود من صحافة المعمرين أيضا الاتصال بالجماهير الجزائرية والاهتمام بقضاياها وانشغالاتها أو بالأحرى نشر رسالة التمدن ومهمة الحضارة التي يحلو لبعض الفرنسيين التغي بها، فإن واقع الصحافة كرس مفهوم المستعمر والمستعمر واعتبار هذا الأخير عبدا تجاهلته تماما، وتعاملت معه على أساس محوه وجودا ماديا ومعنويا بألة الحرب والإرهاب المعنوي، واغتيال هوية وقومية، ومن ثمة فإن تأثيرها عدا كونها شكلا ونموذجا فإنها مضمونا قد عملت على نسج هوة عميقة بينها وبين النخبة الجزائرية التي تعلمت في المدارس الفرنسية وعلى أيدي الفرنسيين أنفسهم حين أغلقت دونهم

(1) عواطف عبد الرحمن، المرجع السابق، ص 29.

(2) حوران غليسي، المرجع السابق، ص 12 بتصرف.

أبوها(1)، حيث لم يظهر اسم جزائري واحد محرّر في عنوان منها(2) رغم العدد الكبير من العناوين اللهم إلا بعض التراجم، ثم إنها عملت على تسميم العلاقات بين المعمّرين والجزائريين. وقد أخذ هذا الحاجز النفسي ينمو، تغذية الأحداث والوقائع حتى انبثق عنه ظهور ملامح وطلائع الحركة الوطنية ووسم به نظرة النخبة إلى الصحافة الاستعمارية بنظرة العدو للعدو بكل ما تعنيه الكلمة بالنسبة للجزائريين من معاني الخداع، والإذلال والتحقير والدونية. ومن ثمة بدأت أولى الخطوات لرد الفعل باستعمال شعاراتها ونظرياتها نفسها حول إعادة الاعتبار والمطالبة بالحقوق وتقديم النقد إزاء مختلف القضايا والموقف. وبهذا تكون الصحافة الاستعمارية قد قدّمت الأسباب والعوامل السالبة والموجبة التي أدّت إلى الإنفعال والتفاعل داخل عقليّة النخبة الجزائرية، وقد يفسّر هذا كون بداية الحركة الوطنية السياسية على يد هذه النخبة نفسها رغم تعثرها بانبهارها، وعدم نضجها. أو تنكرها حتى لوجودها الحضاري والعقائدي وقابليتها للاستعمار، تأثرا بواقع أليم ونحت مفعول حملات المسخ الطويلة والمنظمة ومشاريع القضاء على الشعب الجزائري العميقة والمدروسة.

ولا بد أن نستثني من صحافة المعمّرين في عدم تأثيرها الايجابي ولو بدرجة الشكل فحسب، الصحافة العربية الرسمية، والصحافة التحرّرية الفرنسية.

3- الصحافة العربية الرسمية :

إذا كانت الصحافة الفرنسية الرسمية منها وغير الرسمية قد أظنعت الجزائريين عسى شكل الجرائد إخراجا وأثرت على النخبة دون الجماهير بمضامينها المفرضة، فإن بادرة "الجنرال دوماس" Dumas بأمر الممثل "فينيبي" Philippe تعتبر ثورة في هذا الفن بالنسبة للجزائر بقطع النظر عن استعمالها للأغراض الاستعمارية والتي وجدت الجرائد لأدائها.

(1) زهير إحدادن، بيلوغرافيا الصحافة الجزائرية الصحافة الإسلامية الجزائرية من بدايتها إلى سنة 1930م. (الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب، 1986م). ص 10.

(2) يقول الأستاذ الزبير سيف الإسلام، ولقد حارلنا ما استطعنا إلى ذلك سبيلا العنور على اسم لأحد الجزائريين في تلك الصحف عربيّه كانت أو إسلامية فلم نعر على واحد منهم . ويبدو أن سبب ذلك يعود إلى عدم ذكر أسماء المحرّرين في تلك الفترة. وتعتبر جريدة "أفريقيا الفرنسية" أول جريدة تعلق عن أسماء كتابها ثمّ تلتها على نعتها بنفسها. راجع في هذا الصدد. الزبير سيف الإسلام، المرجع السابق. ج 5. ص 13.

فبعد سبعة عشر عاما للاحتلال وهي سنة انتهاء المقاومة البطولية بقيادة الأمير عبد لاقادر باستسلامه سنة 1847م، وجد الفرنسيون أنفسهم مضطرين لايجاد وسيلة تخاطب وهمزة وصل بينهم وبين الجزائريين أهل البلد، فكانت هذه الوسيلة هي تأسيس جريدة باللغة العربية "المبشر" (*) ولم يكن ذلك حبا في اللغة العربية ولا خدمة للجزائريين وادعاء تمدينهم، وإنما فحسب لأن اللغة العربية هي اللغة الوحيدة التي كانت تفهمها وتعرفها الجماهير الجزائرية، وقد كانت "المبشر" كبقية الجرائد الفرنسية الأخرى، منبرا رسميا لنقل تعليمات الحكومة الفرنسية والأوامر العسكرية والقوانين المختلفة إلى المواطنين الجزائريين باللغة التي يعرفونها لغتهم الأصلية . وقد بينت "المبشر" سياستها في عددها الأول الذي صدر في 15 سبتمبر 1847م(1) وعبرت عن موقفها إزاء النشأين الجزائريين ضدهم والمقاومين لجيوشها الذين اعتبرتهم الجريدة مدمرين ووصفتهم بأهل الشيطنة حيث جاء في افتتاحيتها: <<... وأيضاً آخر فوايد هذا المبشر الذي أنعمنا عليكم بانشائه هو لما تعمور بمقصودنا وجميع ما يجب عليكم من إجراء الحكم والتصرفات وتطلعون على هذا لأخبار ينقي عنكم سبب ذلك كلام الوشاة أهل الحكم والتصرفات وتطلعون على هذا لأخبار ينقي عنكم بسبب ذلك كلام الوشاة أهل الشيطنة دمرهم الله الذين يسعون بكم في الهلاك وجر البلاد إليكم منا سابقا لتخطيطهم وكذبهم...>>(2) وعليه فإن "المبشر" قد وجدت أساسا لخدلان روح المقاومة التي كانت تتقد بها أفئدة الجزائريين وقتل معنوياتهم. وتزييف الحقائق عمدح العملاء والمتعاونين مع الاحتلال وتسميط الغضب على الوطنيين خدمة للظلم وتضليلا للرأي العام.

وإذا كان رأي الأستاذ علي مراد (3) وكذا الدكتور عواطف عبد الرحمن(4) في

(*) تعتبر "المبشر" أول جريدة عربية تصدر في المغرب العربي على الإطلاق، وثالثة في العالم العربي و إسلامي. فقد ظهرت الجريدة العربية الأولى في مصر وهي: "الوقائع المصرية" أنشأها محمد علي سنة 1828م، أما الجريدة الثانية فقد ظهرت في تركيا وهي جريدة "المرشد العثماني" التي أسسها السلطان محمود الثاني 1831م.

(1) محمد ناصر، الصحف العربية الجزائرية 1847-1939. (الجزائر، المؤسسة الوطنية للنشر والتوزيع، 1980م). ص 19.

(2) انظر الزبير سيف الإسلام، المرجع السابق، ج4، ص 43.

(3) المرجع نفسه، ص 45 بتصرف.

(4) عواطف عبد الرحمن. المرجع السابق، ص 28.

أن إنشاء هذه الجريدة كان له قيمة بالنسبة للجزائريين حيث استطاعوا بفضلها وبواسطتها الاقتراب من المسرح السياسي والاندماج في المشاكل الصحفية، فإن هذه الأهداف لم تكن أبدا مقصودة من طرف حكومة الاحتلال الفرنسي في إنشائها لهذه الجريدة رغم إدراكها لأهمية الصحافة في نهضة الشعوب وأثرها في يقظتها وبتث الثقافة والوعي فيها وهو ما عبر عنه مسؤول الولاية العامة بالجزائر السيد جان ميرانت "Jean Mirant" بقوله: ... إن الجرائد هي هذه الآلة التي تجمع في وقت واحد بين البساطة والقوة... إنها هي التي يتبع منها النور فبدد الظلام الذي كان يلف الشعوب المتخلفة... (1) ولو كان ادعاؤها ذلك لما بقيت "جريدة المبشر" الجريدة العربية الوحيدة التي كانت تتداول في الجزائر لمدة نصف قرن تقريبا، حيث لم تصدر سلطة الاحتلال جريدة عربية أخرى طوال هذه المدة رغم ظهور كثير من الجرائد بلغت سنة 1891م رقم (123) جريدة كلها باللغة الفرنسية (2). كما أنها منعت وحالت دون كل المحاولات الفردية الكثيرة (*) لإنشاء جرائد اللغة العربية التي لم تعش أطولها عمرا إلا أياما أو شهورا كما سنرى.

وقد كان أسلوب المبشر غاية في ركاكة اللغة التي لم يكن لها من العربية إلا رسم الحروف، وكانت أقرب إلى الدارحة العامية منها إلى العربية الفصحى كما لاحظنا في افتتاحية العدد الأول سابقا، ويعود ذلك إلى جهل الفرنسيين للغة العربية ثم إلى اعتماد الجريدة على تراجم أوروبيين وفرنسيين في أيامها الأولى، ويبدو أن أسلوبها قد أخذ يتحسن شيئا فشيئا وخاصة بعد ظهور أسماء الجزائريين على صفحاتها. وقد ظهر اسم أول صحفي بها سنة 1852م وهو اسم السيد سليمان بن الصيام الملباني وتوالت بعده أسماء الجزائريين تباعا، ويعتبر هؤلاء هم رواد الصحافة العربية في الجزائر (**). كما يقول الأستاذ

(1) محمد ناصر، الصحف العربية الجزائرية، مرجع سابق، ص 10.

(2) الزبير سيف الإسلام، المرجع السابق، ج 4، ص 46.

(*) أحصاها الأستاذ سيف الإسلام في سبعة محاولات كانت آخرها جريدة النصيح سنة 1898م.

(**) وكان من هؤلاء: السيد علي الشرف، علي بن عمر، أبو القاسم محمد الحفاوي، السيد عبد الرحمن مصطفى الخوجة وغيرهم.

الزبير سيف الإسلام والذين خصهم بالجزء الخامس من كتابه "تاريخ الصحافة في الجزائر" وقد كان منهم التراجمة وأساتذة المدارس والصحفيين، وقد تنوعت مواضيع كتاباتهم وتناولت مختلف القضايا والنجالات.

ولئن كان بعض هؤلاء يتعلق بسياسة الاحتلال(1)، فإن كثيرا منهم أيضا لم يكن يخلو من حرارة الوطنية العميقة، والأصالة الحقيقية، والتألم من مآل الجزائر وأهنها واستغلال كل فرصة لتقديم النصيحة بالدعوة إلى العلم ونبذ الجهل، والعمل من أجل الوطن. وقد أظهر بعضهم وعيا سياسيا عاليا وأسلوبا رائعا في محاولة وصف الدواء بكل جرأة وثقة في لغة سليمة وأداء صحفي راق. وقد وقع بهذا ما كانت تخافه فرنسا وجنّدت للحيلولة دونه كل وسائل الإبادة الثقافية، والانصهار الثقافي، وذوبان الشعب الجزائري العربي المسلم في ثقافة وتاريخ وحاضر المحتل. -وقد كانت الصحافة احدى تلك الوسائل- وإذا كانت صحافة الاحتلال هي الأخرى محاربة وكانت لا تكمل ولا تمل كما رسالاتها وجرالاتها العسكريين وأنها لم تكن تسلم سلاحها لحظة واحدة مثلهم. فقد كانت كتابات الجزائريين في الصحافة الفرنسية نفسها إرهابات قوية وجادة لتضال طويل ومرير، مستغلة لهجة المعترين العنيفة ومقاومتهم العنيدة ونقدهم الشديد لسياسة فرنسا بل ولأشخاص العسكريين والوزراء والحكام خاصة أيام الحملات الانتخابية. والتي <<فتحت أمامهم نغمة في خرافة العظمة الفرنسية>>(2) وشرعت لهم بذلك الدفاع عن حقوقهم والتعبير عنها علانية، وكانت فيما بعد منبرا سياسيا هاما للجزائريين.

4- الصحافة التحررية الفرنسية:

عمدت فرنسا لتبرير احتلالها للجزائر أولا، ثم لتبرير مجازرها في حق الجزائريين التي تجاوزت في بربريتها "لبربر" الذين جاءت لتمدينهم، إلى تزييف الحقائق والتفجير بالرأي

(1) من هؤلاء سليمان بن شعيب الملباني الذي عتبه فرنسا آغا بمنطقة مليانة، وكانت هذه طريقة الاحتلال تمهيدا لاحتلال المنطقة. وكذا أحمد بن لفكون الذي تجنّس بالجنسية الفرنسية مبكرا والتحق بالجيش الفرنسي كمترحم سنة 1850م. والسيد اسماعيل حاند الترجمان الرئيسي بأركان الجيش الفرنسي، ذو نزعة إدماجية. انظر الزبير سيف الإسلام، المرجع السابق، ج5، ص 29-94-171 بتصرف.

(2) عواطف عبد الرحمن، المرجع السابق، ص 29.

العام الفرنسي والعالمي، وذلك بتجنيد أقلام رجالها العظماء داخل الجزائر وفي باريز لحملات التشويه والتضليل التي لم تسلم منها حتى الكتب المدرسية الابتدائية والثانوية الفرنسية، كل ذلك من أجل حمل الرأي العام المحلي والعالمي على الاقتناع بأن الجزائر هي قطعة من فرنسا. وتأتي الصحف بعد آلة الحرب، لتكون سلاح فرنسا الأقوى. لكن يأتي الله إلا يجعل في بيت فرعون من يحضن موسى. وكذلك كان... فلم يكن أبناء فرنسا كلهم على هذا القدر من الغفلة أو من التنكر لنحق والعدل (1). بل كان منهم رجال أحرار أبوا السير مع ذلك الهذيان واختاروا طريق الحقيقة.

فقد ردّ رئيس تحرير جريدة فرانس أوبسرفاتور "France Observateur" السيد كلود بوردي "Claude Bordet" عنى دعوى التمدن الذي كان يهذي بها بعض رجال فرنسا معتمدا على ما جاء في تقرير لجنة التحقيق في 1833م بما نصّه: «لقد قتلنا أناسا يحملون تذاكرا رسمية يسمح لهم بموجبها أن يتجولوا وذبحنا مجرد الشبهة جماهير يرمتها وجد فيما بعد أنها بريئة، وحكمتنا على رجال بالإعدام ليس لهم من ذنب سوى أن لديهم من الشجاعة مادفعهم للوقوف في وجهنا الغاضب لكي يدافعوا عن إخوانهم البؤساء لقد وجدنا هنالك فضاة ليحكموا على هؤلاء، ووجدنا رجالا متمدين لينفذوا فيهم الأحكام. لقد تجاوزنا في بربريتنا هؤلاء البربر الذين جننا لتمدينهم» (2).

وتمثل بعض الفرنسيين في الجزائر هذا النوع من الصحافة - الصحافة التحريرية الفرنسية الذي ظهر بعد صدور قانون الأندجينا في 1881م، والذي كان في جوره وضمه أفضح قانون وأحقده صدره سلطنة احتلال غالبية في حق شعب مغلوب. فقد كان يحتوي على قيود لا حصر لها. جعلت من الجزائر سجنا كبيرا لكنه كان سجنا لأصحاب الأرض ليس لأعدائها، كما وكل أمر القانون فيه لا إلى العدالة والقضاء كما في كل أمم الدنيا وإنما إلى إدارة احتلال وأهواء القاتنين عليها مما دفع بالمفكرين الفرنسيين الأحرار إلى التدخل لمعالجة الوضع صحفيا والتعبير على الانتهاكات الفرنسية المتواصلة ضد المسلمين الجزائريين في أشخاصهم وممتلكاتهم متهمين الاحتلال الفرنسي مباشرة. وقاموا لذلك

(1) الفعيل الورتلاني، المصدر السابق، (عدد مارس 1956م)، ص 396.

(2) المصدر نفسه، ص 395-394.

بإنشاء الجرائد المختلفة لإلفات نظر الحكومة الفرنسية والرأي العام إلى وضعية الشعب الجزائري المسلم وطلبوا من بعض الجزائريين أن ينضموا إليهم وأن يستعملوا الصحافة كوسيلة للدفاع عن أنفسهم والإدلاء بمطالبهم، ومن ثمة تأتي مميزات هذا النوع من الصحافة في أنه يقوم بتحريرها فرنسيون وجزائريون، وأنها تتجه إلى الحكومة الفرنسية والشعب الجزائري والفرنسي، وهي عموماً مزدوجة فقد كانت تصدر باللغتين الفرنسية والعربية.

ويبدو أن هذه الصحافة لم تكن كلها على القدر نفسه من الحرية والاستقلالية. وحرارة الدفاع عن الجزائريين، فقد تميّز بعضها بضعف لهجتها السياسية كجريدة "المغرب" (*)، ويتميز بعضها بالترغية المعتدلة، وهناك ما تميز بالترغية الإصلاحية خاصة التي كانت تهتم بالجانب الديني والاجتماعي بغية التأثير على المسلمين الجزائريين ليسيروا في طريق العلم. وقد كان بعضها في تحمس للإسلام أكثر من كثير من المسلمين أنفسهم كصاحب جريدة "الحق الوهراني" (**) السيد "تابي" "Tapie"، ودفع إخلاص الجريدة ولهجتها الإسلامية بكثير من الجزائريين للمساهمة فيها أمثال "عمر راسم". وتميّز بعضها بالتعقل والذكاء في خدمة الفرنسيين والمسلمين الجزائريين في الوقت نفسه كجريدة "الأخبار" في فترة الثانية. فقد كان صاحبها باروكاذ "Barrucand" يدعو إلى إعطاء الجزائريين حقوقهم المختلفة من جهة والحفاظة على الامتياز الفرنسي من جهة أخرى. وكان ينشر بالفرنسية ما لا ينشره بالعربية. وعموماً فقد كانت صحافة الأحرار هذه مدرسة كبرى تأثر بها المسلمون الجزائريون صحفياً وسياسياً، وأثروا فيها بعد بكتاباتهم في بلورة أفكار وأطروحات الحركة الوطنية.

(*) جريدة المغرب: ظهرت في 10 أبريل 1903م. وكان صاحب امتيازها الفرنسي الشهير "بيار فونطانا" "Pierre Fontana" صاحب المطبعة الشهيرة. توقفت بعد سنة واحدة من سدورها بعدما برز منها ست وعشرون عدداً. انظر: محمد ناسر، الصحف العربية، مرجع سابق، ص 25-27. بتصرف.

(**) الحق الوهراني: ظهرت في أبريل 1912م في وهران، وكان صاحبها فرنسي اعتنق الإسلام وأخلص له كانت الجريدة حريّة في تحريض الجزائريين للوقوف ضد سلطة الاحتلال، ظهر منها ست وأربعون عدداً.

أذكار المرجع نفسه، مرجع سابق، ص 33-35.

III - الاتصال الفرنسي بالجزائريين عن طريق التعليم:

1 يعتبر التعليم مظهر آخر لاتصال الفرنسيين بالشعب الجزائري، ويدخل في خدمة ما تعنى به بعض الفرنسيين حول مهمة فرنسا الحضارية ودعوى تمدين البدو(*) وم يكن الاتصال عن طريق التعليم جماهيريا بالمعنى الحقيقي والشامل للكلمة خاصة من ناحية الشكل، فإذا كانت حاجة فرنسا للتعامل مع الجزائريين قد دفعتها للاتصال بهم عن طريق الصحافة باللغة العربية، وقد رأينا أن الصحافة الحكومية العربية لم تستعمل اللغة العربية الفصحى - إحدى مقومات الشعب الجزائري - وإنما استعملت بدلا منها مسخا للعربية كانت الداريجة أو العامية - ناهيك عن مضامينها وأهدافها، فإنها قصدت عن طريق التعليم، تكوين فئة قليلة من الجزائريين لتكون بوقا لسلطة فرنسا تسبح بحمدها وتدور في فلكها. وخاصة لتكون خليفة لمدرء المكاتب العربية(**) - خلايا التحسس على الجزائريين - الفرنسية في الأصل. ومن ثمة يتم لها ضرب الجزائريين باخوانهم من الجزائريين أنفسهم، هؤلاء الذين ستكونهم في مدارسها على يد أساتذتها^{وحي} ضوء من برمجتها المدروسة لهذا الغرض، وبلغتها... والحقيقة أن فرنسا لم تكن جادة في تعليم الجزائريين ولا في تثقيفهم، ولم يكسب عنها أمر الأهالي إلا في سلب ممتلكاتهم ومصادرة أراضيهم واستغلال سواعدهم. ونهب أموالهم عن طريق الضرائب الجماعية ونحوه مما تخيط له من القوانين والمراسيم بعدد أفراد الكولون ومصالحهم، فعدا دفع الضرائب، فالمستعملون ينتهي وجودهم عمليا في نظر الإدارة الجزائرية كما يقول آجرون "Ageron"(1).

وقد كان التعليم عامة والابتدائي منه خاصة - إجباريا حسب القوانين الفرنسية الرسمية والمعمول بها فرضيا في فرنسا وفي الجزائر - بحكم أنها مستعمرة فرنسية، وهذا

(*) كأنه لم يكن حضارة في الجزائر تولى أهلها شؤون التعليم بأيديهم فشيّدوا المدارس والجوامع والزوايا والأوقاف التي كانت تخدم هذا الغرض.

(**) المكاتب العربية: هي عبارة عن خلايا للتحسس برأسها عقيد فرنسي غالبا وله مساعد ومترجم وسواوس. ومهمتها التحسس على الأفراد، والطرق الصوفية، وتقوم بتغذية الخلافات الفردية وإثارة التعرّات القلبية والشماس على المناصب. قال عنها آجرون Ageron بأنها عقل السياسة الأهلية الفرنسية في الجزائر.

(1) Charles Robert Ageron, Les Algériens Musulmans et la France 1871-1919 (Paris, presse Universitaire Française 1968), p 1230.

يعني أنه لا بد أن يكور لكل طفل سواء في فرنسا أو في الجزائر معقده في المدرسة. لكن قانون إجبارية التعليم لم يكن يشمل الجزائريين وتطبيقه في الجزائر خصّ أبناء المستوطنين من فرنسيين وأوروبيين فحسب، في حين «وكلّ أمر أطفال الجزائريين فيه إلى الوالي العام الذي طبق القانون بصرامة واهتمام إزاء الأوروبيين، بينما انتظر الأهالي ضويلا صدور أمره إزاء أبنائهم دون جدوى» (1). علما أن (700) ألف صبي جزائري لم يكونوا يجدون إلى التعليم سبيلا. فقد «حارب اللوبي الاستعماري في الجزائر -المتمثل في الكولون- سياسة تعميم الأهالي بلا هوادة وأعاق كل مراحلها» (2). وتشير الأرقام في هذا المجال أن التعميم الثانوي والعالي لم يكونا أحسن حظا من التعليم الابتدائي. علاوة على أن هذا الأخير كان مجانيا، أما الثانوي والعالي فلم يكونا كذلك.

وسنجد في الجدول التالي بعض الأرقام التي تكشف عن واقع التعليم الفرنسي للجزائريين:

مراحل التعليم	عدد المؤسسات التعليمية	عدد التلاميذ والطلبة
التعليم الابتدائي (مجاني)	541 مدرسة في كل القطر الجزائري مزدوجة اللغة - 519 مدرسة ابتدائية للذكور وتشمل 1033 قسما - 22 مدرسة ابتدائية للإناث وتشمل 80 قسما	48000 تلميذ 45000 ذكور 3000 إناث
التعليم الثانوي (غير مجاني)	03 مدارس عليا من نوع ليسييات في الجزائر وقسطنطينة وهران للذكور. 03 مدارس عليا (ليسييات) للإناث 10 مدارس أوربية حرة 08 مدارس عليا من نوع كوليج	
التعليم العالي (غير مجاني)	جامعة واحدة بالجزائر العاصمة تشمل أربع كليات: 1 كلية الآداب، 2 كلية الحقوق، 3 كلية الطب، 4 كلية العلوم	75 طالبا أغلبهم في الحقوق ثم الآداب ثم الطب.

الجدول رقم 1: معطيات التعليم الفرنسي في الجزائر حتى سنة 1930م (3)

ويؤكد الأستاذ المدني أن عدد المسلمين الجزائريين الذين كانوا يتعلمون في المدارس

(1) توفيق المدني، كتاب الجزائر، (القاهرة، دار المعارف، 1963م)، ط2، ص 274.

(2) R. Ageron, Les Algériens Musulmans et la France, Op Cit, p1232

(3) توفيق المدني، المرجع السابق، ص 273-277، تصحيف.

الحكومية لم يكن يتعدى 00000 (1) متدرّس، وفي مقابل الستة ملايين نسمة من الجزائريين، فإن نسبة التعليم الرسمي في الجزائر تكون 1 ٪ فقط، وتكون نسبة الأمية 99 ٪. ويكون عدد الصبيان الجزائريين الذين لا يتلقون أي تعليم حكومي بالمقارنة بعدد الأوروبيين 700 ألف طفل. وهكذا فإن دعوى تمدين البدو، وتعليمهم ثقافة الغرب... ضرب من لغو الكلام ووصف لواقع بعكسه.

وتشير بعض التقارير الرسمية الفرنسية (2) كالتقرير الذي أعدّه الجنرال بيدو

" Bidoux " الفرنسي عن التعليم العمومي الأهلي بالجزائر إلى المعطيات التالية:

السنوات	المدارس	عدد التلاميذ
1854م	348	19.271
1855م	408	21.964
1856م	407	24.641
1857م	393	24.651

الجدول رقم 2: التعليم الأهلي بالجزائر من سنة 1854 إلى 1857م.

وجاء في تقرير آخر عن المؤسسات التعليمية الأرقام التالية :

السنوات	عدد التلاميذ	عدد المدارس	عدد الأقسام
1882م	3172		
1885م	5695	50 مدرسة (*)	
1887م	9064	//	
1891م	11246	//	
1893م	13.439	138	244
1895م	16.794	178	253
1897م	22.468	179	392
1898م	23.823	190	412

الجدول رقم 3: عدد التلاميذ والمدارس والأقسام في الجزائر بين سنوات 1882 و 1898م

(1) توفيق المدني، كتاب الجزائر، مرجع سابق، ص 275.

(2) عبد الحميد زوزو، نصوص ووثائق، مرجع سابق، ص 216.

(*) 50 مدرسة؛ منها 29 مدرسة بالجزائر. 23 تسانطية، 07 بوهران.

ويمكننا الاكتفاء بهذه الأرقام (*) دون التعليق عليها للتدليل على عدم جدية فرنسا في تعليم الجزائريين لكن ^{لا بد} من الإشارة إلى :

أ - أن المدارس الرسمية التي كانت تعنى بالتعليم العربي كانت تدعى اسما فقط بالمدارس العربية الفرنسية، لأن العربية لم يكن لها فيها نصيب، ولأن برامج التعليم الابتدائي للمسلمين كان برنامج أوروبي بحث، وبالتالي .. فإن التعليم الابتدائي العربي من الناحية الحكومية. كما يقول الأستاذ توفيق المدني كان .. مهملًا إهمالًا تامًا لا نجد كيف نصفه أو ماذا نقول عنه (1).

ب - أن التعليم العمومي بالجزائر كان من صلاحيات وزارة الحربية منذ الاحتلال إلى غاية 1848م حيث ألحق بوزارة التعليم العام بقرار 7 أوت 1848م.

ج - أن المتمتعين بالمنح المدرسية كانوا يختارون من أبناء الضباط والقادة والعملاء (2) من الجزائريين دون غيرهم.

د - أن التعليم العمومي الاسلامي ومؤسساته كان ضمن صلاحيات ورقابة الثنائي العام الفرنسي بالجزائر الذي كان يتولى بنفسه ترشيح الأساتذة ويحدد منهاج التعليم.

2- أهداف الاتصال الفرنسي عن طريق التعليم :

إذا كانت تعوزنا مضامين برامج التعليم لتأكيد حقيقة المدارس الفرنسية وهي وبن وجدت فلا بد لها من دراسة مستقنة تتجاوز موضوعنا، لكن تبعتها لتعامل فرنسا إزاء المؤسسات الدينية والتعليمية في الجزائر لا تترك لنا مجالًا لننشد أو النقاش حول هدف سلطة الاحتلال منذ اليوم الأول لتغزو العسكري، في الإبادة الثقافية للجزائريين بعدما استعصى عليها إبادتهم الجسدية، وإذا كان التعليم سيحقق لها مع قلبة النخبة المنقفة بالفرنسية فيما بعد ما لم تحققه الصحافة الحكومية "العربية" مع الجماهير الجزائرية. فإن كلا من التعليم والصحافة كانا يشتركان بصفة فعالة في تحقيق أهداف الاحتلال الخاصة

(*) أخرى الأستاذ توفيق المدني مقارنة بين نسبة الجزائريين والتونسيين في التعليم العالي في كل من الجزائر وتونس فأحصى 140 طالبًا جزائريًا وسط ستة ملايين جزائري. وأكثر من 3000 طالبًا تونسي في مليونين تونسي فقط.

(1) توفيق المدني، كتاب الجزائر، مرجع سابق، ص 209

(2) المرجع نفسه، ص 20. تتصرف.

بالإبادة الحضارية العامة للجزائريين، وكان ذلك عن طريق الوسائل والأساليب التالية:

أ تهديم مؤسسة الوقف: لقد كان من أولويات اهتمام سلطة الاحتلال تحطيم المؤسسة الدينية والتعليمية العامة في الجزائر، التي كانت تمثل في مؤسسة الوقف. ونلاحظ ذلك من خلال صدور القوانين المتتالية في هذا المجال منها قانون 8 سبتمبر 1830م(1) الذي قضى بتأميم جميع أوقاف ما عرف "بأوقاف الحرمين الشريفين"(*) في الجزائر وجعلها تحت يد السلطة الفرنسية بقرار 07 ديسمبر 1830م. ثم امتدت مباشرة إلى جمع كل ممتلكات التآي حسين والبايات الأتراك الذين غادروا الجزائر، وإخافها بالسلطة الفرنسية تباعا. وأصدرت سلطة الاحتلال قرارات مماثلة تقضي بتصفية الممتلكات الخاصة بالدولة الجزائرية لصالح الفرنسيين دون وجه قانون أو عدالة. وإذا دلت هذه الإجراءات على نهب الغالب للمغلوب بحكم القوة والسلاح والبطش. فإنها تدل بصفة أوضح وأجلى عن نية الإبادة الثقافية للجزائريين، خاصة إذا علمنا بأن مؤسسة الأوقاف كانت بالنسبة للجزائريين «هي وزارة الثقافة والتعليم والدين والمسؤولون الاجتماعيون مجتمعين»(2). كما يؤكد الدكتور أبو القاسم سعد الله. فمن أموال الوقف تشيد المساجد والجوامع والكتاتيب والمدارس والزوايا، ومن أموال الوقف تدفع أجور العلماء والمعلمين والخطباء والجزائريين(**) ومنها أيضا تشتري الكتب لتوضع في خدمة طلاب العلم للاستفادة منها ومنها تصرف شؤون الطلبة والتلاميذ، ومن مؤسسة الوقف يسترزق الفقراء من الشعب ويجدون المأوى والمأكل والملبس... وللإشارة فقد كان من اهتمام أصحاب الأوقاف والعاملين عليها وفيها أن ضاهى مستوى التعليم ببعض المساجد والجوامع والمدارس التابعة لها أو مائل نظيره في بعض مساجد المشرق العربي خاصة الأزهر الشريف.

(1) محمد بن عبد الكريم. المرجع السابق، ص 214 و 224 بتصرف.

(*) عرفت هذه المؤسسة الخيرية بهذا الاسم، لأن الأموال التي كان الجزائريون يقنونها فيها كانت توحده في رسم الحج كل سنة إلى الحجار ليصرف منها على شؤون المحتاج لبيت الله تعالى.

(2) أبو القاسم سعد الله. تاريخ الجزائر الثقافي من القرن العاشر إلى القرن الرابع عشر الهجري (10-20م) (الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب، 1985م)، ط2، ج1، ص 231.

(**) الجزائريون: مجموعة من حفظة القرآن الكريم كانوا يجتمعون في أوقات معينة وأيام معلومة كل أسبوع في حلقات يقرؤون القرآن الكريم في مساجد نفس إلى عدة أحزاب في كل مرة حتى يتم خمسة بقسورة نور...

والغرب العربي وخاصة القرويين بالمغرب والزيوتنة بتونس .
 ويعترف مسؤول التعليم العمومي بالجزائر في تقرير تقدم به لإدارة الاحتلال باختفاء العديد
 من المساجد وتهديم عدد من الزوايا بعدما كانت منسار حياة المتفوقين فكريا حيث يقول :
 «وصودرت عائلات المساجد والزوايا جميعها لتأخذ اتجاهها آخر يخالف مقاصد الراسخين
 لممتلكاتهم»⁽¹⁾ وينهب أموال الوقف يفكك عقد شؤون التعليم والدين ، يعصوم القوضى والعدم
 المورد للاستمرار والحياة.

ب . سياسة تهديم المساجد ومؤسسات التعليم:

امتازت المساجد في الجزائر العثمانية بالإضافة إلى أدائها لوظيفتها الدينية كونها مكانا للعبادة
 والصلاة وقراءة القرآن الكريم بإشرافها على المدارس والزوايا التابعة لها والتي تآمتها في الاسم .
 وهي بهذا تشمل كل مراحل التعليم الابتدائي والثانوي والعالى . وتؤكد التقارير الفرنسية غداة
 الاحتلال كثرة المساجد والمدارس والزوايا في كل المناطق الجزائرية حتى النائية منها والحيال
 الشاهقة ، وهذا ما جعل جميع الذين رأوا الجزائر خلال العهد العثماني والسني يحسدو أو يمدحون
 الاحتلال الفرنسي . يبهرون من كثرة المدارس ونشر التعليم وندرة الأمية بين السكان .⁽²⁾ ثم
 إن المدارس الابتدائية والثانوية وإن لم تترك ولم تسأير العنصر والحاجة الاجتماعية لكنها كانت
 تؤدي وظيفة أساسية في المجتمع وهي رفع الأمية ، كما تؤكد كتابات كثير من الفرنسيين وتقارير
 الباحثين منهم بعد الاحتلال . أن عدد المتعلمين في الجزائر عندئذ كان يفوق عدد المتعلمين
 بفرنسا⁽³⁾ . وأخيرة أن هذا الجهد العلمي الهام لم يكن يرجع إلى دور العثمانيين وإنما إلى
 جهود الجزائريين في سبيلهم بأنفسهم غير تعليم أبنائهم وتربيتهم على قواعد إسلامية معينة وعلى
 نمط إجتماعي محدد وكان دور المدرسة الابتدائية شاملا في إعداد شعب مسلمة متعلمة . وكان لهذا
 العلماء فيه مركز الريادة والتوجيه ، ويكفي للسرد عن التساؤل عن دور

(1) عبد الحميد زرور ، نسوس ووثائق ، مرجع سابق ، ص 207

(2) أبو القاسم سعد الله ، تاريخ الجزائر الثقافي ، مرجع سابق ، ج 1 ، ص 274

(3) المرجع نفسه ، ص 320

العثمانيين وهل كانت لهم سياسة تعليمية أو ثقافية في الجزائر ما رَدَّ به الدكتور سعد الله وهو >> أن السلطة العثمانية كان لها سياسة هي عدم التدخل في شؤون التعليم >>(1). فلم يكن يعنيهما إن انتشر التعليم وارتقى أو تقلص وضعف، ويعود هذا إلى أسباب عدة ليس لها موضع في دراستنا.

وتؤكد لنا بعض الأرقام(2) عن مدى اهتمام الجزائريين بمجال التعليم وبذاتهم المال في سبيله ومتابعة نتائجه وبرامجه. مما يعطينا عدة دلالات حضارية عن أصالة الشعب الجزائري والذي ادعت سلطة الاحتلال الفرنسي مرارا تحضيره وتمدينه.

المدن	السنوات	عدد المساجد	عدد الزوايا	المدارس الابتدائية	المدارس الثانوية
الجزائر (العاصمة)	1830م	107 (حسب التمرغوطي) 109 (حسب ديفوكس) Dufox 13 جامعا للخطب	12 زاوية 32 قبة أو ضريح	100	13
قسنطينة	1837م	100	16 زاوية (عدا المحيطة بها)	90	07
تلمسان	آخر العهد العثماني	50	30	50	2
المدية	//	11	/	/	/
وهران	//	/	50	/	/

الجدول رقم 4 : المؤسسات التعليمية الجزائرية أواخر العهد العثماني وأوائل الاحتلال الفرنسي (*).

(1) أبر القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، مرجع سابق، ج1، ص 316.

(2) المرجع نفسه، ص 244-285. بتصرف.

(*) لا بد من الإشارة أن هذه الأرقام ليست هي مجموع ما كان في الجزائر من مساجد وزوايا ومدارس، وإنما فقط ما توفرت احصائياته، تحكم وجود عدد كبير منها في المناطق النائية والجبال الشاهقة، وكذا وجود "المسجد" وهو أصغر وحدة في المدرسة الجزائرية الذي لم يكن يخل منه حي من أحياء العاصمة وكذا المناطق الأخرى تقريبا.

ولقد بادرت فرنسا منذ الأيام الأولى للاحتلال إلى تهديم المساجد في مختلف مناطق الجزائر، وتذرعت لذلك بتقديم تبريرات مختلفة، كتهديمها لغرض الترميم أو بغرض مدّ الطرقات العامة أو بقدّم هذه المساجد وعدم صلاحيتها، وكانت تختار من بين هذه المساجد أحملها وأوسعها لتحوّلها إلى كنائس وكاتدرائيات، وقد حولت لهذا الغرض مسجد كتشاوة إلى كاتدرائية، ومسجد علي بتشين إلى كنيسة، وحولت فرنسا عدّة مساجد أخرى إلى مجال تجارية. وكان دأبها ماثلاً إزاء المدارس الجزائرية، فقد هدمت بعضها وحولت بعضها الآخر إلى أغراض تخدم مصالح الجنود والمعمرين فحولت المدرسة القشاشية بالعاصمة إلى مخازن للجيش وأعطت مدرسة الجامع الكبير لأحد الأوروبيين فحولها إلى حمام فرنسي.

ويشير الدكتور محمد بن عبد الكريم إلى أنّ فرنسا قد هدمت في فترة لا تتجاوز السنتين (فقط) 1830-1832م، ستة وستين (66) مسجداً(1) ويؤكد المؤرخ الفرنسي فيدرمان "Fiderman" بأنّه من بين الأحد عشر مسجداً التي كانت بالمدينة، لم يبق منها للدين الإسلامي سوى مسجد واحد <<(2).

وبالنسبة للزوايا فقد قامت فرنسا بتهديم معظمها، حتى لم يبق لها في أوساط القبائل وجود سوى بالاسم كما يعترف بذلك مسؤول التعليم العمومي في الجزائر، السيد بيدو "Bidoux" ويضيف قائلاً: << ذلك أن حملاتنا العسكرية قد شتت جموع الطلبة في حين أن المخطوطات التي كانت تشكّل قاعدة التعليم فقد قضى على جانب كبير منها >>(3).

ويشير تقرير الجنرال "بيدو" من جهة أخرى إلى المؤسسات التعليمية بقسنطينة، قبل أن تمتد إليها يد التدمير الفرنسي وبعده إلى الأرقام التالية(4):

(1) محمد بن عبد الكريم، المرجع السابق، ص 225 (انظر الهامش)

(2) أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ص 251 (انظر الهامش).

(3) عبد الحميد زوزو، نصوص ووثائق، مرجع سابق، ص 207.

(4) المرجع نفسه، ص 209.

السنوات	عدد المساجد	عدد المدارس الابتدائية	عدد التلاميذ بها	عدد مدارس التعليم الثانوي	عدد الطلبة بها
1837م	35	90	1350	07	150
1847م	/	30	350	/	أقل من 60

الجدول رقم 5: المؤسسات التعليمية في قسنطينة بين 1837 و 1847م

وقد حكم بعض الباحثين بناء على هذه الأرقام سنة 1837م بأن كل ذكر من الجزائريين بين السادسة والعاشرة كان له مكان في المدرسة (1)، لكن هذا العدد قد تراجع بطريقة مأسوية بعد أن تم لفرنسا احتلال مدينة قسنطينة مما يؤكد لنا بوضوح أن فرنسا لم تنتظر طويلا للبدء في عمليات الهدم لكل مظاهر الحضارة ومعالم العلم والثقافة في الجزائر، وكأن لسان حالها -وهي بعيدة عن أعين العالم وفي منأى عن مراقبة القوانين والرأي العام الدولي- يقول بضرورة مد مساحة القحط الثقافي وتجزير سياسة التجهيل، ومحو كل أثر كان يدل على وجود معالم حضارة وطمس كل مظهر يشير إليها، حتى يسهل عليها تأكيد ادعائها "تمدين البدو" وتعطي لنفسها حق وشرعية مهمة خلق شعب جديد على مقياس وضعته لذلك ضمن مشاريع وبرامج. ثم تجد من يصدقها في كل ما تدعي ويشجعها وقت الحاجة.

ج السياسة الفرنسية إزاء المكتبات الجزائرية، والتراث العلمي الجزائري:

ولا أدل على سياسة فرنسا في الإبادة الثقافية للشعب الجزائري والقضاء على كل أثر له فيها، من معاملتها للتراث الجزائري المكون في الكتب الوفيرة والهامة التي كانت تزخر بها مكتباتها والتي كانت تنتشر في كل ربوعها من الشمال إلى الجنوب، ولم توجه المكتبات الجزائرية أية تجربة أفسى من تجربتها مع فرنسا بشهادة باحثيها ومقرريها. مما يصيب المطلع عليها بالصدمة والأسف.

فقد كانت الجزائر في طليعة البلدان الكثيرة الكتب والمكتبات، وكان الجزائريون يعتنون بالكتب عناية كبيرة قصد الاستفادة منها وكان بعضهم يورثها كما تورث الممتلكات الثمينة. فقد ضمت مكتباتهم من النادرة منها والهامة في مختلف العلوم الكثير.

(1) أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، مرجع سابق، ج 1، ص 275.

حتى أنه كان لكل مسجد مكتبته الخاصة وكذا كان لكل زاوية، وكانت بعض العائلات تحتفظ بمخازن من المخطوطات في حالة جيدة. وقد اندهش الفرنسيون عند حملتهم على الجزائر، من كثرة وفرة الكتب التي وجدوها ومن تنوعها وحسن العناية بها مما يبرهن على تذوق الجزائريين لمختلف العلوم والفنون رغم عدم اهتمام الحكام العثمانيين بهذا المجال البتة(*) . وتؤكد تقارير بعض المؤرخين أن الحملة ضد الكتب والمكتبات الجزائرية قد ازلت آلة الحرب العسكرية حيث كان الباحثون يرافقون الجنود في إغاراتهم، فيتم لهؤلاء الاستيلاء على الكتب في الوقت الذي يتم للجنود الاستيلاء على بقية الممتلكات، ويشير بيربروجر "Berbrugger" في انجته الأفريقية إلى أنهم كانوا «يسرون وراء الفرق العسكرية ويتبعون آثارها» (1)، وإذا كانت حصينة المعارك آلاف من الضحايا الجزائريين، والأرامل واليتامى فإن ما يقابلها علميا عدد كبير من الكتب والمخطوطات تنهب يد المستشرقين الفرنسيين فتصادر أو تسرق عنوة وتؤخذ إلى العاصمة أو يتهدى بها الفرنسيون فيما بينهم أو لأصدقائهم بفرنسا. وقد تعرضت معظم المكتبات الجزائرية لمثل هذه العمليات من النهب والتخريب يضاف إليها الإهمال الذي فرضته فيما بعد ظروف الحرب والخوف من بطش الجنود الفرنسيين فضاء منها العدد الكبير من الكتب .

وكانت أشهر المكتبات الجزائرية مكتبة الجامع الكبير بالعاصمة ومكتبة الكتانية بقسنطينة والمحمدية بمعسكر ومكتبة زاوية القيطنة التي تثقف على كتبها الأمير عبد القادر الجزائري.

وتفيد بعض التقارير الفرنسية أن مكتبة أحمد الفكون بقسنطينة كانت تضم غداة احتلال المدينة أكثر من 2500 مجلد اكلها في حالة جيدة وأكثرها في المواضيع الدينية، بينما يفيد تقرير فانيلان "Vanillan" بأنها كانت تضم 4000 كتابا. وقد بيعت مكتبة الفكون

(*) للإشارة فإنه لم توجد طيلة الحكم العثماني بالجزائر ما يعرف بالمكتبات الأميرية أو السلطانية كالتى اشتهر بها الحكام المسلمون في المشرق العربي، وسرد ذلك يكمن في عدم تذوق وفهم وتكلم العثمانيين للغة العربية. وقصر مدة حكمهم. وتدخل محاولتا صالح باي في قسنطينة ومحمد الكبير بمعسكر في هذا المجال لكنها كانت لأغراض أخرى غير الاهتمام بالثقافة، عدا تأخرهما.

هذه التي كانت مضرب المثل في الكثرة وحسن الاعتناء بطريقة مؤسفة وهي طريقة ميزان الورق القديم (1).

وقد جمع مدير المجلة الافريقية نفسه السيد "بربروجر" "Berbrugger" ما يزيد عن 800 مخطوطاً عاد معظمها إلى الجزائر العاصمة (2). وأنفق المستشرق البارون ديسلان "Dyslan" خمسة أسابيع كاملة من وقته في مكتبة الفكون، وكتب قائمة بكتبها الهامة وكذا فعل بمكتبة باتر تارزي كما جاء في تقريره. وأخير شاميليون فيجك C.Vijack عن مغامراته في تلمسان ومعسكر وكيف أنه جمع من مكتبتهما عددا كبيرا من المخطوطات، وأنه تمكن من جمع أكثر من 200 في مختلف الموضوعات إلا أنه أضعف عددا منها قبل وصوله إلى العاصمة.

وندرک من خلال هذه الأرقام أيضا موضوع أهمية وفرة الكتب وغنى المكتبات الجزائرية بالمخطوطات التي امتدت إلى المناطق النائية مما يؤكد >> أن الشعب الذي حافظ على ذلك القدر من المكتبات كان شعبا على درجة من التحضر خلافا لما زعمه الفرنسيون بعد احتلالهم للجزائر >> (3).

وبعد أن امتد معول الهدم والنهب الاستعماري إلى كل المؤسسات الدينية والتعليمية للقضاء على كل ملامح الحضارة الجزائرية العربية الاسلامية، أكدت فرنسا هدمها المادي بالشروع في التهديم المعنوي للجزائريين. والحقيقة أنها كانت تقوم بالعمليتين في الوقت نفسه ماديا ومعنويا وقد اتبعت في ذلك من الأساليب ما يلي:

1- محاربة الاسلام واللغة العربية:

أدرك الاحتلال الفرنسي تمام الإدراك أن اللغة العربية في الجزائر قبل أن تكون وسيلة مجردة للتعبير فإنها ركيزة أساسية من ركائز الأصالة الجزائرية في انتمايتها العربي الاسلامي، فقد كانت هي لغة الحضارة وعنوان العالم ودليل الاحترام، وكان الجزائريون

(1) أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، مرجع سابق، ج1، ص 304.

(2) المرجع نفسه، ص 305 (نقلا عن المجلة الافريقية سنة 1925م).

(3) المرجع نفسه، ص 314.

قبل الإحتلال يتنافسون في إجادتها لأنها لغة القرآن الكريم ولغة الأجداد، في الوقت الذي انحصرت فيه كل اللهجات في بعض المناطق النائية وعلى رؤوس الجبال. ومن ثمة فلم يكن غريبا أن يكون ضمن خطة الإحتلال في الإبادة الثقافية للجزائريين بسل من أولى خطواتها هو القضاء على اللغة العربية ومحاربتها، لأن في ذلك فصل للجزائريين عن قرآنيهم ودينيهم الذي هو سبب قوتهم وتماسكهم.

وقد تجلّت محاولات فرنسا في محاربة اللغة العربية وإبعادها عن الحياة الجزائرية اليومية، في محاولة نشر التعليم وفرضه باللغة الفرنسية في كل مراحلها وبرامجها، فبعد الإحتلال بقوة السلاح أصبح التعليم وسيلة نفوذ قوية كان لا بد من استعمالها لتقريب السكان المنهزمين من السلطة الفرنسية كما يقول مقررّ التعليم الأهلي بالجزائر مضيفاً بقوله : « وعليه فقد كان التعليم محلّ عناية كاملة من قبل الحكومة العامة » (1).

ويمكننا أن نستغني بعبارات هذا التقرير عن الوقوف عنده طويلاً حتى نكشف حقيقة سياسة فرنسا التعليمية وغاياتها وطرقها، لكن نكتفي بإيراد ما تحدث عنه أحمد طالب الإبراهيمي، مطولا واعتبره تحرياً للإرث الثقافي في الجزائر حيث قال: « فبعد أن استطاع المستعمر إيجاد شعب عاجز عن إعادة صورة ماضيه، وبعد أن أطفأ فيه وعيه لقيمه، تبتت في ذهنه وبواسطة المدرسة الفرنسية عادات جديدة في التفكير والشعور والعمل » (2).

ولم تكف فرنسا بإحلال اللغة الفرنسية مكان اللغة العربية وفرضها في التعليم. واعتبار اللغة العربية القومية -لغة الجزائريين- لغة أجنبية، لكنها كانت تراقب بصرامة المدارس القرآنية التي بقيت تؤدي دورها الضعيف والبسيط في تعليم اللغة العربية وتخفيف القرآن الكريم وتتابعها بالتضييق وبالغلق الواحدة تلو الأخرى، كما أنها لم تكن تسمح للجزائريين بتأسيس المدارس أو المعاهد لتدريس الدين واللغة العربية وإذا سمحت بانشائها للبعض فإنها كانت تشترط ألا يدرس فيها إلا القرآن تلاوة فقط، وبعض المبادئ الفقهية

(1) عبد الحميد زورر، نصوص ووثائق.. مرجع سابق، ص 218.

(2) Ahmed Taleb Ibrahimi, de la décolonisation à la révolution culturelle (Algérie, SNED, 1973), p12.13.

البسيطة مع حضر تدريس تفسير القرآن الكريم أو أية مواد اجتماعية وقومية كالتاريخ والتربية المدنية والقومية وإنها وإن سمحت برخصة التعليم أحيانا أو بإنشاء مدرسة لبعض الجزائريين فتخفيفا من غضبهم المتزايد ومحاولة التقرب إليهم وإيهامهم بأن الإدارة الفرنسية ليست ضد الدين وإنما ضد الذين يتخذون من التعليم وسيلة لاستعداد الناس ضدها وكانت نتيجة ذلك كله ما عبّر به المؤرخ الفرنسي أجرون "Ageron" قال: «أنه منذ 1885م وبعد أن أمحي كل أثر لإدارة تعني بأمور الأهالي، وضحي بكل مصالحتهم حسب إرادة الكولون وفي سبيلهم فقط، كان على التشريع الإسلامي، والتعليم القرآني أن يتلاشيا أمام سياسة الفرنسية المنتظرة» (1).

هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإن أول ما استهدفته سياسة الإدماج التدريجي فيما بعد لم يكن فرنسة المسلمين قطعا - في الجزائر - ولكن زلزلة وتهديم قوى التنظيم العربي بها نهائيا (2). وهذا ما يتضح لنا من متابعة سياسة فرنسا التي انتهجتها في منطقة القبائل فقد بدأت محاولات التعليم الفرنسي بهذه المنطقة قبل كل المناطق الجزائرية الأخرى. ولم يكن ذلك حبا فيها وفي أهلها ولا خدمة لمهمة "تمدين البربر" التي كان الفرنسيون يهذون بها، وإنما خدمة لأغراض استعمارية بحتة تهدف إلى بث الفرقة بين أفراد الشعب الواحد، وذلك بانتزاع البربر من الإسلام وضمهم إلى فرنسا بتدابير متعددة الأوجه منها تقوية اللهجة البربرية وإحيائها بالكتابة والنشر والتشجيع على التعامل اليومي بها. تم تمييز أصل البربر عن العرب وتغذية روح الانفصال والمواجهة فيهم ضد إخوانهم في الدين واللغة والوطن. وقد أولت فرنسا تحقيق هذه الأهداف إلى الإرساليات التنصيرية. الأمر الذي يعبر عن الهدف الأكبر والحقيقي لكل تلك التدابير. فقد كان مستشرقوا فرنسا ومنظروها يعتقدون أن إسلام "البربر" إسلام سطحي وأنه قد يتم لهم بسهولة تنصيرهم إذا ما رصدوا لهذا الغرض كثيرا من الأموال والبشر والصبر، ويتم لهم بناء على ذلك تقريبتهم من محيط الأوروبيين والمستوطنين ويتحقق لهم إضعاف الجبهة المحلية الجزائرية في مواجهتها للاحتلال بانتزاع كم كبير من الجزائريين من ساحة الصراع

(1) Charles Robert Ageron, Les Algériens Mesulmans et la France. Op Cit, p 1230

(2) Ibid, p 1231.

ضدهم، وخدمة لهذا الغرض الخطير نشطت فرنسا حركة بناء المدارس في منطقة القبائل وأمدتها بالأموال والدعم المعنوي وكذا جعلت في متناولها وفي خدمتها جيشا من الآباء ^{الإنجيليات} البيض (1) وكان على رأس هؤلاء الكاردينال لافيجري (1828-1892م) Charles Martial Lavigerie (*). أبرز وجه في حملة تنصير الجزائر (2). الذي استطاع بدعم حكومة فرنسا المادي بناء عدة مدارس، وكنائس، ومستوصفات، وكذا تأسيس عدة جمعيات تنصيرية تقوم كل مؤسسة منها بدورها في تنصير البربري خاصة والمسلم الجزائري عموما بعد وضع خطة أخضعها لدراسة عميقة ووضع لها شروطا هي في الحقيقة خلاصة تقارير واقتراحات المؤتمرات التنصيرية (**). التي كانت تنشطها الإرساليات المختلفة باسم حكومة فرنسا في دول شمال إفريقيا عموما وفي الجزائر على وجه الخصوص.

ومع كل ذلك فقد منيت سياسة فرنسا في تنصير الجزائريين عموما، والبربر عسى وجه الخصوص بالفشل الذريع (3) باعتراف قساوسة فرنسا أنفسهم فقد قال الأب جيرار "Gerard": "عندما جبت الجزائر كنت آمل أن يعتنق المسلمون المسيحية، ولكن بعد مرور خمسة عشر عاما تبين لي أنني واهم وشعر الرهبان الذين توافدوا من فرنسا، وكذلك المدينون، أن المسلمين لم يتنصروا، بل ازدادوا تمسكا بدينهم وتعصبا له (4).

(*) الكاردينال لافيجري: C. M. Lavigerie (1828-1892م) فرنسي، له شهادة دكتوراه في اللاهوت من جامعة السوربون بفرنسا، وأخرى في القانون المدني والكنسي من جامعة روما. نشط في بداية حياته التنصيرية في لبنان وفلسطين خاصة في بناء المباني للقساوسة والأيام وتوزيع التبوعات على المحتاجين بين 1860-1866م. ثم قدم إلى الجزائر وأقام بها وأخضرت نشاطه التنصيري في منطقة القبائل وكان أمين دعامة للوجود الفرنسي بها.

انظر نور سلمان، المرجع السابق، ص 97-98 بتصرف. نقلا عن :

(Felix Klein, Le cardianl lavigerie) .

(1) تشمل خدمات الأمهات البيض في التمريض وتعليم البنات التدبير المنزلية، وحياكة السجاد والخياطة بالإضافة إلى تعليمهن مبادئ المسيحية.

(2) المرجع نفسه، ص 97.

(**) ومن هذه المؤتمرات المؤتمر الافتخارستي الذي عقد في تونس سنة 1930م والذي شارك فيه خمسمائة 500 قسيس، وأعلن فيه أسقف قرطاجنة أن هذا المؤتمر هو حملة صليبية تاسعة على تونس.

(3) Charles Robert Ageron, Histoire de l'Algérie contemporaine, Op Cit, p64.

(4) المرجع السابق، ص 104 نقلا عن :

(Fadhma Aith Mansour Amrouche, Histoire de ma vie) .

وقد سعت فرنسا بكل قوة إلى محو كل أثر للشرع الإسلامي في منطقة القبائل. وانتهجت لذلك أسلوب تقوية اللهجة البربرية بين السكان أولاً لتجعل منها ظهيراً ضد اللغة العربية وحافزاً قوياً يحول دون البربر المسلمين وبين دينهم وشرعهم المتمثل في القرآن الكريم، ومن ثمّ حاجزاً دون تواصل الأخوة الدينية بين البربر والعرب التي قوتها القرون الطويلة وصهرتها في وحدة قوية، وبادرت فرنسا من ثمّة إلى كتابة اللهجات البربرية بالحروف اللاتينية، وتألّف كتب جمع فيها باحثوها آداب البربر، كما نشطت الكنيسة في توزيع الأناجيل التي كتبت باللهجة البربرية - بحروف لاتينية - ولم تكن كل هذه التدابير وغيرها لخدمة البربر قطعاً، وإنما لخدمة أغراض استعمارية بحتة وتمثل في توحيد البربر - بعد تعبئتهم استعماريًا - ضد العرب وهو ما أكّده المؤرخ الفرنسي أجرون بقوله : «>> إن السياسة الفرنسية البربرية في مناطق القبائل التي طبقتها فرنسا بكل سرية لكن باستمرار دائم كانت تهدف بصفة أقل إلى فرنسة البربر لكن خاصة إلى توجيههم ضد العرب»(1).

وقد كانت أهم مبادئ التعليم الاستعماري في الجزائر تتمثل خاصة في تخريب الجزائري إمكانية تحوله إلى وسيلة تحريك اجتماعية، ولذلك عملت فرنسا إلى إيجاد نخبة مثقفة باللغة والثقافة الفرنسيين - مزيفة - مقطّعة من الجماهير ومقتلعة منها اقتلاعاً لتصبح بلا جذور وغريبة بين أهلها، بحيث تنبذ تقاليد أجدادها وتنتكر لماضيها بل وتتباهى بتقليد الأسياد المحتلين، وقد عمدت فرنسا في تعليمها لهم عدم الاكتفاء بتلقينهم الفرنسية لغة الاحتلال وترسيخ ثقافته في أذهانهم وإنما علّمتهم أيضاً أنه ليس هناك شيء خارج هذه الثقافة وبأن تاريخ الجزائر يبدأ يوم دخولها هي سنة 1830م >>(2).

وكانت سلطة الاحتلال الفرنسي هي التي تتولى بنفسها اختيار المعلمين للغة العربية والأئمة لتوزعهم على المدارس والمساجد. وقد وصل بهم الأمر إلى أن الامام لا يتم اختياره إلا بعد أن يكون قد مرّ بكل مراحل الجوسسة وهو ما اعترف به م. بيرك "M.BIRK" مدير الشؤون الأهلية في الجزائر في كشفه لبعض أساليب الاستعمار الفرنسي

(1) C.R. Ageron, Les Algériens Musulmans et la France, Op Cit, p 1231.

(2) Ahmed Taleb Ibrahim, Op Cit, p 13.

في محاربة الدين الإسلامي. يقول: ⁷⁷لقد وصل بنا امتهان واحتقار الدين الإسلامي إلى درجة أننا لم نعد نسمح بتسمية المفتي أو الإمام إلا من بين الذين اجتازوا سائر درجات التحسس(*) وللعلم فإن هذا المفتي أو هذا الإمام هو الذي سيتولى تعليم المسلمين أمور دينهم. ولم يسلم الإسلام الخفيف من حملات التشويه والتقليل لأهميته وقيمه الروحية والعلمية بين أوساط المتعلمين عن طريق برامج التعليم، أو الحملات التنصيرية التي كانت تشجعها حكومة الاحتلال مادياً ومعنوياً وخاصة بمنطقة القبائل. وعن طريق مقاومة الشريعة الإسلامية التي كانت فرنسا ترى فيها العقبة الوحيدة التي كانت تحول دون نجاح سياستها الإدماجية والتجنيسية. وكانت سلطة الاحتلال تعد التخلي عنها شرطاً أساسياً للتمتع بالحقوق المدنية الفرنسية. وتمادت فرنسا في تنفيذ مشروعها التنصيري بأنها كانت تجعل كثيراً من الحقوق لا ينالها إلا النصراني. ومن ثم فقد أصبح التنصير طريقاً إلى التمتع ببعض الحقوق» (1).

وكان الواقع الاقتصادي الصعب الذي فرضته فرنسا على السكان الجزائريين وسياسة التفجير والتجويد في حقهم أن دفع بأحد الرحالة البلجيكيين إلى وصف العمال الجزائريين قبيل الحرب العالمية على أنهم أصبحوا لا يزالون بالإسلام البتة. بل إن الإسلام ليرى متمزقا تمزق الثوب البالي على أرضية الجزائر» (2). وأن صبغة العادات الغربية قد ترسخت فيهم باشتراكهم مع العمال الفرنسيين في السعي وراء الغرض ونيل الغاية ونزاع أرباب رؤوس الأموال نزاعاً اقتصادياً، وانتهى الرحالة البلجيكي إلى حكم يبدو فيه تأثره بتاريخ المسيحية في بلاده وبالصرع الطبقي في أوروبا يقول فيه: ⁷⁸فلو كان في الجزائر معامل

(*) عين مرانت "Mirant" مدير الشؤون الأهلية في الجزائر، مسؤولاً فرنسياً نصرانياً على إدارة شعائر الإسلام متحدياً في ذلك المنطق والمألوف معاً، وكان من بين هؤلاء موظف في سلك التعليم انظر نور سلمان، المرجع السابق، ص 87.

(1) لوتورب ستودارد، حاضر العالم الإسلامي، ترجمة عمّاج نويهض، تعليق الأمير شكيب أرسلان (القاهرة، مكتبة عيسى البابي وشركائه، 1352هـ)، ج 1، ص 86.

(2) عمار الطالبي، ابن باديس حياته واناره (لبنان، دار الغرب الإسلامي، 1983م)، ط 2، ص 48.

مثل التي في أوروبا لاختنفى الاسلام السنني مع تلك الديار المغربية اختفاء الكاثوليكية القديمة من ديارنا أمام تيار الصناعة (1).

ومع أن تعليل هذا السائح الأوروبي غير مبرر ولا واقعي، إلا أنه يشتمل على وجه من الحقيقة المؤسفة التي طبعت المسلمين الجزائريين في تلك الفترة وهي فتور الغيرة الدينية، والنعوذ عن الدعوة الإسلامية مع أنهم لم يكونوا ينكرون الإسلام عقيدة ودينا لهم. وقد تعرض العلماء المصلحون في الجزائر لهذه القضية على صفحات جرائدهم وعالجوا الموضوع بطريقتهم كما سنرى. وقد تكون قبضة البطش الاستعماري وسياسة النهب الفرنسي، والظلم والجوع كلها وغيرها مبررات منطقية أفضت إلى ذلك الفتور. لكنها في النهاية كانت مرحلة في تاريخ الشعب الجزائري قبل أن يعرف للحرية طريقا ووسيلة. ولما كانت فرنسا هي الأقوى، وكانت تحتكم إلى سياسة الحديد والنار فإنها استطاعت إيجاد جو من الفراغ الروحي والتقافي الهائل بين صفوف الشعب الجزائري وخلق اضطراب شنت جهود المتعلمين. تم بعث نخبة مزيفة تتنكر لبني جلدتها وتدور في فلك الاحتلال وإدارته وبلغته وثقافته وعاداته.. لكن رد الفعل الشعبي الصامت، الطويل والقد لم يمكنها من تحقيق النجاح الكامل بل وجعل من انتصارها المزعوم وهما حقيقيا.

2- محاربة التاريخ الجزائري في بعده العربي الإسلامي: لقد بذلت فرنسا جهودا

جبارة ومضنية في محاولة تشويه ومسح التاريخ الجزائري في بعده العربي الإسلامي، ووجدت لذلك جيوشا من حملة الأقلام الإعلامية والتاريخية والسياسية من الباحثين والمستشرقين في حملة جائرة طوال عهدها في الجزائر، ومنذ أن وطئت أقدام جنودها أراضي الجزائر في 1830م وقد كانت وسائلها في ذلك

* برامح التعليم المختلفة: كانت حكومة الاحتلال تستغل التعليم بمختلف مراحلها وعن طريق برامج لتفرض على الأطفال الجزائريين هضم نسبتهم إلى الغالبيين أجداد الفرنسيين⁽²⁾ بتدريسهم وتعليمهم تاريخهم...» (3). كما كانت تفرض على أطفال

(1) عمّار الطالبي، المرجع السابق، ج1، ص 48-49. (نقلا عن لونورب ستودارد، حاضر العالم الإسلامي).

(2) المرجع نفسه، ص10. (انظر مقدمة الكتاب التي دجها الأستاذ مالك بن نبي)

(3) المرجع نفسه، ص 51.

المدارس المسلمين أن ينشدوا: « كان أجدادنا من الغالين، وكانت بلادنا في القديم تسمى غاليا »⁽¹⁾ وعملت فرنسا بكل الوسائل على إبعاد اللغة العربية عن المدارس في منطقة القبائل وفرضت بدلها اللغة الفرنسية وكانت تحرض السكان على تعلم وتداول اللهجة البربرية على أنها لغتهم أو بدلا منها الفرنسية وبنيت على ذلك آماها في تمزيق وحدة الشعب الجزائري وقد صرح أحد المختصين في شؤون البربر السيد دوتيه "Dottet" بأهداف فرنسا التدريجية في هذا المجال، يقول: «...لذلك يجب علينا قبل كل شيء أن لا نعرّبه أكثر مما هو ولأجل بلوغ هذه الغاية يجب أن يحمل البربر على الثقافة الفرنسية أو أن يتكلموا بالفرنساوي قبل وصول الثقافة العربية واللسان العربي إليهم...»⁽²⁾.

ويدخل في هذا المجال دأب سلطة الاحتلال على محاربة التقاليد الإسلامية والعادات العربية المتأصلة في الشعب الجزائري ونشر تم فرض العادات والسيوكات الأوروبية من خلال جهاز التعليم في اللباس والمعاملة وطريقة التفكير بالإضافة إلى اللغة والثقافة عموما. وقد اعترف بذلك كده المؤتمر التبشيري الذي انعقد بنكنو بالهند في سنة 1911م والذي عالج مسألة محاربة الإسلام في أفريقيا وقد كانت خلاصة بعض الاقتراحات تقول بأن «التربية الفردية هي نفسها من قبيل قوة تنحل بها عرى الروابط الإسلامية»⁽²⁾. بما في ذلك الفكرية والميول والنزعات. وكان الاحتكام في كل ذلك إلى منطق القوة وحجة الشيطان. كما كان الهدف واضحا في زعزعة النفوس وإضعاف الثقة والولاء الوطني والقومي والديني للجزائريين.

* الكتب والمؤلفات والأبحاث: إن كثيرا من حملة الأقلام ممن جندتهم حكومة الاحتلال وكانت تقيم لهم حملات للدعاية والإشهار لأفكارهم وآرائهم، وتلقبهم بالخيراء والأساتذة وتبجيزهم بالرتب العسكرية المرموقة، لم يكونوا في مستوى هذه الهالة من الشهرة والعلم، إذ لم يكن معظمهم باحثين أو مؤرخين بالمعنى الاختصاصي الدقيق للكلمة. وإنما كانوا عسكريين بالمهنة أولا، جاؤوا مع حملة الغزو « أو كانوا هواة للتاريخ والسياحة

(1) عمار الطالبي ، المرجع السابق، ج 1، ص 50.

(2) أ.ل. شاتيليه، الغارة على العالم الإسلامي، ترجمة محب الدين الخطيب ومساعد الباقي (لبنان، مكتبة أسامة بين

ومن كتاب الثقافة العامة والانطباعات والمذكرات والتقارير الرسمية» (1). ومن ثمّ فلم تكن لهم صلة بالبحث العلمي الرصين والمجرد ناهيك عن دعوى خبرتهم وأستاذيتهم فيه. وقد تتبع هؤلاء في كتاباتهم التاريخية هذه، الخاصة بالجزائر، فلسفة خاصة بنوها على :

- عدم الثقة باللّغة العربية من حيث كونها أداة للتّاريخ، فلم يكن هؤلاء ينقلون ما كتب بها عن تاريخ الجزائر، ولا يثقون إلا بما كانوا هم يكتبون وبلغتهم. وكان معظمهم يجهل اللّغة العربية أصلاً ويعتمدون فيها على ترجمة العسكريين في فهم الوقائع وتفسير مواقف الجزائريين والروح الأهلية.

- عدم الاعتراف بالجزائريين كشعب له كيان موحد، أو كأمة وإنما كقبائل متنافرة لا تخضعها إلا القوة تبريراً لوجودهم وتطبيق ذلك ، على كل العهود التي سبقتهم.

- إهمال تاريخ الجزائر الثقافي والسياسي والاجتماعي وقصر الإهتمام بتاريخها العسكري والديني فقط.

-- تشويه الحقائق التاريخية وتبريرها وتفسيرها بما يخدم مصالح السلطة والكولون. وقد جاءت كتاباتهم مـخـا للحقيقة الجردة، وأبعد ما تكون عن الحقيقة التاريخية، كما امتازت بالتحيز والذاتية وتبرير الاحتلال مما أفقدها روح البحث العلمي النزيه وطبعها بالرسمية الضيقة والمصلحة المادية البحتة على طول عهد الاحتلال دون تمييز بين الفترة العسكرية (1830 - 1880م) أو فترة المؤرخين الاختصاصيين (2) (1880-1954م) لأن كتابات الفترة الأولى اتخذت كأساس وكمراجع وحيد للمؤرخين في الفترة التالية في تتبع سير الأحداث وتفسير عمق مجرياتها. ومن ثمّ فإن نتائج هذه الكتابات لا بد أن ترتبط قطعاً بمنطق المقدمات ذات الأحكام المسبقة.

(1) أبو القاسم سعد الله، أحداث وآراء، مرجع سابق، ج1، ص 34.

(2) يرى أبو القاسم سعد الله أن كتابة التاريخ في عهد الاحتلال الفرنسي قد مرت بمرحلتين هما: فترة المؤرخين العسكريين 1830 - 1880م باستثناء سنوات 1858 - 1860م ذات الحكم المدني مع بقائه عسكرياً بالنسبة للجزائريين.

نم فترة المؤرخين الاجتماعيين 1880 - 1954م. انظر: المرجع نفسه، ص 20.

ويدخل في هذا المجال المؤلفات والكتب الخاصة بالبربر التي جندت لها إدارة الاحتلال وحكومته عدد/كبيراً من "مستشرقى" فرنسا و"باحثيها" حول الآداب البربرية، والجنس البربري والتي اكتست طابعاً علمياً في الظاهر، لكن الواقع يشهد على سياستها المدروسة وغرضها في تمزيق الشعب الواحد ولم تقتصر على الجزائر وإنما شملت دول شمال أفريقيا - تونس وليبيا والمغرب الأقصى - كما تدخل في ذلك المعاهد والمدارس العليا التي أسستها فرنسا في عاصمتها لخدمة هذه الأغراض التفريقية التي كان يحاضر بها كبار الأساتذة الذين كانوا يوصفون "بالمختصين في شؤون البربر".

ولم تسلم الكتب المدرسية في باريز من انتهاج سياسة التشويه التاريخي للحقائق فقد سمح سياسيو فرنسا لأنفسهم بمغالطة جيلين كاملين من الفرنسيين في مختلف مراحل التعليم ولمدة قرن كامل على حدّ تقدير السيد "كلود بوردي" C.Bordet الذي كشف عن ذلك في مقالاته الصحفية بجريدة "فرانس أوبسرفاتور" "France Observateur" والتي فنّد بها مختلف ادعاءات ومزاعم الفرنسيين التي وصفها بالهذيان، والتي كان الاحتلال الفرنسي يحاول من خلالها تبرير أعماله البربرية في الجزائر وإهدار أرواح وأموال الفرنسيين في سبيل ذلك (1).

* عن طريق الفن السينمائي:

بالإضافة إلى كل هذه الوسائل، لجأت سلطة الاحتلال الفرنسي، وحكومة باريز إلى أفانين مبتكرة في تركيز دعائم وجودها من جهة ثم تعميق تدابير القمع الفكري وحملات الاحتقار والتبئيس والتشوية لحقيقة الإنسان الجزائري، فبعد المؤلفات الكثيرة في مجال التاريخ والانتروبولوجيا والأدب والتربية، وبعد المقالات الصحفية الضافية والمستمرة وكذا المحاضرات التي كانت فرنسا تستغلّها لها من "العلماء" أحقدهم على الجزائريين وأبغضهم للعربية والإسلام، وأكثرهم روحاً استعمارية، بادرت إلى استغلال الفنّ السينمائي لخدمة مآرب هي. أقرب إلى الجرائم في حق الإنسانية. فقد انتجت كثيراً من الأشربة والأفلام التي تظهر الجزائري في صورة الإنسان المتفكّخ خلقاً، الجامد ذهنياً،

(1) الفضيل الورتيلاني، المصدر السابق، ص 395. بتصرف. (نقلاً عن جريدة "فرانس أوبسرفاتور")

المتحجر عاطفة، وحرى به أن يكون موضوع سخيرية لغباوته وبلادته لا موضوع اشفاق واحترام. وكانت وسائل الاحتلال المختلفة تروج لهذه الأفلام بعرضها قصد تسلية المستوطنين والأوربيين عموما سواء في الجزائر أو في أوروبا وفي شمالي افريقيا نفسها.

ويدخل في هذا المجال فيلم "جورج ميليس" "georges Mellies" سنة 1897م الذي كان يحمل عنوان "المسلم المضحك" "Le Musulman Rigolo" وفيلم "علي برويو" "Ali Borboyo" المملوء بالمشاهد الساخرة المشوهة لواقع الجزائريين وعاداتهم وأساليب عيشهم، والذي كان يستثير في نفوس المشاهدين مزيجا من التقزير المشوب باحتقار أصحاب البلاد»(1).

وكما تمّ لفرنسا تدمير الجزائريين ماديا بنهب ممتلكاتهم ومصالحهم يبدو أنه تمّ أو كاد في تلك الفترة -تدميرهم معنويا عبر حملات الاذلال والتحقير والتشكيك هذه وزعزعة نفسية الجزائري في نسبه لأجداده وانتمائه الحضاري وتلاحمه مع مواطنيه، فقد جعلت منه - كما صورته عبر أفلامها الدعائية - عنصرا خاملا متخلفا خجلا من انتمائه القومي والحضاري، وأكرهته بقهرها على الاحساس بالدونية والشعور بالنقص واقنعتهم بمرور الزمن وطول المعاناة وتراكم النكبات وتعاضم الطغيان بأنه أدنى من الفرنسي و"الأوروبي" عموما.. وقد أفرزت هذه المعطيات جيلا أعطى أمثلة مؤسفة في التنكر للوطن والأصل ومواقف شاذة وصلت إلى حد نفي وجود الوطن الجزائري من الأساس ونقصه من هذه موقف السيد فرحات عباس في مقولته المشهور -المؤسفة-: >> أنا فرنسا»(2). كأبلغ دليل على مدى تأثير الحملة الفرنسية المسعورة ضد ثوابت الشعب الجزائري وزعزعه إيمانه بها وتحويله إلى عالم من الضياع والتفتت، وهو ما قامت إزاءه جمعية العلماء المسلمين الجزائريين بحملة مركزة فردت الأمور إلى نصابها كما سنرى.

*الجمعيات والنوادي: دأب المستوطنون الفرنسيون منذ السنوات الأولى للاحتلال إلى تدعيم الوجود الفرنسي في الجزائر العسكري الذي فرضته قوة العتاد وكثرة العدد

(1) نور سديدان، المرجع السابق، ص48 بتصرف (نتلا عن: Rachid Boudjedra, Naissance du Cinéma

(Algérien

(2) ستعرض إلى هذا المقال وهذه الشخصية وكذا الرد عليه في الفصل الآتية.

بالوجود الحضاري العنمي والثقافي والتاريخي... فقد بادر الكتاب والصحفيون وكذا المؤرخون إلى مرافقة الحملات العسكرية وتبع آثار الجنود إلى المناطق الجزائرية التي يتم احتلالها ليهتم كل منهم بالجانب الذي يعنيه من كتابة الانطباعات ووصف السكنات ومعالم الحضارة إلى التنقيب على الآثار والتأريخ لها مدغمين في ذلك بخرائط وأبحاث ودراسات مسبقة عن هذه المناطق وَضَعَهَا أصحابها قبل عملية الغزو بسنين طويلة كما رأينا. ويبدو أن تعدد مجالات البحث واتساع رقعتها دفع هؤلاء إلى تنظيم جهودهم ميدانيا وإداريا وتقسيم مجالات العمل فيما بينهم إلى جمعيات، تختص كل منها في مجال معين، فنجد الجمعيات التاريخية والآثرية والتبشيرية والرياضية وغيرها... على غرار ما يوجد في فرنسا. وقد أحصى... أبو القاسم سعد الله -مثلا- تسعة عشر (19) جمعية ولجنة ومعهدا ومدرسة عليا اهتمت كلها بتاريخ الجزائر، واثنى عشر (12) جمعية عضوة في اتحادية الجمعيات العلمية في شمال إفريقيا التي تأسست سنة 1935م (1). وكانت لجنتها العلمية تابعة لإدارة وزارة الحربية مباشرة، كما كان أغلب أعضائها عسكريين مما يبين لنا حقيقة دورها الخطير في عملية الإبادة الثقافية المقصودة لمعالم الحضارة في الجزائر من حيث التجاهل الكلي للتراث المكتوب عن الجزائر، العربي منه -خاصة- وكتابة تاريخ جديد بيد استعمارية وعين استعمارية همّها خدمة مصالح الاستعمار الآنية والبعيدة لا مجال فيه للموضوعية العلمية ولا التحليل النزيه ولا الحقيقة المجردة.

وتعتبر "المجلة الإفريقية" "La Revue Africaine" أهم دليل وشاهد على اهتمامات الجمعيات وغيرها، وكذا على طبيعة أبحاثها وأهدافها الاستعمارية البحتة التي أدت في سنواتها الأولى دورها في اكتشاف مناطق الجزائر - المستعمرة الجميلة والغنية - قصد استغلال خيراتها وكوزها المختلفة، وتدبيح الكتب والمؤلفات والمقالات بها إثناء للحركة الثقافية في فرنسا الاستعمارية - في هذا المجال، ثم الدعاية والتشجيع على هجرة المزيد من الفرنسيين والأوروبيين إليها، ومن ثمّ تدعيم رأي الاحتلال الدائم والشامل للجزائر الذي فرضه العسكريون رغم مواقف المعارضة الفرنسية ضده.

(1) أبو القاسم سعد الله، أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، مرجع سابق، ج1، ص 38-39 بتصرف.

وللاشارة فقد كان لهذه الجمعيات نوادي وصحفا خاصة، وقد ساهمت كل منها في مجالها في إثراء المشاريع والأهداف، وكان عددها يتزايد باستمرار في حين منعت سلطة الاحتلال على الجزائريين منعاً باتاً إنشاء الجمعيات وكذا الصحف(1). تأكيداً لإرادة العزلة والتبئيس والإبادة الثقافية، واستمر ذلك حتى بداية القرن العشرين كما سنرى، لتحكم على الجزائريين بالخنول وتنزع عنهم كل دليل حضاري، ثم تنسب سبب تخلفهم الايديولوجي الاجتماعي والثقافي - كذبا- إلى أصولهم العرقية وجنسهم العربي ودينهم، وتعدى ذلك إلى تدريس هذا المسخ في جامعاتها ومعاهدها سواء في فرنسا أو في الجزائر (2)

4- الأدبيات الاستعمارية الفرنسية والأوروبية تحكم على الاستعمار الفرنسي

في الجزائر: شهدت فترة الحرب العالمية الأولى، اتجاه كثير من الأوربيين - الفرنسيين منهم على وجه الخصوص - نحو الكتابة في موضوع الأزمة الجزائرية، مع اختلاف وحاجة كل منهم إليها وهدفهم منها، ويتفق أغلبهم في إرادة ترمير ايديولوجية خاصة تنحو إلى ترمير الوجود الفرنسي في الجزائر ومن ثمة ترمير وسائل الاحتلال بكل وجوهها دون التفكير أو الإشارة القرية أو البعيدة إلى وضعه هو -الاحتلال الفرنسي- محل الاتهام فيما آلت إليه وضعية الجزائريين المزرية من فقر وجهل ومرض وتخلف فظيع. وجاءت مؤلفاتهم سورة واضحة لتكريس صوت الإدارة الاستعمارية وسوط سلطتها، وتشويه الحقائق، شأنها في ذلك شأن مختلف وسائل الاتصال الفرنسي بالجزائريين وأهدافها. فقد أعاد مؤلفوها مثلاً "نظرية الإدماج" إلى واجهة الاهتمامات بالتحليل والمراجعة بعدما حنلوا مواقف الجزائريين إزاءها. وإذا كان الفرنسيون أنفسهم يرفضون سياسة الإدماج وقد حاربوها بلا هوادة في الجزائر وفي باريز باختلاف بينهم في الدوافع التي لم تكن فيها للجزائريين أدنى مصلحة ثم إن سياسة الإدماج نفسها كانت تكريسا للاحتلال الدائم، والعمل بالتدرج وباستمرار على نحو الجزائر بمقوماتها من الخارطة الحضارية البشرية، فإن الإدماج عند هؤلاء الرومانسيين -فيما بعد الحرب العالمية الأولى-.

(1) راجع ما قاله محمد فريد وحدي بعد زيارته إلى الجزائر سنة 1901م في : أحمد بن نعمان، المرجع السابق،

كانت مجرد فكرة، ولم تتعدى عندهم هذا المستوى حيث لم يقوموا بإزائها بأي شيء ملموس وعملي لتحقيقها.

والجديد في الأدبيات الاستعمارية هو دوافعها الأيديولوجية الجديدة، فالمسألة الأهلية وتطور الوضعية الجزائرية المطبوع بالوعي والشمول هو الذي كان وراء صنع الأحداث وخلق أوراق منظري الاحتلال بكل مؤسساته وفئاته على مستوى الفكر والإدارة، فكان التشبث بنظرية الإدماج، المحطة الأخيرة للكفاح الفرنسي، ويتعلق الأمر في هذه المرة، بكفاح البقاء، ومستقبل المستعمرة غير الأكيد في الجزائر(1). وقد قامت الدكتورة فضيلة يحيى بدراسة تحليلية لمعظم المؤلفات والأدبيات الفرنسية عن الجزائر. أثبتت من خلالها ملاحظة وتتبع الشعور بالغرابة والالتعذر عند أوروبي الجزائر بداية من عشرينات هذا القرن وخاصة بين 1920-1930م. وقد عبّر عن أحدهم وهو الكاتب جان يوممي "Jean Beaumet" فيما بعد الاستقلال بقوله: «بين سنوات 1931-1940م بدأت أشك حقا في المصير المراد لمغامرتنا»(2). ومن ثمّ فالدعوة إلى الإدماج المفروضة سابقا - غير الجادة في حقيقتها منذ البداية- كانت في حدّ ذاتها في هذه الفترة تعبيرا عن الشعور بالقلق، والغرابة وعدم الاستقرار على أرض أفريقيا لكنها كانت أيضا ذريعة وظفت لزعزعة المستعمرة، والسهر على المصالح الكولونيالية وربح الوقت الأطول قبل نفاذ صير المستعمرة وتورته»(3).

والحقيقة أن الكتاب الفرنسيين لم يقتنعوا أبدا وبأي وجه من الوجوه بالادعاء الاستعماري القائل "بتمدين البدو" أو "برسالة الحضارة"، لكنهم مع ذلك لم يستطيعوا الانفلات من أيديولوجية عصرهم -ذريعة وهدفا- وامتازت أفكارهم الخاصة بأنها كانت هي بذاتها أيديولوجية قلقة، وأيديولوجية ضغط وجدت لتدافع عن مرحلة النهاية وتبريرها وعن فكر الاستسلام للأمر الواقع(4) وأنها كانت مقنعة كافتتاح الفكر

(1) Fadhila Yahiamui, Op Cit, p156.

(2) IDEM.

(3) Ibid, p 157 .

(4) Idem

الاستعماري نفسه، بمنطق الهزيمة النكراء(1) كنهاية منطقيّة لواقع غير منطقي بعد أن استحال عليها موضوعيا أن تجمع لوقت طويل بين المهمة الايديولوجية المتحيزة والايديولوجية المخردة .

وتشير بعض المؤلفات الأكاديمية التاريخية التي تعرضت للجزائر منذ الاحتلال وكذا الأدبيات الأوروبية في عشرينات هذا القرن إلى أنه لم يبق من الجزائر بداية من سنة 1870م فما فوق إلا صورة هلامية أو ضبابية « بحيث فقدت كل معنى للنوحدة والترايط بين أفراد المجتمع فيها ولم يبق منها سوى علاقات واهية ومجردة بين أفراد... وفوضى وصرع بين طبقات داخل كداس بشري » حسبما لاحظته الكاتب لويس لوكوك "Luis Le Coq"(2) وأكدته مؤلفة كتاب "المملكة الفرنسية" آني قولدزيغر "Annie Goldzeiguer" فقالت : إن زوايا الدراسة و معلومات ومعطيات التحليل و الشهادات^{كلها} قد أعطتها دليلا قاطعا على أن المجتمع الجزائري لم يعد موجودا إلا في حالة سراب بالنسبة للجندي، وللمعمر، وللإداري، وللحكومة المركزية، وكذا بالنسبة للجزائري نفسه الذي حيل دون محاولاته لإعطاء هويته الأصالة الحقيقية المعتدى عليها « وأضافت مؤكدة » بأنه لم يبق من الجزائر سوى كداس اجتماعي معقد تتعايش فيه مجموعة من المجتمعات مختلفة العقلية والتراكيب الفكرية، والميكانيزمات والمنابع الثقافية لكنها كانت كلها مقنعة بقناع من العبارات الموّحدة «(3).

وإذا كانت هذه الشهادة الفرنسية دليل نية الاحتلال الفرنسي الدائم، وسياسة الإبادة المادية والمعنوية للجزائريين، فقد وضّحت بخاصة دأب المستعمر الفرنسي على فكّ البنيات الاجتماعية المتلاحمة للمجتمع الجزائري، بهدف إيجاد صورة لمسوخ اجتماعي ليكن "هلامي" أو "سراب" .. لكنه في النهاية: هو جماهير شعبية حقيرة أو كداس اجتماعي ممسوخ الهوية والهدف. وهذا هو بالذات الهدف الخوري لأساليب ووسائل الاتصال الفرنسي بالجزائريين على أجدابته وانغلاقه، وهو ما عبرت عنه آني قولدزيغر في موضع

(1) Fadila Yahiaoui, Op Cit, p 158.

(2) Ibid, p 153

(3) Annie Goldzeiguer. Op Cit, p 47.

آخر من كتابها بقولها: القاعدة العامة - عند منظري الاحتلال الفرنسي - هي أن الهجوم الاستعماري استهدف لا إلى تصفية الأهالي ولكن إلى تفكيك وتفتيت مجتمعهم، لأنه إذا كان ولا بد من تلاميذ واندثار الجسم الاجتماعي للنخبة لأسباب أمنية، فإن الأفراد لا بد أن يتحولوا إلى يد عاملة ضرورية للأعمال الشاقة والدونية - الوسيلة الضرورية لاستغلال الجزائر من طرف الكولون - وهذه أهداف غايتها تمزيق النسيج الاجتماعي الجزائري... وأضاف... إن الشبكات الخاملة غير المتفاعلة تسمح بالهجمات القوية المتلاحمة للولوج دون عناء لفك السلسلة... (1).

والخلاصة. فإنه يمكننا وصف الاتصال الفرنسي بالجزائريين، بكل أساليبه ووسائله، بأنه كان وحشيا وكان فذا كما كان الاستعمار الفرنسي نفسه بآلته الحربية المدمرة، يدفعنا إلى هذا الوصف وبالبحاح، وضع الجزائر والمجتمع الجزائري في عشرينات هذا القرن، الذي يعتبر شاهداً على نجاح هذا الاتصال في بلوغ هدف خطير وتحقيق غاية أشنع هي جمهرة الجزائريين وفك انسجامهم، لكن هل تم لفرنسا النجاح الكامل في بلوغ هذه الغاية؟.

الأدبيات الفرنسية تنفي ذلك بكل قوة وتأكيد، وقد عبرت هي نفسها - كما رأينا - عن فكر النهاية وواقع الهزيمة، واقتنعت وهي في أوج الاحتفال المثوي للنصر، بأنه كان آخر منعرج للاحتلال بل أنه احتفال تأييدي للوجود الاستعماري في الجزائر، كما تؤكد أني فولدزيفر ملاحظة أن الشبكات المنحلة والبنيات المتداعية للنسيج الاجتماعي الجزائري كانت في استعداد تام لأن تبعث الحياة من جديد في المجتمع الجزائري (2). وتؤكد لكل ملاحظ أن هذه الحقبة من الزمن اثبتت استحالة تدوير الأمة مهما كان ميزان القوى في صالح عدوها، وأن البنيات الاجتماعية بدأت تلملم شعنها وتتحسس شخصيتها... (3). فقد شهدت الجزائر في العشرينات وخاصة بداية من 1930م اتصالاً من نوع آخر بالجزائريين هو الاتصال الجزائري الوطني الذي استعمل الوسائل نفسها - تقريباً -

(1) Annie Goldzeiguer, Op Cit, p 46.

(2) Ibid, p47.

(3) صالح عوض، مرجع سابق. ط2، ج1، ص 190.

التي استعملها الاتصال الفرنسي، اتفقت أساليبه وأشكاله ومضامينه -ظاهرا على الأقل- حول هدف بعث الحياة في شعب مغلوب ومحكوم عليه بالموت استعماريا. وشهدت معطيات الواقع الجزائري على أن بناء جينات الانبعاث الجديد بتحويل فرامنه إلى ميكانيزمات مقاومة قوية وأصبيلة وإعادة رصّ البنيات بأكثر قوة وأكثر فعالية يمكن بل قوي وأصيل، لكن أساليب هذا الاتصال في النهاية قد اختلفت من حيث الطرح والخلفيات الفكرية وأرضية العمل وجعلت الجزائريين يقتسمون هذه الغايات. سنخصص الفصل الثاني للاطلاع على قسمين منها ودراسة حيثياتهما. شخصياتهما ومعطياتهما.

القادر للعلوم الإسلامية

الفصل الثاني :

أساليب المقاومة الجزائرية ووسائل اتصالها بالجزائريين حتى بداية الحرب العالمية الثانية

تمهيد

المبحث الأول: بين المقاومة السياسية والمقاومة المسلحة حتى 1895م.

أ- المقاومة السلمية

ب- المقاومة المسلحة

ج- الهجرة

د- المقاطعة

هـ- الإنكفاء على الذات

المبحث الثاني: وسائل النضال السياسي الاتصالية

... وسائل التيار الإدماجي

... وسائل التيار الإستقلالي

في غياب جهاز حكومي جزائري رسمي، أو قيادة موحدة تقوم بتنظيم الجهود وتوجيهها عبر قنوات ملائمة لرد الفعل المباشر على أساليب ووسائل الإتصال الفرنسي. التي كانت تعمل بصنفة مكنتة، مدروسة ومستمرة كما رأينا لمد جذور التواجد الفرنسي في وطن آلت سيادته لفرنسا وضمن أنه سيبقى لها إلى الأبد...، جرت الشعب الجزائري أشكالا عديدة من المقاومة فرضتها معطيات كل مرحلة، حيث بدأت سلمية فخبوية اعتمدت على قوانين الاحتلال في مطالبها وطرق معالجتها لأحداث الفترة، واقتنعت في الأخير وأقنعت بسذاجتها وعدم جدواها، لاحتكام الإحتلال الفرنسي إلى منطق الإبادة والحرب لا إلى عدالة القوانين ومنطق الديبلوماسية، لتنتهي إلى مقاومة مسلحة تميّزت بعدم التكافؤ، وأضفت على الجزائريين جوا من الإحباط العام. واتقاء لخطر وسائل الإتصال في تهديدها للشعب الجزائري بالاندثار اضطر الجزائريون إلى المرور تلقائيا وجماعيا إلى آليات دفاعية أخرى تمثلت في الهجرة والمقاطعة ثم الإنكفاء على الذات، كانت أبلغ في التعبير على حالة القلق النفسي إزاء أصالتهم وأجدادهم لكنها أثبتت الوعي العميق لدى الجماهير الجزائرية بطبيعة المحططات الفرنسية وأهدافها، وأكدت في تلك المرحلة بأنها كانت الوسائل والأساليب الأقدر في ردّ الهجوم الاسيطاني الصليبي وإبطال مفعوله في غياب كل وسائل الجباية ناهيك عن الانتصار.

وتأتي مرحلة الكفاح السياسي التي تبنت وسائل الإحتلال الفرنسي نفسها من أحزاب سياسية، وجمعيات ونوادي وصحافة.. وعبرت على أنها كانت واضحة الأهداف وأن أصحابها أصبحوا على درجة من المسؤولية. والسؤال الذي يحاول هذا الفصل تقديم بعض وجوه الإجابة عنه هو كيف تعاملت أشكال هذا النضال مع الجماهير الجزائرية وبالأحرى ماهي درجة اهتمامها بها من جهة وبعقوبات أصالتها وشخصيتها الذاتية محور أهداف مخططات الإحتلال الفرنسي في الإبادة، ومحور ميكانيزمات الشعب الجزائري في الإستمامة في الحفاظ عليها.

I- بين المقاومة السياسية والمسلّحة حتى 1895م:

كادت المقاومة الجزائرية المسلحة الأولى، أن تشي القرار الفرنسي إزاء احتلال الجزائر الدائم والكامل مرّات عديدة وأثارت الخسائر الكبيرة التي تكبدها الفرنسيون في ساحات المواجهة سخّط المعارضة في البرلمان الفرنسي التي أطاحت بحكومات متتالية. لكن كفة القرار النهائي مواصلة الحرب كانت ترجّح رأي الجنرالات الغزو في الجزائر. هؤلاء الذين أذهلتهم خيرات المستعمرة الجديدة فراحوا يبنون عليها قصور أحلامهم في إبادة الشعب الجزائري والاستئثار بممتلكاته... ولم تفلح المقاومة الجزائرية في ضرد المستعمر أو مواجهته نظراً للفارق الجوهرى في ميزان المواجهة⁽¹⁾ بين الجزائريين والفرنسيين

أ- المقاومة السلمية: وتميزت فترة المقاومة السياسية في المدن التي نابت عن المقاومة المسلّحة في الأرياف، بأنها كانت فردية. وقد عبّرت عن مرحلة الذهول وعدم توقع الجزائريين لما حدث لهم، خاصة بعد احتلال العاصمة وتأكد نية الاحتلال الكامل والدائم للجزائر. وقد كانت على شكل عرائض وشكاوى واحتجاجات والتماسات. ولم تخرج كلها عن الإطار القانونى الذي فرضته إدارة الاحتلال التي لم تعر آيا منها أذنا أو اهتماما. فقد اعترفت لجنة التحقيق الإفريقية بعد ثلاث سنوات من الغزو بالجنازر الفرنسية في حق الجزائريين ودوّنت وقائع الوحشية والبربرية في معاملتهم(2)، لكنها أوصت رغم ذلك بالاحتفاظ بالجزائر كمكسب قومى لفرنسا. وقد عبّر صاحب المراءة "حمدان خوجة" بجمع هذه الفترة عن عدم جدوى المقاومة السياسية وأن الأحداث الدامية التي أمرت السلطة بوقوعها في مختلف المناطق تريد في قناعة الشعب الجزائري عن

(1) صالح عوض، المرجع السابق، ص 190.

(2) جاء في تقرير لجنة التحقيق الإفريقية عام 1833 ما نصّه: << لقد قتلنا أناسا يحملون تذاكر رسمية يسمح لهم بموجها أن يتحوّلوا، وشحننا بخرق النسبه جماهير برمتها وخذ فيسا بعد أنها بريئة وحكمنا على رجال بالإعدام ليس لهم من ذنب سوى أن لديهم من البسحاعة ما دفعهم للوقوف في وجهنا الغاضب لكي يدافعوا عن إخوانهم البؤساء. لقد وجدنا هنالك قضاة ليحكموا على هؤلاء ورجال متمدنون لينفذوا فيهم الأحكام، لقد تجرّزنا في بربريتنا هؤلاء البربر الذين جننا لتمدينهم >>.

أنظر: الفضيل الورتيلاني، المصدر السابق، ص 398. بتصرف (نقلا عن كلورد بوردي، حريدة "فرانس

اريسرفنور " "Claude Berdet, France (Observateur " .

تعصب الفرنسيين وحقدهم ضدهم وانتهى إلى القول: «إذا كان هناك تشبث بمبدأ الإبادة الذي اقترحه الجنرال دوروفيكو Doroviguo أو استعمال القوة لإبادة السكان وإبعادهم إلى الصحاري بعد تجريدهم من أراضيهم فإنه لاداعي لإرسال لجنة تحقيق» (1). وتعتبر "المرأة" (2) وثيقة سياسية إعلامية وتاريخية هامة عن صورة الوطنية الجزائرية. فقد عبرت بكل صراحة وبلهجة عنيفة وحنة قوية عما يلاقه الجزائريون من بطش وتحقير في شكل عرائض واحتجاجات وشكاوى، وكشفت عن لاإنسانية الاحتلال الفرنسي وعدم احتكامه إلى قانون أو عقل إلا قانون السلاح وحكم القوة. فقد واجهت فرنسا صاحب المرأة الذي قاد أول حزب سياسي عرف "بلجنة المقاومة" ثم "حزب المقاومة" - فيما بعد - وأعيان العاصمة بالنفي وانحازات التعسفية، وعانت في الجزائريتين بالقتل والتشريد والتجريد من الممتلكات، فانتقل أعضاء الحزب إلى فرنسا أين نظموا الحملات الاحتجاجية، وعقدوا المؤتمرات الصحفية والمقابلات ووزعوا المنشورات. وكان مطالبهم الأساسي: الاعتراف بالكيان الجزائري وجلاء الجيش الفرنسي لكن الحزب لم يحقق أي نجاح ووجهت صراخات أعضائه لدى الأوساط البرلمانية والديبلوماسية الأوروبية والفرنسية بجدار من اللامبالاة وقوة السلاح. ولئن لم يحقق الحزب هدفه فقد استطاع أن يحرك القضية الوطنية ويثير انتباه الرأي العام ولو مرحليا، لكنه لم يدرك معناه الحقيقي في قيادة المقاومة السياسية إلا عندما اختفى ليفسح المجال للمقاومة المسلحة. والذي يهمنا من هذه الفترة هو معرفة أيها:

(1) محمد العربي الزبيري، المرجع السابق، ص 155.

(2) المرأة: كتاب الفهد السيد حمدان حوجة بالعربية وترجمه إلى الفرنسية السيد حسونة دغيز، وضاع الأصل العربي بينما ظهرت ترجمته في فرنسا سنة 1833م تحت عنوان:

La miroir, Aperçus historiques et statistiques sur la régence d'Alger, II, 1833.

تحدث عنه جورج يينفر في المجلة الإفريقية في بحث عنوانه:

- Georges Yver, Sidi Hamdan Ben Othman Khodja, Revue Africaine v° n° 57, Année 1913, p 96

ترجمه محمد بن عبد الكريم، محمد العربي الزبيري، عبد الجليل التميمي وغيرهم وأولوه اهتماما كبيرا.

ترجمة وتحقيقا وتعليقا. وللإشارة فإن كتاب المرأة عبارة عن مقدمة وكتابين وملحق يحتوي على سبعة عشر وثيقة، وقد قام حمدان حوجة باختمه في مذكرة تقدم بها إلى لجنة التحقيق الإفريقية سنة 1833م.

1- رغم واقعية مطالبها وعنف لهجتها حيث مطالبتها بالسيادة والاستقلال إلا أنها كانت قد تجاوزتها الأحداث ولم تتفطن بعد للغرض الحقيقي للغزو، فقد حاولت مناشير فرنسا إيهام الجزائريين بأن هدفها كان فقط للانتقام ولتأديب الداي حسين، ولم يكن ذلك إلا خدعة وتدجينا وتسفيها لها، لأن فرنسا كانت في الواقع ماضية في تحقيق غرضها الاستعماري متجاهلة تماما الشعب الجزائري.

2- كون مطالب هذه الفترة تدخل في إطار قانون إدارة الاحتلال تعبير عن موقف سياسي غير ناضج لأن فيها اعتراف ضمني بالوجود الاستعماري وخضوع لقانونه. الشيء الذي طبعها بمفهوم الفعل السلبي وكونها معارضة أكثر منها مقاومة سياسية لكن مع اعتبار بطش الاحتلال وقوته فإنه لم يبق لها معه أي معنى.

3- كونها فرجية وغير منظمة تم اقتصرها على العاصمة فحسب، غيب عنها وحدة الطرح والشمولية لمطالب كل الجزائريين. إذ بعدما تم لفرنسا إبعاد جهاز الحكومة الذي كان بيد العثمانيين، أخذ بعض المثقفين من حضرى العاصمة زمام المبادرة وأعطوا لأنفسهم مسؤولية الدفاع عن مواطنيهم ووطنهم كل بطريقته، ومع ذلك فإنها كشفت عن الأغراض الحقيقية للاحتلال، فأعطت للمقاومة المسلحة الذريعة وقدمت لها الدفع القوي والنفس الطوين، وأخرجتها من تحكيم قانون الغالب إلى منطق وواقع المغلوب.

ب- المقاومة المسلحة:

لم تمكن اعتبارات المثقفين التاريخية وذرائعهم السياسية من لمس حقيقة حدس الجماهير الجزائرية في المبادرة إلى مواجهة الاحتلال، فقد كان هؤلاء يتوقعون بحسن نية في شعارات فرنسا- استرجاع السيادة الجزائرية وتحقيق الاستقلال عن طريق الاحتجاجات والإلتداسات والعرائض وغيرها. ورغم منطقية هذه الخطوة ضمن دائرة قواعد اللعبة الاستعمارية فإنها اقتنعت بأن قوة الغالب لم تكن تفرضها صرامة قوانينه التي تهاوت أمام منطق الأحداث ولهجة المغلوب الدامغة، وإنما كانت تفرضها خاصة آلة التدمير والحرب واستمرار الاحتلال. وأثبتت بأنها كانت عرجاء وساذجة. وقد حرّضت المعطيات الجديدة لواقع الشعب الجزائري بعد اسيقاظه من فترة الذهول على مباشرة المواجهة المسلحة، وسمحت له بتجربته الطويلة في جهاد الصليبيين الإسبان، واستفادته من

دروس الماضي البعيد التي تناقلتها ذاكرة الأجيال المتلاحقة، من تبين حقيقة الأهداف الفرنسية ولم يعزه ذلك إلى طول تفكير بل يبدو أنه كان قد أسقط من حسابه المقاومة السياسية أصلاً ومنذ البداية. وقدرت الجماهير أن المبادرة إلى الجهاد قد يكمن فيها زرع الأمل وإنقاذ ما يمكن إنقاذه، ولذلك فقد كان النداء إلى الجهاد من أية جهة ومن أية منطقة جديراً بإعطائه الشرعية ولا مجال لفترة للتجنيد والتنظيم والإقناع، فكل فرد من الجزائريين مقتنع ومجاهد ومستعد لمقاومة الأعداء.

ولا يمكننا تفسير هذه الإستجابة التلقائية للجهاد إلا بشدة حرص الجزائريين على دينهم ولغتهم وتقاليدهم المحيطة والتي تتلخص فيها أغراض فرنسا في نية القضاء عليها ومحوها.

وتمتد المقاومة المسلحة الجزائرية الأولى على مدى خمس وستين (65) سنة أي منذ بداية الاحتلال حتى نهاية القرن التاسع عشر وكانت على النحو التالي:

- ... كفاح الأمير عبد القادر 1832-1847م
- كفاح الحاج أحمد باي 1830-1848م
- ثورة بومعزة 1844-1847م
- ثورة الزعاعشة والزيان 1849م.
- ثورة الشريف بوعود ومولاي ابراهيم 1845-1853م.
- ثورة بوبغلة 1851-1855م.
- ثورة سي قويدر التيطري وابنه بوحمارة 1834-1855م.
- ثورة الحاج عمرو فاطمة نسومر 1843-1857م.
- ثورة سي الصادق بالحضنة وبسكرة 1858-1859م.
- ثورة بوختناش في المسيلة والحضنة 1860م.
- ثورة سكان الزواغنة وفرجوية بالبابور 1849-1864م.
- أحداث قبائل بني سناسن بالحدود الغربية 1859م.
- ثورة الشربف محمد بن عبد الله 1842-1895م.
- ثورة أولاد سيدي الشيخ 1864-1873م.

- ثورة ابن ناصر بن شهرة 1851-1871م.
- ثورة الشريف بوشوشة 1869-1874م.
- ثورة المقراني والحدّاد 1871-1872م.
- ثورة بني ناصر في منطقة شرشال ومليانة 1871م.
- تروة واحة العمري 1870م.
- ثورة الأوراس 1879م.
- ثورة الشيخ بوعمامة 1881-1883 م «(1).

ويدل توالي الثورات بهذه الطريقة على عدم توقف المقاومة المسلّحة ، وشموليتها لكل ربوع الوطن الجزائري. وقد انطلق أكثرها من الأرياف ومن الزوايا خاصة. وهذا ما طبعها بالطابع الديني وهو ما يجعلنا نلمس حقيقة أحاسيس الجماهير الجزائرية ومحور مقاومتها. فقد قدّمت روع الأمثلة في البطولة والشجاعة والنبيل وأعطت أقدس الدروس في الوطنية التي حاول "منظرو" الاحتلال تجريد المجاهدين الجزائريين منها وإيعازها إلى أسباب أخرى واهية ومغرضة. لكن أباي الجزائري الأبي إلا أن يكتب بدمه مفهومه للوطنية، متحدّيا طغاة السّلاح وطغاة النظريات في معان من التآلف القلبي والإخلاص والفدائية التي هي أكبر معانيها، كما بينها . "محمد محمد حسين" حين قال أنها : .. اتجاه عاطفي، وتآلف قلبي أولا وقبل كل شيء، والجماهير قد يعوزها الاقتناع بالعقل لأنها تفتقد أسباب ذلك ثقافة وتعلّما لكنها تنساق إلى الاقتناع الراسخ والوثيق بدافع آخر غير العقل ألا وهو دافع العواطف وما هذه العواطف إلا الدين والمعتقدات التي تستقر في النفس. وهذا وحده ما يمنح جهادها صفة الإخلاص والفدائية وطول النفس والمصابرة والجلد .(2). ويؤكد من جهة أخرى "محمد الفاضل بن عاشور" على لسان كثير من علماء الاجتماع قولهم بأن جميع العوامل من سياسية واقتصادية وغيرها، إذا تم

(1) للاستفاضة حول أحداث كل هذه الثورات راجع يحي بوعزيز، ثورات الجزائر في القرنين 19 و 20 (الجزائر، دار البعث للطباعة والنشر، 1980م)، ص 28-256.

(2) محمد محمد حسين: الإسلام والحضارة الغربية (لبنان، مؤسسة الرسالة، 1982م)، ط4، ص 219.

يصاحبها عامل اعتقادي تطسّن بد النفس اطمئنانا باطنيا إلى لزوم الارتباط مع غيرها من حيث الجهة التي ترتبط معها فإن المجتمع لا يتكوّن» (1).

ولا ينكر أحد دور الزاوية والرباط في الحفاظ على مقومات الشخصية الجزائرية وتصديّهما للعدوان التصليبي ودور رؤساء القبائل في أرياف الجزائر وبواديها في التعبئة الجماهيرية التي تدفع إلى الاستبسال في ساحة الحرب وتحقيق الانتصارات العظيمة. لكن سياسة الإبادة المنظمة والتصفية الجماعية التي انتهجتها فرنسا قد تلاشت معها كل قواعد الحرب الشريفة ومبادئ الانسانية النبيلة؛ فدافع الاحتلال كما يعترف كتاب فرنسا أنفسهم أمثال شارل أجرون "Charles Ageron" «كان الحقد والاستغلال» (2). ومن ثمّ فلم تكن فرنسا تسمح لنفسها بأية هزيمة وقد غامرت لتحقيق أغراضها بأرواح الشعب الفرنسي وأمواله وعرضت نفسها لأزمات اقتصادية كانت محل مناورات سياسية للمعارضة في البرلمان الفرنسي. وهذا ما جعل كثيرا من الثورات الجزائرية تتسم بالانتحارية لعدم التكافؤ من حيث العدة والعدد والتدريب، واستحال معها تحقيق الانتصار مما اضطرّ الشعب الجزائري إلى إيقاف أشكال الثورة والمواجهة المسلّحة لنفاذ ما عنده من السلاح، وتجربة الأساليب السلمية وأخذ قسّطا من الراحة ويدرس التجارب الماضية وليستنفد كل الوسائل الممكنة مع الإدارة الفرنسية الاستعمارية. فأخذ إجازة نصف قرن كاملة جرّب خلالها الأساليب السلمية السياسية النضالية» (3). وقد تميّزت هذه الفترة بأشكال مختلفة تتفق كلها في أنها أصيلة وفذة.

ج الهجرة: تعد الهجرة الجزائرية تعبيرا عن موقف الرفض لدى الشعب الجزائري للاحتلال الأجنبي وهي سلوك جماهيري لم يقده الجزائريين فيه حزب أو جمعية أو نخبة مما طبع رد الفعل الجزائري بالذاتي والعميق لما تعلّق الأمر بالمساس بمقوماته وأهلها الذين

(1) محمد الفاظيل بن عاشور: احاضرات المغريبات، جمع وإعداد عبد الكريم محمد (الجزائر، الشركة الوطنية للنشر

والتوزيع، تونس، الدار التونسية، 1974 م). ص 190

(2) Charles Robert Ageron, Les Algériens Musulmans et la France, Op Cit. p 1231.

(3) يحي بوعزيز: الايديولوجيات السياسية للحركة الوطنية الجزائرية من خلال ثلاثة وثائق جزائرية (الجزائر، ديوان

المطبوعات الجامعية، 2007 م) ص 3.

الإسلامي. وقد ارتبطت الهجرة الجزائرية في بدايتها بالاسلام، فكان لها بعدها الديني والروحي البحت، ثم تعدّتها فيما بعد إلى أبعاد سياسية واقتصادية اجتماعية.

وقد شهدت فترة الثمانية عشر سنة الأولى من الاحتلال صراعا حادا بين الحضارة الغازية "الأوروبية" والحضارة "المغزوة" العربية ولما لم يكن المجتمع الجزائري مستعدا لمواجهة الصدمة (الاحتلال الفرنسي) وعمه إزاءها ذهول تام، بدأت قطاعاته التقليدية تنهار أمام الحضارة الجديدة التي لم تكن حضارة مدافع وبنادق فقط وإنما أيضا حضارة المطبعة والجريدة والترجمة والتقاليد الغربية مما أدى إلى زعزعة كثير من العقائد القائمة وقتذاك. ولم يكن في وسع طائفة العلماء والمتقنين التي تلقت تكوينها العقلي والعاطفي في الثلاثين سنة الأخيرة من العهد العثماني أن تهضم وتمثل هذه الحضارة الجديدة «» وكان تكوينها التقليدي قويا لدرجة أنه أصبح يمثل حاجزا دون تأثرها بما يجري حولها على المستوى العقلي (1). كما كان أفراد الطائفة المثقفة المعاصرة لبداية الاحتلال شارين أو مناضلين، ولما فشلوا في التعايش ناهيك عن الغلبة على الحضارة الجديدة اختاروا الهجرة من ديارهم والتوجه إلى القواعد الثقافية التي كانت تلائم تكوينهم العقلي. وهكذا استقر عدد منهم في تونس وكذا في المغرب وآخرون في سوريا أو اسطنبول أو الحجاز أو مصر. وكانت هجرتهم في غالب عن كره (2).

فالأمير عبد القادر أخذ معه طائفة من المتقنين وأرغم الاحتلال طائفة أخرى على الهجرة معه. ولم تخن سنة 1848م حتى لم يبق في الجزائر من المتقنين سوى من لا ناب له ولا قلم (3). وقد ترك هؤلاء بهجرتهم فراغا كبيرا في الأوساط المثقفة وأصبحت الجزائر بعدهم بدون نخبة تدفع عن مصالحها الذاتية والحضارية والوطنية.

وقد ازدادت حركة الهجرة بعد الانهزامات الكبرى أمام القوات الفرنسية خاصة

(1) أبو القاسم سعد الله، مدارس الثقافة العربية في المغرب العربي 1830-1954 (دراسة مركزة على الجزائر) بمجلة الثقافة، الجزائر، عدد 79، سنة 1984، ص 58.

(2) فقد نفت سلطة الاحتلال جماعة الأعيان (حزب المقاومة) مما اضطرهم إلى الانتقال إلى فرنسا لمواصلة النضال السياسي، ثم نفت حمدان خوجة، الذي أنهى حياته السياسية في إسطنبول.

(3) أبو القاسم سعد الله، مدارس الثقافة العربية في المغرب العربي، مجلة الثقافة، مرجع سابق، ص 59.

بعد ثورة المقراني 1871م والقمع الذي تلاها، بشكل لم يشهد له مثيل من قبل نلخصها في الأرقام التالية (1):

السنة	عدد العائلات أو الأشخاص المهاجرين
1871م	هجرات جماعية كبيرة
1888م	78 عائلة (347 شخصا)
1890م	237 شخصا
1898م	250 عائلة
1908م	321 طالبا لجواز السفر
1911م	104 عائلة (526 شخصا) / 130 ذهابا في يوم واحد

الجدول رقم 6: هجرة الجزائريين نحو بلدان المغرب والمشرق العربيين بين سنوات 1871 - 1911 م

وتجاهلت إدارة الاحتلال الهجرات الجزائرية المتتالية في اتجاه المغرب والمشرق، وحتى سنة 1800م كان حاكم الجزائر مغتبطا لتزايدها بل ورغب في السماح لها >> لأن ذلك يترك المكان للاستيطان... (2) لكن تضخم عدد المهاجرين أثار ضجة إعلامية كبيرة وحرك الآلة السياسية والرأي العام المحلي والأوروبي مما اضطر الحكومة الفرنسية إلى فتح تحقيقات عديدة في القضية لتبحث دوافعها وأسبابها المباشرة. وكانت هجرة التلمسانيين سنة 1911م القطرة التي أفاضت الكأس. ولئن أرجعت الجرائد الاستعمارية أسبابها إلى التحريضات الخارجية كالدعاية التركية أو إلى "التعصب الإسلامي" فإن التقارير الرسمية فصلت أبعاد القضية وأشارت بالإبهام إلى أسبابها المباشرة، ولم يتوان بعض الأحرار من الفرنسيين (3) إلى وضع لاحتلال كنه والنظام الاستعماري نفسه موضع الاتهام ورفض

(1) Charles Robert Ageron, Les Algériens Musulmans et la France, Op. Cit, p 1081

(2) Idem.

(3) من هؤلاء فيكو بسيلم، Victor Psylman، جورج مارسى Georges Marcet، ويليام مارسى William

Marcet، وألفريد بيل "Alfred Bell". راجع:

الجزائريين له كمحور للأسباب كلها. وتتفق نتائج التحقيق بعد رفض الخضوع لقانون الكفار في: ... اغتصاب الأراضي، ومصادرة الأملاك

الإهانات المتتالية والرغبة في الانتقام

القوانين الجائرة وخاصة قانون الاندجيننا وقانون الغاب، وقانون التجنيد

الإجباري

... الضرائب الجماعية المنهكة

- تعسف الإدارة وتزوير الانتخابات

التخريب الحقيقي لتعليم الأهالي... الخ. <<(1)>

وإذا كانت الهجرة كما وصفها و. مارسى W. Marset : << بأنها الانفجار النهائي الذي أوجع طويلا (2) ووصفها فيلو Villot رئيس لجنة التحقيق: << بأنها المؤشر المطلق لعزوف وكرهية الأهالي لفرنسا >>(3). فإنه من الجدير الإشارة إلى أن اهتمام سلطة الاحتلال المتأخر هذا، لم يكن المقصود منه مراجعة النظام التعسفي والجائر الذي كانت تسلكه مع الأهالي لكن كان ذلك خدمة للكولون فقط، لأن الهجرة الجزائرية في النهاية هي هجرة لليد العاملة الرخيصة التي كانت تحتاج إليها طبقة الأسياد المستعمرين. وبعد أن كانت الهجرة نفيا ثم اختيارا أصبحت فيما بعد مطلبا إسلاميا ثم أصبحت الهجرة الدينية هجرة سياسية في آن واحد فكانت بذلك شكلا فذا من أشكال المقاومة.

ولقد نشطت هجرة أخرى في بداية القرن العشرين لكن هذه المرة نحو فرنسا وأخذت بدورها تتضح نظرا لعدة عوامل منها قانون 15 جويلية 1914م، المتضمن النداء لليد العاملة، ثم الحرب العالمية الأولى وتجنيد الجزائريين تحت علم فرنسا وتكشف لنا الأرقام التالية حركتها وكتافها كما يبي:

(1) الجيلالي صاري، مخفون: قداش، المقاومة السياسية 1900-1954، الطريق الاصلاحى والطريق النورى: ترجمة عبد القادر بن حرات (الجزائر، المؤسسة وطنية للكتاب، 1987م)، ص 51.

وراجع :

الإياب	الذهاب	السنوات
-	200	1912م
-	7444	1914م
-	10.000	1916م
155700	213.000	1920 - 1924م
174.700	177.600	1925 - 1929م
121.700	105.100	1930 - 1934م
185.100	145.500	1935 - 1939م
20.000	34.000	1940 - 1944م
86.500	184.600	1945 - 1948م
621.300	763.500	1949 - 1954م

الجدول رقم 7: الهجرة الجزائرية نحو فرنسا بين سنوات 1912-1954م(1)

وقد كان للهجرة عموماً إلى المغرب أو المشرق ثم الاغتراب في فرنسا كما يسميه الأستاذ "صاري" أبعاده السيئة التي عانت منها الجزائر خاصة الفراغ الهائل في الطبقة المثقفة ثم هجرة العائلات النبيلة والفنية من مناطق القبائل الكبرى والصغرى وتلمسان وقسنطينة وغيرها، فهجرة الشباب "اليد العاملة" نحو فرنسا، ويقف الاحتلال الفرنسي الجزائر والظروف القاسية التي فرضها عليه في وطنه على رأس مسبباتها. وإذا كانت الهجرة إلى الدول الإسلامية تأكيداً للصلات الحضارية الدينية والثقافية بين الجزائر والعالم العربي والإسلامي، فإن الهجرة نحو فرنسا قد أكدت العلاقات الجديدة التي أنتجها الاغتراب وهي "علاقات التبعية" لأنها مرتبطة أساساً بالبحث عن الشغل ولقمة العيش في أوروبا(2). ولئن استغلّ الجزائريون الأولى في التحصيل العلمي والحياة

(1) الجليلي صاري؛ محفوظ قداس، المرجع السابق، ص 221. بتصرف.

(2) المرجع نفسه، ص 221 و 222 بتصرف.

الكريمة على قساوة الغربة وعيشه الكفاف فإن الثانية قد سمحت بالاتصال بالأوساط التقدمية بنقل وتنمية الأفكار الوطنية وتنشيط الحياة السياسية في الجزائر فيما بعد.

د- المقاطعة :

وهذا شكل آخر من أشكال المقاومة الجزائرية تكمن في مقاطعة كل المشاريع الفرنسية التي يحس من أهدافها إرادة القضاء على الكيان الجزائري ومقوماته أو تشويبه وتحريفه. حتى أن الجزائريين رفضوا التحضر أو "الحضارة الأوروبية" لأنها في نظرهم مرحلة من مراحل الإبتلاع والاندماج ثم الذوبان. فقد رفض الشعب الجزائري التعليم الفرنسي وفضل الكثير من الجزائريين إبقاء أولادهم أميين على أن يرسلوا بهم إلى المدارس الفرنسية لتعلم لغة الكفار على حدّ تعبيرهم. وقد كانت الإدارة الاستعمارية قد حاربت اللغة العربية بمنعها عن الأهلي من جهة، وتقديمها للغة الفرنسية بديلا لها من جهة أخرى حتى تجعل الجزائريين في موقف الاختيار الصعب والمسموم بين الفرنسية أو الجهل. تقول المؤرخة الفرنسية أ. تورين "A.Tourin" >>> ".... وردّ المسلمون الهدية المسمومة لصاحبها الذي قضى حوالي عشرين سنة (1830-1850)، يحدت المدارس فلا يجد لها تلاميذ، وينشئ المستشفيات فلا يتردد عليها المرضى وتعددت الصعوبات في وجه المحتل وكثرت. وأصبح الدين الإسلامي كالإسمت المسلح، يحمي من التفكك والاندماج" (1).

ويبدو من خلال قول "تورين" Tourin أن الشعب الجزائري قد فضل الموت بكرامة عن الحياة على يد أطباء ومستشفيات الاحتلال، ويجيب الدكتور عبد المالك مرتاض عن دوافع الرفض لدى الجماهير الجزائرية وصنيعها العجيب، كما يقول "في أنهم جاؤوا ذلك لأنهم كانوا يؤثرون أن يكونوا عربا لا فرنسيين، وسادة لا عبيدا. وكراما لا لثاما" (2).

ويعلق "ساطع الحصري" من جهته على فشل سياسة الفرنسية ومؤسساتها بأنها

(1) أحمد بن نعمان، المرجع السابق، ص 175.

(2) عبد المالك مرتاض، نهضة الأدب العربي المعاصر في الجزائر 1925-1954م (الجزائر، الشركة الوطنية الجزائرية للنشر والتوزيع، 1983م)، ط2، ص 37.

« لم تثمر من الثمرات الإيجابية ما يستحق الذكر، ولم تنتج نتائج فعلية سوى تنفير الناس منها.. لأن الناس صاروا ينظرون إلى جميع تلك المؤسسات كفخاخ للتصير» (1).

ومنذ سنة 1930م وهي سنة الاحتفال المئوي الفرنسي باحتلال الجزائر، والسنة التي ارتفعت فيها حدة التوتر والمواجهة من طرف الجزائريين كما تؤكد الوثائق المعاصرة.. بدأ الجزائريون يطبقون مقاطعة البضائع الفرنسية اتباعا لمذهب "غاندي" في الهند. وقد دعا أحد الشعراء الجزائريين على صفحات جريدة محلية وهي جريدة النجاح (*) إلى الاستمرار في هذه المقاطعة لأنها في نظره جهاد القرن العشرين الذي يحقق نتائج فعالة دون مشقة كبيرة (2).

إن بعد النظر لدى الجماهير الجزائرية الواضح من خلال مواقف الرفض المختلفة كان مردّه إلى قوة تدين الجزائريين وتمكن الإسلام من قلوبهم وسلوكهم، والذي لم يكونوا معه بحاجة إلى فهم ووعي أن سياسة الفرنسية والإدماج والتعليم وكل مؤسسات الإدارة إنما هي هدايا مسمومة وفخاخ للتصير والإبادة الحضارية. وبهذه الطريقة عبّر الجزائريون عن مواقفهم السياسية بل وأصبحوا يجاهرون بمشاعرهم الوطنية ويتعصبون لها ويناصرونها.

هو الانكفاء على الذات: سّماه الأستاذ "محمد قنانش" بالجمود والانكماش على الذات (3)، وضمّنه الأستاذ "محمد الطيب العلوي" وغيره ضمن المقاومة السنّبية (4). وجعّنه

(1) أحمد بن نعمان، المرجع السابق، ص 175. (نقلا عن ساطع الحصري، حوليات الثقافة العربية) (*) جريدة النجاح: أسدرها الشيخ عبد الحفيظ الهاشمي في قسنطينة سنة 1919م، بدأت أسبوعية ثم انتهت يومية تطبع 5000 نسخة يوميا منذ أطول الجرائد اليومية الجزائرية عمرا حيث استمرت حتى سنة 1956م. لم تكن واضحة المبدأ.

تنظر: محمد ناصر، المصحف العربية الجزائرية، مرجع سابق، ص 43-45.

و عو.صف عبد الرحمن، المرجع السابق، ص 37.

(2) أبو القاسم سعد الله، الحركة الوطنية الجزائرية 1930-1945م (مصر، مطبعة الجبلاني، 1975م)، ج 3، ص 37. (نقلا عن جوزيف ديارمي Joseph Desparmet).

(3) محمد قنانش، الحركة الاستقلالية في الجزائر بين الحربين (1919-1939م). (الجزائر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1982م). ص 23.

(4) محمد الطيب العلوي، مظاهر المقاومة الجزائرية من عام 1830-1954. (قسنطينة، دار البعث، 1985م). ص 18.

الدكتور يحيى بوعزيز إجازة وقسط من الراحة(1)، ووصفه "آجرون" "Ageron" خلال الحرب العالمية الأولى بالولاء والوداعة والإخلاص والاستقامة(2).

وقد كانت حقيقة هذا السلوك عملية نفسية عميقة يعبر عنها علماء النفس بالأولية الدفاعية(3) التي تسير في اتجاه التوقع والانسحاب بدل مجابهة التحديات التي تصاحب إحساس الإنسان المقهور، الداخلي، بالعجز وقلة الخيلة فيدير ظهره للعالم. ويتعلم كيف يجمع رغباته حتى لا يشعر بالآلام الإحباط ويقطع صنته بالاستعمار كي لا يثير في نفسه قلق الخواء وما يجره من إحساس بانعدام القيمة والأهداف في الحياة فيقبل مصيره أو يحاول إيهام نفسه بذلك(4). وهو في النهاية سلوك منطقي وتعبير فذ وشكل آخر لمقاومة عبقرية من الشعب الجزائري، ثم هو موقف سياسي له مغزاه وأبعاده فرضه منطق الأحداث لرد فعل الجماهير المقهورة ووسيلة من وسائل الدفاع بعدما استنفذت ما لديها من أسلحة وصبر وحيلة.

فبعد أن تمّ لفرنسا الاستحواذ على الجزائر عسكريا واقتصاديا وإقرار سيطرتها بشكل شامل، أخضعت الجماهير الجزائرية إلى حملات حرب نفسية متعددة الجبهات، ضمن مرحلة التخطيط الأيديولوجي بالاستعانة بالخريطة النفسية للعالم الإسلامي، هدفت من ورائها إلى تجريد الإنسان الجزائري من إنسانيته مع توالي عمليات النهب والاستغلال

(1) يحيى بوعزيز: الأيديولوجيات السياسية للحركة الوطنية الجزائرية.. مرجع سابق، ص 3.

(2) C.R. Ageron. Les Algériens Musulmans et la France, Op Cit, p1186 .

وقال شارل آجرون لابد من الإشارة في مجمل القول أن سلوك الجزائريين المهاجرين منهم والمدنيين كان عموما حاد هادئ. ونقل عن إتيان فلودان Etien Flaudin قوله : سيكب التاريخ أنهم (أن الجزائريين) لم يكونوا فقط مخلصين وكرماء (طيبين)، لكنهم قاوموا أيضا مغريات الأعداء في مخيمات المساجين .

Ibid, p.p 1184 et 1186.

انظر :

(3) الأروالية: ميكانيزم، والأروالية الدفاعية تعني مجموعة عمليات تلجأ إليها النفس الإنسانية للاحتماء من القلق الناتج من وطأة النزوات أو مشاعر الذنب أو الخطر والتهديد الخارجي المادي أو المعنوي يمس القيمة الذاتية.

انظر: مصطفى حجازي، التخلف الاجتماعي، سيكولوجية الإنسان المقهور (لبنان، معهد الأتماء العربي،

1989م)، ط5، ص 252.

(4) المرجع نفسه، ص 103.

والتعذيب والعنصرية والتصفية الجماعية والقمع العقلي حتى تجعل منه شيئا جامدا ومخظما من الأعماق.

ويشرح فرانتز فانون FRANTZ FANON (*) مراحل المسخ الايديولوجي الذي انتهجته فرنسا، بأنها بدأت بالانكار المطلق للشخصية المعنوية والوطنية الجزائرية، وهي « مطية لعملية أضخم تهدف إلى الاستعباد الاقتصادي والبدني، ثم تعريض الجماهير الجزائرية إلى هجوم عنيف ومباشر من طرف بنيات ثقافية مختلفة وبعدها محاولة تخريب القيم الثقافية وأشكال الوجود القائمة ويتناول هذا المسخ: الملابس واللغة وأساليب الحياة... وبذلك يختل التوازن الاجتماعي وتداس القيم الوطنية وتجرد من محتواها، وتنهار القوى في الثقافة الوطنية وتتوقف عن التوجيه (1).

ويؤكد الأستاذ مالك بن نبي من جهته « بأن الاستعمار يعمل على تضيق نشاط الحياة في البلاد المستعمرة حتى تكون مصبوبة في قالب ضيق يهيئه في كل جزئية من جزئياته، خوفا من أن تتيح الحياة المطلقة لمواهب الإنسان (المستعمر) أن تأخذ مجراها الطبيعي إلى النبوغ والعبقرية(2).

وقد قادت فرنسا حملة تبييسية مقصودة ومتواصلة ضد الشعب الجزائري قطعت

(*) فرانتز فانون: Frantz Fanon زنجي من المارتينيك يحمل الجنسية الفرنسية، طبيب مختص في الأمراض العقلية، وعلم من أعلام الفكر السياسي، وبطل من أبطال النضال في معركة التحرر من الاستعمار. من أحسن من درس أساليب الاستعمار الحديث، في عملية إخضاع الشعوب المستعمرة. انخرط في صفوف الثورة الجزائرية وكان كأحد أبنائها وكتب عنها عدة كتب وتوفي سنة 1961م بأمريكا. للاستفاضة حول هذه الشخصية انظر: فرانتز فانون، "معابر الأرض" "Les damnés de la terre" ترجمه سامي الدروبي وهائل الأتاسي، (لبنان، دار الطليعة للطباعة والنشر، 1984م)، ط5، ص 6-9.

(1) فرانتز فانون، من أجل أفريقيا، ترجمة محمد الميلي (الجزائر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1980م)، ط2، ص 15-16.

(2) مالك بن نبي: شروط النهضة، ترجمة عبد الصبور شاهين وعمر مسقاوي (سوريا، دار الفكر، 1986م)، ص152.

ر: الصراع الفكري في البلاد المستعمرة (الجزائر، دار الفكر، سوريا، دار الفكر، 1988م)، ط3.

السبيل أمامه عن أي انتفاضة أو أمل في الانتفاضة. وقد حدثت هناك تمردات فردية (1). كانت تقطع سكون التوقع من حين لآخر لكنها لا تلبث أن تعيب مخنفة وراءها مزيدا من القناعة في استحالة الخلاص من خلال المجابهة نظرا لما تقابل به من ردود فعل عنيفة تأخذ شكل البطش. وقد عملت فرنسا بغية استمرار تسلطها على :

تغذية عقدة النقص والعجز المادي لدى الجماهير الجزائرية « حتى تظل على

استكانتها وتبعيتها وحتى لا تتخذ زمام المبادرة في تقرير مصيرها بنفسها » (2).

-- غرس مشاعر النقص المعنوي بوهم التفوق الحضاري الفرنسي إلى درجة

التضليل لإرغام الجماهير بقبول الأمر الواقع.

غرس عقدة العار حتى ينجل الجزائري من ذاته ويعيش وضعد كعار وجودي

يصعب عليه احتمالته وحتى يبقى في دفاع مستمر ودائم ضد اقتضاح أمره، واقتضاح

عجزه وبؤسه.

وإذا كانت آلة التدمير تحصد كل يوم آلاف من الجزائريين والقوانين الجائرة تسطو

(1) سماها الأستاذ محمد الطيب العلوي. بمرحلة الانتفاضات وذكر أنها امتدت من 1848م حتى سنة 1916م وشملت كل أنحاء البلاد. ويذكر الدكتور يحيى بوعزيز بأن الشعب الجزائري كان يمارس بعض أعمال العنف وخاص انتفاضات محدودة الزمان والمكان مثل انتفاضة عريوة وعين التركي ومليانة 1901م، وعين بسام 1906م، وبني شقران 1914م، والأوراس 1916م، والتوارق 1916م وقسنطينة عام 1934م والحراش في 1941م نس أحداث 8 ماي 1945م بسطيف وخراطة وقالمة.. الخ.

انظر كتابه الايديولوجيات السياسية للحركة الوطنية، المرجع السابق، ص 5.

وأوردت الدكتور نور سلمان، احصاءات رسمية سنوية لعدد محاولات الانتفاضة من سنة 1885م حتى

1895م كما يلي :

1886م --- 2623 محاولة	1891م -- 5327 محاولة
1887م --- 3961 محاولة	1892م --- 6557 محاولة
1888م --- 4998 محاولة	1893م --- 7563 محاولة
1889م --- 5632 محاولة	1894م --- 9397 محاولة
1890م --- 5014 محاولة	1895م --- 8389 محاولة

انظر : نور سلمان، المرجع السابق، ص 123. نقلا عن

- Akkache Ahmed, La Résistance Algérienne de 1845 a 1945.

(2) مصطفى حجازي، المرجع السابق، ص 41.

على آلاف المهكتارات الأرضية والغاية والمستلكات، وإذا كانت المطبعة والصحيفة والكتاب من جهتها تشوّه الحقيقة التاريخية فإن المدرسة والمستشفى الاستعماريين كانا فخاخا للتصير، لكن أيضا منابر ومحابر لتطبيق أبشع النظريات النفسية والاجتماعية قصد تحطيم الإنسان الجزائري وتحريره من آدميته... وللتفنن في امتصاص دماء الكرامة من شرايينه وإحلال الخوف والمذلة والمهانة مكانها» (1). وقد كشف فانون "Fanon" عن كل هذه الأساليب فيما بعد وضمّتها رسالة استقالته الشهيرة سنة 1955م كما شرحها ونظّر لها في جلّ كتاباته (2) التي تناول فيها ظاهرة الاستعمار. لقد كان انكماش الشعب الجزائري على نفسه واستكائه بل ووداعته إزاء الاستعمار الفرنسي أثناء الحرب العالمية الأولى، سلوكا منطقيًا له ما يبرره، ووصفه بالسلبية أو... مواخذه الأهالي على حمولهم هو أقصى ما يمكن أن تبلغ إليه سوء النية (3) كما يقول فانون لأن الإنسان لا يمكنه أن يتطور خارج إطار ثقافة تعترف به ويعترف بها من جهة، ومن جهة أخرى فإن ذلك الخمول ما هو إلا نتيجة منطقية لعملية التجميد والتعقيم والتبخيس المنظمة التي عاملت بها فرنسا القيم الثقافية الجزائرية، وقد بلغت بها سوء النية إلى وصف الجزائريين بـ «بابن المستعمرات غير المثقف، الخشن، غير الطموح، والمعادي بصورة نفسية للغرباء» (4). تم إلى الحكم عليه بعدم قابليته لأي تطور، وجعلت من خصائص هذه المرحلة طبيعة ثابتة وأزلية في الجزائريين واصفة ذلك بعبارات تنم كنهها

(1) مصطفى حجازي، المرجع السابق، ص 32.

(2) نخص بالذكر كتابه: معذبو الأرض Les damnés de la terre، المرجع السابق، الذي أبداع فيه في شرح وتحليل العنف الاستعماري والثورة وتناول فيه المواضيع التالية:

الانطلاق العفوي عنلمته ومواطن عنده

مزلق الشعور القومي

- في الثقافة والقومية

- الحرب الاستعمارية والاضطرابات النفسية

وكتابه: العام الخامس للثورة الجزائرية، الذي أعيد نشره بالعربية والفرنسية تحت عنوان "سوسيولوجية

ثورة وطبعته في لبنان: (دار الطليعة للنشر، 1970م)، ط2. (Sociologie d'une révolution).

(3) فرانتز فانون: من أجل إفريقيا، مرجع سابق، ص 19.

(4) جوان غليبسي، المرجع السابق، ص 39.

عن إرادة بشعة للتجميد والتعقيم نحو «إني أعرفهم، إنهم خلقوا هكذا» (1). و «إنهم لا يحسبون، لا يفهمون بالكلام، إنهم لا يحشون إلا بالسوط.. بالقوة...» و «إنهم جماهير منحطة لا تستطيع أن تحكم نفسها أو تستغل إمكاناتها و ثرواتها» (2). والغريب أن معظم الكتابات الاستعمارية الغربية والفرنسية منها خاصة لم تستطع أن تسجل سوى هذه المرحلة وذلك لتبرير الاحتلال والاستغلال.

ومع ذلك فإن الحقيقة لم تعم عقول كل الفرنسيين وقد كان تفسير بعضهم لسنوك الجزائريين الوديعة أثناء الحرب العالمية الأولى، منطقي ومتفهم إلى حد بعيد لنفسية الجزائري ضحية الحقد والاحتقار المزمع ومثل ما جاء على لسان آجرون "Ageron" عندما قال: «إن خضوع الجماهير وإذعانها لمحاولة حرب جديدة، لا بد أن لا يفسر إلا عاطفيا (نفسيا) وإنه يترجم على أنه اختيار فطري أو انقياد مثير لشعب مثخن بالخيبات» (3).

و لم يشف غنيل المستعمرين كل ما قاموا به من تنكيل وتقتيل طيلة قرن من الزمن (1830-1930م) حتى حدا بهم تفكيرهم إلى توزيع مآسيهم بإقامة مأتم عظيم في شكل حفلة رقص على أشلاء شعب لم يؤمن برسالتهم التمدنية وننتهي مع الدكتور سعد الله في إحدى استنتاجاته الصارمة والعميقة حول الاستعمار الفرنسي في الجزائر «... أن الحكم الفرنسي في الجزائر كان فذا متناقضا اضطهاديا وسلبيا» (4).

ويشهد تاريخ الجزائريين بأنه كانت لهم ردود فعل مماثلة في الانكماش على الذات والاعتزال قبل الوجود الاستعماري الفرنسي بالجزائر، وكان ذلك قبل عهد العثمانيين وأثناء حكمهم أيضا. فقد عمّ سنوك التصوف والزهد كل الجزائريين عتساء وجماهير وشمل كل مجالات الحياة الاجتماعية والفكرية والعلمية، ورغم اختلاف رد المؤرخين والملاحظين هذه الظاهرة إلى أسباب تخدم كل منها غرض كل منهم فقد اتفقوا حول أنه كلما تعلق الأمر بالمسائل بإحدى مقومات الجزائريين وخاصة الدين الإسلامي واللغة

(1) فرانتز فانون، من أجل إفريقيا، مرجع السابق، ص 17.

(2) مصطفى حجازي، المرجع السابق، ص 41.

(3) Charles R. Ageron. Les Algériens Musulmans et la France, Op Cit. p 1186.

(4) أبو القاسم سعد الله. نجات وأراء في تاريخ الجزائر، مرجع سابق، القسم الأول، ص 56.

العربية إلا ونزع الجزائريون تلقائيا إلى هذا السلوك. وقد وصفه المؤرخ "ألفريد بيل" "Alfred Bell" بالوطنية الدينية(1). ووصفه "يحي هويدي" بالروح الغريبة وبالمس من الجنون في إقبال الجزائريين على أمور الجهادة وانخراطهم في الزوايا والربط (2). وردّها محمود بوعبياد إلى الصراع المذهبي الذي شهدته فترة الموحدين الذي سماه بالزوبعة العقائدية(3). ووصفها سعد الله بالظاهرة الغريبة والمتطرفة وردّها من جهته إلى ضعف الدولة أمام الاثلال الداخلي وفوضى الحياة السياسية والخطر الخارجي(4).

ولئن عبّرت هذه الظاهرة عن حالة الانهيار النفسي والسخط العام الذي شمل الجزائريين لافتقارهم إلى القيادة الراشدة للجهاد وعوزهم إلى السلاح للمجابهة، وفوضى السياسة الداخلية فإن سلوك التصوف والجهادة بشيء من المغالاة كان نابعا أساسا عن الشعور النفسي الجماهيري بالحاجة إلى المغفرة والتوبة خاصة بعدما تمكن الأعداء من توطيد أقدامهم في أرضهم.

وقد حالت الزوامة في هذا المقام دون الانفجار الداخلي للإنسان الجزائري بأن امتصت سخطة وثورته ووفرت جوا من التوازن النفسي والاجتماعي حوله. وكان لها دور هام في نشر تعاليم الاسلام بين الطبقات الشعبية وتيسير تعريب الجماهير في الخواضر والأرياف عن طريق الأوراد والأذكار، وفي إدخال الدين في حياتها اليومية بصفة مباشرة عند النزاع والخصومة، وتمثل دورها التاريخي في تجنيد الشعب واستنفاره ضد الصليبيين. ولم يكن انتصار الجزائريين على الصليب إلا بتمسكهم بالاسلام ورسوخ تعاليمه فيهم. وقد كان الاسلام بحق هو القوة التي تحركهم دائما ضد أعداء الأمة والدين وبه تمكنوا من الحفاظ على مقومات الجزائر وشخصيتها يوم تحل المحن.

(1) أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي (الجزائر، المؤسسة الوطنية للنشر والتوزيع، 1981م)، ج 1، ص 36.

(2) المرجع نفسه، ص 39.

(3) محمود بوعبياد، جوانب من الحياة في المغرب الأوسط في القرن التاسع المحجري (15م) (الجزائر، المؤسسة الوطنية

للتنشر والتوزيع، 1982م)، ص 48-49.

(4) المرجع السابق، ص 37.

وكانت فترة الانكفاء على الذات أثناء الحكم الاستعماري الفرنسي ورغم وصفها بالسلبية أكبر مبشر بالحياة الاجتماعية الصحيحة وأوضح دليل على اليقظة وعلامة الدخول إلى حلبة الصراع كما يصفها بذلك العارفون بتجارب الشعوب وآلياتها الدفاعية الخلاقة، بحيث كانت كلما ازدادت قبضة البطش، كلما ازدادت الشعوب انكماشاً وتوقفاً لكن انكماشها ذلك كان يحضن بذوراً للمقاومة التي كانت تنمو في صمت وبطء لكنها بشكل أكيد وحتمي ولهذا فقد سماها الأستاذ صاري "بالمقاومة الصامتة" (1). فعبقرية الشعوب تصنعها في أوقات الهدوء والاتزان الروحي مما يجعلها فترة لتسرد كامن أو مرحلة الأزمة والصعوبات (2). كما يسيها مالك بن نبي ويقول عنها "أرنولد توينبي" "Arnold Twinbi" بأنها "تعد خلاق لأنه يستحث الرد عليه" (3).

وهكذا فقد عبرت الهجرة والمقاطعة والانكفاء على الذات، في حد ذاتها ورغم سلبيتها في الظاهر عن أهم فترات المقاومة الشعبية - الجماهيرية - لأشكال الاتصال الفرنسي المختلفة. وإذا كانت هذه الأشكال قد تجاهلت الإنسان الجزائري مادياً وحضارياً. وتميزت بانغلاقها على نفسها واقتصارها على الفرنسيين فيما بينهم مستهدفة الإبادة الحضارية للجزائريين فإن أشكال المقاومة الشعبية هذه عبرت عن وعيها بأهداف الفرنسيين وامتازت بدورها بالانغلاق راقصت على الجزائريين فيما بينهم. فكونت حاجزاً قوياً يبطل إمكانية أي تأثير ويحافظ على مقومات الشخصية الحضارية للجزائريين. المستهدفة بالذات وتعدته إلى إحاطة الجزائريين بنوع من الأمان والتوازن النفسي ضد شبح اليأس والخوف من المستقبل.

وقد كانت فترة الانكفاء على الذات خاصة، فترة للرجوع إلى الذات. ومراجعة لدروس الماضي، وتثبيت بتقاليد الأجداد إلى حد التمسك الشديد والذوبان في الجماعة وتراثها المجيد مما أنبت لحمة قوية بين الجماهير بما أعاد إليها الثقة في المستقبل من جديد،

(1) الجيلالي صاري، محفوظ قداش، المرجع السابق، ص 235.

(2) مالك بن نبي، تأملات (سوريا، دار الفكر، 1985م)، ص 17.

(3) المكار نفسه.

وفي إمكانية العودة والمواجهة، وهو ما أشار إليه الأستاذ صالح عوض بقوله: فبعد مرحلة الجهاد الطويل، كان لابد من فترة لتجميع القوى ولم الشتات، وكان الضمير الجماعي والعقل الجماعي يقولان: نحن بحاجة إلى تكييف الذاكرة وإعداد العدة واكتشاف عدونا بشكل أعمق وتجديد فكرنا ومنظومة حياتنا وذلك من أجل جولة أشمل وأكثر حسماً⁽¹⁾.

وقد كانت هذه الأساليب الدفاعية التي يمكن وصفها بالآليات التنقيائية من الجماهير الجزائرية إزاء التهديد الخارجي لهويتها القومية والخوف من استلابها العنقادي - جدية بأن تضع لكل أشكال المقاومة المنظمة آتيا أو لاحقا -، قاعدتها الفكرية وأن تحدد لها إطارها الحضاري والفلسفي، وأن تغذيها بالمدد الجماهيري الفذ، وتنقل إليها وعيها الفطري السليم بأهداف الاستعمار الغربي. وهذا ما سنحاول معرفته في أشكال ووسائل وأساليب النضال السياسي الحديث في الجزائر.

II - وسائل النضال السياسي الاتصالية : تحت قيادات مختلفة جرّب الشعب

الجزائري أشكالا جديدة من المقاومة والتّسدي لوسائل الاتصال الفرنسي وأهدافه تمثلت في الأحزاب السياسية والنوادي والجمعيات، وكذا في العرائض والاحتجاجات. وكانت الصحافة أهم هذه الوسائل حيث اتخذت منبرا تبلورت على صفحاته أهم الأفكار والظروحات التي ستتخذ لاحقا توجهها الصريح وتتميز من بين التوجهات الأخرى على الساحة الجزائرية عموما وإزاء المعطيات القومية والرّصيد الحضاري لشعب جزائري المستهدف من عمليات التأثير الاستعماري، وقاعدة الإنطلاق ثم المحور في عملية التغيير والمواجهة. وتعود بواكير النشاط السياسي الحديث في الجزائر إلى سنوات 1870 - 1871م حين توصل الصحفي الجزائري "محمد البدوي"^(*) إلى تكوين منظمة سياسية صحبة جماعة من

(1) صالح عوض، المرجع السابق، ص 191.

(*) محمد البدوي: عاصمي المولد والنشأة والتعليم، اشتغل بالتعليم كوالده "أحمد البدوي" وكان يحيط بأحداث وطنه فلما بأخبار العالم وخاصة الأوروبي منه، كما كان خطيبا بليغا وجدليا كبيرا، اختار العمل محررا بالصحف المستقلة: "الأخبار" و"الرائد الكالي الجزائري" "Le radical Algérien". انظر الزبير سيف الاسلام، تاريخ الصحافة في الجزائر، (الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب، 1984م)، ج5، ص 134 - 137. بتصرف.

المتثقفين، وتعتبر هذه أول منظمة سياسية جزائرية تكونت في الجزائر منذ أن وطئت أقدام الفرنسيين أرض الجزائر» (1).

واستغل "محمد البدوي" اندلاع ثورة الكومون في فرنسا وبادر إلى الإعلان عن منظمته والمطالبة بالاعتراف باستقلال الجزائر، وقام بتحرير الجماهير لمساندة مطالب المنظمة عن طريق خطابه السياسية ومقالاته التحليلية التي كان ينشرها في جريدتي "الأخبار" و"الراديكالي الجزائري". وقد فشلت هذه الحركة بعد فشل ثورة الكومون مباشرة (2). وحكم على صاحبها بالسجن سبع سنين.

وما يلاحظ على هذه الحركة أنها اقتصر على الأوساط المثقفة. ولم تتغلغل في أوساط الجماهير الشعبية بل إنها لم تقدر جماهير العاصمة إلا في مرحلة الهيجان ولذلك يمكن نعتها بالحركة الثقافية السياسية دون وصفها بالنضال رغم مطلبها الجريء.

وقد عملت إدارة الاحتلال الفرنسي على تغذية روح النضال بين الجزائريين ودفعتهم شيئا فشيئا إلى حالة من اليقظة والانتباه الدائم والوعي بقضاياهم باستمرار. ووقفت وراء ذلك القوانين والمراسيم المختلفة التي كانت سلطة الاحتلال تصدرها تباعا والتي كانت تثير كل منها في حينها الموجات من الاستنكار والتذمر كقانون التجنيس الخاص باليهود والذي عرف بقانون كرميو "Cremieux" في 24 أكتوبر 1871م (3)، وقانون التجنيد الإجباري 1891م الذي أثار في حينه عاصفة من السخط واتخذ شكل الاحتجاج عن طريق العرائض كالتى تقدم بها أهل تلمسان احتجاجا على المشروع رافضين مشاركة أولادهم في الحرب مع فرنسا.

وقد بنى أهل تلمسان احتجاجهم على اعتبار التجنيد انتهاكا للعقيدة الإسلامية وخلافا لاتفاق وثيقة التسليم، ويقول مقدمو العريضة: بأنهم وقفوا ضد مشيرى الفتن

(1) الزبير سيف الاسلام، للرجع السابق، ج5، ص 135.

(2) حمدي حافظ، عمود الشرفاوي، المرجع السابق، ص 43.

(3) صدر قانون كرميو في 24 أكتوبر 1871م وقضى بمنح يهود الجزائر حق المواطنة الفرنسية شريطة التحلي عن مجلة أحوالهم الشخصية. انظر علي الشنوفي، حفظ الشعائر وتغيير المناكر دعامة من دعائم حركات التحرير الوطني في الجزائر وتونس والمغرب الأقصى، مجلة الثقافة، الجزائر، ع79، ص 159. بتصرف.

والفوضى ضد السلطات الفرنسية على أمل المحافظة على الوعود وهم يخشون على الجزائريين أن تحمي شخصيتهم إذ انخرطوا في سلك الجيش الفرنسي (1). ولم تلق إدارة الاحتلال مثل هذه العريضة شدة في الرفض إلا في حالات قليلة أثناء الحرب العالمية الأولى أي سنة 1914م. وهو ما نستنتج منه الفرق بين ما يمكن تسميته بجيل النخبة المتحضرة التي استطاعت أن تعيش في معزل عن تأثيرات الاحتلال الفرنسي على الرغم من وجودها بين ظهرانيه ومعرفتها للغة وبين جيل نخبة أوائل القرن العشرين التي تخرجت من المعاهد الفرنسية، وتوظفت في سلك الحكومة كما سنرى.

فقد رفضت المعارضة للحكم الفرنسي في بداية الحركة الوطنية إذا في تعابير دينية وشملها الاحساس بالانتماء إلى القومية الإسلامية كما هو واضح في برنامج جماعة من التجار والمتقنين سنة 1910م تحت زعامة "عمر بوضربة" الخامي الذي كوّن لجنة الدفاع عن مصالح المسلمين الجزائريين وترأس أول وفد إلى فرنسا. قابل رئيس وزرائها "كليمنصو" Clemenceau آنذاك واحتج لديه ضد مشروع التجنيد الإجباري وطالب بالحقوق السياسية للجزائريين، وقد نادى بوضربة باشتراك الجزائر مع الدول الإسلامية الأخرى في نضالها ضد السيطرة الأوروبية (2) لكن سرعان ما تلاشت هذه الحركة أيضا دون أن تحقق أي تأثير، كما تلاشت بعدها "كتلة المحافظين" (3) وكانت هذه جماعة مؤلفة من مثقفين وعلماء دين، ومحاررين قدامى يؤمنون كلهم بالقومية الإسلامية وكان منهم ابن الموهوب مفتي قسنطينة وقد بدأت بمعارضة قانون التجنيس والتجنيد الإجباري بدورها، لكنها انتهت إلى التنافس على كراسي القضاء والافتاء، والوقوف ضد جهود الإصلاح الباديسي وجمعية العلماء المسلمين الجزائريين فيما بعد.

(1) صلاح العقاد، محاضرات في الجزائر المعاصرة 1963-1964. (مطبعة الرسالة، د.ت)، ص 22

(2) المرجع نفسه، ص 20-21.

(3) نور سلمان، المرجع السابق، ص 139.

وفي سنة 1911م تقدّمت جريدة الحق الوهراني (1911-1912) (*) بميثاق مطّلي عام لإدارة الاحتلال الفرنسي اهتمت فيه خاصة بالغاء قانون الأهالي والمحاكم الاستثنائية. وعبرت فيه عن طموحات السكان في العدالة والكرامة، فطالبت بحقهم في المشاركة في إدارة بلادهم ونادت بوحدة المسلمين الجزائريين ونددت بسياسة الادماج كما دعت الجزائريين بالوفاء لشخصيتهم(1).

وهكذا فقد شارك الجزائريون بصفة فردية أو جماعية بدافع اليأس وبشاعة الاضطهاد الفرنسي وفي فترات متباعدة أو متقاربة في المطالبة بتحسين أوضاعهم الاجتماعية بعيدا عن مشاكل التمثيل السياسي لكن الاهتمام بهذا الميدان وخاصة منه الانتخابات والتمثيل النيابي جعل النضال يكتسب صفة التكتلات، «وفي غياب طبقة قادرة على قيادة النضال الوطني وراغبة فيه في ذلك الوقت عزز الدور السياسي للشرائح الوسطية» (2) المتمثلة في جماعة النخبة المثقفة بالفرنسية لهذا الدور، ثم النخبة الجزائرية عموما فيما بعد، التي انقسمت في استخدام أفكار الغرب الديمقراطية كما يبدو من أساليب التيار الإدماجي أو بالمزيج بين التعابير الماركسية وبين الثقافة المحلية تم التعابير الاسلامية لاحقا . كما يبدو من لغة التيار الاستقلالي، وعليه فإن تطور الحركة القومية الوطنية مرّ عبر ثلاثة تيارات (**): هي : - التيار الادماجي - التيار الاستقلالي

- التيار الديني الاصلاحى المتشمل في جمعية العلماء المسلمين الجزائريين.

(*) الحق الوهراني: (1911-1912م): صدرت في وهران، سياسية أسبوعية تعتبر لسان حال الدفاع عن مصالح الجزائريين المسلمين. انظر عواطف عبد الرحمن، المرجع السابق، ص 31.

(1) راجع الجليلي صاري، محفوظ قناش، المرجع السابق، ص 48 بتصرف.

(2) محمد حربي، جبهة التحرير الوطني 1954-1962م، الواقع والأسطورة، ترجمة كميل قيسر داغر (لبنان، مؤسسة الأبحاث العربية، 1983م)، ط2، ص 25.

(**) هناك تيار رابع يقول عنه يحي بوغريز: لا نعتبره جزائري، رغم تواجده على الساحة الجزائرية وهو الحزب الشيوعي الذي كان يرتبط عضويا بالحزب الشيوعي الفرنسي في فرنسا وبالأحزاب الشيوعية الأخرى في أوروبا الغربية وروسيا، وتغلغل في أوساط العمال الكادحين عن طريق المنظمة النقابية الفرنسية، راجع يحي بوغريز. الابدولوجيات السياسية، مرجع سابق، ص 5. بتصرف.

1- التيار الادماجي :

أ- الشباب الجزائري :

لا يتعلق الأمر في هذا الوصف بحزب منظم وإنما يخص مجموعة مبادرات فردية أو جماعية للفتيات الجزائرية المثقفة بالثقافة الفرنسية والمتخرجة من المدارس والمعاهد الفرنسية، فقد ظهرت منذ 1912م وجذبت إليها انتباه الأوساط السياسية الأوربية في الجزائر وفي باريز، وتخوفها منها ليس فقط نظرا لمتناظها لسياسي الدؤوب وبلاغته خطتها بلغة الفرنسية ولكن لطموحاتها الجريئة نحو الحرية والمطالبة بالحقوق السياسية الفرنسية. وتعود تسمية هذه الفئة إلى الأوروبيين أنفسهم، فقد ظهرت في تعابير وكتابات بعضهم أمثال موريس بولار Maurice Paulard وأندري فوكولت André Faucault وغيرهما وكانت هذه التسمية نفسها الموضحة الراهنة إذاك(1). وقد اختلف الكتاب أنفسهم في تعريفهم فأطلقوا عليهم أسماء مختلفة "كالنخبة الجزائرية" و"الجزائريون المتأوربون"، ويبدو أن الاختلاف قد سببه بظء ظهور هذه الفئة تم الخلط بين مفهوم الطبقة الوسطى الجزائرية البورجوازية ميسورة الحال ماديا وبين المثقفين بالثقافة الفرنسية من الأطباء والمحامين والصحافيين وذوي الشهادات من المدارس العليا(2). ولم يتعد عدد أفراد هذه الفئة المائة في سنة 1910م حسب بولار "Paulard"(3)، ولكنهم عدوا بالمئات سنة 1921م. وقد أورد "هم علي مراد" جدولاً بين سنوات 1917-1924م يخصيهم كما يلي :

(1) وقد ظهرت تسمية الشبان الأتراك 1908م، والشبان التونسيون 1907م، وكذا الشبان المصريون وقد سماهم البعض بـ "الجزائر الفتاة" كتركيا الفتاة وتونس الفتاة ومصر الفتاة، انظر :

أبو الفاسم سعد الله، الحركة الوطنية، مرجع سابق، ج2، ص 169 و 181.

ونور سلمان، المرجع السابق، ص 139.

(2) المرجع السابق، ص 167-169 بتصرف.

(3) Ali Merad. le réformisme Musulman en Algérie de 1925-1940; p 48.

السنوات	طلبة	آخرون	معلمون وموظفون
1917-1918م	51	41	403
1918-1919م	41	53	440
1919-1920م	17	55	457
1920-1921م	47	51	451

الجدول رقم 8: عدد الفئة المثقفة بين سنوات 1917-1921(1)

وقد سيطر الشبان الجزائريون على المسرح السياسي من بداية القرن العشرين. وعبروا عن توجهات النخبة الفرنسية منذ إقرار القانون الاجباري الذي استغوه لتقديم شروط للإصلاحات في مقابل قبول الحرب للدفاع عن العلم الفرنسي، كتعويض لضريبة الدم وتلخصت شروطهم في: المساواة في الضرائب، تعميم التعليم الابتدائي باللغة الفرنسية، إلغاء قانون الأهالي، توسيع التمثيل السياسي للمسلمين (2) وقد طرحت شروطهم للدراسة مع وعود مؤكدة من حكومة باريس للاستجابة لها لكن هذه لم تنفذ منها أي شيء وبدلاً منها انتهجت سياسة التنظيف العسكري باتخاذ الإجراءات القمعية ضد الجزائريين التي تعني الإعدام والحرق والغارات التطهيرية. وكان دور الكولون حاسماً فيها سواء في إفتتال وعود الإصلاحات أو في المظالم الفضة التي ارتكبوها ضد الجزائريين. وقد خيب فتتل الإصلاحات آمال النخبة التي آمنت بعدالة فرنسا وديمقراطيتها. حتى على مستوى المطالبة بالاندماج الكلي حيث لم يكن في برنامج انشغالاتها الآنية على الأقل لا المطالبة بالاستقلال ولا بالوطنية الجزائرية على أساس التسليم بعدم توفر المقومات اللازمة لوجود كيان قومي مستقل للجزائر (3). كما أنها لم تربط نفسها بقضايا العالم العربي والإسلامي عموماً.

و لم يكن يهمها أن تنادي بالجزائر للجزائريين كما نادى الشباب التركي بتركيا للأتراك أو الشباب المصري بمصر للمصريين(4)، وكشفت إجراءات القمع الاستعماري للنخبة الفرنسية استواء فرنسا الديمقراطية بفرنسا الاستبدادية، إذا تعلق الأمر بأمن فرنسا

(1) A. Merad, Le Réformisme Musulman en Algérie, Op Cit, p48.

(2) C. R. Ageron, Histoire de l'Algérie contemporaine, Op Cit, p 70

(3) صلاح العقاد، المرجع السابق، ص 21.

(4) أبو القاسم سعد الله، الحركة الوطنية، مرجع سابق، ج 2، ص 169.

ومصلحة الكولون. ونج عن ذلك ضميرا جزائريا جديدا يدخل المسرح السياسي ويتعامل بالوسائل المتاحة كالعرائض والوفود الرسمية والاتصالات مع الشخصيات السياسية والصحفية الفرنسية. ويعرض القضايا للنقاش بالرفض أو بالمطالبة، وفرض جوا من التحدي السياسي ضد فرنسا خاصة بعدما أصدرت لائحة بالحقوق السياسية بعد نهاية الحرب واختارت لها بنودا تعجيزية لا تمكن إلا القليل جدا من النخبة من حقوق المواطنة ومنها: 1- الخدمة في الجيش والبحرية الفرنسية مع شهادة حسن السلوك من السلطات العسكرية

2- معرفة القراءة والكتابة باللغة الفرنسية.

3- ملكية بعض العقارات في إحدى المدن أو الأرياف

4- التوظيف لدى السلطات الفرنسية أو قبض أجرة تقاعد منها

5- الحصول على وسام فرنسي

6- أو كان عمره 21 سنة من أب متجنس بالجنسية الفرنسية (1).

وفي ظل هذه المعطيات من خيالات الأمل وهذه الإجراءات التي لم تكن في مستوى التضحيات التي بذلها الشباب الجزائري من أجل العلم الفرنسي ولا في مستوى الأمل الذي وضعه في فرنسا، يتبلور الاتجاه المحافظ وسط النخبة المتفرنسة نفسها الذي سوف يحدد اتجاهها ويوضحه. ونعني بالاتجاه المحافظ هو الاتجاه المطالب بالحقوق الفرنسية مع المحافظة على مجلة الأحوال الشخصية الذي يؤكد دخول الأمير خالد (1875-1936م) (*)

(1) انظر: أبو القاسم سعد الله، الحركة الوطنية، مرجع سابق، ج2، ص 289.

(*) الأمير خالد الجزائري: ولد بدمشق في 20 فيفري 1875م وتعلم بها ثم بباريز في معهد لويس الكبير "Louis Le grand" ثم بالمدرسة العسكرية "سان سير" "Saint Syr" تخرج منها برتبة ضابط. حارب في الجيش الفرنسي ونال رتبة قبطان. انتقل إلى الجزائر وانضم إلى حركة النضال السياسي وكان المتحدث الرسمي باسم الحركة الوطنية الجزائرية في مطلع هذا القرن، نفتت إدارة الاحتلال نظرا لنشاطه السياسي والوطني الخطير على وحدت الاستعمار بالجزائر. فتصد سوريا ثم عاد إلى فرنسا في 1924م وأصل نضاله وسط الجالية الجزائرية وقطع دونه أي أمل في العودة إلى الجزائر. بقي في دمشق حتى وافته المنية في 9 حانفي 1936م. أقيمت له صلاة العائت في جميع أنحاء الجزائر، وأبنته الجزائرند الجزائرية شعرا ونثرا وكذا جميع الهيئات والأحزاب في الجزائر.

انظر: محمد قنابس، محرط قدامش، نجم شمال أفريقيا 1926-1937م، وثائق وشهادات لدراسة تاريخ الحركة الوطنية الجزائرية (الجزائر، شوان المطبوعات الجامعية، 1994م). ط2، ص 16-24 و ص 102. يتصرف.

حفيد الأمير عبد القادر الجزائري، إلى الجزائر سنة 1914م والتحاقه بحركة النضال السياسي حيث انضم إلى تيار الشباب الجزائري تم فرض نفسه لاحقا كلسان حال لهم نظرا لنشاطه ووطنيته. وقد أعطى الأمير عمل الشبان قوة جديدة وتوجها أكثر وضحية برفضه التحنيس بالجنسية الفرنسية وبالتالي رفض الإدماج باسم الاسلام. وكانت هذه نقطة الفصل بين برنامج النخبة المحافظة التي وجدت صورتها في دعوة الأمير وبين نزعة الشبان التوفيقية التي كانت تنحو إلى الذوبان والاندماج الكلي. وبدل أن يتقدم الجميع تحت اسم حزب واحد هو كتلة المنتخبين المسلمين الجزائريين للانتخابات البلدية تقدم الأمير وأنصاره تحت اسم "جمعية الاخاء الجزائري" وتقدم الشبان باسم "الحزب الليبرالي" تحت رئاسة ابن التهامي في 1920م، وفازت لائحة الأمير في الانتخابات البلدية مقابل هزيمة ابن التهامي (1).

ب حزب الإصلاح:

لم تمنع النجاحات الانتخابية العديدة والهامة من أن تنبه الأمير خالد إلى أن الأقبية المنتخبة لا يمكنها أن تغير شيئا من الوضع السياسي في الجزائر، لأنها غارقة في أغبيية أوروبية ودفعه ذلك إلى الاستقالة من منصبه كمتخب والتوجه إلى الجماهير الشعبية قصد تأطيرها ضمن حزب الإصلاح والقيام بتوعيتها وتوجيهها واستغل لذلك: الخطاب المنبرية الحماسية، والاجتماعات التي كان يشرف على تنظيمها وكانت تهرس إليها الجموع الكثيرة من الجماهير الجزائرية وقد عرف الأمير كيف ينسج عمقها وأن يعبر عن طموحاتها ومطالبها باعتزازه بأبائه وأجداده مذكرا بكفاحهم ومقاومتهم البطولية ضد الفرنسيين بتعابير كنها غيرة عنى اللغة والوطن والدين.

واستغل الأمير خالد الصحافة منبرا قاد منه حملات انتقادية شديدة ضد النظام الكولونيالي وعملائه من الأهالي، فقد أصدر الأمير خالد جريدة "الإقدام" باللغة الفرنسية رفقه الصادق دندان والحاج عمار. بغية توحيد القوى الوطنية وفي سبيل الدفاع عن الحقوق السياسية والاقتصادية لمسلمي شمال أفريقيا كان ذلك في 1919م وبعدها انضم الصادق دندان إلى فكرة ابن التهامي، انفصل الأمير عنه ليصدر جريدة "الإقدام" في 1920م

(1) صالح عوض، المرجع السابق، ص 199.

التي تصادرها إدارة الاحتلال في 1922م للهيبتها العنيفة واتجاهها الوطني الجريء الذي يرفض التجنس رفضا قاطعا ويطالب بتمثيل الأهالي في البرلمان الفرنسي. ويندد بالبورجوازية المتفرنسة التي كانت تحسبها إدارة الاحتلال الفرنسي. وتعود بعدها للتصوير فترة ثم تتوقف نهائيا في مارس 1923م بعد صدور 120 عددا وذلك قبل مغادرة الأمير للجزائر بقليل (1).

واستغل الأمير ثقافته الفرنسية العسكرية والسياسية واطلاعه على وسائل السياسية لدى الأحزاب الفرنسية في باريز لدعم القضية الوطنية بوسائل الدعاية والنشريات والاتصال بالشخصيات السياسية والديبلوماسية في حكومة باريز وممثلي الرأي العام الفرنسي والعالمي وكذا الاتصال بالصحافة الباريزية وذلك عن طريق بعث الرسائل، فقد بعث برسالة إلى رئيس الجمهورية هيريو "Edouard Herriot" ضمنها مطالب شرعية ومعقولة للشعب الجزائري (2)، وبعث برسالة إلى الرئيس الأمريكي "توماس ويلسون" "Thomas Woodrow Wilson" (3) أثناء انعقاد مؤتمر فانساي "لتقرير مصير" بفرنسا سنة 1919م طلب منه فيها عرض القضية الجزائرية أمام عصبة الأمم لتفصل في مصير الجزائر، بعدما ضمنها تقريرا مطولا عن انتهاكات حقوق الإنسان الجزائري من طرف الاحتلال الفرنسي والوضع المؤسفة التي يعيشها الجزائريون رغم سقوط الآلاف دفاعا عن العلم الفرنسي وشعارات فرنسا.

وكان هذا الأسلوب خطوة سياسية واعية وجريئة من الأمير خالد، لم يسبقه إليها أحد قبله وقد وصفت فعلا بأنها سابقة لأوانها لم تكن تعكس بتاتا التسيج الفكري

(1) انظر محمد ناصر، ألسحف العربية الجزائرية، مرجع سابق، ص 48-50 بتصرف.

(2) انظر نص الرسالة بالفرنسية في :

- Mahfoud Kaddache, Mohamed Guenanèche, L'étoile Nord-Africaine 1926-1937, (Algérie, OPU, 1994), p19

وبالعربية في : محمد الطيب العلوي. مظاهر المقاومة الجزائرية من عام 1830م حتى ثورة 1954م

(قسنطينة، دار البعث، 1985م)، ص 89-90.

(3) انظر نص الرسالة بالفرنسية في :

الاسلامي في تلك الفترة ومن ثمة وصفوها "بغير الواقعية"⁽¹⁾. لكنها أعطت في الواقع الوجه الآخر الحقيقي للحركة الوطنية عموما وللنضال السياسي الذي يقابل النخبة المتفرنسة، حيث عبرت بأمانة عن النزعة الثورية والاسلامية للأمير، ومن ثمة للحركة الوطنية والتي يمكن الجزم على ضوءها بظهور التعابير القانونية الأولى للوطنية الجزائرية⁽²⁾.

واستطاع الأمير بهذه الوسائل أن ينجح في الجبهتين، الداخلية بحيث استجابت له الجماهير الجزائرية العريضة وانزوت تحت لوائه "حزب الاصلاح" لكن أقصى ما كانت تستطيعه هو ايصاله إلى كرسي النيابة وانتخابه لتمثيلها في كل مرة، وزحزحة جماعة "البي بي وي" "Les Beni oui oui"^(*) عنه. ونبه سلوك الجماهير هذا -الجميع- إلى فشل مخططات المسخ الطويلة التي استهدفت إيجاد نفسية جزائرية مهزومة حضاريا، وكسر وهم النجاح إذا كان بمقياس النخبة الفرنسية وكان بمثابة القشة الهشة التي أطاحت بالصرح العظيم من ظن النجاح الفرنسي.

وكان من المفروض أن تقتنع الطبقة السياسية النخبوية على الأقل بأن الحرية والاستقلال لا يعطي ولا يستجدي وأن الجلوس على مقاعد التمثيل السياسي لا يجدي شيئا على مستوى إدارة الاحتلال في الجزائر أو على مستوى الميثروبول في باريز: «بل إن الكفاح الثوري هو الطريق الممكن الوحيد»⁽³⁾ المحقق لذلك، هذا من جهة ومن جهة أخرى كان من المفروض أيضا أن ينبه النخبة الفرنسية المطالبة بالاندماج الكلي إلى نقطتين

(1) Ali Merad. Le Réformisme Musulman en Algérie, Op Cit, p 39.

(2) الجيلالي صاري، محفوظ قداش، المرجع السابق، ص 53.

(*) جماعة البي بي وي: وبسميهم الدكتور حربي جماعة محذني العمة. ويعرفهم سعد الله جماعة من الجهلاء الجزائريين والأغبياء الذين لا يعرفون حتى توقيع أسمائهم وبعض شيوخ الزوايا وبعض العائلات الغنية الذين تختارهم إدارة الاحتلال لتعملهم في مناصب إدارية مختلفة وترشحهم في الانتخابات بالرشوة والتأييد. وتستعملهم بفسر زعماء الحركة الوطنية في نشر الأكاذيب والفوز بالكراسي النيابية وتعطيل المشاريع الاقتصادية والاجتماعية التي كانت النخبة تعمل على تحقيقها .

انظر: سعد الله، الحركة الوطنية الجزائرية 1930-1945، (مصر، مطبعة الجيلاري، 1975م)، ج3، ص 15-67-141 بتصرف.

(3) Mahfoud Kaddache, Mohamed Guenanèche, Op Cit, p 20

هامتين هما :

1- أن مقومات الأمة الجزائرية المتمثلة في اللغة والدين والوطن حاضرة بل ومتأججة في الجزائريين، يحول دون مرورها إلى الفعالية حسن التوجيه ونظام التأطير ومن ثمة حاجة الجماهير الجزائرية إلى قيادة قوية واعية ومسؤولة للتنظيم والتوجيه.

2- أن التحرير لا يتم في غياب الجماهير الشعبية التي يمكنها فرض البرامج ومواجهة الاحتلال في كل مظهره ووسائله.

والحقيقة أن سياسة فرنسا وملاحظيها قد تسبها إلى خطورة الأمير خالد واعتبروه بحق رجل الساعة الخطير بكل الاعتبارات. فقد نادى باستقلال وتحرير الجزائر ورفض المساومة مع نظام الاحتلال، وفضح أساليبه ووسائله عن طريق الصحافة والخطب بشجاعة الوطني ولغة الثوري فكان بحق كما قال عنه الوالي العام للجزائر السيد ستيف "Steag" - رئيس أول حزب مناهض لفرنسا >>(1)، ولذلك فقد احتالت له وأتارت ضده جماعة "البي وي وي" بالإضافة إلى عداء جماعة الاندماجين له، فضيقت عنى الأمير وعلى نشاطه وانتهت بنفيه إلى سوريا، وقطعت دونه كل أمل في العودة إلى الجزائر. رغم محاولاته المتكررة. ومع ذلك ينتقل الأمير إلى باريز ليواصل نضاله بين أوساط الجالية الجزائرية ويساهم بجدية في تأطيرها وتوجيهها تم يعود إلى سوريا أين توفي في 1930م.

وبهذا يسجل نضال الأمير خالد لبنة قوية وحلقة وصل عديدة في عقد المقاومة الوطنية لأنها امتداد لروح وطنيتها وثورية روادها، ومع قصر عمرها فقد تمكنت من تشخيص الواقع الجزائري وتوجيه أنظار الوطنيين إلى الوجهة السليمة التي تكمن فيها بواد النجاح: الاعتماد على الجماهير الشعبية، وطريق الثورة ضد الاحتلال.

ج- فيدرالية نواب مسلمي الجزائر:

ظهرت هذه الفيدرالية في العاصمة في 11 ديسمبر 1927م تحت رئاسة "ابن التهامي" ولم تكن حزبا سياسيا منظما وإنما جماعة فضفاضة تدعى "النخبة" كان يجمعها كرسي النيابة في المجالس المالية أو البلدية. سيطرت على المسرح السياسي وشمل نشاطها كل

(1) Mahtoud Kaddache; Mohammed Ghenaneche, Op Cit, p 20.

الميادين. وقد فرض أصحابها أنفسهم لكونهم مثقفين أو أصحاب شهادات عينا أو بأهمية نشاطهم الاقتصادي أو لوضعيتهم الاجتماعية الراقية أو بانتمائهم إلى العائلات الكبرى. وقد شملت اتحادياتهم الأطباء والمحامين والعلمين والصحافيين، والقضاة والسيادلة وكذا بعض قدماء الخاربيين في الجيش الفرنسي وغيرهم ممن كانوا لا يرون النور خارج الإطار الفرنسي (1). وقد استنهر منهم الصيدلي فرحات عباس، والدكتور محمد الصاخ بن جبول الذي ترأس فرع قسنطينة - أهم الاتحاديات تأثيرا على الحياة السياسية في الجزائر (*).

تبنت الفيدرالية في أول مؤتمر لها سنة 1927م الخطوط العريضة لبرنامج الأمير خالد لكن دون نزعته الوطنية وروحه الإسلامية حيث تشبث أصحابها بمطلب المساواة بالفرنسيين. ولاندماج الكلي مع التنازل عن مجلة الأحوال الشخصية الإسلامية - أهم الشروط الفرنسية لإعطائهم حقوق المواطنة - وبعد اليأس من الرجوع الكثيرة بالإصلاحات التي كانت حكومة الإحتلال تناور بينا وتذر بها الرماد في العيون كما استندت هجة المطالب الجزائرية، تمسكت النخبة بمشروع فيوليب M. VIOLETTE (**). الذي اقترحه صاحبه في 1931م واستمرت مناقشته في البرلمان الفرنسي حتى 1935م دون اعتماده تحت ضغط الكولون. ثم أحيته حكومة الجبهة الشعبية أثناء حملاتها الانتخابية وبعد انتصارها في 1936م وتبناه رئيس وزرائها السيد "Blum" الذي استرزر "فيوليت" "VIOLETTE" في حكومته وشاع من ثم الحديث عما عرف "بمشروع بيوم فيوليت" الذي يتلخص في أن يقع دمج الجزائريين تدريجيا بطريقة عملية لا نظرية فحسب، وذلك عن طريق التجربة المتخرجة

(1) أبو القاسم سعد الله، الحركة الوطنية، مرجع سابق، ج3، ص 64

(*) لم يستمر تجمع الفيدرالية مرحةا فانقسمت ابتداء من عام 1930م إلى ثلاثة اتحاديات في كل منهران وقسنطينة

والجزائر. انظر صاخ غوش، المرجع السابق، ص 200

(**) موريس فيوليت Maurice Viollet ساري فرنسي، حاكم غام بالجزائر خلال العسريات. أسس عشو. ي

مجلس الشيوخ وكلف بشؤون الجزائر في حكومة الجبهة الشعبية ألف كتابا سماه "هل ستعيش الجزائر" صنفه مشروعه الخاف

بدماج الجزائريين، رفضه في ثمانية فصول وحمسين مادة للإصلاح في مختلف الميادين. قال عنه الإبراهيمي أنه... لم يظهر

مباصي يمثل ما ألفه به من حب الجزائريين وتقديرهم... على أنه لم ينجز من سعد قليل أو كبير... نظير المرجع السابق.

ص 10-19 بتصرف

من المدارس الفرنسية والمالية لفرنسا وبالتالي تذوب في المجتمع الفرنسي بالاضافة إلى إصلاح التعليم، والميدان الزراعي، وإلغاء المحاكم الخاصة بالجزائريين(1).

وقد حارب المستوطنون "مشروع بلوم فيوليت" بلا هوادة بدعوى التخوف من الذوبان في الأثرية المسلمة خاصة إذا عرفنا أنه إذا تحقق هذا المشروع لأصبح 22000 جزائرياً متجنسين بالجنسية الفرنسية وتمتعين بالحقوق المدنية والسياسية. وقد تمسك الفرنسيون بهذه الدعوى منذ صدور قانون الجنسية المعروف بـ "Senatus Consult" المؤرخ بـ 14 جويلية 1865م القاضي آنذاك بالزامية تخلي الجزائري المسلم عن مجنأ أحوال الشخصية إذا رغب في التمتع بحقوق المواطنة الفرنسية(2). وتمسك بعضهم بدعوى أن الجزائريين لم يبلغوا درجة من الوعي والتطور تؤهلهم للحلوس في برلمان واحد مع الفرنسيين، وهو ما عمئت "النخبة" على تحقيقه لكن عن طريق المطالب السياسية فقط كما سنرى.

والواقع أن مشروع "بلوم فيوليت" كان يقضي في الحقيقة بأن يضل الأهالي الجزائريون رعايا فرنسيين فقط عندهم كل الواجبات وليس لهم أية حقوق >> إذ أن قوانين الدمج (الجزائر جزء لا يتجزأ من فرنسا) كما يقول صالح عوض لم تكن تعني في واقع الأمر الجزائريين وإنما القصد منها فرنسا الأرض لخدمة الكولون الذين لم يقبلوا المتربول حكومة ونوابا على هذه الأرض (المقاطعة الفرنسية)(3).

وعلى الرغم من ذلك فقد بقي المشروع على طاولة المداولات في البرلمان الفرنسي حتى سنة 1938م حيث دفن إلى الأبد مع كل مشاريع الإصلاحات الأخرى عشية الحرب العالمية الثانية. ويبدو أن حكومة الجبهة الشعبية -لما آل إليها الحكم- تناست الوعود العريضة التي كانت تخلي بها خطبها الإنتخابية كالحرية والمساواة واستنكار الاستعمار.

(1) أبو القاسم سعد الله، الحركة الوطنية، مرجع سابق، ج3، ص 18 بتصريف.

(2) أحمد توفيق المدني، كتاب الجزائر: (الجزائر، دار الكتاب، 1963م)، ، ط2، ص 326. بتصريف.

وقد صدر قبله قانون دائرة الاستئناف بالجزائر في 24 فبري 1862م الذي قضى باعتبار المسلم الجزائري انذني يحافظ على قانونه الخاص، رعية فرنسية وليس وطنياً كما ينص عليه مفهوم دستور فرنسا المخرّر في 4 نوفمبر 1848م والذي يلحق الجزائر إلحاقاً تاماً بفرنسا ويعتبر المسلم الجزائري فرنسي. انظر المكان نفسه.

(3) صالح عوض، المرجع السابق، ص 196 بتصريف.

وقد خيبت آمال النخبة في تراجعها عن وعودها ومواقفها ثم باستقالتها في مارس 1837م. واتخاذ الحكومة الجديدة إجراءات استثنائية قاسية، للقضاء على ما أسمته بالمشاغبين. وقبعت للنخبة خاصة وللجزائريين عموما ظهر الخن أثبتت بها عدم استعداد فرنسا الديمقراطية للتخلص من روح الطيمنة والاستبداد، وفضت بذلك على ما يفي من أحلام النواب حول قضية الإدماج التي سماها سعد الله -بحق- "بالملهة"⁽¹⁾. وقد بقيت المطالبة بالاندماج التي ركبت صهوة النواب المسلمين طيلة فترة ما بين الحربين 1919-1939م، محورا لدعوتهم وحتى غداة الحرب العالمية الثانية على اختلاف في شدة توجه أقطاب الجماعة خاصة فيدرالية قسنطينة نحو إلزامية التخلي عن قانون الأحوال الشخصية من عدمه.

ولما كان أغلب النواب يطمحون في الاندماج عن طريق الحقوق لا عن طريق التجنيس لأن الأولى تجعل منهم فرنسيين مسلمين والثانية تجعلهم فرنسيين مسيحيين. فقد رحبوا بمشروع "بنوم فيوليت" أيما ترحيب، وبعد أن استخدموا وسائل الشبان في المطالب بالحقوق عن طريق العرائض والاحتجاجات والخطب والمحاضرات وكذا الصحافة. فقد سعوا بالإضافة إلى ذلك في هذه المرحلة بالمؤتمرات والتجمعات والوفود الدينيوماسية وكذا الانتخابات المالية والبندية. ومنذ أن ظهر هذا التيار استغل الصحافة للتعبير عن توجهاته وأفكار روّاده. فقد صدر له:

جريدة "صوت البسطاء" "La voix des humbles" في العاصمة من 1922م إلى 1939م التي كانت لسان حال "جمعية المعنسين الجزائريين" ويتلخص برنامج عسنها في أنها تصدر من أجل رفع مستوى الجزائريين ذوي الثقافة الفرنسية وأنها بعيدة عن الأحزاب⁽²⁾. وقد اعتبرت أن المثل الجمهوري المتمثل في الحرية والعدالة والإخاء هو المثل الأعلى والنموذج الأمثل للدفاع عن سياسة الاندماج الشامل ووصفت الجزائريين المعارضين للاندماج بالتعصب وأرجعت مقاومتهم له إلى الجهل⁽³⁾.

(1) أبو القاسم سعد الله، الحركة الوطنية، مرجع سابق، ج3، ص 137

(2) عواطف عبد الرحمن. المرجع السابق، ص 34. بتصرف. نقلا عن :

(3) الجبلائي صاري، محفوظ قدام، المرجع السابق، ص 21

(Ali Merad, La formation de la presse Musulmane en Al.gérie)

وتنضم إلى "صوت البسطاء" كل من جريدة "خط الوصل" "Trait d'union" و"المنبر" "La tribune" لتتطرق بلسان "الشباب الجزائري" (1). الذين طالبوا من خلالها بتحديث الجزائر وتحريرها من التخلف عن طريق العلم والأخذ بالثقافة الأوروبية (1). "جريدة التقدم" "Le progrès": لسان حال فيدرالية النواب المسلمين. صدرت بالعاصمة مزدوجة اللغة واستمرت من 1923-1931م، استغلت الفراغ السياسي بعد نفي الأمير خالد، وهدفت إلى التأثير على الرأي العام الجزائري الذي لا يعرف الفرنسية لكسب صوته في الانتخابات. وهي ذات مشرب متفرنس، ولهجة ضعيفة لينة ودعت إلى الاندماج الكلي. توقف قسمها العربي عام 1926م بينما استمر قسمها الفرنسي حتى عام 1931م (2). لتصبح صوت الحزب الليبرالي النخبوي مع جريدة صوت الأهالي "La voix des indigènes" 1929-1939م التي تزعمت حملة عنيفة دفاعاً عن الاندماج في قسنطينة (3).

"جريدة الوفاق" "L'entente": أسسها الدكتور بن جنول 1934-1939م لدفاع عن مصالح الجزائريين المسلمين، وأصبحت ابتداءً من 1936م الصحيفة الرسمية لاتحاد النخبة فرع قسنطينة، وكان فرحات عباس من بين أبرز محرريها. كما كان من بين محرري معظم جرائد هذا التيار.

وقد كان النواب يرون بأن مطلب الاندماج مرحلة أولى من مراحل التحرير النهائي للجزائر، ويؤكد فرحات عباس بأن تقدم الجماهير الشعبية في الميدان الاجتماعي لابد أن يفتح لها الطريق إلى الاستقلال ومن ثمة كانت دعواته إلى ضرورة الاندماج التدريجي. ويبدو أن أهداف هذه الحركة ثم نشاطها السياسي والاجتماعي الملتزم بمحاربة الجهل والفقر وتحسين العلاقات الإنسانية، وتوفير العمل والتعظيم لكل الجزائريين (4). كان

(1) نور سلمان، المرجع السابق، ص 170 و 175 بتصرف.

(2) محمد ناسر، الصحف العربية، مرجع سابق، ص 52 بتصرف.

(3) عواطف عبد الرحمن، المرجع السابق، ص 35 بتصرف.

(4) بوالصفاصاف عبد الكريم، جمعية العلماء المسلمين الجزائريين ونورها في الحركة الوطنية الجزائرية (قسنطينة، دار البعث، 1981م)، ص 232.

يهدف أساسا إلى إعداد الجزائريين حتى يكونوا في مستوى الإدماج ويؤهلهم بالتالي للجلوس مع الفرنسيين في برلمان واحد، وهورد عملي لكنه يبقى كذلك فقط على مستوى المطالب - على ذريعة المستوطنين في محاربتهم لدعوة الاندماج.

وقد سعى النواب إلى إعطاء دعوتهم الصفة الجماهيرية واستغفروا لذلك المؤتمر الاسلامي المنعقد في 1936م الذي ترأسه ابن جلول، وترجع الاندماج على نص المادة الثانية(3). من الميثاق المطلي للشعب الجزائري المسلم المنتق عن المؤتمر الذي كانت الموافقة عليه بالإجماع كل حسب أهدافه كما سنرى.

وأعلن "عباس" في جريدة "الوفاق" "Lentente" عن تمسكه الشديد بدعوة الاندماج الكسي، وكتب مقالا في 23 شباط 1936م(1) عنوانه بـ "فرنسا هي أنا" "La France c'est moi" وهو أخطر ما عرفت هذه الدعوة من مغالطات تاريخية وحضارية تصريحا، فقد لخص فيه صاحبه الحقيقة المرة لتسرة المسخ الفكري والإبادة الحضارية التي انتهجتها برامج المدرسة الفرنسية إزاء الجزائريين عموما وإزاء النخبة التي كونتها خاصة، والتي كان "عباس" أحد ثمارها البانعة، قال فيه: "... إنني لست مستعدا للموت في سبيل الوطن الجزائري، لأن هذا الوطن لا وجود له، إنني لم أكتشفه. ولقد سألت عنه التاريخ. وسألت عنه الأحياء والأموات، وزرت المقابر من أجل اكتشافه فلم أجد من يكلمني عنه إطلاقا... إننا لا يجب أن نبي فوق الرمال، وإنني قد أبعدت بصفة بانه ونهائية كل خيال لكي نربط المصير بصفة مطلقة مع الوجود الفرنسي"(2).

وأكد عباس هذا الاتجاه الخطير للمدني في مناقشة فكرية جمعت بين الرجيين قوله: «هذه سياسي ومسلكي ومنهاجي ولو بقيت وحيدا فيه، فليس لنا وطن إلا فرنسا

(*) جاء في المادة الثانية ما نصه: 2- الضم المحض والمطلق لفرنسا مع إلغاء المؤسسات الخاصة: مجلس المنذوبين الماليين والبلديات المترحة والولاية العامة. انظر الملحق رقم 4.

(1) انظر نور سلمان، المرجع السابق، ص 143 (نقلا عن:

-Philippe Tripier, Autopsie de la guerre d'Algérie

(2) أحمد توفيق المدني. حياة كفاح (مذكرات)، القسم الثاني (في الجزائر 1925-1954م)، (الجزائر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، د.د.، 61).

وليست لنا لغة علم ومدنية إلا لغة فرنسا. ولن ننال حقوقاً إلا بواسطة فرنسا (1).
 وواصل فرحات عباس نشاطه ومطالبه الإدماجية التي كانت أقرب إلى المغالاة
 والشكوى اللطيفة منها إلى الاحتجاج والرفض، فأنشأ حزب "الاتحاد الشعبي الجزائري"
 في 1937م وجعل خطابه فيه بصيغة الدعوة إلى نظام من المساواة تلغي فيها اعتبارات الطبقة
 والمولد والجنس. بمعنى اعتبار الجزائر مقاطعة فرنسية حقيقية. وقد كان يهدف من وراء
 دعوته كما أكدته لتوفيق المدني أيضاً إلى أمرين :

- 1- فضح الاستعمار أبشع فضيحة وبيان أساليبه واستهتاره بالقيم الإنسانية.
 وإطلاع الرأي العام العالمي والفرنسي على ما يقاسيه الشعب الجزائري.
 - 2- إرغام فرنسا بالحجة والبرهان على تطبيق قوانينها التي تقول بأن الجزائر قطعة
 من فرنسا، وأن الجزائري فرنسي قانوناً، وبذلك يستوجب إلغاء كل القوانين الاستثنائية
 الخاصة بالأهالي ويوجب إعطاءنا كل حقوق المواطنة الفرنسية (2).
- ويعني التثبيت بهذه الدعوة عدم تغير طبقة النواب وعدم تقدمها في مطالبها طيلة
 الثلاثينات وذلك بالرغم من:

أولاً: أن الجماهير الجزائرية كانت تزداد نضجاً يوماً بعد يوم، وضوحاتها كانت
 تزداد جرأة وصلابة، وخاصة بعد دخول ^{حزب} النجم إلى ساحة النضال السياسي منذ 1937م تم
 رواج تعابير الحرية والاستقلال وتقرير المصير والوطنية التي كانت تضح بها روح
 الاحتجاجات والاضطرابات والمظاهرات الجماهيرية بداية 1934م والتي «لاحظ أحد
 الكتاب إزاءها بأنها أظهرت كيف أن رجل الشارع بدأ يشارك في التعبير عن نفسه» (3).
ثانياً: إن إدارة الاحتلال وحكومة لم تحقق ضموحات النواب في المساواة
 والاندماج رغم تمسحهم الدليل بأعتابها ومغازلتها بنسان قوانينها الديمقراطية، وقد
 أدركت ذلك جريدتهم "الوفاق" "L'entente" نفسها «مشيرة إلى أن الفرنسيين لم

(1) أحمد توفيق المدني، حياة كفاح، القسم الثاني، مرجع سابق، ص 59.

(2) المرجع نفسه، ص 58-59.

(3) أبو القاسم سعد الله، الحركة الوطنية، مرجع سابق، ج 3، ص 23.

ينجزوا أي شيء بل إنهم ضحكوا على الجزائريين، وكل الوعود التي صدرت عن الحكومة والإدارة وكل الخطب الرنانة التي فاه بها رجال البرلمان لم يكن لها أية نتيجة ملموسة (1).

وقد كان اتجاه ابن جلول أحد أعمدة الاندماج ينحو نحو مزيد من الارتباط بفرنسا حيث أنه... لم يكن يرى حلا للقضية الجزائرية إلا بالاندماج التام بدون قيد أو شرط (2). وعبرت مواقف المؤسفة على مبالغته في الانغماس والتواطؤ مع إدارة الاحتلال فقد اعتبر اضطرابات صائفة 1936م تعصبا وبلشفية من الجزائريين (3). تم اتهم جمعية العلماء باغتيال مفتي الجزائر ابن دالي المعروف بالشيخ كحول (4)، مما أدى إلى انهيار شعبيته التي عمل الكثير للحصول عليها.

ويبدو في المقابل أن "فرحات عباس" أحد الأعمدة الأخرى للاندماج والذي كانت حياته السياسية تاريخا للبحث عن وطن في فرنسا، كان يعاني شخصيا وفكريا من خيبات الأمل المتتالية إزاء السياسة الفرنسية ووعودها التي لم يتحقق منها شيء. وكانت سنة 1937م بداية الشعور بالمرارة والفضل وبالتالي تغييره إلى الوطنية وتوجهه إلى الشعب وتعبيراته الأكثر سيادة وخاصة بعد:

1- وقائع القمع الوحشي التي أعقبت اضطرابات 1934م بقسنطينة وكذا سنة 1936م التي استعملت فيها فرنسا الجيش، والطيران، وأمرت بتسليح الكولون، وطردها من العمال الجزائريين وفرض الضرائب الباهضة ثم تصريحات ساستها المستفزة إزاء الوطنيين والجماهير الجزائرية.

(1) أبو القاسم سعد الله، الحركة الوطنية، مرجع سابق، ج3، ص65.

(2) محمد الطيب العلوي، المرجع السابق، ص138.

(3) الجيلالي صاري، محفوظ قداش، المرجع السابق، ص34.

(4) بتصرفه إلى جريدة "صباح مرسيليا" "Marseille Matin" بذلك وقد طلب إليه أن يكذب مقال لكنه اعتصم بالصمت. انظر:

- محمد قناش، محفوظ قداش، المرجع السابق، ص114.

انظر حبيبات الحادثة: محمد الطاهر فضلاء. قال الشيخ الرئيس الإمام عبد الحميد بن باديس (قسنطينة).

دار البعث، 1968م، ص129-135.

2- قانون رينيه "Rency" في 30 مارس 1935م الصادر ضد من سماهم بالمتآمرين على السيادة الفرنسية وقانون 08 مارس 1938م القاضي بعرقلة المدارس ومنع حرية الوعظ في المساجد.

3- ردود الأفعال الكثيرة التي أثارها مقالته "أنا فرنسا" والمشرحة لنواقف والكاشفة للمغالطات الخطيرة، فقد ردّ عليه ابن باديس بقوله: «> إن هذه الأمة الإسلامية ليست فرنسا. ولا يمكن أن تكون فرنسا، ولا تريد أن تصبح فرنسا، ولا تستطيع أن تصبح فرنسا ولو أرادت، بل هي أمة بعيدة عن فرنسا كل البعد. في لغتها وفي أخلاقها وفي دينها. لا تريد أن تندمج ولها وطن معين هو الوطن الجزائري بحدوده الحالية المعروفة» (1).

وقال «> إن هؤلاء المتكلمين باسم المسلمين الجزائريين والذين يصوّرون الرأي العام الإسلامي الجزائري بهذه الصورة، إنما هم مخطئون يصوّرون الأمور بغير صورتها ويوشكون أن يوجدوا حفرا عميقة بين الحقيقة وبين الذين يجب أن يعرفوها» (2).

وردّ "مصالي الحاج" من جهته على سياسة "عباس" في خطاب ألقاه في نوفمبر 1936م جاء فيه: «... ليس هناك إلا موقفان... إما أن تكون وطنيا حارا أو أن تكون خائنا مجرما... نحن لا نسمح أبدا بأن تخاطروا بأدنى حق لهذا الشعب التبعيس في التحرير الذي قرّرتنا بأن نضحى من أجله... أي أحمق هذا الذي يعتقد بأنه يقوم بتجربة... لا يجب أن نرتجل مع الشعب، ولا أن نعبث بحقوقه» (3).

وأكد مصالي الحاج لفرحات عباس في لقاء جمع الرجلين قال له فيه بأن فرنسا لن تعطيه شيئا، وعقب عباس على ذلك قائلا: «> إنه كان محقا» (4).

(1) محمد الميلي، ابن باديس وغرابة الجزائر (الجزائر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1973م)، ص 192.

(2) المرجع نفسه، ص 191.

(3) محمد الطيب العلوي، المرجع السابق، ص 156-158.

(4) الحركة الوطنية الجزائرية (1920-1954م) حصة تليفزيونية جزائرية، بنت يوم الأحد 26 مارس 1995م عنى الساعة العاشرة وخمس وأربعين دقيقة ليلا. وأجري فيه حوار مع السيد فرحات عباس الذي سرد وقائع اللقاء والحوار.

وقد أثرت الصحافة العربية في هذه الفترة والوطنية منها خاصة من جهة أخرى. عن طريق كتاب رواد الإصلاح وعلماء الإسلام على الجور السياسي والوطني عموماً وسمحت للكثيرين بالرجوع إلى الذات ومراجعة القناعات. واستطاع العديد منهم إقناع دعاة الاندماج الجزائريين وإعادتهم إلى الحضيرة العربية الإسلامية وقد ذكر منهم سعد الله مثلاً: المنجي سليم، والحبيب ثامر وعلال الفاسي، ومحمد الفاسي وأحمد بلا فريج (1).

وتكون وضعية المتجنسين المزرية قد أثرت في اتجاه الاندماجين فراجعوا مواقفهم واكتشفوا خطأهم في حق مواطنيهم ووطنهم. فبعد أن ضحى هؤلاء بماضيهم وتقاليدهم ودينهم وجعلوا أنفسهم عرضة لامتهان بين جلدتهم أملاً في أن يصبحوا فرنسيين. أصبحوا طبقة تالفة في البلاد لا هم من الفرنسيين ولا هم من الأهالي وإنما أصبحوا طبقة تتوسط الفرنسيين والأهالي هي طبقة المتجنسين (2). وإذا أخذنا بعين الاعتبار أثر الفتوى التي أصدرها عبد الحميد بن باديس رئيس جمعية العلماء التي تحكم بالإرتداد عن الدين على كل من يتجنس بالجنسية الفرنسية، فقد انجر عنها حكم عدم الصلاة على الأموات من المتجنسين...

كل هذه الأحداث وغيرها تكون قد أثرت على الاندماجين وسجنت لديهم بأسهم الأكيد من وعود فرنسا وقد عبر فرحات عباس عن ذلك في نص "ليسان" الذي كلف بتحريره سنة 1943م وعرف "بالميثاق الجديد" الذي انتقد فيه بشدة، الأناية الفرنسية التي لا تقبل المساواة مع الجزائر المسلمة إلا في مخطط واحد هو التضحيات في ميادين القتال وحتى هذا - كما يقول فرحات عباس - فإن الأهالي يسقط ويموت بعنوان أهلي. وبمرتبة منحة مرتزق، حتى لو كان صاحب شهادة واختصاص (3).

ويبدو من نص "ملحق البيان" (*) تخلصه من الاتجاه الأدماجي حيث اعترف بأن امتزاج الشعيين في شعب واحد غير ممكن وقد أظهر فشله... وقال:

(1) أبو القاسم سعد الله، هموم حضاريه (الجزائر، دار الأمل، 1993م). ص 42.

(2) أحمد توفيق المدني، كتاب الجزائر، مرجع سابق، ص 329 (نقلاً عن جريدة صوت لأهلي).

(3) محمد الطيب العلوي، المرجع السابق، ص 206.

>> من الآن فصاعداً، المسلم الجزائري لا يطلب إلا شيئاً واحداً هو أن يكون جزائرياً مسلماً (1).

ومع ذلك يجب الإشارة أن تغييرَ عباسٍ - أو الاندماجين - الذين يمثلهم - لم يكن عميقاً وجذرياً حتى ولو أبدى استعداداً للمطالبة بحريات أوسع، >> إذ لم تكن مطالبته ناجمة أساساً عن روح ثورية أو عن إحساس بالجامعة الإسلامية والقومية العربية. وهو ما كان يحرك الطبقة السياسية الجزائرية الأخرى، وإنما كان عن رفض فرنسا لمطالبهم إذ عانا منها لضغط المستوطنين >> (2). ومن ثمة فلتن تغيير "عباس" في أشياء كثيرة وبالتالي دعاء الإدماج أيضاً فإنه >> لم يغير رغبته في الحوار وفي البحث عن وسائل للوفاق لكن دائماً باعتقاده يجدوى الثورة بالقانون وبرسالة فرنسا التمدينية في البلاد الجزائرية وهو ما يدل على فشله الذريع >> (3).

وبهذا تكون وسائل التيار الاندماجي المتمثلة في السياسة والصحافة قد عبرت طيلة معمرتها السياسة الطويلة عنى الإعتراف الواقعي بالإطار الإستعماري فيما فرضه من قوالب مادية ومعنوية، وكرست نظرة الاحتلال للشعب الجزائري وتواطأت مع فرنسا ضد مقومات الأمة الجزائرية في دينها ولغتها ووطنها وشخصيتها الحضارية، وقد اتضح ذلك باستمرار في صحافتها ذات اللغة الفرنسية التي يصعب تصور أنها تمثل شعباً جعلت ذكره في قوائم الانتخاب ولوائح المطالب ديكورا فلكلورياً، فكيف تنادي بإصلاحات لشعب له مقوماته ولغته وتاريخه وحاضره المتمثل في الستة ملايين ونصف نسمة، عن طريق تعليم فرنسي، ومدرسة برامجهما فرنسية، وأساتذتها فرنسيون مسيحيون وجعلت حياتها إزاءه نضالاً مريراً لبحث عن وطن له في فرنسا. ولهذا فقد سجل التيار الاندماجي فشله الذريع وفقد سلاح المبادرة ناهيك عن الزعامة وريادة الرأي العام الجزائري، فكان نشاطه خارج الزمن الذي تخياه الجماهير وتأمل فيه، وهو ما جعل

(*) انظر نص البيان، وملحق البيان على التوالي في الملحق رقم 5 والملحق رقم 6.

(1) محمد الطيب العلوي، المرجع السابق، ص 206.

(2) حوان غليسي، المرجع السابق، ص 67.

(3) يحيى بوغزير، الايديولوجيات السياسية للحركة الوطنية، مرجع سابق، ص 5.

يصف أصحابه بكونهم في «شبه غيبوبة بفعل تغريبهم الثقافي وانبهارهم بالحضارة الفرنسية حيث فتشوا عن القومية الجزائرية في بطون التاريخ فلم يجدوا لها أثرًا» (1). وقد كشف التيار الاندماجي بوسائله - في المقابل - خواء الشعارات الجمهورية والديمقراطية التي كان الإحتلال الفرنسي يتغنى بها - الحرية والمساواة والأخوة - والتي لم تنل النواب خاصة والشعب الجزائري عامة منها سوى حملات وحشية كان الغرض منها في كل مرة التطهير والقضاء على المشاغبين المتآمرين على سيادة وأمن فرنسا فبينت أن المتجنسين من الجزائريين وكذا كل الجزائريين ماهم في الحقيقة - حسب نظر الإحتلال - في نهاية الأمر إلا أهالي، وقد عمل بمخططاته ومشاريعه لتدجين بعضهم ليتمكن بهم من القضاء على بعضهم الآخر، وفتحت هذه المنعطات المؤسفة الأبواب أمام وصية جزائرية ساخطة (2)، وكانت دفعا قويا لصبود الحركة الوطنية عموما ووعيتها بمسؤولياتها التاريخية والحضارية ضمن كفاح طويل ومرير.

(1) صالح عوض، المرجع السابق، ص 201

(2) Ch. R. Ageron, Histoire de l'Algérie contemporaine, Op Cit, pp 72 et 74.

II- التيار الاستقلالي :

1 معضيات الجالية الجزائرية في فرنسا :

سمحت محاضرات التيار الفرنسي (*) في بداية عشرينات هذا القرن التي كانت تتمحور حول قضايا المستعمرات، بظهور الجالية الجزائرية المهاجرة على المسرح السياسي الفرنسي أولا ثم الجزائري فيما بعد. وقد كانت تقدر بالآلاف حسب إحصائيات سنة (1919-1930م) كما تبينه الجداول التالية (1):

السنة	الذهاب	الإياب
1919 م	5568	17497
1920 م	21684	17380
1921 م	17259	17538
1922 م	44466	26289
1923 م	58586	36990
1924 م	71628	57467

الجدول رقم 9: حركة الجالية الجزائرية بين سنة 1919-1924م

السنة	الذهاب	الإياب
1925 م	24753	33328
1926 م	48677	35102
1927 م	21677	36073
1928 م	39726	25008
1929 م	42948	43227
1930 م	40630	43877

الجدول رقم 10: حركة الجالية الجزائرية في فرنسا بين سنة 1925-1930م

وتتكون الجالية الجزائرية في فرنسا من مهاجرين وجنود مسرّحين من قدماء المحاربين وعمال وطلبة عصاميين. وجد هؤلاء في باريس متنفسا جديدا، وجوا من الحرية

(*) يمثل اليسار الفرنسي في: اللجنة الدولية لانعقاد الأهالي، الجمعية العالمية لمساندة كفاح الشعوب، المكتب الدولي للدفاع عن الأهالي، مؤتمر عمال المستعمرات، الكونغرس الدولية العامة للعمال المتحدين، الحزب الشيوعي الفرنسي وغيرها.

السياسية التي حرّموا منها في الجزائر، ولكن أيضا جوا من المساندة والتفهم من طرف الأحزاب والحركات اليسارية النشيطة هناك، وكذا تشجيعا من اللاجئين السياسيين الأجانب. وقد تأثر العمال الجزائريون بالأفكار التحررية التي كانت تسود أوروبا، والأيديولوجية الثورية التي عمّت فرنسا فيما بعد الحرب العالمية الأولى.

وقد شمل الجزائريين في باريس، علاوة عن وضع الجزائر المأسوي، حس من التضامن الوطني، ورصيد إسلامي قوي من تقاليد النخوة والكرامة وروح تائرة ضد الطغيان متعطشة إلى العدالة. ثم حين إلى الوطن يدفعهم إلى القيام بواجبهم نحوهم. فكانوا يقنّبون على المحاضرات التي كان يلقيها "الأمير خالد" والتي كان ينظمها الاتحاد الدولي لصالح المهاجرين، وكذا على التجمعات الجماهيرية التي ارتسمت بها معالم العمل الوطني في فرنسا بين سنتي 1923-1924م. وسمّحت "جمعية الأخوة الإسلامية" التي أنشأها الأمير خالد، بتوحيد الجهود، وكونت حصنا منع المهاجرين المسلمين في فرنسا من الذوبان والتبعيد(1)، واتسمت هيئة إغاثة المغاربة «> بروح دينية قوامها التعاطف والتعاون بين أعضائها، وهدفت بذلك إلى البحث عن وسائل للدفاع وتنمية مصالح المسلمين الاقتصادية والثقافية والسياسية. واكتست هذه التنظيمات أهمية كبيرة خاصة في :

- 1- أنها كانت فرصة للتعرف والتعامل اليومي بين العمال.
- 2- الاحتماء بظل الأحزاب المتعاطفة مع قضية المغاربة، والانخراط في النقابات العمالية.
- 3- الإلتزام بأرضية العمل التي أرساها "الأمير خالد" والتي تتمثل في وجوب النضال على مستوى الشمال الفريقي كله، لأن الظروف السياسية كانت تتطلب توسيعا لآفاق النشاط، وتنظيما أكثر إحكاما، وتفكيراً أكثر وعمياً واستراتيجية أكثر شمولاً(2)، ومن ثمة

(1) محمد قناش، المرجع السابق، ص 28.

(2) أشرف الأمير خالد على مؤتمر انعقد لهذا الغرض في 07/12/1924م ونحت فيه المصالح الاقتصادية والنقابية

لعمال شمال إفريقيا على الأسس التالية: 1- العمل على إلغاء قانون الاندجين وغيره من القوانين الاستثنائية

2- العمل لنيل حق الاحتساع، وحرية الصحافة

3- تنظيم لقاءات دورية في أوساط الأهالي وإدراج مشاكلهم في جدول أعمال المؤتمرات العامة.

انظر: عبد الحميد زوزو، المحجرة ودورها في الحركة الوطنية الجزائرية بين الحربين 1919-1939م (الجزائر،

المؤسسة الوطنية للكتاب، 1985م)، ص 54.

كان إنشاء جمعية شمال افريقيا والتنديد بجميع المظالم أمام الرأي العام، وقد استلهمت أسسها من المبدأ: «إن مسلمي الشمال الإفريقي لا يقومون بواجباتهم فقط بل بأكثر من واجباتهم ولهذا فإنهم يطالبون بكامل حقوقهم» (1).

2- ظهور حزب نجم شمال افريقيا ونشاطه في فرنسا:

وقد تحولت جمعية "شمال افريقيا" إلى حزب "نجم شمال افريقيا" تحت رئاسة الحاج علي عبد القادر وعادت الأمانة العامة لمصالي الحاج الذي ستؤول إليه رئاسة الحزب بداية من سنة 1927م وكان الأمير خالد الرئيس الشرفي للحزب.

وقد كان النجم جمعية ثم حزبا شمال افريقيا لكنه كان جزائريا رغم اسمه حيث كان أعضاؤه ولجنته المركزية الأحد عشر كلهم جزائريون، وابتداء من 1927م انسحب عنه أعضاؤه التونسيون والمغاربة ليصبح شيئا فشيئا منظمة جزائرية بحتة (2).

واكتسى نضال النجم في بدايته طابعا ايديولوجيا ثوريا لكنه كان غامض الاتجاه الديني وطنيا «وصف بأنه نوع من السطحية الماركسية والوطنية الجزائرية العاطفية والاسلامية المكثفة، وجمعت بين مناضليه رابطة البروليتارية وتعابير اليسار العمالي» (3)، ومع ذلك فإنه لم يهتم مباشرة بقييم الجزائر العربية والإسلامية (4) إلا في مرحلة -حزب الشعب الجزائري- الذي ولد جزائريا في 11 جويلية 1937م وطالب باحترام الدين الاسلامي والحضارة الاسلامية، وقاد نشاطه للدفاع عنهما بخلاف مرحلة "نجم شمال افريقيا" حسب تصريح مصالي الحاج نفسه أثناء محاكمته في 1937م (5).

واستغل اليسار الفرنسي القاعدة الجماهيرية للنجم، والعواطف الوطنية للجزائريين،

(1) محمد قنانس، المرجع السابق، ص 37.

(2) الجبلالي صاري، محفوظ قذافي، المرجع السابق، ص 58.

(3) جوان غلسي، المرجع السابق، ص 57 و 61.

(4) يقول سعد الله: «..ولكن المرء يلاحظ عدم التركيز على فكرة الجامعة الاسلامية في برنامج نجم شمال افريقيا بل حتى فصل الدين (الاسلامي) عن الدولة (الفرنسية) الذي سبق أن نادى به الحزب الاصلاحى (للأمير خالد) قد أهمله زعماء النجم.

انظر أبو القاسم سعد الله، الحركة الوطنية، مرجع سابق، ج2، ص 407 بتصرف.

(5) أبو القاسم سعد الله، الحركة الوطنية، مرجع سابق، ج3، ص 157-158.

واتخذها غطاء له لتحقيق المصالح الشيوعية البحتة والتأثير بها في المجتمع الجزائري >> طالما أن هؤلاء الجزائريين يحتويهم تنظيم عربي لا شبهة عليه >>(1). ويحتفظ بهم في ظله، وقد ظهر ذلك في تناقضات الحزب الشيوعي الفرنسي بين مناوراته الإستعمارية والمعادية للإستعمار في الوقت نفسه وبخصوص أزمة الجزائر التي تستعمرها فرنسا، وتعداها إلى الإحتقار الواضح في أحاديث الشيوعيين الفرنسيين عن الجزائر وعن الإسلام.

وكان النجم قد رسم هدفه منذ البداية في استقلال الجزائر واختصر جوهر المشكلة الجزائرية عنده في مشكل السيادة ثقافيا وسياسيا واجتماعيا وعسكريا كما يبينه القسم الثاني من مطالبه التي تعرض فيها إلى قضية المصير الوطني بكل وضوح (2)، فكان بذلك العدو الأول لسياسة الاحتلال الفرنسي في الجزائر على المسرح السياسي العالمي والفرنسي ثم الجزائري فيما بعد، >> كما أصبح عشية تشكيل حكومة الجبهة الشعبية سنة 1936م المنظمة المسئلة الوحيدة للجزائريين المهاجرين في فرنسا >>(3).

وأدرك زعماء الحزب بأنهم كانوا بالنسبة لليسار الفرنسي عبارة عن تكثير عدد فقط(4)، فرفضوا أن يعاملوا كأدوات لجهاز ليس لهم أي ضغط في مقترحاته وآفاه فانفصلوا عن الحزب الشيوعي الفرنسي وأعلنوا عن حزب "نجم شمال افريقيا" مستغلين جو الحرية السياسية وجدوى الحركة العمالية، وساعدتهم تجربتهم الثرية في الخلايا الشيوعية سواء على مستوى المناضلين أو على مستوى القيادة -"مصالي الحاج- (*)- الذي أظهر حيوية فائقة وحماسا شديدا فيها بالإضافة إلى زواجه من شيوعية بارزة

(1) صالح عوض، المرجع السابق، ص 202.

(2) القسم الأول من مطالب النجم سماها بالمطالب الأساسية أو الاستعجالية ويشترك فيها مع بقية الأحزاب. انظر الملحق رقم 7.

(3) الجليلي صاري، محفوظ قداش، المرجع السابق، ص 64.

(4) محمد حربي، المرجع السابق، ص 28.

(*) فيما عدا "قناش" الذي ينفي عمل مصالي الحاج في الخلايا الشيوعية بل والدخول في الحزب الشيوعي إطلاقا بشهادة مصالي نفسه - كما يقول - فإن كل المراجع التي اعتمدها تثبت عكس ذلك وهو نشاطه الحثيث في الخلايا الشيوعية.

انظر: محمد قناش، محفوظ قداش، نجم الشمال الافريقي، مرجع سابق، ص 37.

الذي أكسبه مرانا وتجربة تنظيمين أفاد بهما فيما بعد عندما شرع في تنظيم الحركة الوطنية الجزائرية(1).

ويبدو أن الانفصال عن الشيوعيين الفرنسيين لم يكن كلياً، لاعتماد الوطنيين الجزائريين على تأييدهم الشيوعيين في البداية فقد أتر زعماء النجم أن يكون تعاملهم مع الشيوعيين قائماً على التكتيك لا على المذهبية واستغلوا من جهتهم إمكانيات الشيوعيين المادية والمعنوية كإمكانية ربط العلاقات بالمنظمات الأخرى والقيام بحملات التوعية في صفوف العمال الجزائريين تحت حماية الحزب الشيوعي الفرنسي والاستفادة من قاعات الاجتماعات التي كان الحزب يضعها تحت تصرفهم(2). ومن ثمة انفصل مصالي عن الحركة العمالية الفرنسية دون أن يقطع علاقته بها كلياً(3). لكن الإحباط الذي سببته حكومة الجبهة الشعبية التي أصدرت قرار حل "حزب الشعب الجزائري" الذي تلى النجم - ومنع جريدته "الأمة" ثم تهاوي شعارات الشيوعيين أمام وقائع الإضطهاد والتكيدل بالجزائريين التي لحق منها صفوف الحزب وقادته الكثير كالسجن والتفريم والنفي، أوقع الطلاق البائن بين الحركة الوطنية الجزائرية والشيوعية الفرنسية فيما بعد.

ويمكن القول بأن الحركة المصالية قد بدأت منذ ظهور «حزب نجم شمال إفريقيا» كرد فعل للسياسة الشيوعية الفرنسية، تجزأت في 1933م(4). وتأسلمت بداية من 1935م - كما سنرى - وهي في فرنسا ثم دخلت الجزائر نهائياً في 1937م أي بعد ما يقارب من ستة أعوام على انطلاق "جمعية العلماء المسلمين الجزائريين" وبعد ما يقارب أربعة وعشرين سنة من نشاط الإمام عبد الحميد بن باديس ورفاقه داخل الجزائر(5). ثم إنها

(1) جوان غليسي، المرجع السابق، ص 56 بتصرف.

(2) عبد الحميد زوزو، المحرة ودورها في الحركة الوطنية، مرجع سابق، ص 124. بتصرف.

(3) محمد حربي، المرجع السابق، ص 30.

(4) أثناء مؤتمر الحزب المنعقد في ماي 1933م منع النجم فعلاً أعضاءه من الإنضمام إلى حزب سياسي آخر، ليؤكد على استقلاله بعدم تدخل منظمات سياسية بواسطة حواسيسها. انظر: الجيلالي صاري، محفوظ قداش، المرجع السابق، ص 61.

(5) صالح عوض، المرجع السابق، ص 281 بتصرف.

>>بدأت ثورية غامضة الوطنية وتدرّجت مع مرور الزمن إلى أصلتها العربية والإسلامية»⁽¹⁾ مرورا بطابعها الإخواني الدرقاوي الذي كان ينتمي إليه مصالي الحاج.

3- الوسائل الاتصالية للتيار الاستقلالي:

اعتمد التيار الاستقلالي لتحقيق أهدافه وفرض وجوده على عدة وسائل اتصالية تعبر عن تجربته الثرية التي اكتسبها في فرنسا وعن فلسفته النضالية وتطور توجهه نحو القضية الوطنية الجزائرية.

أ- النشاط التنظيمي المحكم: الذي أخذه عن التنظيم الشيوعي من خلال العمل في الخلايا الشيوعية النشطة في أوروبا، فقد كان "للنجم" ثم لحزب "الشعب الجزائري" وما تلاه، تنظيم هيكلي مركزي: كالمؤتمر السنوي، واللجنة التنفيذية والهيئة الإدارية والمكتب السياسي، وإقليمي يبني على الفيدراليات والقسمات (*).

ب- النشاط السياسي: وأهم وسائل الحزب فيه هي حضوره المؤتمرات العالمية، وتنظيمه التجمعات العامة والمظاهرات الشعبية، والمشاركة في الانتخابات والصحافة.

1- أما المؤتمرات: فكان الحزب يستغلها لعرض القضية الجزائرية وتقديم مطالبها الشرعية التي كان يعرض لها عن طريق تجمعات مناضليه وندواته، حتى يكتسب لها الأنصار والمتعاطفين. وقد أفاده وجوده في فرنسا من الحرية السياسية، وكثافة النشاط، وكثرة التنظيمات العالمية المختلفة في باريس، والاتصال بالشخصيات العالمية الشيء الكثير. وخاصة حضوره لمؤتمر "الكومنترن" أو الحركة الشيوعية العالمية الذي انعقد في موسكو سنة 1928م وكذا في 1930م⁽²⁾، ممثلا في قيادته مصالي الحاج واكتسب منه القدرة على التنظيم والجرأة في تقديم المطالب والدفاع عنها.

(1) يوسف مناصرية، الاتجاه النوري في الحركة الوطنية الجزائرية بين الحربين العالميتين 1919-1939م (الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب، 1988م)، ص 104.

(*) للاستفاضة حول موضوع التنظيم الهيكلي للحزب يرجى مراجعة: أحمد الخطيب، حزب الشعب الجزائري (الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب، 1986م)، ج1، خاصة القسم السابع والفصل الثالث منه.

(2) أبو القاسم سعد الله، الحركة الوطنية، مرجع سابق، ج2، ص 399-400 بتصرف.

وقد حضر النجم مؤتمر بروكسل ببلجيكا المنعقد بين 10 و 15 فيفري 1927م ممثلاً في رئيسه مصالي الحاج. وقد حمل المؤتمر شعار "ضد الاستعمار" ومثل ثمانية ملايين من العمال المشتركين في النقابات المختلفة، وتكلم باسم مليار من البشر أي الأغلبية الساحقة من سكان المعمورة في ذلك الوقت ومثل القارات الخمس >>(1). وقد قدم النجم مطالب تخص الجزائريين(*) الذين دعاهم للامتثال لمبادئ الاسلام ولرفض حمل السلاح ضد مسلمين آخرين (2).

وحضر النجم مؤتمر العمال العالمي بجنيف "Genève" السويسرية في 1935م، وكذا مؤتمر مسلمي أوروبا بسويسرا أيضاً المنعقد بين 12-17 سبتمبر 1935م تحت رئاسة الأمير شكيب أرسلان(**)، أين كان لقاء رئيس النجم بالأمير وبقاؤه في كنفه لمدة ستة أشهر وهي مدة نفيه الاختيارية إلى سويسرا. ويعتبر هذا اللقاء بداية التغيير الحاسم في نزغ البرقع الشيوعي عن "حزب النجم" بالتخلص من عناصره واختبار وجهته النهائية العربية الإسلامية. وكان هذا التغيير تحت تأثير الأمير شكيب أرسلان (1869-1946م) >> الذي نصح مصالي الحاج بدخول الجزائر والعمل في أوساط الشعب الجزائري، وهو المبدأ الذي كان يتفق حوله الأمير شكيب أرسلان والإمام عبد الحميد بن باديس - كما سترى - في ضرورة جهاد كل قطر من الأقطار العربية والإسلامية وبقائها على ما هي عليه من وحدة روحية ومعنوية أولاً حتى يتم لها تحقيق الوحدة العملية والحرية السياسية بالتدرج. ومن ثمّة يتحول النجم من صورته الشيوعية الفرنسية إلى مظهره العربي الإسلامي الجزائري،

(1) محمد قناش، محفوظ قنداش، المرجع السابق، ص 46.

(*) انظر الملحق رقم 8.

(2) محمد حربي، المرجع السابق، ص 27.

(**) الأمير شكيب أرسلان بطل القومية العربية، ومنشئ حركة الجامعة العربية والإسلامية، انتقل بين كثير من الدول العربية والأوروبية مرافعاً علي القضايا العربية، عضو المجلس العلمي العربي 1920م ثم رئيسه في 1938م. من أوائل دعاة الحلف العربي، أذاع بيانه 1923م الذي لا يختلف كثيراً عن ميثاق جامعة الدول العربية نظم وأشرف على العديد من المؤتمرات الإسلامية وله آثار علمية وإسلامية واجتماعية، توفي في بيروت 9 جانفي 1946م. انظر للاسفاضة حول حياته: شكيب أرسلان، سيرة ذاتية (لبنان، دار الطليعة للطباعة والنشر، 1969م)، ص 7-13.

ويتعزز بالتالي الاستلهام الايديولوجي القومي في صفوفه(1). ثم يدخل الجزائر بقوة ليشد من عضد الحركة الإصلاحية فيها.

2- الاجتماعات الرسمية: وتعتبر هذه من أبرز مظاهر نشاط النجم وأهم وسائله في نشر دعايته بين الأوساط العمالية وتربية أعضاء الحزب اجتماعيا وسياسيا ولاحظ "عبد الحميد زوزو" أن عدد التجمعات كانت تزداد كلما تعرض الحزب لصعوبة ما وكان يشرف عليها بمفرده أو بالتعاون مع التشكيلات الحزبية الأخرى وكان يحضرها العمال الجزائريون والفرنسيون من اتجاهات مختلفة خاصة وأنها كانت تناول حوادث الساعة التي تمس الحركة الوطنية من بعيد أو من قريب كالمطالبة بإطلاق سراح المعتقلين أو تحقيق مطالب الشعب الجزائري والتنديد بالمظالم المختلفة وكذا الاحتجاجات على عمليات القمع سواء داخل الجزائر أو في أوطان المغرب العربي والوطن العربي عامة(2). وغالبا ما كان يسود هذه التجمعات جو من الحماس الذي ينطلق في نداءات المجتمعين بشعارات الحزب المختلفة.

ونقل "عبد الحميد زوزو" عن جريدة "الأمة" لسان حال "حزب الشعب الجزائري"، أن عدد التجمعات قد تزايد منذ 1934م حتى بلغت عشرة ما بين 15 أوت و10 أكتوبر من السنة نفسها، وأنه اتسع نطاقها سنة 1935م بحيث عقد من ماي إلى أوت ما لا يقل عن أربعة وعشرين تجمعا. وكان معدل الاجتماعات بين سنتي 1937-1938م اثنا عشر تجمعا شهريا(3).

3- الانتخابات المحلية: ويلاحظ أن وسيلة الانتخابات قد لجأ إليها حزب "الشعب الجزائري" لامتحان شعبيته وإبراز قوته أمام خصومه(4). وقياس وعي الجماهير بالشعارات

(1) صالح عوض، المرجع السابق، ص 282 بتصرف وحوان غليسي، المرجع السابق، ص 58 بتصرف.

(2) انظر عبد الحميد زوزو، المحجرة ودورها في الحركة الوطنية، مرجع سابق، ص 99-100 بتصرف.

أبو القاسم سعد الله، الحركة الوطنية الجزائرية، مرجع سابق، ج3، ص 128.

محمد قنانش، المرجع السابق، ص 89-95. بتصرف.

(3) عبد الحميد زوزو، المحجرة ودورها في الحركة الوطنية، مرجع سابق، ص 100 بتصرف

(4) أحمد الخطيب، حزب الشعب الجزائري، مرجع سابق، ص 254 بتصرف.

الوطنية التي كان ينادي بها ويدافع عنها، وتعبئتهم حولها ومن ثمة فقد كانت ورقة سياسية للرد على إدعاءات الإندماجيين خاصة من جهة وعلى تجاهل إدارة الاحتلال وحكومته للحقيقة الجماهيرية في الجزائر إزاء قضاياها المصرية من جهة أخرى.

4- الصحافة (بما في ذلك المنشور، الاعلانات، والبيانات والجرائد...)

فقد كان حزب "نجم شمال افريقيا" ثم "حزب الشعب الجزائري" بعده يعي جيدا أهمية الجرائد والمنشور والبيانات في إطلاع الرأي العام وخاصة في تقديم المعلومات الصحيحة والحقائق عن القضية الجزائرية والحركة الوطنية فيها التي كان الاحتلال الفرنسي وحكومة باريز يعملان جاهدين لتثويبها أو تجاهلها، وتعتبر الجرائد التي أصدرها "النجم" أو "حزب الشعب" جرائد لحزب واحد بمعنى أنها كانت تحمل الأفكار السياسية واللهجة نفسها وقد كانت عموما ثورية كثرية أهداف الحزب ووسائله الأخرى. فقد أصدر الاستقلاليون :

أ- الإقدام الباريزي: "L'ikdam de Paris" :

الذي هو إحياء لإقدام الأمير خالد المتوقف في 1923م، وقد صدر باللغتين العربية والفرنسية وبمعدل صفحتين لكل منهما، وكانت "الإقدام" عنيفة اللهجة وصفحتها مذكورة إدارية فرنسية بأنها كانت تدعو المسلمين الشمال إفريقيين إلى الثورة ضد فرنسا وهو السبب الذي أدى إلى توقيفها في 1 فيفري 1927م بعد صدور عددتين فقط منها (*). لكن قنانش يرد توقيفها إلى احتوائها لصفحة باللغة العربية(1).

ب- إقدام الشمال الإفريقي: "L'ikdam Nord Africain"

هو الاسم الجديد لـ "الإقدام الباريزي" صدر منها ثلاثة أعداد فقط كان آخرها عدد أوت سبتمبر 1927م. وقد جندت كلها لفضح مساوئ الاحتلال الفرنسي، ونشر مطالب

(*) كانت هذه الجريدة تطبع في دار النقابة بباريز ويرأس تحريرها أرنيست ديسبريس Arnest Despress.

انظر أحمد الخطيب، حزب الشعب الجزائري، مرجع سابق، ص 246. بتصرف.

(1) انظر محمد قنانش، محفوظ قدانس، نجم الشمال الإفريقي، مرجع سابق، ص 45.

الحزب وبيانات للجزائريين والجنود منهم خاصة(1).

ج- إقدام نجم إفريقيا الشمالية: "L'ikdam de l'étoile Nord Africaine"

صدرت مباشرة بعد توقف أختها في 1927م وامتازت بعنف لهجتها وإعلانها لموقفها بلا مواربة، لاستقلال ووحدة أقطار المغرب العربي، وكان شعارها "نحيا استقلال الجزائر".

د- "الأمة" "El Ouma" (*): صدر العدد الأول منها في أكتوبر 1930م باللغة الفرنسية كلها إلا الآية التي توجد داخل الهلال في أعلى صفحتها الأولى: ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ (2). وكان لها عنوان فرعي هو "جريدة وطنية سياسية للدفاع عن حقوق مسلمي إفريقيا الشمالية". لاقت الجريدة نجاحا سريعا في التوزيع تطور من 12000 نسخة سنة 1932م إلى 44000 نسخة سنة 1934م(3). وكانت تصدر بانتظام في بداية ظهورها إلا أن شدة لهجتها وثورية أفكارها وحضورها الدائم لمتابعة مساوئ الاحتلال وسوء معاملاته للجزائريين، وإطلاع الرأي العام الفرنسي بها من جهة والعمل على بث روح الثبات في مناضليها ورفع معنوياتهم من جهة أخرى جعل مقراتها عرضة للقمع وللمداهمات البوليسية(4). وأعضاءها عرضة للاعتقال، مما جعلها تصدر في غير انتظام حتى منعت نهائيا في 29 ديسمبر 1939م. وقد أكد أحد مناضلي الحزب بأنها كانت توزع بحانا وأحيانا ترسل مشتركها أو تباع في شوارع باريز بيعا عموميا بالمزاد(5).

هـ- الشعب: أول جريدة تصدر للحزب بعد دخوله إلى الجزائر، وأول جريدة

-
- (1) أحمد الخطيب، حزب الشعب الجزائري، مرجع سابق، ص 247. وعبد الحميد زوزو، الهجرة ودورها في الحركة الوطنية، مرجع سابق، ص 103. (نقلا عن جريدة الأمة).
 - (*) انظر صورة لها في الملحق رقم 9.
 - (2) آل عمران 103.
 - (3) عبد الحميد زوزو، الهجرة ودورها، مرجع سابق، ص 110.
 - (4) المرجع نفسه، ص 108.
 - (5) المرجع نفسه، ص 217-218.

تصدر له باللغة العربية كاملة. في 27 أوت 1937م(1). وقد ظهرت نتيجة رغبة الحزب لتنشيط الاعلام الوطني في الجزائر ووزع العدد الأول منها تحت مطاردة شرطة الاحتلال الفرنسي له، وصدر قراره بتعطيلها قبل ظهور عددها الثاني الذي كان رهن الطبع لكن الشرطة حجزت ما كان قد سحب منه. ومع ذلك فقد جمعت مقالاته الهامة وطبعت كمنشور حائطي(2).

وأعلن في الصحافة عن إصدار جريدة جديدة بعنوان "صرخة الشعب" لكن اعتقال رئيس تحريرها -محمد قنانش- ضمن الفوج الثاني من "حزب الشعب" في فيفري 1938م أفضل المحاولة(3). وتلتها موجة استتكار في الصحافة الجزائرية خاصة من طرف "الشهاب" و"الأمة"(4).

و- البرلمان الجزائري "Le parlement Algérien": صدر عددها الأول في ماي 1939م بالجزائر العاصمة يحمل شعاره في الآية الكريمة ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾(5)، نصف شهرية، كان أعضاؤها تحريرها من المعتقلين استفادوا من امتيازات الاعتقال السياسي(6). وقد أوقفتها سلطة الاحتلال بعد صدور سبعة أعداد، في أوت 1939م عشية الحرب العالمية الثانية.

وبهذه الوسائل سجل "النجم" - "الشعب الجزائري" فيما بعد- حضورا متميزا في فرنسا أولا ثم في الجزائر بداية من 1937م مستغلا المناسبات الوطنية والأحداث الدولية للتعليق عليها وتحليلها بما يخدم القضية الوطنية الجزائرية. وقد تعرض الحزب للحل مرات عديدة بسبب شعاراته الثورية منها في 1929م و 1934م و 1935م، وتغير اسم الحزب من

(1) محمد ناصر، الصحف العربية الجزائرية، مرجع سابق، ص 205. وللإشارة فقد صادف يوم صدور "الشعب" يوم اعتقال رئيس الحزب مصالي ورئيس تحريرها مفدي زكريا وأربعة من أعضاء الحزب.

(2) محمد قنانش، المرجع السابق، ص 104.

(3) أحمد الخطيب، حزب الشعب الجزائري، مرجع سابق، ص 253. نقلا عن :

Rapport Mensuel du C.I.E du gouvernement de l'Algérie Nov 1937.

(4) المرجع السابق، ص 104-105. ومحمد ناصر، الصحف العربية الجزائرية، مرجع سابق، ص 205.

(5) آل عمران، 103.

(6) الجليلي صاري، محفوظ قداش، المرجع السابق، ص 69.

أهل ذلك عدة مرات أيضا فكان حزب شمال افريقيا في 1927م، فالنجم الثاقب في 1929م، فنجم شمال افريقيا المجيد 1933م، الاتحاد الوطني لمسلمي شمال افريقيا 1935م، حزب الشعب الجزائري في 1937م -الذي دخل به الجزائر- ثم حركة انتصار الحريات الديمقراطية... لكن الذي لم يتغير في النجم سياسته وفلسفة نضاله وقادته التي تميزت برؤية ثورية بعيدة المدى(1) ضد الوجود الاستعماري في الجزائر، وكان نصيبه منها القمع والاضطهاد والمصادرة والحل مما يدل على قوة شعاراته خاصة الحرية والاستقلال(2).

ومع ذلك فإن دخول التيار الاستقلالي إلى الجزائر وبالضبط إلى ساحة النضال السياسي والوطني فيما بعد جاء متأخرا. وقد سمح به ارتياح قيادة النجم للتطورات التي كانت تتفاعل في ساحة الوعي الجماهيري(3) التي عبرت عنها أجواء ما بعد المؤتمر الاسلامي بصحافتها ومظاهراتها وتجمعاتها والتي لم يكن للحزب يد فيها بعد، بل ولا تزال فئات قيادته نفسها إزاءها غضة من حيث إمكانية العمل في ساحة النضال في الجزائر، أو من حيث التوجه العربي الاسلامي للحزب الذي بدأ يتدعم ويتبلور شيئا فشيئا منذ مؤتمر 1935م بجنيف Genève كما رأينا.

ومن ثمة فقد دخل النجم -حزب الشعب- إلى الجزائر بعد أن شيدت مئات المدارس والمساجد، وأسست مئات الجمعيات والنوادي والشعب، وعادت ملكية عقارات هامة وكثيرة إلى الجزائريين، وبأموال الجزائريين، والأهم من ذلك كله، فقد دخل "حزب الشعب" إلى الجزائر بعد أن عمّ جو من الإحساس العميق بالمسؤولية الحضارية والتاريخية، والقناعة الواقعية عنى مستوى الجماهير الجزائرية بمحتمية الانفصال عن قوالب وأشكال ومعطيات الاحتلال الفرنسي، وبعد أن عمّ الجزائر جو من التأطير والتنظيم للمناطق والدواوير وصل حتى المناطق النائية منها، والنشاط المتنوع في مختلف المجالات.

والخلاصة فقد دخل التيار الاستقلالي إلى الجزائر، ويد الإصلاح الذي تقوده جمعية العلماء المسلمين الجزائريين منذ أربع وعشرين سنة -سنة منها عبارة عن نشاط رسمي

(1) أحمد الخطيب، حزب الشعب الجزائري، مرجع سابق، ص 258 بتصرف.

(2) جون غليسي، المرجع السابق، ص 61.

(3) صالح عوض، المرجع السابق، ص 281-282 بتصرف.

مرغص من طرف إدارة الاحتلال الفرنسي - تضم تحت لوائها معظم ربوع القطر الجزائري وتكون في سنة 1937م - وهي سنة دخول حزب الشعب الجزائري إلى الجزائر - >> قد حققت في مراحلها السابقة معظم مراحل خطتها الاستراتيجية ووصلت إلى آخر مراحل هذه الخطة وهي التحريض السياسي <<(1) والتفكير بجدية في تنظيم وتأطير مرحلة الثورة ضد فرنسا كما سنتبينه من صحافتها فيما بعد. ولذلك نفهم سهولة الانصهار الذي جمع الجمعية وحزب الشعب الجزائري وسهولة احتضان الجزائريين للشعارات الثورية المتمثلة في الاستقلال والحرية...

فمتى وكيف ظهرت جمعية العلماء، ماهي أصولها غاياتها ومبادئها، وماهي الأهداف المرحلية التي بنت عليها خطتها الاستراتيجية في معالجتها للوضع في الجزائر تحت الاحتلال الفرنسي؟ هذا ما سيحاول الفصل التالي -خاصة، والفصول التي بعده- الإجابة عليه.

الفصل الثالث :

ظهور جمعية العلماء المسلمين

تمهيد

I- عوامل ظهور الحركة الإصلاحية في الجزائر :

- 1- أثر جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده .
- 4- الثورة التعليمية التي قادها عبد الحميد بن باديس .
- 6- التطور الفكري الذي أفرزته الحرب العالمية الأولى .
- 5- عودة فئة من العلماء من الحجاز والمشرق العربي .
- 2- جيل المصلحين الأوائل .
- 7- بنية علماء الشمال والجنوب والمتقنين الجزائريين .
- 3- الصحافة الإصلاحية .
- 8- عوامل سلبية أخرى .
- 9- عوامل داخلية .

II- تأسيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين :

- 1- جمعية العلماء المسلمين الجزائريين فكرة .
- 2- القانون الأساسي لجمعية العلماء .

III- أهداف وغايات جمعية العلماء المسلمين الجزائريين :

الخلاصة.

تمهيد:

لقد أصاب بعض المؤرخين في ردّهم ظهور النزعة القومية في الجزائر - بالدرجة الأولى - إلى الإضطهاد الاستعماري، مضيفين بأن الحركة الشيوعية في أوروبا، وخاصة نشاطها في فرنسا هو الذي سرع اليقظة القومية (1)، ويتعلق الأمر هنا بطبيعة الحال بجماعة النواب - الحزب الليبرالي - وحزب الشعب الجزائري - النجم قبله - لكن قولهم لا يشمل مجال من الأحوال جمعية العلماء المسلمين الجزائريين في مبادئها وأهدافها ووسائلها، التي سوف نتعرض إليها بالتفصيل، وقد سبق لنا بيان فلسفة الحزبين ونشاطهما وأهدافها، ومباشرة نقول حتى لا يختلط الأمر على القارئ، أن رأس الأمور، وقاعدة الأساس في انشغالات جمعية العلماء قبل القيام بأي عمل في النظام السياسي أو الاجتماعي - محور أهداف الأحزاب السياسية الأخرى - هو تحرير الضمائر (2) الذي أثبتت التجربة والممارسة عدم إمكانية غيره أصلاً، وأن أي نجاح في هذا الميدان إن وجد بالنسبة للأحزاب السياسية إنما يعزى الفضل فيه إلى جهود الجمعية في إعداد الجبهة الداخلية لاحتضان التغيير ثم التفاعل معه.

وجانب بعضهم الصواب عندما أشاروا إلى أن فكرة الإصلاح في الجزائر إنما ولدت سنة 1931م فحسب، وهي سنة ميلاد جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، وليس من الحيف بتاتا وصف هؤلاء بالجهل وهو ما سببهم به الدكتور أبو القاسم سعد الله (3). ونشير بدايةً بأن جمعية العلماء كانت ثمرة للحركة العقلية والإصلاحية - البطيئة لكن الفعالة - في الجزائر، ودليلاً على الوحدة الفكرية والثقافية واللغوية المتأصلة الجذور بين أقطار العالم العربي والإسلامي، رغم عوادي الزمن وفجائع التاريخ (4)، ويتعلق الأمر بحركتي الجامعة الإسلامية والقومية العربية اللتان ظهرتا في المشرق العربي، ورغم أن العلماء لم يكونوا جماعة سياسية حسب ما بينه القانون الأساسي للجمعية عند تأسيسها،

(1) من هؤلاء محمد حربي، المرجع السابق، ص 25 بتصرف.

(2) عمار الطالبي، المرجع السابق، ص 11 (انظر مقدمة الكتاب لمالك بن نبي).

(3) أبو القاسم سعد الله، الحركة الوطنية، مرجع سابق، ج 3، ص 89.

وانظر: مازن صلاح المطبقاني، المرجع السابق، ص 10 (مقدمة الكتاب لأبي القاسم سعد الله).

(4) عمار الطالبي، المرجع السابق، ص 15.

ووصفها بالإرشادية والتهذيبية وتأكيد ذلك بيند يقول أنه لا يسوغ لها بأي حال من الأحوال أن تخوض أو تتدخل في المسائل السياسيّة(1)، وقد حاول العلماء الابتعاد ما أمكن عن زجّها في الشؤون السياسية(2)، بداية من اتخاذهم مظهر مسمى الجمعية بدل الحزبية على عرف ذلك الوقت...، لكنهم في الحقيقة عملوا منذ أن ظهروا بقصد وبصيرة على توهين الحكم الفرنسي في الجزائر بنشر الفكرة الإسلامية، وبث مبدأ الإصلاح الشامل. فقد كان الاحتلال الفرنسي سببا منطقيًا لتهاون المسلمين الجزائريين في أمر دينهم ومن ثمّ فإن القضاء عليه سيكون النتيجة المنطقية لعودتهم إليه.

I-فماهي إذا عوامل حركة الإصلاح الديني هذه وازدهارها في الجزائر؟

أولاً: كتب الشيخ محمد البشير الإبراهيمي في سجل مؤتمر جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، أن الفضل في ذلك يعود إلى الأحاديث المتناقلة في الأوساط العلمية عن الإمام عبده، وأثرها في نفوس الجزائريين المتبرّمة من الحاضر والمستشرقة إلى تبدّله بما هو خير...»(3).

لم تكن حركة الإصلاح الفكري والديني التي قادها موقظ الشرق جمال الدين الأفغاني ومن بعده الإمام محمد عبده ثم تلميذه محمد رشيد رضا، بعيدة عن الجزائر، فقد كانت جريدة "العروة الوثقى" وكذا جريدة "المنار" من الصحف التي تغذي نفوس المصلحين فيها، «و كانت كتب محمد عبده كـ "رسالة التوحيد" و"الإسلام والنصرانية"، وكذا دعوته وطريقته في الإصلاح محل دراسة لعلماء الجزائر وتدرّيس في معاهدها وزواياها ومادة لخطبها في مساجدها»(4) سواء في الشمال من طرف أمثال عبد الحلّيم بن

(1) انظر المدقّ رقم 1، القانون الأساسي لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين.

(2) أحمد الخطيب، جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، وأثرها الإصلاحي في الجزائر (الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب، 1985م)، ص 234.

(3) سجل جمعية العلماء المسلمين الجزائريين (الجزائر، دار الكتب، المطبوعات الجميلة، 1982م) ص 47.

(4) محمد علي دبور، نهضة الجزائر الحديثة وثورتها المباركة (الجزائر، المطبعة العربية، 1971م)، ج 2، ص 30.

سماية، وعبد القادر المجاوي وابن أبي شنب وفي الجنوب كالحاج عمر بكلي، وسليمان بن بنوح والشيخ عمر بن يحيى (*) وزعماء النهضة في ميزاب، وغيرهم مما ترك أعظم الآثار عموماً في شمال الجزائر وجنوبها.

وتكون الجزائر قد استقطبت أنضج ثمار الإصلاح المشرقي أكثر مما استقطبه غيرها من الأقطار الإسلامية الأخرى، إذ أن أثر الشيخ "محمد عبده" كما يقول "محمد علي دبور" في المشرق قد انحصر في الخاصة ولم يتسرب إلى العامة إلا قليلاً أما في الجزائر فحتى العامة تأثرت بالشيخ عبده، فقد كانت العامة تعرفه كما تعرف مذهب في الإصلاح، فأحبهه وتقبلته لثقافتها به وإعجابها بطريقته (1) وهذا فيما يبدو ما أشار إليه الإبراهيمي في قوله: وأثرها في نفوس الجزائريين...

ويعترف ابن باديس بفضل رشيد رضا ومجنته "المنار" وسبقه في مجال الإصلاح وخاصة في تفسير القرآن الكريم قائلاً: «نشرنا ما يلي من تفسير حجة الإسلام محمد رشيد رضا من آخر جزء أصدره من "مجلة المنار" اعترافاً له بفضل السبق إلى نشر هداية القرآن على المسلمين بمجلة شهرية كانت قدوتنا فيما نشر من مجالس التذكير» (2).

وكان ابن باديس ينشر دروس تفسيره في "الشهاب" كما يفعل رشيد رضا في "المنار"، وللإشارة فإن جريدة "الشهاب" مع أنها كانت تمثل انعكاساً واعاً لأطروحات المنار إلا أنها لم تكن تطابق تماماً آراءها وأفكارها وإنما كانت تستعمل بعض عباراتها ومصطلحاتها (3) فقط.

وقد كان الجزائريون يرون في "المنار" منبراً للإصلاح ولساناً للإسلام لكن خاصة متنفساً للتعبير عما يلاقونه من الاضطهاد، فقد رجا مثقفوا الجزائر الشيخ محمد عبده عند

(*) للإطلاع والاستفاضة حول حياة وأثار هذه الشخصية يرجى الرجوع إلى: محمد علي دبور، نهضة الجزائر الحديثة ونورها المباركة، مرجع سابق، ج2، ص 162-170.

(1) المرجع نفسه، ص 31 تصدق.

(2) الشهاب، ج7، م 11 المؤرخ بـ غرة رجب 1353 هـ الموافق لـ أكتوبر 1935م.

(3) Ali Merad, Le Réformisme Musulman en Algérie, Op Cit, pp 123-124

زيارته إلى الجزائر سنة 1903م(*) أن لا تتدخل "المنار" في السياسة، وأن لا تتعرض لفضائع فرنسا في المغرب والشام لكي لا تقطعها عنهم وقالوا له: إننا نعدده مدد الحياة فإذا انقطع عنا انقطعت الحياة هنا (1). وقد تعرض رشيد رضا "إلى زيارة" محمد عبده إلى الجزائر، وذكر أنه لم يكن له أدنى غرض سياسي من زيارته (2) ولخص نصائحه للجزائريين التي كانت تتمحور حول مسألة الحكومة وترك الاشتغال بالسياسة والجدد في تحصيل العلوم الدينية والدينيوية وهو ما أخذ عليه محمد قنانش (3) واعتبره محمد الطاهر فضلاء بمثابة الخلق لتطلعات النخبة الجزائرية فقررت التحرر من كل تبعية للحركة الإصلاحية المصرية (4) في حين اعتبر عمار طالبي رثاء بعض علماء الجزائر للإمام عبده بقصائد شعرية ورسائل دليلاً على تأثر هؤلاء بأفكاره وأنه أكبر رهان على أن محمد عبده مدرسة في الجزائر ومن ثمّة فهو عنصر هام في النهضة الإسلامية الحديثة في الجزائر (5).

والحقيقة أن الشيخ ابن باديس قد نفى بصراحة ووضوح أن يكون قد تأثر هو شخصياً بالشيخ محمد عبده، أو أن يكون قد قرأ كتبه، إلا قليلاً، ويبدو أن بدايته الإصلاحية واتجاهه في إصلاح مناهج التعليم ويراجمه في الجزائر قد ماثلت طريقة "عبده" في الأزهر بمصر، وهو ما غننه البعض ووصفوه "بالعبداوي"، وقد شرح ابن باديس ذلك في مقال له بجريدة "السنة" لسان حال جمعية العلماء المسلمين الجزائريين تحت عنوان: "عبداويون" ثم "وهايون" ثم ماذا؟ لا أدري والله، فقال >> لما قفلنا من الحجاز وحللنا

(*) أرادها نبيل بلاسي سنة 1904م وكرر ذلك في عدة مواضع من كتابه: الاتجاه العربي والإسلامي ودوره في تحرير الجزائر. (مصر، الهيئة المصرية للكتاب، 1990م) ص 44، 46... وقد خالف بذلك كل المراجع التي عدت إليها في هذا الموضوع.

(1)-(2) محمد رشيد رضا، تاريخ الإمام محمد عبده (مصر، مطبعة المنار، 1324هـ)، ج1، ص 872.

(3) أنظر: محمد قنانش، المرجع السابق، ص 57-59، وللإشارة فقد قام الشيخ رشيد رضا بتحقيق القول في مسألة في السياسة في الكلام عن آراء الإمام عبده، انظر المرجع السابق ص 874 فيرجى العودة إليه.

(4) محمد الطاهر فضلاء: دعاتم النهضة الوطنية الجزائرية، التعليم الديني، الإصلاح، جمعية العلماء (تونس، دار البعث، 1984م)، ص 83 بتصريف.

(5) عمار الطالبي، المرجع السابق، ج1، ص 39 بتصريف.

بقسنطينة عام 22 وعزمتنا على القيام بالتدريس أدخلنا في برامج دروسنا تعليم اللغة وآدابها والتفسير والحديث وغيرها.. ورأينا لزوم تقسيم المعلمين إلى طبقات .. وأحدثنا تغييرا في أساليب التعليم... لما قمنا بهذا وأعلنناه، قامت علينا وعلى من وافقنا قيامة أهل الجمود والركود وصاروا يدعوننا للتنفيذ والحط منا "عبدووين" دون أن أكون -والله- يوم جئت قسنطينة قرأت كتب الشيخ محمد عبده إلا القليل» (1). على أن هذا لا يعني أن الشيخ ابن باديس ينفي فضل محمد عبده الإصلاحية وأسبقيته في ذلك فقد نوّه بذلك في مناسبات عدة كقوله: « فهذه الحركة الدينية الإسلامية الكبرى اليوم في العالم إصلاحا وهداية وبيانا ودفاعا كلها من آثاره» (2). لكن الذي لا شك فيه هو أن الحركة الإصلاحية في الجزائر «نمط مستقل عنها في مصر وليس لها من هذه جذور تستمد منها الحيوية لا في التكوين ولا في التوجّه» (3) وسنرى أن "جمعية العلماء" قد طرقت مجال السياسة من بابها العريض وعيا منها بخصوصية الوضع الجزائري «فإذا جاز لمصلحي مصر أن لا يهتموا بالسياسة فإن ذلك لا يجوز لمصلحي الجزائر لأن مصر كانت تتمتع بكيان سياسي محلي تحت الاحتلال الإنجليزي لكن فرنسا كانت تحكم الجزائر حكما مباشرا، ولذلك جرّدت الدين الإسلامي في الجزائر من محتوى الدولة وصيرته تعديدا فقط، وقد لزم العلماء المصلحون في الجزائر عدم الاكتفاء بإصلاح الجانب التعديدي فحسب لكن أيضا الجانب السياسي» (4). وهذا هو مركز الخلاف بين الإصلاح الذي تبنته جمعية العلماء وبين الإصلاح المشرقي الذي انتهجته المدرسة العبدوية.

ثانياً: الثورة التعليمية التي أحدثتها الأستاذ عبد الحميد بن باديس بدروسه الحية والتربية الصحيحة التي كان يأخذ تلاميذه بها(5)، فقد كانت هذه النواة بالنسبة لحركة الإصلاح الديني الشامل في الجزائر، وترتبط بدروس ابن باديس في المساجد والمدارس

(1) السنة 3، المؤرخ ب الاثنين 29 ذي الحجة 1351 هـ الموافق لـ 24 أبريل 1933م.

(2) الشهاب، ج 0، م 11، رمضان 1354 هـ الموافق لـ ديسمبر 1935م.

(3) محمد الطاهر فضلاء، دعائم النهضة، مرجع سابق، ص 82

(4) أبو القاسم سعد الله، الحركة الوطنية، مرجع سابق، ج 3، ص 93، 94.

(5) سجل مؤتمر جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، مصدر سابق، 47، بتصرف.

والمحاضرات الخاصة والعامة التي كان يلقيها بانتظام أو حسب المناسبات المختلفة بالنوادي والاجتماعات الخاصة والعامة، والتي جعلها محمد الطاهر فضلاء إحدى ثلاث دعائم النهضة في الجزائر (1)، وقد أخرجت طريقة ابن باديس التعليمية الفذة، تلاميذه من التقليد إلى التجديد فتخرجت على يديه أفواج من الطلبة مستكملة الأدوات « من فكر صحيحة، وعقول نيرة ونفوس طامحة وعزائم صادقة، وألسن صقيلة، وأقلام كاتبة كانت بحق جنود الإصلاح وطلائع العهد الجديد الزاهر » (2).

ثالثاً: التطور الفكري الذي أفرزته الحرب العالمية الأولى وخاصة على الصعيد السياسي والاجتماعي الذي أدى حسب الشيخ "الابراهيمى" إلى انحطاط قيمة المقدسات الوهمية في نظر كثير من الناس.. بانكباب أساطين التدجيل على المال، والتكالب على جمعه والانهماك في الملذات، ومزاحمة العامة في الوظائف والنياشين بعد أن كانوا يتظاهرون بالبعد عن هذه المواقف » (3).

ويفصل "الابراهيمى" حيثيات هذا التطور ومظاهره في إحدى محاضراته الأربع بالقاهرة في أوائل الخمسينات (*) وأرجعها إلى :

أ- أثر الحرب الذاتي في النفوس، فإن الحرب تترك آثارها متحدة لا فرق فيها بين من عاشها جندياً أو مدنياً أو غيرهما، فكل هؤلاء يشعرون بأن الحرب غير السلم، وأن اسمها مقرون بالموت والدمار والخسارة.

(1) محمد الطاهر فضلاء، دعائم النهضة، مرجع سابق، ص 29-31 بتصرف.

(2) سجل مؤتمر جمعية العلماء المسلمين، مصدر سابق، ص 48،

(3) المصدر نفسه، ص 48-49.

(*) دعا مجلس إدارة معهد الدراسات العربية العليا بالقاهرة الشيخ محمد البشير الابراهيمى إلى المساهمة في نشاطه العلمي بإلقاء أربع محاضرات على طلابه من الشبان العرب (من مصر، العراق، فلسطين، تونس، والمغرب)، وقد حددت له إدارة المعهد موضوع المحاضرات في الاستعمار الفرنسي في الجزائر فيما بعد الحرب العالمية الأولى وأثار الحركات الوطنية فيها في هذه الحقبة من الزمن. وقد ألقاها الابراهيمى ارتجالاً في أيامها المحدودة وفي أربعة أسابيع، ثم عاد فكتبها متوسعا ومفصلاً. انظر هذا الموضوع في : آثار محمد البشير الابراهيمى (الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب، 1985 م)، ج1، ص 285-349.

ب- أن الجزائري أصبح يفرق بين الموت الذي اسمه الموت وبين الموت الذي اسمه الذل ويؤثر أولاهما على آخرهما، وهو ما لم يفقهه قبل الحرب حيث كان يستعذب الذل خوفا من الموت.

ج- أن الجزائري أصبح يحتقر الفرنسي بعد أن رآه جباناً في الميدان، وذليلاً أمام عدوه، ومتملقاً للأهالي في سبيل المصالح التافهة بعدما كان يحتقره بالأمس، وبذلك ارتفعت هيئته من نفس الجزائري.

د- ما تحققه الجندي والمدني الجزائريان على السواء، من انكسار فرنسا لولا تدارك أميركا لها في آخر الأمر.

هـ- شعور الجندي الجزائري بالعزة من تنازل الفرنسي أمامه عن كبرائه بعض الشيء خوفاً على نفسه وعلى دولته، ومن سماعه لعبارات الإطراء بالشجاعة من قواده الفرنسيين، ومن الحكام المدنيين، ومكافأته بالنياشين العسكرية.

و- اللين الذي ظهر من الحكومة الفرنسية في سياستها المحلية مع الجزائريين، وكثير من حسن المعاملة لهم نظراً لظروف الحرب، وكانت تصطنع ذلك كيدا، ولكن الجزائري شعر بوجوده من جديد وانتعشت معنوياته وحييت آماله ونجراً على الكلام الذي كان محرماً عليه.

ز- تصريحات الرئيس الأمريكي (ولسن) (Wilson) على أثر الحرب، ومنها الفصل الذي اهتزت له الأمم الضعيفة، وهو حق الأمم في تقرير مصيرها. وهذا الفصل وإن لم يتحقق منه شيء ترك في نفوس الجزائريين أثره الحسن، وفتح عيونهم، وأفاض عليهم شينا من الجرأة، وبسط لهم الآمال في الحرية.

ح- أن فرنسا ألغت الأحكام الاستثنائية الزاجرة في أثناء الحرب إلغاء سكوتياً، ثم ألغتها على إثر الحرب قانونياً وعملياً ولم تبق منها إلا بقايا في يد الوالي العام مصحوبة بتنفيس عظيم، كما ألغيت تلك البقايا بعد ذلك <<(1).

ويبدو أن آثار هذا التطور قد بدأت مباشرة بعد عودة المجددين الجزائريين إلى ديارهم، يحمل كثير منهم الأوسمة العسكرية ولشهادات البطولة ويتقاضون المرتبات الوافرة

طول عمره لكن الأهم من هذا كله أنه... يحمل فكرة جديدة عن نفسه وعن الفرنسي زميله في الحرب وجاره في السلم، وسيده الموهوم بالأمس، وكأن لسان حاله يقول للفرنسي: قد عرفناكم.. فلا سيادة بعد اليوم... (1).

ورغم التطور الهام على مستوى القناعات والإدراك الفردي والجماعي، فإن عدم كون الجندين الجزائريين على حفظ من الثقافة العامة حال دون أن يكونوا قوة في المطالبة بالحقوق السياسية التي ارتفعت بها أصوات بعض الجزائريين ولا أن يكونوا عضدا لهؤلاء خاصة رؤسائهم أصحاب الحقبة المناهضة للاستحقاق هذا الحق... (2).

ومن ثم فقد كان على الحركة الوطنية - عموما - أن تنتظر عدة سنوات أحر لتبلور اتجاهاتها وحيث يتم خلالها استدراك الجزائريين الحظ من التعليم والثقافة حتى يكونوا القاعدة القوية التي تنطلق منها حضرات التغيير المصيري للشعب الجزائري.

رابعا: عودة فئة من الجزائريين الأوائل من الذين أنهوا دراستهم في البلاد العربية كالحجاز ومصر وتونس وكذا تركيا أين تلقوا العلم هناك بفكرة إصلاحية ناضجة أمثال البشير الابراهيمي، والطيب العتيبي ومبارك الميني وابراهيم افضيش وغيرهم. وقد تأثر هؤلاء بالإصلاح تأثرا خاصا مستمدا قوته وحرارته مباشرة من كلام الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم (3) ويشير الابراهيمي بذكر الحجاز (4) خاصة إلى الحركة الوهابية التجديدية التي بنيت أصولها على إصلاح الدين وتصفيته من البدع والدروشة. وهو ما كانت تعاني منه الجزائر في ذلك الوقت. وقد كان الجزائريون وهم يعيدون عن وطنهم.

(1) آثار محمد البشير الإبراهيمي، مسار سابق ج 1، ص 322.

(2) المكان نفسه.

(3) سجل مؤتمر جمعية العلماء المسلمين، مسار سابق ص 19.

(4) يدعي أن اسم الإبراهيمي قد اقتصر على ذكر الحجاز دون باقي دول المغرب، وقد أرجع العتيبي ذلك إلى "السيهيو" أنظر كتابه: المرجع السابق، ص 61 (اهتمش) لكن يبدو أن ذكر الحجاز كان مقصورا على صرف الإبراهيمي لأن معظم العلماء الجزائريين وإن كانوا قد تعلموا ببلدان المشرق المختلفة إلا أنهم زاروا الحجاز لمدة طويلة أو قصيرة بغرض العودة أو العلم أو الحج ومن ثم تأثرهم بمكرة الإصلاح الساسل الميني على العلم والحكسة ونبذ البع. ولا يكون لتأثرهم عكسية الحج سببها.

يشاركون في بناء نهضة الجزائر بحسن التوجيه للقادة في الداخل، وبشد أزهم في الخارج بالإشهار والتعريف بالقضية الجزائرية، كما كانوا يرسلون أصدقاءهم وعائلاتهم «ويرسلون طرود الكتب والمجلات العربية النافعة والصحف الوطنية القوية يرسلونها سرا فتصل الجزائر فيقرؤها الكثيرون وتحدث أحسن الآثار في النفوس. ولولاهم ما وصل الجزائر كل ما وصل من الكتب والصحف العربية فكانت أحسن غداء لنهضتها» (1). وبعد عودتهم أقام كل منهم في منطقتهم يعلم ويربي ويدعو إلى الإصلاح بالعلم والحكمة «فكانوا مع ابن باديس النواة الأولى لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين» (2).

خامساً: جيل المصلحين الأوائل الذين ظهوروا في النصف الثاني من القرن التاسع عشر الذين تأثروا بالحركة الإصلاحية المشرقية وقادوا الحركة الفكرية في الجزائر منذ بداية القرن العشرين يسميهم الأستاذ علي بدوز «بالعلماء العاملين» (3). وذكرهم الإبراهيمي استكمالاً لعوامل النهضة بقوله: «وهناك رجال ظهوروا بفكرة إصلاحية محدودة... ولكنها على كل حال محمود، وذلك قبل أن يظهر الإصلاح التعاوني ويزخر عبابه وتتسق أسبابه» (4). فقد ظهرت فكرة الإصلاح في ضمائر العلماء الذين يعلمون السر الخفي للمأساة في الجزائر وتمثلها كل منهم لكن «في جراءة فرد لا في ثورة شعب، وفي قوة رجل لا في تكاتف مجتمع، ومن ثمة لم تكن حوادثها تاريخاً وإنما صيحة جريئة ومناجاة ضمير لم يستطع أن يبلغ صدهاء إلى الضمائر الأخرى ليوقظها من النوم العميق» (5).

وكون هؤلاء، في النهاية الإرهاصات الأولى والخميرة الصالحة للحركة الإصلاحية الشاملة التي ستظهر على يد جيل التلاميذ بأكثر قوة وأوسع صدى وأعمق أثر. ونذكر من الأعلام الأوائل الشيخ صالح بن مهنا (*) الذي لقي في سبيل عودته

(1) محمد علي بدوز، نهضة الجزائر الحديثة ونورتها المباركة، مرجع سابق، ج2، ص 37

(2) أحمد الخطيب، جمعية العلماء وأثرها الاصلاحى في الجزائر، مرجع سابق، ص 93.

(3) المرجع السابق، ص 42.

(4) سجل مؤتمر جمعية العلماء المسلمين، مصدر سابق، ص 49.

(5) مالك بن نبي، شروط النهضة، مرجع سابق، ص 23

* توفي بقسنطينة سنة 1907م وله مؤلفات كثيرة

الإصلاحية التشريد والنفي من قبل الإدارة الفرنسية التي صادرت مكتبته الثمينة، وقد كاد صوته أن يوقظ قسنطينة كلها حوالي سنة 1898م(1).

الشيخ عبد القادر المجاري (1848- 1913م) الذي كان يؤمن بأن الإصلاح إنما يتم عن طريق التعليم والتربية وقد ألف عدة كتب مدرسية وتربوية، دعا فيها إلى تعليم المرأة ودراسة الأخلاق وعلم النفس، ونقد طرق التعليم، وأشار إلى أهمية خطبة الجمعة وقام بتطبيق منهجه في الإصلاح والتعليم بقسنطينة ثم بالعاصمة (*) .

- الشيخ عبد الحليم بن سماية (1866-1925م) الذي كان متصلا بالحركة السلفية المشرقية، مراقبا للأحداث في الصحف العربية والفرنسية. وكان يعتمد في تدريسه على الكتب الأصيلة فكان يدرس كتاب "رسالة التوحيد" لمحمد عبده، ودلائل الإعجاز للجرجاني، وقد نجح في ميدان التربية والتعليم، واهتم في خطبه بمحاربة البدع والفساد والاحاد، وساهم بنشاط حثيث في الصحافة بمقالات دينية واجتماعية وخاصة في جريدة "كوكب افريقيا" وجريدة "الإقدام" (2).

وللإشارة فإن جهود الإصلاح لم تقتصر على هؤلاء العلماء فقط، وكما أنها لم تقتصر على علماء الشمال فحسب وإنما شملت القطر الجزائري كله، وقد عمّت الجنوب الجزائري نهضة علمية نشيطة امتدت مظاهرها إلى بناء المدارس والمعاهد وإنشاء النوادي

(1) مالك بن بي، شروط النهضة، مرجع سابق، ص 23.

(*) من مولماته: "إرشاد المعلمين"، "المرصاد في مسائل الاقتصاد"، "التمع على نظم البدع"، وهي شرح لمنظومة في إنكار البدع ألفها المولود بن الموهوب. طبعت في الجزائر سنة 1912م. "القواعد الكلامية" وهي رسالة في علم الكلام. تنظر ترجمته في : محمد علي دبوز، نهضة الجزائر ونورتها المباركة (الجزائر، المطبعة التعاونية، 1965م). ج 1. ص 82-105.

(2) انظر ترجمة عبد الحليم بن سماية في: محمد علي دبوز، نهضة الجزائر، ج1، مرجع سابق، ص 106-127. وأيضا في عادل نويهض، ص 178-179. وللإشارة فإن المدني يؤرخ لوفاته بسنة 1925م في كتابه: حياة كفاح، مذكرات: القسم الثاني، مرجع سابق، ص 50. بينما يؤرخها دبوز سنة 1931م. انظر المرجع السابق، ص 126. ويؤرخها عمار طالبي سنة 1933م. أملا بما كتب على قبر ابن سماية. انظر: ابن باديس حياته وأثاره، المرجع السابق، ج 1، ص 31.

والجمعيات. وقد اشتهر كثير من علماء الجنوب(*) بالعلم والفصاحة والخطابة وتلمذ على أيديهم كثير من التلاميذ تولوا فيما بعد مناصب الإفتاء والقضاء والتعليم، فمهدوا وساهموا في النهضة العلمية ثم في الحركة الوطنية وتبوؤوا منها مناصب القيادة والتوجيه وغيرها. ونذكر من هؤلاء الشيخ محمد اطفيش (1820-1914م) الذي عكف على التدريس والتصنيف والوعظ والإرشاد حتى توفي وقد ترك أربعاً وأربعين مؤلفاً بين مجلد في أجزاء عديدة أو جزء واحد ورسائل في مختلف العلوم(1). ويذكر "دبوز" أنها تزيد على المائة(2).

الشيخ أبو القاسم الهاملي (1823 - 1897م) الذي كان له مشاركة هامة في علوم الحديث والكلام والتاريخ والأخلاق والتفسير، وقد أسس زاوية عرفت بزاوية "الهامل" سنة 1863م والتي كانت معهداً هاماً في تدريس علوم الإسلام والعربية تؤم العلماء والأساتذة ورجال النهضة والإصلاح وملجأ للفقراء لكن خاصة لمناهضة الاستعمار الفرنسي في محاولته لإبادة الجزائريين(3).

سادساً: ويمكننا أن نضيف إلى هؤلاء العلماء في الشمال والجنوب كل المتعلمين الجزائريين الذين دأبوا على قراءة ودراسة كتب علماء الإسلام، كابن تيمية وابن القيم

(*) غاب الأستاذ علي دبوز على كتاب تراجم علماء النهضة الجزائرية- الجزائريين- الذين يتجاهلون ذكر علماء الجنوب واعتبر ذلك من قبيل التعصب وعدم النزاهة ونحا باللوم على الشيخ أبي القاسم الحفناوي خاصة الذي تناول في كتابه "تعريف الخلف برجال السلف" كل العلماء الضعفاء والمتوسطين في الشمال ولم يذكر عالماً واحداً من ميزاب وقد رد ذلك إلى أن الكتاب قد ألفه صاحبه للولاية العامة وهذه لم تكن لترضى بأئمة النهضة المسلحين لكنه لم يتسامح في اللوم الشديد على تنميده عبد الرحمن الجليلي الذي ردّ أغلظه عمداً في كتابه "تاريخ الجزائر العام" في طبعته الثانية رغم تصحيح الأستاذ "دبوز" له بالنقد المسحفي والمشافهة. انظر محمد علي دبوز، نهضة الجزائر... مرجع سابق، ج 2، ص 14. ونذكر أن كلام علي دبوز فيه وجه من الحقيقة التاريخية والنزاهة والأمانة العلمية. وقد لاحظت اقتصار الكتاب والباحثين على المراجع الخاصة بهذا النوع على ذكر علماء الشمال فحسب.

(1) عادل نويهض، المرجع السابق، ص 20-21.

(2) المرجع السابق، ص 44 (انظر انقباش)

(3) انظر ترجمته في محمد علي دبوز، نهضة الجزائر... مرجع سابق، ج 1، ص 56-75. وأيضاً عادل نويهض، المرجع السابق، ص 335-336. بقص. ف.

والشوكاني⁽¹⁾، وغيرهم ممن تتلمذ على أيديهم علماء الشرق أيضا والذين دفعهم واقع المسلمين المتخلف إلى البحث عن أسباب هذا التخلف وتلمس وسائل النهوض. وقد شمل موضوع النهضة والإصلاح عناوين الكتب الرائجة هناك، وكذا أهداف ومضامين الجرائد الوطنية والإصلاحية، ويصعب وضع قوائم بعناوين الكتب والجرائد التي كانت تصل إلى الجزائر سريريا رغم الرقابة الفرنسية الشديدة، لكن الثابت أن الكثير منها كان متداولاً بين الجزائريين وكان محل دراسة وتحليل واشتراك عدد هام منهم (*). وإذا كان لهذه الجرائد والكتب الفضل في الأستاذية والريادة والتوجيه والتعليم فذلك بحكم تجربتها المبكرة في هذا الميدان وبحكم أصالة كتابها وتفوق أساليبهم⁽²⁾. لكن الحقيقة التاريخية تؤكد بأن الجزائر رغم الظروف الاستثنائية التي فرضها عليها الاحتلال فإنها لم تكن بعيدة عن حاجس النهضة وأسباب اليقظة العامة. وقد عبرت عن ذلك كتب علمائها وخطب مصلحيها ومقالات صحافييها التي يبدو معها أن تفتن هذا الجيل من العلماء إلى حقيقة أهداف الاستعمار كان عميقا ووعيمهم بمسؤوليتهم التاريخية والإسلامية كان كاملا. وتلخص محور طموحاتهم في ذلك في البحث عن أسباب النهوض التي يجمع تصورهم بشأنها في ضرورة العودة إلى منابع الإسلام الصافية، والتخلص من الكسل والمبادرة إلى دراسة كل العلوم المتقدمة والدعوة الخاصة إلى العلم. وهو ما جاء على لسان أحدهم وهو المولود بن الموهوب (1866-1930م)^(**) في قوله: «إن خروج الجزائر من الانحطاط ومن كل الآفات المتسلطة عليها لا يكون إلا بمخلق المدارس ثم المدارس ثم المدارس»⁽³⁾.

(1) سجل مؤتمر جمعية العلماء المسلمين الجزائريين. مصدر سابق، ص 67.

(*) أشار الرعيم المصري "محمد فريد" في حديثه أثناء زيارة له للجزائر قبيل الحرب العالمية الأولى إلى أن المشتركين من الجزائر في جريدة "المؤيد" وكذا "اللواء" كانوا كثيرين...». أنظر: محمد ناصر، المقالة الصحفية الجزائرية، نشأتها، تطورها، أعلامها من 1903-1931م. (الجزائر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1978). م، ص 59 بتصرف.

(2) المرجع نفسه، ص 55.

(**) انظر ترجمته في: محمد على دبور، نهضة الجزائر... مرجع سابق، ج1، ص 134-143.

(3) أبو القاسم سعد الله، الحركة الوطنية، مرجع سابق، ج2، ص 158.

وإذا كانت الحرية السياسية وتوفر المطبعة العربية ونشاط الصحافة الفعال وحركة التأليف الحثيثة قد ساعد على نضوج فكرة الجامعة الإسلامية والقومية العربية في المشرق العربي، وسهّل من تمة مهمة علماء الإصلاح ورواد النهضة هناك على بلورة أفكارهم وتنظيم جهودهم في تنوير الرأي العام في أوطانهم، فإن الاحتلال الفرنسي في الجزائر عمل على ضمور الفكرة و-نال دون الإفصاح عنها عمليا، ناهيك عن بثها، فقد كانت تهمة تعاقب عليها القوانين الفرنسية. يضاف إلى ذلك جدار العزلة الذي فرضته سلطة الاحتلال لمنع الجزائريين عن الاتصال والتأثر بالنهضة المشرقية(1) وهذا ما جعل ظهور الإصلاح الإسلامي في الجزائر بطيئا ومتعثرا، لكن ملامحه كانت حية باستمرار، ثم إن عدم تجمع علماء هذا الجيل في حزب أو جماعة منظمة، وكون بعضهم مدرسين في مدارس الإدارة الحكومية قد اضطرهم إلى مراعاة جانبها بتخفيف بعضهم من نشاطه واحتفاظ بعضهم لنفسه أو لبعض من حوله بأفكاره الإصلاحية(2)، لكنهم عموما قد وفقوا في مجال التربية والتعليم، وكان لهم في القضاء على بعض البدع مساع حميدة بشهادة الأبراهيمي(3). ثم إن جهودهم وإن كانت فردية ولم ترق إلى أهمية حركة ابن باديس فإنها لا شك هيأت الشعب الجزائري لقبول فكرة الإصلاح وتأيدها(4) وقد ساعد على بلورة ذلك أيضا ظهور الصحافة الإصلاحية.

سابعاً : الصحافة الإصلاحية

يذكر عدد من الكتاب "الصحافة الإصلاحية" كعامل في ظهور بوادر النهضة في

- (1) أصدرت حكومة الاحتلال قرارا وزاريا في 20 حويلية 1900م يقضي بمنع تداول جريدة "المؤيد" وكانت قد أصدرت قانونا بمنع دخول الجرائد المشرقية منعا باتا. ومنعت جريدة "اللواء" في أوت 1902م. ومع اقتراب الحرب العالمية الأولى أصدرت قرارا بمنع خمس جرائد عربية أخرى. "القبس"، و"المشكاة"، "الشعب" من القاهرة، "الرأي العام" من بيروت، "الحق يعلو" من الآستانة. انظر: محمد ناصر، المقالة الصحفية.. م1، مرجع سابق، ص 58-59 بتصرف. ويضاف إلى كل ذلك منع الجزائريين من الحج ووضع العراقيل المختلفة دونهم.
- (2) أحمد الخطيب، جمعية العلماء.. وأثرها الإصلاحي، مرجع سابق، ص 93.
- (3) سجل مؤتمر جمعية العلماء.. مصدر سابق، ص 49.
- (4) المطبقاني، المرجع السابق، ص 62.

الجزائر" (*)، والمقصود بها تلك الصحافة التي تهتم بالقضايا الدينية، كنشر الدين الصافي ومحاربة البدع ومعالجة مواضيعها بحساسية دينية وجرأة، وقد بدأت هذه الصحف في الظهور عندما شعر المصلحون بأهمية الصحافة في نشر مبادئهم وانتقاد الأوضاع الاجتماعية والدينية وحتى السياسية -أحيانا- السائدة في ذلك الوقت " وكذا منازلة خصوم الإصلاح من طرفيين ودعاة الاندماج (1) ونذكر منها :

أ- جريدة الحق: التي كانت أول جريدة تصدر بالقطر الجزائري لمسلمين جزائريين (2) حيث أنشأها جماعة منهم في "عناية" في 30 جويلية 1893م بالفرنسية في أول الأمر ثم باللغتين الفرنسية والعربية . وقد صدرت أسبوعيا لمدة عام أي حتى سنة 1894م. وصفها "دبوز" بأنها مخلصنة حسنة (3) ورغم ركافة لغتها إلا أنها كانت مفيدة المحتوى وذات قيمة تاريخية، كما كانت صريحة في المطالبة بحقوق المسلمين الجزائريين (4).

ب- جرائد عمر راسم (* **) (1884-1959م) التي تعتبر من أوائل المحاولات التي بذلتها العناصر الإصلاحية الوطنية المخلصنة في ميدان الصحافة. وقد اتسمت كلها بنزعة صاحبها العبدوية الإصلاحية وروح الوطنية الثائرة وكانت ذات لهجة حادة. وقد عبرت عن

(*) منهم محمد علي دبوز سماها بالصحافة الوطنية المجاهدة، وعمار الطالبي سماها بالصحافة العربية وغيرهما، وطبيعة موضوعنا تقتضي فصل الصحافة الإصلاحية خاصة عن الصحافة العربية عموما في الجزائر وكذا عن الصحافة الوطنية السياسية والجزئية البحتة.

(1) المطبقي، المرجع السابق، ص 02.

(2) محمد ناصر، المقالة الصحفية.. مرجع سابق، م، ص 22.

(3) محمد علي دبوز، نهضة الجزائر، مرجع سابق، ج2، ص 8.

(4) المرجع السابق، ص 23.

(**) عمر راسم: صحفي وخطاط كبير جزائري، عرف منذ صباه باعتناقه للأفكار العبدوية. بدأ الاشتغال بالصحافة في 1898م بالمطبعة الرسمية التي كانت تطبع "المبشر"، فاحتك بالصحافة وتكون سياسيا وسط الأحداث الهامة التي كانت تمر بها الجزائر. راسل جريدة "المبشر" التونسية وترأس تحرير القسم العربي لجريدة "الحق" الوهرانية. عارض التحديد الإجباري بشدة بالقول والقلم وتعليق الملصقات على جدران مدينة الجزائر. من آثاره "تفسير القرآن الكريم" الذي كتبه في السجن، و"تراجم" علماء الجزائر " ومقالات كثيرة في الاجتماع والدين والسياسة والفن. تنظر: زهير احدان، محمد راسم، صحفي ورسّام، مقال في المجلة الجزائرية للاتصال: ع 9 لسنة 1992م، ص 113-115. وكذا عادل نويهض، المرجع السابق، ص 242، بتصرف.

وجهة نظر صاحبها حول مناهضة الاستعمار وضرورة الإصلاح بانتقاد الأوضاع الاجتماعية بالكلمة والصورة، وهدفت إلى توعية الجزائريين وتثقيفهم وإطلاعهم على أسرار السياسة الداخلية والخارجية. كما كانت تدعو إلى الإصلاح الديني لأن سبب تأخر المسلمين كما يرى "راسم" يعود إلى انفصالهم عن الشريعة الإسلامية(1)، وهذه الجرائد على التوال هي: جريدة "الإصلاح" التي صدرت في ملحقين واختفت بسبب أزمته المالية ومجلة "الجزائر" الصادرة في 27/10/1908م. ثم "ذو الفقار" في 15/10/1913 واستمرت حتى 1914م(*)).

ج- جرائد أبي اليقضان: (1888-1973م): أصدر أبو اليقضان ثمانية جرائد متتالية، وتمهنا في هذه المرحلة الأربعة الأولى منها وهي التي صدرت قبل ظهور جمعية العلماء (أو معها) وهي على التسري: "وادي ميزاب" في 01/10/1926م "ميزاب" في 25/01/1930م، "المغرب" في 29/05/1930م، "النور" في 10/09/1931م(**).

وتميزت صحف أبي اليقضان باللهجة الحارة في مخاطبة السلطة الاستعمارية الحاكمة والصراحة المباشرة في معالجة القضايا المختلفة، والمواقف الثابتة في مقاومة الظلم والاضطهاد، والتعقيب العلمي على كل مظاهر الانحراف وخاصة انحراف دعاة الاندماج والتجنيس. وهو السبب الذي جعلها تتساقط الواحدة تلو الأخرى في ميدان الجهاد بالكلمة (***) (2)، وقد استهدفت جميعها :

- بذل الجهد في مقاومة الرذائل ونشر الفضيلة

(1) عمار الطائي، المرجع السابق، ج1، ص 56.

(*) سنعود إلى هذه الصحف بمزيد من التفصيل في الفصل الخاص بالاتصال عن طريق الصحافة لاحقا إن شاء الله. (**) أبو اليقضان: صحفي، كاتب وشاعر. من رجال الإصلاح والتجديد في الجزائر. له اشتغال في التاريخ والتراحم والفقهاء، تعلم بالجزائر ثم التحق بجامعة الزيتونة بتونس وكان رئيسا لأول بعثة علمية به. من آثاره "سلم الاستقامة" في الفقه "تاريخ صحف أبي اليقضان"، "ديوان شعري" الخ. انظر عادل نويهض، المرجع السابق، ص 356.

(***) ستعرض إلى بقية صحف أبي اليقضان لاحقا إن شاء الله. وستعرف عن أسلوبها وطريقتها وهدفها من ذلك.

(2) محمد ناصر، المقالة الصحفية، مرجع سابق، م1، ص 66.

- حث الأمة على اكتساب العلوم والمعارف وإحياء اللغة العربية وتربية الأبناء تربية إسلامية صحيحة، غايتها ترقية مداركها ورفع مستواها المادي والأدبي
بناء الشخصية الوطنية والتثبث بالمقومات العربية الإسلامية وغايتها من ذلك
بعث الشعور بالذات وتكوين الأمة على الأخلاق المتينة يث الثمام على ضوء القرآن
الكريم والسنة النبوية في مجالات السياسة والاجتماع والدين والثقافة(1).

ومن ثم فقد ساهمت صحف "أبي اليقضان" في توعية الاتجاه الوطني والقومي
والاسلامي للجزائريين(2). وهو ما يجعلنا نقف على أصالة فكرة الاصلاح في الجزائر
ونضوج فكرة الجامعة الاسلامية والقومية العربية فيها كما يثبت لنا من جهة أخرى دور
الجزائر في النهضة العربية والاسلامية الشاملة.

وقد صدرت جريدة "البرق" في 27/03/1927م(2)، وجريدة "الاصلاح" للطيب العقبي(**) في 1927م أيضا، ويدخل
في هذا الإطار جريدة ابن باديس "المنتقد" في 02/07/1925م وكذا "الشهاب" في 12/11/1925م.
وقد نضجت على صفحات هذه الجرائد وغيرها كثير من الأقلام الجزائرية في
الكتابة والشعر، وتمرت على أساليب التاريخ والسياسة والنضال. وتبلور اتجاهها نحو
الإصلاح العربي والاسلامي في نشرتها السابق، وساهمت منيها المتبادرة في نشأة اشرف
العالمية الأولى - وساعدت على تفتن المسلمين الجزائريين لمآرب الاحتلال من غزو فكري

(1) محمد ناصر، المقالة الصحفية، مرجع سابق، ص 67-70، بتصرف.

(*) عاب محمد علي دبور على "علي مراد" تجاهله حقيقة الصحف البيقظانية في رسالته "نشأة الصحافة الإسلامية
في الجزائر" بين سماها "بسرديات وأوراق". وعلق دبور على ذلك قائلا: ... مع أنه لو شاء لافترس نصف
الجريدة وتغطى بالباقي ذكر حجبها. وكانت في انتظام الصدور وقوة اللهجة، وعلو المستوى الأدبي. وطول العسر
من أحسن صحف الجزائر والمغرب. أنظر: نهضة الجزائر...، مرجع سابق، ج2، ص لا بتصرف.

(2) عطلت "البرق" في سبتمبر من نفس السنة، وقد وجهت في لحظة شديدة ضد الطريقة خاصة. أنظر: المطبقاني،
المرجع السابق، ص 64.

(**) ستعرض إلى مساهمة الطيب العقبي في مجال الصحافة والإصلاح لاحقا إن شاء الله.

(3) محمد ناصر، المقالة الصحفية، مرجع سابق، م1، ص 68 بتصرف.

وإعداد لعملية مسح شاملة مما أدى إلى تحسين مواقفهم إزاء الصحافة عموماً وخاصة الصحافة العربية والإصلاحية بالتأييد والإقبال مما يدل على ارهاص نجاح الثورة الأولى من ثورات الجزائر في سبيل الحرية والاستقلال الكامل وهي الثورة التي يسميها "دبوز" «بثورة علماء الدين المصلحين(1)، وخدمهم».. والتي ستكفل بإنشاء جمعية العلماء فيما بعد. وتدل من جهة أخرى على النشاط الفكري، وعلى ظاهرة القلق التي هي علامة على اليقظة والرعي بالمسؤولية وخطوة في سبيل تغيير المظاهر الاجتماعية، ومحاولة لإعادة المجتمع إلى أداء وظيفته التاريخية وإدراكه نفسه التي نسبت التاريخ أو نسيها التاريخ(2). وهي ما يعبر عنها مالك بن نبي «برجوع الحاسة الاجتماعية إلى الحياة التي يستأنف فيها كل شعب رسالته أو يبدأ تاريخه»(3).

تأمنا: يضيف الدكتور أحمد الخطيب عوامل أخرى سماها بالعوامل السلبية(4) وتمثل في الطرق الصوفية والمرابطة المنحرفة ثم الدعوات الاندماجية التي حاولت النخبة المفرنسة من خلالها وبدعوى العلمانية سلخ الجزائر من تراثها القومي، وتذويها في الكيان الفرنسي، وأخيراً شدة تضيق السلطة الاستعمارية على الدين الإسلامي، بتأميمها لكل مؤسساته رغم دعوى اللامكية التي تقضي بعدم التدخل في شؤون الدين وقد كان دأبها كذلك واقعياً، لكن مع الديانة المسيحية واليهودية فقط(5).

وقد أشار الشيخ الابراهيمي في سجل جمعية العلماء إلى آثار الطريقة السيئة على المسلمين عامة ثم خطورتها على الواقع الجزائري، وهو كما سوف نرى الموضوع الذي يصنّف ضمن أولويات انشغالات الجمعية. وقال الابراهيمي "... إنهم (شيوخ الطرق الصوفية) بعد أن أفسدوا فطرتها (يقصد الأمة الجزائرية)، وأماتوا ما غرسه الإسلام فيها من فضيلة، وفكّكوا كلّ ما أحكم بينها من روابط الأخوة، وراضوها على الذلّ والمهانة

(1) محمد علي دبوز، نهضة الجزائر...، مرجع سابق، ج2، ص 43 بتصرف.

(2) عمار طالبي، المرجع السابق، ج1، ص 60.

(3) مالك بن نبي، شروط النهضة، مرجع سابق، ص 23.

(4) أحمد الخطيب، جمعية العلماء.. وأثرها الإصلاحي، المرجع السابق، ص 94 بتصرف.

(5) أحمد همامي، صراع بين السنة والبدعة أو القصة الكاملة للسلطان الإمام الرئيس عبد الحميد بن باديس،

(قسنطينة، دار البعث، 1984م)، ج2، ص 241. بتصرف.

والخضوع، وسدوا عليها منافذ النور فاستقامت لهم على ذلك...» (1).

تاسعا: ويذكر "علي مراد" عوامل أخرى من جهته سماها بعوامل داخلية وتمثل في:

أ- أن فكرة التجمع في "حزب إسلامي" لم تكن أجنبية عن الضمير الإسلامي وهي مبنية ليس فقط على التقاليد الثقافية ولكن أساسا على التعاليم القرآنية وسنة الرسول عليه الصلاة والسلام، فالمسلمون يلتقون في عالميتهم في "حزب الله" حسب التسمية القرآنية (2) في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ﴾ (3). وقوله: ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ، أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدِيَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ.. رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ. أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ لَهُ الْمَفْلُحُونَ﴾ (4) وقول الرسول صلى الله عليه وسلم: «المؤمن للمؤمن كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضا» (5).

ويعلق "علي مراد" بأن هذه القدرة الإيجابية أو التلقينية تحافظ على الميل والاتجاه إلى الوحدة في العقل الإسلامي وهو ميل عموما بطيء لكن المصلحين كانوا يعودون دوريا لإحيائه وتحويله إلى قوة اجتماعية ديناميكية وفعالة، وهو ما كيّف دون شك نظرة المسلمين إلى فكرة الاجتماع والوحدة وما جمعية العلماء المسلمين الجزائريين >> إلا تجسيد لهذا التصور. تبادتها وعلمائها وبالتالي قوتها الدينية وتأثيرها الاجتماعي، ومن ثمة فإن فكرة الجمعية قد وجدت أرضيتها في الحقيقة الاجتماعية الجزائرية نفسها وقد مهد الاستعداد الشعبي لنجاحها فيما بعد (6).

ب- تعود الجزائريين على المنظمات المختلفة كالأحزاب الأوروبية، دفعهم إلى

(1) سجل مؤتمر جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، مصدر سابق، ص 33 بتصرف.

(2) ALI MERAD, Le réformisme Musulman en Algérie, op cit, p.p. 120-121.

(3) المائدة، 56.

(4) المجادلة 22.

(5) رواه البخاري، في كتاب الأدب، باب تعاون المؤمنين، أنظر ابن حجر العسقلاني، فتح الباري بشرح صحيح البخاري. (بيروت، دار إحياء التراث العربي، د.ت)، ج 10، ص 369.

(6) Ibid, p 122.

التفكير في تكوين جمعية قادرة على جذب انتباه الإدارة بأهميتها الاجتماعية ولكن أيضا جلب احترام وثقة النخبة الفرنسية والموظفين الرسميين(1). وقد أشار الإبراهيمي إلى هذه المسألة رادًا عدم فعالية الإصلاح الفردي رغم التقاء المصلحين على الغاية منه إلى عدم التقائهم على نظام ولا في جمعية(2). وقد شجّع على تأسيس جمعية العلماء حين وقع ذلك.

II- تأسيس جمعية العلماء الجزائريين:

إن ميلاد أية حركة هو عملية طويلة، وفي بعض الأحيان مؤلمة قبل أن يستطيع الناس رؤيتها وتقديرها(3)، وقد كان الأمر كذلك بالنسبة لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين التي لم تكن لتعرف النور في بلاد كالجزائر، تخضع لاحتلال فض يحصي على الناس أنفاسهم. لكن الذي جعل الأمر ممكنا هو وجود أشخاص مؤمنين إيمانًا راسخًا بالإصلاح متأثرين بالوضع المتردي. ولم يعد هناك دواء سوى النهوض بالمتجمع العربي المسلم في الجزائر(4).

وإذا كانت ج.م.ع. قد خرجت إلى الوجود في 5 ماي 1931م فقد بذلت في سبيل ذلك مجهودات جبارة وعرفت منعطفات خطيرة، كان العلم والتضحية وسائل تمكن بها عبد الحميد بن باديس وصحبه من تأسيس الجمعية والسير بها بين الأشواك(5). وقد كانت جمعية العلماء في النهاية ثمرة أبحاث مفيدة ومراحل طويلة من المحاولات والمواجهات الفكرية الرصينة والصبورة بين المثقفين الجزائريين من على منابر شتى(6) كان أهمها جريدة "المنتقد" ثم "الشهاب" وعبر وسائل أخرى كان من نتائجها إلتقاء رجال الإصلاح، وتبادلهم الآراء، وتعودهم على العمل المشترك والانفاق على خطط منظمة لمحاربة الفساد الديني والاجتماعي والسياسي(7).

(1) Ali Merad, Le Réformisme Musulman en Algérie, Op Cit, p123.

(2) سجل مؤتمر جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، مصدر سابق، ص 50. بتصرف.

(3) المطبقاني، المرجع السابق، ص 57 بتصرف.

(4) أحمد الخطيب، جمعية العلماء.. مرجع سابق، ص 95 بتصرف.

(5) المرجع السابق، ص 96.

(6) Ibid, p 119

(7) المطبقاني، المرجع السابق، ص 66.

جمعية العلماء المسلمين الجزائريين فكرة : تذكر مصادر الجمعية (*) أن التفكير في العمل الإصلاحي المنظم يعود إلى بداية القرن العشرين، وعلى وجه التحديد إلى عام 1913م حينما التقى ابن باديس "بالابراهيمى" في المدينة المنورة ومكثا ثلاثة أشهر يلتقيان فيها كل ليلة يتدارسان وضع الجزائر، يدرسان ما يمكن عمله إذا ما عادا إلى الجزائر للقيام بحركة إصلاحية، وبعد انتهاء الحرب العالمية الأولى وعودتهما إلى الجزائر استمر الاتصال بينهما(1).

كان "ابن باديس" يؤمن إيمانا راسخا بإمكانية إنقاذ الأمة الجزائرية الضعيفة التي لم تكن تملك شيئا من وسائل القوة الروحية ولا من وسائل القوة المادية، من استعباد الأقوياء المتألمين(2). وكان يؤمن بأن النهضة الإصلاحية إنما تقوم على الفكر والتخطيط والتنظيم والانضباط، وأنه لن يتمكن الجزائريون من النهوض ما لم ينهضوا أولا بمقتضيات إيمانهم بالله ورسوله(3). كما كان أعضاء الجمعية يؤمنون بأن الإسلام هو دين إصلاح وسبب إصلاح ومظهر إصلاح(4). ومن ثمة فقد التقوا على إصلاح المجتمع الجزائري على أسس من الدين الإسلامي.

وحسب "الابراهيمى" فإن ابن باديس قد زاره بمدينة سطيف سنة 1924م وأخبره عن عزمه على تأسيس جمعية باسم "الإخاء العلمي" يكون مركزها العام بمدينة قسنطينة وتكون خاصة بعمالتها، تجمع شمل العلماء والطلبة وتوحد جهودهم، وتقارب بين مناحيهم في التفكير والتعليم، وتكون صلة تعارف بينهم ومزيللة لأسباب التناكر والجفاء(5).

(*) خاصة سجل مؤتمرها الخامس المنعقد بنادي الترقى في 1935م، وصحافتها، وكذا مذكرات بعض أعضائها.

- (1) المطبقاني، المرجع السابق، ص 69. وأيضا أحمد حماني، المصدر السابق، ج2، ص 234.
- (2) عبد الحميد بن باديس، بحال التذكير من كلام الحكيم الخبير (الجزائر، مطبوعات وزارة الشؤون الدينية، 1982م)، ص 428. والمتسود بالأقوياء المتألمين هو الاحتلال الفرنسي.
- (3) أحمد الخطيب، جمعية العلماء.. المرجع السابق، ص 96.
- (4) المصدر السابق، ص 272. (عن خطبة مرتجلة للابراهيمى بمناسبة الاحتفال بختم ابن باديس لتفسير القرآن الكريم)
- (5) سجل مؤتمر جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، مصدر سابق، ص 53.

وبعد أخذ وردّ بينهما عدد ابن باديس فوائد الجمعية الكثيرة، اقتنع الابراهيمى بالفكرة بعد ما كان يستبعدا عملا واقعا لكنه لم ينكرها ذوقا وإحساسا. ويذكر أن ابن باديس قد عهد إليه وضع القانون الأساسي للجمعية فوضعه الابراهيمى في ليلته وقرأه عليه في صباحها، وقد تمّ اتفاقهما على :

1- أعضاء الإدارة وكونهم كلهم من مدينة قسنطينة

2- ترجمة القانون الأساسي وتقديمه للحكومة

3- دعوة العلماء إلى الاجتماع(1).

ويبدو أنه رغم كون «أرضية حركة النهضة الإصلاحية غنية جدا في عشرينات هذا القرن كما يقول سعد الله، وكونها قادرة على أن توحى للزعماء بتحديد أهدافهم وإقامتها على قاعدة ثابتة»(2). من جهة ثم كون الثورة التعليمية التي أحدثها ابن باديس مدة عشر سنوات قد ساعدتهم كثيرا على تفهم ووعي الواقع الجزائري، إلا أن العلماء قد اختلفوا حول هذه النهضة. وقد أشار الابراهيمى إلى ظروف أخرى تكون قد عطلت مشروع "الجمعية" وردّها إلى «أن الاستعداد لمثل تلك الأعمال لم ينضج بعد، وأن عملا عظيما كذلك لا يثبت على الفكرة الطارئة وإنما لا بد له من استقرار في الأذهان وأنس في النفوس التي ألفت التفرق حتى نكرت الاجتماع»(3).

ويقول أحمد حماني(*) أن فشل مشروع الجمعية يعود إلى عدم تجاوب

(1) سجل مؤتمر جمعية العلماء، مصدر سابق، ص 53 بتصرف.

(2) أبو القاسم سعد الله، الحركة الوطنية، مرجع سابق، ج2، ص 431.

(3) المصدر السابق، ص 54. وكذا نبيل بلاسي، المرجع السابق، ص 60.

(*) أحمد حماني ولد في 1915م تعلّم بمسقط رأسه ثم بقسنطينة والتحق بجامعة الزيتونة بتونس أين نال شهادة العالمية سنة 1943م. وكان له اتصال دائم بالحركة الإصلاحية والوطنية فترة تواجده بتونس وقام لصالحها بأعمال ومهام كثيرة. وكان يكتب في "النشأ" و"البصائر"، ساهم في إنشاء معهد ابن باديس سنة 1947م وأسندت إليه مسؤولية لجنة التعليم من 1955-1957م. وعند قيام الثورة التحريرية كلف بمهام سياسية وتعليمية وصحفية حيث كان يرأس الجرائد الكبيرة لعرض التغطية الجزائرية. ألقى عليه القبض من طرف الاحتلال الفرنسي وحكّم عليه بخمسة عشر سنة سحنا قضى منها خمسة. وبعد الاستقلال باشر نشاطه التعليمي في الثانوية ثم بكلية الآداب ووكّل إليه رئاسة المجلس الإسلامي الأعلى في 1972م. وهو لا يزال حيا يرزق. انظر هذه المعلومات وغيرها في كتابه: صراع بين السنة والبدعة، المصدر السابق، ج2، ص 285-307.

علماء قسنطينة وعمالقتها، إذ كانوا في أغلبيتهم من موظفي الإدارة الحكومية مع رغبة "ابن باديس" وقلة ثقتهم بانعامه في الاقبال على العمل الجماعي المنظم(1).

وقد انتشرت العبارة السحرية "الجمعية الإخاء" في كل مكان في الجزائر، وردّدها مجالس التعليم ومحافل الأدب، وتعدتها إلى الحوادث الخاصة، وبناء على رأي "الابراهيمى"، فإن العبارة قد جذبت أنظار المثقفين في البلاد كلّها، مما أشعر أهل العلم أن العلم رحم، وأنها محفوة، فيجب أن توصل، وأشعر العامة أن قوتها من قوة علمائها، وأن قوة العلماء لا تتحقق إلا بالتآخي على العلم والاجتماع على العمل <(2).

وكان لابد من انتظار سنة 1931م حتى تظهر جمعية العلماء، وقد قضى رجال الإصلاح وعلى رأسهم "عبد الحميد ابن باديس" في التمهيد لها منذ 1924م عبر وسائل مختلفة كما سوف نرى بالصحافة والتعليم المسجدي والمكتبي، والرحلات والخطب. وقد بقي العلماء خلال هذه الفترة يلتقون في الهدف ويختلفون في المظهر العلمي للإصلاح وكان عليهم أن يختاروا بين رأيين في تناولهم له:

ويتمثل الرأي الأول في التركيز على التعليم بهدف تكوين زعامات جديدة مطبوعة بطابع الإصلاح وذات مؤهلات عالية في أساليب الدعوة الإسلامية والخطابة العربية لمواجهة خصوم الإصلاح من أهل البدع. وكان "الابراهيمى" من أنصار هذا الرأي(3)، بينما كان "ابن باديس" يرى ضرورة مواجهة الوضع السائد مباشرة وبصراحة دون خوف أو رافة، وذلك بمحاربة المستغلين للبلاد من الطرفين وغيرهم، وعقد العزم على الشدة والحزم، وكانت وسيلة هذا الرأي حسب "سعد الله" هي الاتصال المباشر بالجماهير لايقاظها ضد مستغليها(4)، وأقل ما يكون من التأثير لهذا العمل أن تضعف

(1) أحمد حماني، المصدر السابق، ص 238. وقد بيّنه للدكتور أحمد الخطيب في لقاء شخصي معه. انظر: جمعية العلماء، مرجع سابق، ص 97.

(2) سجل مؤتمر جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، مصدر سابق، ص 55.

(3) المصدر نفسه، ص 50.

(4) أبو القاسم سعد الله، الحركة الوطنية، مرجع سابق، ج2، ص 412.

هيبة المفسدين في نفوس العامة وتضال رهبتهم في صدورهم، ومن ثمة يسهل العمل في نقض باطلهم وتخف المؤونة في هدمه (1).

وقد ترجم "ابن باديس" رأيه عمليا في جريدة "المنتقد" في عددها الأول في مقال بعنوان : «خطتنا مبادينا، وغاياتنا وشعارنا» جاء فيه : ... نتقد الحكام والمديرين والنواب والقضاة والعلماء والمقاديم وكل من يتولى شأنا عاما من أكبر كبير إلى أصغر صغير من الفرنسيين والوطنيين، هذه مبادئ الصحافة الحرة التي هي قوة لا غنى لأمة راقية عنها، ولا رقي لأمة ناهضة في هذا العصر بدونها» (2).

ودعا ابن باديس من على منبر "المنتقد" أولا ثم "الشهاب" فيما بعد إلى ضرورة اتحاد العلماء وتجمعهم، واتفقهم على خطة عمل لإصلاح الأوضاع الدينية والتعليمية والاجتماعية والسياسية، فقد جاء في العدد 14 من "المنتقد" قوله «... لو اتحد العلماء على حقهم كما اتحد غيرهم على باطلهم لسعدت الأمة، ونجت من بلاء كثير» (3). وجاء في العدد الثالث من "الشهاب" : دعوة صريحة للعلماء بضرورة الاتحاد بهدف تأسيس حزب ديني محض «غايته تطهير الدين مما ألصقه به الجاهلون من الخرافات والأوهام، والرجوع به إلى أصلي الكتاب والسنة وما كان عليه في عهد القرون الثلاث. وقال: إننا نرغب من كل من يستحسن هذا الاقتراح ويلبى هذه الدعوة من أهل العلم، ثم من كل محب للإصلاح أن يكتبنا لإدارة الجريدة ببيان رأيه حتى إذا رأينا استحسانا وقبولا من عدد كاف شرعنا في التأسيس، والله ولي التوفيق» (4).

وقد كانت فكرة تأسيس جمعية العلماء، ومن هو واضع قانونها الأساسي، تم من هو صاحب النداء إلى تكوينها محل نقاش وجدال بين المؤرخين والباحثين المعاصرين ممن يهتمون بالحركة الوطنية الجزائرية عموما، والنهضة الإصلاحية على وجه الخصوص.

(1) سجل مؤتمر جمعية العلماء، مصدر سابق، ص 51.

(2) انظر جريدة المنتقد، ع2، المؤرخ في: الخسيس 11 ذي الحجة 1343هـ الموافق لـ 2 جويلية 1925م.

(3) انظر جريدة المنتقد، ع1-1، المؤرخ في: 12 ربيع الأول 1344هـ الموافق لـ: 01 أكتوبر 1925م.

(4) انظر جريدة الشهاب، ع3، المؤرخ في: 09 جمادى الأولى 1344هـ الموافق لـ: 26 نوفمبر 1925م.

والحقيقة أن البداية في هذا النقاش كانت عقب صدور كتاب "حياة كفاح" للأستاذ أحمد توفيق المدني في قسمه الثاني الخاص بفترة 1925-1954 (*). وخاصة منه موضوع تأسيس جمعية العلماء، فقد نسب الأستاذ المدني لنفسه الفضل في التفكير في إنشاء الجمعية، وفي وضع قانونها الأساسي حيث قال: «أخذت منذ تلك الساعة الرهيبية (يقصد بها يوم الاحتفال الفرنسي بمرور مائة عام لاحتلال الجزائر) أستعد لثلاثة أعمال، قوية، جسيمة أولها «إنشاء جماعة إسلامية، صادقة، قوية، هادفة، تحمي أجماد الجزائر، وتبث في أوساطها الاسلام والعروبة والوطنية الصادقة، وتسير بالشعب نحو الهدف الصحيح» (1).

ويعتبر المدني نفسه قد نجح في المشاريع الثلاثة نجاحا يفوق ما كان ينتظره لها، وكانت الجماعة الصالحة هي جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، المشروع الأول (**). وسرد المدني قصة إنشاء الجمعية وكيف أنه اجتمع بالشيخ محمد العاصمي، والسيد عمر إسماعيل، والسيد محمد عبايسة، بنادي الترقى، وأنه اقترح عليهم فكرة تأسيس حركة «تكون ممثلة لروح الشعب وإحساسه، مهيمنة على السياسة موجهة لها التوجيه الصحيح» (2)، وقد تم الاتفاق على الأمر، ثم نسب المدني تسمية الجمعية إلى العاصمي (***)، الذي قال: «لندعها إذن "جمعية العلماء المسلمين الجزائريين" وكذا جائزة الألف فرنك إلى عمر إسماعيل كهدية من هذا الأخير لمن يتوصل لإنجاز هذا المشروع» (3).

(*) ظهر الكتاب في الجزائر سنة 1977م، نشرته المؤسسة الوطنية للنشر والتوزيع، وهو مرجع في هذا البحث.

(1) أحمد توفيق المدني، حياة كفاح، مرجع سابق، القسم الثاني، ص 472.

(**) المشروع الثاني: هو "كتاب الجزائر" يسجل فيه تاريخ في القديم والحديث، وقد ظهرت طبعته الأولى سنة 1931م نشرته دار المعارف بمصر، ثم طبعته الثانية في 1963م. نشرته دار الكتاب العربي بالجزائر. وهو مرجع في هذا البحث. المشروع الثالث: هو كتاب "محمد عثمان باشا"، داي الجزائر، وهو أيضا مرجع في هذا البحث.

(2) المرجع السابق، ص 174.

(***) محمد العاصمي (1883-1951م) أديب، صحفي، تعلم بزواية الحامل ثم علم بها وبالأنغواط والجزائر العاصمة عين مفتشا للمادة الحنفي من طرف سلطة الاحتلال سنة 1944م. كان من أعضاء جمعية العلماء ثم انقلب عنها في الأربعينات وأصدر مجلة "صوت المسجد"، لسان حال رجال الدين الرسميين.. انظر: عادل نويهيض، المرجع السابق، ص 212، بتصرف.

(3) المرجع السابق، ص 175.

ويضيف المدني بأنه هو الذي طلب من العاصمي الكتابة إلى "الشهاب" للتبشير بالموضوع والإعلان عن الجائزة ثم شرحه للفكرة لجماعة استدعاهم لهذا الغرض وقيام اتفاقهم على أن يكون "نادي الترقى" مقرها الرسمي إلى أن يقول بأن الجماعة كلّفته بإيجاد قانون أساسي بسيط للجمعية ليعرضه عليهم فيما بعد، وأنه عكف في مكتبه ثلاثة أيام لتسطيره <<(1)>.

ويبدو أن عدداً من الكتاب قد أخذوا عن "المدني" روايته هذه أثناء حياته في مقابلات شخصية معه ويتعلق الأمر بالأستاذ محمد علي دبور في كتابه: "نهضة الجزائر وثورتها المباركة" حيث يقول: <<حدثني أحمد توفيق المدني...>>(2). ثم يسرد الأحداث كما وردت في كتاب المدني "حياة كفاح" وقد كان مخطوطاً ولم يطبع بعد(3) حتى ذلك التاريخ (*). وقد سلّم "دبور" بكل رواية المدني ولم يتعرض لمناقشة أي موضوع منها، كما أنه جعل من شخصية المدني <> على رأس شباب الجزائر العاملين المثقفين المصلحين، وأنه (المدني) الرجل العظيم الذي بقي من السلف الصالح من العلماء العاملين. وأن عمله هو السبب المباشر لنشأة جمعية العلماء المسلمين الجزائريين <>(4).

أما الأستاذ "أحمد نبيل بلاسي" فقد أخذ على التوالي عن: "المدني" في مقابلة شخصية معه في 22/01/1977(5). وعن سجل مؤتمر جمعية العلماء الذي نشر سنة 1982م، لكنه لم يعرض هذه القضايا للنقاش واكتفى بالقول: أنه <> رغم ما نسب للإبراهيمي لنفسه، وادعاء المدني، فإن الجمعية قد برزت إلى الوجود كواقع ملموس...>>(6). وقد أخذ "سعد الله" مباشرة عن سجل مؤتمر جمعية العلماء الجزائريين

(1) توفيق المدني. حياة كفاح، مرجع سابق، القسم الثاني، ص 175-178، بتصرف.

(2) محمد علي دبور. نهضة الجزائر... مرجع سابق؛ ج 1، ص 95.

(3) المرجع نفسه، ص 96.

(*) وللإشارة فإن كتاب دبور قد ظهر سنة 1971م في طبعته الأولى.

(4) المرجع نفسه، ص 95-96.

(5) أحمد نبيل بلاسي، المرجع السابق، ص 57، وللتذكير فإن كتاب "بلاسي" قد صدر سنة 1990م.

(6) المرجع نفسه، ص 60.

المسلمين، وكان ينسب الأحداث والمعلومات إلى الشيخ الابراهيمي -محرم السّجل- بقوله << وبناء على رواية الابراهيمي >>(1). وذلك عدة مرات في كتابه الحركة الوطنية في جزئها الثاني في طبعتها الثالثة، ويبدو أن الأمر كان كذلك بالنسبة للطبعة الأولى والثانية. وقد وضّح الدكتور ذلك بقوله: << إن هناك مصادر كثيرة ظهرت منذ وضعت البيبليوغرافية الجديدة للطبعة الثانية الخاصة بالمصادر العربية أهمها مذكرات الأستاذ المدني >>(2). ولم يثبت هذا المصدر في بيبليوغرافية الطبعة الثالثة أيضا (3). وبالتالي فإن "سعد الله" لم يتعرض لمناقشة المدني فيما نسبته لنفسه.

وعرض الدكتور "أحمد الخطيب" مسائل هذا الموضوع للنقاش بعدما أخذ بما ورد في سجل مؤتمر جمعية العلماء فقال: << وأحمد توفيق المدني ينسب لنفسه ذلك الفضل >>(4)، وسرد روايته كما أوردها في مذكراته لكنه ردّ عليها بما سمعه من الشيخ "أحمد حماني" وهو أحد أعضاء جمعية العلماء المسلمين الجزائريين الذي أكد له في مقابلة شخصية معه في 29/04/1979م بالجزائر العاصمة(5)، بأن فكرة تأسيس الجمعية تعود إلى <<ابن باديس ومنذ 1944م، واستدل بمقال الشيخ في جريدة "السنة" ودعوتها لها باستمرار من على منبر "الشهاب" التي نشرت بداية عام 1931م إعلانا بتأسيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين وتخصيص جائزة ألف فرنك لمن ينجز المشروع. وأكد "الخطيب" قول الشيخ حماني بأقوال بعض أعضاء جمعية العلماء، ومنهم محمد الصالح رمضان، وعلى مرحوم، وعبد اللطيف سلطاني، في مقابلات شخصية أجراها معهم كل في تاريخه ومكانه(6).

(1) أبو القاسم سعد الله، الحركة الوطنية، مرجع سابق، ج2، ص 410-411.

(2) المرجع نفسه، أنظر مقدمة الكتاب.

(3) المرجع نفسه، ص 174. (قائمة المصادر)

(4) أحمد الخطيب، جمعية علماء... وأثرها الإصلاحي في الجزائر، مرجع سابق، ص 101.

(5) المكان نفسه (هامش الصفحة)

(6) أحمد الخطيب، جمعية العلماء المسلمين الجزائريين وأثرها الإصلاحي في الجزائر، مرجع سابق، ص 102. وللإشارة فقد كانت مقابته مع محمد الصالح رمضان وعلي مرحوم في 25/04/1979م في الجزائر العاصمة. ومع عبد اللطيف سلطاني في 26/04/1979م.

ويؤكد الخطيب ما ذهب إليه مستشهدا بما كتبه الكاتب الجزائري "علي مراد" الذي ذكر بأن الفكرة الأساسية لتأسيس جمعية العلماء الجزائريين المسلمين يعود الفصل فيها إلى ابن باديس ابتداءً من 1924م، وأن المشروع النهائي للجمعية كان نتيجة نقاش طويل استمر خمس سنوات من نوفمبر 1925م حتى ماي 1931م تحت توجيه ابن باديس وفي إطار مجلته "الشهاب"⁽¹⁾.

ويضيف "الخطيب" إلى ذلك جملة من الآراء ينسبها إلى كل من "كلود كوللو" "Claude Coulot" و"جان روبرت هنري" "Jean Robert Henry" وغيرهما يشيران فيها إلى أن ابن باديس هو صاحب الفكرة الأولى في تكوين جمعية العلماء المسلمين الجزائريين. وأن "عمر اسماعيل" هو صاحب الفضل في تقديم الجائزة، أما "ديارمي" "Desparmet" فكان يرى أن عمر اسماعيل هو أول من فكر في إنشاء الجمعية⁽²⁾. ويستنتج "الخطيب" بأن ابن باديس هو المتبرع بألف فرنك أخرى لصندوق الجمعية إذا ما برزت إلى الوجود. وتعرض "أحمد الخطيب" إلى دعوة إنشاء الجمعية التي نشرتها "الشهاب" بأنها جاءت خالية من أي ذكر "للسادي التزقي"، ولاسيما المقترحين الذين يذكروهم "المدني" ولذلك يخلص إلى التساؤل: لماذا لم يمسك النادي مباشرة بزمام الدعوة إلى إنشاء الجمعية طالما أنه صاحب الاقتراح الأول ولماذا شاء التخفي وراء "الشهاب" <<⁽³⁾.

والذي يخلص إليه بدورنا إلى أن الخطيب لم يسلم برواية المدني وأن الأدلة التي أوردها تأكيداً لوجهة نظره، ومع أن "ديارمي" "Desparmet" لم يشر صراحة أن ابن باديس هو صاحب فكرة تأسيس الجمعية فقد ذكر ما يدل على ذلك وأهم حيث جعل هدف الشيخ من الإصلاح والتعليم آني وبعيد: الآني، وهو تعليم اللغة العربية والقرآن للجزائريين ومكافحة الخرافات والأمراض الاجتماعية بينهم، والبعيد، كان وطنياً وسياسياً. وقد أورد "سعد الله" على لسان "ديارمي" دائماً قوله: «بأن الجزائريين كانوا يسمون ابن باديس بـ "مرشد الأمة" و"إمام البلاد" وأبي النهضة» <<⁽⁴⁾.

(1) Ali Merad, Le Réformisme Musulman en Algérie, Op Cit, pp124-125.

(2) أحمد الخطيب، جمعية العلماء وأثرها الاصلاحى في الجزائر، المرجع السابق، ص 104.

(3) المرجع نفسه، ص 104-105.

(4) أبو القاسم سعد الله، الحركة الوطنية، مرجع سابق، ج2، ص 414 و 415.

ويؤكد : "سعد الله" أن ظهور جمعية العلماء المسلمين الجزائريين كان سيقى حلما لولا قيادة "ابن باديس" "الحيوية والديناميكية"⁽¹⁾، ويقول: ويمكن أن يزعم المرء أنه لولا "ابن باديس" لما تأسست جمعية العلماء، رغم ما وجد هناك من عوامل مساعدة على ذلك مثل "نادي الترقى" وشخص "عمر اسماعيل" الذي تعود إليه رئاسة اللجنة التأسيسية بالجزائر العاصمة التي كلفت بتوجيه الدعوات للحضور وكذا تحديد تاريخ ومكان الاجتماع⁽²⁾.

أما : "عبد الكريم بوالصفصاف" فيبدو أنه لم يتعرض لمناقشة هذه المسألة. في حين أنه سلم بكل رواية المدني وفي كل القضايا، وذلك عن حديثه الشخصي معه على التوالي في 2 و 11/04/1976⁽³⁾. أو عن كتابه الذي أورده كمصدر أساسي فيما عرض له حول تأسيس الجمعية⁽⁴⁾.

بينما يتعرض حامد المطبقاني لمناقشة فكرة تأسيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين وصاحب الفضل فيها ويسرد وقائعها كما رواها الإبراهيمي في سجل مؤتمرها، ويقول عن المدني: «أنه جعل لنفسه الدور الرئيسي في التفكير في إنشاء الجمعية بمعاونة بعض أعضاء النادي، ثم ادعاؤه بأنه هو الذي حرر قانونها الأساسي»⁽⁵⁾. ويرد المطبقاني «بأن الحقيقة في الدعوة إلى تأسيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين قد سبقت وصول المدني إلى الجزائر سنوات طويلة، وأن القانون الأساسي قد كتبه الإبراهيمي، ثم يعلق بأن ذلك هو الأقرب إلى الصواب»⁽⁶⁾.

وعسوما فإن عمود كتاب المدني "حياة كفاح" -القسم الثاني-، قد أثار ضجة كبيرة وأسأل كثيرا من الحير تمثل خاصة في ردود وسجلات صحفية، وكذا في ندوات ومناقشات لكن - وهذا هو الأهم - في حض بعض أعضاء الجمعية لكتابة مذكراتهم حول

(1) أبو القاسم سعد الله، الحركة الوطنية، مرجع سابق، ج2، ص 413.

(2) أبو القاسم سعد الله، الحركة الوطنية، مرجع سابق، ج3، ص 87-89 بتصرف.

(3) عبد الكريم بوالصفصاف، المرجع السابق، ص 85 و 93.

(4) المرجع نفسه، ص 31-35. وللإشارة فقد ظهر كتاب بوالصفصاف سنة 1981م.

(5) المطبقاني، المرجع السابق، ص 74.

(6) المكان نفسه.

الموضوع، التي لا غنى للمؤرخين والباحثين عنها إحقاقا للحق وحفاظا على التاريخ الصحيح. وقد صدر في هذا الصدد: كتاب "التحريف والتزيف في كتاب حياة كفاح للأستاذ محمد الطاهر فضلاء سنة 1982(*)"، وكتاب "صراع بين السنة والبدعة أو القصة الكاملة للسبط بالإمام الرئيس عبد الحميد بن باديس" للشيخ أحمد حماني، وكتاب: "مذكرات" للشيخ محمد خير الدين، وكذا كتاب الكفاح القومي والسياسي من خلال مذكرات معاصر للأستاذ عبد الرحمن بن العقون سنة 1984(**).

والمهم أن هؤلاء جميعا تعرضوا إلى هذه المسائل بآليات ما ورد في سجل مؤتمر جمعية العلماء المسلمين الجزائريين وأكدوا أنه قد تم سنة 1931م للعلماء المسلمين تحقيق ما عسروا عند سنة 1924م، وهو تأسيس "جمعية العلماء". وذلك:

أولاً: لأن الدعوة إلى تأسيسها قد استمرت من على منبر "المنتقد" ثم "الشهاب"، فمنذ أن نشر النداء الأول إلى تأسيس حزب ديني محض، أصبح هذا الحزب محل نقاش واقتراح وتحليل وعرض لوجهات النظر، بل تعداه إلى أنه أثار جوا من التفكير في الجزائر لم يشهد لها مثيلا، فقد بعث بين الجزائريين نقاشا وانتقادا ذاتيا وحركة ملفتة للانتباه في تتبع العلماء لنشر مقالاتهم المتتالية ثم ما تثيره من ردود ثم الرد عليها، كما كانت الجماهير تتابع هذه المعركة الفكرية في نشوة لكن أيضا في وعي كبير سمح به ذكاء إدارة "الشهاب" التي كانت توجه ذلك بحكمة بليغة بنشرها مقالات تستهدف إثارة النخوة الدينية والروح الوطنية، والدعوة إلى العلم الصحيح ونيل الحرفات وكذا الدعوة إلى قراءة الجرائد والمجلات العربية، ثم مقالات أخرى تشرح مبادئ الإسلام وتعاليمه مع

(*) نعرض الأستاذ محمد الطاهر فضلاء في كتابه إلى مختلف المسائل بالتحليل والرد والتعليق، وقد سرد وقائع الندوة التي طالب بها هو نفسه لمناقشة ما ورد في كتاب "حياة كفاح" للمدني في القسم الثاني منه (1925-1954). وقد حدث مكان الندوة بالمركز الثقافي الإسلامي بالجزائر العاصمة بتاريخ: الأحد 16/04/1978م. وقد استمرت من الساعة السابعة مساء حتى الثانية بعد منتصف الليل، ويبدو أن الأستاذ المدني قد سكت عن الرد عن هذه القضايا أو كان رده غير متنع، كما يقول فضلاء.

انظر حينيات الندوة في: التحريف والتزيف في كتاب حياة كفاح، (قسنطينة، دار البعث، 1982م). ص 25-46.

(**) هذه الكتب مصادر ومراجع في هذا البحث.

دعوة مستمرة للعلماء المصنحين إلى نبذ الضمت والمبادرة إلى العمل. وكانت غاية الجماعة الباديسية في ذلك الوقت على ما يبدو، التعبئة العامة للعلماء والجاهلير حول الإصلاح باستنهاض الهمم والإقناع المادى الرصين. وقد عبر تساؤل "مبارك الميني" في العدد المباشر من "المنتقد" عن هذا الحر النشيط: في مقال له عنوانه "هل نحن في بداية نهضة؟" (1) وقد دفع إلى ذلك غبطته المزدوجة أولاً بتطويع إرهابات عودة الحس الاجتساعي لمواظبي، ودخول الفكرة الدينية التي نمتها هنا الفكرة الإصلاحية ويجسدها مشروع تأسيس حزب ديني محض من جديد في المجتمع الجزائري، ثم غبطته في تقارب وجهات النظر بين مختلف الاتجاهات حول دبرادة الحركة والتجديد والفرار من النزوية الخرافية إلى المكاتب العلمية. ومن الخيارات الحتمية إلى مواطن أكثر طهارة وفائدة. (2).

ثانياً: لأن احتفال الفرنسيين بمرور مائة عام على احتلالهم للجزائر، قد جعلوا منه احتفالاً لانتصار المسيحية على الإسلام وتغلباً للجيرش الفرنسية على ما سموه بالشعوب البربرية الرابضة على ضفاف المتوسط. فالبرغم من عدم عموم هذه النظرة بين كل الفرنسيين والاحرار منهم خاصة كما يتسبر إلى ذلك بو الصفصاف (3) فيكفي كونها وجهة النظر الرسمية فقد بدأ الإعداد لهذه الإحتفالات مع بداية العشرينات، وخصصت لها المبالغ المالية الضائلة قدرت بأكثر من الثمانين مليوناً من الفرنكات (4) كما صاحبها إجراءات استفزازية وعدائية مهينة للشعب الجزائري، حيث كانت التساميل تقام في مختلف المدن الجزائرية تخليداً لذكرى قادة الإحتلال وساسته (*) بالإضافة إلى التصريحات المتعصبة للفرنسيين ومنها تصريح "موريس فيوليس" "Maurice Violette" القائل

(1) انظر: المنتقد، ع 10، المؤرخ - : الخميس 11 صفر الموافق لـ: 3 سبتمبر 1925م.

(2) مالك بن نبي، شروط النهضة، مرجع سابق، ص 25.

(3) عبد الكريم بو الصفصاف، المرجع السابق، ص 88-89 بتصرف.

(4) أحمد توفيق المدني، كتاب الجزائر، مرجع سابق، ص 09.

(*) أقام الفرنسيون تمثالاً للجنرال بوتان Butain في دالي ابراهيم... في القرب من الجزائر العاصمة... كتبوا عنه "الرجل الذي جعلنا نتمكن من الانتقام لشرف أوروبا وللاسمانية جمعاء من مدينة الجزائر، وجعل الجزائر فرنسية إلى الأبد" وأقاموا تمثالاً آخر للجنرال "لامورسيار" "LAMORICIER" في مدينة قسنطينة، وهما التمثالين لقيادة سيم لاندستروم وتذكير لقوة المستعمر على الشعوب، سيم، عبد الكريم بو الصفصاف، المرجع السابق، ص 89.

بأن: «مرور مائة عام على تحرير الدول البربرية حادث عظيم يجب أن يحيى ذكره بكل فخر» (1). وجاء على لسان أحدهم: ليس الداعي الأكبر لهذه المهرجانات هو الاحتفال بمرور مائة سنة على احتلالنا للجزائر فهذا أمر بسيط وله عواقب معروفة... ولكن الباعث الأعظم على هذا هو أننا دعوناكم لتمشوا معنا في جنازة الاسلام بالجزائر... (2).

وإمعانا في استفزاز الجزائريين فقد أعاد الفرنسيون أثناء هذه الاحتفالات ذكرى جيوش الاحتلال بلباسها وموسيقاها⁽³⁾ بهدف تذكيرهم بالخسارة التي منيوا بها على يد هذا الجيش تم إقامة جدار فوق ضريح "سيدي فرج" الذي كان أول ما هدمه الفرنسيون بعد نزولهم للجزائر، وأكثر من ذلك أنهم أقاموا مؤتمرا دينيا كاثولوكيا في العاصمة في 5 جويلية 1930م وجمعوا له القسس والرهبان من كل مكان، لضرب الدين الإسلامي واللغة العربية بل والتعرض إلى شخص الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم بالسوء من الصفات⁽⁴⁾. وصرح فيه كبير الأساقفة بالجزائر في خطاب له. قال فيه: «إننا لا نحتفل اليوم بمرور مائة سنة على احتلال فرنسا للجزائر وإنما نحتفل بدخول المسيحية من جديد إلى افريقيا الشمالية» (5). فكان شعور الجزائريين جميعا دون استثناء شعور من احتقر احتقارا لم ينل مثله أي شعب من شعوب الأرض» (6).

والواقع أن الاحتفال المثوي الذي أرادت به فرنسا قبر الجزائر الإسلامية إلى الأبد، كان هو نفسه عودة أر بالأحرى ميلاد للجزائر الإسلامية إلى الأبد. وهذا الكلام لا يستند إلى رصيد من العاطفة الوطنية بقدر ما يستند إلى رصيد من الحقائق والشهادات والوقائع. وذلك لاعتبارات كثيرة منها أنه تم للجزائر إعداد عشرات الطلبة خلال الثورة التعليمية

(1) عبد الكريم بوالسلف، المرجع السابق، ص 87 .

(2) آثار محمد البشير الإبراهيمي، مصدر سابق، ج4، ص 348.

(3) توفيق المدني، كتاب الجزائر، مرجع سابق، ص 70-71.

(4) توفيق المدني، حياة كذا، مرجع سابق، القسم الثاني، ص 171.

(5) محمد نبر الدين، المصدر السابق، ص 110.

(6) المرجع السابق، ص 170. وذلك على لسان أحد الأئمة من الذين استدعتهم إدارة للاحتفال للمشاركة في الاحتفال.

التي قادتها جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، فضلا عن الثورة الاصلاحية التي امتدت إلى مختلف المناطق تبث الوعي وتحارب الفساد والثورة الصحفية... وهو ما سنتعرض إليه بالتفصيل في الفصول اللاحقة. والمهم أن هذه الاحتفالات وإن لم تكن السبب المباشر كما جعلها بعض المؤرخين لميلاد جمعية العلماء⁽¹⁾، فقد كانت المبرر المحفز، وإن لم تكن الدافع في إنشاء الجمعية فقد كانت أئمن فرصة لدعاة الاصلاح لكي تؤول بهم جمعية العلماء واقعا ملموسا بعد أن كانت مشروعاً. ولم يخطيء من قال أنها عجلت في إنشائها⁽²⁾. بل وتقدمت بالقضية الجزائرية عموماً عشرين سنة على الأقل⁽³⁾.

III - القانون الأساسي لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين^(*)

تعد الشهور الأربعة الأولى بعد نشر الدعوة إلى تأسيس "الحزب الديني المحض" بداية من نوفمبر 1925م وحتى فيفري 1926م حاسمة في تحديد الخطوط الكبرى للقانون الأساسي لجمعية العلماء⁽⁴⁾ فيما بعد، وقد وردت بشأنه رسائل كثيرة للتأييد، وضعت كل منها لبنة فيه وتصور له، وكانت أولها رسالة الطيب العقبي⁽⁵⁾ ثم رسالة مولود الحافظي⁽⁶⁾ ثم رسالة مبارك الميلي⁽⁷⁾... الخ. وبعد النصف الأول من سنة 1931م حاسما أيضا في إخراج الجمعية "الحلم" من رحم النقاش والتحليل والتصوير إلى الواقع الملموس، وقد تمثل ذلك في مبادرة "عمر إسماعيل" الذي اقترح على إدارة الشهاب وعلى رأسها ابن

(1) أمثال توفيق المدني فقد جعلها السبب المباشر لإنشاء جمعية العلماء حسبما يرويه. حيث دفعته للتفكير حديدا في انشائها.

(2) المطبقي، المرجع السابق، ص 75. (نقلا عن الشيخ حمزة بوكوشة في مقابلة شخصية للمؤلف معه).

(3) عبد الكريم بوالصنصان، المرجع السابق، ص 91.

(*) القانون الأساسي، أنظر الملحق رقم 10.

(4) ALI MERAD, Le Réformisme Musulman en Algérie, Op Cit, pp124-125.

(5) نشرتها جريدة الشهاب في عددها السادس المؤرخ بـ 6 ديسمبر 1925م.

(6) نشرتها جريدة الشهاب في عددها التاسع المؤرخ بـ : الخميس 21 جمادى الثانية 1344 هـ الموافق 1926/01/7 وكانت تحت عنوان : "حول اقتراح تأسيس حزب ديني إصلاحي".

(7) نشرتها جريدة الشهاب في عددها 14 المؤرخ بـ : الخميس 28 رجب الفرد 1344 هـ الموافق 1926/02/11م وكانت تحت عنوان : "التنظيم الديني بالجزائر وحفظ الزوايا عنده".

باديس، إعادة الدعوة " إلى تأسيس جمعية العلماء والترم بدفع ألف فرنك كجائزة لمن يوفق من العلماء لتأسيسها، وبوضع ألف فرنك أخرى في كيس الجمعية بمجرد الإعلان بها والفراغ من تنقيح قانونها الأساسي >>(1). وقد نشرت "الشهاب" النداء تحت عنوان: >>هل من حازم يوفق لتأسيس جمعية العلماء؟ فينال جائزة مالية مع تخليد ذكره؟. وصفه عبد الرحمن بن العقون : >> بالنداء التاريخي الهادف >>(2). وقد شفعه أسلوب ابن باديس الذي كان >> يحمل في ثناياه ايجابيات الاقتراح وفوائده بكل أبعادها المرجوة، إن كان التوفيق حليفا، كما ينوء تعذيرا من سلبات العمل بكل سيئاتها إذا كان الفشل عريفا >>(3). وختم ابن باديس نداءه بدعوة العلماء إلى العمل مباشرة بقوله : >> إلى العمل أيها العلماء المتنورون فهاهي أمتكم تنشد معونتكم ونعرتكم الدينية وإلى اللقاء أيها الموفق إلى تأسيس الجمعية المنشودة في إدارة الجمعية نفسها بحول الله >>(4).

وكلف عمر اسماعيل نفسه برئاسة لجنة تأسيسية تتولى جرد العلماء ودعوتهم إلى الاجتماع بنادي الشرفي في تاريخ محدد(*) حسب علي مراد(5). وتم فيه إقرار القانون الأساسي الذي أعده الإبراهيمي قبل الجلسة التمهيدية، الذي يقول بهذا الصدد: >> فأملنا تأسيس الجمعية في شهر مايو بعد أن أحضرنا لها قانونا أساسيا مختصرا من وضعي، أدرته على قواعد من العلم والدين لا تثير شكاً ولا تخيف >>(6). ثم توالى الجلسات التأسيسية مدة أربعة أيام كان من نتائجها اختيار المجلس الإداري الأول للجمعية المتمثل في:

- الأستاذ عبد الحميد بن باديس: رئيسا

- الأستاذ محمد البشير الإبراهيمي: نائبا

-
- (1) مجلة الشهاب، ج1، م7، غرة رمضان 1349هـ الموافق ل: 5/02/1931م .
(2) عبد الرحمن بن العقون. الكفاح القومي والسياسي من خلال مذكرات معاصر، الفترة الأولى 1920-1936م (الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب، 1984م)، ج1، ص 179.
(3) المكان نفسه.
(4) الشهاب ، المصادر السابق.

(*) حدّد يوم الاحتجاج الثلاثاء 17 ذو الحجة 1349هـ الموافق ل: 5 ماي 1931م على الساعة الثامنة
(5) ALI MERAD, Le Réformisme Musulman en Algérie, Op Cit, p 128.
(6) المطبقاني، المرجع السابق، ص 79. (نقلا عن مقال "للإبراهيمي" في مجلة مجمع اللغة العربية بالقاهرة).

- الأستاذ محمد الأمين العمودي: كاتباً

- الأستاذ الطيب العقبي: معاونه

- الأستاذ مبارك الميللي: أمين المال

- الشيخ ابراهيم بيوض: نائبه.

بالإضافة إلى الأعضاء المستشارين: المولود الحافظي، مولاي ابن الشريف، الطيب المهاجي، السعيد البحري، حسن الطرابلسي، عبد القادر القاسمي، محمد الفضيل اليراتي(1). كما تم تعيين لجنة العمل الدائمة، التي كانت من سكان العاصمة(2). مهمتها التنسيق بين جميع الأعضاء وحفظ الوثائق والميزانية والتحضير للاجتماعات الدورية للمجلس الإداري(3).

وبعد إنهاء التنظيمات الإدارية وتوزيع المهام والمسؤوليات على أعضاء الجمعية، أصبح عليها لكي تباشر العمل الحصول على ترخيص رسمي من الإدارة الفرنسية وهو ما تقدمت به حسب الأصول القانونية المعمول بها في ذلك الوقت، وجاءت موافقة الإدارة بتاريخ 22 ماي 1931م، ثم أعلن التصريح بها رسمياً - في الجريدة الرسمية الفرنسية - محدداً أهدافها في: محاربة الآفات الاجتماعية وكل ما يجرمه صريح الشرع وينكره العقل وتحجره القوانين..

وقد وقف بعض الكتاب عند سرعة موافقة الإدارة فقال عنها أحمد الخطيب "«أنها جاءت بصورة سريعة ومفاجئة من دار العمالة»(4). وقال سعد الله: «و جاءت الموافقة بعد خمسة عشر يوم فقط من تقديمه»(5). ويعلق "الخطيب" بأن الحقيقة في ذلك تكمن في أن الإدارة الاستعمارية لم تجد بمن تحتج به من أية فئة معارضة وقد كانت تعلم

(1) يذكر روبر آجرون - مخطأ - بأن المجلس كان يضم أيضا توفيق المدني أنظر:

Charles Robert Ageron, histoire de l'Algérie contemporaine, Op Cit, p86

(2) وهم السادة: عمر بيمانيل، محمد المهدي بن شعيب، آيت أحمد عبد العزيز، محمد الرمولي، الحاج عمر العنق وكان اختيارهم من العائمة أو من ضواحيها لضرورة العمل بالمركز الذي يتطلب من يباشره باستمرار.

(3) أبو القاسم سعد الله، الحركة الوطنية، مرجع سابق، ج3، ص 88.

(4) أحمد الخطيب، جمعية العلماء وأثرها الاصلاحى في الجزائر، مرجع سابق، ص 112.

(5) المرجع السابق، ص 87.

وقائع الإعداد والتأسيس، وأنها قد قدّرت أن تكثيف تواجد الموالين لها - من الطرفين - في الجمعية سبيل لاستغلالها أو الهيمنة عليها، - كما سنبينه لاحقاً - وربما يكون أيضاً لاعتدال أهداف الجمعية المصرح بها وخاصة إعلانها الابتعاد عن المسائل السياسية. والحقيقة أن رجال الإصلاح قد أعدّوا واستعدّوا لكل هذه المسائل ضماناً أو لا لظهور الجمعية وثانياً لمباشرة نشاطها وتحقيق أهدافها في ظروف ملائمة، ويخطيء من يتجاهل الأهداف الحقيقية للجمعية أو الظروف الصعبة التي ظهرت فيها والتي تطلبت منها الفطنة والذكاء في التحضير.. ومنها مثلاً أن العلماء:

1- إختاروا العاصمة مقراً بدلاً من قسنطينة مهد النهضة ومنبعها، والراجح هو لكونها مقر السلطة الإدارية الفرنسية وفيها "نادي الترقّي" (1). الذي كان وراء ظهور الجمعية مادياً، وحتى تكون فعلاً - في الظاهر على الأقل - كما يقول "سعد الله" ممثلة لجميع القطر وليس للمصلحين فقط (2).

2- أعدوا القانون الأساسي قبل الجلسة التمهيدية (3). كما ذكر الإبراهيمي وقدموه للمجتمعين قصد إقراره وفعلاً فقد أقرّ بالإجماع بعد إعلانه.

3- انهم أعدّوا قائمة بأسماء أعضاء الهيئة الإدارية وقدموها للانتخاب بطريقة الاقتراح وليس بالطريقة السريّة أو العلنية وذلك لتوافق هذه على الترشيح تم لاعتبارات أخرى لاحظها علماء الجمعية، يذكر "عبد الرحمن بن العقون" أن مرادهم يقضي بأن همّة المشايخ والعلماء لا تسمح لهم ترشيح أنفسهم، ومنهم أيضاً الغائبون (4). لكن الحقيقة تكمن فيما يبدو في حرص المصلحين على أن لا تفلت الجمعية من أيديهم بعدما أعدوا لها طويلاً وخاصة منهم "فريق الشهاب" كما يسميهم "علي مراد" (5) والتي قد تذهب معها الأهداف الإصلاحية التي أسسوا الجمعية لتحقيقها.

(1) يبقى نادي لترقي كمنبر رسمي لجمعية العلماء منذ 1931م حتى 1946م حيث اشترت الجمعية مقراً حديداً في الجزائر العاصمة، انظر: محب- علي دبور، نهضة الجزائر، مرجع سابق، ج1، ص 99.

(2) أبو القاسم سعد الله، -ركعة الوطنية، مرجع سابق، ج3، ص 88.

(3) هذا فضلاً عن إعداد "الإبراهيمي" للقانون الأساسي للجمعية منذ 1924م الذي سبقت الإشارة إليه.

(4) عبد الرحمن بن العقون، المرجع السابق، ج1، ص 189 (الهامش).

(5) Ali Merad, Le Réformisme Musulman en Algérie, PASSIM.

4 - أنهم انتخبوا الشيخ "ابن باديس" في غيابه لرئاسة الجمعية، ورغم رفضه لها، الأمر الذي لم يكن كما يذكر "المدني" >> لأنه كان يفكر في موقف والده» (1). وهو ما سلم به بوالصفاصاف: أيضا (2). إذ لم يكن هناك ما يدل على معارضة والده له، ثم إن ابن باديس كان يقود الحركة الإصلاحية أكثر من عشر سنوات قبل ذلك وكان والده يسانده في ذلك (3). ولكن الحقيقة أن انتخابه يعود إلى وصفين كانا فيه وقد ذكرهما بنفسه في خطبة قبوله للرئاسة وهما أولا : لأنه كرس حياته للتعليم وفي انتخابه رمز إلى تكريم التعليم وإظهار له كأهم مقصد من مقاصد الجمعية وحث لجميع الأعضاء على الغاية منه. وثانيا: لكونه من دعاة التفاهم بالحكمة وتعامله على أساس الأخوة الإسلامية» (4).

5 - إن غياب الشيخ ابن باديس عن حضور الجلسة التأسيسية في يومها الأول والثاني (5) كان من تدبير جماعة الإصلاح أنفسهم وذلك ضمانا لنجاح المشروع وتفويت الفرصة عن الإدارة الفرنسية للكيد له - المشروع - نظرا لشخصية ابن باديس (6) ثم لنشاطه في ميدان التعليم والتسحافة على رأس فرقة "الشهاب" قبل ظهور الجمعية. وبالإضافة إلى هذا فإن رجال الإصلاح، وإمعانا منهم في الحرص على المولود الجديد قد انتهجوا سياسة التفاهم مع السلطة من جهة ومهادنة الطرفين من جهة أخرى، فقد بدأت بدعوة ميرانت "Miraint" مدير الشؤون الأهلية لحضور الحفل - الذي أقامته اللجنة التحضيرية على شرف الضيوف في نهاية أشغالهم - ورئاسته لكنه اعتذر (7)، ثم

(1) توفيق المدني، حياة كفاح، مرجع سابق، القسم الثاني، ص 179.

(2) أنظر: عبد الكريم بوالصفاصاف، المرجع السابق، ص 96.

(3) المطبقاني، المرجع السابق، ص 80.

(4) مجلة الشهاب، ج 6، م 7، المؤرخ ب: غرة صفر 1350 هـ الموافق لـ جوان 1931 م. بتصرف. انظر نص الخطبة كاملا ص 351-356 منها.

(5) وفي خطبته للمجتمعين في اليوم الثالث طلب منهم وخاصة من أعضاء الجمعية أن يعذروه تأسيسا بالرسول صلى الله عليه وسلم حين عذر أبا خبيصة لما تخلف عن غزوة تبوك ثم لحق به.

(6) أحمد حماني المصدر السابق، ص 240. ويقول بأن محمد خير الدين - الذي حضر وقائع التأسيس وهو عضو في جمعية العلماء حدثه بأن ذلك بتواطؤ مع شخصيا مضيئا ما ورد أعلاه.

(7) عبد الرحمن بن العتوم، المرجع السابق، ص 193.

عقد ابن باديس بعدها لسلسلة من الاجتماعات للجماعة ولإعلان مبادئ الجمعية "الميرانت" نفسه وبعض المسؤولين الفرنسيين، ونال لها منهم الاستحسان والتشجيع (1). وقد كان يمكن للجمعية أن تضم رجال الإصلاح فحسب لكن اقتضت حكمتها أن تضم إليها أصوات المحافظين والطيقيين بل وأن تقلد بعضهم بعض المناصب الإدارية في الجمعية (2) وذلك تفويتنا للفرصة على سلطة الاحتلال بالتذرع لحلها بجهة معارضة وخاصة من طرف الموالين لها من بين الطرفين الذين لم يكن أمرهم خافيا على رجال الجمعية. ومن ثمة فقد كانت جمعية العلماء منذ ظهورها وطيلة نشاطها - كما سوف نرى - تناور وتعامل ما وسعت رجالها الحيلة والمناورة - دون التنازل على المبادئ - وقد اختارت طريقا محفوفًا بالأخطار والمزالق استدعى اجتيازه السير على حبل رقيق أو على البيض كما يقول سعد الله (3). ولولا ذلك التكتيك الذكي والواعي من رجال الإصلاح - والذي جعلها محل نقد ممن لم يفهموا حقيقة خطتها، لم يكن مستبعدا أن تكون الإدارة الفرنسية قد حلتها وقضت عليها في مهدها (4).

والمهم أن الجمعية آلت إلى رئاسة عبد الحميد بن باديس، وتقلد رجال الإصلاح فيها أهم المناصب. ونشأت الجمعية والحكومة لا تدري ماذا تصنع ولا تعرف بماذا تقابلها (5).

وإذا كان الكلام عن جمعية العلماء خلال الثلاثينات هو في الواقع كلام عن ابن باديس - رحمه الله - كما يقول سعد الله (6)، نظرا لشخصيته الفذة، وبساطته المثالية وتواضعه الجَمِّ الذي ساعد على توحيد كلمة المؤسسين وجمع شملهم، ثم لعلمه ومكانة عائلته، فإنه كان يقاسمهم في ذلك الفضل علماء أفاضل الذين وإن لم تتوفر فيهم كل الخصائص التي ميزته، فإن إخلاصهم وصرامتهم وقف وراء إخراج جمعية العلماء إلى

(1) نبيل بلاسي، المرجع السابق، ص 53.

(2) منهم ابن عليوة، المراءود الحافظي الأزهري، الخ.

(3) أبو القاسم سعد الله، الحركة الوطنية، مرجع سابق، ج 3، ص 99.

(4) المرجع نفسه، ص 96.

(5) توفيق المدني، حياة كفاح، القسم الثاني، مرجع سابق، ص 26.

(6) المرجع السابق، ص 89.

الوجود، ويتعلق الأمر بالشيخ "البشير الابراهيمي" الذي خلف ابن باديس في رئاسة الجمعية بعد وفاته 1940م وحتى سنة 1956م. وقد كان زميله في قيادة الحركة الإصلاحية السلفية، ورفيقه في نشر الدعوة وفي التعليم والإرشاد، ثم الشيخ الطيب العقبي (1890 - 1960م) والشيخ مبارك الميلي (1898 - 1945م)، والشيخ أبو اليقظان (1888 - 1973م)، والعربي التبسي (1895 - 1957م) والأمين العمودي (1890 - 1957م) وأمثالهم، والذين رابط كل منهم على فرع من فروع الجمعية عبر تراب القطر الجزائري يمد الجمعية بالنشاط الدائم ويسد عنها الثغرات دون الأعداء، ويساهم كل بطريقته في بعث وإيقاظ الجزائريين لكي يطالبوا بحقوقهم، ويأخذوا مكانهم في الحياة الكريمة وتخليص الدين من الخرافات وبناء الكيان الجزائري ومد مشروع النهضة العربية الإسلامية في الجزائر.

ويهمنا في التحديث عن القانون الأساسي لجمعية العلماء المواد التالية :

1- الفصل الثالث: لا يسوغ لهذه الجمعية بأي حال من الأحوال أن تخوض أو

تتدخل في المسائل السياسية.

2- الفصل الرابع: القصد من هذه الجمعية هو محاربة الآفات الاجتماعية كالخمر

والميسر والبطالة والجهل وكل ما حرّمه صريح الشرع وينكره العقل وتحجره القوانين الجاري بها العمل.

3- الفصل الخامس: تنذرع الجمعية إلى غايتها بكل ما تراه صالحا نافعا غير مخالف

للقوانين المعمول بها، ومنها أنها تقوم بجولات في القطر في الأوقات المناسبة.

4- الفصل السادس: من حق الجمعية أن تؤسس شعبها في القطر. وأن تفتح

نوادي ومكاتب حرة لتعليم الابتدائي.

الفصل الثاني عشر: يعتبر عضوا كاملا كل من يحمل لقب "عالم" ويسكن

القطر الجزائري، دون تفریق بين الذين تعلموا بمدارس الحكومة، وبين الذين تعلموا في معاهد إسلامية.

وتكشف القراءة المتعمقة في مواد القانون الأساسي أنه صيغ فعلا كما قال

الابراهيمي بطريقة قائمة «على قواعد من العلم والدين لا تثير شكاً ولا تخيف» (1).

(1) الشهاب، ج 5، م 7 المورخ ب. نوبرم 1350 الموافق ماي 1931م.

والمقصود أنها لا تشير شكوك الإدارة ولا تخيف الطرقيين بضياغ سلطانهم، واقتضت الحكمة بالتالي أن تنشأ الجمعية في ظروف من الوئام والمصلحة العامة وكان هذا هو هدف الحركة الإصلاحية منذ العشرينات في « هو تجنب الضوضاء أو اتارة النعرات سواء منها السياسة التي تثير أحقاد المستعمرين أو الدينية التي تمزق كلمة المسلمين »(1). وقد كان ذلك أمراً حيويًا ومصيريًا بالنسبة للجماهير الجزائرية وتنفيس عنها ليرد الاعتبار وبعث الأمل فيها خاصة بعد الاحتفال المتوي ثم المؤتمر الكاثوليكي. ومن ثمة نلاحظ مادة عدم الخوض في السياسة على رأس مواد القانون السياسي، فكانت لفترة ذكية لطمأنة إدارة الاحتلال واستجلاب لرضائها في الترخيص للجمعية في إعطائها الصفة القانونية حتى تباشر أعمالها تحت حماية القوانين الجاري العمل بها، وقد تلت هذا التكتيك دعوة للسيد مدير الشؤون الأهلية كما رأينا لحضور حفلة التأسيس وترأسها، وقد نجحت الجمعية بذكاء في هذه القضية وجاءها الترخيص القانوني بعد خمسة عشر يوماً فقط (2).

وكان إعلان الجمعية لغايتها الأولى بصراحة ووضوح فيما يخص محاربة الآفات الاجتماعية كالخمر والميسر والبطالة والجهل، وكل ما يحرمه صريح الشرع وينكره العقل. « وقد تضمنت العبارة الأخيرة تلميحاً إلى الطريقة التي كانت تشارك في تأسيس الجمعية »(3). فكل ما يحرمه صريح الشرع يكون الاتفاق عليه بالاجماع بين المصلحين والطرقيين لكونهم مسلمين بطبيعة الحال، لكن مقصود رجال الإصلاح في " ما ينكره العقل " يشمل البدعة التي ينشرها شيوخ الزوايا ويروجون لها في خرافات من الأفعال والسلوكات.

ويظهر الهدف العلمي الشامل في الفصل السادس بأن للجمعية الحق في أن تفتح نوادي ومكاتب حرة للتعليم الابتدائي، ثم إن الفصل الخامس يسوغ للجمعية التذرع

(1) عبد الرحمن بن العتوم، المرجع السابق، ص 164.

(2) أبو القاسم سعد الله، الحركة الوطنية، مرجع سابق، ج 3، ص 87.

(3) أحمد الخطيب، جمعية العلماء المسلمين الجزائريين وأثرها الإصلاحي في الجزائر، مرجع سابق، ص 114.

بكل الوسائل للوصول إلى غايتها، وبكل ما تراه نافعا وصالحا. ومنها أن تقوم بجولات في القطر الجزائري وفي الأوقات التي تراها مناسبة.

ويلاحظ من القانون الأساسي أن جمعية العلماء قد استعملت لغة فيها سيادة حقيقية واستقلالية كاملة، وخالية من التوسّل والمطالبة، التي تتضمن معنى الاعتراف بالاحتلال والخضوع لقوانينه والتي لا تتفق ومنطق الرغبة في السيادة والاستقلال، إذ كيف نعمل للاستقلال مثلا ونطالب المحتل بفتح المدارس، وسائر الحقوق الأخرى، ويبدو من ممارسة الجمعية لمواد قانونها - وحتى قبله - شروعا في فتح المدارس الحرة تحت إشرافها وبرامجها وعلمائها، وبمال الشعب الذي فتحت لتوعيته وبعثه، وجمعية العلماء بهذا وإن كانت صرحت بالنشاط ضمن القوانين الجاري بها العمل إلا أنها وبكياسة وحنكة عرفت كيف تستغل القوانين(*) غير المعلن عنها لصالحها فتسوّع لنفسها فرصة المبادرة في حرية أداء مهامها في التعليم بفتح المساجد، وفتح المدارس وحرية الوعظ والإرشاد ثم خاصة حرية التنقل في كل ربوع القطر الجزائري وفي كل الأوقات التي تقدّرها هي مناسبة، وقد نبّه "ابن باديس" زملاءه في العديد من الخطب إلى أن أعمال الدينية والاجتماعية توفر - لهم كثيرا من الحرية، متى عرفوا تكييف تلك القوة وطرق استغلالها(2)، لكن يحول دون ذلك تقاعسهم وتشتتهم واختلافهم.

ولكي تجلب الجمعية لنفسها حقها من الاحترام والتقدير، ثم لكي تضطر الإدارة الاستعمارية نفسها لتحسب لها ولأعضائها ما يلزم من التوقير، فإنها لم تسمح بحق العضوية فيها إلا لكل من يحمل لقب عالم أو المشهود له بالعلم في منطقتة وسواء في ذلك المتخرج من المدارس الحكومية أو من المعاهد الإسلامية الأخرى، - مع اعتبار مفهوم العالم عند الجمعية .

(*) وخاصة قانون الأندلس الذي مازال ساري المفعول حتى ذلك الوقت ويبدو بالتالي أن الجمعية نسخت العمل به في حقها بنفسها دون المطالبة السريجة بإلغائه وهو ما كانت الإدارة ستفضيه رفضا باتا وقد كان ذلك ستركها مع بقية الأحزاب التي طالبت بذلك.

(2) عبد الرحمن بن العتقون، المرجع السابق، ص 177 بتصرف. (نقلا عن خطبة لابن باديس).

ويبدو واضحا أن الجمعية قد استغنت عن أية معونة مادية من إدارة الاحتلال. وراحت تذكر بكل ذكاء وفي عدة مناسبات بأنها عن طريق تحقيق أهدافها التهذيبية فإنما بذلك هي التي «تعين فرنسا على تهذيب الشعب وترقيته ورفع مستواه إلى الدرجة اللاتقة بسمعة فرنسا ومدنيتها وتربيتها للشعوب وتثقيفها»⁽¹⁾. وواضح أن أسلوب "ابن باديس" هنا ليس تقريرا لواقع وإنما هو غمز صريح لسياسة التجهيل، وفيه ترويض تدرجي لسلطة الاحتلال حتى يضمن للجمعية استمرارها، ويذكر في هذا الصدد بسلوك الفرنسيين الدعائي في الأيام الأولى للاحتلال الذي هدفوا منه إلى جمهرة الجزائريين بقصد الوصول إلى مآربهم والحصول على عدم مقاومتهم للجيش الفرنسي أو بسكوتهم. وبهذه الاستقلالية المادية ترفع يد الحكومة وإدارتها للشؤون الأهلية عن التدخل في شؤون المسلمين الدينية والعلمية الخاصة بالمساجد والمدارس الحرة، أي التي تبنيها الجمعية بأموال الجزائريين.

ومع ذلك فإن نصّ القانون الأساسي لم يستمر بهذه الليونة إلا إلى نهاية السنة الأولى من عمر الجمعية، فقد مرّ بعدها إلى أسلوب أكثر صراحة ووضوح في التوجه لأداء المهام التي كانت هي الأهداف البعيدة الحقيقية "للجمعية العلماء". وقد تمّ لها ذلك «بفضل حكمة رئيسها الأول "ابن باديس" وحسن تصريفه للأموال»⁽²⁾ وكذا فطنة زملائه العلماء وصرامة مواقفهم التي تمثلت في :

أولاً: تفويت الفرصة على إدارة الاحتلال في أن تتعرض للجمعية، فهادئوها وسالموها، وعاملوها بالمرونة والحيلة بدعوة ممثلها ثم إطلاعها عن طريق جلسات مجاملة عن أهمية الجمعية وأهدافها التي تعمدوا فيها عدم الإفصاح عن أبعادها الحقيقية. كما تعمدوا تأكيد عدم معاداتها للسياسة خاصة بالمفهوم الاستعماري لها طبعاً، يقول سعد الله: «وقد كان المصلحون من جهتهم عارفين بنوايا الحكومة، ولذلك أخفوا في

(1) عبد الرحمن بن العقرن، المرجع السابق، ص 259، بتصرف، (نقلا عن خطبة لابن باديس، وقد ذكر المعنى نفسه ثلاث مرات في الخطبة نفسها). أنظر: المرجع نفسه، ص 260 و 261.

(2) ALI MERAD, Le Réformisme Musulman en Algérie, Op Cit, p 132.

البداية أهدافهم البعيدة وسالموا خصصهم إلى أن لم يعد هناك مجال للمسالمة(1). ويقول نبيل بلاسي بأن الجمعية لم تنشأ أن تفصح عن نواياها إلا تدريجياً(2). ومن ثمة فإن لم تنل الجمعية من إدارة الاحتلال الرضا الكامل فقد ضمت لنفسها الضوء الأخضر والمرور بسلام.

ثانياً: تفويت الفرصة على رجال الزوايا في النيل من الجمعية بتحويلها مطية لأغراضهم الطرقية بايعاز وتخطيط من الإدارة الفرنسية نفسها التي انتدبتهم لحضور الاجتماع العام لمساندة المشاغبين والدفاع عنهم في تحقيق مكيدتهم بالاستيلاء على الجمعية، وطرد العلاء من إدارتها(3) لكن هؤلاء استطاعوا إنقاذ الجمعية وانتهت فتنة الطرقيين التي سماها "خير الدين" "بالمكيدة الفاشلة" (4) بانتصار الباديسيين بانتخاب مجلس إداري جديد(5). وانسحب الطرقيون وكونوا جمعية "علماء السنة" تحت قيادة مولود الحافظي(*) وابن عليوة(**) كما أصدروا جريدة "الإخلاص" في 14 ديسمبر 1932م إلى جانب جريدة "البلاغ الجزائري" الصادرة منذ 1926م. وما فتئت الجريدة أن اندثرت مع جمعيتها حيث لم تستمر "الإخلاص" في الصدور إلا لمدة عام أو أقل 1933م.

(1) أبو القاسم سعد الله، الحركة الوطنية، ج3، مرجع سابق، ص 89.

(2) أحمد نبيل بلاسي، المرجع السابق، ص 61.

(3) محمد خير الدين، المصدر السابق، ص 133.

(4) المصدر نفسه، ص 122، وللإطلاع على حينات هذه المكيدة ومديرها يرجح الرجوع إلى المصدر نفسه، ص 112-117. وكذا إلى عبد الرحمن بن العقون، المرجع السابق، ص 242 و245.

(*) المولود بن السيد الحافظي الأزهرى، فقيه، كاتب، صحفي ولد بضواحي سطيف تعلم بمسقط رأسه ثم انتقل إلى الأزهر الشريف. كان من أنصار "جمعية العلماء" ثم انفصل عنها وأسس جمعية "علماء السنة" في 1932م تولى رئاسة الجريدة الناطقة باسمها "الإخلاص". انظر: عادل نويهض، المرجع السابق، ص 118 بتصرف.

(**) ابن عليوة: هو أحمد بن عليوة المستغامي، تعلم بمسقط رأسه ثم هاجر إلى الشرق الأدنى وتقل طويلاً بين مصر وإيران وسوريا والمدة عشرة سنوات. عاد إلى الجزائر بعد الحرب العالمية الأولى وأخذ يبيث أفكاره. أصدر جريدة "البلاغ الجزائري" وأنشأ زاوية خاصة به. وكان له أتباع كثيرون. وترك آثاراً دينية عديدة. انظر المرجع نفسه، ص 367 بتصرف.

قال سعد الله نقلاً عن "بيرك" BERK بأنه كان خطيباً وسيد القلم والحرف، لكن معاصريه شهدوا بأيمته أن ما ينسب إليه كان من إنشاء أتباعه. انظر: الحركة الوطنية، ج2، مرجع سابق، ص 417-418. ويذهب المدني أيضاً إلى تأكيد أيمته.

(5) Ali Merad, Le Réformisme Musulman en ALgérie, Op Cit, p 312.

وقد كانت سنة 1932م -- ليس فقط سنة للشرعية القانونية للإصلاح السلفي في الجزائر، لكنها سجلت أيضا بداية العمل المنظم والمؤطر عبد القطر الجزائري فقد بدأت الجمعية تكشف تدريجيا عن أهدافها البعيدة -- عمليا -- والتي لم تصرّح بها من قبل وخاصة منها عدم معاطاة السياسة والتي قصدت منها -- للإشارة -- السياسية بمفهوم الاحتلال الذي يلزمه القانون الفرنسي الخاص بالجمعيات الدينية على هذه الأخيرة بمنعها من التدخل في هذا المجال (1) ولكي توضح الجمعية موقفها إزاء هذه القضية قام ابن باديس بتوضيح أصول دعوة الجمعية في ماي 1937م ثم نشرها في كتيب مع القانون الأساسي مما يؤكد أنه امتداد له أو كأنه شرح وتفصيل للقانون الأساسي نفسه ومما جاء فيه:

1- الاسلام هو دين الله وضعه لهداية عباده، وأرسل به جميع رسله، وكمله على يد نبيه محمد صلى الله عليه وسلم الذي لا نبي بعده.

2- الاسلام هو دين البشرية الذي لا تسعد إلا به وذلك لأنه :

أولا: كما يدعو إلى الأخوة الإسلامية بين جميع المسلمين. يذكر بالأخوة الإنسانية بين البشر أجمعين.

ثانيا: يسوّي في الكرامة والحقوق الإنسانية بين جميع الناس بلا أدنى تمييز.

ثالثا: لأنه يفرض العدل فرضا عاما بين جميع الناس بلا أدنى تمييز.

رابعا: يدعو إلى الإحسان العام.

خامسا: يحرم الظلم بجميع وجوهه وبأقل قليله من أي أحد على أي أحد من الناس

سابعاً: ينشر دعوتـه بالحجة والإقناع لا بالختل والإكراه... الخ (2).

وقد تعجب أحد الكتاب الفرنسيين من عدم نشر هذه المبادئ منذ البداية، ولكنه

أشار إلى أن أصول دعوة الجمعية كانت مبتوتة في صحافة الجمعية منذ تأسيسها. وكل ما

حدث أنها جمعت في كتيب واحد (3).

(1) Ali Merad. Le Réformisme Musulman en Algérie, op Cit, p 133 .

(2) انظر الملحق رقم 11 : دعوة وأصول جمعية العلماء المسلمين الجزائريين.

(3) المطبّقاني، المرجع السابق، ص 87 (نقلا عن :

والحقيقة أن هذا التعجب يدفع إليه التوجه الجريء والصريح لجمعية العلماء في الميدان السياسي الذي تعدت نفيه في قانونها الأساسي وقد قصدت منه ما شرحناه سابقا - في تلك الفترة بالذات -، وقد كان توجهها في الميدان السياسي محل نقاش وأخذ ورد بين كتاب فرنسيين وكذا بين بعض الجزائريين أنفسهم. ويبدو أن هذا النقاش لم يكن موضوع الساعة في وقته فحسب وإنما امتد حتى بعد الاستقلال ويتعلق الأمر بالجزائريين المهتمين بهذه القضية وقد شمل الأهداف الحقيقية لجمعية العلماء، وهي القضية التي نقف عندها في ما يلي:

عبد القادر للعلوم الإسلامية

أهداف وغايات جمعية العلماء المسلمين الجزائريين

قد كفى بعض الكتاب والباحثين(*) الوقوف عند بعض مواد القانون الأساسي لجمعية العلماء وكنا دعوتها وأصولها بالتحليل للتعرف على بعض أهداف الجمعية من خلالها، لكن تحليلهم قد أخذ بعض على غير محمله البريء، واستقلوا به أهداف الجمعية بما قصروها على الهدف الديني البحت أو التعليمي والإصلاحي لكنهم تغاضوا عن دورها السياسي عموماً وخاصة دورها في حرب التحرير الكبرى.

ومن الثابت أن جمعية العلماء التي أعلنت في قانونها الأساسي بأنها وجدت لمحاربة الآفات الاجتماعية، كالجهل وكل ما يجرمه صريح الشرع وينكره العقل، لم تتأخر عن الميدان السياسي(1) - عملياً - ثم عن بيان موقفها منه بصراحة ووضوح عبر دورس روّادها وعلى صفحات جرائدها. وقد كان من المفترض أن لا يخف مقصود الجمعية من تعمدتها عدم الإعلان عن اهتمامها بالسياسة عن المسلمين الجزائريين المثقفين. ولكن الذي حدث أن عاب العدد منهم على الجمعية تدخلها في مناقشة وبيان مواقفها إزاء القضايا السياسية التي كانت تشهدها الجزائر في تلك الفترة، وهو ما أشارت إليه صحافة الجمعية وردّت عليه في وقته وتابعت نشاطها الشامل مع ذلك. وإذا جاز لإدارة الإحتلال متابعتها ومناقشتها للنشاط السياسي للجمعية فمن منطلق أغراضها الاستعمارية - التي حرمت السياسة على الجمعيات الدينية، وكانت هذه هي "الثغرة" التي تذرعت بها جمعية العلماء - وصرحت بأنها دينية فحسب، حتى تضمن لنفسها الترخيص الرسمي، وهي وإن انطلقت من الدين كمنهاج للتغيير، فمن مفهوم الإسلام الذي يشمل الدين والدولة وهو الذي لا يترك أي مبرر للكتاب أو الباحثين الجزائريين للتساؤل حول هذه القضية في حق الجمعية، لأنها قضية مسلمة في منطوق الإسلام(**).

(*) من هؤلاء أصحاب بعض مراجع هذا البحث.

(1) صلاح العقاد، المرجع السابق، ص 28. بتصرف.

(**) نستحق هذه القضية أن تبحث من كثير من الجوانب، وقد بينت الباحثة وجود الكثير من الدلائل عبر مصادر الجمعية ووسائلها التي هي موضوع هذا البحث للإحاطة حول هذا الموضوع.

ومن جهة أخرى فإنه إذا أجاز للكتاب الفرنسيين(*) من جهتهم تتبع ومناقشة هذه القضية، فمن منطلق منطلقهم العلماني الذي يقضي بالفصل بين الدين والسياسة، ثم إن الإدارة التي كانت تدعى العلمانية فإنها كانت تقصد منها المسيحية واليهودية فحسب لكن تعاملها مع الإسلام لم يكن يخضع لذلك المنطق البتة حيث كانت تضع يدها على المساجد والأئمة بعد ما تم لها الاستيلاء على الأوقاف الإسلامية وتحويل أموالها لخدمة مشاريعها الخاصة بمصالح الكولون فقط دون الجزائريين أصحاب هذه الأوقاف أصلاً.

لقد كان الهدف البعيد لجمعية العلماء مذ ظهرت إلى الوجود هو تحرير الجزائر من قبضة الاحتلال الفرنسي، وقد كان عملها لتحقيق هذا الهدف مخططاً على استراتيجية شاملة، تتبع فيها كل مأسسة معول الاستعمار بالهدم، بالبناء وإعادة إلى الحياة من جديد. وبعبارة أخرى، تكريس الانفصال عن الاحتلال من كل وجوهه المتسلسلة في المقومات الأساسية للشعب الجزائري - للإنسان الجزائري - وهي مقومات كل شعب يريد لنفسه مكانة لائقة بين الشعوب الأخرى. ولكون هذا الهدف، عامل مشترك في تحقيقه بين الوسائل المختلفة التي سندرسها لاحقاً لأنه في الواقع قراءة بين سطور كل وسيلة منها على حدة، فكان التوفيق عنده له ما يبرره.

١- لماذا سمّي جمعية العلماء المسلمين الجزائريين؟

بناء على رأي الشيخ الإبراهيمي: « أن هناك نوعان من المتعلمين في الجزائر خلال العشرينات، وينسحب قوله على ما فترة الثلاثينات: أولاً العلماء، أولئك المتقنون الذين كانوا واعين سياسياً ولهم اتجاه إصلاحية، والثاني: قليلو الثقافة الذين لهم اتجاه ديني والذين خرجوا من الزوايا الخلية وغيرها من المراكز الدينية، وقد اصطُح عنى تسميتهم بالمخافطين (1). ولما كان من الصعب أن يعي "المخافطون" حقيقة أهداف الجمعية البعيدة ناهيك أن ينادوا بها أو يعملوا لتحقيقها خاصة منهم الموالون لإدارة الاحتلال - وهم الأئمة الرسميون وكثير من شيوخ الزوايا - كان على الجمعية أن تخلص إدارتها للمصلحين

(*) من هؤلاء: نيبارمي Desparmet، أندري جوليان André Julien وغيرهما ممن سنورد فيما بعد

(1) أبو القاسم سعد الله، الحركة الوطنية، مرجع سابق، ج2، ص 411.

فحسب وهم الذين يعون مساحة الصراع بين الاستعمار الفرنسي والشعب العربي المسلم في الجزائر ومن ثمة العمل بكل الطرق والوسائل للانفصال عنه.

وقد نوّه ابن باديس بعلماء الجزائر وعرفّ بخصائصهم بقوله: «> من حظّ الجزائر السعيد، ومن مفاخرها التي تتيه بها على الأقطار أنه لم يجتمع في بلد من بلاد الإسلام فيما رأينا وسمعنا وقرأنا مجموعة من العلماء وافرة الحظ من العلم، مؤلفة القصد والاتجاه، مخلصّة النية، متينة العزم، متحابّة في الحق، مجتمعة القلوب على الإسلام والعربية، قد ألف بينها العلم والعمل، مثل ما اجتمع للجزائر في علماتها الأبرار، فهؤلاء هم الذين تروي بهم زنادي، وتأتّل بطارفهم تلادي...» (1).

ويشير ابن باديس من جهة أخرى في خطاب له قال فيه: «> إن العلماء هم قادة الأمة ومبعث هداها، ومصدر سعادتها وموضع احترامها وعزتها وشرفها» (2).

ويشرح في مقال له: المراد من الكلمة القرآنية: «> أولو الأمر» الذي أوجب الله طاعتهم على المؤمنين فقال: قيل هم العلماء وقيل هم الأمراء من المسلمين. والصحيح أنهم العلماء والأمراء معاً، ويضيف مبيناً. فالعلماء يصدق عليهم "أولو الأمر" الذين يعيشون أمر الله بطرائق العلم المقررة، والأمراء يصدق عليهم أولوا الأمر لأنهم ينفذونه بحمل الناس عليه مما جعل الله لهم من سلطان... ولا يستقيم الحال إلا بوجود الطائفتين» (3). ومفهومه أن المقصود من الأمراء هم الحكام عموماً. ولما كانت الجزائر تحت قبضة الاحتلال الفرنسي وسلطة حكامه، فمراد ابن باديس هو أن علماء الجمعية هم المؤلفون لقيادة الأمة المسلمة الجزائرية أولاً بوصف كونهم علماء الأمة وهو التقدير الأول لمعنى أولي الأمر ثم لافتقاد الجزائريين إلى حكام منهم يسوسونهم ويذودون عنهم فكانوا في الوقت نفسه علماء الأمة وحكامها.

(1) عبد الحميد بن باديس، مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير، مصدر سابق، ص 476.

(2) الشهاب، ج 1، م 7، المؤرخ بد غرة رمضان 1349هـ الموافق ل: 5 فيفري 1931م.

(3) آثار الإمام عبد الحميد بن باديس، رئيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، (الجزائر، مطبوعات وزارة الشؤون

الدينية، 1991م)، ج 5، ص 422.

ويبين محمد خير الدين أحد أعضاء الجمعية البارزين، بأن جمعية العلماء ليست فردا أو أفرادا، وإنما هي جمعية الأمة يعمل لتزقيتها ونشر مبادئها علماء الأمة، ويقصد بهم: «كل عضو عامل، عارف بعقائد الدين مستقل الفكر، غيور على الإسلام أن تعبت به أهواء المبتدعة، وتشكيكات الملاحدة، وخزعبلات المضللين، وعلى فضائله أن تهجر وعلى تاريخه أن يطوى ويقبر...» (1). ويبدو أن هذه الصفات والخصائص ردة على كل الذين أعطوا لأنفسهم حق تمثيل الأمة الجزائرية من طرفين وجماعة النخبة الفرنسية وعملاء الاحتلال كلهم، وهو ما لا يجعلهم أهلا لذلك أساسا لأنهم لا يمثلون مبادئها ولا يذودون عن مقوماتها.

ويقول ابن باديس في مقال آخر تحت عنوان: «المسألة مسألة الأمة كلها لا مسألة جمعية العلماء وحدها» بأن ما «تشعر به الجمعية كجمعية هو ما تشعر به الأمة كلها، كأمة تدين بالإسلام وتنطق بلغة الإسلام، فكانت الجمعية - لهذا - في كل ما تقوم به، إنما تنطق بلسان الأمة كلها، تعرب عن نفسياتها، وتعمل بيدها...» (2). وتوضح "البصائر" موقف الإسلام من مشاركة العلماء في السياسة فتقول: «...وهكذا فالإسلام لا يحجر على العلماء التدخل في أي شأن من الشؤون العامة كما يزعم البعض في هذه البلاد. بل هم أولى من غيرهم بذلك، وهم رعاة الأمة المسؤولون... وتضيف... وبعد فهل كان العلماء في كل أمة وعصر إلا قادة الفكر والسياسة والدين؟» (3).

وقد تعجب ابن باديس من الذين ينكرون على علماء الدين - علماء الجمعية - مشاركتهم في السياسة فوجد الأنظار إلى أن الأمم الأخرى ومنها الأمة الفرنسية نفسها التي لم تنسج النساء من نسج المفسدة تتدخلا: وهن خلت الأناغيتية الفرنسية من آثار القسيس رشيبيو...» (4).

(1) محمد خير الدين، المصدر السابق، ج1، ص 149 (عن خطبة له في الاجتماع العام لجمعية العلماء في 1935م).

(2) آثار الإمام عبد الحميد بن باديس، المصدر السابق، ج5، ص 392-393

(3) عنوان المقال: واجب العلماء في المجتمع: هل يحجر الإسلام التدخل في الشؤون العامة؟، البصائر، ع 43 السنة الأولى، المؤرخ به: الجمعة 28 شعبان 1355هـ الموافق ل: 13/11/1936م.

(4) المطبقاني، المرجع السابق، ص 84. (نقلا عن جريدة الصراط النسوي ع 15).

وبناء على ما تقدم فإن مسمى جمعية العلماء المسلمين الجزائريين هو هدف في حد ذاته وهو رأس الأهداف في تكريس مفهوم الانفصال عن الإحتلال الفرنسي، وبيان المؤهل بين الجزائريين لتمثيل الأمة الجزائرية ووضع الأمور بين أيدي أصحابها الحقيقيين الذين سيحققون ذلك الانفصال، فلا مجال بعد أن باشرت جمعية العلماء عملها الرسمي للمهاترات الحزبية وملهاة التمثيل النيابي، والانتخابات التي مازادت الجزائريين إلا ابتعاداً عن جوهر قضيتهم وكرست التفريق بينهم بل أهلكت الأموال والذمم، فعلماء الجمعية هم علماء الأمة، الأوعى بآلامها وآمالها، والأعلم بمساحة الصراع الحقيقي بين الاستعمار الصليبي والشعوب الإسلامية (1). ومن ثم فهم الأعراف بحلول أزمتها، والأحرص على مصالحها كلها. وهم بعد هذا وذاك الأقرب إلى حقيقة مشاعرهم والأولى في تمثيلها لأنهم أكبر من الشبهات في الدفاع عن مقوماتها.

ثم إن مسمى جمعية العلماء المسلمين الجزائريين هو من ناحية أخرى الشعار الثلاثي الذي حملته الجمعية وأعلنت عنه في صحافتها وضمنته دروسها التعليمية وخطبها المسجدية والعامية، والتي عمل العنماء لأجلها ولم يخرجوا عن إطاره وهي : >> الإسلام ديننا، العربية لغتنا والجزائر وطننا << التي تكفي للتعبير عن مفهوم الانفصال التام والشامل عن الإحتلال الفرنسي وضرب موجة مباشرة لكل مشاريعه الخاصة بالاندماج والفرنسة، والتفريب التي كانت روح مضامين الحلم الفرنسي باقتراح وتطوير بذور الدعوة إلى الحضارة الجزائرية والثقافة الجزائرية (2). ولذلك خرجت الجمعية عن التلميحات الحذرة والعمومية إلى التصريحات الواضحة في أبيات زعيمها الأول :

شعب الجزائر مسلم	وإلى العروبة ينتسب
من قال حاد عن أصله	أو قال مات فقد كذب
أورام يدمجها له	رام الخال من الطَّنب (3)

التي تبدو فيها غاية الجمعية القومية الشاملة حيث التركيز على الانتماء الديني للشعب

(1) مالك بن نبي، شروط النهضة، مرجع سابق، ص 22. بتصرف.

(2) المطبقاني، المرجع السابق، ص 87. نقلا عن : (Abdelhamid Ben Badis و André Dirlik)

(3) أنظر القصيدة في جريدة البصائر، ع 71، السنة الثانية المؤرخة بـ 1937/06/18م.

الجزائري المسلم والتحديد لانتسابه القومي إلى العروبة لا يجيد عنها، ولا يمكن إدماجه في كيان غير كيانه الطبيعي لأنه شعب عربي مسلم(1).

2- موقف إدارة الاحتلال وكتابتها من النشاط السياسي لجمعية العلماء:

يدرك الاحتلال الفرنسي من البداية أن عواطف الأمة الجزائرية المسلمة، وطموحاتها إنما تعكس حقيقتها ويترجم هويتها علماء الدين الذين يحملون لواء الجهاد ويدافعون عن الإسلام. وقد أكد ذلك تقرير فرنسي مؤرخ في 14 جانفي 1850م جاء فيه : <> إن هذه الأمة نستقي من القرآن الكريم قانونها السياسي والعسكري <>(2).

وعليه فإن إدارة الاحتلال كانت تعلم حقيقة أهداف الجمعية، وتقدر خطرها على مستقبل الوجود الفرنسي في الجزائر، كما أنها كانت تتابع نشاطها وتراقب تحركاتها عن طريق التقارير السرية التي كانت تزي عليها من مختلف المناطق الجزائرية من طرف ممثلي الإدارة الفرنسية أو من طرف عملائها من الجزائريين. وقد جاء في تقرير لمتصرف فج مزالة قوله : <> وعلى الرغم من أنها (الجمعية) تدّعي أنها غير سياسية فإنها نواة للأحزاب الوطنية وقاعدة ينمو فوقها الشعور الوطني <>(3). ولذلك فقد واجهت العلماء ومن ثمّ الجمعية بالاضطهاد والنفي والمتابعة والسجن، كما أنها سارعت إلى القضاء على الجمعية منذ ميلادها وذلك عن طريق الكثير من القرارات والقوانين الإدارية البحتة خاصة وأنها كانت تتأكد يوما بعد يوم أن <> ازدياد نفوذ العلماء هو الخطر الحقيقي على السيادة الفرنسية لأن هدفهم هو تكوين الإنسان المسلم <>(4). وقد عدّ الشيخ خير الدين منها:

(1) أحمد الخطيب، جمعية العلماء المسلمين الجزائريين وأثرها الإصلاحي في الجزائر، مرجع سابق، ص 118.

(2) صالح فركوس، نحو تأصيل إسلامي لتاريخ الجزائر، مشروع فرنسا الصليبية والمجاهدة الإسلامية (الجزائر، دار الكونتر، 1991م)، ص 79-80

(3) المطبقاني، المرجع السابق ص 83. نقلا عن وثيقة فرنسية رسمية عنوانها:

L'Algérie du demi-siècle, vue des autorités locales, Gouvernement général, l'Algérie Janvier 1954.

(4) المكان نفسه، نقلا عن الوثيقة نفسها.

- 1- أصدر وزير الداخلية الفرنسي قانونا بتعطيل جريدة "السنة" لسان حال جمعية العلماء.
- 2- أصدر كاتب عمالة الجزائر ميشال Michel قرارا بمنع الشيخ العقبي داعية الإصلاح في الجزائر العاصمة من إلقاء دروسه الدينية العادية في مساجد العاصمة وضواحيها.
- 3- إعادة التذكير بالأوامر والقرارات السابقة التي تمنع تعليم القرآن وتعليم الدين الإسلامي، واللغة العربية إلا برخصة من السلطة المحلية.
- 4- مطالبة الشيخ عبد الحميد بتقديم رخصة بمزاولة التدريس للطلبة بالجامع الأخضر، مع أنه كان يقوم بهذا التعليم منذ سبعة عشر سنة خلت ولم يطلب إليه تقديم مثل هذه الرخصة سابقا.
- 5- لجأ المستعمرون إلى تجنيد عملائهم لترويج إشاعات ضد رجال الحركة الإصلاحية.
- 6- وكان آحر المكائد هي محاولة حل الجمعية والاستيلاء عليها لصالح الطرفين⁽¹⁾.

وبالإضافة إلى ذلك فقد كانت الصحافة الاستعمارية من جهتها تتابع نشاط الجمعية وكذا الكتاب الفرنسيون يتأكدون ثم يؤكدون الهدف السياسي البعيد للعلماء، فقد جاء في مقال لإحدى الجلات الفرنسية المتخصصة «بأن التوجه السياسي للجمعية كان دائما مستترا خلف التفكير الديني المرن فإنهم (العلماء) لم يناقشوا الأمور السياسية علنا، لكن مساعدتهم السرية كانت حاسمة في حالات كثيرة»⁽²⁾. كما يؤكد كاتب غربي آخر من جهته بقول: وبالرغم من التصريحات المختلفة التي تنفي وجود أهداف سياسية توحي بأن اهتمام المصلحين بالأهداف القومية كان ضعيفا، ولكن يجب رفض

(1) محمد خير الدين، المصدر السابق، ج1، ص 11..

(2) المظفاني، المرجع السابق، ص 84. نقلا عن :

هذه الفكرة لا لأنها غير صحيحة بل لعدم فهم الدوافع النفسية وراء الإصلاح الإسلامي (1).

وقد جعل "ريشموند" "Richmond" المحافظة على الشخصية الجزائرية الإسلامية هدفا لجمعية العلماء بالرغم أن قانونها الأساسي لم ينص على ذلك صراحة ويقول: «> بل إن الحركة الإصلاحية عملت على تحقيق ذلك منذ نشأتها مستدلا بالمقالات الكثيرة الداعية إلى المحافظة على الذاتية الجزائرية بالإضافة إلى المدارس التي كانت تعلم تلاميذها من أول يوم شعار العلماء المعروف "الإسلام ديني والعربية لغتي والجزائر وطني» (2).

ويرى "جوريف ديارمي" "Joseph Desparmet" : أن هدف الجمعية يتمثل في فهم لغة القرآن والعودة إلى الثقافة الإسلامية القديمة واعتبار المغرب العربي كقلعة للعبقرية الشرقية في وجه الغرب وتصفية وتبسيط الدين الإسلامي (3). ولم يخرج المؤرخ "أنديري جوليان" "Ch. André Julien" عن هذه النظرة نفسها فالعلماء في نظره «> كانوا يعملون لتطهير الإسلام وتكوين كيان جزائري قائم على الثقافة العربية الإسلامية» (4).

والمسألة هنا ليست في اتساق الكتاب الفرنسيين على أن لعلماء الجمعية هدفا سياسيا بعيدا سواء أرادوا ذلك صراحة أو لم يريدوه كما يقول سعد الله، لكن الأهم من ذلك هو وعي بعض هؤلاء أنه لا فرق في نشاط جمعية العلماء بين السياسة والدين، وإنما هما سواء عندها فقد جعلت المحافظة على المقومات الأصيلة للشعب الجزائري بداية من الدين واللغة العربية طريقا تصل به إلى تكريس الانفصال واقعا ومن ثم تحقيق السيادة الذاتية للإنسان المسلم الجزائري الذي سيقود معركة الانفصال السياسي والعسكري فيما بعد.

(1) المطبقي، المرجع السابق، ص 84 نقلا عن :

- Leon Carl Brown, The Islamic Reformist : Movement in North Africa. The Journal of Modern African Studies.

(2) المرجع نفسه، ص 85 نقلا عن :

- F. de Richmond, Les Ulémas Algériens Réformistes, La nouvelle Revue française d'outre Mer.

(3) أبو التاسم سعد الله، الحركة الوطنية، مرجع سابق، ج 3، ص 91 (نقلا عن ديارمي القادة، مجلة أفريقيا الفرنسية)

(4) المكان نفسه، نقلا عن :

(Ch. André Julien. L'Afrique en marche)

لكن الذي يلاحظ هو أن الكتاب الجزائريين يفرقون بين الهدف الديني والهدف السياسي للجمعية وفي هذا تكريس للمفهوم العلماني ويذهب بعضهم إلى تبرير اهتمام الجمعية بالسياسة بتوفر الفرصة، ويبدو أن كلامهم عن السياسة هنا يتمثل المفهوم الغربي لها والمتعلق بالمفهوم الحزبي، والتمثيل النيابي والانتخابات. يقول الدكتور سعد الله مثلا : <<أن العلماء خلال الثلاثينات قد وجدوا أنفسهم أحيانا وسط العواصف السياسية فلم يسعهم إلا ركوبها إما لأنهم يبحثون عن حلفاء داخل التيارات المحلية، وإما لأن الإدارة ضيقت عليهم الخناق، فلم يبق أمامهم سوى الصراع المباشر، وإما لأن الفرصة كانت مواتية كما حدث في المؤتمر الإسلامي فأرادوا أن يجربوا حظهم ويخوضوا في أحداث الوقت مع الخائضين: ويضيف: << وإذا كان العلماء عامة قليلي التجربة بالسياسة، بل وتعوزهم العقلية السياسية فإن شخصية كابن باديس والعقبي كانت تتوفر على كثير من عناصر القدرة والذكاء والطموح وهي جميعا من مقومات رجل السياسة >>(1).

ويتساءل المطبقاني فيقول: << والسؤال الذي يطرح نفسه هنا: هل كان العلماء مؤهلين ليقودوا المعارك السياسية بالمعنى الاحترافي والحزبي؟. ثم يجيب: << يبدو من دراسة الحركة الإصلاحية ورجالها أن بعضهم كان مؤهلا لذلك إذ دخلوا المجال السياسي دون أن يعترفوا بالسياسة، لأنهم كانوا يرون أن اللعبة السياسية التي أدخلها الفرنسيون إلى الجزائر تسير على قاعدة كسب الأصوات في الانتخابات دون الالتزام بالمبادئ الأخلاقية. ويضيف: ومع ذلك فإن العلماء أيدوا بعض السياسيين وكانوا أشد خطرا في نظر السلطات الفرنسية من السياسيين المحترفين >>(2).

ويبدو أن المطبقاني يعترف بأن مفهوم السياسة كما أرادها الاحتلال هي "العبة" وأن دخول ميدانها يقتضي التخلي عن المبادئ الأخلاقية، لكن مع ذلك فقد جعل العلماء يؤيدون بعض السياسيين المحترفين، وإن كان من المنطقي أن تكون نتيجة تحليله تأكيد لدخول علماء الجمعية ميدان السياسة، مادام البعض منهم كان مؤهلا لذلك دون احتراف للسياسة في الأساس. ومع أن منطوق عبارات المطبقاني قد تحمل محملا غريبا عن مبادئ

(1) أبو القاسم سعد الله، الحركة الوطنية، مرجع سابق، ج3، ص 94.

(2) المطبقاني، المرجع السابق، ص 85.

جمعية العلماء، فإنه يجب التأكيد على أن القول بأن علماء الجمعية قد اضطروا إلى ركوب العواصف السياسية على حد تعبير سعد الله غير صحيح إذ وعينا حقيقة هدفهم في الانفصال عن النظام الاستعماري كلاً وهو ما عبّر عنه ديارمي "بتحضيرهم للمعركة الفاصلة"⁽¹⁾ والتي حمل العلماء لواءها منذ العشرينات وانجذبوا بها إلى ميدان التعليم والنظام، وتخلوا بالتالي عن فكرة حرب العصابات، والذي نتج عنه "الضمير الجديد"⁽²⁾ الذي هو في تقديري العاصفة الكبرى التي تهوى دونها كل العواصف السياسية الأخرى وخاصة منها قضية الانتخابات، لأن غاية الجمعية لم تكن تبديها في مجموعة مطالب تنتهي إلى وعود لا تتحقق، وإنما هي العمل على <<فصل الجزائر عن فرنسا تحت علم الوطنية>>⁽³⁾. وهي العاصفة الحقيقية التي ركبوها اختياراً وعن تخطيط وتقرير وعمل متواصل. وأما عن حضورها المؤتمر الإسلامي سنة 1936م الذي وصفه مالك بن نبي من جهته "بالاخراف" و"بالإنتهازية السياسية" وكذا "بالخطوة الخاطئة". فإن مقصود بن نبي على ما يبدو أن السياسة ميدان جديد على الجمعية دخلته فكان الاخراف. وإنما أخذه عليها مجاراتها لسياسي ذلك الوقت بما فيه تنازها شيئاً ما عن قداسة منهجها وأهدافها البعيدة بالاشتراك في تقديم مطالب هي تعلم حق العلم أنها لا تتحقق أبداً. ولذلك تساءل قائلاً: فبأي غنيمة أرادوا أن يرجعوا بها من هناك، وهم يعلمون أن مفتاح القضية في روح الأمة لا في مكان آخر؟⁽⁴⁾.

وقد تبّت فيما بعد أن مقصود الجمعية لم يكن في العودة بغنيمة لا من ناحية الاحتلال الفرنسي بالاستجابة للمطالب، ولا من ناحية كسب الأصوات في الانتخابات وإنما هو شيء آخر يدخل ضمن ما صرحت به الجمعية في الفصل الخامس من قانونها الأساسي بالتذرع للوصول إلى غايتها بكل ما تراه صالحاً ونافعاً للجزائريين^(*).

(1) أبو القاسم سعد الله، الحركة الوطنية، مرجع سابق، ج2، ص 408.

(2) المكان نفسه.

(3) المرجع نفسه، ص 420، تيّلا عن (ديارمي، العلماء الجزائريون، مجلة الجديدة الفرنسية لما وراء البحار).

(4) مالك بن نبي، شروط نهضته، مرجع سابق، ص 26 بتصرف.

(*) انظر القانون الأساسي للجمعية، الملحق رقم 10.

وقد استغلت المؤتمر الإسلامي بالذات لتحقيق غاية قدرها العلماء نافعة للجزائريين في ذلك الوقت بالذات: >> فالمؤتمر الإسلامي حدث هام جدا في الجزائر، كما يقول سعد الله باعتبار أنه أول تجمع من نوعه في الجزائر (التي) لم تعرف طيلة أكثر من قرن تجمعا تبرز من خلاله وحدة الصّف والكلمة على مطالب معينة مثل ما حدث في المؤتمر المذكور >>(1). وقد كان هذا في حدّ ذاته مؤشرا لشيء ما إزاء الإحتلال الفرنسي نفسه. هذا من جهة، ومن جهة أخرى فقد كان المؤتمر فرصة ثمينة حيث >> تعرفت الجماهير الجزائرية من (خلاله) على خلفيات الكثير ممن كانوا يتصدّرون ويتزعمون المخافل السياسية باسم الجماهير والدفاع عنها وهم في نواياهم وتحركاتهم اندماجيون لا يؤمنون بالشخصية الجزائرية >>(2). وهم الذين قصدهم ابن باديس في مقال له عنوانه: "كلمة صريحة" يقول فيه: >>... فما من متكّم في أي مناسبة من المناسبات إلا ورفع عقيرته مدّعيًا بأنه إنما يمثّل الأمة الإسلامية قاطبة في هذه البلاد.. ولو أنهم اقتصروا في القول ولم يلجوا باب الغلو والإسراف. وقالوا: إننا نتكلم باسم الفريق الذي انتخبنا، أو باسم الهيئة التي تنتمي إليها، أو باسم الجماعة التي نحن منها أو باسم الذين يشاركوننا في الرأي والتفكير، لكان قولهم أصوب، ورأيهم أفضل وكلامهم أقرب إلى نفوس السّامعين من رجال الحكومة ومن رجال الشعب >>(3).

ثم إن ابن باديس قد أعلن بنفسه أن الهدف من وجوده كعضو في المؤتمر الإسلامي إنما هو ضمان للشخصية الجزائرية إذ أن المطالبة ببرنامج بلوم-فيوليت Blum-Violette يجب أن لا يتحول إلى مستروع يهدر مقومات الشخصية الوطنية، ومن ثمّ فإن ابن باديس لم يحاول كما حاول غيره تخدير الشعب الجزائري والتأكيد على أن >> مطالب المؤتمر هي أقصى انتصار يمكن الحصول عليه، بل دعا الشعب إلى الاستعداد لمعركة أشق وأشد

(1) أبو القاسم سعد الله، الحركة الوطنية، مرجع سابق، ج3، ص 161.

(2) محمد الطيب العلوي، المرجع السابق، ص 140.

(3) الشهاب، ج1، م 12 المؤرخ بد غرة محرم 1355هـ، الموافق لـ أبريل 1936م، أنظر أيضا آثار ابن باديس، ج5،

مصدر سابق، ص 292.

ضراوة >> (1). وذلك في خطابه للشعب الجزائري بعد عودته من باريس عام 1936م مباشرة. وقال : أيها الشعب إنك بعملك العظيم الشريف برهنت على أنك شعب متعشق للحرية هائم بها، تلك الحرية التي ما فارقت قلوبنا منذ كنا الحاملين للوائها وسنعرف في المستقبل كيف نعمل لها، وكيف نحيا لأجلها. إننا مددنا إلى الحكومة الفرنسية أيدينا وفتحنا قلوبنا، فإن مدت إلينا يدها وملأت بالحب قلوبنا فهو المراد، وإن ضيقت فرنسا فرصتها هذه فإننا نقبض أيدينا ونغلق قلوبنا فلا نفتحها إلى الأبد...

أيها الشعب، لقد عملت، وأنت في أول عملك، فاعسل ودم على العمل وحافظ على النظام، واعلم أن عملك هذا على جلالته ماهر إلا خطوة ووثية وراءها خطوات وثبات وبعدها إما الحياة وإما الممات (2).

كما أن الجمعية قد استغلت "المؤتمر الاسلامي" لإعلان اليأس التام من فرنسا وذلك بالنسبة للجماهير الجزائرية عامة، وأيضا بالنسبة لممثلي الأحزاب السياسية التي كانت تأمل في تحقيق سلطة الاحتلال لعودها، وقد شرح ابن باديس ذلك في مقال له تحت عنوان: هل آن آوان اليأس من فرنسا؟. الذي ختمه بقوله : >> أيها الشعب الجزائري، أيها الشعب المسلم، أيها الشعب الأبوي، حذار من الذين يمنونك ويخدعونك، حذار من الذين ينومونك ويخدرونك، حذار من الذين يأتون بوحى من غير نفسك وضميرك، ومن غير تاريخك وقوميتك، ومن غير دينك وملتك وأبطال دينك وملتك، استوح الإسلام ثم استوح تاريخك، ثم استوح قلبك، اعتمد على الله ثم على نفسك >> (3).

إن التعابير الجديدة على أسماع الشعب الجزائري التي تعمدتها ابن باديس في خطبه مثل : >> وبعدها إما الحياة وإما الممات >> وكذا >> استوح تاريخك، ثم استوح قلبك. اعتمد على الله ثم على نفسك >> وغيرها هي ليست >> مجرد نسق لفظي اقتضاه مقام

(1) محمد المبلي، ابن باديس وعروبة الجزائر. مرجع سابق، ص 25

(2) الفقرات مأخوذة من نص الخطاب الذي ألقاه الشيخ عبد الحميد بن باديس في اجتماع 2 أوت 1936م بالمغرب البلدي بالجزائر العاصمة. نفس خطب القبايات الحزبية الجزائرية لتقديم نتائج رحلة الوفد الاسلامي الجزائري إلى فرنسا وقد نشرت "البصائر" رفائع الاجتماع تحت عنوان "اجتماع عظيم لم يسبق له نظير"، ع 31، السنة الأولى. المؤرخ ب : الجمعة 19 جمادى الأولى 1355 هـ، الموافق ل : 07 أوت 1936م.

(3) الشهاب، ج 6، م 13 المؤرخ ب. غرة جمادى الثانية 1356 هـ الموافق ل : 07 أوت 1937م.

الحماس لكنه تجسيم لـ"ثقافة عميقة وتعبير عن فهم دقيق لضخامة المعركة وأبعادها" (1). ثم إن مقال "هل آن أوان اليأس من فرنسا سنة 1937م بالذات تأكيد على أن مقصود مشاركة الجمعية في "المؤتمر الإسلامي" سنة 1936م، إنما هو وقوف واقعي لليأس من فرنسا ومن ثمّ فهو نتيجة تدعيم خط السير في طريق الثورة وطريق المغامرة والتضحية حسب تعبير "محمد الميلي" الذي يضيف : "وقد ظل كثير من السياسيين والوطنيين حتى عام 1954م يعتبرون أن طريق الثورة هو "طريق المغامرة" (2)، وبداية من هذه المرحلة ستألف أسماع الجساهير الجزائرية التبشير والدعوة إلى مثل هذه العبارات التي كانت في حد ذاتها تمهيداً لنفسها لها لهذه الثورة -المغامرة- لاحقاً.

وعليه فإن جمعية العلماء كانت تعي مذ نشأت، ومذ أن بدأ علماءؤها نشاطهم، أن طريق التحرر من قبضة الاحتلال الفرنسي محفوف بالمزالق والعراقيل، التي تتمثل في مشاريع الإدارة الفرنسية في إطار حملة شاملة للقضاء على الكيان الجزائري ومسح تاريخه وانتماؤه، وعن طريق برامج ووسائل مختلفة فكان أن بنت حملتها المضادة في إطار مشاريع وبرامج وكذا وسائل تعمل لإعادة ترسيخ والمحافظة على الكيان الجزائري ضمن مقوماته الشخصية، وهو ما فرضه منطق الأمور ومعطيات الأحداث. فلم يكن كفاحها ضمن قائمة مطالب مختلفة، أو ضمن شعارات مجردة قبل إعداد كفاءات التفاعل معها وكذا إعداد من يتفاعل بها، فإذا كانت عبارة المطالبة بالاستقلال خطوة سياسية جريئة ورهيبية فإنها لم تكن لتجد من ينفعل بها إذا لم يعد لأجلها شعب يعي معناها ومقتضياتها، يعرف مقوماته ويمجدها ولا يرضى عنها بديلاً لأنها هي التي تميزه عن الاحتلال الأجنبي وبالتالي تدفعه إلى التضحية دونها طالما أحس أنها تدارس وهذا بالذات ما عمل لأجله علماء الجمعية وأدركته تقارير الاحتلال التي أشارت إلى أن : «ازدياد نفوذ العلماء هو الخطر الحقيقي على السيادة الفرنسية لأن هدفهم هو تكوين الإنسان المسلم» (3).

(1) محمد الميلي. ابن باديس وعروبة الجزائر، مرجع سابق، ص 26.

(2) المرجع نفسه، ص 27.

(3) المطبقاني، المرجع السابق، ص 83 نقلاً عن:

(L'Algérie du demi siècle, Vues des autorités locales, Gouvernement général de l'Algérie)

3- ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم (1)

كانت هذه الآية الكريمة هي منهج جمعية العلماء، وقد جاءت دعوتها منطقية في تدرجها بداية من إصلاح الفرد في عقيدته وسلوكه. ومن ثمّة إصلاح الأسرة والمجتمع الذي يتوسّم منه إحداث التغيير الإيجابي من ذل سيطرة الاحتلال إلى التحرر والكرامة ولذلك كانت أقرب الحركات إلى النفوس وأدخلها في القلوب (2)، كما يقول مالك بن نبي الذي رأى فيها مزايا لم يرها في الحركة الإصلاحية الكلامية المجردة التي بعثها الشيخ محمد عبده، وذلك لاعتبارها بأن مفتاح القضية يكمن في روح الأمة وبتسليمها بأن تكوين الحضارة كظاهرة اجتماعية إنما يكون في نفس الظروف والشروط التي ولدت فيها الحضارة الأولى حضارة الإسلام (3). خصوصاً وأنها كانت تصدر عن عقيدة العلماء القوية، ولسانهم الذي يستمد تأثيره من سحر القرآن الكريم.

وقد أصبحت الآية الكريمة شعاراً لكل منتسب إلى سلك الإصلاح في المدرسة الباديسية وكذا أساساً لكل تفكير، ولا شك أن النجاح الذي كانت تحققه الجمعية في كسب ثقة الجماهير وتحويلها من النفسية المهزومة إلى نفسية حية، طموحة وفعالة، يرجع إلى أن العلماء قد كفوا أيديهم عن تسوّل الدوّاء والحلول من صيدلية الوعود الفرنسية التي لم تأت ولن تأت أبداً. ومن ثمّة نفهم لماذا رجّح رأي "ابن باديس" على رأي الإبراهيمي، كما قال الإبراهيمي نفسه (4)، والذي كان يقتضي الاتصال المباشر بالجماهير الشعبية بقطع النظر عن الضيقة الاجتماعية، فبرنامج جمعية العلماء كان يهتم تقريبا كل واحد في المجتمع (5).

وقد جاء على رأس مواد أصول دعوة الجمعية الآية القرآنية الكريمة: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ (6)، وتعني الإسلام. هو الدين الذي وضعه الله لهداية عباده وأرسل

(1) الرعد، 13.

(2) مالك بن نبي، شروط النهضة، مرجع السابق، ص 25.

(3) فهمي جدعان، المرجع السابق، ص 410-411.

(4) سجل مؤتمر جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، مصدر سابق، ص 51 بتصرف.

(5) أبو القاسم سعد الله، الحركة الوطنية، مرجع سابق، ج 2، ص 430.

(6) آل عمران، 19.

به رسله وكمّله على يد نبيّه محمدا صلى الله عليه وسلم الذي لا نبي بعده(1). ثم هو الدين الذي تتوفر فيه كل الصلاحيات الزمانية والمكانية، ومضامين الحياة الإنسانية، وعلاج كل المشكلات البشرية، ومن ثمّة وجب على المسلمين (الجزائريين) التمسك به والتعرف عليه ودراسة مبادئه لتتم لهم السعادة بل لا سعادة لهم إلا به (2) وقدّم العلماء لذلك عددا من الأدلة الخاصة بكون الإسلام :

1- كما يدعو إلى الأخوة الإسلامية بين جميع المسلمين يذكر بالأخوة الإنسانية بين البشر أجمعين.

- 2- يسوّي في الكرامة البشرية والحقوق الإنسانية بين جميع الأجناس والألوان.
- 3- لأنه يفرض العدل فرضا عاما بين جميع الناس بلا أدنى تمييز.
- 4- يدعو إلى الإحسان العام.
- 5- يحرم الظلم لجميع وجوهه وبأقل قليله من أي أحد على أي أحد من الناس.
- 6- يمجّد العقل ويدعو إلى بناء الحياة كلّها على التفكير.
- 7- ينشر دعوته بالحجة والاقناع لا بالختل والإكراه.
- 8- يترك لأهل كل دين دينهم يفهمونه ويطبّقونه كما يشاؤون.
- 9- شرك الفقراء مع الأغنياء في الأموال، وشرع مثل القراض والمزارعة والمغارسة مما يظهر التعاون العادل بين العمال وأرباب الأراضي والأموال.
- 10- يدعو إلى رحمة الضعيف فيكفي العاجز ويعلم الجاهل ويرشد الضال ويعان المضطر ويعانق المنهوف وينصر المظلوم ويؤخذ على يد الظالم.
- 11- يحرم الاستعباد والجبروت بجميع وجوهه.
- 11- يجعل الحكم شوريا ليس فيه استبداد ولو لأعدل الناس(3).

وفي تعليقه عن هذه الأدلة يقول الأستاذ بالصفصاف وكان محقا -تماما- في أن الأستاذ عبد الحميد بن ناديس. إنما كان يريد بهذا «أن يقف موقف المعلّم لينغمس بجانب

(1) نص المادة الأولى في دعوة جمعية العلماء وأصولها، انظر الملحق رقم 11.

(2) نص المادة الثانية في دعوة جمعية العلماء وأصولها، انظر الملحق نفسه رقم 11.

(3) انظر وثائق الحركة الوطنية، المصدر السابق، ص 5-5 وكذا الملحق نفسه.

المستعمر المتنعت الذي يميز بين الأوربي واليهودي من جهة وبين السكان المسلمين من أهالي البلاد من جهة أخرى ليكشف للمغرورين والمخدوعين بمبادئ الديمقراطية الفرنسية ومدنيتها أنها لا تمت إلى الانسانية بصله، وأن الأفضل لهم أن يتمسكوا بمبادئ دينهم الذي يفنيهم عن كل الديمقراطيات الغربية» (1).

والملاحظ أن كل هذه المبادئ إنما «هي تعريض صريح لموقف الاحتلال الفرنسي» (2) وأساليبها التي بناها على الخيلة والاكراه وتوسله لتحقيق أغراضه طرقا لا إنسانية، رغم ادعاء فرنسا بأنها حامية حمى الحريات وأنها تحمل لواء العدالة والأخوة والمساواة.

وكان الأستاذ بوالصنصاف محقا أيضا لما قال بأن جمعية العلماء وجهت لطمة قاسية إلى الحضارة الفرنسية الاستعمارية، حين وضحت أن الإسلام يحرم الاستعباد والجبروت بكل وجوهه» (3). فأين منها ادعاء الأخوة والمساواة والعدالة في مقابلة تحريم الاستعباد والجبروت بكل الوجوه؟.

وتأتي بقية مواد دعوة الجمعية كدليل على أن هذه تنهل دستورها مباشرة من القرآن الكريم، كتاب الإسلام، ومن السنة النبوية الشريفة، ثم من سلوك السلف الصالح وتابعيهم، لتجعل من جمعية العلماء حزبا دينيا محضا كما جاء في النداء الأول لزعمائها (4) ولكنها وسمت نفسها جمعية ولم تسم حزبا، لتبتعد واقعا ومضمونا عن مفهوم السياسة الغربية والخلافات الحزبية» (5). أولا بيانا لمفهوم السياسة الحقيقي والشامل في إطاره الإسلامي وثانيا ربطا للحزائريين بأجدادهم الحقيقيين محط اعتزازهم ومحل انتسابهم وهم رسول الله صلى الله عليه وسلم، أفضل البشر أخلاقا مبلغ الرسالة وممثل كاملها بذاته

(1) عبد الكريم بوالصنصاف، المرجع السابق، ص 114.

(2) المرجع نفسه، ص 116.

(3) المرجع نفسه، ص 118.

(4) أنظر: الشهاب، ع، المؤرخ بـ 21 جمادي الثانية 1344 هـ، الموافق لـ : 7 جانفي 1926م.

(5) المطبقاني، المرجع السابق، ص 84. نقلا عن (محمد خير الدين في مقابلة شخصية مع المؤلف بتاريخ 23 نوفمبر

1983م).

وسيرته >> المجاهد في كل لحظة من حياته في سبيل سعادة البشرية جمعاء حتى خرج من الدنيا ودرعه مرهونة - حسب المادة التاسعة من دعوة الجمعية - >>(1).

ويلاحظ من جهة أخرى أن التعبير الأخير لم يكن مجرد نسق لفظي اقتضاه المقام ولكنه تجسيم للحقيقة عميقة تقرأها جمعية العلماء، في أن العلماء وهم ورثة الأنبياء وعلى رأسهم الرسول صلى الله عليه وسلم ماداموا ينهلون مباشرة من كتاب الله وسنة رسوله ثم من السلف الصالح فإنهم لابد صابرون إلى الجهاد أي إلى ثورة التحرير الكبرى، وإلا فكيف تتأتى للمسلمين الجزائريين السعادة ماداموا تحت وطأة الاحتلال، وهي لا محالة السعادة التي جاهد الرسول صلى الله عليه وسلم وأصحابه من أجلها وهي السعادة الحقيقية التي يريد الله تعالى، لكن ذلك كان يقتضي - كما اقتضى تبليغ الرسالة الأولى - إلى مرحلة تعبئة أولا ثم إلى مرحلة جهاد تانيا.

وبهذا فإن نظرة ابن باديس الذي هو في الواقع رأس الجمعية المفكر(2)، ثم نظرة العلماء زملاؤه: نافذة، تكشف عما يكمن في الأمة الجزائرية من عناصر القوة والكمال، مما يؤهلها للحياة العزيزة، فوضعوا منهاجها الإصلاحية العام القائم على الكتاب والسنة فكان شعاره في الحياة >> لَا يَصْلُحُ آخِرَ هَذِهِ الْأُمَّةِ إِلَّا بِمَا صَلَّحَ بِهِ أَوَّلُهَا >>(3)، وقد لخص ابن باديس منهاج المصلحين في الجزائر بقوله: >> القرآن إمامنا، والسنة سبيلنا، والسلف الصالح قدوتنا، وخدمة الإسلام والمسلمين وإيصال الخير لجميع سكان الجزائر غايتنا >>(4).
والخلاصة أن جمعية العلماء المسلمين الجزائريين قد عملت على تحقيق الأهداف التالية بالتدرج:

- تحرير ضماير الجماهير الجزائرية، وإحياء الغيرة الدينية التي فترت فيها (5)، وذلك

(1) انظر الملحق رقم 11.

(2) عبد الكريم بوالصفاة. المرجع السابق، ص 114.

(3) عبد الحميد بن باديس. مجالس التذكير من حديث البشير النذير، (الجزائر، مطبوعات وزارة الشؤون الدينية، ط1، 1983م)، ص 14-15. (نقلا عن مقدمة للأستاذ عبد الرحمن شيبان).

(4) أبو القاسم سعد الله، الحركة الوطنية، مرجع سابق، ج3، ص 94.

(5) لوثرورت ستودارد، حاضرات العالم الإسلامي (بيروت، دار الفكر، 1973م)، ط4، م 1، ص 274 بتصرف. (نقلا

بالتركيز على الدعوة الاخلاقية والتجديد الروحي كأساس للتحرر من السلطة الأجنبية، وهو ما عبّر عنه أحد المصلحين مؤكدا هذا المنحى قائلا: «أخرجوا المستعمر من أنفسكم يخرج من أرضكم» (1).

التخطيط لثقافة إسلامية عربية شاملة وعمامة تتم للأنفس استقرارها وانسجامها مع مجتمعاتها فيكون بها عودة التوازن الاجتماعي، والعودة إلى الذات في شروط من الفعالية والإنضباط.

- بعث مجتمع أراد له معالم القابلية للاستعمار (2) المسخ والإبادة والتشويه، فهددت كيانه بالفناء والذوبان بإعادته إلى معالم التحرر الفكري، والمبادرة العملية والثورة على الظلم والاستعباد، فكان التغيير الذي هو استجابة طبيعية من الجزائريين للحياة متى أحييت فيهم قيم الإسلام ومبادئه السامية، ومن ثمة دعوتهم إلى أن يغيروا ما بأنفسهم ليغيّر الله ما بهم» (3).

وقد عبّر الابراهيمي عن هذا كله في قوله «... إن الاستعمار الفرنسي صليبي النزعة فهو منذ احتلّ الجزائر عمل على محو الإسلام، لأنه الدين السماوي الذي فيه من القوة ما يستطيع به أن يسود العالم، وعلى محو العربية لأنها لسان الإسلام، وعلى محو العروبة لأنها دعامة الإسلام، وقد استعمل جميع الوسائل المؤدية إلى ذلك، ظاهرة وخفية، سريعة ومتأنية، وأوشك أن يبلغ غايته بعد قرن من الزمن متصل الأيام والليالي، في أعمال الخو، لسولا أن عاجلته جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، على رأس القرن، بالمقاومة لأعماله، والعمل على تخييب آماله» (4).

وحتى تفصل في هذه القضية وبلسان رئيس جمعية العلماء نفسه الشيخ البشير الابراهيمي، سواء إزاء الإدارة الاستعمارية أم كتابها وأيضا إزاء كل من تناوله الشك في الهدف السياسي. جاء في مقال لجريدة البصائر قوله: «إن أعلى معاني السياسة عند

(1) مالك بن نبي، شروط النهضة، مرجع سابق، ص 115.

(2) المرجع نفسه، ص 152. بتصرف.

(3) عبد الحميد بن باديس، مجالس الذكر من حديث البشير النذير، مصدر سابق، ص 15 (المقدمة).

(4) البصائر، ع 83، السنة الثانية المؤرخة ب: رجب 1356هـ الموافق ل: سبتمبر 1937م.

الحاكمين هو تدبير الممالك بالقانون والنظام، وحياطة الشعوب بالانصاف والإحسان، فإذا نزلوا بها صارت إلى معنى التحيل على الضعيف ليؤكل، وقتل مقوماته ليهضم، والكيد للمستيقظ حتى ينام، والهددة للنائم حتى لا يستيقظ، وهذا المعنى الأخير هو ما جرى عليه الاستعمار، ووضعه في قواميسه وأقره في موضعه من نفوس رجاله ودعاته.. وتراهم يجرمون على الشعوب الخاضعة لهم الخوض في هذا المعنى السافل، لتلا يجرهم إلى الخوض في المعنى العالي... إلى أن يقول: ما قولك -أيها الاستعمار- في تدخلك في ديننا، وابتلاعك لأوقافنا واحتكارك للتصرف في وظائف ديننا، وتحكمك في شعائرننا، وتسلمك على قضائنا وامتهانك للغتنا؟. ما قولك في كل ذلك أهو من الدين أم من السياسة؟ وكيف تبيح لنفسك التدخل فيما لا يعينك من شؤون ديننا، ثم تحرم علينا الدخول فيما لا يعينك من شؤون دنيانا؟..

إننا إذا حاكمناك إلى الحق غلبناك، وإذا حاكمناك إلى القوة غلبتنا، ولكننا قوم ندين بأن العاقبة للحق لا للقوة .. <<(1).

والسؤال الذي نطرحه بعد هذا التأكيد، ماهي الوسائل التي استطاعت جمعية العلماء المسلمين الجزائريين بها أن تجمع الجماهير الجزائرية تحت لوائها أولاً، وبالتالي تتصل بها من خلالها فتبعث فيها الحياة من جديد وتقود باسمهم وبهم المقاومة اليومية لأعمال الاستعمار الفرنسي وتعمل على تخييب آماله في محو مقومات شخصية الجزائريين وأصالتهم ثم السير بهم في طريق الحق إعداداً لهم لطريق القوة وخوض المعركة الفاصلة؟
الفصول التالية موضوع للإجابة عن هذه الأسئلة .

(1) أنظر: محمد البشير الإبراهيمي، عبون البصائر، (مصدر سابق)، ص 39-43.

الباب الثاني :

وسائل الاتصال الشفوي عند جماعة العلماء المسلمين
الجزائريين؛ أساليبها وأهدافها

الفصل الرابع : المبررات الواقعية للاتصال الشفوي عند جماعة العلماء.

الفصل الخامس : الاتصال عن طريق التعليم المسجدي.

الفصل السادس : الاتصال عن طريق الرحلة.

الفصل السابع : الاتصال عن طريق الخطابة.

الفصل الثامن : الاتصال عن طريق التعليم المكثف.

الفصل الرابع:
المبررات الواقعية للإنصال الشفهي
عند جمعية العلماء

1- المعطيات المادية لواقع الشعب الجزائري.

2- طبيعة منح جمعية العلماء في التعامل مع واقع
الجزائريين.

3- مبررات المنح عند جمعية العلماء

حتى يتسنى لنا فهم مهمة جمعية العلماء المسلمين الجزائريين الاتصالية، ووصفها وصفا موضوعيا، ومن ثم وضعها في إطارها التاريخي والحضاري والإسلامي عموما. ثم في إطارها الجزائري بخصوصياته في فترة الاحتلال، من الضروري أن نطلع على صورة <<الشعب الجزائري>> (*) بعد قرن من الاحتلال الفرنسي، والذي كان في الحقيقة قرنا من التجارب، والدراستات والأبحاث الإستعمارية الفرنسية، -بالإضافة إلى أنه قرن من آلة حرب للإبادة الجماعية في حق الجزائريين- في سبيل تحقيق المهمة "الحلم" خلق "الشعب الجديد" (*).

وأخطر عملية كادت فرنسا أن تنجح فيها، هي تهديد كيان الأمة الجزائرية بالذوبان والاندثار، وقد هدفت فعلا إبادة شعب له دينه ولغته وتاريخه وحضارته وتقاليده.. الخ حتى يسهل عليها بالتالي أن تزور بدلا منه "شعبا جديدا" - إن صحّ أن يسمّى كذلك شعبا ممسوخا، مشوها مبتور الجذور، مقطوع الفروع كأنما اجثت من الأرض. والعجيب أن خبراء الاجتماع وعلماء النفس والأنثروبولوجيا والضباط والعسكريين الفرنسيين سمّوا ذلك مهمة تدميرية، ورسالة حضارية، والأعجب أن رجال الكنيسة المسيحية جعلوا من ذلك رسالة مقدسة(1).

٢- المعطيات المادية لواقع الشعب الجزائري:

في مطلع القرن العشرين، لم يبق من الشعب الجزائري إلا شبحا لشعب، حال تقريبا من البنيات الاجتماعية(2)، فقد قتلت فيه مشاريع فرنسا التهديمية، كل معاني التماسك، وأسباب الترابط والتآلف بين أفرادها، وأعملت فيه قوانين القمع، ومنع الحريات، وسياسة التمييز وبرامج الإذلال المدروسة... وعبارة عن حشد من أفراد

(*) التسطير مقصود من الباحثة.

(1) جاء في إحدى مراسلات الكاردينال لافيغري قوله : << إن الخلاص لهذا الشعب يكمن في التبشير المسيحي، فالتبشير إذن ضرورة، وواجب على المسيحيين.. وعلينا أن نرفع هذا الشعب ولنته من حصره في قرآته، كما رفع ذلك وقتا طويلا لجميع الوسائل، علينا أن نلهمه على الأقل شعورا آخر، ومبادئ أخرى -على فرنسا أن تعطني له الإنجيل وإلا فلتطرده إلى الصحاري بعيدا عن العالم المتحضر >>. أنظر: الجليلي صاري، محفوظ قداش، المقاومة السياسية، مرجع سابق، ص 234. (تسلا عن رسالة رعوية، أفريل 1868م نشرتها الصحافة الاستعمارية).

(2) المرجع نفسه ص 237-239 بتصرف.

كثيرين ينسحب عليهم اتصاليا تعريف "الجماهير"، - إن لم يكن اصطلاحا - لأن مصطلح الجماهير حديث جدا بالنسبة للفترة التي نتحدث عنها وقد ظهر بعدها. ولا أشك أن هذا المصطلح بالذات كان نتيجة للدراسات والأبحاث والملاحظات التي جرت على اجتماع الجزائري طيلة فترة الاحتلال وهي مهمة الاستعمار الأولى، بل ومهمة الاستعمار الحديث عامة كما يؤكد . محمد عوض محمد حين قال بأن «الإستعمار استعباد سياسي يكون فيه مالك ومملوك، حر وعبد، والعلاقة بين الطرفين لا يمكن وصفها إلا بأنها علاقة الحر بالعبد والسيد بالمسود». وأضاف : «تصبح فيه إرادة الشعوب وحياتها مسخرتين لإرادة الشعب المالك وللسياسة التي يريد أن يسلكها» (1).

وجدير بنا التأكيد على أن صورة "الشعب الجزائري" في هذه الفترة تكاد تكون تعريفا حرفيا لمصطلح الجماهير بمفهومه الحديث، حيث :

- لم يكن يربط الجزائريين تنظيم اجتماعي محدد يقوم على نسق من الأدوار التي تحدّد مكانه من يشغلونها، ويعمل الجميع على احترامها في نسق من السلوكات الاجتماعية - في إطار المقومات الخاصة بكل شعب على حدة -.

- لم يكن يجمع الجزائريين الإحساس بالتضامن والتكاتف، والتشاور والتآزر، وبالأحرى مجموعة منظمة من المشاعر البناءة.

- يجمع الجزائريين إحساس عام بالعزلة، والتوتر، والضياع وعدم اليقين والقلق على المستقبل والخوف من كل شيء، وعدم الإطمئنان إلى أي شيء.

- يجمعهم إحساس بالدونية والاحتقار والغموض إزاء القضايا المصرية.

- انعدام فرصة الاختلاط والتقارب.. الخ.

وبعبارة أخرى فقد آل الشعب الجزائري إلى مفهوم مجتمع الغنائية بالتعبير النبوي،

أو مجتمع "الذرية" حسب مالك بن نبي أو أخيرا إلى مجتمع "الجماهيرية" بالمعنى الاتصالي.

ونستطيع الاستدلال على كل جانب من جوانب تعريف مصطلح "الجماهير"

(1) محمد عوض محمد، الإستعمار والمذاهب الاستعمارية (مصر، دار المعارف، 1957م)، ط 3، ص 12.

وإسقاطها على الشعب الجزائري، وفي المقابل الإستدلال بقوانين فرنسا ومناهجها. وبرامجها لتأكيد ذلك، لكن هذا يخرج عن نطاق بحثنا هنا، وقد حاول الفصل الثاني إيفاء بعض ذلك في حينه.

والذي يهمنا هو التأكيد على أن فرنسا كما استطاعت القضاء على الانتفاضات الجزائرية طيلة القرن التاسع عشر - الواحدة تلو الأخرى نظرا لتفرقتها في المكان، وتباعدها في الزمن، وعدم شمولها فإنها عملت على أن تبني حواجز بين الجزائريين، وأن تخلق عالما من العزلة حول كل فرد منهم على حدة. ومن ثمة يسهل عليها التعامل معهم فردا فردا بدل التعامل معهم كـ: "مجتمع"، وبالتالي فإنها ستعامل مع جانب الضعف في الفرد الجزائري، لأن الفرد ضعيف بمفرده قوي بجماعته، وتكون عملية ذوبانه أعمق في وسط الضياع والتهيان. فتكسر ضعفه وتمعن في احتقاره بعد عملية الانتزاع والتفريغ من الهوية والأصالة، وهذا نفس مفهوم "الجماهير" كما توضحه جيهان (1) رشتي، وهو نفسه ما يفسر روح التبعية الصامتة للأفراد في غياب روح الجماعة والقيادة حتى أن الأفراد، وفي قضاء حاجاتهم من الإستعمار بحكم الصلات المختلفة، كالوظيفة الرسمية (*). فإنهم كانوا يفعلون ذلك كأفراد فحسب وليس كمجموعة منظمة، فتكسر "الفردانية" بدل الـ "نحن" بتعميق هوة عزلة الأفراد بعضهم عن بعض في تحقيق كل منهم حاجاته الخاصة والتي قد تكون على حساب الآخرين وقد تضرهم، وهي الثمرة المنشودة لسياسة "فرق تسد" الفرنسية.

وأعتقد أن أول وأهم مؤشر لفشل المشروع الإستعماري الخاص بسياسة الاستلاب الثقافي للجماهير الجزائرية والذي كان الوسيلة الوحيدة لإخضاعها بصفة دائمة وتامة يتمثل في:

(1) تقول الدكتورة جيهان أحمد رشتي: إن اصطلاح الجماهير مقرون بالنورة الفرنسية، وهو تعبير يوحى بالخرف والاحتقار وأحاسيس الخوف من الغوغاء كما انتظر كتابها: الأسس العلمية لنظريات الإعلام، المرجع السابق ص 58 (*). وقد لاحظنا ذلك في علاقة القياد وأئمة المساجد الحكومية ورجال الوظيفة الرسميين وكذا شيوخ الزوايا مع إدارة الاحتلال، الذين يقفون حواجزهم الخاصة مقابل سكوتهم عن قضايا معينة بعدم التعرض لها، وتبني السكان إليها، وما عرفه المؤرخون بجماعة النبي وي وي.

أ- محافظة الريف الجزائري - بمسقة- بنياتنه و مثقفه(1) ، هؤلاء الذين كوّنوا قاعدة النضال السياسي فيما بعد وبنوا بتنقلاتهم المستمرة بين فرنسا والجزائر، نوعاً من التوازن بثقافتهم السياسية الجديدة إلى المحيط الحضري الذي كان أميل إلى وأرغب في حياة الترف والخوان الروحي التي خلقها النظام الإستعماري.

ب- أن سياسة التجهيل السافرة قد تجاوزها بعض العلماء العاملين ممن ذكرنا سابقاً ومع أنّ مجهوداتهم الفكرية والإصلاحية تبقى فردية ومحدودة لأسباب كثيرة فإنها كانت رافداً حاسماً للحيلولة دون غرض الإحتلال في هذا الميدان.

ومع هذا يبقى عامل تشتت الجهود وعدم انتظامها وتوجيهها في هذا المجال، وهو ما كرّسه قوانين الإدارة الفرنسية عاتقاً - في المقابل - دون سبيل العمل الإجتماعي المثمر. وقد برع الشيخ ابن باديس في تحليل وتوجيه هذه القضية، حين نشر نداءه إلى تأسيس الجمعية فقال: «وإذا أهنا بعلمائنا المفكرين وأثريائنا الشعاعين بعظم المسؤولية بتلك الصورة، فلأننا نعلم أننا ما أحلناهم إلا على معلوم هم، بل ما أتيناهم بجديد، إنما قصارى الأمر أنهم لم يتعودوا بطريقة عملية السير على المناهج التي سار عليها الناهضون.. ويكفي التذليل على هذا أننا ما باحثنا عالماً مفكراً في هذا الصدد لنقف على فكره ورأيه إلا وأبدى من موجبات لم العلماء شععتهم في هذا الظرف بالأحرى، وأدلى بأرائه وأفكاره المحبوكة ما يجعلنا أسارى تعليماته ودلائله التي لا تدحض بحال. ومثل هذا الأثر هو ما يتحسسه مستطلع آراء الأفراد أرباب التفكير كلما انفرد بأحدهم، لكن هذا الأثر لا يلقيه من أراد تلمسه في مجموعهم، ومن ظن أن الفرصة قد أتاحت لاتصال الأفراد بعضهم ببعض، وتوحيد جهودهم في سبيل العمل الإجتماعي المثمر» (2).

ويمكننا أن نستنتج من هذا النص فكرتين هامتين :

1- تأكيد فشل الإستعمار، لأن فكرة النهضة والإصلاح منتشرة بطريقة صحيحة جداً على مستوى أفكار علماء الجزائر ووجهات نظرهم الخاصة، وقد أثبتته ابن باديس باستطلاع الرأي لدى الكثير منهم.

(1) الجليلي صاري، محفوظ فداش، لمقاومة السياسية، المرجع السابق، ص 226.

(2) عبد الرحمن بن عتوان، المرجع السابق، ص 175-176.

2- أن الحلّ لأزمة الأمة الجزائرية ليس عند الإندماجيين ولا في برامج الثوريين، وإنما هي عند علماء الأمة المحيطين بجذورها الحقيقية والتي هي الأولى بالحل.

وإذا أخطأ الاندماجيون والثوريون - خاصة في فترة تواجدهم بفرنسا- في تناوهم أعراض مرض الأمة الجزائرية فتوسّلوا لها الدواء من صيدليات الغرب الاستعمارية نفسها كما يقول مالك بن نبي (1)، فإن خطأهم التاريخي هو تجاهلهم إرادة الجماهير وطموحاتها الحقيقية بالنسبة للاندماجيين للأوائل، وعدم المبادرة ببناء الكيان الإجتماعي والوطني على أساس من مبادئ ومثومات الشخصية الجزائرية وثوابتها الذي سيفهم معنى الإستقلال المحقق ويعمل على المحافظة عليه، بالنسبة للثوريين (2).

II - طبيعة منهج جمعية العلماء في التعامل مع واقع الجزائريين :

وبناء على ما تقدم نعي أن مسؤولية جمعية العلماء المسلمين الجزائريين كانت أعظم وأشق في الجمع بين مهمتين مصيريتين، تمثل آمال الأمة الجزائرية في إضار دينها ولغتها وحضارتها، والعمل على انفصالها التام عن فرنسا الذي لا يبنى إلا على إعادة بناء الكيان الجزائري المهتد، ويتم ذلك بربط الذرّات وردم التفكك والفرقة، وبالجملة إعادة صفة ال "نحن" للمجتمع الجزائري وبالتسالي القضاء على معنى "الجماهيرية" بالمفهوم الاتصالي الاستعماري من جهة، ومن جهة أخرى وضع منهج شامل ودقيق لجمع الجهود وترتيب المراحل التي تبدأ من بناء الإنسان الجزائري المسلم ضمن مقومات أصالته وعلى ضوء استراتيجية محدّدة وذلك كالتالي:

1- بناء الفرد الجزائري: آمنت جمعية العلماء أن الشعب الجزائري لن ينجو من الاستعمار إلا إذا أبعث نفسه من أن تتسع لذلك، وبأن الإستقلال لن يتحقق عن طريق

(1) مالك بن نبي، شروط النهضة، مرجع سابق، ص 42 بتصرف، وأنظر أيضا: فهسي حدعان، المرجع السابق، ص 412.

(2) يقول المطبقاني سيرا رفض جمعية العلماء تعاضى السياسة بالمفهوم الاستعماري والجزيري: «... فكيف تطالب بالإستقلال وهي لم تحمّ شخصيتها العربية الإسلامية بعد...» مرجع سابق، ص 84. ويلاحظ انسحاب قوله ثمات على حزب النجم. حزب - لشعب الجزائري فيما بعد، الذي كان يطالب بالإستقلال لكنه لم يسع سعياً الجمعية لتحقيق الشخصية العربية الإسلامية للأمة الجزائرية حتى يتم الانفصال الحقيقي بينها وبين فرنسا.

الكلمات الأدبية أو الخطابية الحماسية، و«إنما يتحقق بتحوّل نفسي، يصبح معه الفرد شيئا فشيئا قادرا على القيام بوظيفته الاجتماعية، جديرا بأن تحترم كرامته»(1). ومن ثمّة ركز عمل جمعية العلماء على تغيير ما بنفس الفرد الجزائري لتحقيق الشرط الجوهرى لكل تحوّل اجتماعي رشيد، ومقصود بناء الفرد الجزائري عندها هو ما بينه رئيسها الشيخ ابن باديس، أي "الرجل المسلم الجزائري". بمعنى: رجولته إسلاميته، وجزائريته.

ويعاين ابن باديس ذلك في محاضرة له بهذا العنوان «الرجل المسلم الجزائري» قائلا:

أ- الرجل: لأنه رئيس البيت، الذي عليه واجب الرعاية بالسعي والتكسب، بالتهذيب والتعليم للزوجة، والأبناء والبنات، ولأن له حق الولاية على البيت بالنظر والتدبير والتنظيم، والتسيير، فهو السيد في بيته ليكون سيّدا في قومه، فالسيادة الحقيقية إنما هي بالنسبة والتمتع، فسيد البيت هو الأكثر عملا والأجلب نفعا له، وسيد الوطن هو الأعمل والأنتفع في سبيله.

ب- المسلم: هو المتدين بالإسلام(*)، عقائدا وأعمالا وأخلاقا، التي بها السعادة في الدارين لأن الإسلام دين العلم، فلاحه وصناعة وتجارة وعبادة وهو إلى هذا دين السّلامة والخبة ودين الرقي بالعلم، والسيادة بالعدل، والسعادة بالإحسان.

ج: الجزائري: لأنه ينسب للوطن أفراده الذين ربطتهم ذكريات الماضي، ومصالح الحاضر وآمال المستقبل، والذين يعمرّون الجزائر - هذا الوطن - وتربطهم هذه الروابط هم الجزائريون(2).

فالفرد الجزائري هو اللبنة الأولى التي يتكون منها المجتمع الجزائري ويقوم عليها. تماما كالفرد الذي يقوم عليه كل مجتمع ومن ثمّة البشرية جمعاء. و«تصحيح مركز

(1) فهمي جدعان، المرجع السابق، ص 411.

(*) بناء الفرد المسلم الجزائري، لا يقتصر طبعاً على الرجل وإنما يشمل المرأة المسلمة الجزائرية، «لأن العناية بالرجل تستلزم العناية بالمرأة شقيقته في الخلقة والتكليف وشريكه في البيت والحياة» كما يقول ابن باديس، الشهاب، ج 10، م 5، المؤرخ في غرة جمادى الثانية 1338 هـ - الموافق نوفمبر 1929 م.

(2) المكان نفسه، بتصرف.

الإنسان في هذا الوجود وتعيين مكانه ودوره وحقوقه وواجباته كما يقول سيد قطب هو المنهج الصحيح (1)، وهو نقطة البداية الصحيحة، ومن ثمة فتكوين المجتمع المسلم الجزائري تحصيل حاصل بعد تكوين أفرادها، ولما ردّ ابن باديس عن تساؤل جعله عنواناً لمحاضرة له "لمن أعيش أنا" ؟. قال أعيش للإسلام والجزائر. لم يكن ذلك منه ضيقاً في النظر، وتعصبا للنفس، أو قصورا في العمل، وقد أوضح مراده من ذلك قائلا : « إن خدمة الإنسانية في جميع شعوبها، والحدب عليها في جميع أوطانها، واحترامها في جميع مظاهر تفكيرها ونزعاتها، هو ما نقصد ونرمي إليه ونعمل على تربيتها وتربية من إلينا عليه، ولكن هذه الدائرة الإنسانية الواسعة ليس من السهل التوصل إلى خدمتها مباشرة ونفعها دون واسطة فوجب التفكير في الوسائل الموصلة إلى تحقيق هذه الخدمة وإيصال هذا النفع» (2). ويبدو أنه أسلوب عملي منطقي ينم عن سلامة تصور، وصحة منهج، وتمام وعي، بالإضافة إلى أنه ينم عن نفس رضية ومتفائلة ومتيقنة من التوفيق ما إن ضمنت إخلاص العمل في سبيل الغاية المرجوة، إذ أن الوصول إلى خدمة الإنسانية مباشرة ونفعها دون واسطة، شيء من وحي الخيال وإقرار بالمستحيل وتبرهن الجمعية بهذا على :

1 - الإيمان العملي الصادق بأن النجاح في بناء الفرد الواحد إنما هو نجاح في بناء المجتمع بأكمله، بل البشرية جمعاء، إذ البداية في خدمة البشرية تبدأ بالفرد كاللبننة من البناء، وكالجزء من الكل، وقد أشار القرآن الكريم إلى هذا في قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا، وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا ﴾ (3).

وكذا قوله صلى الله عليه وسلم : « فَوَاللَّهِ لَأَنْ يَهْدِيَ اللَّهُ بِكَ رَجُلًا وَاحِدًا، خَيْرٌ لَكَ مِنْ حُمْرِ النَّعَمِ » (4). أو في رواية أخرى : « فَوَاللَّهِ لَأَنْ يَهْدِيَ اللَّهُ بِكَ رَجُلًا

(1) فهمي جندعان، المرجع السابق، ص 123، (نقلا عن سيد قطب، الإسلام ومشكلات الحضارة).

(2) التنبيه: ج 10، م 12، غرة شوال 1355 هـ - جانفي 1937 م.

(3) المائدة: 32.

(4) أخرجه البخاري. كتاب: الجهاد، باب: 102 " دعاء النبي صلى الله عليه وسلم إلى الإسلام والتبوء ..

أنظر: ابن حجر العسقلاني، فتح الباري شرح صحيح البخاري، (لبنان: دار المعرفة، د.ت)، ج 6، ص 109 - 111.

وفي كتاب الجهاد، باب: 143، فصل من أسلم على يديه رجل من أهل بيته.

خَيْرٌ لَّكَ مِنْ أَنْ يَكُونَ لَكَ حُمْرُ النَّعَمِ >>.

2- استنفاد الوسائل والمناهج لتكوين الإنسان الجزائري وبناءه بناء كاملا يشمل كل جوانب حياته التي تتم بها رجولته وصلاحه وبما يقتضيه معنى الإيمان من الالتزام بمبادئ الإسلام وأخلاقه ومثله العليا، وتقتضيه مهمة قيادة الأمة من قوة وشجاعة وصبر وعمل، وبالجملة تكوين أفراد من النوع الذي يكون الواحد منهم كالألف، لا من النوع الذي يكون منه الألف كالألف (1). حسب تعبير الأستاذ الفاضل الورتيلاني (*) والذي قصد مع المبالغة الآية الكريمة: ﴿إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عَشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ، وَإِنْ تَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ﴾ (2).

3- إن بناء الأفراد وتكوينهم فردا فردا عملية صعبة وطويلة في إيجاد المجتمع الأمثل لكنها تبقى دون شك هي الأقوم والأضمن لمن ينشد النجاح، وصناعة الرجال هي مهمة الرسل عليهم الصلاة والسلام جميعا وقد أمضى الرسول صلى الله عليه وسلم الفترة المكية -ثلاث عشرة سنة- في تكوين الصحابة وتربيتهم ليكونوا في مستوى الرسالة التي سيحملون لواءها ومهمة تبليغها ونشرها. وتبقى صناعة الرجال هي مهمة العلماء الدعاة والمجددين -من ورثة الأنبياء- الأولى والأمنح للوصول إلى الغاية المرجوة دائما. ويبدو أن جمعية العلماء قد اتبعت المنهج نفسه والذي استوحته من منهجه صلى الله عليه وسلم.

4- إن بناء الإنسان الجزائري المسلم، والعيش للإسلام والجزائر - الذي بين رئيس جمعية العلماء المراد منه - تكليف بالمستطاع أولا: لأنه يسهل على المصلحين تصوّره والقيام به في إطار البرامج والمناهج التي سطرته الجمعية لهذا الغرض. وثانيا: تصور

(1) سجل مؤتمر جمعية العلماء، مسند سابق، ص 241 (عن خطبة للأستاذ الفاضل الورتيلاني).

(2) السيرة النبوية للشيخ محمد باقر، ص 340. من رسائل السياسة في الجزائر، كان عنينا في خصاله وكتابه، مندفا فيما يدعوه إليه، درس بمسقط رأسه بإحدى دوائر سطيف، وأكمل دراسته على يد الشيخ ابن باديس. أقام سنتين (1936-1938م) في باريس كمبعوث لجمعية العلماء يث روح الوطنية في العمال الجزائريين بها ويقوم محل مشاكلهم ضمن نشاط الجمعية في الخارج. أنتقل إلى القاهرة فاليمن، فلبان ثم تركيا أين توفي. من آثاره مقالات سياسية في جرائد. جمعية العلماء وخطب كثيرة وكتاب عنوانه "الجزائر النائرة" - من مراجع بحثنا-. أنظر عادل نويهض، المرجع السابق - ص 340-341. بتصرف.

نتائج البعيدة من الرسوخ والأصالة. ومثل ابن باديس ذلك بقوله : « وما مثلنا في وطننا الخاص - وكل ذي وطن خاص إلا كمثل جماعة ذوي بيوت من قرية واحدة، فخدمة كل واحد لبيته تتكون من مجموع البيوت قرية سعيدة راقية، ومن ضيّع بينه فهو لما سواها أضيع، وبقدر قيام كل واحد بأمر بيته تترقى القرية وتسعد، وبقدر إهمال كل واحد لبيته تشقى القرية وتنحط » (1).

5- تبنى قاعدة إصلاح المجتمع على صلاح الفرد: « لأن صلاح الأفراد سوف يؤدي إلى تغيير المؤسسات الاجتماعية أو البنية الاجتماعية الفاسدة التي تؤثر على أخلاقهم وسلوكهم العام تأثيرا عاما » (2). حسب رأي هذه المدرسة يذهب الأستاذ رابح تركي مذهبها.

ويقتر عدد من الكتاب (*) والباحثين مذهب الإصلاح الذي يرى البداية بالفرد بدل المجتمع ومن هؤلاء مالك بن نبي الذي يضع ثلاث شروط لإمكانية النهوض بمجتمع يسميه « ما بعد الموحدين » في دورته الحضارية، وذلك بعد تنظيم الطاقات وتوجيهها، ويجعل من الشروط عناصر للتركيب الحضاري وتمثل في التراب والوقت والإنسان، وبينما لا يفصل في عنصر التراب والوقت، ويستقي لهما أمثلة خاصة من أوضاع الجزائر للتنبؤ بأهمية الوقت وقيمة التراب فإنه بالمقابل يقف طويلا عند عنصر "الإنسان" لأنه هو العنصر الفاعل في الدورة الحضارية: فهو صانع التاريخ ومحركه: « فإذا تحرك الإنسان تحرك المجتمع والتاريخ وإذا سكن سكن المجتمع والتاريخ » (3). وإذا كانت محاولة فرنسا هي نزع أهلية الإنسان الجزائري في المساهمة الحضارية، بقتل الفعالية فيه - وقد نجحت أو كادت - وصورة المجتمع الجزائري أو

(1) الشهاب، ج 10، م 12، غرة شوال 1355هـ - حانفي 1937م.

(2) رابح تركي، المرجع السابق، ص 286.

(*) من هؤلاء سيد قطب وقد أشرت إلى ذلك سابقا، وشكيب أرسلان كما يفهم من تحليلاته ووجهات نظره فيما يخص الأمراض الاجتماعية والآفات الرجعية التي يعاني منها المسلمون في عصر الانحطاط " الأخير " بما يسميه من شعور بالحجز يسميه بمرض " استخذاء ". وآفة ذل واقتراحاته فيما يخص النهوض بهم على مستوى الفرد المسلم. انظر كتابه: لماذا تأخر المسلمون ولماذا تقدّم غيرهم، (مصر، مطبعة الباي الحلبي، 1930 م)، ط 3، ص 107، 144-150. الخ.

بالأحرى الجماهير الجزائرية تنطق بالالفاعلية الإجتماعية، ثم إذا كانت جمعية العلماء قد أخذت على عاتقها بعث هذه الفعالية المهذورة- من جديد في الإنسان الجزائري وبالتالي إعادة تركيب البنيات الإجتماعية وإعطاء الجماهير الجزائرية صفة "المجتمع المتناسك"، فإنها بذلك تكون قد اختارت أسلم المناهج وأنجعها، والإستعمار في النهاية ليس من عبث السياسيين ولا من أفعالهم بل هو من النفس ذاتها التي تقبل ذل الإستعمار، والتي تمكن له في أرضها، والخلاص من الإستعمار لا يتم الا بخلاص النفس من القابلية له(1).

III - مبررات المنهج عند جمعية العلماء المسلمين الجزائريين:

لقد حدّدت جمعية العلماء المسلمين الجزائريين أسلوبها في التعامل مع الواقع الجزائري، وبالتالي مع أزمة الإنسان الجزائري في قانونها الأساسي الذي أشارت فيه إلى أنها جمعية نهديه رشادية تعنى بمحاربة الآفات الإجتماعية كالكحور والميسر وكنل ما حرّمه الشرع الإسلامي ثم نصت على أن العاملين فيها هم ممن يطلق عليهم لقب "عالم" دون غيره ويمكننا الاكتفاء بهذه المعطيات للاستدلال على منهج جمعية العلماء "الإصلاحي"، بل وحتى الإكتفاء بمسمى جمعية العلماء المسلمين الجزائريين فقط لكس الجمعية فصلت منهجها وأسلوبها بدقة في دعوتها وأصولها التي نلخصها في :

1- الإسلام دين الله الذي ارتضاه لعباده وبعث به جميع رسله، وكتله على يد محمد صلى الله عليه وسلم.

2- القرآن الكريم كتاب الإسلام، أكمل شريعة.

3- السنة القولية والفعالية الصحيحة، لأنها تفسير وبيان للقرآن الكريم.

4- سلوك السلف الصالح، التطبيق الصحيح لهدي الإسلام(2).

وبعبارة أخرى، فإن جمعية العلماء بنت أصولها في بناء الكيان الجزائري على دعامين أساسيين إسلاميين:

الأولى: تعكسها الآية الكريمة: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا

(1) مالك بن نبي، شروط النهضة، مرجع سابق، ص 31.

(2) انظر المنحق رقم 11، دعوة جمعية العلماء وأصولها.

بالأحرى الجماهير الجزائرية تنطق بالالفاعلية الإجتماعية، ثم إذا كانت جمعية العلماء قد أخذت على عاتقها بعث هذه الفعالية المهذورة- من جديد في الإنسان الجزائري وبالتالي إعادة تركيب البنيات الإجتماعية وإعطاء الجماهير الجزائرية صفة "اجتمع المتماسك"، فإنها بذلك تكون قد اختارت أسلم المناهج وأنجعها، والإستعمار في النهاية... ليس من عبث السياسيين ولا من أفعالهم بل هو من النفس ذاتها التي تقبل ذلّ الإستعمار، والتي تمكّن له في أرضها، والخلاص من الإستعمار لا يتم الا بخلاص النفس من القابلية له(1).

III - مبررات المنهج عند جمعية العلماء المسلمين الجزائريين:

لقد حدّدت جمعية العلماء المسلمين الجزائريين أسلوبها في التعامل مع الواقع الجزائري، وبالتالي مع أزمة الإنسان الجزائري في قانونها الأساسي الذي أشارت فيه إلى أنها جمعية نهديية روحانية تعنى بمحاربة الأزمات الإجتماعية كماخسر والميسر وكل ما حرّمه الشرع الإسلامي ثم نصت على أن العاملين فيها هم ممن يطلق عليهم لقب "عالم" دون غيره ويمكننا الاكتفاء بهذه المعطيات للاستدلال على منهج جمعية العلماء "الإصلاحية"، بل وحتى الإكتفاء بمسمى جمعية العلماء المسلمين الجزائريين فقط لكن الجمعية فصلت منهجها وأسلوبها بدقة في دعوتها وأصولها التي نلخصها في :

1- الإسلام دين الله الذي ارتضاه لعباده وبعث به جميع رسله، وكتله على يد محمد صلى الله عليه وسلم.

2- القرآن الكريم كتاب الإسلام، أكمل شريعة.

3- السنة القولية والفعلية الصحيحة، لأنها تفسير وبيان للقرآن الكريم.

4- سلوك السلف الصالح، التطبيق الصحيح لهدي الإسلام(2).

وبعبارة أخرى، فإن جمعية العلماء بنت أصولها في بناء الكيان الجزائري على دعامين أساسيين إسلاميين:

الأولى: تعكسها الآية الكريمة: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا

(1) مالك بن نبي، شروط النهضة، مرجع سابق، ص 31.

(2) انظر المسحق رقم 11. دعوة جمعية العلماء وأصولها.

بِأَنْفُسِهِمْ» (1).

الثانية: يعكسها قول: «لَا يَصْلُحُ آخِرَ هَذِهِ الْأُمَّةِ إِلَّا بِمَا صَلَحَ بِهِ أَوَّلُهَا» (2).
ويفهم من هذا أن جمعية العلماء نظرت إلى أزمة الجزائر، والشعب الجزائري - الجماهير الجزائرية - نظرة جذرية، وقصدت إلى علاجها من الأساس، فتم تضعها في حدود إقليمية جغرافية - حدود الجزائر السياسية وحدود شعب داخل تلك الحدود - وإنما وضعتها في إطارها التاريخي الحضاري وربطتها بمناييعها وأصالتها، في حدودها العالمية كأمة عربية مسلمة تنتمي إلى عالم جغرافي وحضاري وتاريخي، ولما كانت أزمة هذا العالم عامة، من التدهور والخذلان في جميع الميادين، فإن جمعية العلماء بهذا تضم صوتها إلى أصوات المصلحين في العالم الإسلامي الكبير لمحاولة تحديد المرض، ووصف العلاج في إطار هاجس النهضة الذي اشترأت جهود العلماء والمصلحين إلى تحقيقه. لكن جمعية العلماء تحدّد نشاطها ضمن عبارة "أعيش للإسلام وللجزائر"، فتربط بالعالم الإسلامي في المنهج والمنبع والمثل الأعلى الذي يعمل المصلحون بهديه، بينما تنطلق من حدود خصوصيات أزمة الجزائر ووضع الجزائريين وفي إطار فلسفتها: «من ضيّع بيته فهو لما سواها أضيّع»، ويقول ابن باديس: «نعم إن لنا وراء هذا الوطن الخاص أوطانا أخرى عزيزة علينا دائما منا على بال ونحن فيما نعمل لوطننا الخاص نعتقد أنه لا بد أن نكون قد خدمناها وأوصلنا إليها النفع والخير من طريق خدمتنا لوطننا الخاص... وأقرب هذه الأوطان إلينا هو المغرب الأدنى والمغرب الأقصى اللذان ماهما والمغرب الأوسط إلا وطن واحد لغة وعقيدة وآدابا وأخلاقا وتاريخا ومصلحة ثم الوطن العربي والإسلامي، ثم وطن الإنسانية العام» (3).

ومن ثم فقد سعت جمعية العلماء إلى أبعد من مقاومة الاستعمار الفرنسي، وأبعد من فصل الجزائر فضلا تاما عن فرنسا، وذلك بإعادة المجتمع الجزائري، ضمن المجتمع

(1) الرعد 13.

(2) قول الإمام مالك بن أنس رضي الله عنه.

(3) الشهاب، ج 10، م 12، غرة شوال 1355 هـ - جانفي 1937 م.

الإسلامي الكبير إلى الفعالية التاريخية والمساهمة الحضارية التي همش الاستعمار دوره منها بعد أن أفرغه من مخزونه الروحي وزرع بدلا منه روح الخذلان والخضوع.

ويصف مالك بن نبي النظرة الإصلاحية لجمعية العلماء بالتفكير السديد حيث ربط التغيير في نفسية المهزوم، وإعادة بنائه بالرجوع إلى نفس الظروف والشروط التي كان فيها في يوم ما فعّالا منتصرا، فيقول: «وإنه لتفكير سديد ذلك الذي يرى أن تكوين الحضارة كظاهرة اجتماعية إنما يكون في نفس الظروف والشروط التي ولدت فيها الحضارة الأولى، وهذا صادر عن عقيدة قوية، ولسان يستمد من سحر القرآن تأثيره، ليذكر الناس بحضارة الإسلام في عصوره الزاهرة» (1).

فالجمعية إذن تستمد تعاليمها وروحها مباشرة من القرآن الكريم والسنة الصحيحة وكذا من سيرة السلف الصالح. وهذا ما يؤكد رئيسها في كل المناسبات وكذا كل أعضاء الجمعية في مختلف النشاطات ويركزون عليه. يقول ابن باديس: وإذا علمنا بأنه أعلم بمن هو أهدى سبيلا، يدعوننا إلى المبالغة في تقويم سلوكنا، حتى نكون على الصراط المستقيم الذي لا اعرجاج فيه، فإنه هو أهدى الطرق، وأقربها، وما ذلك الصراط المستقيم إلا القرآن العظيم، والهدي النبوي الكريم، وسلوك السلف الصالح وذلك هو دين الإسلام» (2).

وفي تحديد ابن باديس للمنهج الإسلامي كخطة للإصلاح وهو المنهج الحق للخلاص لأنه من وضع الله تعالى للإنسان وللنشر» (3). فهو يتفق مع علماء الإصلاح في العالم الإسلامي بالرجوع الصحيح إلى الإسلام وإلى تعاليم القرآن، لأنه:

أولا: منهج شامل يغطي كل متطلبات الإنسان، الروحية والجسمية فهو بشموليته خلاق بأن يلتزم به المؤمنون وأن يتذكروا دائما بأن الله يعلم ما تكذب قلوبهم وما تخفي عن دعاتهم حتى يبالحقوا في المراقبة لأعمالهم وسلوكهم (4).

(1) مالك بن نبي - شروط النهضة، مرجع سابق، ص 25.

(2) حسن عبد الرحمن سنوادي، المرجع السابق، ص 147.

(3) فهمي حدعان، المرجع السابق، ص 423.

(4) المرجع نفسه، ص 147.

ثانياً: كان الرسول صلى الله عليه وسلم بقوله وعمله وهدية وسمته، وذلك كذ
منه على وفق القرآن الكريم وحكمه، وقد قالت عائشة رضي الله عنها " كان خلقه
القرآن". فالقرآن وبيانه القوي والعملي من سنة النبي الكريم صلى الله عليه وسلم بهما
يكون تذكير العباد ودعوتهم لله رب العالمين.

ثالثاً: كان السلف الصالح الذي تخرج من المدرسة النبوية الشريفة ورباهم الرسول
صلى الله عليه وسلم تربية فاضلة. ودرّبهم عليها تدريجاً عملياً حتى استنارت قلوبهم
وشهد لهم الرسول صلى الله عليه وسلم بذلك، فكان ابن باديس، وبالتالي جمعية العلماء
تحت على الاقتداء بهم والإهداء بهديهم لكل من أراد أن يظفر بما ظفروا. فكان يقول
أنهم: «> لما سلكوا الطريق المستقيم بالمعنى المستقيم، انتهى بهم السير إلى أحسن قرار
ومقام.. فإذا اشتقت إلى نهايتهم فتمسك ببدايتهم وزن أعمالك بأعمالهم، وأحوالك
بأحوالهم فإذا جعلت ذلك من هذه، وحملت عليه نفسك بصادق عزمك، وصبرت كما
صبروا، رجوت أن تظفر بما ظفروا»(1).

ومن ثمة فجمعية العلماء قد بنت برامجها كلها على منهج من القرآن الكريم لتصلح
به العقيدة والسلوك معاً وبهما تتحقق آمال الأمة من النهضة والتحرير، يقول ابن باديس:
«> فإننا نربي -والحمد لله - تلاميذنا على القرآن ونوجه نفوسهم إلى القرآن من أول
يوم، وفي كل يوم، وغايتنا إليه ستتحقق أن يكون القرآن منهم رجالاً كرجال سلفهم،
وعلى هؤلاء الرجال تعلق هذه الأمة آمالها، وفي سبيل تكوينهم تنتقي جهودنا
وجهودها»(2). ولا غرو أن تكون هذه الآمال هي التحرر والاستقلال.

وقد كان ابن باديس صحبة أعضاء الجمعية - على يقين من حسن توجه
والتوجيه وتحقيق الغاية المرجوة «> فإن القرآن الكريم الذي كوّن رجال السلف - كما
يقول رئيس جمعية العلماء - لا يعز عليه أن يكون رجالاً في الخلف لو أحسن فهمه
وتدبره وحملت الأنفس على منهاجه»(3).

(1) حسن عبد الرحمن سلوادي، المرجع السابق، ص 146.

(2) الشهاب: ج 4، م 14، غرة جمادى الثانية وربيع الثاني 1357 - جوان وجويلية 1938م، ص 291.

(3) المصدر نفسه، ص 290.

وقد اقتضى هذا المنهج من جمعية العلماء الاتصال المباشر بالجماهير الجزائرية. قصد إسماعهم صوت الحق وإقناعهم به وذلك بكل ما أمكنها من الوسائل والأساليب. وهو ما أتفق عليه العمل بعد أن تمّ تنظيم الشؤون الإدارية للجمعية وتوزيع المهام بين العلماء، وكان هؤلاء يعون تماما خطورة هذا المنهج وكثرة الصعوبات والعراقيل الخدقة بهم إذا التزموا على ضوئه كما يقول الإبراهيمي: «أخذ المبطلين مغافصة، والمهجوم عليهم وهم غارون وإسماع العامة المغرورة صوت الحق فصيحاً غير مجمم» (1).

ولما كانت البدع والمنكرات التي يريد الإصلاح أن يكون حرباً عليها هي أمور قد طال عليها الأمد وشاب عليها الولد، وشبّ عليها الولد، وهي بعد شديدة الاتصال بمصالح ألفها الرؤساء حتى اعتبروها حقوقاً لهم، وأنس بها العامة حتى اعتقدوها فروضاً عليهم، فكانت الشدة أحزم، إذ لا مطمع في زوالها كما يضيف الإبراهيمي: إلا بصيحة مخيفة تزلزل أركانها، ورجة عنيفة تصدّع بنيانها... ليتينها الناس على حقيقتها» (2).

ويتسم الاتصال المباشر وجهاً لوجه (3). بالحوار والإقناع، والإشارة والتنويع وتبادل أطراف الحديث وتقديم الحجج والبراهين أو دحضها، ومحاولة التغلب على كافة أساليب الاحتجاج، حتى يبلغ الإقناع ذروته.

2- يتم عادة في الجماعات صغيرة العدد، حيث يعرف الناس بعضهم بعضاً، فيتناقشون ويتحدثون، ويتبادلون الرأي والمشورة، ويدركون انطباعات أحاديثهم على بعضهم البعض ومن ثمة فإنه يمتاز بظاهرة ما يسمى في الإعلام. "رجع الصدى" من المستقبل إلى المرسل الذي يستطيع أن يستشف مدى قابلية المستقبل لما يقوله له، وكذلك مبلغ تأثيره وتصريفه لما يوجد إليه (4).

(1) سجل مؤتمر جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، مصدر سابق، ص 50.

(2) المصدر نفسه، ص 50-51.

(3) يسمى كذلك بالاتصال الشفهي الذي يقابل الاتصال التدويني أو المطبوع. وكذا بالاتصال السمعي.

(4) إبراهيم إمام، المرجع السابق، ص 57-58. بتصرف.

3- يمتاز الاتصال المباشر بميزة كبرى في اختيار الأشخاص أو الفئات التي يتحدث إليها ويوجه جهوده وقتا لذلك، ومن ثمة فتغلب عليه "الألفة ورفع الكلفة وتبادل المصلحة وتحقيق التعارف وتوثيق الصّلات، وتوضيح الغامض، وتثبيت الحقائق وإجلالها وترتيب لقاءات دورية، ومتابعة الحديث وتنويعه» (1).

وقد وفرّ الواقع الجزائري بكل معطياته الجماهيرية، الدينية، والثقافية، والعلمية والسياسية لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين الأسباب والأسس التي تدعوها إلى استعمال كل الأساليب والوسائل وتنويع مهامها الاتصالية، من حيث :

أ- الاتصال بالجماهير الذي يتحقق به ومنه الألفة وتبادل المصلحة وتوثيق الصّلات وعرض القضايا، وإجلال حقائقها، ومتابعة الحديث وتنويع الآراء والأفكار قصد الإقناع كما يتطلب منها ترتيب الاجتماعات واللقاءات الدورية محاولة للتغلب على ثغرات سوء الفهم أو ثغرات الجهل بالتكرار والإعادة. ففضية جمعية العلماء إزاء الجماهير ليست قضية إقناع بقدر ما هي قضية نوعية وتذكير وبالتالي عرض القضايا وإجلال خفاياها وربطها بالواقع المعيش وكذا ربطه بمستقبل الجماهير بما فيه من عناصر التحسيس التي تتطلب حسن العرض والحديث والتدليل والإحاطة بنفسية الفرد -أو الأفراد- وحاجاته ومصالحه وقد تتم بذلك التعبئة لصالح القضايا المصيرية والمصلحة العامة والمثل العليا الأصيلة.

ب- الاتصال بشيوخ الطريقة والذي يتحقق به ومنه الإقناع ويتطلب ليس فقط عرض القضايا ومناقشتها وإنما التغلب على كافة أساليب الاحتجاج بتقديم الأدلة والبراهين والإحاطة بالسّمعي والنقلي منها، ثم الإحاطة بحقائق الأمور وخفاياها. وقد تطلب هذا الاتصال من جمعية العلماء الشجاعة في المواجهة والمبادرة والتحوّط من العواقب والتحلي بالصبر والأناة في متابعة الأحداث ومن ثمة الصرامة في البت فيها بما تقتضيه المرحلة من حنكة وبعد نظر.

(1) إبراهيم إمام، المرجع السابق، ص 58.

ج - الاتصال بالإدارة الإستعمارية والذي تحقق به ومنه تنوع أسلوب الحوار حسب ما كانت تتطلبه القضايا أو مراحل عمر الجمعية من مسالمة وكسب للوقت وتفويت الفرص لضمان استمرار نشاط العلماء أو من صرامة في المواجهة والتعبئة العامة ضد القرارات الإدارية والقوانين. ومن ثمة فإن جمعية العلماء قد استخدمت كل الأساليب ضمن وسائل الاتصال المباشر وغير المباشر للوصول إلى تحقيق غايتها، ومن وجوه ذلك:

... التعليم المسجدي (حلقات تحفيظ القرآن).

- الخطابة.

- الرحلة.

- التعليم المكتبي.

- الصحافة.

... التأليف.

الفصل الخامس

الاتصال عن طريق التعليم المسجدي

المبحث الأول

الفترة التمهيدية

ملاحظ منهج التعليم المسجدي، ضرورته وأولوياته عند جمعية العنساء المسلمين الجزائريين جماعة البرود أهم نتائج التعليم المسجدي في الفترة التمهيدية

المبحث الثاني

أهداف التعليم المسجدي

1- بالنسبة للجماهير الجزائرية:

أ- زرع الفكرة الدينية

ب- زرع وإشاعة الأمر (حرب نفسية مضادة)

2- بالنسبة لمركبة الإطلام الإسلامي في الجزائر

المبحث الثالث

الفترة الرسمية

2- التثقيف المسجدي بحدس دستور جمعية العلماء

3- الأفاق الاتصالية للتعليم المسجدي عند جمعية العلماء

المبحث الرابع

نماذج من دروس مجالس التفكير وعلاقتها

الخلاصة :

تسميها:

يعدّ المسجد أهم وسيلة اتصالية استخدمتها جمعية العلماء المسلمين الجزائريين للإتصال بالجماهير الجزائرية والقيام برسالتها الإصلاحية واتخاذها مجلسا ^{للتعليم} والوعظ والارشاد والتوعية العامة.

والحقيقة أن الجمعية لم تباشر نشاطها التعليمي بالمسجد بداية من تاريخ 5 ماي 1931م أو بعدها بقليل، وإنما بدأت ذلك منذ أن كانت فكرة الجمعية جنينا في مشاريع الإمام عبد الحميد بن باديس رئيسها، وزملائه العلماء. وكما تعتبر سنة 1931م ميلادا لجمعية العلماء وترتيا لشؤونها الإدارية الخاصة، فإنه فيما يتعلق بنشاطها ومهامها فإن 1931م تعتبر سنة لإضفاء الشرعية القانونية عليها -فحسب- بمعنى أنه بداية من ذلك التاريخ ستخضع الجمعية لقوانين الإدارة الفرنسية المعمول بها رسميا، ومن ثمة فهي مرحلة تنظيم النشاطات، وتوزيع المهام ليس الإدارية فقط -وإنما مهام أخرى سنتعرف عليها لاحقا- بمدّ البرامج والمناهج الموحدة إلى جميع فروعها عبر الوطن. هذه الفروع التي أوجدتها الجمعية وسعت إلى ذلك منذ أن بدأت فكرة تعود ميدانيا إلى سنة 1914م. هذا إذا ما غضضنا الطرف عن سنة 1912م التي عاد فيها عبد الحميد بن باديس من تونس وجلس مباشرة للدرس والارشاد متطوعا في الجامع الكبير بقسنطينة (1). لكن الإدارة الاستعمارية حالت دون ذلك وكادت لمنعه (2) مما دعاه للتفكير في الهجرة من جديد لكن هذه المرة إلى الحجاز والمشرق العربي الكبير، ومن ثمة فيمكننا أن نتحدث عن التعليم المسجدي في فترة ما قبل ظهور جمعية العلماء، ثم التعليم المسجدي بداية من ظهورها فما بعد، وإذا كانت المضامين لم تختلف وإنما تطورت فإن أوضاع الجزائر، وأولويات النشاط إزاءها قد ميّزت هذه عن تلك .

(1) لقد كان التدريس في المساجد أول ما يقوم به أغلبية الشباب الجزائري العائد من الزيتونة أو الأزهر بشهادات عليا وبالتالي المؤهل لحمل لقب عالم، وقد كان المسجد هو المكان الأساسي والإطار الإسلامي الأول للتعليم العربي عادة.

(2) Ali Merad, Ibn Badis Le commentateur du Coran, Op Cit, p 31.

I- الثورة التربوية: ولامح بنهج التعليم المسجدي، ضرورته، وأولوياته

عند جمعيتة العلماء:

تعتبر هجرة ابن باديس إلى الحجاز تكميلاً لدراسته العلمية بالرحلة في البلاد الإسلامية ومحادثة العلماء، وقد اطلعت هذه على الأوضاع الاجتماعية والسياسية والثقافية للمسلمين، وخبر خلالها أحوالهم وأحوال غيرهم، مما وسّع أفقه وبصّره بطريق الخلاص والثورة الفكرية التي تعتمد على التربية في تكوين القادة من النخبة. وقد اكتمل لابن باديس بهذا كلّ شروط العالم المتمكن من التقاليد العلمية والمناهج التربوية وهو ما أهله لرئاسة جمعية العلماء دون غيره.

ولما عاد ابن باديس من الحجاز إلى قسنطينة كان يحمل معه مشروع الجمعية المبني أساساً على خطوط عريضة هامة سنرى تأثيرها الواضح في مسيرة الجمعية وفي رجالها، منها:

1- أنه لن يقرب الوظيفة ولن يرضأها ماحياً، ولن يتخذ علمه مطية لها، كما كان دأب علماء زمانه وكانت هذه وصية أستاذه "حمدان الرنيسي" (*) وعهده عليه الذي يقول عنه: «وَأذكر ذلك العهد في نفسي ومستقبلي وحياتي وتاريخي كلّ» (1).

2- أنه سيحبل ذهنه مصفاة لأساليب المفسرين المعقّدة وأقوالهم المختلفة وآرائهم المضطربة فيسقط السائب ويقتي الصحيح» (2). وهذه نصيحة أستاذه "محمد النخلي" (**). وقد كان لها بدورها أثرها في حياة ابن باديس العلمية ثم العملية فيما بعد. وظهر تأثيرها بوضوح في برامج ومناهج التعليم المسجدي ثم المكتسي من نشاط جمعية العلماء، ثم في الطلاب الذين تمّ تكوينهم وتوجيههم على يد ابن باديس وعلماء الجمعية.

ونخلص إلى أن ابن باديس قد عقد العزم على خدمة الإسلام في الجزائر لأنه هو

(*) حمدان الرنيسي، عالم من زعماء الحركة القومية الإسلامية في الجزائر، وأستاذ عبد الحميد بن باديس، درس بقسنطينة، ثم هاجر إلى الحجاز بعد إعلان الدستور العثماني سنة 1908م، استقر بالمدينة المنورة إلى أن مات. انظر: عادل نويهض، المرجع السابق، ص 346. بتصرف.

1- عمار الطالبي، المرجع السابق، ج 1، ص 78.

2- المكان نفسه.

(**) محمد النخلي القيرواني، المتوفي سنة 1924م، اتصل به ابن باديس في تونس ودرس على يديه مدة سنتين.

أساس بعث الشعب الجزائري، وقد كان يؤمن أن ذلك لا يتحقق إلا بجماعة قوية ومنظمة تدبر وتخطط وتحدد البرامج والمناهج الكفيلة بإعادة العزة والكرامة للدين والوطن لأن الفوضى والارتجال تبدد القوة وتشتتها فيما لا يجدي فكان يقول: «إنما ينهض المسلمون بمقتضيات إيمانهم بالله ورسوله إذا كانت لهم قوة، وإنما تكون لهم قوة إذا كانت لهم جماعة منظمة تفكر وتدبر وتتشاور وتتآزر وتنهض لجلب المصلحة ولدفع المصرة متساندة في العمل عن فكر وعزيمة»⁽¹⁾.

ومن ثمة فمباشرة ابن باديس التعليم في مساجد قسنطينة، هي مباشرة لايجاد هذه الجماعة القوية، من العلماء الذين يحملون فكرة الإصلاح، وينصرونها علما وعملا فقد درّس على التوالي في: أ- المسجد الأخضر⁽²⁾: وكان يلقي به دروسا عامة في التفسير والحديث.

ب- مسجد سيدي قموش⁽³⁾: وكان يلقي به دروسا على الطلبة يث فيهم أفكار الإصلاح.

ج- كتاب (بضم الكاف) سيدي فتح الله، وكتاب سيدي عبد المؤمن⁽⁴⁾.

ويذكر أحمد حماني أن ابن باديس لم يكن يعمل دون تخطيط بل كان: «يخطط للدعوة العامة وقدّر لها عشر سنوات»⁽⁵⁾.

وقد اتجه ابن باديس للتعليم في المساجد والكتاتيب أولا لأسباب عدة تتمثل في توفرها أولا، وأنه كان يعلم متطوعا فلم يكن ينتظر أجرا من أحد، لكن الحقيقة هو لإيمانه الراسخ بأن المسجد في الإسلام كما يقترن بالصلاة فإنه يقترن بالعلم والتعليم، وإنما تمّ بناء الإنسان المسلم وتكوينه وتحويله من الجاهلية إلى الحضارة في المسجد، ثم إن الرسول صلى الله عليه وسلم قد اتخذ من بيت الله مسجدا للعبادة والصلاة ومدرسة ومعهدا وجامعة

(1) عبد الرحمن سلوادي، المرجع السابق، ص 224 (نقلا عن تفسير ابن باديس).

(2) "الجامع الأخضر" تمّ بناؤه بأمر من "حسين باي" للصلاة والتعليم سنة 1156 هـ، أنظر: عمار الطالبي، المرجع السابق، ص 116. والحقيقة أن اسمه "جامع سيدي لخضر" لكن سماه ابن باديس "بالجامع الأخضر" ليعده عن أية شبهة طرقية. أنظر:

- Ali Merad, Ibn Badis Commentateur du Coran, Op Cit, p 34.

(3)، (4) هذه المساجد موحدة إلى اليوم

(5) أحمد حماني، المصدر السابق، ج1، ص 236.

تخرّج الصحابة منها للإمامة والقضاء والقيادة والدعوة وكذلك فعل الصحابة -رضي الله عنهم- من بعده وتابعيهم، وقد أشار رئيس الجمعية إلى كل ذلك في تقريره عن التعليم المسجدي بقوله : «> المسجد والتعليم صنوان في الإسلام من يوم ظهر الإسلام؛ فما بنى النبي صلى الله عليه وسلم يوم استقر في دار الإسلام بيته حتى بنى المسجد. ولما بنى المسجد كان يقيم الصلاة فيه ويجلس لتعليم أصحابه. فارتباط المسجد بالتعليم كارتباطه بالصلاة. فكما لا مسجد بدون صلاة كذلك لا مسجد بدون تعليم، وحاجة الإسلام إليه كحاجته إلى الصلاة فلا إسلام بدون صلاة ولا إسلام بدون تعليم. ولهذا الحاجة مضى النبي صلى الله عليه وسلم بهما فما انقطع عمره عن الصلاة وعن التعليم في مسجده حتى في مرضه الذي توفي فيه >> (1).

وإذا لم يتوفر لابن باديس وأصحابه في أول النشاط الإصلاحية إلا المسجد، فقد توفّر له أول وأهم وسيلة للاتصال المباشر بالجماهير العريضة التي كانت تؤم المسجد للصلاة وسماع الخطبة وإنما لم تكن الإدارة الاستعمارية تخص لذلك شأن أوعين -رقابة- لاستهانتها بالأئمة الرسميين -ومن ثمة كل الأئمة- في ايقاظ الجماهير من سباتها وبالتالي عدم خطورتهم على سيادتها فإن ذلك لم يكن شأنها لما تولّى ابن باديس المساجد ثم علماء الجمعية فيما بعد.

ويبدو أن أولويات التعليم المسجدي قبل ظهور الجمعية إلى الوجود تختلف عنها بعد ظهورها وقد كانت هذه تتمثل في تخريج جماعة من الطلاب يحملون فكرة الإصلاح عقيدة راسخة، وحقيقة للخلاص. وقد بنى رئيس الجمعية ذلك على أساس أنه : >> لن يصلح المسلمون حتى يصلح علماؤهم. فإن العلماء من الأمة بمثابة القلب، إذا صلح صلح الجسد كله، وإذا فسد فسد الجسد كله >>. وصلاح المسلمين إنما هو بفقههم الإسلام وعملهم به، وإنما يصل إليهم هذا على يد علمائهم، فإذا كان علماؤهم أهل جمود في العلم وابتداع في العمل فكأنك المسلمون يكونون، فإذا أردنا إصلاح المسلمين فنصلح علماءهم ولن يصلح العلماء إلا إذا صلح تعليمهم >> (2).

(1) سجل مؤتمر جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، مصدر سابق، ص 104.

(2) رابع تركي، المرجع السابق، ص 242. (نقلا عن الشهاب).

وقد أثمرت جهود ابن باديس في التعليم المسجدي في تخريج كثير من الكفاءات الإصلاحية. كلها مسلحة بمرارة الإيمان وصحة العقيدة ، وصدق الوطنية ، ووضوح الهدف ، وفي الجملة تخريج "علماء" بمفهوم العالم الذي تريده الجمعية وتقبله كعضو عامل فيها . وكان من هؤلاء مبارك الملي والسعيد الزاهري الذين انتدبا لإكمال الدراسة في جامع الزيتونة جماعة الرواد : أهم نتائج التعليم المسجدي في الفترة التمهيديّة :

تتفق عودة العلماء من الحجاز أمنال البشير الابراهيمي (1) والطيب العقبي(2) بعودة صلاب ابن باديس من تونس (3) وحسن حفظ الجزائر فإن فئة الحجاز كما يسيها الابراهيمي لم رجعت بالهدى الخمدى الكاسل وكانت قد تأثرت بالإصلاح تأثرا خاصا مستمدا قوته وحرارته من كلام الله وسنة رسوله مباشرة .(4)

وقد اكتملت بهم الجامعة التي سعى ابن باديس لتكوينها والتي ستقود الإصلاح في الجزائر وتخرج جمعية العلماء إلى الوجود. والملاحظ أن كل هؤلاء قد وجهوا نشاطهم مباشرة بعد عودتهم إلى التعليم المسجدي دون أن يكون بينهم اتفاق سابق، وإن دل هذا على شيء فإنما يدل على أن القرآن الكريم وسنة الرسول صلى الله عليه وسلم في تكوين المجتمع المسلم إنما يركز على توحيد الأفعال بعد توحيد القلوب في العبادة ومن ثم توجه الإنشغال إلى زرع التعليم والعلم تماما كما كان يفعل الرسول صلى الله عليه وسلم وصحابته، ولا غرابة إذا في جلوس هؤلاء للوعظ والإرشاد والتعليم في المساجد. فقد جلس الابراهيمي مثلا في بعض مساجد سطيف، والعقبي في مساجد بسكرة وأثمرت جهود هؤلاء في إحداث بعض التغيير ولكنها على تشتها لم تحقق المطلوب ولأن الرجاء كان ضعيفا في تحقيق اجتماع العلماء من تلقاء أنفسهم»(5). وأن تحقيق النهضة لن يقوم إلا بتكوين

(1) عاد البشير الابراهيمي من الحجاز سنة 1921م

(2) عاد الطيب العقبي في مارس 1920 م

(3) من هؤلاء السعيد الزاهري ومبارك الملي

(4) سجل مؤتمر جمعية العلماء المسلمين الجزائريين ، مصدر سابق ، ص 49

(5) المصدر نفسه ، ص 50

الجمعية التي توّحد جهود الجميع في ذلك الإطار، فقد دعا ابن باديس صفوة العلماء من أنصاره المتخرجين من جامع "الزيتونة" وكذلك العائدين من المشرق العربي لدراسة حالة الجزائر والتعاون على وضع خطة عمل لانقاذ هذا الشعب العربي المسلم بالجزائر قبل فوات الأوان وقد تحقق له ذلك في "اجتماع الروّاد" كما يسمّيه الشيخ محمد خير الدين في مذكراته (1) سنة 1928م. وبهذا تكون فكرة جمعية العلماء التي فشلت سنة 1925م، قد أثمرت جهود ابن باديس وزملائه العلماء في وضع حجر أساسها المبدئي باجتماعهم في 1928م ويعود الفضل في ذلك إلى التعليم المسجدي الذي جعل الفكرة تستقر في الأذهان وتأنس بها النفوس الذي تمّ بها الاجتماع.

ويعتبر التقرير الذي قدّمه ابن باديس للمجتمعين وثيقة هامة من وثائق الجمعية في تحديد محور نشاطاتها وغاياتها في تحرير الجزائر واستقلالها وهذا قبل ظهور جمعية العلماء رسميا ومفيد جدا أن نقتبس منه هذه الفقرات -على طولها- حسبما أوردها محمد خير الدين (2) الذي حضر الاجتماع:

... >> أيها العلماء.. فلا شك أنه أصبح من المعلوم لدى كل واحد أن العدو الاستعماري الصليبي قد اغتصب أرضنا ودفع شعبنا إلى السكن في الكهوف ومغاور الجبال، وأصبح شغله إضعاف الشخصية الجزائرية سياسيا في طريق القضاء على وجودها لتحل محلها الشخصية الفرنسية.

وواصل الاستعمار سيره هذا في مخططه فأصدر القوانين المتعاقبة للقضاء على الشعب الجزائري بسهولة ويسر حتى لا تقوم مقاومة من داخل البلاد ولا تذاع جرائم المستعمرين خارجها: وقد رأيت من المفيد أن أقدم إلى جمعكم المحترم بعضا من هذه القوانين الخطيرة لتدرسوها وتمعنوا النظر فيها وفي نتائجها ولتعرفوا ما بيته لكم عدوكم:

1- قانون 1845م يقضي بتقسيم الجزائر إلى ثلاث عمالات (وهران، الجزائر، وقسنطينة) وجعلها ملحقة بالعمالات الفرنسية.

(1) محمد خير الدين، المصدر السابق، ج1، ص 83-85. ونقل ذلك بنصه: محمد الطاهر فضلاء، التحريف والتزييف في كتاب حياة كفا، مرجع سابق، ص 82-88. وعلق عليه في ص 88-89.
(2) المصدر السابق، ص 83-84-85 بتصرف.

2- قانون 1848م يؤكد أن الجزائر جزء من فرنسا.

3- قانون عن المجلس الفرنسي 1845م يصرح فيه بأن أرض الجزائر تعتبر أرضا

فرنسية.

4- في عام 1879م حدث جفاف عظيم بالجزائر ترتب عليه نقص كبير في محصول الغلال وأصبح المواطنون المسلمون في حالة يائسة وتفشّت فيهم الأمراض ومات عدد غير قليل منهم واستغل هذه الظروف "الكاردينال لافيغري" وأخذ يطوف في البوادي من الشمال إلى الجنوب حاملا بيده اليمنى الصليب (1) وبيده اليسرى الخبز والدواء. وتمكّن بهذه الوسيلة من تحويل جموع هائلة من مرضى المسلمين وأيتامهم عن دينهم الاسلامي وإدخالهم في الديانة المسيحية.

5- قانون 1900م الذي استولت فرنسا بموجبه على دور العبادة والأوقاف الإسلامية وضمتها إلى أملاك الدولة الفرنسية، ثم وضعت جميع الأملاك تحت إدارتها وأصبح التعليم العربي الإسلامي في الجزائر لا يمارس إلا برخصة تمنحها السلطات الفرنسية عادة للعملاء أو الجهال.

6- قانون 1901م القاضي بفصل الدين عن الدولة الذي طبق في فرنسا، وطبق على يهود الجزائر ومسيحييها لكن لم يشمل الدين الإسلامي الذي بقي في قبضة المستعمرين. والآن أيها العلماء قد شاء الله أن يهيئكم ويدخركم لهذا الظرف لتحملوا مسؤوليتكم بكل شجاعة وتضحية.. وأنا أقول لكم في هذا اليوم، لم يبق لنا إلا أحد أمرين هما إما الموت والشهادة في سبيل الله منتظرين النصر الذي وعد الله به عباده المؤمنين، أو الاستسلام ومدّ أيدينا إلى الأغلال وإنحاء رؤوسنا أمام الأعداء >> (2)...

وليس المقصود بهذا تكرار ما سبق بيانه لكن فائدته الأولى تكمن في أنه جاء على لسان رئيس جمعية العلماء وياقزار زملائه العلماء قادة الجمعية فيما بعد وذلك بعد مباشرة كل منهم التعليم المسجدي واختلاطهم بالجماهير، وإطلاعهم على الواقع الجزائري تحت قبضة الاستعمار، ويمكننا أن نستخرج من هذا التقرير مايلي:

(1) التسطير للباحثة.

(2) محمد خير الدين، المصدر السابق، ج1، ص 85.

1- تعتقد جمعية العلماء أن الاستعمار الفرنسي صليبي المضمون والمهدف ومن ثمّة فوسيلة جهاده تكمن في الإسلام وبوسائله التي مارسها الرسول صلى الله عليه وسلم وصحابته وهي الجديرة بهزيمته.

2- التأكيد على هدف الاستعمار الفرنسي بإلحاق الجزائر بفرنسا واعتبارها جزءاً منها وفي إيراده على التوالي ثلاثة قوانين، تأكيد على خطورة ذلك بالنسبة للجزائر والشعب الجزائري وبالتالي توجيه كل نشاط الجمعية إلى بعث الإنسان الجزائري المسلم بإحياء مقوماته الشخصية المتمثلة في دينه ولغته وأجماده وهو ما يعمّق جدار المغايرة ويحضر هوة الانفصال ويجعل الحلم مستحيلاً.

3- دعوة رئيس جمعية العلماء إلى الجهاد في سبيل الله والوطن وإناطة العلماء بمسؤولية ذلك لا لشيء إلا لأنهم هم علماء الأمة، وجعلهم أمام خيارين لا ثالث لهما: الموت أو النصر.

وبالإضافة إلى ما تقدّم فإن خطة العمل التي تقدم بها ابن باديس تؤكد بأن الجمعية كانت طيلة الفترة التي سبقت ظهورها تؤدي كل نشاطاتها التي ستؤديها بعد ذلك فقد جاء فيها: 1- تكوين لجنة من العلماء للتسيير والتنفيذ.

2- الشروع فوراً في إنشاء المدارس الحرة لتعليم اللغة العربية والتربية الإسلامية.

3- الإلتزام بإلقاء دروس الوعظ لعامة المسلمين في المساجد الحرة والجولان في أنحاء الوطن لتبليغ الدعوة الإصلاحية لجميع الناس.

4- الكتابة في الصحف والمجلات لتوعية طبقات الشعب.

5- إنشاء النوادي العربية للاجتماعات وإلقاء الخطب والمحاضرات.

6- إنشاء فرق الكشافة الإسلامية للشباب في كافة أنحاء البلاد.

7- العمل على إذكاء روح النضال في أوساط الشعب لتحرير البلاد من العبودية والحكم الأجنبي لأن مبدئنا الذي يجب أن نسير عليه هو اتباع هدي رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي علّم أصحابه أولاً العقيدة والإسلام ثم سلّحهم بالسيوف وأدوات القتال فكلّوا السلاحين لا يعني أحدهما عن الآخر (1).

(1) عماد خير الدين، المصدر السابق، ص 86- بتصرف.

يقول محمد خير الدين: ثم عيّن الرئيس جماعة من الرواد وحدّد لهم أماكن نشاطهم وجعل نشاط كل منهم كالاتي:

الشيخ البشير الابراهيمي، في مدينة "سطيف" وما حولها.

الشيخ مبارك الميلي بمكتب التعليم العربي ومساجد قسنطينة.

الشيخ الطيب العقبي في منطقة "بسكرة".

الشيخ العربي التبسي بمدينة "تبسة" وما جاورها.

الشيخ محمد خير الدين في بلدة "فرفار" وما جاورها من قرى واحات الزيان (1).

ويبدو كما هو ملاحظ أن هذه الفترة لم تقتصر على التعليم المسجدي فقط وإنما اشتملت على التعليم المكتبي، والصحافة والنوادي والاجتماعات لكن التعليم المسجدي كان أول نشاطها وأظهرها.

وقد حقق الاتصال المباشر عن طريق التعليم المسجدي - في الفترة التمهيديّة للجمعية - نجاحا معتبرا على عدة جهات كانت هي أهداف الجمعية التي توختها من خطتها في هذا المجال.

III- أهداف التعليم المسجدي عند جمعية العلماء:

1- بالنسبة للجماهير الجزائرية:

أ- زرع الفكرة الدينية:

بالإضافة إلى كون المسجد السبيل الوحيد للتعليم الإسلامي، وإطاره تماشيا مع القاعدة الإسلامية فإن الاتصال المباشر بالجماهير الجزائرية عن طريقه كان تحصيليا حاصلا نظرا لأمية الجزائريين وجهلهم، ولأمر ما كان عنصر الأمية هذا بالذات هو الذي تبنت دعائم التعليم الباديسي ورسّخه. فقد كانت الجماهير الجزائرية على أميتها سليمة الفطرة لم تفسدها برامج المدرسة الفرنسية ولا مزاعم مستشرقها ولم تلحقها فوضى الاختلاف المذهبي. وأن القرآن الكريم الذي أخرج من أمة قريش الأمية خير أمة أخرجت للناس على يد الرسول صلى الله عليه وسلم ولسيرته، وهو المنهج الذي استلهمه ابن باديس ورجال الجمعية واختاروه لإصلاح الجزائريين كان خليقا بأن يربي منهم رجالا كرجال السلف

ويبعث حضارة كالحضارة الأولى خاصة وقد توفرت لذلك بعض الشروط والظروف. إن دروس التفسير التي بدأها ابن باديس في الجامع الأخضر بقسنطينة لم تكن لتترك الجزائريين دون إثارة فضولهم واهتمامهم، فكل ما كان يمس القرآن الكريم من قريب أو من بعيد كان يحرك المسلمين الذين كانوا ينظرون >> للتفسير على أنه عمل نبيل ويستحق أعلى تقدير، ثم إن فهم القرآن الكريم يبقى دوما الطموح الخفي لكل مسلم ولو منعه منه قلة الكفاية المعرفية أو أبعده عنه حياة الترف أو انشغالات الحياة المختلفة<<(1). وقد كان ابن باديس يعلم هذا جيدا ويعيه، لكنه كان يعلم في الوقت نفسه أن ما يحتاجه الإسلام والمسلمون في الجزائر ليس إعداد تفسير كليّ وجديد للقرآن العظيم، يحيط بكل سورة وبكل آية، فقد كانت هذه مهمة تناقلها علماء الإسلام الجليل بعد الجليل، واستوفوها حقها - كل حسب تخصصه - وقد توفر لابن باديس كل مؤهلات ذلك معرفيا ولغويا غير أن ذلك لم يكن ليقدم الجديد للجماهير الجزائرية الأمية لأنها أولا لن تقرأه، ثم إن الإحاطة بذلك العمل كانت تتطلب وقتا طويلا جدا وغاية ما تؤول إليه أن يجمعه كتابا على رف في مكتبة لا يستفيد منه إلا أهل الاختصاص ومع قلتهم في الجزائر أو توفرهم المتأخر، يخرج عن إطار مهمة جمعية العلماء المنوطة أساسا بالاتصال بالجماهير الجزائرية العاجل بكل الوسائل والأساليب والعمل على تغييرها وليس الاقتصار على طبقة خاصة.

إن حياة الإسلام نفسه في الجزائر كانت مهددة بالزوال، وكان الجزائريون متلهفين لتلقي حلول جازمة وسريعة لكثيرات قضايا الساعة الخاصة بالنمو الاجتماعي والثقافي والسياسي من طرف من نصبوا أنفسهم قادة للسياسة وعلماء للدين، وقد نحى الأوائل نحو الاندماج، وبينما شمل الآخريين الجمود والدروشة. فجاء التعليم المسجدي الباديسي لإعادة بعث الإسلام الصحيح في الضمائر، فیرد له الاعتبار ويستعان به لتقديم الحلول. وقد بلغ تفسير القرآن بطريقة ابن باديس الغاية من ذلك، كأنما أراد تلقين مواطنيه >>ابتداء من تعلم القرآن "تلقي القرآن" أي كأن (يوحى) من جديد إلى الضمير المسلم "الحقيقة القرآنية" كما لو كانت جديدة نازلة من فورها من السماء على هذا الضمير >>(2). ومن

(1) Ali Merad, Ibn Badis Le Commentateur du Coran, Op Cit, p 14.

(2) مالك بن نبي، ميلاد مجتمع، ترجمة عبد الصبور شاهين (مصر، مكتبة دار العروبة، 1962م). ص 147.

ثم زرع يسميه مالك بن نبي بـ "المركب الديني" الذي يث الحياة في العناصر الرأكدة أو المكثفة فيخرج الإنسان من حالة الطبيعة ويندفع بطاقة حيوية هائلة قد ضبطت الفكرة الدينية فيها الغرائز والحيوية الحيوانية وردود الأفعال وأخضعها لنظام أخلاقي سام ودقيق لدى الفرد، ولنظام متماسك على درجة عالية من التوتر والتكافل على مستوى الجماعة» (1). ويفسر "ابن نبي" هذه العملية على ضوء مفهوم علم الاجتماع على أنها «تتفق مع شبكة من العلاقات على درجة عالية من الكثافة أي "البنيان المرصوص" بحسب التعبير الدبوي، ثم حسب مفهوم علم النفس على أنها تتفق مع المرحلة التي يكون الفرد خلالها في أحسن ظروفه والتي يكون فيها نظام أفعاله المنعكسة في أقصى فاعليته الإجتماعية وتكون طاقته الحيوية أيضا في أتم حالات تنظيمها وبكلمة واحدة "مرحلة الروح" التي تمثل مجتمعا قواه جميعا في حركة وهذه الحركة صاعدة على الدوام» (2). ونخلص إلى أن ما قصدته جمعية العلماء بالتهذيب ومحاربة الآفات الاجتماعية المختلفة وكل ما يجرمه الشرع الصحيح عن طريق الشرع الصحيح هو بالذات مقصود زرع الفكرة الدينية - الشيء الذي لم يعيه الكثير تمام الوعي - والتي لا يقتصر دورها في تغذية الجذور النفسية العامة فحسب وإنما تتدخل مباشرة في العناصر الشخصية التي تكوّن "الأنا" الواعية في الفرد وفي تنظيم الطاقة الحيوية التي تضعها الغرائز في خدمة هذه "الأنا" التي ستتحول بدورها إلى نشاط إجتماعي يبدع النشاط المشترك في التاريخ ويولد حركة دائمة صاعدة تتصرف فيها الإرادة، وتصل بالنشاط المشترك إلى نسج شبكة من العلاقات الاجتماعية في أقصى درجة من الفاعلية وإلى أسمى معنى من معانيها» (3). وهو دون شك تحقيق صفة "نحن" بمعنى إعادة لحمة المجتمع الجزائري من جديد.

ب- زرع وإعادة الأمل (حرب نفسية مضادة):

ارتبطت فترة الانكفاء الذاتي أو الانكماش التي فرضها الشعب الجزائري على نفسه كأسلوب فذ وأخير لمقاومة الاحتلال الفرنسي ومقاطعة مشاريعه التنصيرية

(1) مالك بن نبي، ميلاد مجتمع، مرجع سابق، ص 140-141. وشروط النهضة، مرجع سابق، ص 7-10

(2) المرجع نفسه ص 94.

(3) فهمي جدعان، المرجع السابق، ص 421.

والإنذماجية بفكرة روج لها علماء النفس والاجتماع وحتى الأنثروبولوجيون الفرنسيون وغيرهم بعدم صلاحية الفرد -وبالتالي المجتمع- الجزائري وعدم استعداده لأي عمل تمديني لأنه إنسان متخلف بالسليقة، وقد ربطت ذلك -كما مر بنا- أساسا بعرقه وجنسه وعقيدته وبعبارة أخرى أوضح فإن الإنسان الجزائري المسلم لا يرجى منه أي عمل تمديني إلا إذا انسلخ عن إسلامه وعروبته وقرآنه ولبس أسباب تقدم الغرب -فرنسا- التي تعني المسيحية واللغة الفرنسية.. وقد جانبوا في ذلك النظريات المعرفية والنزاهة العلمية والتجارب الإنسانية وحتى المنطق العقلي السليم. وهدف فرنسا في ذلك معروف وواضح لكنها مع ذلك استطاعت أن تؤثر في "النخبة" التي صنعتها على عينها وبين يدي مدارسها بمناهجها وبرامجها، هذه الأخيرة التي ربطت مصيرها بذلك الخداع وكرّسته في توجهاتها السياسيّة ومواقفها وسلوكياتها الحياتية البسيطة الخاصة والعامة، لكن الجماهير العربية المسلمة كانت تعي بالفطرة التي لم تدنّسها برامج فرنسا. ولو بصورة طفولية وبأسلوب صامت الخداع الاستعماري ولم تعره بالا والمسألة عندها على أقل تقدير عزة وكرامة يغذيها تاريخ من التجارب الحيّة التي تناقلتها الأجيال عن انتصارات الإسلام الكثيرة على النصرانية، ففي انكماشها حافظت على الإسلام والعربية بالذات ولو بطريقة تقليدية عن طريق الزوايا والكتاتيب القرآنية، وتقديرها وتعظيمها للعلم والعلماء حقيقة لا يختلف فيها اثنان ومن حاول نفي ذلك إنما يخدع نفسه أو يخادع التاريخ، ويكفي أن التاريخ لا يخدعه أحد.. لكن فرنسا بحملات التشويه والتيميس المدروسة والمخططة كادت أن تقضي على ما بقي لديها من المسلّمات العقلية والواقعية وترمي بها إلى الأبد، وبالتالي قتل كل سبب في الحياة، تستلذ دونه التضحية والموت وكل معنى للحياة كلّية. وكان ابن باديس يعي هذا جيدا، لكنه كان يعي أيضا أن الجماهير في أمس الحاجة لمن يفقد خداع فرنسا ومزاعمها -لا على سبيل التماجد اللفظي، وإنما على أرض الواقع، وطريقته في تفسير القرآن الكريم كما سنرى- قد حققت له فعلا وفي وقت قصير، فقد كان يقدم غذاءا مستمرًا للعقول والقلوب بنماذج من المثل العليا التي هي في النهاية مجمل القيم الأخلاقية

التي تحددها الفكرة الدينية» (1). ولما كانت الحقيقة القرآنية تتناغم مع الفطرة السليمة التي ترتبط بمنطق السنّة الإلهية في الكون والمخلوقات، والجماهير الجزائرية لم تكن بحاجة إلى عملية إقناع بقدر ما كانت بحاجة إلى مصدر ثقة، متمثل في عالم دين، فقيه، له وزنه العلمي والعملية ليذكر بذلك. ومن ثمّ فقد جعل ابن باديس من جلساته التفسيرية مجالس للتذكير أو مجالس للبناء كما يسميها "على مراد". وقد كان على يقين بأن كل حملات التشكيك والتشويه لن تصمد بل إنها ستندثر أمام الحقيقة القرآنية بينما تستقر هذه في قرار مكين من عقول وقلوب الجماهير الجزائرية.

وبهذا يخلق الأمل الجديد الذي يعث الثقة في النفس والرغبة في الحياة ثم الاستعداد للتضحية دون هذه المثل العليا حتى الموت، فيتحقق التغيير النابع من النفس ويكون في النهاية سببا لعملية النهوض. فإذا كانت الحرية عبارة عن مجموعة من الحريات كما يرى الفيلسوف برغسون (2) فإن الحصول عليها يتم بالحصول على جزئياتها شيئا فشيئا ومن ثمّة يكون التعليم المسجدي قد حقق منها تحرير الضمائر وزرع الأمل والثقة في النفس، وهي أهم المراحل بل هي عتبة المستقبل.

2- بالنسبة لحركة الإصلاح الإسلامي في الجزائر:

استطاع رئيس جمعية العلماء بتفسيره للقرآن الكريم تكسير العادة التي تأصلت في الجزائريين منذ زمن طويل وهي تقديس كل ما يأتي من المشرق العربي، وانتظارهم مجيء كل شيء منه حتى كأنما هو المنبع الوحيد للعلوم الإسلامية أو هو المحرك الأساسي للعبقريّة العربية، وقد عبّرت "الشهاب" عن هذا لما قال ابن باديس «من كثرة كلامنا عن المشرق العربي انتهينا إلى نسيان أنفسنا» (3) وبالتالي نسيان أن للجزائر أيضا علماءها ومفكروها، وأن فيها حركة ونهضة تماما كالتي كانت تحدث بالمشرق العربي. وإذا كان أهل المغرب الكبير يعرفون كل شيء عن المشرق العربي وخاصة منهم الجزائريون، فإن

(1) فهمير جادغان، المآخذ السنيّة، ص 421 (نقلا عن مسد قطيب، خصائص التفسير الإسلامي)

(2) Mohamed Aziz Lahbabi, Liberte ou Liberation a partir des libertes bergsoniennes (Algérie, SNED, 1974), 2è édition, p 195-196.

(3) عبد المالك مرتاض، الثقافة العربية في الجزائر بين التأثير والتأثر، مرجع سابق، ص 18.

المشاركة للأسف كانوا يجهلون تماما أخبار الجزائر، ولم يحاولوا التعرف إلى ما يحدث فيها، والتعرف على علمائها وأصحاب القلم فيها وكثيرا ما أخطأ كتاب المشرق وصحافيوه لما كانوا يتعرضون لها فيتناقلون عنها أخبارا مزيفة وينعتونها بنعوت خالية من الموضوعية والواقعية»⁽¹⁾، ومن ثمة فقد أراد ابن باديس أن يرّد أبصار مواطنيه إلى وطنهم والاهتمام بما يحدث فيه والمشاركة في حركته، وتفسيره القرآن الكريم - وهو ليس بالعمل البسيط شأنًا ومقامًا خليق بأن يسجل للجزائر- وللجزائريين عامة- حضورهم في حركة النهضة العربية الإسلامية ويجلب لها ولهم ما يستحقونه من شرف ذلك العمل الشريف.

أما على المستوى الوطني فإن هذه الفترة بالذات تعدّ مرحلة سرّية للدعوة الإصلاحية وقد أرادها رئيس الجمعية كذلك وعيا بثمارها ونتائجها. فأدى عمله في التعليم المسجدي بطريقة منظمة وهادفة لكن دون ضوضاء أو إثارة نعرات سواء منها السياسة التي تثير أحقاد الإدارة الاستعمارية لعلمه بعدم رسمية ما يقوم به من وجهة النظر الفرنسية وعدم الترخيص له في ذلك، أو الدينية التي تمزق كلمة المسلمين. ومنذ جلوسه لعمله التربوي والبيداغوجي لم يسنّ إلى أحد أو جماعة، ولم يتعرض لشهرة أو زعامة وكان يقول: «العمل لضمانينة الضمير هو العمل المنتج في مثل هذه البلاد»⁽²⁾ وفعلا فقد نجح في إعطاء المسجد الأخضر سمعة معهد هام للتعليم ومركز للفكر العربي ذي أهمية أولى في الجزائر، ونقطة عبور ضرورية لجامع الزيتونة بتونس.

وكانت هذه الفترة مرحلة هامة في جمع الجهود وتحديد المهام. وقد رأينا كيف كان دعاة الإصلاح يقبلون الآراء ويناقشونها ليخرجوا بأسلمها وأنجعها إلى النور. ومرت

النجاح بعد اجتماع الرواد وبداية تطبيق خطة العمل سنة 1928م التي انبثقت عنه ولما اتسمت بالمسألة فقد غلب عليها طابع الحركة من اللقاءات والاتصالات الشخصية بين العلماء لمناقشة أمر الجمعية، واستطلاع الآراء حولها والتي لخصها ابن باديس ووجد فيها من الدلائل والتعليمات في وجوب الاجتماع ما لا يدحض بحال.

(1) عبد المالك مرتاض، الثقافة العربية بين التأثير والتأثر، مرجع سابق، ص 14.

(2) عبد الرحمن بن العقون، المرجع السابق، ص 164. (نقلا عن الشهاب).

ويدخل في هذا الصدد لقاء ابن باديس بالابراهيمى سنة 1925م، واجتماع الرواد 1928م، وتنقلات ابن باديس الكثيرة بداية من 1929م وما بعدها التي مست كثيرا من مناطق القطر الجزائري خرج بها عن حيز المراكز الإصلاحية المعروفة وكان القصد منها تقديم النصائح، وجمع الجهود، وتشجيع الأغنياء على المساهمة في إنقاذ الوطن كما كانت تنقلاته بمثابة جولة اشهار لجمعية العلماء وتحسيس وتفقد. وسيوضح لنا فيما بعد روح التقارير الشاملة التي لم تكن بنت يومها أو عامها وإنما هي نتيجة ما حضر في هذه الفترة التمهيدية.

كما يدخل في هذا الصدد من جهة أخرى نداءات "المنتقد" ثم "الشهاب" بعدها وتحذيراتها الهادفة إلى تحريك همم الشعب لتقديم المساعدة المادية لصالح التعليم العربي الإسلامي في الجزائر، والذي سينقد الجزائر من الاندثار و"الذوبان في الهوة الأوربية" حسب تعبير علي مراد (1).

ومن ثم فقد كانت هذه الفترة ضرورية لجمع أصوات دعاة الإصلاح حول الجمعية الموجودين فعلا على الساحة لكن أيضا لتكوين وتربية الكفاءات وإعداد الجيل القائد الذي سوف يحمل الفكرة بعد ظهور جمعية العلماء إلى الوجود خاصة والاعتقاد قائم على أن صلاح المسلمين بصلاح علمائهم، وصلاح هؤلاء بصلاح تعليمهم وتوجيههم، وبفقههم الإسلام وهو بالذات ما دأب علماء الجمعية على تحقيقه في جيل المساجد الأول وفي هذه المرحلة بالذات.

وإذا أعدنا النظر فيما تقدم في هذه الفترة نجد أن علماء الإصلاح في الجزائر وعلى رأسهم ابن باديس قد استلهموا من الفترة المكية للدعوة الإسلامية سريتها من حيث مسالمة الكفار وعدم تعريض الدعوة الفتية إلى الضرر وجمع الجهود، وكسب الأنصار، وتكوين جيل الدعاة الذين تنقلوا بها في الأمصار ينقلونها ويشون مبادئها وتعاليمها، ويجلسون بها للتعليم والإعلام. وبينما أمر الرسول صلى الله عليه وسلم أول البعثة بدعوة عشيرته وقرباته الدموية ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ (2) تأمينا للدعوة، فإن الحكمة

(1) Ali Merad. Le Réformisme Musulman en Algérie, op Cit, p 139.

اقتضت من دعاة الإصلاح في الجزائر الإتصال بالعلماء أمثالهم والذين تربطهم بهم رابطة العلم والدين التي هي أعمق وأدوم من علاقة الدم كما قال ابن باديس: «إن العلم يخلق رابطة قوية بين العلماء المتتورين تتعدى رابطة القرابة، ومنذ أن يتغذى هؤلاء بغذاء العلم يصبحون كأفراد عائلة واحدة تماما كأفراد عائلة من أب واحد وأم واحدة» (1).

وخلاصة القول في هذه المرحلة - من الاتصال عن طريق التعليم المسجدي - هو ما قاله الابراهيمى في أن المصلحين الجزائريين لم يكونوا يقصدون من هذه الجمعية من يوم تصوروا فكرة إلى يوم أبرزوها حقيقة واقعة إلا غرضا واحدا وهو جمع القوى الموزعة من العلماء على اختلاف حظوظهم في العلم للتعاون على خدمة الدين الإسلامي واللغة العربية والنهوض بالأمة الجزائرية من طريقهما» (2).

III - التعليم المسجدي في الفترة الرسمية (العينية):

1- المعطيات الواقعية الجديدة للجماهير الجزائرية وثمار التعليم المسجدي:

الواقع أن أهمية الفترة التمهيدية تعود إلى ما أثمرته من ملامح الحركة وبوادر النهضة وهذه المرة لم تكن على مستوى العلماء وهم الذين بذروها وتعهدها بالدرس والوعظ والتوعية وإنما على مستوى الجماهير التي كانت قبل جامدة يائسة. وشمل ذلك كل الميادين والمجالات وعمّ كثير من المناطق التي وصلتها يد العلماء وفكرة الإصلاح. ففي مدينة تبسة مثلا يشهد ماثك بن نبي على ذلك ويعيش التحول في مدينته، ويصفه فيقول: وكان من حسن الطالع أن فورة في الأفكار بدأت تسود تبسة، ففي ذلك الزمن أنشئ كما أعتقد أول ناد في تبسة... وقد أنشئ هذا النادي حين اقتضت حاجة ذلك الثفرين من العنساء الذي بدأ يتحلق حول الشيخ العربي التبسي إلى مكان يترددون إليه ولا تتعرض هيبتهم للثقيل والقال... ثم إن النادي بصفته قائما في ساحة القصبة، التي كانت المجال الخاص بالأوربي أتاح للجزائري (ابن البلد) أن يثبت للأوروبي أنه يستطيع أن ينشئ لنفسه مكانا مخصصا لاجتماعاته» (3).

(1) Ali Merad , Ibn Badis Commentateur du Coran, Op Cit , p 33.

(2) سجل مؤتمر جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، مصدر سابق، ص 55-56.

(3) مالك بن نبي، مذكرات، شاهد قرن: القسم الأول الطفل 1905-1930. (دسئق، دار الفكر، 1981م). ط 2، ص 167.

ويضيف ابن نبي أن التغيير قد لمس الآفات الاجتماعية ببداية محاربتها من طرف الشعب نفسه ويقول >> فثمة تطورات جديدة بالملاحظة تؤرخ لهذا التحول: فقد بدأت حلقات الرقص تشهد فراغا من حولها وكانت من قبل تستقطب في العادة الجزائريين، يتزاحمون بالمناسك حول الحلبة التي في داخلها يرقص كل زوجين من الأوربيين والأوربيات >> (1).

>> وهناك تحوّل آخر ليس بأقل بروزا تم إحرازه على صعيد محاربة الخمر وذلك باستخدام باب المسجد صبيحة يوم العيد فتعلق عليها قائمة أولئك المفطرين في رمضان الذين شربوا الخمر، وقد كان ذلك حلا جذريا >> (2).

ونلاحظ أن هناك روحا للتغيير بدأت تنبعث من أوساط الجماهير الجزائرية التي كانت تقوم بالعمل على أنها كتلة مسؤولة تعي شر الآفات الاجتماعية ودليلها على التخلف والدّل ويقول ابن نبي معلقا على ما وصف بأنه >> كان ثمة إحساس غامض استولى على شبان تبسة، إنه الانعتاق من وطأة التصنيف الاستعماري للأهالي >> (3). فاجتماع السكان ومحاربتهم بصفة جماعية آفة تخصهم وتضامنهم للتصدي لما يضرهم دليل قاطع على يقظة شعورهم الجماعي ووعيهم بذاتيتهم وقراراتهم وهذه هي خصائص المجتمع.

ويضيف ابن نبي: بأنه >> منذ 1925م بدأت الروح الاجتماعية في البروز في وقائع محدّدة كإنشاء النوادي التي كانت أكثر تعبيرا من عشرة انتخابات يزورها الحاكم أو الزعيم، ثم أن النادي لم يبق طويلا في مكانه الذي أنشئ فيه فالناس قد قرروا تهيئة مقر جديد له وتأسيسه وفرشه لإعطائه استقلاله وطابعه الخاص، ومنذ ذلك التاريخ شرع الناس في بناء مسجد غير خاضع لرقابة الإدارة >> (4). وخلاصته أن الشعب كان يعمل بنفسه على تأسيس نواديه وبناء مساجده ومدارسه.

(1) مالك بن نبي، شاهد قرن، القسم الأول، مرجع سابق، ص 168.

(2) المكان نفسه.

(3) المرجع نفسه، ص 167-168.

يمكن الوقوف عند هذه المعطيات واعتبارها حقيقة الحقائق، فجمعية العلماء قد نجحت نجاحا باهرا في ردة الشعور الإجتماعي للجماهير، والإحساس بالذاتية، وبث ضرورة التضامن ثم الشروع في التعبير عن ذلك بالمنجزات البسيطة لكن ذات المغزى العميق في الانفصال عن الإحتلال والتحرر من وطأته النفسية بل وعدم الاهتمام بطلب الإذن للقيام بمشاريعهم. وهل يقف أمام هذا التحول العجيب عدة مطالب تتسول من إدارة الإحتلال تدعوها إلى بناء المدارس، وحرية التعليم...؟.

ويصف محمد خير الدين ظهور هذه الروح الجماعية العميقة نفسها في مدينة بسكرة سنة 1931م عندما زار وفد من العلماء على رأسهم عبد الحميد بن باديس المنطقة يقول: «> زار هذا الوفد مدينة بسكرة وأقام بها عدة أيام حفلت بالنشاط وإلقاء دروس الوعظ والإرشاد في المساجد. وتدفقت وفود الطلاب والأعيان كالسيل المنهمر للمشاركة في الترحيب والاستماع إلى الدروس، ويضيف معلقا: وكان هذا التدفق يعبر عن روح جديدة وآمال عريضة تبشر بالخير وتطمئن النفوس على مستقبل الحركة الإصلاحية في هذه الناحية وتعكس مقدار عمقها في نفوس الشعب الجزائري المسلم» (1).

إن ما كان يحدث في تبسة أو في بسكرة كان يقع مثله تماما في تلمسان حيث الشيخ الابراهيمي وفي العاصمة حيث الطيب العقبي، وواضح أن قسنطينة التي كانت مهد الإصلاح وحصنه ومركزه كانت تشهد أكثر من ذلك وغيره. ويلخص الابراهيمي بواد النهضة التي بدأت تعم البلاد فيقول: «> فقد دبّ في

بالفساد هو أول مراحل الإصلاح وتجلّى هذا الشعور بالعمل في عدة نواح من حياتها العامة. فتجلّى في الناحية الاقتصادية بالدخول في ميادين الكسب التي كانت وقفا على غير المسلم الجزائري. وتجلّى في الناحية الأدبية بتأسيس النوادي والجمعيات المختلفة، وتجلّى في الناحية العلمية بالإقبال على القراءة والتعلم باللغتين العربية والفرنسية وبالبذل على العلم والتغربّ في سبيله، وتجلّى في الناحية الدينية بتشديد المساجد في القرى والإنفاق عليها من مال الأمة الخالص وتجلّى في الناحية النفسية بالتفكير الجدي المستقيم ومن

(1) محمد خير الدين، المصدر السابق، ص 96.

مظاهره الاعتماد على النفس في الأعمال التي ذكرنا والإيمان بوجود شيء اسمه الأمة، بعد أن كانت هذه الأمة تعتمد في دنياها على الحكومة، وفي آخرتها على المرابطين» (1).

ويؤكد الإبراهيمي بأن بوادر النهضة وإن ظهرت آثارها في جهات حياتها المختلفة، «ولكنها كانت في جهات الدين الإسلامي واللغة العربية حارة وفوّارة وهما الجهتان اللتان عرفت الأمة الجزائرية بالتمسك بهما والغيرة عليهما» (2).

والمهم بعد هذا كله بالنسبة لدعاة الإصلاح أن جهودهم التعليمية سواء في المساجد بالوعظ والإرشاد أو بالتربية الدينية الرّاسخة، قد تحقّق منها ما كانوا يصبون إليه من تكوين جمعية قوية تشرف على الإصلاح وتتولى تخطيط مناهجه وكانت هي جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، يقول البشير الإبراهيمي: «ومن الحق أن نقول أن أكثر الفضل في تنبيه ذلك الشعور في الأمة يرجع إلى ما كان يبثه رجال الإصلاح الديني فرادى بين الأمة، فلم يمض وقت قليل من الزمن حتى غمر الأمة شعور عام بلزوم إصلاح عام يشمل الدين والعلم والاجتماع، ورأت نهج الإصلاح في هذه المقومات الثلاث واضحا فكانت»

تشرف على هذا الإصلاح وتتولى تخطيط مناهجه عتيدة راسخة مستثنوية عنى عقور العوام والخواص، وأصبحت بواعث تأسيسها صادرة من الأمة لا من العلماء وحدهم. فانقاد الجميع أمة وعلماء إلى تأسيس هذا المشروع العظيم بما يشبه الاضطرار وتم ذلك بكل سهولة وبدون كلفة» (3).

والجدير بالملاحظة في هذا التقرير الحثي والشامل أن عودة الشعور بشيء اسمه الأمة

العوام فأمر يستحق العجب. وبالتالي التأكيد على أن الاتصال المباشر أتى آكله منهم خاصة ونحن نعلم أن مضامينه كانت تتمثل في مجالس التذكير وتشمل تفسيراً للقرآن الكريم وتذكيراً بسنة الرسول صلى الله عليه وسلم.

(1) سجل مؤتمر جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، مصدر سابق، ص 57.

(2) المكان نفسه.

(3) المكان نفسه.

وللعلم فإن ابن باديس لم يبدأ نشر حلقات مجالس التذكير هذه في "مجلة الشهاب" إلا بداية من سنة 1929م (1) وقبل هذا التاريخ كان يقوم بذلك درسا شفويا، في الجامع الأخضر، تذكيرا بعد الصلوات وللصغار في المدارس الحرة. وكذا بالمراكز الثقافية المختلفة. ويصف محمد الصالح بن عتيق وقد درس على يد ابن باديس، يوما تعليما (2) للأستاذ الإمام فيقول: «فقد يستغرق عمله جميع النهار وجزءا من الليل، ويشرع في الدرس الأول بعد صلاة الصبح مباشرة ويستمر إلى منتصف النهار، ثم يستأنف العمل بعد صلاة الظهر إلى أن يحين المغرب، فينصرف بعد صلاة المغرب إلى درس التفسير بالجامع الأخضر، وينتهي منه عند صلاة العشاء، وهكذا دو اليك كل يوم ماعدا يوم الجمعة» (3) إذ كان له برنامج خاص به.

ويبدو أن الهدف الأساسي في هذه الفترة بالإضافة إلى ما تقدم هو إحداث ثورة تعليمية حقيقية يلمسها العام والخاص، فوصل الدرس بالدرس طوال النهار لجميع فئات الشعب يملا وقت الناس بالمفيد الذي يربطهم بالعقيدة والأخلاق والمثل العليا بدلا من الفراغ الذي يقضونه في إتيان الآفات التي حرّمها الشرع بما يرضي فرنسا التي عملت لنشره بينهم. أما مضامين الدروس ومنهج تعليمها فيبدو أنها كانت تتغير حسبما تقتضيه أولويات الأحداث والقضايا التي يواجهها الجمهور الجزائري وكذا المراحل التي سطرتها جمعية العلماء المسلمين الجزائريين كخط سير وهو ما سنعرفه في مرحلة ما بعد الترسيم.

2- التعليم المسجدي بعد ظهور جمعية العلماء:

يقول رئيس جمعية العلماء: «إن صرف أعزّ الأوقات، وتكريس جانب من

العمل لمختمين يستهينون ببيداهم السخية ويستصعرون كل خطر، ويزجون بأنفسهم في أتون متأجج مضطرم، حبا في العمل المنتج ذاته، وفي العمل لسعادة المجتمع» (4).

(1) نشرت الشهاب أولى دروس مجالس التذكير، ج1، ص 5 رمضان 1347هـ / فيفري 1929.

(2) كان هذا حوالي سنة 1926م حسبما يفهم من نص الشيخ بن عتيق، المصدر السابق، ص 55-56.

(3) محمد الصالح بن عتيق، المصدر السابق، ص 56.

(4) عبد الرحمن بن العقون، المرجع السابق، ص 164. (نقلا عن الشهاب).

إن بذل الوقت لدراسة اتجاهات المجتمع أول خطوة لضمان نجاح أية عملية اتصالية تخص هذا المجتمع لأن ذلك أساس كل تخطيط في الإحاطة بأسلوب الاتصال بأفراده وأدواته ووسائله، ومن ثمّ فجمعية العلماء التي ستباشر العمل رسمياً منذ ماي 1931م ستنتقل من قاعدة ثرية من المعطيات التي ترجح بها سبل النجاح وتسهّل عليها تجاوز العراقيل وهذا ليس من قبيل إيمان أصحابها العلماء بقداسة واجبهم وإقبالهم على التضحية في سبيله إقتداء بالأنبياء أولي العزم - وهم ورثتهم - فقط، ثم إيماننا بما تبشر به آيات القرآن الكريم ﴿إِن نَخْصِرُوا اللَّهَ يَخْصِرْكُمْ﴾ (1) فحسب مع أن هذا هو الركن الركين الذي يرتكزون عليه في توجهاتهم كلّها، وإنما اتخذوا لذلك أسباباً تجعل تركلهم سليماً. ومن ذلك إحاطتهم بالوضع في الجزائر من كل جوانبه، وحالة الجماهير، وضرورات العمل وأولوياته، ونسبي ما كانت لديهم من ملامح النجاح النهائي وإنما ملموساً بعدما كان من قبيل الاطمئنان القلبي، وإن لم يخصّهم هذا التأكيد فإنه يفيد كل المتشككين والمذبذبين والمغرضين، وعلى ضوء كل ذلك كتمار للمرحلة التمهيديّة الهامة - كانت تقاريرهم المختلفة، ورفقات عمل في كل المجالات التي ستتصدّر الجمعية للأخذ بزمامها بعد أن ألقى الشعب بمصيره بين يديها. ولأننا سنتكلم عن كل تقرير في مجاله الاتصالي كما سيأتي فإنه يهمننا هنا التقرير الخاص بالتعليم المسجدي الذي تقدّم به "الشيخ عبد الحميد بن باديس" نفسه، وجعل خطة بحثه له: أصل مشروعيته واستمرار العمل به، نوع التعليم المسجدي، الحاجة إليه، وجوب القيام به، والحالة التي هو عليها، كل ذلك على نحو ما مرّ بنا تقريباً دينية يتخرج منها رجال فقهاء بالدين يعلمون الأمة أمر دينها، وأستطيع القول أن نواة "هذه الكلية هم الطلاب الذين يردون على الجامع الأخضر بقسنطينة من العمالات الثلاث. فلو أن الجمعية سعت لتوسيعها بترسيم معلّمين ورعاية مدد المتعلمين ووضع خطة التعليم لقامت بأعظم عمل علمي ديني للأمة في حاضرها ومستقبلها >> (2).

إن السبب الذي جعل الجزائر المسلمة في حاجة إلى جمعية قوية ومنظمة تدبّر

(1) عمّد، 7.

(2) سجل مؤتمر جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، مصدر سابق، ص 106-107.

وتخطّط وتحدّد البرامج والمناهج الكفيلة بإعادة العزّة والكرامة للمدّين والوطن. هو نفسه السبب الذي جعلها في حاجة ماسّة لكلية دينية يتخرج منها علماء بالدين، يعلّمون الأمة أمر دينها. وإذا كانت الخطوة الأولى قد تحققت فإن المرحلة الجديدة تتطلب هذا الجديد الذي ما هو إلا برنامج من البرامج ومشروع من المشاريع الكثيرة التي آلت الجمعية على نفسها تحقيقها. ثم إذا كانت الجمعية قد أصبحت مطلبًا جماهيريًا، فإن الكلية ستصبح كذلك مادامت الدعوة موجزة فعلا وهذا ما تنحو إليه روح المسؤولية والاستقلالية والفعالية التي ينطق بها التقرير. والملاحظ أن ما حقته الجمعية في جانب بناء المساجد بعد بناء الإنسان والذي ألح إليه التقرير ووصفه بالقليل >> بالنسبة لأكثر من خمسة ملايين من المسلمين<>(1). فإنه من المشاريع المنجزة أولا والجمعية تخطّط للمستقبل وتحترم المراحل. فما تحقّق انتهى لكنه قليل والقضية تخص خمسة ملايين ومستقبلهم.

وفي هذا المجال فإن بناء المساجد قد انتشر بسرعة مذهلة في البلاد مما أدهش الإدارة الاستعمارية، حيث أنشأت الجمعية بما لها >> بضع وتسعين مسجدا في سنة واحدة في أمهات المدن والقرى >>(2).

وقد كان ذأب الجمعية في إنشاء المساجد والمنشآت الدينية والثقافية الأخرى يندرج تحت إطار ذاتية إيمانية للمسلمين تنبئهم الدينية، وحرية التصرف في كافة المسائل التي لها مساس بالدين >>(3). وأنها بهذا تسجل كثيرا من الأهداف الأخرى وعلى كثير من المستويات وخاصة على مستوى قناعات الجماهير بطريقة واقعية ملموسة في حالة رفض الإدارة الاستعمارية لذلك وهو فعلا ما حقته من خلق الشعور بالمسؤولية والمبادرة.. والح. وقد قدّر سياسيو فرنسا: المظاهرات الجماهيرية لصالح حرية الوعظ واللغة العربية سنة 1934م ثم سنة 1936م. -وتحرّكات الجماهير قبل ذلك أيضا- >> بأنها محاولات حقيقية للتجنيد ليوم معلوم >>(4). كما نبّه المتصرّف الإداري لبلدة فج مزاله في تقرير يحذر

(1) سجل مؤتمر جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، مصدر سابق، ص 106.

(2) عبد الكريم بوصفصاف، المرجع السابق، ص 148. (نقلا عن رابع تركي، التعليم القومي والشخصية الوطنية)

(3) أحمد الخطيب، جمعية العلماء المسلمين الجزائريين وأثرها الإصلاحي في الجزائر، مرجع سابق، ص 186.

(4) الجبلاي صاري، محفوظ قدّاش، المقارمة السياسية، مرجع سابق، ص 44.

فيه >>من تزايد المساجد الإصلاحية التي تشيّد بأموال الشعب بأنها ستصبح في المستقبل مراكز دعوة قوية تجبر المرابطين على التقهقر، وتقف صامدة في وجه الطريقة>> (1) وبالتالي ستهوى معاقل الخوف والخذاع والجهل ويتضح طريق التحرّر.

وقد نبّه مبارك الميلي من جهة أخرى في تقريره المالي سنة 1935م إلى أمر هام حققته جمعية العلماء قائلا: >>قد زاد الدّاخل في هذه السنة زيادة ذات بال، فكانت مالية الجمعية والحمد لله في زيادة مطردة، وقد كنت أعتذر عن ضعف الدّاخل بأعذار في أولها ضيق الحال واشتداد الأزمة ولكن زيادة هذه السنة التي لم تعرف الجزائر في حياتها أشد منها على ماليتها تضطر كل معتبر بالحوادث إلى إلغاء هذا العذر في مشروع عام كهذا، وتنبّه قارئ كتاب الحياة إلى أن المشاريع الدائمة تعتمد على عمارة القلوب أكثر مما تعتمد على امتلاء الجيوب، فإذا عمرت القلوب بالخير انتجت من الآثار ما يدهش كل غير >> (2)

إن إقناع الجماهير الأمية، الجاهلة، الفقيرة.. وكذا مغروري الشعب وأغنيائه بضرورة الإنفاق على بناء المساجد الدّينية والمدارس وغيرها من المشاريع البناءة الأخرى لأمر يدعو للعجب حقا ولا يصلح له تعليق إلا لنجاح الثورة الثقافية والتعليمية التي قادتها جمعية العلماء.

3- الآفاق الاتصالية للتعليم المسجدي عند جمعية العلماء:

يعتبر الجامع الأخضر في قسنطينة المركز الأول الذي انطلق منه التعليم الاصلاحى المسجدي في الجزائر (3) ومن بين المساجد الكثيرة التي أنشأتها جمعية العلماء يأتي الجامع الأخضر على رأس المساجد التي برزت في الحقل التعليمي وقد قاد منه ابن باديس ثورته التعليمية التي أعاد بها الحياة إلى الحركة التعليمية به وبالجزائر. وقد مرّ بنا كيف أن أغلب علماء الجمعية بدأوا نشاطهم الاصلاحى بالتعليم المسجدي.

(1) عبد الكريم بالصفصاف، مرجع سابق، ص 148-149. (نقلا عن رابح تركي، التعليم القومي والشخصية الوطنية).

(2) سجل مؤتمر جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، مصدر سابق، ص 90.

(3) أحمد الخطيب، جمعية العلماء المسلمين الجزائريين وأثرها الاصلاحى في الجزائر، مرجع سابق، ص 208.

وقد نشرت جريدة "البصائر" في عامها الأول 1936م بياناً عن الحركة العلمية بالجامع الأخضر أشارت فيه بأن التدريس به يتم في أربعة مراحل (طبقات) وأن المواد المدروسة هي كالتالي: التفسير، الحديث، الفقه، الفرائض، العقائد، الآداب، المواعظ، التجويد، الأصول، المنطق، النحو، الصرف، البلاغة، الأدب، المحفوظات، ومطالعات ودراسة، الإنشاء، الحساب، الجغرافيا، التاريخ (1). أوردت الجريدة عناوين الكتب المدروسة وكذا أسماء المعلمين وعدد التلاميذ بالجامع.

وبالإضافة إلى الجامع الأخضر، فقد كانت هناك مساجد أخرى في العاصمة وتيسة وقسنطينة وتلمسان ومازونة. >> وقد انتقلت دروس الجامع الأخضر إلى مدينة تيسة سنة 1940م أي بعد وفاة الشيخ ابن باديس، أين أشرف عليها الشيخ العربي التبسي ثم أعيدت إلى مركزها الأصلي بقسنطينة عام 1942م >> (2). وواصلت الجمعية إشرافها على الدروس العلمية بالجامع الأخضر ثم في معهد ابن باديس منذ إنشائه سنة 1947م وحتى إغلاقه بعد قيام الثورة التحريرية الكبرى.

ومع التأكيد على أهمية دروس علوم اللغة العربية والتاريخ والجغرافيا وغيرها بالجامع الأخضر إلا أن دروس التفسير والحديث كانت تكتسي أهمية خاصة وأساسية بحكم الآفاق الآنية والبعيدة التي استهدفها رئيس الجمعية وزملاؤه العلماء، وللإشارة فقد كانت هذه الدروس هي نفسها رسالة الإصلاح السلفي وقد وضعها رجال الجمعية أساساً فكرياً لبرامجهم التي تنبثق منها وبها كل الوسائل الأخرى، ومن ثمة فهي تعتبر >> أهم مرجع مذهبي للإصلاح الجزائري لأنها تقدم بوضوح آراء ابن باديس وبالتالي جمعية العلماء حول كبريات الأحداث والمسائل العقديّة الإسلامية >> (3).

وقد عمل ابن باديس منذ بدأ دروسه بالجامع الأخضر والتي سماها بـ "محالس التذكير" على تبسيط عرض وتحليل وتفسير المادة القرآنية ونصوص الحديث النبوي وجعل فهمها في متناول الجمهور المتلقي وقد اتبع في ذلك أسلوباً تربوياً وبيداغوجياً فذا ينطق

(1) جريدة البصائر، عدد 47، 11 ديسمبر 1936م، ص 5. بتصرف.

(2) أحمد الخطيب، جمعية العلماء المسلمين الجزائريين وأثرها الاصلاحى في الجزائر، مرجع سابق، ص 209.

(3) Ali Merad, Ibn Badis, Commentateur du Coran, Op Cit , p 12.

وقد نشرت جريدة "البصائر" في عامها الأول 1936م بياناً عن الحركة العلمية بالجامع الأخضر أشارت فيه بأن التدريس به يتم في أربعة مراحل (طبقات) وأن المواد المدروسة هي كالتالي: التفسير، الحديث، الفقه، الفرائض، العقائد، الآداب، المواعظ، التجويد، الأصول، المنطق، النحو، الصرف، البلاغة، الأدب، المحفوظات، ومطالعات ودراسة، الإنشاء، الحساب، الجغرافيا، التاريخ (1). أوردت الجريدة عناوين الكتب المدروسة وكذا أسماء المعلمين وعدد التلاميذ بالجامع.

وبالإضافة إلى الجامع الأخضر، فقد كانت هناك مساجد أخرى في العاصمة تبسة وقسنطينة وتلمسان ومازونة. >> وقد انتقلت دروس الجامع الأخضر إلى مدينة تبسة سنة 1940م أي بعد وفاة الشيخ ابن باديس، أين أشرف عليها الشيخ العربي التبسي ثم أعيدت إلى مركزها الأصلي بقسنطينة عام 1942م >> (2). وواصلت الجمعية إشرافها على الدروس العلمية بالجامع الأخضر ثم في معهد ابن باديس منذ إنشائه سنة 1947م وحتى إغلاقه بعد قيام الثورة التحريرية الكبرى.

ومع التأكيد على أهمية دروس علوم اللغة العربية والتاريخ والجغرافيا وغيرها بالجامع الأخضر إلا أن دروس التفسير والحديث كانت تكتسي أهمية خاصة وأساسية بحكم الآفاق الآنية والبعيدة التي استهدفها رئيس الجمعية وزملاؤه العلماء، وللإشارة فقد كانت هذه الدروس هي نفسها رسالة الإصلاح السلفي وقد وضعها رجال الجمعية أساساً فكرياً لبرامجهم التي تبنق منها وبها كل الوسائل الأخرى، ومن ثمة فهي تعتبر >> أهم مرجع مذهبي للإصلاح الجزائري لأنها تقدم بوضوح آراء ابن باديس وبالتالي جمعية العلماء حول كبريات الأحداث والمسائل العقديّة الإسلامية >> (3).

وقد عمل ابن باديس منذ بدأ دروسه بالجامع الأخضر والتي سماها بـ "مجالس التذكير" على تبسيط عرض وتحليل وتفسير المادة القرآنية ونصوص الحديث النبوي وجعل فهمها في متناول الجمهور المتلقي وقد اتبع في ذلك أسلوباً تربوياً وبيداغوجياً فذا ينطق

(1) جريدة البصائر، عدد 47، 11 ديسمبر 1936م، ص 5. بتصرف.

(2) أحمد الخطيب، جمعية العلماء المسلمين الجزائريين وأثرها الإصلاحي في الجزائر، مرجع سابق، ص 209.

(3) Ali Merad, Ibn Badis, Commentateur du Coran, Op Cit , p 12.

بأهداف أصحابه التي تتمثل في :

1- إحداث تجديد عام للحياة الإسلامية في الجزائر على أساس من مبادئ الإسلام وسيرة الرسول صلى الله عليه وسلم، وعليه، البحث عبر نصوص القرآن الكريم والسنة المطهرة لاستخراج التعاليم الأساسية، عن طريق تفسير موجز يمسّ الأهم. وبعبارة أخرى استخراج << المعطيات الخاصة بتوعية واضحة وآنية للحياة الدينية والسلوك الاجتماعي للمسلمين باعتبارهم مواطنين ينتمون إلى عالم متحضر >> (1).

2- تقديم بعض جوانب المذهبية الإسلامية للجمهور الجزائري المسلم كما يراها المصلحون السلفيون فغالبا ما كان يوجه اختيار نصوص التفسير والحديث إلى انشغال المصلحين بتقوية إيمان الجزائريين، وتحريك اهتمامهم الديني وتحسيسهم بالمخاطر التي تحدق بمستقبلهم العقدي والثقافي وبالتالي مصيرهم كشعب مسلم. ويسمح بتذكيرهم في إحاطة وإيجاز أهم محطات أبحادهم الثقافية والتاريخية وتحديد مكونات مقومات شخصيتهم العربية الإسلامية التي هم مطالبون بالحفاظ عليها والتضحية دونها.

3- استغلال المادة القرآنية والحديث الشريف لتوجيه تفكير الجزائريين إلى اتخاذ المواقف واقتراح الحلول على أساس من عقيدتهم الإسلامية وهذا انطلاقا من إيمان علماء الجمعية بأن الرسول صلى الله عليه وسلم إنما ربي الصحابة بالقرآن الكريم وذلك بتنظيم علاقاتهم وتوجيه حياتهم على أساس من العبادات والمعاملات والأخلاق، وجعلهم يحكمون على سائر القضايا والمشكلات التي تواجههم من منطلقات العقيدة الإسلامية وعلى ضوء الإيمان، وهو بالذات ما هدفت إليه الدروس المسجدية << فإذا كانت الفطرة الإنسانية هي التربية الخصبية لتلقي الإيمان فإنه عندما تضرب العقيدة الإسلامية بجذورها في تلك التربة الإيمانية، تصبح الشريعة بمبادئها وقيمها أساسا للحكم على الأشياء، وتنشأ الاتجاهات والمواقف في ظل الطاعة والالتزام >> (2) لأن الآراء ما هي إلا تعبير عن تلك الاتجاهات والمواقف في مواجهة ما يعرض للإنسان من قضايا ومشكلات. ومن ثمة وسيرا على سنة الرسول صلى الله عليه وسلم، في تدريب المسلمين على تكوين الرأي العام

(1) Ali Merad, Ibn Badis, Commentateur du coran, Op Cit, p12.

(2) ابراهيم إمام، المرجع السابق، ص 265-266.

السليم المبني على قيم الإسلام وعلى نحو ما تنادي به العقيدة الإسلامية وهو ما شهدته دروس وحلقات دار الأرقم بن الأرقم في مكة. فقد عملت جمعية العلماء على تدريب الجزائريين على تكوين الرأي العام المبني على أساس الإسلام والشريعة الإسلامية عن طريق دروس التفسير والحديث، والتعليم المسجدي عامة بالجامع الأخضر بقسنطينة وغيره من المساجد التي شيّدها الجمعية لهذا الغرض في مختلف المدن والقرى من القطر الجزائري.

ونفهم في النهاية ما ميّز الدرس المسجدي من سهولة وبساطة وخاصة دروس التفسير والحديث فلما كانت هذه تختار بعناية وتعرض لأهم قضايا الساعة التي تمسّ مصير المسلمين الجزائريين، ولما كان جمهور المسجد من الطلاب أو من البالغين الذي تجاوزهم التعليم وهم بحاجة إلى تبسيط موادّه وأساليبه لهم، تطلّب الأمر التركيز على الأهم في أسلوب بسيط ولغة سهلة، ثم الابتعاد عن مواضع الاختلاف، وعن مباحث علم الكلام التي تثير الحيرة وتشوّش التفكير، وبما يقدم المادة القرآنية بالبساطة التي تحقق الغرض في أقصر وقت وبأحسن النتائج على صعيد الروح والضمير والسلوك في آن واحد.

IV- نماذج من دروس مجالس التذكير :

وقد اشتملت دروس التذكير على :

1- تفسير آيات من القرآن الكريم: التي كانت تختار بعناية بين كثير من الآيات في السورة الواحدة بيانا لحكم من الأحكام، أو تذكيرا بأحداث مناسبة دينية كالغزوات النبوية أو الاحتفال بليلة القدر، أو استقبال شهر رمضان، أو رؤية هلال رمضان، أو تنبيهها وتذكيرا بأوامر الله ونواهيه التي يقاس على ضوئها إيمان المسلمين واستجابتهم لأي القرآن الكريم والتي بُني عليها الجزاء الإلهي وسننه في الأمم السابقة، وغير هذا، تعليما وتذكيرا وعبرة، ولأن المادة القرآنية تتماشى مع الفطرة السليمة، ولا تقتصر على فترة معينة أو فرد معين أو سلوك دون سواه؛ فإن مجالس التذكير في هذه الناحية ساهمت في توجيه وتكوين الرأي العام لدى الجماهير الجزائرية، ويتبين لنا ذلك في متابعتها للأحداث المحلية والعالمية، من آفات اجتماعية مختلفة إلى مواقف الشخصيات السياسية إلى المعاملة الاستعمارية للجزائريين. وتختار المادة القرآنية لمعالجة هذه المواضيع صراحة أو إيماءا لكن الهدف من وراء ذلك لا يخفى عن الدارس المتعمق.

ففي درس عنوانه "دعوة أهل الكتاب" (1) تعرض ابن باديس لتفسير قوله تعالى:
﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ
الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ. قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ
اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى
صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ (2).

يقول ابن باديس >>... ولما أرسل الله محمدا صلى الله عليه وسلم كان الخلق
قسمين: أهل الكتاب وهم اليهود والنصارى وغيرهم. وكان أشرف القسمين أهل
الكتاب بما عندهم من النصيب من الكتاب الذي أوتوه على نسيانهم لحظ منه وتحريفهم
لما حرّفوا. وكانوا أولى القسمين باتباع محمد صلى الله عليه وسلم بما عرفوا من الكتب
والأنبياء فلهذا وذلك كانت توجه إليهم الدعوة الخاصة بمثل قوله تعالى: ﴿ يَا أَهْلَ
الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا .. ﴾.

فبين -ابن باديس- المفسر آداب الإسلام في دعوة غير أهله ليعلم المسلمون كيف
ينبغي أن يختاروا عند الدعوة لأحد أحسن ما يدعي به وكيف ينتقون ما يناسب ما
يريدون دعوته إليه لأن دعاء الشخص بما يجب مما يلفته إليهم ويفتح لهم سمعه وقلبه >> ثم
بين أن مقصد الداعي إلى الله يجب أن يكون إحقاق الحق وإبطال الباطل وإفناع الخصم
بالحق وجلبه إليه، فيقتصر في كل حديثه على ما يحصل له ذلك. فيتجنب ذكر العيوب
والمثالب -ولو كانت هناك عيوب ومثالب- لأن ذكرها خروج عن القصد، وبعد عن
الأدب، وتعدّ على الخصم وإبعاد له وتنفير عن الإستماع والقبول وهما المقصود من
الدعوة والمناظرة (3).

• الملاحظ أن هذه العبارات أن هدف الداعية إلى الله يقتصد على تنبيه

أعدائهم وخصومهم من أهل الكتاب وهم اليهود والنصارى، ثم إن التعرّض إلى أهل

(1) عبد الحميد بن باديس، مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير، مصدر سابق، ص 51.

(2) المائدة 15-16.

(3) المصدر نفسه، ص 53. بتصرف.

الكتاب يعني بهم الفرنسيين. وقد تعدى مفهوم الدرس النظري إلى تطبيق هذه الآداب في نشاط جمعية العلماء ومعاملتها للإدارة الفرنسية والحكومة الفرنسية نفسها، وهذا ما نلمسه بوضوح في مرونتها وعدم التعرض إلى ذكر العيوب والمثالب ليس خوفاً أو تملقاً وإنما اقتداء بما تدعو إليه من آداب الإسلام أولاً ثم تحقيقاً للمقصود وهو الاستماع والقبول أي إيجاد جوٍّ من الثقة والأمن لاستمرار نشاطها لخدمة المصلحة العامة والهدف البعيد.

وفي درس عنوانه "الطور الأخير لكل أمة وعاقبته" (1) فسّر فيه ابن باديس قوله تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا﴾ (2). استخلص منه في عنصر "إرشاد واستنهاض" بأن الله ذاك في الكتاب مسطوراً. استخلص منه في عنصر "إرشاد واستنهاض" بأن الله تعالى قد ربط بين الأسباب والمسببات خلقاً وقدرًا بمشيئته وحكمته لتهتدي بالأسباب إلى مسبباتها وتجتنبها باجتناب أسبابها إلى مسبباتها، فإقلاع الأمة عن سبب العذاب يؤدي إلى ارتفاع العذاب عنها لأن بطلان السبب يقتضي بطلان المسبب (3).

ويختتم ابن باديس درسه برجاء وتفاؤل بقوله: «إن المطلع على أحوال الأمم الإسلامية يعلم أنها قد شعرت بالداء، وأحسّت بالعذاب، وأخذت في العلاج، وإن ذلك وإن يبدو اليرم قليلاً لكنه بما يحوطه من عناية الله وما يبذل فيه من جهود المصلحين - سيكون بإذن الله - كثيراً وعسى أن يكون في ذلك خير للأمم الأرض أجمعين» (4).

ولم يفت المفسر في هذا المقام وما شابهه من إيراد كثير من نماذج الأمم البائدة التي انتهى أمرها بالموت مثل عاد وثمود، والتي قضى عليها بالعذاب الشديد لكن هناك أمل في تداركها وعلاجها مثل الأمم الإسلامية الحاضرة التي تعاني من عذاب الاستعمار ولكنها ليست مخصصة بالعذاب لوحدها وإنما مثلها وأقوى منها في أسبابه غيرها من أمم الأرض لكن مع اختلاف في درجاته وأوقاته.

(1) عبد الحميد بن باديس، مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير، مصدر سابق، ص 162.

(2) الإسراء 58.

(3) المصدر نفسه، ص 165.

(4) المصدر نفسه، ص 166.

ولا يغيب عن الملاحظ هدف إيراد هذه المقارنات بين أمم الدنيا البائدة والحاضرة، وربط أسباب عذابها بأسباب انحرافها، ثم إيراد طرق العلاج مما يخرج السامع من الحيرة إلى الطمأنينة ويقدم له سبيل الحلّ للاقتداء به لنفسه ولجتمعه، وما في ذلك من ربط المسلمين بكتابهم ونبذ يأسهم وبعث الأمل فيهم من جديد، وهكذا كانت دروس التفسير تعلم، وتذكر، وتنبه، وتحذر، وتربي، وتبني ببعث الحياة الأمل.

وهذه عناوين أخرى من دروسها التي تعبّر بنفسها عن مضامينها، والهدف القريب والبعيد منها:

- سبيل السعادة والنجاة.

- حشر الكفار إلى النار.

- كيف تكون الدعوة إلى الله والدفاع عنها.

- عدم طاعة الكافرين والجهاد بالقرآن العظيم.

- إرادة الدنيا وإرادة الآخرة.

- تعاقب الليل والنهار للتفكير والعمل.

- برّ الوالدين.

- الوحي مصدر الإسلام.

- صلاح النفوس وإصلاحها.

- تمثيل حال المعرضين عن الحق والمعاندين فيه.

- دعاء غير الله.

- الفرار إلى الله.

- التكريم الرباني للنوع الإنساني.

- مجيء الحق وزهوق الباطل واستجابة دعاء الصادقين.

- القرآن شفاء ورحمة.

- مبانة سلوك أهل الحق لسلوك أهل الباطل.

- من أدب المتعلم حسن التلقي وطلب المزيد.

- الإجتماع العام للأمر الهام.

- تثبيت القلوب بالقرآن الكريم

2- شرح أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم:

كان ابن باديس يختار أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم على المنهج نفسه الذي يختار به الآيات القرآنية إيماناً منه أولاً ثم بهدف أن يجعل القرآن الكريم مصدراً للفكر والسنة النبوية الشريفة دليلاً للعمل في حياة الجزائريين ثانياً. وإننا لنلاحظ بسهولة هذه الدلالات في النصوص المختارة ثم في التوجيهات والتحذيرات التي لا يستغني عنها أي درس.

ففي موضوع عنوانه "قيمة الرجل بقيمة قومه" (1) تعرض ابن باديس إلى شرح قوله صلى الله عليه وسلم: «مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم مثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى سائرُه بالحمى والسهر» (2). قال «أن الحديث نبّه على معنى عظيم في ارتباط كل فرد بأمة ارتباط الجزء بكُلّه، وهذا الارتباط يقتضي أموراً كثيرة منها ما جاء نصاً في الحديث الشريف، ومنها ما يؤخذ مما يقتضيه التشبيه. ومن هذا أن الفرد منظور إليه في النظر الاجتماعي العام بما ينظر به إلى أمته، سواء أساواها في المستوى الذي هو فيه من رقي وانحطاط أم كان أسمى منها أو أدنى، فقيمته في النظر الاجتماعي العام هي قيمتها» (3).

ثم يربط الحديث الشريف بحادثة واقعية ليرسخ المعنى الذي أشار فيه وينبت به العبرة من الحادثة والحديث في الوقت نفسه يقول: «جمعتني ليلة بثلاثة من شبابنا المتعلم التعليم الأوروبي والمتأدب الأدب الإفريقي ممن لا ينقصه شيء عن الطبقات الراقية منهم، وانساق بنا الكلام إلى ما تكسب به الأمم والأفراد الإحترام في عين غيرها. واتفقنا على أن الأمة التي لا تحترم مقوماتها من جنسها ولغتها ودينها وتاريخها لا تعد أمة بين الأمم ولا

(1) عبد الحميد بن باديس، مجالس التذكير من حديث البشير النذير، مصدر سابق، ص 103.

(2) أخرجه مسلم في كتاب: البر والصلة والآداب، باب: 17. انظر:

صحيح مسلم (لبنان، دار التراث العربي، 1972م)، ط 2، ج 4، ص 1999-2000.

(3) المصدر السابق، ص ن.

الفرد الذي لا يحافظ على ذلك من أمته لتأخرها في سير الزمان بما أحاط بها من ظروف الحياة وإن تحلّى بأعظم وأحسن ما يتحلّى به الرّاقون من أمة أخرى لا ينظر إليه إلا بالعين التي ينظر بها إلى أمته >> (1).

وقصّ الشبان وقائع وقعت لهم أنفسهم بما يثبت تلك الحقيقة ويؤيدها فبهم ابن باديس إلى عدم لوم من عاكسهم بما تقتضيه تلك النظرة الاجتماعية العامة وإنما لوم أنفسهم الذين سبّلوا هذه الحقيقة التي قرّرها الدين الإسلامي في أولى أيامه، ودعاهم ودعا الشباب الجزائري أشغالهم من خلالهم بالانفصاف >> إلى أمتهم وانشغالها مما هي فيه بما عندهم من علم وما اكتسبوا من خبرة محافظين لها على مقوماتها سائرين في موكب المدينة الحقّة بين الأمم >> (2).

وفي درس بعنوانه "تكثر السّواد": من كثر سواد قوم فهو منهم " (3) تعرض ابن باديس لشرح حديث عن أبي الأسود قال: قطع على أهل المدينة بعث فاكتتبت فيه فلقيت عكرمة فأخبرته فنهاني أشد النهي ثم قال: أخبرني ابن عباس أن أناسا من المسلمين كانوا مع المشركين يكثرّون سواد المشركين على رسول الله صلى الله عليه وسلم فيأتي السّهم فيرمي فيصيب أحدهم فيقتله أو يضربه فيقتله فأنزل الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ﴾ (4) >> (5).

واستخلص الشّارح الأحكام من هذا الحديث بقوله: من حضر مع قوم وكثر جمعهم فهو منهم وشريك لهم في عملهم سواء أكان خيرا أم شرا كما يفيد الحديث ثم انتهى إلى ما يهتدي به من الحديث بقوله: >>فحق على المسلم أن يختار من يصاحب من

(2) المصدر نفسه، ص 101.

(3) المصدر نفسه، ص 88.

(4) النساء 97.

(5) أخرجه البخاري، كتاب الفتن، باب: من كره أن يكثر سواد الفتن والظلم.

انظر: ابن حجر العسقلاني، (لبنان، دار إحياء التراث العربي، 1406هـ)، ط2، ج13، ص 31-32.

و: كتاب التفسير، باب: لا يستوي القاعدون من المؤمنين.

المرجع نفسه، ج8، ص 211-212.

رفقة أو يجالس من جماعة أو يكثر من سواد قوم، فإنه محاسب على أعماله ومن أعماله مجرد حضور بدنه» (1).

ويبدو مراد ابن باديس في هذين الدرسين مثلاً هو بيان أن قوة الأمة في قوة مقوماتها التي تميزها عن الأمم الأخرى والتي تجلب لنفسها ولأفرادها العزة والاحترام، وأن الذي يخذل أمتة باحتقاره لها لا يغير عن نظرة الاحتقار من غيره إليه ولأمتة، وأن الواجب على الفرد أن يخدم أمتة ويلتزم بمقوماتها فيجلب لنفسه ولها الاحترام. ثم إن اختيار هذين الحديثين تنبيه وتحذير للمفرورين المتفرنسين الذين آثروا سلوك المدنية الغربية في اللباس والكلام والمعاملة ظناً أن لا ضير عليهم ولا أثر على أمتهم من ذلك، لكن حكم الدين في ذلك صريح في أنهم أصبحوا من أولئك ولو بحضور البدن كما جاء في شرح ابن باديس (2) ومما استنتجته من الحديث الشريف.

وهذه عناوين أخرى من دروس الحديث الشريف تعبر هي أيضاً عن مضامينها

وأهدافها :

- أثر النيات في الأعمال.
- اتحاد المؤمنين وتعاونهم.
- مجالس العلم "الإقبال عليها والإعراض عنها.
- إنما يؤخذ الدين من العلماء.
- تعلم اللغات المحتاج إليها.
- الراعي الغاش لرعيته.
- من رغب عن سنتي فليس مني.
- نظافة الطرق والمجالس.
- بناء المساجد على القبور من فعل شرار الخلق عند الله يوم القيامة.
- حق النساء في التعلم.
- شكوى العلماء من الأردال المفسدين

(1) عبد الحميد بن باديس، مجالس التذكير من حديث البشير النذير، مصدر سابق، ص 89.

(2) المصدر نفسه، ص 90.

- مدرج العامل بالقرآن
- الاعتصام بكتاب الله... (1).

ج- دروس في نماذج من رجال السلف ونسائه: الذين يختارهم ابن باديس لدلالات خاصة تدخل كلها تحت هدف التعبئة وتحريك العواطف والهمم والإعداد لمرحلة حاسمة آتية:

ففي تعرضه للصحابية الجليلة الربيع بنت معوذ - رضي الله عنها - يستخلص الدرس فوائد وأحكام من حياتها، يقول ابن باديس: >> إن ما كانت تقوم به الربيع ومن معها من النسوة في الغزو أصل لتأسيس فرقة النسوة الممرضات في الجيش، ويتبع ذلك لزوم تهيئتهن لذلك بتعليمهن - غير مختلطات بالرجال - ما يحتجن إليه في الحرب من القيام بعملهن والدفاع عن أنفسهن واستعمال ما يقيهن من الهلاك مع تدريبهن على ذلك وتمرينهن عليه... << (2).

فإذا كانت دروس جمعية العلماء تحت على إعداد المرأة للجهاد وتدريبها وتمرينها

د- دروس في نماذج من شخصيات إسلامية وتاريخية: فقد تعرض ابن باديس لشخصية عربية عظيمة كانت رمز البطولة والصبر والجهاد في سبيل الدين والوطن، تلك هي شخصية الشيخ "عمر المختار" زعيم السنوسيين ببرقة، الذي اغتالته ايطاليا إعداما بالرصاص فقال فيه: >> اغتالت يد الطغيان الاستعماري، بطلا من خيرة أبطال العرب ورأسا من أعظم رؤوسهم، ومجاهدا كان يقف في طليعة مجاهديهم، وصنديدا غالبته الأيام فغلبها، وصارعتة الحوادث فصارعها، وحاربتة دولة من أكبر دول الأرض بجنودها ودباباتها وطياراتها، فثبت أمامها ثبات الراسيات، متدربا بالإيمان متحصنا بقوة العزيمة

(1) عبد حميد بن باديس، مجالس التذكير من حديث البشير النذير، مصدر سابق. (الفهرس بتصرف).

(2) آثار عبد الحميد بن باديس، مصدر سابق، ج3، ص 52.

ومازاده الاندحار الإثباتا، واعتكف على قتال المعتدين الظالمين وحوش الاستعمار الإيطالي، فكان في حريهم شريفا مسلما، مستمينا ساعة الملحمة، رؤوفا حليفا ساعة وضع الحرب لأوزارها >> (1).

وتعرض ابن باديس بعدها إلى وسائل السّلطة الإيطالية التي وصفها بالسافلة والوحشية من غلق زوايا السنوسية إلى حصار ثمانين ألفا من السّكان ضمن منطقة محاطة بالأسلاك الشائكة لكيلا يلتحقوا "بعمر المختار"، إلى الحراسة الشديدة على الحدود، كل ذلك و >>صنديد برقة رابض لا يأخذه في سبيل الله ضعف ولا وهن لمدة عشرين عاما. وكان يجول في ميادين القتال ممتظيا صهوة جواده الأدهم، وقد وهن عظمه ولم يتدارك الوهن قلبه، واشتعل رأسه شيئا واكتست لحيته لون القمر وما استطاعت الثمانون عاما التي قضتها في طاعة الله وجهاد في سبيله أن تقوّس له ظهرها أو تضع له هامة >> (2).

إن شخصية الدرس وكلماته تتحدث بنفسها عما كانت جمعية العلماء تلقن الجزائريين وتمرنهم عليه، وتوعيتهم به لإعدادهم لما كانت تراه قريبا، ألا وهي المعركة النهائية للاحتلال الفرنسي بأيدي الجزائريين. وكانت خطة العلماء في هذا المجال إلى جانب التربية النظرية العلمية، التربية بالقدوة التي كانت في الحقيقة تجسيد للمثل الأعلى في الواقع البشري المحسوس والمشاهد، وترجمة للنظرية إلى الممارسة والتطبيق، وتحويل للفكر والأمل إلى الفعل والعمل، من خلال عزمات البشر، وبذلك تتحقق القناعة الفكرية المحسوسة، إلى جانب القناعة العقلية المجردة، بأن المثل الأعلى ليس خيالا بعيد المنال، ومستحيل التنزيل على الواقع >> (3).

هـ- دروس في القصص الديني: وهي دروس في حقيقة الثواب والعقاب وسنة الله

لهم.

(1) أنار عبد الحميد بن باديس، مصدر سابق، ج3، ص 74.

(2) المصدر نفسه، ص 74-75.

(3) عمر عبيد حسنة، مراجعات في الفكر والدعوة والحركة، (عين مليلة، دار الهدى، د.ت) ص 83،

ويمكننا أن نلاحظ في النهاية أن التعليم المسجدي وقد اختارت له جمعية العلماء المنهج النبوي، منهجا للتغيير، والقرآن الكريم ثم سنة الرسول صلى الله عليه وسلم مضامين وقاعدة فكرية، قد جعل لها الكلمة الفصل. والحضور الفاعل في تكوين الرأي العام الجزائري.

أولا : من حيث اهتماماتها الاجتماعية والثقافية والاقتصادية، وهي المجالات التي تؤثر مباشرة في سياسة المجتمع، فكان دورها في ذلك تأسيسيا بحكم الفراغ العقدي الذي يعيشه الشعب الجزائري أو بحكم ما خلق عقيدة الشعب الجزائري من تشويه أحكامها ونصوصها من طرف الطرفين وتغييب فعاليتها من الحياة اليومية للشعب من جراء سوء حالتهم المادية لحقائقتها، فكان تأثير التعليم المسجدي راسخا وعميقا إزاء القضايا المصيرية والقيم الإنسانية التي تمس الجزائريين ومصالحهم وهم أغلبية السكان مباشرة، ومن ثمة فقد عملت جمعية العلماء من خلال هذه الوسيلة على تكوين الاتجاهات وتعديلها وتغييرها وبالتالي على تشكيل الرأي العام بمختلف مستوياته .

ثانيا : لأن التعليم المسجدي اتخذ عند جمعية العلماء المسنين صفة وخاصة " نشر الدعوة " الإسلامية من جديد بين الجزائريين: هؤلاء وإن لم يكونوا في حاجة إلى إقناع - بحكم أن الإسلام هو عقيدتهم الأم - فقد كانوا بحاجة إلى تذكير وتبسيط. ولما اتصفت " دعوة " ، وأسلوب ومنهج علماء الجمعية بالصدق والإيمان لكونهم علماء دين أولا، وتقديرهم لمهمتهم التغييرية تم إرادتهم القوية في آدائها ثانيا. فقد كان حديثهم هو الحديث عن العقيدة الإسلامية وأسلوبهم هو أسلوبها، وكانت لغتهم تنبع من منطق الإيمان الراسخ إلى منطق الفطرة السليمة. وقد لاحظنا بوضوح بصمات الدعوة الإسلامية الأولى في خطوات رئيس جمعية العلماء ثم في منهج جمعية العلماء الذي ينطق بقناعة أعضائها في مختلف أوجه نشاطها.

ثالثا: لقد وفر " مسجد " كمؤسسة من جهة وكبرامج مدروسة من جهة أخرى، وسيلة اتصال هامة في يد " جمعية العلماء " استطاعت بواسطتها دعم رسالتها الإصلاحية السلفية بقوة العدد الكبير من الجزائريين - الذين كانوا في تزايد مستمر - والذين كانت تفرغهم ثم تملأهم عنى المستويين:

المستوى العقلي، بحيث كانت تحوّلهم من الجمود إلى الحركة الفكرية بداية من التساؤلات الفردية والاستفسارات الشخصية، إلى جوّ النقاش ومن ثمّ مستوى الاستيعاب فالافتناع..

المستوى الروحي النفسي: بحيث كانت تنقلهم من جو الغموض والفوضى وواقع الخوف واليأس إلى جوّ الوضوح والنظام، وواقع الثقة والأمل سواء في ذلك ما يخصّ اهتماماتهم اليومية أم المصيرية ويقدر ما كانت "جمعية العلماء" تهدم قوالب الاحتلال ومشاريعه على مختلف مستوياتها الفكرية والسلوكية فقد كانت تبني بدلا منها تصورا صحيحا ورؤيا واضحة وترشح الكفّة لصالح مقومات الشعب الجزائري بكسبه أو بإعادة الجزائريين إلى مواقعهم التي يفترض بل ويتوجب عليهم التواجد بها أساسا.

وبكسب "الكميّة" من الأفراد الجزائريين -الأغلبية- ثم النوعية عن طريق الدّرس المسجدي كانت "جمعية العلماء" تعمل لكسب رهان الحاضر وزمام المستقبل الذي لم يكن في مشاريعها إلا مرحلة حتمية تعدّ التعليم المسجدي حلقة هامة من حلقات رسالة التغيير والإصلاح حتى تصل إليه.

المستوى العقلي، بحيث كانت تحوّلهم من الجمود إلى الحركة الفكرية بداية من التساؤلات الفردية والاستفسارات الشخصية، إلى جوّ النقاش ومن ثمّ مستوى الاستيعاب فالاقتناع..

المستوى الروحي النفسي: بحيث كانت تنقلهم من جو الغموض والفوضى وواقع الخوف واليأس إلى جوّ الوضوح والنظام، وواقع الثقة والأمل سواء في ذلك ما يخصّ اهتماماتهم اليومية أم المصيرية وبقدر ما كانت "جمعية العلماء" تهدم قوالب الاحتلال ومشاريعه على مختلف مستوياتها الفكرية والسلوكية فقد كانت تبني بدلا منها تصورا صحيحا ورؤيا واضحة وترجّح الكفّة لصالح مقومات الشعب الجزائري بكسبه أو بإعادة الجزائريين إلى مواقعهم التي يفترض بل ويتوجب عليهم التواجد بها أساسا.

وبكسب "الكمّية" من الأفراد الجزائريين -الأغلبية- ثم النوعية عن طريق الدّرس المسجدي كانت "جمعية العلماء" تعمل لكسب رهان الحاضر وزمام المستقبل الذي لم يكن في مشاريعها إلا مرحلة حتمية تعدّ التعليم المسجدي حلقة هامة من حلقات رسالة التغيير والإصلاح حتى تصل إليه.

مركز الأبحاث للعلوم الإسلامية

الفصل السادس الإنصال عن طريق الرحلة

المبحث الأول

رحلات جمعية العلماء المسلمين الجزائريين داخل الجزائر :
دوافعها ونتائجها

المبحث الثاني

رحلات جمعية العلماء بعد الترسيم:

أ_ رحلات الرئيس الأول لجمعية العلماء:

* أهدافها على مستوى علاقاتها مع إدارة الاحتلال

* أهدافها على مستوى علاقاتها بالطرفين

ج_ وفود جمعية العلماء للدعوة والوعظ والإرشاد

د_ وفود الوعظ في شهر رمضان

المبحث الثالث

رحلات جمعية العلماء إلى الخارج:

دوافعها ونتائجها

الخلاصة

الفصل السادس الإنتقال عن طريق الرحلة

المبحث الأول

رحلات جمعية العلماء المسلمين الجزائريين داخل الجزائر :
دوافعها ونتائجها

المبحث الثاني

رحلات جمعية العلماء بعد الترسيم:
أ_ رحلات الرئيس الأول لجمعية العلماء:
* أهدافها على مستوى علاقاتها مع إدارة الاحتلال
* أهدافها على مستوى علاقاتها بالطرفيين
ج_ وفود جمعية العلماء للدعوة والوعظ والإرشاد
د_ وفود الوعظ في شهر رمضان

المبحث الثالث

رحلات جمعية العلماء إلى الخارج:
دوافعها ونتائجها

الخلاصة

يمكن نجاح أي مشروع بالإضافة إلى قوة مضامينه الذاتية في أن يؤمن به ويدعو إليه أكبر عدد ممكن من الأفراد أو المؤسسات، وذلك حتى يكتب لنفسه الاستمرار والرسوخ. وقد مرّ بنا كيف أن ابن باديس قد سهر بنفسه منذ 1913م و 1914م على تكوين الكفاءات والإطارات الإصلاحية وبعبارة أخرى على تكوين حاملي فكرة الإصلاح علما وعملا مسلّحين بالأدلة ومدربين على أساليب الدّعوة والخطابة العربية. وقد كانت جمعية العلماء بعد جنينا في رحم الأيام ومشروعاً كان ابن باديس يخشى عليه من التبخر. ومع أنه قد نجح في ذلك أيما نجاح إلا أن تلك الأعداد من التلاميذ لم تكن كافية لتقف عضداً قصد إخراج مشروع "جمعية الإخاء العلمي" وهو مسمّى جمعية العلماء لما ظهر سنة 1924م والذي آل إلى الفشل. وبقي العدد قليلا لا يفي بحاجة الجمعية -- الفكرة -- من الكفاءات الإصلاحية، والمعلّمين في المساجد والمدارس وهذا ما بدأ يتعضد ويزداد مع ازدياد عدد التلاميذ الذين أصبحوا يتوافدون على الجامع الأخضر من كل مناطق الجزائر.. ثم عودة كثير من التلاميذ الذين أنهوا دراستهم بجامع الزيتونة بتونس، الأخضر. فالشباب ذوي الشهادات من جامع الزيتونة كانوا يفضون التعميم أولا في مسقط رأسهم للضرورة الاقتصادية من جهة ثم إرضاء لاعتزاز عائلاتهم من جهة أخرى»(1). ولم تعد الحركة الإصلاحية حتى سنوات 1930م-1931م حدود القطاع القسنطيني»(2). وذلك رغم وصول "الشهاب" إلى معظم مناطق الجزائر لكنه بألفين من القراء لم يكن ليحقق من جهته هدف الجمعية في الوصول إلى الجماهير الأمية محور مقاصدها وبرامجها.

1- رحلات جمعية العلماء داخل الجزائر، دوافعها وأهدافها :

العربي آخر من جهة. وحمالات "الشهاب" لصاخ فتح المدارس عن طريق النداءات المتتالية

(1) Ali Merad, Le Réformisme Musulman en Algérie. Op. Cit, p. 138.

(2) Idem.

يكمن نجاح أي مشروع بالإضافة إلى قوة مضامينه الذاتية في أن يؤمن به ويدعو إليه أكبر عدد ممكن من الأفراد أو المؤسسات، وذلك حتى يكتب لنفسه الاستمرار والرسوخ. وقد مرّ بنا كيف أن ابن باديس قد سهر بنفسه منذ 1913م و 1914م على تكوين الكفاءات والإطارات الإصلاحية وبعبارة أخرى على تكوين حاملي فكرة الإصلاح علما وعملا مسلّحين بالأدلة ومدربين على أساليب الدّعوة والخطابة العربية. وقد كانت جمعية العنقاء بعد جنينا في رحم الأيام ومشروعاً كان ابن باديس يخشى عليه من التبخر. ومع أنه قد نجح في ذلك أيما نجاح إلا أن تلك الأعداد من التلاميذ لم تكن كافية لتقف عضداً قصد إنجاح مشروع "جمعية الإخاء العلمي" وهو مسمّى جمعية العلماء لما ظهر سنة 1924م والذي آل إلى الفشل. وبقي العدد قليلا لا يفي بحاجة الجمعية -- الفكرة -- من الكفاءات الإصلاحية، والمعلّمين في المساجد والمدارس وهذا ما بدأ يتعضد ويزداد مع ازدياد عدد التلاميذ الذين أصبحوا يتوافدون على الجامع الأخضر من كل مناطق الجزائر.. ثم عودة كثير من التلاميذ الذين أنهوا دراستهم بجامع الزيتونة بتونس،

لاخضر. فالشباب ثري لشهادت من جامع الزيتونة كانوا يفضون التعميم أولا في مسقط رأسهم للضرورة الاقتصادية من جهة ثم إرضاء لاعتزاز عائلاتهم من جهة أخرى»(1). ولم تعد الحركة الإصلاحية حتى سنوات 1930م-1931م حدود القطاع القسنطيني»(2). وذلك رغم وصول "الشهاب" إلى معظم مناطق الجزائر لكنه بألفين من القراء لم يكن ليحقق من جهته هدف الجمعية في الوصول إلى الجماهير الأمية محور مقاصدها وبرامجها.

I- رحلات جمعية العلماء داخل الجزائر، دوافعها وأهدافها :

العربي آخر من جهة. وحملة "الشهاب" لصاح فتح المدارس عن طريق الندوات المتتالية

(1) Ali Merad, Le Réformisme Musulman en Algérie. Op. Cit, p. 138.

(2) Idem.

من جهة أخرى والتي كانت عبارة عن صفارات إنذار للجزائريين. وتصور مستقبل الجزائر بالأسود من النعوت، والتحذير من الفرنسة بأسلوب من اليأس، كالمقال الذي نشر تحت عنوان «نحن بين الحياة والموت»⁽¹⁾ الذي حكم فيه ابن باديس بزوال الشخصية الجزائرية وبالموت الحتمي والسقوط في أحضان أوروبا المسيحية الفرنسية لو بقيت الأوضاع على حالها وقد هدفت إلى لمس وتر الوطنية في نفوس الجزائريين، وتحريك النيات الحسنة والنفوس العليسة، وتعبئة كل الجزائريين لصالح التعليم العربي الحر خاصة وأن الإدارة الفرنسية كانت تعارض وتعرقل كل طلب لفتح مدرسة للتعليم العربي، كما أن الأغنياء من الجزائريين لم يكونوا يهتمون بهذه القضية من قريب أو بعيد.

وإذا كانت جمعية العلماء قد استطاعت أن تضع الرأي الإسلامي الجزائري وبوضوح أمام قضية مصيرية كالتعليم، فإن وسائلها في ذلك -رغم نشاطها الفعال- تبقى قاصرة حتى ذلك الوقت عن الوصول بها إلى كل مناطق الجزائر، بل تبقى قاصرة حتى لتعمم فكرتها الإصلاحية والوصول بها إلى كل الجماهير الجزائرية.

وارتأى رئيس الجمعية ورغبه زملاؤه وتلاميذه في ذلك حسب شهادته⁽²⁾ إلى وسيلة أخرى للاتصال بالجزائريين لأسباب ذكرناها وأسباب أخرى سنتعرف عليها، وهي وسيلة لا تقل أهمية عن بقية الوسائل الأخرى التي استعملتها الجمعية لتبليغ وإنجاح رسالتها الإصلاحية وتمثل في الجولات الإستطلاعية، والرحلات الإشهارية، واللقاءات الشعبية وكذا الوفود المختلفة.

وتختلف أهداف هذه الوسيلة حسب ضرورتها قبل ظهور جمعية العلماء عنها بعد ظهورها ومباشرتها العمل رسمياً. ثم حسب أولويات النشاط الإصلاحي لكنها تبقى هامة جدا في ميدانها فيما كانت تحققه من توسيع مجال الحركة الإصلاحية عبر الجزائر، فهدف الجمعية لم يكن يقتصر بطبيعة الحال بمنطقة من الجزائر دون أخرى أو بطبقة من الجزائريين

(1) هذا المقال نسبه أحمد توفيق المدني لنفسه في كتابه حياة كفاح، مرجع سابق، القسم الثاني، وجاء في فهرسه بعنوان: مقال بين الموت والحياة، وذكره في ص 161-167.

(2) الشهاب: ج 6. م 5 غرة صفر 1348 هـ جويلية 1929 م.

من جهة أخرى والتي كانت عبارة عن صفارات إنذار للجزائريين. وتصور مستقبل الجزائر بالأسود من النعوت، والتحذير من الفرنسة بأسلوب من اليأس، كالمقال الذي نشر تحت عنوان «نحن بين الحياة والموت»⁽¹⁾ الذي حكم فيه ابن باديس بزوال الشخصية الجزائرية وبالموت الحتمي والسقوط في أحضان أوربا المسيحية الفرنسية لو بقيت الأوضاع على حالها وقد هُدف إلى لمس وتر الوطنية في نفوس الجزائريين، وتحريك النيات الحسنة والنفوس النديسة، وتنبئة كل الجزائريين لصالح التعليم العربي الحر خاصة وأن الإدارة الفرنسية كانت تعارض وتعرق كل طلب لفتح مدرسة للتعليم العربي، كما أن الأغنياء من الجزائريين لم يكونوا يهتمون بهذه القضية من قريب أو بعيد.

وإذا كانت جمعية العلماء قد استطاعت أن تضع الرأي الإسلامي الجزائري وبوضوح أمام قضية مصيرية كالتعليم، فإن وسائلها في ذلك -رغم نشاطها الفعال- تبقى قاصرة حتى ذلك الوقت عن الوصول بها إلى كل مناطق الجزائر، بل تبقى قاصرة حتى لتعمم فكرتها الإصلاحية والوصول بها إلى كل الجماهير الجزائرية.

وارتأى رئيس الجمعية ورغبه زملاؤه وتلاميذه في ذلك حسب شهادته⁽²⁾ إلى وسيلة أخرى للاتصال بالجزائريين لأسباب ذكرناها وأسباب أخرى سنتعرف عليها، وهي وسيلة لا تقل أهمية عن بقية الوسائل الأخرى التي استعملتها الجمعية لتبليغ وإنجاح رسالتها الإصلاحية وتتمثل في الجولات الإستطلاعية، والرحلات الإشهارية، واللقاءات الشعبية وكذا الوفود المختلفة.

وتختلف أهداف هذه الوسيلة حسب ضرورتها قبل ظهور جمعية العلماء عنها بعد ظهورها ومباشرتها العمل رسمياً. ثم حسب أولويات النشاط الإصلاحي لكنها تبقى هامة جدا في ميدانها فيما كانت تحققه من توسيع مجال الحركة الإصلاحية عبر الجزائر، فهدف الجمعية لم يكن يقتصر بطبيعة الحال بمنطقة من الجزائر دون أخرى أو ببطقة من الجزائريين

(1) هذا المقال نسبه أحمد توفيق المدني لنفسه في كتابه حياة كفاح، مرجع سابق، القسم الثاني، رجاء في فهرسه بعنوان: مقال بين الموت والحياة، وذكره في ص 161-167.

(2) الشهاب: ج6. م 5 غرة صفر 1348 هـ جويلية 1929م.

دون الأخرى - وإن كانت الجماهير البسيطة والأمية هي مقصد رسالة جمعية العلماء، وإنما كانت قضية الجزائر عند علماء الجمعية تخصّ مصير الشعب العربي المسلم بالقطر الجزائري. ومن ثمة لزم إيصال رسالة الإصلاح إلى كل الجماهير الجزائرية والإتصال بهذه في مدنها وقرائها وشارعها ودواويرها.

وقد كان لجمعية العلماء رحلات إلى خارج الجزائر وخاصة في اتجاه الأقطار الإسلامية. وكما كان للرحلة داخل الجزائر دواعيها وبرامجها وأهدافها، كان لها خارج الجزائر أيضا دوافعها وبرامجها وأهدافها، والملاحظ أن أكثر رحلات الجمعية داخل القدار الجزائري قد حمل مسؤوليتها رئيس الجمعية الأول الأستاذ عبد الحميد بن باديس برفقة تلاميذه أحيانا أو زملائه من العلماء وأحيانا أخرى أويقوم مقامه فيها وفد من أعضاء إدارة الجمعية لأجل قضايا ومصالح معينة، كما أن أكثر رحلات الجمعية إلى الأقطار الإسلامية قد حمل عبءها رئيس الجمعية الثاني الشيخ البشير الإبراهيمي، وسوف نرى كيف تغيرت أهداف الرحلة حسب مراحل تطوّر الجمعية واتساعها، ثم البعد الإسلامي والعربي والحضاري عامة الذي ميّز برامجها وأهدافها فيما بعد.

أ- رحلات جمعية العلماء المسلمين داخل الجزائر: الفترة التمهيدية

لقد نجحت حملات "الشهاب" المركزة والمتواصلة لصالح قضية التعليم العربي الحر في أن توجد مرائسز للمتعاطفين والمتمسكين لفكرة الإصلاح عموما ولقضية التعليم خاصة في كثير من المناطق التي كانوا يجتمعون بها حول قراء "الشهاب" كقدماء التلاميذ، أو أصدقاء علماء الجمعية أو المعجبين بابن باديس صاحب الشهاب <(1)> - الذي كان وراء أغلب المقالات الصحفية في هذا الميدان كتابة وتوجيها وإدارة - وقد ساهم كتل هؤلاء بدورهم في نشر الرسالة الثقافية لجماعة الإصلاح ومن ثمة زرع بذور حسب الإطلاع على التعليم العربي بين الجماهير المسلمة الجزائرية والذي جعلته صحافة جمعية العلماء مفتاح الدراسات القرآنية وبالتالي الحاجز القوي دون الانزلاق إلى الفرنسية والتصير - أهداف التعليم الأوربي الحر - وقد اقتنع الشعب الجزائري بفضل جهود علمائه

(1) Ali Merad, Le Réformisme Musulman en Algérie, Op, Cit, p 138.

الجمعية بضرورة الإسراع إلى توسيع مجال التعليم العربي وتوفير وسائله ومراكزه. لكنه وعى في الوقت نفسه قلة أدواته الفكرية وضآلة إمكانياته المادية التي يستحيل أن تساير أو توازي إمكانيات الإدارة الفرنسية وجهودها -المدرسة- في مجال التعليم باللغة الفرنسية. وقد حملت الحركة الإصلاحية عبء مبادرة الريادة في هذا المجال.

ويبدو أن الجولة التي قادت رئيس جمعية العلماء إلى عدة مناطق من القطر الجزائري في 1930م⁽¹⁾ والتي استغلها في تقديم النصائح، وتشجيع المبادرات الطيبة وجمع الجهود، تدخل في إطار الحملة لصالح التعليم العربي الحرّ، ودواعيه المبسوطة أعلاه، خاصة وأن السنة المثوية للاحتلال رافقها من المحن النفسية للشعب الجزائري الكثير، بما كانت تبثه أجهزة الاستعمار وتصريحات شخصياته الرسمية من ضياع الجزائر إلى الأبد ومن ثمة الإسلام والعربية، فقد شهدت تحت ريادة وتوجيه جمعية العلماء دفقة ثقافية وطنية واسعة وأسهمت فيها كل وسائلها الشفوية والكتابية. ولا غرو أن تكون هذه الجولة إحداهما وأهمها في ذلك الوقت نظرا لطابعها الإنساني البسيط الذي يلتقي من خلالها أبناء الوطن الواحد حول قضية المصير الواحد.

وإذا كانت "الشهاب" قد وصفتها "بالجولة الصحفية" فلا شك أن يكون ذلك لاعتبارات تمويهية بحجة خوفا من يد الإدارة وعينها. قالت "الشهاب" تحت هذا العنوان تصف خط الرحلة وعلى لسان رئيس التحرير عبد الحميد بن باديس: «عقدنا رحلة بالشهر الماضي إلى الناحية الغربية من العمالة لخدمة الخجلة، وكانت الرحلة على هذا الترتيب: سطيف، البرج، تازمالت، أقبو، زاوية سيدي عبد الرحمن اللولي سيدي عيش، بجاية، عزازقة، تيزوزو، دلس، تاقزيرت، آزفون، فورناسيونال (الأربعاء)، ميشلي (عين الحمام) إلى تازمالت، محطة القطار إلى قسنطينة»⁽²⁾.

(1) كتب على مراد عني أن هذه الجولة كانت في أوت 1930م، لكن الحقيقة أنها كانت في حويلية 1930م، وإنما نشرتها الشهاب في عدد المؤرخ في أوت 1930م، وذلك بإخبار الشهاب نفسه بذلك بقوله «عقدنا رحلة بالشهر الماضي...».

(2) الشهاب، ج7، م6، غرة ربيع الأول 1349هـ - أوت 1930م.

وترسم هذه الجولة بوضوح الحدود الجغرافية للتأثير الفكري والديني لقسنطينة حتى سنة 1930م ويستبعد أن تكون مراحل هذه الجولة قد اختيرت اعتباطا بل على العكس من ذلك تماما إذ قد يكون لابن باديس أسبابه في اختيار هذه المناطق بالذات أقلها ضمان الإستقبال اللائق والإستماع الحسن» (1).

ونفهم من هذه الفقرة أنه بالإضافة إلى البواعث الأولى من هذه الجولة، فقد كان لها أغراض أخرى، وهي " خدمة المجلّة"، ويتمثل ذلك في أن تؤول حيثيات الرحلة ومجرياتها ومختلف برامجها مادة ثرية لأعمدة " الشهاب" وصفحاتها، وهو أسلوب غاية في الأهمية والذكاء وحسن الإدارة من جهة ثم غاية في بعد الهدف وعمقه من جهة أخرى. إذ لا يكتفي رئيس الجمعية بلقاء الجماهير والعلماء والتلاميذ وبكسب المتعاطفين وبإبلاغ الشعب رسالة الإصلاح بل في أن ينقل انشغالهم، وحياتهم اليومية، ومشاكلهم، عبر مادة صحفية غالبا ما يوجهها علماء الجمعية تحت إدارة ابن باديس إلى خدمة القضايا المختلفة وعرض المشاكل العريضة، ثم تقديم النصائح والاقترحات حسب ما تتطلبه من حلول ومعالجة. ومن ناحية أخرى تتابع النشاط الإصلاحي وتقدمه للشعب الجزائري في أحسن صور اهتمامه بقضايا الوطن والأمة وتعرض نيتها الحسنة (المدروسة) للسلطات الفرنسية في قيام الجمعية بمساعدة الحكومة الفرنسية في أداء مهمتها " التمدينية" ذات الأوجه المختلفة.

ويبدو أن جولة جويلية 1930م قد خلعت من إلقاء الدروس الدينية بسبب المنع الحكومي لرئيس الجمعية وقد اعتذر ابن باديس للجماهير الجزائرية في هذه المناطق بناء على ذلك، كما أختبرت " الشهاب" بقولها: «وما كان أشد أسف الناس في جميع هات، البلدان لما كنت أرى طلبهم من إلقاء بعض الدروس الدينية معتذرا بالمنع الحكومي الذي كنا نشرناه وقد كنا بالسنة الماضية نشر ما نلقيه من الدروس على صفحات المجلّة تعميما للفائدة، وليكون ما نقول معلوما عند الحكام» (2).

(1) Ali Merad, Le Réformisme Musulman en Algérie, Op, Cit, p 140

(2) الشهاب، ج 7، م 6، غرة ربيع الأول 1349 هـ - أوت 1930م.

ويفيدنا هذا التصريح بأنه لم تكن هذه الرحلة الأولى لتحقيق هذه الأغراض وغيرها وإنما قد سبقتها رحلات أخرى كثيرة ولمناطق عديدة أخرى من الجزائر، بل وقد كان ابن باديس يلقي خلالها دروساً دينية. وحسب ما نشرته "الشهاب"، فقد زار ابن باديس بصفته مديراً ورئيس التحرير لمجلة "الشهاب" - وليس كرئيس رسمي للجمعية العلماء - الوطن الساحلي في شهر محرم / جوان 1929م (1) وبالذات المناطق التالية: الحروش، عزابة، سكيكدة، مجاز الدشيش وسيدي عيش (2). ثم عين مليلة، أم البواقي، عين البيضاء، مسكيانة (3) تبسة، مداوروش، سوق أهراس (4) وقد عنونت "الشهاب" مقالات هذه الجولات كلها ب: "للتعارف والتذكير".

ويفيدنا هذا التصريح من جهة ثانية أن الرحلات الأخرى لم تخل من دروس ابن باديس في مختلف المجالس أو المساجد، وقد كتب ابن باديس موضحاً مادة دروسه وملخصاً بقوله: «ما كنت أدعوهم في جميع مجالسي إلا لتوحيد الله، والتفقه في الدين، والرجوع إلى كتاب الله وسنة رسوله، ورفع الأمة، والجد في أسباب الحياة من فلاحه وتجارة وصناعة، وإلى اعتبار الأخوة الإسلامية فوق كل مذهب وطريقة وجنس وبلد وعلى حسن المعاملة والبعد عن الظلم والخيانة مع المسلم وغير المسلم، وإلى التزام القوانين الدولية التي لا بد منها لحفظ النظام» (5) وحسب مقالات "الشهاب" فغالبا ما يكون موضوع الدرس آية من آيات القرآن الكريم تعضدها أحاديث للرسول عليه الصلاة والسلام، كما تشير إلى بحث ابن باديس مع جماهير هذه المناطق عما تحتاجه منطقتهم ثم مذاكرتهم بوجوب التطوع لأداء ما يجب أداءه وغالبا ما يكون التطوع من أجل بناء مسجد جامع، كما حدث في الحروش أو بناء مدارس للتعليم العربي في المناطق الأخرى، والجدير بالملاحظة أن ابن باديس لم يكن يغادر البلدة أو القرية إلا وقد تم الاتفاق على

(1) الشهاب، ج 6، م 5، غرة صفر 1348هـ - حويلية 1929م.

(2) الشهاب، ج 7، م 5، غرة ربيع الأول 1348هـ - أوت 1929م.

(3) الشهاب، ج 9، م 5، غرة جمادى الأولى 1348هـ - أكتوبر 1929م.

(4) الشهاب، ج 10، م 5، غرة جمادى الثانية 1348هـ - نوفمبر 1929م.

(5) الشهاب، ج 7، م 5، غرة ربيع الأول 1348هـ - أوت 1929م.

البناء بل وتذكر الجملنة أسماء هؤلاء وأولئك من المتبرعين للقيام به ماديا. مما نلمس فيه نجاح الرحلة، وتأثير الدرس وقبل ذلك وبعده إخلاص العمل وصدق الخطاب الذي نتج عنه حسن الاستعداد، والاستجابة الفورية والإقبال على العمل بحماس.

وبالإضافة إلى آيات القرآن الكريم وأحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم، فقد كانت دروس ابن باديس تدور حول الإجابة على أسئلة واستفسارات الأهالي حول قضايا كثيرة غالبا ما تكون دينية فيكون الدرس موضوعا لفتوى تقدم لها خلاله أدلة من القرآن والسنة، أو قضايا عامة كالانتخابات، أو قضايا خاصة بأهل كل منطقة بعينها.

وهناك غرض آخر غاية في الأهمية تقودنا إليه حيثيات الرحلات ودروسها ويكمن في دراسة المجتمع الجزائري، والإطلاع على عمقه الإنساني، وقياس استعداده للتغيير ومدى قابليته لأفكار الإصلاح، وكيفيات تعبيره عن رفضه للاحتلال وبالتالي قياس حماسه للمشروعات الوطنية، وقضاياه المصيرية، وهذه عملية ينبني على ضوئها توجيه المشاريع، وتخطيط المراحل، وتصنيف الأولويات، وعليها يتأسس نجاح صاحب الرسالة وتحقيقه الأثر المطلوب في المستقبلين وهي هنا رسالة الإصلاح في الجزائر مهمة جمعية العلماء المسلمين الجزائريين .

وقد أشار عبد الحميد بن باديس إلى أغراض رحلاته وجعلها >> قصدا للتعارف وقياما بغرض التذكير<<(1)، ومن ثمة كان عنوان الباب في الشهاب "للتعارف والتذكير"، ويبدو أن للتذكير دلالة عميقة في تصور علماء الجزائر عامة وعلماء الجمعية على وجه الخصوص، وهي ما ينبثق من الآية الجليلة: ﴿وَذَكَرْ فَإِنَّ الذِّكْرَ تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (2) التي تنطق بما عبّر عنه ابن باديس نفسه بقوله: >> عرفتني ثقلاسي في بعض القرى، ما في قلوب عامة المسلمين الجزائريين من تعظيم للعلم وانقياد لأهله إذا ذكروهم بحكمة وإخلاص >>، ويستدل على ذلك بقوله >> ما حللت بقعة إلا التف أهلها حولي يسألون ويستمعون في هدوء وسكون، وكلهم أو جلهم منتمون للطرق من مقدم وشاوش

(1) الشهاب، ج 6، م 5، غرة صفر 1348هـ - جويلية 1929م.

(2) الذاريات 55.

وخونني» إلى أن ينتهي إلى الأثر الطيب: «وَأَقْرَأُ عَلَىٰ وجوههم سمات القبول والإذعان وأنا على يقين من بقاء أثر نافع لذلك بصدق وعد قوله تعالى: ﴿وَذَكَرْنَا لِلذَّكَرَىٰ تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (1).

وتحدر بنا هذه الشهادة إلى التأكيد على أصالة انتماء الشعب الجزائري إلى الإسلام والعروبة، وشدة ارتباطه بهما، وإن لم يكن يظهر ذلك أحيانا ليس دليلا على انعدامه وإنما يعود إلى انعدام القيادة الرشيدة أو الجماعة الحكيمة التي تحيي ذلك الانتماء، وتبعث ذلك الارتباط، والتي إذا وجدت، وتم تذكير الجزائريين بحكمة وإخلاص هبّ الشعب على بكرة أبيه استجابة وحماسا وعملا، وبمكنا أن نصف حاجة الجزائريين إلى جمعية العلماء في ذلك الوقت كحاجتها إلى القيادة التركية الرشيدة الأولى لردّ إعتداءات الإسبان وأوروبا المسيحية عامة وتحرير الجزائر من يد النصارى.

وقد عبّر الشيخ محمود بن دويدة(*) خير تعبير لما قال في خطاب ألقاه في حفلة تكريم للشيخ ابن باديس: «إن مثل المدنية العربية الإسلامية في هذا القطر الجزائري كمثل جذوة نار ضئيلة تحت الرماد، فعليكم أيها الأستاذ وعلى الشباب الناهض وعلى كل مخلص في إيمانه صادق في عروبتة، تعلق الأمة آمالا كبارا أن تحيوا تلك الجذوة حتى تصبح إن شاء الله كما كانت قبل نارا على علم» (2).

وبهذا تكون الرحلة كوسيلة للاتصال قد أسهمت في الفترة التمهيديّة بمعية الوسائل الأخرى في عملية جس نبض للجزائريين، وإعدادهم لتقبّل رسالة الإصلاح، بعرض أفكاره ومبادئه ومشاريعه، ثم بتقديم قيادته المتمثلة في عالم جليل عارف بالدين عامل به وزمرة من العلماء الأجلاء الآخرين، فإذا كان نصيب التعليم المسجدي مثلا في الحملة الإصلاحية بناء العقيدة الدنيوية ودعوة قلوب الجزائريين إليها، ونصيب التعليم

(1) الشهاب، ج 7، م 5، غرة ربيع الأول 1348هـ - أرت 1929م.

(*) بعث هذا الشيخ مدّلا إلى الشهاب "يصف فيه إقامة ابن باديس في الملية، وقد لخص درسه، ووصف احتفاء الناس به ثم ألقى خطابا تكريما لابن باديس. انظر المصدر نفسه.

(2) الشهاب، ج 6، م 5، غرة صفر 1348هـ - حويلية 1929م.

المكتبي نشر الوعي الشامل وتنوير عقول الجزائريين، ودعوتهم للإطلاع على ثقافات الشعوب، وقضايا العالم، وفهم قضاياهم المصيرية كشعب، ونصيب الصحافة الحملات الجريئة لإطلاع الرأي العام الجزائري وتعبئته لصالح قضايا المجتمع، فإذ كان للرحلة نصيب هام وخطير من التأثير وخاصة في مرحلة ما قبل ظهور جمعية العلماء كهيئة رسمية، ويتمثل ذلك في إبلاغ الجزائريين ولو بطريقة غير مباشرة بوجود القيادة الرشيدة التي توصلهم إلى ما يأملون إليه من عزة حقيقية وحرية واستقلال، وقد كوّنت هذه الرحلات المنصرة زادا ثريا لمشروع العلماء، وأساسا عتيدا بنوا عليه آملا لإنجاح النداء ثم الإعلان عن تأسيس "جمعية العلماء المسلمين الجزائريين" رسميا وهو المشروع الذي فشل قبل تحت اسم "جمعية الإخاء العلمي".

وبهذا أيضا تكون الرحلة وسيلة اتصالية هامة وضرورية استعملتها "جمعية العلماء" في مرحلتها التمهيدية، فكان من نتائجها تقديم الدافع المشجع، والضوء الأخضر لمباشرة العمل، بل وجعلت من جمعية العلماء مطلبيا شعبيا بعدما كان فكرة للعلماء ومطلبيا لخاصتهم.

2- رحلات جمعية العلماء بعد الترسيم:

إذا كانت جمعية العلماء قد أصبحت حقيقة واقعة بعدما كانت مشروعاً وفكرة، وإذا كانت الفكرة الإصلاحية قد استوعبت كل القطاع القسنطيني مع بعض المراكز المختلفة الأخرى حوله، وأن أخبار الإصلاح قد انتقلت مع "الشهاب". كما أن أخبار ابن باديس قد ذاعت عن طريق تلاميذه وأصدقائه والمتعاطفين مع الجمعية، فإن الحيز الجغرافي للرسالة الإصلاحية لم يصل بعد إلى غرب الجزائر وجنوبها. ولم يكن ذلك ليحقق الأهداف الوطنية للجمعية من جهة، ولا التعريف الصحيح والجيد بمبادئ الجمعية ومشاريعها بصوت مسموع والوصول به إلى كل مناطق الجزائر ومحاوله ذلك عن طريق اللقاء الإنساني والاتصال المباشر مع الجزائريين وليس عن طريق الصحافة أو الأخبار المقطوعة، فلا هذه ولا تلك تحقق المقصود من الوصول إلى الجماهير البسيطة الأمية وإبلاغها رسالة الإصلاح بالأسلوب واللغة التي تفهمها.

وتعذر الإشارة إلى أنه كما تختلف أغراض ودواعي الرحلة عند جمعية العلماء بعد ترسيمها عنها في مرحلتها التمهيدية، فإن هذه تختلف أيضا حسب مراحل تطور الجمعية وضرورات نشاطها الخاص، وحسب أولويات وحاجات المناطق التي تقرر الجمعية زيارتها وما يتطلب ذلك من إيفاد رئيس الجمعية أو إيفاد عضو إداري منها يقوم بالمهمة التي تقرر أهميتها مدى اهتمام الجمعية وذلك بخطورة بعض القضايا عن الأخرى ثم المصلحة الوطنية العامة.

1- رحلات رئيس جمعية العلماء الأول: الشيخ عبد الحميد بن باديس:

عندما تم إنشاء جمعية العلماء قرّر ابن باديس أن ينظم جولة واسعة تكون جولة للإشهار والتحسيس وللمجاملة، وقد بدأها تحديدا في صيف 1931م، ودامت عشرين يوما بدأها من العاصمة، وقادته على التوالي إلى: "مليانة، خميس مليانة، الأصنام، غليزان، مستغانم، آرزبو، وهران"، وقد تحدث ابن باديس عما كان يحدث الناس به، ويحدّد لنا بذلك أغراض جولته قال: >> وكان الحديث في مجالسنا حيثما حللنا يدور على جمعية العلماء ومقاصدها ومنافع الأمة منها والتنويه بفضل الحكومة بالإذن بتأسيسها، مع ما يتخلل ذلك من تذكير بالله وتبنيه على مصالح الدنيا والآخرة، وتحريض على التآخي والتآزر وحسن الجوار والمعاملة مع الأجناس المتساكنة في هذا الوطن >>(1).

ونلاحظ أن الجديد في هذا البيان بالإضافة إلى ما سبقت الدعوة إليه في المرحلة التمهيدية من الدعوة إلى التوحيد والاتحاد، هو أن الغرض المحوري من هذه الجولة هو التعريف بجمعية العلماء ومقاصدها ومنافع الأمة منها. وتكمن الحاجة في ذلك أنه لم يكن لأهالي هذه المناطق حتى ذلك الوقت >> إلا فكرة غير دقيقة عن الإصلاح فقد كان بعضهم يصف جمعية العلماء - وخاصة أهل منطقة وهران - بالوهابية أو بحركة ضد المرابطين >>(2). ومن ثمة حاول ابن باديس تقديم الوجه الحقيقي للإصلاح ليوسّع في مجال انتشار حيزه الجغرافي، ويكسب له الأتباع من هذه المناطق، لكن أيضا تصحيح مفهوم ونظرة البعض

(1) الشهاب، ج 11، م 7، غرة رجب 1350هـ - 1931م.

2- Ali Merad, Le Réformisme musulman en Algérie, op. Cit, p 141.

عنه والمقصود بهؤلاء . بعض رؤساء الطرق الصوفية وأتباعهم ومن ثمة نفهم الغرض من زيارات الجحامة التي قادت إلى كثير من الزوايا وبيوت كثير من رؤسائها ومنها زاوية أحمد بن عليوة، وزاوية الشيخ ابن طكوك بمستغانم.

والمتتبع لمجريات هذه الرحلة "الجولة" يلاحظ أن أكثر مجالس ابن باديس كانت مع أهل العلم من قضاة وعلماء دين وشيوخ زوايا، ومع أن غرض ابن باديس لم يكن البتة إثارة مسائل الخلاف بين المصلحين والمرابطين، فإن بعضهم تعمد إثارتها، لكن هدف رئيس جمعية العلماء في هذه الرحلة بالذات وفي تلك المناطق بعينها التي اشتهرت بأنها مراكز للمرابطين كان إسماع هؤلاء بكل اعتدال وبجاملة وهدوء الخطاب الجيد للإصلاح، ومحاولة درء أسباب الفرقة والخلاف وردم ما كان من شروخ بين الجزائريين.

وقد كانت أسباب ابن باديس في ذلك معقولة خاصة وأن المجلس الإداري لجمعية العلماء كان يضم حتى نهاية السنة الأولى أي نهاية 1931م بعض الطرفين، وقد مر بنا هدف الجمعية من ذلك في بدايتها من تجميع كل الاتجاهات الدينية الإسلامية في الجزائر بما في ذلك المرابطين، ثم أنه لا يعقل أن يهاجمهم في مناطق نفوذهم وهو ضيف عندهم وهو أدنى ما تتطلبه أصول وآداب الجحامة والضيافة، هذا بالإضافة إلى ما عرف عن شخصية ابن باديس رئيس جمعية العلماء من صفات الاعتدال واللطف والأدب الجم التي كانت وغيرها من أسباب اختياره لهذا المنصب.

ولم تخل هذه الرحلة من تقديم دروس في التفسير والحديث والموعظة الحسنة والتعرض إلى كثير من قضايا الشعب المصيرية المختلفة، والملاحظ أن مجالس الدروس لم تكن تقام في المساجد فقط وإنما كانت تقام أيضا بيوت العلماء والزوايا، وقاعات الاحتفال، وساحات المدارس، بل وحتى في حوانيت بعض الوجهاء. كما أنه لم يكن يتفق على وقت معين لالقاء الدروس لأن كل الأوقات كانت تسمح أن تكون بحالا للدرس والنقاش، مما يجعل الرحلة دعوة متواصلة للنفع العام.

وإذا كانت جولة 1929م دعوة للعلم ولبناء مؤسساته، فإن جولة 1931م تعدّ إطلاعا على مدى إقبال الجماهير على مجالس العلم ودرجة اهتمامهم بمواضيعه، وهو ما كان يستنتجه ابن باديس بعد زيارته لكل منطقة ويسجل إزاء ذلك أسفه أو غبطته، ويجعل منه مؤشرا لنجاح المشاريع من فشلها، ومن ثمة يتخذ سببا لرحلاته الاستطلاعية مستقبلا.

وقد استغلت جمعية العلماء الرحلة بالإضافة إلى تحقيق أهدافها الحقيقية في أداء رسالتها الحضارية والتحريرية البعيدة في الجزائر، في كسب احترام الإدارة الفرنسية والرأي العام الفرنسي وذلك بالتّمسك على مبادئها المصرّح بها في قانونها الأساسي أو عن طريق صحافتها أو أعضائها على اعتبار أنها جمعية تهذيبية وتربوية، وبغية جلب ثقة الإدارة من جهة أخرى حتى تسهر على تأمين ظروف الرحلة فتحقق الجمعية أهدافها تحت عين وترخيص سلطة الاحتلال. ومن ذلك ما دار الحديث حوله بين ابن باديس والممثل الإداري (السوبريفي) في مستغاثم حول سبب الرحلة ومقصود الجمعية. وكان ردّ ابن باديس عنه : >> إنما نريد للمسلمين أن يبلغوا في المعارف والفلاحة والتجارة والصناعة إلى مستوى إخوانهم الفرنسيين ليتعاون الجميع بقوى متكافئة على خدمة الجزائر تحت الرّاية الفرنسية، ويكونوا مثل جيرانهم أوادم على الحقيقة، وتكون حالتهم مناسبة لسمعة فرنسا أم الرقي والمدنية >>(1).

وقد مرّ بنا كيف أن المرحلة الأولى من نشاط الجمعية كانت تتطلب الهدوء والمجاملة وعدم الإسراع إلى مصادمة الأفكار دون ترويضها تدريجيا، وتتطلب الحكمة في عرض الأمور وبجائها وتقديم الاقتراحات لها بما لا يحول دون توفيقها وإنما بما يسمح لها بأن تحقق في جوّ من الأمن والسّلام..

وقد قررت الجمعية في سنتها الثانية 1932م تنظيم رحلة ثانية إلى العمالة الوهرانية. وكلفت ابن باديس بذلك. بدأها من العاصمة وقادته إلى : " المدينة، البرواقية، قصر البخاري، الجلفة، الأغواط، آفلو، سوقر، تيارت، فرنده، معسكر، سعيدة، البيض، وهران،

(1) الشهاب، ج 11، م 7، غرة رجب 1350هـ-1931م.

سيق، بلعباس، تموشنت، تلمسان، مغنية، الغزوات، ندرومة، آرزيو، بريقو(*)، زاوية الشيخ ابن طكوك، غليزان <<(1)>>.

وكان ابن باديس أيضا قد زار قبل ذلك وفي السنة نفسها كل من " البليدة، تيارت" (2) و " بسكرة" (3).

وقد حددت الجمعية الهدف من هذه الرحلة الطويلة في أنه : << لما كان مقصود الجمعية هو محاربة لآفات الإجتماعية -وكانت طريقة الوعظ والإرشاد بالهداية القرآنية هي أنجع دواء لذلك عند المسلمين- قررت أن ترسل أفرادا من أهل العلم بنواحي القطر للقيام بهذه المهمة العظيمة >>(4).

ويبدو من عنوان "الشهاب" << رحلتنا إلى العمالة الوهرانية باسم الجمعية >> دلالات عديدة منها بداية العمل الرسمي للإصلاح، والإستقلال الكلي عن الطريقتين وممثليهم، ثم التحضير الدقيق لبرنامج الرحلة التي سوف تشمل جزءا كبيرا من القطر الجزائري، ويظهر هذا من طريقة سرد مجريات الرحلة الذي تعدى الوصف إلى الدقة وتأكيد الإشارة إلى بعض المواضيع التي لم تكن الإشارة إليها لتمر دون ملاحظة على الباحث وخاصة تلك التي تتحدث عن الحكومة والصحافة الفرنسية. ويبدو من جهة أخرى أن أسلوب "الشهاب" في الحديث عن هذه الرحلة قد أعدّ بأسلوب دقيق لا يقصد منه مجردة الإعلام وإنما التعليم والتدريب والتأريخ وهذا ما يظهر من خطة المقال على غير عادة "الشهاب" في ذلك وهي كما يلي:

رحلتنا إلى العمالة الوهرانية باسم الجمعية (5):

(*) المحمدية الآن.

(1) الشهاب، ج 8، م 8، غرة ربيع الثاني 1351هـ - أوت 1932م.

(2) المصدر نفسه.

(3) الشهاب، ج 2، م 5، غرة شوال 1350هـ - فيفري 1932م.

(4) الشهاب، ج 8، م 8، غرة ربيع الثاني 1351هـ - أوت 1932م.

(5) المكان نفسه.

- تمهيد
- تاريخ بداية الرحلة ونهايتها
- البلدان التي زرتها.
- ماذا كنت أقوم به في كل بلدة.
- موضوع الدرس ومادته.
- الإشاعات الباطلة.
- الأسئلة والأجوبة.
- مظاهر الاتحاد.
- تعلق الأمة بحكومتها.
- كرم الأمة وإقبالها.
- فضل الحكومة ورجالها.
- فضل الصحافة العربية والفرنسية.
- فضل الرفاق علينا.
- خدماتنا بهذه الرحلة.

وقد أرادت الجمعية بهذا إعطاء نشاطاتها ليس فقط صفة الرسمية التي بها تتعامل مع القوانين الفرنسية المعمول بها ولكن لتحقيق عدة أهداف أخرى :

— على مستوى علاقاتها الإدارية بالاحتلال الفرنسي:

ستجلب الإحترام والثقة لنفسها لكن الأهم من ذلك التأكيد للفرنسيين إدارة ورأيا عاما بأنه في استطاعة "الأهالي" المسلمين الجزائريين القيام بأعمال ذات طابع حضاري ومدني، لأن تنظيم الرحلات واستغلال مختلف مراحلها، وأداء مهام برنامجها ينم عن سلوك مدبر وفعال رمتحضر، وبذلك تمحو ما كان يروجه كتاب الاحتلال الفرنسي ومستشرقوه عن عدم فعالية المسلمين - الأهالي - وعن تأسل التخلف فيهم. ومن جهة أخرى تحدي الإرادة الاستعمارية في تهميش المسلمين و تشويه الحقائق بنشر كل ما من شأنه زرع اليأس في الجزائريين من محاولة التغيير إلا ضمن المدرسة والتاريخ والحضارة

- تمهيد
- تاريخ بداية الرحلة ونهايتها
- البلدان التي زرتها.
- ماذا كنت أقوم به في كل بلدة.
- موضوع الدرس ومادته.
- الإشاعات الباطلة.
- الأسئلة والأجوبة.
- مظاهر الاتحاد.
- تعلق الأمة بحكومتها.
- كرم الأمة وإقبالها.
- فضل الحكومة ورجالها.
- فضل الصحافة العربية والفرنسية.
- فضل الرفاق علينا.
- خدماتنا بهذه الرحلة.

وقد أرادت الجمعية بهذا إعطاء نشاطاتها ليس فقط صفة الرسمية التي بها تتعامل مع القوانين الفرنسية المعمول بها ولكن لتحقيق عدة أهداف أخرى :

- على مستوى علاقاتها الإدارية بالاحتلال الفرنسي:

ستجلب الاحترام والثقة لنفسها لكن الأهم من ذلك التأكيد للفرنسيين إدارة ورأيا عاما بأنه في استطاعة "الأهالي" المسلمين الجزائريين " القيام بأعمال ذات طابع حضاري ومدني، لأن تنظيم الرحلات واستغلال مختلف مراحلها، وأداء مهام برنامجها ينم عن سلوك مدبر وفعال ومتحضر، وبذلك تمحو ما كان يروّجه كتاب الاحتلال الفرنسي ومستشرقوه عن عدم فعالية المسلمين - الأهالي - وعن تأصل التخلف فيهم. ومن جهة أخرى تحدّي الإرادة الاستعمارية في تهميش المسلمين و تشويه الحقائق بنشر كل ما من شأنه زرع اليأس في الجزائريين من محاولة التغيير إلا ضمن المدرسة والتاريخ والحضارة

الأوروبية الصليبية، لأن برنامج الرحلة المصرّح به يصف الدّروس، وإقبال الناس عليها، واستعداد الأمة لكل خير يتعمد ابن باديس أو صحافة الجمعية دائماً في تسجيله في نهاية الرحلة كنتائج نهائية فإذا قرأنا مثلاً نتائج رحلة 1932م كما يلي: >> حاصل ما تيقنته من هذه الرحلة:

أولاً: استعداد الأمة لكل خير

ثانياً: مساعدة الحكومة عليه

ثالثاً: تمرکز الجمعية عندها وثقتها بها << (1).

نفهم الدلالات العميقة التي كان يشير إليها رئيس جمعية في تنفيذ مزاعم الإستعمار، وتأكيد حياة الأمة واستعدادها للنهضة شرط أن تجرد من يوجّهها في إطار مقوماتها الأصيلة بلغتها ومبادئ دينها، ثم تأكيد صميم لرفض الشعب الجزائري للوجود الإستعماري الفرنسي وحيلولة هذا الأخير دون ترقية الشعب والعمل على تمدينه حقيقة وهو ما تجتهد مؤسسات الإحتلال إلى إظهاره من خلال بعض المشاريع المفرضة.

وفي تعرضه للحكومة الفرنسية ورجاها وصحافتها لم يكن رئيس جمعية العلماء يتزلّف الإدارة الفرنسية أو يبالي في تعظيمها أو يغالي في ذكرها لم يكن من منجزاتها للأمة الجزائرية وكان لا يخرج في كل ذلك عن تقرير حال ووصف واقع بكل وجوه حقائقه الناصعة.

ويلاحظ القارئ لتقرير رحلته في هذا المجال، توجيهها للوم وإشارة إلى ما يجب القيام به والطريقة الضرورية في ذلك. فلسان حال الجزائريين يفضي بتعطشهم إلى العلم وتوقيرهم أهله وإقبالهم على مجالسه، بل وتقديم الإقبال على بناء المساجد والمدارس عن الإنفاق على الأهل والولد، وما يجب القيام به هو عينه ما كانت الجمعية تسعى بإمكانياتها البسيطة ووسائلها الضعيفة لتحقيقه. لكن أين فرنسا من كل ذلك؟ يقول التقرير (*).

>> العلم والنضيلة هما كل ما يحتاج إليه الإنسان في كماله وسعادته، وهما كل

(1) الشهاب، ج 8، م 3. غرة ربيع الثاني 1351هـ - أوت 1932م.

(*) التسطير للباحثة.

الأوروبية الصليبية، لأن برنامج الرحلة المصرّح به يصف الدّروس، وإقبال الناس عليها، واستعداد الأمة لكل خير يتعمد ابن باديس أو صحافة الجمعية دائماً في تسجيله في نهاية الرحلة كنتائج نهائية فإذا قرأنا مثلاً نتائج رحلة 1932م كما يلي: >> حاصل ما تيقنته من هذه الرحلة:

أولاً: استعداد الأمة لكل خير

ثانياً: مساعدة الحكومة عليه

ثالثاً: تمركز الجمعية عندها وثقتها بها >> (1).

نفهم الدلالات العميقة التي كان يشير إليها رئيس جمعية في تنفيذ مزاعم الاستعمار، وتأكيد حياة الأمة واستعدادها للنهضة شرط أن تجد من يوجهها في إطار مقوماتها الأصيلة بلغتها ومبادئ دينها، ثم تأكيد صميم لرفض الشعب الجزائري للوجود الاستعماري الفرنسي وحيلولة هذا الأخير دون ترقية الشعب والعمل على تمدينه حقيقة وهو ما يتجهد مؤسسات الإحتلال إلى إظهاره من خلال بعض المشاريع المفروضة. وفي تعرضه للحكومة الفرنسية ورجالها وصحافتها لم يكن رئيس جمعية العلماء يتزلف الإدارة الفرنسية أو يبالح في تعظيمها أو يغالي في ذكرها لم يكن من منجزاتها للأمة الجزائرية وكان لا يخرج في كل ذلك عن تقرير حال ووصف واقع بكل وجوه حقائقه الناصعة.

ويلاحظ القارئ لتقرير رحلته في هذا المجال، توجيهها للوم وإشارة إلى ما يجب القيام به والطريقة الضرورية في ذلك. فلسان حال الجزائريين يفضي بتعطشهم إلى العلم وتوقيرهم أهله وإقبالهم على مجالسه، بل وتقديم الإقبال على بناء المساجد والمدارس عن الإنفاق على الأهل والولد، وما يجب القيام به هو عينه ما كانت الجمعية تسعى بإمكانياتها البسيطة ووسائلها الضعيفة لتحقيقه. لكن أين فرنسا من كل ذلك؟ يقول التقرير (*).

>> العلم والنضيلة هما كل ما يحتاج إليه الإنسان في كماله وسعادته، وهما كل

(1) الشهاب، ج 8، م 8. غرة ربيع الثاني 1351هـ - أوت 1932م.

(*) التسطير للباحثة.

ما ترمي إليه جمعية العلماء المسلمين الجزائريين بسعيها، فللحكومة الفضل العظيم بفتحها السبل لهذه الجمعية حتى تتوصل إلى نشرهما باتصال رجالها من أهل العلم بالأمة في مساجدهم ومجامعهم وحيثما كانوا. فللحكومة في هذا من الفضل بقدر ما فيه للأمة من النفع ولقد كان رجال الحكومة الذين لقيناهم في جميع البلدان يلاقوننا بمزيد من الإكرام ويزودوننا بعبارات التأييد والتنشيط، ويقول لنا الكثير منهم إننا مستعدون لمساعدتكم في كل ما تريدون بدائرتنا، ولا شك أنهم يتكلمون بلسان الحكومة ويعربون عن نياتها ومقاصدها وأي مقصد أشرف وأية نية أنفع من تعاون الحكومة مع العلماء لتهديب الأمة وتعليمها؟

هذا أعظم ما قامت به فرنسا في أول القرن الثاني نحو أبنائها المسلمين الجزائريين الذين كانوا معها في جميع المواقف، مواقف الحياة ومواقف الموت >> (1).

ولا يفوت قارئ التقرير ملاحظة نغمة اليأس من فرنسا وأسلوب السخرية في كثير من العبارات وملخصه ما يلي :

إن أعظم ما قامت به فرنسا على رأس القرن الثاني للإحتلال نحو الشعب الجزائري بعد ما تجاهلته تماما طيلة قرن كامل واستغلته للدفاع عنها فاستجاب لذلك طوعا وقدم أرواح أبنائه قربانا لحياتها ودفاعا عنها، لم يتعد:

- الترخيص للجمعية لمباشرة عملها.
- التزويد بعبارات التأييد والتنشيط
- الوعود الكثيرة - اللفظية - ليس بالتكفل بالمشاريع وإنما فقط للاستعداد لتقديم المساعدة إذا ما طلبتها الجمعية والتي لم تأت أبدا.

وهذا ما يؤكد حقيقة مقاصدها ونيتها التي لم تتغير بعد قرن كامل من الإحتلال هذا من جهة، ومن جهة أخرى فالمبادرة لبعث ما يحتاجه الشعب الجزائري والسعي لتحقيق ذلك لم تباشرها إدارة الإحتلال على الأقل عرفانا بالجميل، وجزاء لشعب قام بواجب الدفاع عنها تماما كما يقوم به كل مواطن غيور على وطنه، وإنما المبادرة كانت لجمعية العلماء.

(1) الشهاب، ج 8، م 8، غرة ربيع الثاني 1351هـ - أوت 1932م.

ويكفيها هذا التقرير شهادة صريحة، تعلنها صحافة الجمعية فيطلع عليها أبناء الشعب الجزائري، والرأي العام الفرنسي في الجزائر ثم الرأي العام العالمي خاصة وأنه تقرير واقع ومواجهة تاريخية فيتم بها وضع حقيقة النظام الاستعماري أمام مسؤوليته التاريخية في تخلف الشعوب المستعمرة وتبعات ذلك عليها مستقبلا.

ونلمس من تقرير الرحلة من جهة أخرى أن رئيس الجمعية بقدر ما كان صريحا وواضحا بقدر ما كان ذكيا في التواري خلف عبارات التعظيم والابتعاد عن كل ما يفهم منه التوعد والتبرم بالإدارة الفرنسية وحكومة الاحتلال >> فالحكمة عند ابن باديس تقتضي أن لا يهاجم الدولة الحاكمة، وإنما يجربها جراً بإظهار إيجابياتها دون سلبياتها حتى يأمن شرّ التعرض لها >>(1). والحكمة عنده تقتضي عدم التنديد بعبارات صريحة ولكن الإعتدال والهدوء الذي قد يخدم الجمعية ويخدم مصلحة الشعب الجزائري الأولى بالحرص عليها دون غيرها وقيل غيرها.

– على مستوى علاقاتها بالطرفين:

بعد أن أصبحت جمعية العلماء المسلمين الجزائريين تنظيما إصلاحيا بحثا بانسحاب ممثلي الطريقة، لم يأنس رئيسها في السعي للمصالحة وجلب صداقة واحترام كبار رؤوس البيوت الصوفية، ولم يقنط من طموحه في تحقيق ذلك عن طريق الجولات والزيارات التي لم تكن في 1932م للمجاملة فقط وإنما لتقديم شروحات جدية ووضع النقاط على الحروف خاصة بعد المواجهة الدرامية في نادي الترقى بين رجال الإصلاح وشيوخ الطريقة على أن يكون ذلك في حوار أخوي يجمع بدل أن يفرق، وعليه فإنه كان >> على رئيس الجمعية شخصيا مسؤولية تقديم توضيحات ليس للطرفين فحسب، وإنما لكل ممثلي الرأي العام الإسلامي >>(2)، وذلك أملا في إعادة الهدوء إلى القلوب والعقول ثم زرع جو الوئام والسكينة بين المصلحين وغيرهم من المسلمين في الجزائر.

(1) عبد الرحمن بن العتوم، المرجع السابق، ص 180،

(2) Ali Merad, Le Réformisme Musulman en Algérie, Op, Cit, p 141.

ومن ثمة جاءت الرّحلة الثانية للقطاع الوهراني ببرنامجهما الدقيق الذي جعل من الإشهار والتعريف بالجمعية ومقاصدها ومبادئها من أهم محاورها.

ومن جهة أخرى حرصت الجمعية أن تكشف بصراحة عن مختلف نشاطاتها، وجداول أعمالها المختلفة، بما في ذلك مضامين الدروس والخطب التي كانت تلقي على الجزائريين، ويبدو أن الهدف من ذلك هو التأكيد للإدارة الفرنسية أن الجمعية لا تخرج عن أصولها وقانونها الداخلي الذي رخص لها على ضوءه العمل رسمياً، وبالتالي فإن كل ما تقوم به حسب تقاريرها المعلنة فإنما هو في إطار القوانين المعمول بها وبمقتضاها وهذا أسلوب غاية في الذكاء والثورية في أن توفر لنفسها جوّ الأمن وتسخير رجال الحكومة لتأمين نشاطها في كل المناطق. لكنها في الوقت نفسه تقطع الطريق دون وشايات الطرقيين والمشكّكين في مقاصد الجمعية والذين >> لم يوافقهم ما تدعو إليه الشريعة المطهرة السمحاء، ويندب إليه الدين الصحيح الخالص، من النصيحة العامة التي عاهد العلماء الله على القيام بها جهد المستطاع، ووقفوا حياتهم على بذلها للناس لذلك قامت قيامتهم في وجوه الوعّاظ والمرشدين من وفود الجمعية فقاموا وقعدوا وأرعدوا وأبرقوا وأغروا الأذنان بالشر على العلماء وأوعزوا إليهم بإبقاد نار الفتنة >>(1) وكيلت للجمعية في ذلك التهم المتوالية منها أنها عبداوية و هابية وأنها دستورية(*) أو شيوعية وأنها تثير الفوضى، وأنها جمعية تنكر البعث والنشور.. الخ، ثم سعوا إلى الإدارة بتقارير مختلفة، فكانت تقارير الجمعية عن رحلاتها وجولاتها في كل المناطق ترد في ذلك على تلك الوشايات، وتقدّم الحقائق للإدارة، وللطرقين وللشعب الجزائري عموماً. فاكسبت لنفسها الأمان والاستمرار، لكن ذلك لم يدم طويلاً لأن >> الوشايات المتوالية مع اختلافها في السبب والنظم قد نجحت في النهاية في إدخال الشك على رجال الحكومة التي وإن >> لم تسارع في الإساءة إلى الجمعية لما شاهدوه في سائر القطر من يسرها الديني المحض السلمي >>(2) ، لكنها انتهت إلى إصدار قرار خطير في حق الجمعية وحق الجزائريين يقضي بمنع العلماء من

(1) الشهاب، ج6، م10، غرة صفر 1353هـ - 16 ماي 1934م.

(2) المصدر نفسه.

(3) المقصود بذلك "الحزب الدستوري التونسي".

الوعظ بالمساجد.

ومن ثمة فقد أثار رحلات علماء الجمعية عموماً ردود الأفعال الكثيرة التي كشفت أعداء الإصلاح وأعداء الجزائر وهو ما سمح للجمعية بتقديم التوضيحات وإلقاء الدروس والمحاضرات وعقد الاجتماعات بل وتنظيم رحلات أخرى، وهو ما بعث حركة من التساؤلات والاستفسارات، ووفر جواً من الحيوية الفكرية التي بعثت بدورها جواً من النشاط الثقافي الذي يترك من آثاره في الصحافة وبالتالي في التاريخ، ويقدم خدمة هامة لجمعية العلماء للتعريف بها وجعلها محور المناقشات وإشهارها على كل الألسنة فكفها ذلك طول الوقت وقسوة الظروف وقلة الإمكانيات.

وقد كانت الرحلة تنظم أخذاً بهذه الاعتبارات العميقة بطريقة ملهمة ليس فقط بما يحقق لها الفائدة والرضى، لكن أيضاً بنية إعطائها قيمة للرمز والتعليم، وهذا برنامج إحدى الزيارات كما يصفها رئيس الجمعية بنفسه: «ماذا كنت أقوم به في كل بلدة» يصفه بكل تفصيل كما يلي:

1- زيارة مسجد البلدة قبل كل شيء، كان ابن باديس يرى في ذلك تطبيقاً للسنة الكريمة وبيان عظمة المسجد وحرمة مكانته عند المؤمنين، وفي الوقت نفسه يقضي على بدعة زيارة القبور والأضرحة، فالوقوف بين يدي الله والتضرع له في خشوع لقضاء الحاجات أحق من الفرع إلى الأولياء، ولم تكن هذه البدعة الظاهرة تنتشر لولا الجهل والغفلة والسكوت عن الحق، وبذلك يتحقق من الجمعية الدعوة إلى الدين الصحيح، والقيام بواجب التبليغ، وأداء فضيلة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

2- زيارة مجاملة لممثل الحكومة من (بريفي) أو (سوبريفي) أو متصرف.

3- زيارة مجاملة لممثل الأمة الفرنسية والعربية وهو (المير) - "رئيس البلدية" -.

4- العودة إلى المسجد لإلقاء درس ديني عام (1).

ونخلة رحلات وجولات رئيس جمعية العلماء بغض النظر عن الأهداف التي ذكرناها والتي لم نذكر، هي أن أهم ما كان يشغل جمعية العلماء المسلمين الجزائريين في بدايتها هو العمل على الوحدة بين المسلمين الجزائريين وردم ما بدأ بينهم من اختلاف

(1) الشهاب، ج 8، م 8، غرة ربيع الثاني 1351هـ - أوت 1932م، ص 402 بتصرف.

وشقاق مما زرعه جهل بعض الطرفين وجشع بعضهم الآخر وهو ما استغلته إدارة الاحتلال لتحقيق غرضها من الفرقة والتنافر والاختلاف ولذلك فقد كان ابن باديس يحرص بعد ^{إلى} الدرس العام والتعريف بالجمعية ومقاصدها حسبما هو مبين في قانونها الأساسي على تلخيص وصايا الجمعية في كلمات ثلاث: «تعلموا، تحابوا، تسامحوا» (1) ثم يقوم بشرحها لهم فيذكرهم بفوائدها، ثم يبين لهم «أن الجمعية للجميع وأنها ليست ضد أحد، لا للزوايا ولا لغيرها، وأن غرضها هو نشر العلم والفضيلة بين الجميع» (2). هذا من ناحية ومن ناحية أخرى فقد كان مرور ابن باديس بكل المناطق مدّة لمشاريع كثيرة ومختلفة، من إنشاء مسجد تعليم القرآن الكريم، إلى بناء مدرسة، ولم تخل زيارة عن قيام الاتفاق حول المشروع ماديا وعمليا.

2- وفود جمعية العلماء للدعوة والوعظ والإرشاد:

قرّر المجلس الإداري لجمعية العلماء في حياة ابن باديس سنة 1935م قيام علماء الجمعية بالوعظ والإرشاد في أنحاء البلاد، وقسم العلماء على عمالات الجزائر الثلاث في ذلك الوقت، الجزائر، قسنطينة، وهران (*). وخرجت الوفود للقيام بمهمتها ثم توالى ذلك في كل صائفة لكن قيام الحرب العالمية الثانية وموت ابن باديس وما تبع ذلك من أحداث كسجن كثير من رجال الجمعية (3)، وتعطيل صحفها دفع الجمعية إلى تجميد مشاريعها لفترة ثم استأنفتها بعد الإفراج عن المساجين بفتح المدارس والنوادي وغيرها.

واستمر العمل بهذا الأسلوب أثناء رئاسة الإبراهيمي الذي سار على منهج ابن باديس في دوام التنقل والتجول ليس لمدّة مشاريع جديدة تحت إدارة وتوجيه الجمعية فقط، وإنما القيام بزيارات تفقدية للمشاريع السابقة. -المنجزة- أيضا ولما اتسعت أعمال الجمعية، وكثر اتباعها في كل أنحاء الوطن الجزائري ولزم تفقدها ومتابعتها، لم يعد في استطاعة رئيس الجمعية الإطلاع عليها جميعا لوحده فقرر المجلس الإداري أن يعزّزه بمن

(1) الشهاب، ج8، م8، غرة ربيع الثاني 1351هـ - أوت 1932.

(2) المصدر نفسه.

(*) انظر الملحق رقم 14.

(3) منها سجن الشيخ الشير الإبراهيمي ونفيه إلى قرية أفلو النابتة لمدة ثلاث سنوات حتى 1945م.

تختارهم لذلك وقد حدّدت مهمتهم في خدمة الإسلام ورفع شأن العروبة في الجزائر، ومنها العمل الجدّي والمثمر لصالح الجمعية وفائدتها المالية والأدبية.

3- وفود الوعظ في شهر رمضان:

وقد سلكت جمعية العلماء في سبيل تبليغ الدعوة الصّحيحة للمسلمين الجزائريين، والوصول إلى الجماهير في كل مناطق الجزائر، نشاطا آخر هامّا انتدبت له جمعا من علمائها الأخيار وتمثّل ذلك في إحياء شهر رمضان بالدّروس والمواعظ في جميع مراكز الجمعية ومدارسها ومساجدها ووضعت لذلك قوائم بالأسماء والمناطق (**).

لقد تعدّدت مهمة جمعية العلماء بمرور الزمن الإشهار بنفسها بين الجزائريين، وشرح مبادئها وأصولها وإن بقيت هذه من معطيات برامج الجولات المتتالية إلى المناطق الجديدة في الدّعوة الإصلاحية، وتبقى مهمة مدّ المشاريع الجديدة وتفقد الإنجازات المتفق عليها مسبقا من الأولويات الرئيسية في برامج الرّحلات المختلفة. وقد دأبت الجمعية على نشر القوائم بأسماء العلماء وكذا المناطق بدقّةها بئس لا على نشاط جمعية غير عادية وإنما جمعية ناطت نفسها بمهمة تاريخية وحضارية بعيدة الأهداف عميقة المقاصد ومنها إعداد الجزائريين وتوجيههم لإنقاذ أنفسهم من سيطرة الاستعمار عن طريق إعادتهم إلى مقومات أصالتهم وذلك بتربية الإحساس بالاستقلال عن إدارة الاحتلال عن طريق نشر روح الوحدة والتسامح والتعاون وبناء الضمير الجمعي بالتشجيع على الإقبال على المشاريع الجماعية التي تنجز تحت إدارتها وتوجيهها، لكن بأموال وتنفيذ الشعب والتفافه حول كل ما يحقق المصلحة العامة. وبهذا تفند مزاعم الاستعمار وتخلق روح المبادرة وتقتل مشاعر الخوف، ويفتح المجال لتفاعل مشاعر العقيدة الواحدة والوطن الواحد واللغة والتاريخ والثقافة والتقاليد. وهذا ما يكون ما قصدت الجمعية منه وهو بعث عقلية الأمة الجزائرية وربط الجزائريين بشعور الانتماء إلى حضارة واحدة وروح واحدة الذي به يتحقق الانتصار الفعلي والحقيقي على العدو الذي يبدأ بإحساس الشعب بانفصاله ومغايرته في كل شيء له، ومن ثمة العمل على إحياء وتمجيد كل ما كان الاستعمار يعمل على قتله وتشويهه.

(*) انظر الملحق رقم 14.

II- رحلات الجمعية إلى الخارج من أجل الجزائر:

إذا كانت رحلات ابن باديس إلى مختلف المناطق في القطر الجزائري وكذا وفود الجمعية من أجل الجمعية تعريفها، وشرحا لأصولها ومبادئها، وربطها بالجماهير وإيصال الدعوة الإصلاحية السلفية إلى كل الجزائريين. فإن الرحلات إلى الخارج كانت من أجل الجزائر تعريفًا بتاريخها وثوراتها منذ أن وطئ الإستعمار -الفرنسي- أرضها، ثم تعريفًا بنهضتها الإصلاحية والتربوية. واحتراما منها لأولويات النشاط الإصلاحي، وتقديرا للمصلحة العامة وظروف الجزائر الاجتماعية والاقتصادية، ثم تقديرا لأهمية المرحلة في الدعوة لم تأذن الجمعية لعلمائها وحتى لرئيسها الرحلة إلى الخارج والتجول في أقطار العالم لأهداف مختلفة -سندكرها لاحقًا- ونظرا لكثرة الأعمال الداخلية للجمعية من جهة ومن جهة أخرى <<حرصا من الجمعية على تلك الأعمال أن تحتل وتعطل >> (1) وما إن توافرت دواعي ذلك حتى وقع الاتفاق وأذنت الجمعية بالرحلات خارج الجزائر.

أسباب الرحلة إلى الخارج -الأقطار الإسلامية-: يرجع الرئيس الثاني لجمعية العلماء الشيخ محمد البشير الإبراهيمي دواعي الرحلة إلى الخارج إلى أربعة أسباب:

1- << دراسة أحوال المسلمين في مواطنهم، وبمحت المقارنات والمفارقات القائمة بين تلك الأحوال، ونسبة دركات الإنحطاط فيهم إلى درجات الاستعداد للنهوض، وتصحيح الميزان لما تستطيع كل طائفة منهم أن تقدمه إلى الأخريات من العون والمعون، حتى يحصل التعاون بعد تحصيل أهم أسبابه، وهو التعارف >> (2).

2- الإتصال المباشر بعلماء الدين والإطلاع على وفائهم لعهدهم من حمل الأمانة التي ورثوها عن الأنبياء، والتي جعلتهم الأحق في قيادة المسلمين إلى السعادة، وجمع كلمتهم على الحق والخير إذا ما تسلحوا بما لا ينافي الإسلام من وسائل زمانهم، ومن ثمة بحث إمكانية جمع كلمة علماء الإسلام حتى يسهل جمع كلمة المسلمين (3).

(1) لجنة من تلاميذ الإبراهيمي، آثار محمد البشير الإبراهيمي، (الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب، 1985م)، ج4، ص10-11. انظر أيضا مجلة البصائر، ع 194 السنة الخامسة من السلسلة الثانية 23 جوان 1952م.

(2) المصدر نفسه، ص 11.

(3) المكان نفسه، بتصرف.

3- دراسة أحوال الحكومات الإسلامية القديمة والناشئة والأصول التي تبنى عليها الحكم، والإتجاهات التي تتوجه إليها من حيث هي حكومات، ومدى تغلغل المؤثرات الخارجية في أجهزتها الحكومية >> وكل ذلك بهدف معرفة أيها أقرب مسافة من روح الإسلام وروح الشرع وأيها أصلح لأن تكون مثالا قريبا للحكم الإسلامي الصالح، حتى يسانده المصلحون بالرأي وحشد المؤهلات حتى تتحقق رغبة المسلمين في وقت قريب باستعباده كل ما ضاع من أحكام القرآن الكريم >> (1).

4- دراسة نفسية شباب الأمم الإسلامية المتباعدة، >> ومبلغ تأثرهم بالعوامل الخارجية التي تبعدهم عن روح الإسلام، لتقدر بقدرها ما يجب بهذه الحالة من علاج >> (2) وتحديد نقطة البداية الصحيحة في أعمال المصلحين من حماة الإسلام.

وقد بدأت رحلات جمعية العلماء بناء على هذه الدوافع في سنة 1952م وناطت مسؤوليتها لرئيسها محمد البشير الإبراهيمي الذي قادته انطلاقا من الجزائر إلى كل من مصر، باكستان العراق وغيرها. وكانت البداية من باكستان لأنها ستحضر مؤتمر العالم الإسلامي والذي سيمكّنه من لقاء زعماء ومثقفي وعلماء بلدان العالم الإسلامي. وقد أعد برنامج الرحلة بعناية فائقة كان القصد منها تحقيق كثير من الأهداف على المستوى الجزائري والإسلامي.

ويلاحظ القارئ لجزريات الرحلة التي كان يكتبها الإبراهيمي تباعا وتقوم جرائد الجمعية بنشرها، أن جمعية العلماء المسلمين الجزائريين قد تعدّى صيتها حدود الجزائر إلى الأقطار الإسلامية وخاصة في شخصيات علمائها وعلى رأسهم رئيسها الثاني محمد البشير الإبراهيمي من خلال ما لقيه من حفاوة الاستقبال من طرف شخصيات بارزة ومسؤولة، فزيارته من طرف وزراء الخارجية والدعاية، والمعارف إلى وزراء مفوضين إلى القائمين بالأعمال والملحقين في المفوضيات العربية إلى علماء وأدباء من جهة ثم وبسطهم

(1) آثار محمد البشير الإبراهيمي، مصدر سابق، ج4، ص 12،

(2) المكان نفسه.

لأهم القضايا للمناقشة وتلمس تقديم اقتراحات منه في شؤون الدول من جهة أخرى، ثم إقامة ندوات صحفية على أعلى المستويات ودعوة الصحفيين ونواب وكالات الأنباء، ونشر حيثيات رحلته يوميا في مئات الجرائد (1)، إلى الحفلات التكريمية التي كانت تقام على شرفه، كل ذلك يدلّ على أن جمعية العلماء المسلمين الجزائريين لم تكن مجرد جمعية إصلاحية تهذيبية في الجزائر، وإنما هي في نظر مسلمي العالم على أعلى مستويات المسؤولية السياسية والدينية والعلمية والاجتماعية.. الخ، فقد كان رئيسها يستقبل استقبال رئيس دولة وقائد شعب وأن اقتراحاته أو مواضيع مناقشاته كانت تؤخذ على ذلك الاعتبار (2) وذلك كلّه يدلّ دلالة واضحة على مكانة الجمعية ليس على مستوى الجزائر فحسب وإنما على مستوى العالم الإسلامي ككل.

ويبدو من تتبع مجريات الرحلة من جهة أخرى أن جمعية العلماء كانت تتعامل على مستوى المسؤولية التي حملتها منذ البداية، وإن كانت برامج رحلاتها داخل الجزائر قد أوكلت فهم معانيها وأهدافها الحقيقية العميقة لقرايح الشعب الجزائري، وأمّنت في إيجاز ذكر دروسها فإنه لم يبق مجال لايجاز أو تعمية للأهداف العظيمة التي عملت على تحقيقها سواء في الداخل أو في الخارج، والقارئ لما كتبه رئيسها مما أسند إليه تحقيقه وبجته في الأقطار الإسلامية لا يدع شك في أنها ليست وليدة ظروف سائحة أو ساحة خالية من تيارات وأفكار، وإنما هي أساس مبادئها وأصولها منذ بدايتها. لكن أولويات العمل على كل مستوى تدفع إليه وتشجع عليه الإنجازات الهامة على مستوى نفوس وعقول الجزائريين، ومن ثمة المعطيات الواقعية للنشاط الإصلاحي في الجزائر.

وكما سمحت الرحلة داخل الجزائر للجمعية أن تبني مشاريعها على ضوء ملاحظاتها ودراساتها للأوضاع واتصالها بال جماهير فقدّرت المراحل وقدرت الإنجازات فقد سمحت الرحلة إلى الخارج لرئيس الجمعية تحقيق ما استهدفته الجمعية ما يلي:

1- تحصيل التعارف بين الجزائر ومختلف الدول العربية الإسلامية البعيدة بعرض أوضاعها السياسية والاجتماعية والدينية والثقافية، والإطلاع -دراسة- على أوضاع هذه

(1)، (2) للإطلاع على هذا الموضوع والاستفاضة فيه يرجى الرجوع إلى : آثار محمد البشير الابراهيمي، مصدر.

الدول، ومن ثمة تحديد وضع الجزائر والشعب الجزائري إزاءها وإجراء مقارنة بينه وبين الأقطار الإسلامية الأخرى وبمحت النقائص ودراسة إمكانية التعاون، والجدير بالإشارة أنه قد يبدو منطقياً إجراء هذه الرحلة، وبمحت هذه المواضيع وتحقيق هذه الأهداف إذا كان للجزائر حكومة ووزارات تسهر كل منها على تحقيق ما يستلزم لكل دولة من مرافق وإنجازات ومشاريع، لكن يتضح لنا أن جمعية العلماء إنما خططت وتخطط ضمن هذا المعنى وهذا المستوى وقد شجعها على ذلك ما تم بناؤه من طرف الشعب بعدما بنت فيه من أسباب الوحدة وعوامل التلاحم إلى المرور إلى مرحلة ربط هذا القطر وهذا الشعب بأصله الشرعي والطبيعي: العالم العربي والإسلامي. وقد أشار الإبراهيمي نفسه إلى أن مهمته كانت تتجاوز التعريف بالجزائر إلى التعريف بالشمال الإفريقي ككله ومن ثمة وبهذه الخطوة فقد عملت جمعية العلماء على تحقيق الوحدة المغاربية والوحدة العربية الإسلامية.

2- تؤمن جمعية العلماء بأن طائفة العلماء هي الأحق بقيادة المسلمين ومن ثمة كان الاتصال بعلماء الإسلام في مختلف الأقطار الإسلامية ألزم للجمعية من الاتصال بغيرهم، وذلك لتعرف طريقة فهمهم للدين وعملهم به، ثم عملهم له >> ومدى اقتدارهم البياني والاستدلالي على الدعوة إليه ومدى استعدادهم للتضحية في سبيله ومدى اتصالهم بطبقات الأمة >> (1)، الحاكمة منها وغير الحاكمة ومن ثمة دراسة الإمكانيات المعنوية للنهوض الإسلامي العام. فالعالم الديني الذي يعول عليه كما يقول الإبراهيمي: >> هو الذي فهم دينه على وجهه الصحيح، وفهم نفسه بوزنها الصحيح، وفهم زمنه على وجهه الصحيح أيضاً، وعرف أمراض المسلمين، ووطن نفسه على علاجها، ونكب عن ذكر العواقب جانباً، وبذلك يكون الخلاف المذهبي بين العلماء أيسر من أن يقف عقبة في سبيل الوحدة وعلاجه - إذا صحت النيات وعقدت العزائم - في جملة واحدة: الاتفاق على المتفق عليه، والسكوت على المختلف فيه سكوتاً ينتهي، مع طول الزمن إلى نسيان الخلاف >> (2).

(1) آثار محمد البشير الإبراهيمي، مصدر سابق، ج 4، ص 11.

(2) المصدر نفسه ص 12.

3- تعبئة الرأي العام الإسلامي لمساندة المصلحين في كل الأقطار الإسلامية لكن الأقرب فالأقرب منها مسافة إلى روح الإسلام لتحقيق رغبة المسلمين في تكوين دولة القرآن الكريم الذي سعد به السلف وأسعد.

4- يؤكد رئيس جمعية العلماء حقيقة أخرى وهي أن مسؤولية الانحطاط والمسوخ في العالم الإسلامي في تلك الفترة وفي غيرها لا يمكن أن تلصق بشباب الأمة وإنما المسؤول هو « المجتمع الإسلامي المنحلّ المعتلّ المختلّ الذاهل الغائب عن الدنيا » (1). وحدّد المسؤولية الأولى منها في أولياء الأمر من آباء وقادة وحاكمين، وقد وقف على ذلك بحثنا ودراسة حيث قال: « من سوء حظ الأمم الإسلامية (وهو في نظرنا وحكمنا من سوء تصرفها إذ لا مدخل للحظ في مصائر الأمم) أن تطورها لا ينشأ في هذا العصر عن استعدادها الطبيعي، وليس لها في أسبابه يد حتى تنبئه طبقا عن طبق بنظام تدريجي يكمل فيه الأخير ما بداه الأول، ولكنها مغلوبة على أمرها، تابعة لغيرها في كل شيء. وقد أصبح تيار الحضارة الغربية جارفا لا يمهّل ولا ينتظر، وأصبح شباب الأمم الإسلامية معرّضا لهذا التيار من أول خطوة في الحياة وقد أخذ عليه الحياة من أقطارها، فتأثر بهذه الحضارة وأغشته أنوارها فأحرقته نارها، والآباء بين غافل، لأنه جاهل، وبين متدمر يدرك العواقب ولكنه لا يصنع لاتقائها شيئا. والحكومات الإسلامية فيما بلونا من أمرها إما مأخوذة بهذا السحر، فهي تجري وراء السّاحر على غير بصيرة، وقد أوحى إليها فيما أوحى أن القيام على الحقول والبقول، ألزم لحياتها من القيام على العقول، وإما متخلفة عن قوافل الزّمان عما كفة على الدّمن، معتمدة في العصر الذري على سيوف الهند واليمن» (2).

ومن ثمّة فإن رئيس الجمعية وبالتالي جمعية العلماء وانطلاقا من هذه الدراسة والتحليل العميق لمعطيات العالم الإسلامي قد حدّدت بدايات العمل الإصلاحي الشامل، الذي سيتجه أساسا إلى علاج رأس المعطلات وروح الأمة الإسلامية وكل الأمم، وهم

(1) آثار محمد البشير الابراهيمي، مصدر سابق، ج4، ص 13.

(2) المكان نفسه.

الشباب لأنه هو الدم المجدّد لحياتها، الناقل لخصائصها بالوراثة، والذي إذا أفرط في التأثير بالعوامل الخارجية البعيدة عن روح الإسلام، مسخ الأمة وأدغمها في غيرها ورمي جسمها كلّه بالاعتلال فلا بد أن تكون البداية به أولاً. أما طريقة ذلك كما يشرحه الابراهيمي فهي كما يلي: العمل على عودة الشباب إلى أمته لكن تعريفه لماذا يرجع أولاً وماذا يجد إذا رجع ثانياً؟.

يقول الابراهيمي: « فلنعرّفه أنه سيجد ماضياً مشرقاً يتصل بمحاضره اتصال الأصل بالفرع، وسيجد تاريخاً حافلاً، ودخائر عقلية، ومجالات روحية تمكن له في الإنسانية الكاملة. وتضمن له جميع المتع العقلية والفكرية والروحية والبدنية. إلا هذه الشهوات السطحية والنزوات الحيوانية فليس لها مكان عندنا.. فإذا رجع هذا الشباب من غربته العقلية، وعاد إلى مستقره الشرقي، واطمأن إليه، أمناً على تاريخنا الانقطاع، وأمناً على ذخائرنا الضياع، لأنه سيأخذها بقوة الشباب ويقين العقيدة، وتركبة العلم، وصدق الشعور، وحيوية الإحساس، ويمسح عنها صدى الإهمال ويتناولها بآلات جديدة لم يفسدها الترك والإطراح، ولم يشملها التقليد كما مثلها في عقول آباءه وأرواحهم» (1)، ثم يقترح رئيس جمعية العلماء بداية العمل الفعلي في ميدانين هما: البيت والمدرسة « فالبيت هو معمل التكوين، والمدرسة هي معمل التلوين، وفي كلاهما العمل على تقوية التربية الدينية وإقرار الدين فيهما علماً وعملاً إلى جانب الدنيا» (2).

والذي يفيدنا في هذا التحليل المفصّل للأسباب والنتائج والاقتراحات أنه ينبع أساساً من أصول جمعية العلماء نفسها بكونها جمعية تهذيبية تعنى بنشر العلم والفضيلة وجعلها أساس السعادة في الدنيا والآخرة، وقد شهدت بذلك مشاريع الجمعية ودأبها في بناء المساجد للتعليم القرآني على المبادئ الصحيحة والطرق الحديثة، وتشيد المدارس والانشغال بالنشر المسلم قبل الاهتمام بالكبار وإن لم تحرم هؤلاء من حلقات التذكير ودروس ما بعد صلاة المغرب وبعد صلاة العشاء بالمسجد الأخضر، وقد شهدت قبل ذلك

(1) آثار عمدة البشر الابراهيمي، مصدر سابق، ج4، ص 13-14.

(2) المصدر نفسه، ص 14.

اتفاق العلماء على الأجدد برأي ابن باديس في ضرورة الاهتمام بالنشء وطائفة الشباب أولاً وتسليم الإبراهيمي به، وبيانه هذا شرح واف للنظرة البعيدة والصّحيحة لزميله ابن باديس فقد اهتمت جمعية العلماء في برامجها وكل نشاطاتها بطائفة الشباب والنشء التي كان تعول عليها في التغيير السليم نحو الاتجاه الصحيح.

إنّ ما آمنت به جمعية العلماء ووطنت نفسها على تحقيقه في الجزائر وحققته في ذلك النجاح تلو النجاح، لم تكن لتخصّ به الجزائر دون غيرها من أقطار العالم الإسلامي عامة مادام الداء واحد وأهداف الاستعمار الصليبي فيها واحدة وقد وقف الإبراهيمي على ذلك من خلال مناقشاته المستفيضة مع نفر من رجالات الشرق النابهين ثم وقوفه على ذلك بنفسه في باكستان حيث دراسة الموضوع مع وفود الأقطار الإسلامية في مؤتمر العالم الإسلامي بها، ويتجلى ذلك في أن القضية عند جمعية العلماء المسلمين، وعلماء المسلمين عامة - حسب المفهوم الصحيح للعالم المسلم - إنما هي معركة بين الإسلام والمسيحية وبالتالي فهي معركة بين الإيمان والكفر على الشباب. وقد قدّم الإبراهيمي على ضوء كل ذلك انذاراته واقتراحاته العملية.

والخلاصة أن الرّحلة عند جمعية العلماء المسلمين الجزائريين كانت مسجداً حرّاً قدّمت من على منبره الخطب المتنوّعة المواضيع والمختلفة الأهداف، وقد شمل ذلك المقاهي والحوانيت وساحات السينما والزوايا وبيوت الوجهاء والعلماء وكانت مدرسة مفتوحة للكبار والصغار ناقشت دروسها مختلف مجالات العلوم العربية والإسلامية والعلوم الحديثة وقدّمت دروساً حيّة في فهم قضايا السّاعة ومقاصد الاستعمار من خلال مواقف رئيس جمعية العلماء ورجال الجمعية في ظروف خاصة وقضايا خاصة، وكانت بدايتها دعوة ملحة إلى العلم والتعلّم والتعليم وتعبئة الجزائريين وحشد همهم للقيام بهذا الواجب المقدّس كل على مستواه لتسهيل يعد ذلك دعوة التسامح والتعاون المفيد. كما كانت صحيفة متنقلة تتابع وصف الأحداث ونقل الأخبار ثم نشرها لتعميم الفائدة واستخلاص

العبر، وكانت إذاعة مسموعة بصوت علمائها في كل المناطق بإعادة الدروس وعرض المشاريع وضرب الأمثلة. وكانت قبل ذلك وبعده سياحة وتاريخاً وجغرافياً وعملت بالتالي على بث عوامل الوحدة بيث أسبابها في النفوس والعقول وزرع مفهومها الحقيقي فساهمت بما لا يقل من سعي في إعادة بعث وإحياء مشاعر الوطنية وترجمة ذلك في مصطلحات قديمة الوجود جديدة المنطوق كالوطن والوطنية، الأمة والشعب وغيرها وذلك ليس على مستوى الألفاظ والعبارات أو المؤلفات فحسب وإنما -وهو الأهم- جريانه على ألسنة الجماهير الواسعة وإحساسها به واقعا وسلوكا.

إ.ب. القادر للعلوم الإسلامية

الفصل السابع: الإنصال عن طريق الخطابة

تمهيد

أ- تعريف الخطابة

ب- أهمية الخطابة في التاريخ الإنساني

ج- الخطابة فن من فنون الإعلام الشفوي.

د- الخطابة في المجتمع الجزائري تحت الحكم الفرنسي.

- المبحث الأول

الخطابة في الفترة التمهيدية لجمعية العلماء:

1- إحياء فريضتي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

2- محاربة الأمية وتعبئة الجماهير لصالح التعليم

3- مواضيع الدروس والخطب أثناء الرحلات والجولات

- المبحث الثاني

الخطابة في الفترة الرسمية لجمعية العلماء:

التقرير الرسمي في الوعظ والإرشاد

أ- صفات المرشد

ب- أهمية التقرير

- المبحث الثالث

أهمية الخطابة عند جمعية العلماء على المستوى النظري

أهمية الخطابة على المستوى التعليمي

أهمية الخطابة على المستوى التنظيمي

- المبحث الرابع

أنواع الخطابة:

أ- الخطبة الدينية والاجتماعية

ب- الخطبة الرسمية والتقارير الإدارية

- ج- الخطبة السياسية
د- مميزات الخطابة عند أعضاء الجمعية
هـ- نماذج من الخطابة
و- نماذج من قصائد أعضاء الجمعية
ز- خطباء الجمعية
الخلاصة

الخطابة وسينة أخرى من وسائل جمعية العلماء المسلمين الجزائريين في اتصالها بالجمهير الجزائرية شفوياً، ولم تكن المبادرة بها عن اختيار وإنما عن اضطرار إذ أنه لم تتوفر للجمعية آنذاك لا الكفاءات ولا المؤسسات ولا الأموال حتى تخوض بها ميدان الاتصال الواسع، وقد بدأت أعمالها في التعليم العام بالمحاضرات العامة فكانت مجالاتها في ذلك بالإضافة إلى المساجد: «النوادي والقاعات العمومية والميادين الجامعة والأسواق»⁽¹⁾، وكانت وسائلها -الخطابة والمحاضرة، والندوة- وإن لم تقل هذه في مرحلة ما بعد ترسيم جمعية العلماء بل بالعكس تماماً ازدادت نشاطاً وتنوعاً واتساعاً بالموازاة مع الوسائل الأخرى كما سنرى، وذلك لاتساع رقعة المدّ الإصلاحية، فإنها تبقى الأظهر والأعم في الفترة التمهيدية، وعموماً فقد خدمت الخطابة والمحاضرة والندوة المرحلتين بما كانت تحتاج إليه كلاهما من التعبئة الجماهيرية واستثارة العواطف وتحريك الهمم.

وإذا كان علماء الجمعية قد أقرّوا رأي "ابن باديس" في بداية العمل الإصلاحية الرسمي بأخذ الطّرقين على غفلة منهم «والمحوم عليهم وهم غارّون، وإسماع العامة صوت الإصلاح»⁽²⁾ بدل البداية بتربية الجيل الذي يحمل فكرة الإصلاح عقيدة وسلوكاً ودعوة، فلأن الفترة التمهيدية إنما كانت لإعداد ذلك الجيل بالذات وذلك الجيش الذي سيقوم بمساعدة "ابن باديس" وتحت إدارته وتوجيهه بمهمة الإصلاح في الجزائر، وقد عكف ابن باديس بنفسه لإعداد ذلك الجيش منذ أن رجع من المشرق العربي وجلس للدرس فيما تيسر من مساجد قسنطينة وعلى رأسها الجامع الأخضر.

فقد كانت بداية العمل الإصلاحية بالخطابة والمحاضرة والدروس العامة.

أ- تعريف الخطابة وأهميتها: يعرف أرسطو الخطابة بأنها هي «القدرة على النظر في كل ما يوصل إلى الإقناع في أي مسألة من المسائل»⁽³⁾. ويعرفها ابن رشد

(1) آثار محمد البشير الإبراهيمي، مصدر سابق، ج4، ص 242

(2) سجل مؤتمر جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، مصدر سابق، ص 50

(3) محمد كمال الدين إمام، المرجع السابق، ص 90.

بأنها « قوة تتكلف لإقناع الممكن في كل واحد من الأشياء المفردة (1) ويذهب المحدثون إلى أنها : « فن مشافهة الجمهور وإقناعه » (2). ويضيف عبد الله شحاته عنصرا آخر إلى التعريف في قوله أنها: « فن مشافهة الجمهور وإقناعه واستمالته » (3). ويقول الدكتور عبد الجليل شلبي بأن « أوضح وأدق ما عرفت به الخطابة هو أنها: فن مخاطبة الجماهير بطريقة إقائية تشتمل على الإقناع والاستمالة » (4).

ب- أهمية الخطابة في التاريخ الإنساني :

لقد عرف الإنسان الخطابة منذ فترة مبكرة من حياته، كأحد فنون القول، وحظيت في التاريخ القديم بمكانة مرموقة، كما لقيت عناية الفلاسفة والحكام، وكان لها أساتذة ومحترفون. والخطابة منذ كانت سلاح المجتمع في سلمه وحرابه، في ترقيته نحو المثل العليا، استخدمها الإنسان لإقناع الآخرين بشكواه أو وجهة نظره أو أخباره، وكانت وسيلة لبث المعارف فأخذ لاحقه عن سابقه ما يبني به سعادته، وقد عرف بها عظماء الناس وزعماء الإنسانية وتفاضلت الشعوب بخطباتها واختلفت تقدما وتأخرا. والخطابة قبل هذا وبعده هي بلاغ الرسل إلى أممهم ، وسبيل الدعاة إلى الهداية والصلاح.

وقد اشتهر خطباء اليونان والرومان وكانوا من ذوي السُلطان في دولهم، تعمل العامة بمواعظهم، وتخضع لتوجيهاتهم، بل لقد وصل الأمر بالخطابة أن تقلد أصحابها قيادة الجيوش. وقد استقدم الرومان للخطابة الأساتذة ليعلموها أبناءهم حتى سبقوا غيرهم في تقدم هذا الفن الإعلامي.

وكان للخطابة أهميتها ودورها الفعال في حياة العرب، فقد كان لقبائل الجاهلية خطباؤها وشعراؤها تعظمهم وتقدمهم في مواسمها ومحافلها وأعيادها، كما كان يعقد لها أسواق دورية تكون مناسبة لعرض القرائح في الخطابة والشعر، يتبارى فيها الفصحاء من

(1) ، (2) محمد كمال الدين إمام، المرجع السابق، ص 90 بتصرف.

(3) عبد الله شحاته، الدعوة الإسلامية والإعلام الديني (مصر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1986م)، ط 2، ص 19.

(4) عبد الجليل شلبي، الخطابة وإعداد الخطيب (مصر، دار الشروق، 1987م)، ط 3، ص 13.

وأهل البيان ويتناولون في ذلك الأغراض المختلفة. فيتناقلها الناس ويشتهر أصحابها وكذا قبائلهم لكن بظهور الإسلام أصبح للخطابة شأن أجل وموقع أهم.

فإذا كانت الجاهلية قد عرفت من أغراض الخطابة: المناظرة والمفاخرة والحضّ على القتال بالثأر بالإضافة إلى خطب النكاح والمحافل والوصايا فقد تطورت الخطابة الإسلامية وقضت على كل لون من خطابة الجاهلية لا يتفق مع روح الإسلام، فاتسمت الخطابة بالطابع الإسلامي وتأثرت بالقرآن الكريم والحديث الشريف ودارت موضوعاتها حول الجهاد والحثّ على القتال وخطب النكاح، وخطب المحافل والوفود، والخطب الدينية والخطب السياسية والوصايا (1).

وإذا عدّ الخطيب والشاعر في الجاهلية ملكا لقبيلته أو عشيرته بما كان يتناوله من أغراض، مؤديا وظيفة العقيدة والدعاية والأيديولوجيا (*)، فإنهما بظهور الإسلام أصبحا ملكا للعقيدة الإسلامية وللمجتمع الإسلامي عامة. بل لقد أصبح للخطابة موقعا ممتازا بعد استكمال أركان الدين وفرائضه حيث أصبحت من شعائر الإسلام ونعني بذلك شعيرة خطبة الجمعة بالإضافة إلى خطب صلاة العيدين والحج. «وهو حكم يتفق مع جميع المقاييس لظروف الدعوة والتغيير الشامل لحياة الإنسان المسلم في الزمان والمكان» (2).

وقد كانت الخطابة وسيلة الرسول صلى الله عليه وسلم في الدعوة إلى سبيل الله وشرح أركان الإسلام، ايقاظا للضمائر وحثا على فعل الخير، وتدبرا للكون وإيمانا بالله الواحد الأحد، ومعرفة الدين ونواحيه وقد استغرق ذلك بطبيعة الحال عصر النبوة كاملا. وكان الرسول صلى الله عليه وسلم أفصح خطباء عصره وأكثر خطباء الدعوة خطابة، وكان من بعده الخلفاء الراشدون ثم الذين يلونهم وهكذا حتى يأتي دور العلماء والدعاة إلى الله تعالى في كل عصر. ولن نتناول الخطابة من باب أنها فن نثري وإنما على أنها فن إعلامي من فروع الإعلام الشفوي خاصة.

(1) إبراهيم إمام، المرجع السابق، ص 80.

(*) أعني بالأيديولوجيا هنا تأمين الخطابة لاستمرار العادات والتقاليد التي اعتادتها القبيلة وتناقلته أجيالها جيلا بعد جيل.

(2) محمد سيد محمد، المرجع السابق، ص 72،

ج- الخطابة فن من فنون الإعلام الشفوي:

لقد سبق أرسطو غيره في وضع نظرية للاتصال في هذا الفن ولا يزال كتابه في الخطابة المؤلف الكلاسيكي في هذا العلم، حيث وضع له أسسا علمية لا تزال قائمة للتفاعل بين الخطيب والجمهور كما وضع لكل منهما شروطا دقيقة، فقد قسّم الموقف الاتصالي إلى ثلاثة أقسام هي:

1- الخطيب : هو المرسل، صاحب الرسالة أو القائم بعملية الاتصال.

2- الخطبة: هي الرسالة أو مضمون العملية الاتصالية.

3- الجمهور: المستقبل "لِلرسالة" التي هي في هذه الحالة "الخطبة".

وقد ركّز أرسطو على أهمية عملية الإقناع وخطورتها، وواجب الخطيب في أن يدرس عوامل إنجاح خطبته من إدراك قيم الجمهور المتلقي، ومن مبادئ ومعايير وسنن اجتماعية، >> فلا شك أن فن الإقناع هو جوهر مفهوم الخطبة كوسيلة مباشرة يتلاقى فيها المرسل والمستقبل وجهها لوجه >> (1).

ومن ثمة تأتي أهمية الخطابة وخطورتها، في أنها اتصال مباشر بين الخطيب والجمهور -الشخصي منه والجمعي- الذي هو أقوى وسائل الاتصال قديما وحديثا من حيث آثاره خاصة.

ويدرك علماء الإسلام بدهاء ما للخطابة من أثر خطير ودور حاسم في عمليات التغيير الإنساني على صعيد الدين والعلم والفكر والسياسة والاقتصاد والاجتماع، وينبع ذلك الإدراك أساسا من قيمة الكلمة في الإسلام التي جعلها "الوسيلة" لهداية الناس وتربية الأمة وتوعية المجتمع، وصياغة الإنسان الايجابي الصالح. وإمعانا منه في توظيفها كانت خطبة الجمعة التي تسبق صلاة الجمعة المفروضة كل أسبوع، شعيرة ثابتة، وعبادة يشاب عليها المسلم. وينبع ذلك الإدراك أيضا من استقرائهم للدور الحاسم الذي

(1) محمد كمال الدين إمام، المرجع السابق، ص 90.

أدته خطبة الجمعة في المسيرة الإسلامية الطويلة، فمن خلال هذا المنبر الإسلامي طرحت مفاهيم العقيدة وتعاليم الشريعة، وسير الأنبياء والصالحين والجاهدين، ومن خلال هذا المنبر الحي المتجدد عولجت المشاكل المستجدة في كل عصر ومصر، وطرحت الحلول المناسبة. ومن خلال هذا المنبر الأسبوعي استطاع الخطباء البارعون الصادقون أن يبعثوا في النفوس روح الجهاد ضد الغزاة والمرتدين الذين عانت منهم الأمة عبر تاريخها الكثير. « ومن خلال هذا المنبر الدعوي استقبل المسجد أفواجا من التائبين الذين بدأوا رحلة التزامهم من صلاة الجمعة، فكانت الخطبة دعما وترسيخا لمشاعر الهداية التي استيقظت في أعماقهم القلبية» (1).

د- الخطابة في المجتمع الجزائري تحت الحكم الفرنسي:

لم تؤد الخطابة في الجزائر ما يراد منها إسلاميا من توعية للناس وتثبيتهم على مبادئ الإسلام وفضائله وقد مرّ بنا كيف تعاملت فرنسا مع الأوقاف والمساجد في الجزائر وكيف حاربت اللغة العربية والإسلام وقد أولت الخطبة إلى أئمة رسميين موظفين لديها لا يخرجون عما تأمرهم به فيكون كل ذلك سببا لتدني الخطبة المنبرية أسلوبا ومواضيع وغايات إلا فيما ندر.

وقد ظهرت عدة نواد وجمعيات، كانت تنظّم محاضرات عامة للجزائريين وكان لكلّ منها أغراضها وأهدافها، فقد استهدفت " الجمعية التوفيقية" (*) « جمع أولئك الجزائريين الذين يرغبون في تنقيف أنفسهم، وتطوير الأفكار العلية والاجتماعية» (2).

(1) عماد عماد، خطبة الجمعة في العالم الإسلامي، ملاحظات لابد منها (من كتاب الأمة: مقالات في الدعوة والإعلام الإسلامي، ع 28، رجب 1411 هـ - 1991م) ص 58.

(*) انشأت "الجمعية التوفيقية" سنة 1908م وأعدت النخبة تنظيها سنة 1911م. وكان لها مائة عضو بعد سنة من تأسيسها، كانت تعقد المحاضرات العامة والعلمية في مختلف المواضيع منها: القانون الإسلامي العام، ملامح العالم الانساني المعاصر، عقوبة الموت، نابليون في مصر..

أنظر: أبو القاسم سعد الله، الحركة الوطنية، مرجع سابق، ج2، ص 144.

(2) المكان نفسه.

واستهدف "نادي صالح باي" (1) في قسنطينة من جهته إلى « نشر التعليم والمساعدة على تحرير الجماهير الجزائرية والتوفيق بين المجموعتين الفرنسية والجزائرية » (2)، و"الجمعية الرشيدية" (*) في العاصمة التي يشير برنامجها إلى أن أهم هدف لها هو: « مساعدة الشباب الجزائري على العمل والتفكير والعيش عيشة حديثة » (3).

وكانت كل من هذه المؤسسات تعقد محاضرات علمية أو دروس عامة متنوعة المواضيع تلقى بالعربية أو بالفرنسية وعموما فإنها توضح لنا موضوعين هامين: أحدهما مساهمة هذه الجمعيات والنوادي كمنظمات ثقافية وثانيها فهم ملامح النهضة الجزائرية.

ويعلق سعد الله في تقييمه لأعمال هذه المؤسسات، يقول: « ولكن زعماء هذه المؤسسات لم يكونوا لا ثوريين ولا وطنيين بل إنهم لم يحاولوا حتى استعمالها لنشاط معاد لفرنسا » (4)، وحقيقة معظم هؤلاء كما يضيف أنهم « كانوا يعملون بكل جمعية من أجل تنوير وتقدم بلادهم » (5).

وقد كانت الخطابة أيضا وسيلة المصلحين في الجزائر في اتصاهم بالعامية، مدركين لأهميتها وخطورتها بداية من خطبة الجمعة إلى المحاضرات الدينية وإن كانت مناسبات هذه قليلة في ظلّ السيطرة الاستعمارية من جهة، ثم إسناد الخطب الدينية إلى الأئمة

(1) نادي صالح باي: أسسه بعض المثقفين الجزائريين بتأييد من بعض الفرنسيين المتعاطفين معهم، وكان يضم سنة 1908م ألفا وسبعمئة عضو، وكان له فروع كثيرة في مدن الجزائر.

أنظر: أبو القاسم سعد الله، الحركة الوطنية، مرجع سابق، ج2، ص 145. (نقلا عن مجلة العالم الإسلامي).
(*) الجمعية الرشيدية: أسسها جماعة من خريجي المدارس الفرنسية الجزائرية حوالي سنة 1894م. كانت تمثل على الأكثر الاتجاه المعتدل والمؤمن بأن الجزائر لن تحرر إلا بالتعليم والتقدم. نظمت سلسلة من المحاضرات سنة 1907م. منها: التضامن والأخوة بين المسلمين، الكهرباء، تاريخ الطب العربي، التعليم، التشريع الإسلامي في الجزائر منذ 1832م، تاريخ التجارة، الوضع السياسي والمعنوي...

انتظر: نور سلمان، المرجع السابق، ص 158.

(2) المرجع السابق ص 145.

(3) المرجع نفسه، ص 146 (نقلا عن مجلة العالم الإسلامي).

(5) المرجع نفسه، ص 147.

الرسميين من جهة أخرى. وعموما فإن هذه الخطب وإن شهدت حركة تفكير جادة لإنقاذ الجزائريين وإصلاح أوضاعهم وبذرت في ذلك بذورا حسنة منذ بواكير القرن العشرين، فإن تنائر الجهود وتفرقها في المكان والزمان، ثم اختلافها في المضامين والمناهج حسب كلّ عالم فإنه مافتى تأثيرها أن يتلاشى لانعدام الرّعاية والتعهد والتنظيم تاركة فحسب بصمات لقلق حضاري وهاجس لنهضة قريبة.

والجدير بالملاحظة أن الجهل والأمية لم يقفا دون الجماهير الجزائرية للإقبال على الخطباء وسماع مواعظهم ودروسهم، كما لم تقف عين الإدارة الاستعمارية ولا يدها دون هؤلاء الخطباء لأداء بعض واجبهم كلما سمحت لهم الظروف وكانوا يستغلون المقاهي، والأسواق العامة والسّاحات المختلفة، يقول مبارك المليي: «وقد شاهدنا العوام يقبلون على كتب المغازي والقصص يلتفون حول قرائها ويتأثرون بأخبارها فطورا يتحمسون، وحينما يخشعون، ومرة ينبسطون، وأخرى ينقبضون، ويفهمون كل ما يسمعون، ويعون كل ما يفهمون سواء في ذلك اللّيبب والغبي والشيخ والصّبّي» (1)، وينسحب قول "المليي" هذا تماما على جمهور الخطبة والحاضرة والندوة وغيرها.

ويشير توفيق المدني من جهته إلى تأثير الخطابة في الجزائريين وحمسهم لها. فقد ألقى خطابا في حفل تكريمي أعدّ له بمناسبة عودته إلى الجزائر، وأختير له مقهى من أفخم مقاهي العاصمة، حضره مثقفون وأعيان ووجهاء لكن لم يحضره الشعب لغلاء كلفة الغذاء، ووصف كيف أن الحضور قد أقبلوا على المشروبات الكحولية في إسراف وكيف تعالت أصواتهم بالضحك والنكتة واللغو، لكن لما بدأ الخطيب إلقاء خطبته، ثم بعد أن انتهى منها كيف تغير حالهم إلى حال أخرى وصفها المدني قائلا: «بأنهم تَمَمَّصوا شخصيتهم الحقيقة المؤمنة الطاهرة، ونزعوا عنهم ثياب الخمول وجاؤوا يلبّون دعوة النضال الشريف» (2) فجاءوه بين مهني نادم إلى واعد بالعمل مباشرة، إلى واعد بالتغيير...

(1) مبارك بن عماد الهلالي المليي، تاريخ الجزائر في القديم والحديث، (الجزائر، مكتبة النهضة الجزائرية، 1963م)،

ج1، ص 13.

(2) توفيق المدني، حياة كناح (مذكرات)، مرجع سابق، القسم الثاني، ص 45.

I- الخطابة عند جمعية العلماء: الفترة التمهيدية

ونفهم مما تقدّم في هذا الموضوع منطقية خطوات ابن باديس المصلح والعالم الجزائري في رسم بدايات النشاط الإصلاحي في الجزائر، فقد بناه على :

1- جمع شمل العلماء باللقاء الشخصي، بالمكاتب والزيارات والرحلات (*).

2- تكوين جمعية العلماء المسلمين الجزائريين.

3- إعداد البرامج والمناهج وتعميمها عبر الوطن الجزائري.

والمراد من هذه الخطوات وموقع الخطابة منها هو جعلها منبرا علميا رسميا منظّما.

كيف ذلك ؟.

تجدد بنا الإشارة بناء على التعريفات المقدّمة للخطابة، إلى أن هذه تشمل إلى جانب الخطبة الدينية والسياسية والاجتماعية، المحاضرة، والندوة، والحوار والدروس العامة والمناقشات الخاصة إذا توفر في هذه كلّها عنصر الاستمالة والتأثير، وعلى اعتبار أنها اتصال مباشر بين صاحب الرسالة الاتصالية والجمهور المتلقي. كما تشمل على الشعر بهذا المعنى نفسه. وتقسّم هذه الأشكال الاتصالية قياسا على تقسيم أرسطو للخطابة على التوالي إلى: الخطيب، الخطبة، الجمهور. فالمحاضرة والندوة والقصيدة والدّرس العام هي رسائل اتصالية، وأخاضر والخطيب والشاعر كل منهم صاحب رسالة أو قائم بعملية اتصالية، والجمهور هو مستقبل الرسالة في كل الحالات.

ويصل المعنى هنا في أن كلا من الخطبة والمحاضرة والندوة والقصيدة إنما هي منابر للتعبير عن الرأي، ويذهب الدكتور محمد سيد محمد إلى تأكيد أن الخطبة وسيلة إعلام إذا ألقيت من فوق المنبر في المسجد، وإذا ألقيت هي نفسها بألفاظها ونبراتها في مظاهرة، وإذا ألقيت هي نفسها بألفاظها ونبراتها في البرلمان.. وفي مجلس الأمن <<(1)>.

(*) يرجى العودة إلى موضوع الرّحلة كوسيلة للاتصال بالجزائريين عند جمعية العلماء المسلمين الجزائريين.

(1) محمد سيد محمد، المرجع السابق، ص 69.

ولما كانت العبرة عند علماء الجمعية هي سلوك كل طريق يتوسّم منه الفائدة للجماهير الجزائرية وجعله منبرا مؤثرا لتقديم رسالتها الإصلاحية الشاملة، فإننا نجد كل أشكال الخطابة واضحة جلية في أبسط مواقفها اتصالا بالجماهير، ولم يكن ذلك منهم على سبيل الارتجال والعشوائية وإنما استلهاما وسيرا على منهج دعوة الإسلام الأولى، في الفترة السرية منها والعلنية، بداية من "دار الأرقم بن الأرقم" التي اتخذها الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم مركزا للدعوة، والتي تعلّم فيها المسلمون مبادئ الإسلام، وتلاوة القرآن قبل أن يصبح المسجد فيما بعد المكان المعهود للعلم والفتوى والقضاء إلى جانب العبادات.

1- إحياء فرجيتي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر:

ترتبط الخطوة الأولى من خطوات علماء الإصلاح، وعلى رأسهم "عبد الحميد بن باديس" وهي جمع شمل العلماء بالفترة التمهيدية ومرحلة الإعداد لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين الذين وصفهم ابن باديس بأنهم «هم رجال هذه الجمعية قبل أن تكون الجمعية جمعية» (1). وقد وجد هؤلاء أنفسهم أمام مهمة شاقة ومتفرّعة وأمام شعب: «فقير من دينه ودنياه، جاهل بدينه ودنياه، مفلس من عقله وفكره مسلوب من عزيمته وإرادته، ولكن بقي فيه مكنن لم تمتد إليه يد الاستعمار وهو مكنن الإيمان بالله وبالنفس، والعلاقة باللغة والجنس ومن ثمة وعلى هذه المعاني وضعت جمعية العلماء أساس أعمالها ومن هذه النقطة بدأت السير إلى غاياتها» (2).

وفي هذه الخلاصة المختزلة، نلاحظ كيف ربط "الابراهيمي" ربطا طبيعيا فذاً بين المسببات والنتائج في واقع الشعب الجزائري بالفقر في الدين نتيجة الفقر في الدنيا، والجهل بالدين نتيجة الجهل بالدنيا، والافلاس في العقل والفكر وهو نتيجة منطقية للفقر والجهل في الدين نتيجة حواء العزيمة والإرادة. ومن ثمة فنقطة البداية كانت ممّا بقي في الشعب من مكنن الإيمان بالله وبالنفس.. وذلك بإحياء وبعث الإسلام ثم تأتي بعدها

(1) آثار الإمام عبد الحميد بن باديس، مرجع سابق، ج4، ص 164.

(2) آثار محمد البشير الابراهيمي، مصدر سابق، ج4، ص 230.

قضايا الأمية والتسليم والإنفاق من أجل المشاريع الإصلاحية، والتي لن يفقه مغزاها الفقير في الدين الجاهل في الدنيا، المفلس الفكر.

فقد كانت أولى اهتمامات الخطابة هي إحياء الدين بإحياء مبادئه وشعائره وآدابه.. الخ. ويؤكد رئيس جمعية العلماء هذا المعنى عندما يقول في خطاب ألقاه بنادي الترقى سنة 1933م (1): «إن جمعيتكم تفخر بأنها قامت بإحياء فريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في وقت قلّ القائمون فيه بهاتين الفريضةين.. وقامت بإحياء هدي سلفنا الصالح في وقت طغت فيه البدع والأهواء على ذلك الهدى حتى خيف عليه الاندثار وأن أول من رفع صوته بكلمة الحق في هذا الوطن وبلزوم الرجوع من بنيات الطريق إلى نهج الإسلام الواضح وبوجوب التماس الهداية من كتاب الله وما صحّ عن سنة رسوله صلى الله عليه وسلم وما أتر عن سلف هذه الأمة -رضي الله عنهم- هم رجال هذه الجمعية قبل أن تكون الجمعية جمعية فلهم الفضل يوم كانوا فرادى مستضعفين، ولهم الفضل يوم مدّوا أيديهم إلى بعضهم فأصبحوا أقوياء متعاونين، وللأمة الفضل يوم سمعت نداء الحق فاستجابت، ولها الفضل حيث تشابهت السبل فما سكنت وما استرابت، ولها البشر من الله حين غاب المختمون عن مشهد الحق فما غابت» (2).

2- محاربة الأمية وتعبئة الجماهير لصالح التعليم:

أسهمت الخطابة وبدور فعال وحاسم في محاربة الأمية عن طريق الخطب المنبرية والمحاضرات والدروس العامة وحتى عن طريق اللقاءات الخاصة. وقد كانت الفترة التمهيدية مرحلة تعبئة نشيطة تتوازي وخطورة هذا الداء الذي يصفه البشير الإبراهيمي «بشلل الأمم، وبأن تفشيها في الأمة الجزائرية هو الذي أبقدها عن مجرأة الأحياء في الحياة وهو أقوى الأسباب التي مكّنت للاستعمار..» إلى أن يقول: «حاربت جمعية العلماء هذا الداء الويل، وشدّدت العزائم على حربه، وفتحت دروسا ليلية للكبار، لا تراحم البرامج المقررة وعمّمت تلك الدروس بالتدرج في نواديها وكثير من مدارسها» (3)

(1) نشر الخطاب في جريدة "الشريعة"، يوم الاثنين 24 ربيع الأول 1352 هـ / 17 حويلية 1933م. ص 6-7-8.

(2) آثار الإمام عبد الحميد بن باديس، مصدر سابق، ج 4، ص 164.

(3) آثار محمد البشير الإبراهيمي، مصدر سابق، ج 4، ص 241.

وكانت الرحلة من أهم الفرص التي استغلها رئيس جمعية العلماء لإلقاء المحاضرات والدروس العامة والخطب الدينية والتي تحت كلها على التعلّم والاتحاد، وقد كانت رحلته الأولى سنة 1929م والثانية في صيف 1930م تستهدف الدعوة إلى الغرضين بالذات كما تشهد به دروس ومحاضرات "ابن باديس"، بالإضافة إلى التعريف بالدعوة الإصلاحية والإشهار لصالح جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، وقد لخص ابن باديس مواضيع دروسه بقوله: «> وكان الحديث في مجالسنا حيثما حللنا يدور على جمعية العلماء ومقاصدها ومنافع الأمة منها والتنويه بفضل الحكومة بالإذن بتأسيسها، مع ما يتخلل ذلك من تذكير بالله وتنبية على مصالح الدنيا والآخرة، وتحريض على التآخي والتوازر وحسن الجوار والمعاملة مع جميع الأجناس المتساكنة في هذا الوطن >> (1).

3- مواضيع الدروس والخطب أثناء الرحلات:

ويصعب تصنيف أنواع الخطابة عند علماء الجمعية في الفترة التمهيديّة من حيث كونها سياسية أو دينية أو اجتماعية أو غيرها، فقد كان القصد منها أساساً هو «> القيام بفرض التذكير >> (2)، ولا يخرج التذكير عن آيات القرآن الكريم وسنة الرسول صلى الله عليه وسلم، تفسيراً وشرحاً وعبرة، ثم إن التذكير بالقرآن الكريم وسنة الرسول صلى الله عليه وسلم تعليم لمبادئ الإسلام، وأخلاقه وتعاليمه السامية وتذكير بمواقف الرسول صلى الله عليه وسلم والتي تتضمن الدين والاجتماع والسياسة وغيرها، هذا من جهة، ومن جهة أخرى لم ترتبط "الخطبة الدينية" بكونها تلقى من على منبر الجمعة أو كونها لا تخرج عن المسجد. ولكن استغل للخطابة عموماً - كما مرّ بنا - بالإضافة إلى المساجد، الساحات العامة والأسواق، وبيوت العلماء، وساحات المدارس، وقاعات الحفلات والجمعيات والخوانيت... فلم تكن عدم صلاحية المكان أو ضيقه لتمنع علماء الجمعية من إلقاء خطبة أو درس أو عظة، وقد استغلوا الرحلة (*) في هذا المجال لتكون منبراً مفتوحاً

(1) الشهاب، ج 11، م 7، غرة رجب 1350 هـ - نوفمبر 1931م.

(2) الشهاب، ج 6، م 5، غرة صفر 1348 هـ - جويلية 1929م.

(*) يرجى الاطلاع على موضوع الرحلة في الفصل السابق.

وميدانا واسعا للقاء الجماهير العريضة فالمهم عندهم هو وصول رسالة الإصلاح إلى كل الأسماع. وفي هذا الصدد يروي الشيخ "محمد خير الدين" في مذكراته أن ابن باديس منع من دخول المسجد وإلقاء الخطبة عند زيارته الأولى لمدينة بسكرة، فقد أمر الوالي العام بإغلاقه دونه. فجلس الشيخ ابن باديس أمام باب المسجد حتى أذن له بدخوله ولكنه منع من إلقاء الخطبة: فدخل ابن باديس واندفع الشعب خلفه ووقف الشيخ ولم يجلس كعادته أثناء إلقاء الدروس، وأخذ يتحدث ساعة كاملة واقفا، وألقى درسه والناس جميعا واقفون» (1)، وكان موضوع درسه قوله تعالى: ﴿المص، كِتَابٌ أَنْزَلَ إِلَيْكَ فَلا يَكُنْ فِيهِ صَدْرَكَ حَرَجَ مِنْهُ لَتُنذِرَ بِهِ وَذِكْرٍ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ (2).

والمتتبع لمواضيع الدروس والخطب التي كان يلقيها ابن باديس أثناء جولته الأولى والثانية حسبما تبينه مقالات الشهاب (3) يجدها كما يلي:

المدينة	مكان إلقاء الخطبة أو الدرس	موضوع الخطبة أو الدرس
الميلة	الجامع الكبير	- تفسير قوله تعالى: ﴿واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا﴾ (4) وقوله تعالى ﴿فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول﴾ (5) وقوله تعالى ﴿إنما المؤمنون إخوة﴾ (6)
- الحروش	محاسن عامة المسجد	- فقه تكبيرة الإحرام والسلام - تفسير قوله تعالى: ﴿ووضعنا عنك وزرك﴾ (7) - وسورة ﴿ألم نشرح لك صدرك﴾ (8)

(1) الشيخ محمد خير الدين، المصدر السابق، ج1، ص 96-97

(2) الأعراف، 2.

(3) انظر آثار الإمام عبد الحميد بن باديس، مصدر سابق، ج4، ص 221-241. بتصرف.

(4) آل عمران 103.

(5) النساء 59.

(6) الحجرات 10.

(7) الشرح 3.

(8) الشرح 1.

المدينة	مكان إلقاء الخطبة أو الدرس	موضوع الخطبة أو الدرس
- عرابة	المسجد	تفسير قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾ (1)
- سكيكدة	- حانوت أحد التجار	- أسئلة عامة في مبادئ الإسلام
- سانطارنو (العلمة)	- مجلس عام بالسوق - مجلس حافل بالمدرسة المرفقية	- تفسير معنى اسمه تعالى " الصمد". وتفسير سورة الفاتحة. - تذكير في لزوم التعلم ورفع الأمية وتفسير سورة "العلق".
- عين مليلة	- مكتب قرآني	- درس في قوله صلى الله عليه وسلم << الدين النصيحة >> - إلقاء عدة خطب من طرف بعض الشيوخ العلماء في مقاصد الرحلة والدعوة إلى الاستفادة منها. - قصيدة في الحث على التعلم والاتحاد.
- عين البيضاء	- الجامع	- تفسير قوله تعالى: ﴿ لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ إِلَّا كِهَاسِطٍ يُلْقِيهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ وَمَا دَعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ >> (2)
- مسكينة	- مجالس للتذكير والتعليم في مجلات تجارية - الجامع	- درس في قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ... فاصبر ﴾ (3) - درس في قوله تعالى: ﴿ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلِ وَفِي هَذَا... ﴾ (4)
- تبسة	الجامع	- درس في "الإصلاح"
- سوق أهراس	- منزل أحد علماء المدينة	- درس جامع في قوله تعالى ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي أَنْزَلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ﴾ (5)

جدول رقم 11: الدروس والخطب التي كان يلقيها ابن باديس أو علماء الجمعية أثناء الرحلات الإشرافية الأولى في الفترة التمهيدية

- (1) الحجرات 10.
- (2) الرعد، 14.
- (3) المدثر، 4، 3، 2، 1.
- (4) الحج، 78.
- (5) الفرقان، 1.

نلاحظ^{هـ} ضوء هذا الجدول، أن الخطابة اتخذت عند علماء الجمعية مفهوما واسعا ألا وهو التذكير>> كما يسميه ابن باديس بحيث تكون خطبة أو درسا عاما أو مجلسا تقدم فيه أسئلة في مختلف المواضيع فتكون الإجابة موضوعا للمناقشة والحوار فيستشهد بآيات القرآن الكريم، وأحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم ليكون الرد أصيلا ومقنعا ومن ثمة يتطرق إلى التفسير والشرح ومناقشة قضايا الأمة الآنية والمصيرية وتقرح الحلول بأسلوب مؤثر يحرك العواطف ويشحذ الهمم.

وقد ركّز علماء الجمعية خاصة على ضرورة الاتحاد بين المسلمين، وهو الموضوع الذي تكرّر لعدة مرات وفي كثير من الدروس كما نلاحظ: ﴿واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا﴾ (1)، ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ (2)، ﴿هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلِ﴾ (3).

يقول ابن باديس: >> إن معنى اعتصام المؤمن بحبل الله شرعا هو تمسكه بالقرآن في معتقداته، فيعتقد ما جاء به القرآن من المعتقدات المؤيدة بالآيات البيّنات الموافقة للعقول النيرة السليمة، وتقيده بأوامر القرآن ونواهيه في معاملاته بينه وبين ربه، فيتقرب إليه بما أمر به القرآن، ويتجنب إليه بتجنب ما نهى عنه القرآن >> (4).

ويقول: >> واعتصام المؤمن بالقرآن هو انتفاعه بما في القرآن من نظم وقواعد اجتماعية عمرانية وسنن في الكون إلهية ليأمن الوقوع في مهالك دينية ودينية، ذلك الانتفاع الذي سبقنا إليه الأوروبيون وحرم منه المسلمون -والكتاب كتابهم- لجمود حال بينهم وبين ذلك وقيود منعتهم الاستفادة بما هنالك >> (5). وواضح أن ابن باديس لم يشر - بصراحة إلى واضع القيود دون اتحاد المسلمين الجزائريين لكن الإشارة إلى اتحاد الأوروبيين كان سببا لقوتهم وسبقهم ومن ثمة فعزولهم دون اتحاد المسلمين بزرع أسباب الفرقة

(1) آل عمران 103.

(2) الحجرات 10.

(3) الحجج 78.

(4) آثار الإمام عبد الحميد بن باديس، مصدر سابق، ج4، ص 222.

(5) المكان نفسه.

الكثيرة الطرق والملتوية الوسائل تبقى على تأخرهم وذلهم تحت سيطرة الأوروبيين، والدعوة إلى ضرورة الانتفاع بما في القرآن الكريم من نظم اجتماعية وقواعد عمرانية، إشارة حكيمة وبلغية بأن البحث عن أسباب التقدم لا يكون فيما بين أيدي الأوروبيين وإنما في القرآن الكريم. كتاب المسلمين الذي عرف الأوروبيون كيف يستفيدون منه وحرّم المسلمون ذلك لجمود حال بينهم وبينه.

وأشار ابن باديس في تفسيره لقوله تعالى "جميعاً" إلى أن «اعتصام بعض الأفراد من المسلمين بالقرآن الكريم واهتدائهم بنور هدايته» كما هو الواقع اليوم لا ينتج نتيجة اعتصام مجموعهم ذكراهم وإناثهم به» (1) كما أشار في تفسيره لقوله تعالى ﴿وَلَا تَفْرُقُوا﴾ : «إلى وجوب التسامح بين أتباع المذاهب وأهل الطرق بين بعضهم البعض، وبينهم وبين السلفيين وبين هؤلاء وعلماء الخلف. وقال بأن التجادل بالعنف والقسوة والجفاء والتباغض والتقاطع والتنازع بالألقاب ليس من الحكمة في شيء ولو تدبر المسلمون قوله تعالى : ﴿فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ﴾ (2) وقوله تعالى : ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ (3)، ولما وصلت شقة الخلاف بينهم إلى هذا الحد الفادح» (4)

وفي تفسيره لصدر سورة "المدثر" في قوله تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ قُمْ فَأَنْذِرْ وَرَبِّكَ فَكْبُرُ وَالرَّجْزُ فَاهْجُرْ وَلَا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرُ﴾ (5) ركز ابن باديس على «حاجة الأعمال العظيمة إلى الجِدِّ والنهوض والصبر والثبات وأن أعظم محصل للصبر هو إخلاص العمل لله وما يجب لله من تكبير وما يجب للخلق من نفع، وما يجب للنفس من تطهير حسي ومعنوي» (6).

(1) آثار الإمام عبد الحميد بن باديس، ج4، مصدر سابق، ص 222

(2) النساء 59

(3) الحجرات 10

(4) المصدر السابق ص 223

(5) المدثر 1، 2، 3، 4

(6) المصدر السابق ص 235

لقد لمس ابن باديس من خلال اتصاله المباشر بالجزائريين علماتهم ومنتقبيهم وجماهيرهم وعن طريق المسجد والمدرسة، والرحلة، واللقاءات المختلفة إحساسا عاما لدى الجزائريين بوجوب النهوض، وعمل ما يجب من أجل التحرر من ربة الذل وسيطرة الأجنبي.. ولمس حاجتهم إلى من يجسد هذا الإحساس عمليا، لكنه لمس من ناحية أخرى همولا وكسلا وآفات اجتماعية، وابتعادا عن مبادئ الإسلام وأخلاقه.. فنجدته يركّز في كل خطبه ودروسه على اختيار دقيق وغاية في العناية لمواضعها، ثم نجدته يتدرج في المجلس الواحد من وصف الداء إلى وصف الدواء، مع وضع الإشارة على موضع الداء نفسه وهو ما نلاحظه في النص أعلاه فليسان حال العبارات موجهة إلى كل الجزائريين تقول: >> بأن الاستقلال عمل عظيم. وطريقه شاق وصعب. ولن يتحقق وحال الأمة في تفرق وفساد، إن الاستقلال يحتاج إلى الجِد والنهوض والصبر، ولن يتأت الصبر على ما سيلقيه المسلم الجزائري من تعنت الاستعمار وظلمه وجبروته إلا بإخلاص العمل لله والذي يتم بتطهير النفوس تطهيرا حسيا ومعنويا. لقد فقه ابن باديس حالة أمته وفي تقديمه للعلاج يربط الأسباب بالمسببات في تسلسل منطقي. وقد اكتفى بالتلميح والتعميم فلم يسمّ الجزائريين ولا الاستقلال والحرية وترك ذلك إلى قرائح المسلمين كل على مستواه. ومن ثمة فإنه لما سئل عن الإسلام الصحيح أجاب >> بأنه ما في القرآن، والسنة بيان للقرآن، ويبن أثر القرآن في العرب، وكيف تطوّروا به ذلك التطور الغريب والسريع من انحطاط الجاهلية إلى رقي الإسلام >> (1).

وتفيد الملاحظة أن خطباء هذه الفترة هم أنفسهم أعضاء المكتب الإداري لجمعية العلماء فيما بعد حسبما يفهم من الأسماء المتزودة ومن تقسيم الأعمال والأنشطة على هؤلاء كل في منطقته كما يذكر "محمد خير الدين" في مذكراته بعد اجتماع الرواد سنة 1928م وتقديم مخطّة العمل من طرف "ابن باديس" والمتضمنة خاصة في مادتها الثالثة والخامسة والسابعة على التوالي ما يلي:

(1) آثار الإمام عبد الحميد بن باديس، مصدر سابق، ج4، ص 288.

1- الالتزام بإلقاء دروس الوعظ لعامة المسلمين في المساجد الحرة والجولان في أنحاء الوطن لتبليغ الدعوة الإصلاحية لجميع الناس.

2- إنشاء النوادي العربية للاجتماعات وإلقاء الخطب والمحاضرات.

3- العمل على إذكاء روح النضال في أوساط الشعب لتحرير البلاد من العبودية والحكم الأجنبي» (1).

وعين بناء على ذلك الشيخ محمد البشير الابراهيمي في مدينة سطيف وما حولها من النواحي والشيخ مبارك الميلي بمكتب التعليم العربي ومساجد قسنطينة، والشيخ الطيب العقبي بمدينة بسكرة، والشيخ العربي التبسي بمدينة تبسة وما جاورها، والشيخ محمد خير الدين في بلدة "فرفار" وما جاورها من قرى واحات الزيان» (2).

ويبقى الشيخ ابن باديس أكثر هؤلاء خطابة وتنقلا لإلقاء الدروس والمحاضرات لعدم لما ألزم به نفسه وألزم به "جماعة الرواد" في تبليغ الدعوة الإصلاحية لجميع الجزائريين وما تتطلبه من وسائل وإمكانيات.

وقد كان إنشاء "نادي الترقى" (*) بالعاصمة الجزائرية حدثا هاما وتاريخيا بالنسبة لجمعية العلماء وكذا بالنسبة للجزائريين حيث سهّل اجتماع العلماء، «فكان وسيلة صالحة للتعارف والتآلف ووصل لما أمر الله به أن يوصل، وبوتقة تنصهر ضمنها القومية الجزائرية كي تلد للأمة كل صالح ومفيد» (3). وكان النادي ينظم المحاضرات الأسبوعية ويضم العلماء لإلقاء الخطب في المناسبات المختلفة. وقد ألقى "ابن باديس" أول محاضرة به في 25 جويلية 1927م كان عنوانها "الاجتماع والنوادي عند العرب" ثم ترددت أسماء علماء

(1) محمد خير الدين، المصدر السابق، ج1، ص 85-86

(2) المصدر نفسه، ص 86

(*) نادي الترقى: أنشأه جماعة من أنصار الإصلاح بالجزائر سنة 1927م يتسع لنحو 700 شخصا كان ينظم محاضرات أسبوعية ويقوم بأنشطة عامة على الصعيد الجزائري والعربي والإسلامي.

(3) توفيق المدني، حياة كنفاج، مرجع سابق، القسم الثاني، ص 113.

الجمعية في إلقاء الخطب والمحاضرات. فيعين العقبي خطيباً للنادي ويتولى مهمة المحاضرة الأسبوعية والمسامرة اليومية، والتدريس بقاعة النادي ويذكر المدني أن تأثيره على الجماهير كان عظيماً وكان موضوعه المفضل في خطبه ومحاضراته >> هو الدين الصافي النقيّ ومحاربة الطرقية ونسف خرافاتها والدعوة السافرة لمحاربتها >> (1).

وخلصت أهمية الخطابة في الفترة التمهيديّة "لجمعية العلماء" هي التركيز على أولويات النشاط الإصلاحي بدايةً بالتعريف برسائله التي تقود جمعية العلماء المسلمين الجزائريين لواءها، وقد تمّ ذلك عن طريق الاختلاط بالأمة على اختلاف طبقاتها ومحاوره كل طبقة منها فيما يتطلبها وضع الجزائر ومصيرها منها، ومن ثمة اللقاء بالجزائريين في أعراسهم ومآثمهم، في مساجدهم ومحلاتهم العامة بفرض تعميم صوت الإصلاح لأنّ السواد الأعظم من الأمة والذي سوف يعتمد عليه في النهضة مستقبلاً لا يقرأ مجلة، ولا يعرف معنى جريدة، ولا يؤثر فيه شيء مثل حضوره مسامرة أو درسا عاما أو خطبة، ومع قلة الامكانيات وضعف الوسائل قامت الخطابة مقام المسجد الحر والمدرسة المتنقلة، والمنبر المفتوح وانتقلت الجمعية عن طريقها لتتصل بالجماهير الجزائرية في مناطقها وجبالها ومدائرها.

وقد اهتمت الخطابة وبطريقة منطقية ومركزة على وضع الجزائريين أمام حقيقة واقعهم من الفرقة والفقر والجهل ووصف أدوائهم من الفساد والآفات المختلفة التي اعتبرها أهم عامل ساعد الاستعمار على الاستمرار في تشديد قبضته وزيادة ظلمه. فكانت الخطابة في هذا المقام الضمير المتكلم للجماهير الجزائرية ولسانهم المتحدث برغبتهم في التحرر والتغيير، ولم تتوقف الخطابة عن وصف الداء، بل دارت بأسلوب مؤثر وأصيل لوصف الداء، محترمة في ذلك معطيات الوضع المحلي ومقدرة لسنة التدرج في سلم التغيير، فكانت مادتها القرآن الكريم، وسنة الرسول صلى الله عليه وسلم بالدعوة الملحة للعودة إلى الإسلام بالتأدب بآدابه وأخلاقه والاستفادة من السنن الكونية وسنن النفس والاجتماع والعمران التي وردت في القرآن الكريم، ثم الدعوة الملحة إلى التعلّم

(1) أحمد توفيق المدني، حياة كفاح، مرجع سابق، القسم الثاني ص 183.

وتشجيع التعليم الذي لا تتحقق الخطوة الأولى إلا به ومن ثمة لم تخل خطبة أو درس من دعوة إلى بناء المساجد والمدارس لرفع آفة الأمية والجهل. كما لم تخل خطبة من سعي عملي ناجح لجمع كلمة الجزائريين في كثير من المناطق، أو موقف قائد لإبطال بعض العادات السيئة والضالة التي نشرتها الطريقة بين عامة الجزائريين كالتمسح بالأضرحة والقبور ودعاء غير الله تعالى. فقامت المواقف مقام الكلمات البليغة وقامت القدوة مقام المنبر الشجاع. وقد كان حسن اختيار مواضيع الخطب والدروس التي تصف الواقع الجزائري، وتأخذ بعين الاعتبار نفسية الجماهير من آمال وآلام تجعل هذه الخطب تتعدى الآذان إلى العقول والقلوب فتوتى الخطابة لمارها في أنها وهذا ما لمسناه من نتائج الرحلات وبالتالي نتائج الخطب والدروس المختلفة والتي لم تخل أي منها من مبادرة عملية جماهيرية لبناء مسجد أو بناء مدرسة أو التبرع لذلك.

بقي أن نشير إلى أن الخطابة في الفترة التمهيدية تميّزت بالهدوء والمرونة، وبالتعميم غير المباشر الذي يفوّت معناه عن الإدارة الاستعمارية ومترجميها لكنه كان قطعاً في متناول فهم كل مسلم بسيط الذكاء لأن مادة التذكير هو القرآن الكريم والعبرة منه.

وتأتي أهم نتائج نجاح الخطابة في الفترة التمهيدية في ظهور "جمعية العلماء" وتقبل الشعب الجزائري لها تقبلاً حسناً وواسعاً وهو إن لم يعد فقط إلى الخطابة وإنما إلى نجاح وسائل الجمعية الأخرى كالتعليم المسجدي، والرحلات والتعليم المكتبي، لكن الاتصال المباشر الذي كانت تحمّقه الخطابة بالجماهير والثقفين وشيوخ الطرق وتعميم ذلك ليس في قسنطينة وحدها بل في مراكز الإصلاح الأخرى في العشرينات من هذا القرن هو الذي أوصل رسالة الإصلاح السلفي إلى كل المناطق وأثر التأثير المقبول والناجح الذي يأتي منه التقبل العام لجمعية العلماء بعد إعلانها.

II- الخطابة عند جمعية العلماء في فترتها الرسمية:

بوات "جمعية العلماء المسلمين الجزائريين" الخطابة مكانة عظيمة وأولتها دورا خطيرا فتحولت هذه إلى مرحلة أكثر رسمية وتنظيما، من حيث اختيار المواضيع، التي تتناول قضايا محدّدة في السياسة والتعليم إلى الثقافة إلى الوطنية.. الخ، تحلّلها بكل صراحة وجرأة وتربط أسباب تدني المجتمع الجزائري بالإحتلال الفرنسي مباشرة فتوجه الجماهير وتستثيرها وتطالب وتندّد وتحتج وكل ذلك باسم "جمعية العلماء"، ثم من حيث وفرة الامكانيات والوسائل من المساجد إلى المدارس إلى النوادي إلى شعب الجمعية في كل المناطق في القطر الجزائري، وقد أصبح للخطابة نوادي خاصة بتعليمها وتدريب الجزائريين، وتشجيعهم على ولوج محالاتها ليكونوا ألسنة دعاية صالحة ومؤثرة، وما إلى ذلك.

وبداية من المؤتمر الخامس درجت جمعية العلماء على طريقة « عرض تقارير علمية في أهم المواضيع التي ترى الجمعية وضع تقارير فيها لينفّذ منها ما يمكن تنفيذه في الجزائر »⁽¹⁾. وأسندت ذلك إلى أعضاء مكتبها الإداري، وقد أولت موضوع "كيفية الإرشاد والدعوة" أهمية خاصة وجعله المؤتمر في مقدمة أعماله. وأسند وضع تقريره العلمي إلى "الشيخ العربي التبسي" الذي قدّم له عرضا مطوّلا جعل عناصره كالتالي:

- الإرشاد العام

- الحاجة إلى الإرشاد وتوقف الإسلام عليه

- وجوب الإرشاد قبل اليوم

- ما ينبغي أن يكون عليه الإرشاد

أوضح التبسي في تقريره بأن كل أمة لها ميزاتها وخواصها وعوائدها ودينها وشعائرها وعواطف شعبها وميول أفرادها. وأن هذه هي مقومات للشعوب يرثها الجيل الحاضر عن الجيل السابق عليه، فإن كان هذا الميراث عاديا بسيطا يسهل إرثه بالتقليد والمحاكاة والتمثل وإن كان هذا الميراث كالميراث الاسلامي علميا أخذ تعلّما من المرشدين»⁽²⁾. وعن أهل العلم الحقيقيين.

(1) سجل مؤتمر جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، مصدر سابق، ص 138

(2) المصدر نفسه، ص 142.

ونلاحظ أن تقرير الشيخ "التبسي" يكرر صفة "العلم الحقيقي" مرات عديدة فيقول مرة : «أهل العم الحقيقيين»، و«رجال الإرشاد الحقيقيين»، و«علماء الأمة الحقيقيين لا الغاصبين لهذا الإسم» مما يجعل منه خطابا موجها لمن نصبوا أنفسهم لهذا المنصب الخطير وهم ليسوا من أهله حقا. وينتهي "التبسي" (3). بعد مقدمات طويلة إلى أن حاجة المسلمين إلى الإرشاد «لحاجة يتوقف عليهما حياتهما» (1). وضمّن تقريره نداءات متكررة للعلماء المسلمين وعلماء الجمعية خاصة للقيام بهذا الواجب العظيم لأن في ذلك امتثال للإسلام وخدمة له وعملا بقوله صلى الله عليه وسلم «بلغوا عني..» (2).

وأهاب بهم بقوله : «أيها الأخوة تقدّموا لأداء وظيفكم الديني فأنتم أصحاب الحق وأنتم ورثة نبيكم وخلفاء أممكم، وتحملوا في ذلك الأذى كما تحمل نبيكم وكل ذي مبدأ في الحياة وعقيدة في الدين..» (3).

وأما طرق الإرشاد فيجعلها صاحب التقرير في «كل وسائل التبليغ، من دراسة، ومحاضرات ومحادثات وكتابات حتى تتلقى هذه الأمة دينها تلقيا علميا» (4)، وكذلك بالرحلة لأقصى الجهات لأن العلماء ورثة الأنبياء ورثوا عنهم تبليغ الدين تدريسا وتأليفا ومحادثة وخطابة.

(*) العربي التبسي (1895-1957م) أحد رجال الفكر الاصلاحى. ومن أبرز أعضاء جمعية العلماء المسلمين ولد في بلدة أسطح قرب "تبسة" وتعلّم في زاوية "نفطة" وجامع الزيتونة بتونس ثم الأزهر بمصر وعاد سنة 1927م إلى الجزائر. فاشتغل بالتعليم العربي الاسلامي في تبسة وغيرها. وشارك في الحركة الاصلاحية بقلمه، وعيّن في 1935م كاتباً عاما لجمعية العلماء؛ ثم نائبا لرئيسها الثاني (الابراهيمى) سنة 1940م وتحمل مسؤولية رئاسة الجمعية وإدارة شؤونها في غياب الابراهيمى إلى المشرق 1946م، سجن عدة مرات لمواقفه الوطنية. وفي 17 أفريل 1957م خطفه الفرنسيون واغتالوه. أنظر: عادل نويهض، المرجع السابق، ص 61. بتصرف.

(1) سجل مؤتمر جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، مصدر سابق، ص 141.

(2) أخرجه الترمذي، كتاب العلم، باب : ما جاء في الحديث عن نبي اسرائيل. انظر الإمام أبو العلام عماد عبد الرحمن بن عبد الرحيم المباركفوري، تحفة الأحوذى بشرح جامع الترمذي، (لبنان، دار الكتب العلمية، 1990م)، ج7، ص 360.

(3) المصدر السابق، ص 145.

(4) المكان نفسه.

وقدّم الشيخ التبسي اقتراحاً علمياً وعملياً لتنظيم هذا الميدان الخطير ليمثل حقاً مهمةً جمعية العلماء ورسالتها الإصلاحية على أسس من العلم والدين. لكون النظام يزيد الحق تمكناً، ويعطي للقائمين به سهولة وقوة في تنفيذه، قال: «أرى أنه يجب على رجال الجمعية أن يضعوا برنامجاً للوعظ يسرون على وضعيته، ويصرون بضوئه، ويهتدون بحكمه، ويأخذون أنفسهم على العمل به» (1).

أ- وقد وضع صاحب التقرير شروطاً عدة لما ينبغي أن يكون عليه الإرشاد:

1- إن المرشد يدعو الناس إلى العمل بالدين الإسلامي، والإسلام هو مجموعة عقائد وعبادات ومعاملات وأخلاق وآداب، وكل هذه محفوظة في الكتاب والسنة المطهرة، فعلى المرشد أولاً الإلتزام بما في الكتاب والسنة وكذا باجتهادات علماء الإسلام وأن يلتزم عند إرشاده الناس بالدقة والبرهان وذلك بذكر «اسم المشرع الحقيقي، ثم الرسول الأمين المبلغ صلى الله عليه وسلم ثم الصحابي الراوي ثم الإمام الناقل ثم الفقيه المستدل» (2).

2- على المرشد أن يكون عالماً بالقرآن الكريم وبعلمه، وعلوم السنة وعلوم اللغة العربية لغة الإسلام وقال «فمن لا اطلاع له على كتب السنة ولا خبرة له بأقوال علماء السلف لا يصح أن يعدّ من ورثة الأنبياء» (3)، لأن هذا الإرث إنما يدخل فيما كانوا قائمين به وهذا ما يخرج معظم المتقولين بالعلم في الجزائر، ومن ثمة تكون جمعية العلماء قد أعدت الميراث النبوي وبالتالي فإنها تضمن النجاح والتوفيق.

3- المرشد كالطبيب يجب أن يداوي النفس المريضة بالدواء المناسب ليذهب المرض، وعليه فإنه إذا عمد إلى سطحيات المظاهر ليقاومها وترك منشأ الشرّ ومبعث الضلال فإنه يعدّ جاهلاً بالإرشاد أعمى عن مقاصد الدين. وذكر "التبسي" بأن أكثر سكان الجزائر أميون ولكنهم على كثرتهم يسهل انقيادهم للحق لأن قلوب هؤلاء لم

(1) سجل مؤتمر جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، مصدر سابق، ص 148-149.

(2) المصدر نفسه، ص 149.

(3) المصدر نفسه، ص 150-151.

تؤثر فيها مبادئ البدعيين تأثيرا ناشئا عن عبادة المصالح الشخصية، ولا يحتاج هؤلاء إلا إلى مرشد مخلص يخبر عن حق، ويدل على صواب، ويدعو إلى ربه.

4- على المرشد أن يهذب نفسه ويحاسبها في يومها وليلها ويعرض أعماله وأخلاقه وآدابه على أصول الدين وفروعه، وسيرة أئمة الاسلام الذين بهم وصلنا هذا الدين، ويلزم نفسه بأداب أئمة المسلمين >> حتى تكون مواظبة مقبولة للعامه ولها أثرها الحسن ونتائجها الطيبة ومفعولها العاجل >> (1).

ب- تبرز أهمية هذا التقرير في عدة نواح منها:

1- في أنه لسان حال العلماء في هذا المجال على أساس أنه تقرير رسمي وعلمي تقدم به أحد أعضائها العاملين.

2- في أنه صدر عن جلسات مؤتمر رسمي يعتبر هيكليا بالنسبة للنشاط الإصلاحي الجزائري وبالتالي للتأطير والتخطيط ومن ثمة فهو شهادة على سلوك ذو سيادة تامة واستقلالية كاملة إزاء الإدارة الاستعمارية.

3- في أنه شاهد على نجاح الفترة التمهيديّة تماما في مجال الخطابة، فبعد أن كان يؤديها علماء الإصلاح فرادى أو مجتمعين، تجمعهم الفكرة وسمو الهدف فقد أصبح مؤسسة منظمة وأصبح دور العلماء فيها أكثر مسؤولية وأكثر دلالة إذ آلت إليهم مهمة تقديم التقارير والتخطيط بعد تحمل مسؤولية الإلقاء والتدريب مع استمرارها في فترة العلانية.

4- في أن نشاط الجمعية في مجال الخطابة كما سنلاحظ ترجمة عملية لاقتراحاته وشروطه.

(1) سجل مؤتمر جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، مصدر سابق، ص 152،

2- أهمية الخطابة عند جمعية العلماء على المستوى التنظري:

سيبقى موضوع الخطابة متداولاً على مستوى التنظيم والاقتراحات بين علماء الجمعية في المؤتمرات، وفي دروس المساجد وكذا على صفحات الصحافة الإصلاحية.

أ- وفي هذا الإطار يتقدم الشيخ السعيد الصالحى -أحد أعضاء الجمعية- باقتراح يعقب فيه على اقتراح المجلس الإداري للجمعية القاضي بأن ينشئ خطباً ويوزعها على الأئمة، فقال بأنها >> ربما لا تأتي بالثمرة المطلوبة إلا في ناحية مخصوصة ووقت محدود ودائرة ضيقة >> (1)، ورأى صاحب الاقتراح بأن تترك للخطيب حرية اختيار الموضوع ومن ثمة اختيار الحلول حسب المدينة التي يخطب فيها مراعيًا للجمهور الذي يخطب فيه، نظراً لاختلاف الأمزجة الذي يوجب فرقا في العلاج وكثرة الأمراض الروحية وتنوعها وتجددها، ومن ثمة مراعاة الصغير والكبير، والجامد والمفكر والأمي والمتعلم والحضري والبدوي.. وما إلى ذلك، وعليه فإذا نسجت تلك الخطب فاتخاذها من طرف الرعايا والمرشدين على سبيل أنها نموذج للنسج على منوالها فحسب. لكن يبقى الاعتماد دائماً على الفكر والتبصر والتجربة (2) لكل منهم .

ب- ويتناول "ابن باديس" الخطابة في كثير من دروسه التي تدخل في إطار "محاليس التذكير" عموماً فنبه في درس "التذكير" إلى: 1- حقيقة التذكير 2- حاجة الخلق إليه ، 3- القائمون به 4- تذكير النبي صلى الله عليه وسلم 5- ما كان يذكر به ومن كان يذكر 6- مشروعية التذكير في الإسلام.

ويجعل "ابن باديس" حقيقة التذكير في: >> أن تقول لغيرك قولاً يذكر به ما كان جاهلاً أو عنه ناسياً أو غافلاً، وقد يقسم الفعل، والسّمتم والهدى مقام القول فيمسى تذكيراً مجازاً وتوسعاً، ويجمع الثلاثة قولك: عباد الله الصالحون يذكرون الخلق بالخالق بأقوالهم وأعمالهم وسمتهم >> (3).

(1) سجل مؤتمر جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، مصدر سابق، ص 215.

(2) المصدر نفسه، ص 216. بتصرف.

(3) عبد الحميد ابن باديس، محاليس التذكير من كلام الحكيم الخبير، مصدر سابق، ص 34.

ويربط ابن باديس حاجة العباد للتذكير ومنزلته من الدين بشرع الله له للمسلمين شرعا مؤقتا في خطب الحج والأعياد، وشرعا مرسلا موكولا للمذكّرين على ما يرونه من نشاط الناس وحاجتهم كما كان يتحول النبي صلى الله عليه وسلم الناس بالموعظة وطلبه طلبا عاما من جميع المؤمنين في قوله: ﴿ **تَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ** ﴾ (1) في صفة المؤمنين العاملين >> (2).

ويحدّد ابن باديس في درس آخر عنوانه "أفضل الأذكار" للمسلم في حالتين :

أولهما : حالة يعالج فيها شؤون الحياة من أمر نفسه وأهله، وما إلى رعايته من مصالحه، أو مصالح غيره، فيمارس فيها الأسباب ويباشر فيها ما تقتضيه بشرتيه، وهو في هذه الحالة متعبدا ما جحرى فيها على حدود الله. وقصد بها امتثال شرعه (3).

وثانيهما : حالة ينفرد فيها لربه ويخلص منهم ذلك كلّ قلبه، ويتوجه بقلبه إلى خالقه بالذكر والاعتبار ودوام المراقبة والإقبال، ويجعل ابن باديس الحالة الثانية >> أشرف وأفضل حالتي المسلم لأنها هي أساس الاستقامة في الحالة الأولى وأصل الكمال فيها >> (4) ونفهم من ذلك أنه على الخطيب المذكور أن يمرّ بحالة الاستقامة في نفسه ومراقبة الله تعالى بفكره وأخلاقه ودوام الإقبال عليه فإذا هو استوفاهما أقبل على تذكير الناس ومعالجة شؤونهم وشؤون غيره ممن هم تحت رعايته وهو في حالته في عبادة الله تعالى.

ويفصّل ابن باديس في درس >> كيف تكون الدّعوة إلى الله والدّعوة إليها >> يفسر فيه قوله تعالى : ﴿ **أُدْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ، إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ** ﴾ (5).

(1) العصر 6، 7.

(2) عبد الحميد بن باديس، مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير، مصدر سابق، ص 36

(3) المصدر نفسه، ص 37.

(4) المكان نفسه.

(5) النحل 125.

فيعطى الخطيب والمرشد صفة الداعي إلى الله تعالى مهتدياً بأمر الله نبيه صلى الله عليه وسلم أن يدعو إلى سبيل ربه وهو الأمين المعصوم، الذي ما ترك -صلى الله عليه وسلم- شيئاً من سبيل ربه إلا دعا إليه ومن ثمة عرف أن ما لم يدع إليه الرسول صلى الله عليه وسلم فليس من سبيل الله تعالى، ووقع الفرق العملي بين دعاة الحق والهدى، دعاة الله، وبين دعاة الباطل والضلال، دعاة الشيطان.

واستنتج ابن باديس من ذلك: «أنه على المسلم المتبع للرسول صلى الله عليه وسلم أن لا يآلو جهداً في الدعوة إلى كل ما عرف من سبيل ربه، وبقيام كل واحد من المسلمين بهذه الدعوة بما استطاع تتضح السبيل للسالكين ويعمّ العلم بها عند المسلمين وتخلو سبيل الباطل على دعواتها من الشياطين» (1).

وقسم ابن باديس الدعوة على أساس أنها عملية اتصالية كاملة الأركان إلى :

1- الداعي: هو النبي صلى الله عليه وسلم ومن ثمة كل مسلم يقتدي بالرسول صلى الله عليه وسلم.

2- المدعو : هم الناس جميعاً.

3- المدعو إليه: سبيل الله تعالى.

4- الدعوة : مضمون الرسالة الاتصالية - هي ما يوصل إلى سبيل الله تعالى -

وحدّد كيفية ذلك في :

"الحكمة": وقد جعلها: كل العقائد الحقة، والحقائق العلمية والأعمال المستقيمة والكلمات الطيبة والأخلاق الكريمة.

الموعظة الحسنة: وجعلها «الكلام المليّن للقلب بما فيه من ترغيب وترهيب فيحمل السامع - إذا تعظّ وقبل الوعظ وأثر فيه - على فعل ما أمر به وترك ما نهى عنه» (2).

(1) عبد الحميد بن باديس، مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير، مصدر سابق، ص 67.

(2) المصدر نفسه، ص 69.

أما بما تكون الموعظة فيقول ابن باديس: > يكون الوعظ بذكر أيام الله في الأمم الخالية، وباليوم الآخر وما يتقدمه وما يكون فيه من مواقف الخلق وعواقبهم ومصيرهم، وبوعد الله ووعيده. وهذه أكثر ما يكون بها الوعظ، ويكون غيرها كتذكير الإنسان بأحوال نفسه ليعامل غيره بما يجب أن يعامل به << (1).

ولم يكن ابن باديس في درسه مفسرا لآية من آيات القرآن الكريم ومنظرا لمرضوع الخطابة بما استبطنه من القرآن الكريم وسنة الرسول صلى الله عليه وسلم وأقوال الصحابة بالإضافة إلى تجربته العلمية والعملية الطويلة فحسب، وإنما كان داعيا إلى الله مذكرا خلقه وخطيبا متقنا لفنون الخطابة لغة وإقناعا واستمالة ثم والأهم من ذلك في موضوعنا كان اختياره لهذه الآية إنما بقصد تعليم أبناء وطنه هذا الفن وتدريب المقبلين عليه والمزاولين له ميدانيا، إذ لم يستغن في كل عنصر من درسه التمثل بواقع الجزائريين ومصير الجزائر وتقديم الأسلوب الأمثل والطريقة النموذجية للوصول بالخطابة من حيث التأثير إلى ما وصلت إليه الخطابة في عصور الإسلام الأولى فنجده يقول:

>> فعلينا أن نلتزم الحكمة جهدنا حيثما دعونا، ونقتدي بأساليب القرآن والسنة في دعوتنا، فيها يحصل الفهم واليقين، والفقهاء في الدين والرغبة في العمل والدوام عليه، وها نحن قد بلغ الحال بنا إلى ما بلغ إليه من الجهل بحقائق الدين، والجمود في فهمه، والإعراض عن العمل به، والفتور في العمل، فحق على أهل الدعوة إلى الله أن يقاوموا ما بنا من جهل وجمود وإعراض وفتور بالتزام البيان للحقائق العلمية بأدلتها، والعقائد ببراهينها والأخلاق بحساسنها، والأعمال بمصالحها << (2).

ونجده يحذر المؤمنين الجزائريين والخطباء منهم على وجه الخصوص الذين ينظفون الناس بخطب مسجعة طويلة من مخلفات الماضي ولا يراعون فيها شيئا من أحوال الحاضر وأمراض السامعين... فذلك سدّ لباب عظيم من الخير فتحه الإسلام، وتعطيل لركن من أركانه هو الوعظ والإرشاد، فيقول: >> فحذار أيها المؤمن -الجزائري- من أن تكون

(1) عبد الحميد بن باديس، مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير، مصدر سابق، ص 69.

(2) المصدر نفسه، ص 68.

مثلهم إذا وقفت خطيبا في الناس، وحذار من أن تترك طريقة القرآن والمواعظ النبوية إلى ما أحدثه المحدثون >> (1).

ج- ويتناول الابراهيمى من جهته موضوع الخطابة من جانب آخر يركز فيه على الخطيب أو الداعي أو ما سماه بالعالم الديني، في ثلاث مقالات صحفية خصّ بها مجلة "المنهل السعودي" وكانت في حقيقتها ثلاث خطب أو محاضرات علمية عنوانها: >>وظيفة علماء الدين >> التي جعلها على رأس كل الوظائف في الإسلام، يقول: >> لا توجد في الإسلام "وظيفة" أشرف قدرا، وأسمى منزلة، وأرحب أفقا، وأثقل تبعه، وأوثق عهدا، وأعظم أجرا عند الله من وظيفة العالم الديني، ذلك لأنه وارث لمقام النبوة وأخذ بأهم تكاليفها وهو الدعوة إلى الله وتوجيه خلقه إليه وتزكيتهم وتعليمهم وترويضهم على الحق حتى يفهموه ويقبلوه، ثم يعملوا به ويعملوا له >> (2).

ويقول بأن العالم بمفهومه الديني في الإسلام، >> قائد، ميدانه النفوس، وسلاحه الكتاب والسنة وتفسيرهما العملي من فعله صلى الله عليه وسلم وفعل أصحابه (3). ويفهم من هذا أولا ثم من شروط النجاح التي وضعها "الابراهيمى" لهذا القائد العالم أنه كان يشير قطعا إلى أحقية القيادة في كل أمه دينها الإسلام وكتابها القرآن الكريم، ويصف مراكز ضعفها وينبها إلى سبيل القوة عموما من جهة، ومن جهة أخرى لا يخرج أساسا عن وضع الجزائر ووصف هذه الوظيفة بها ومن ثمة تذكير وتوجيه وتعليم لعلماء الجمعية التي تمثل هذه القيادة. ويجعل شروط نجاح هذا القائد في: >> أن ينسى العالم نفسه ويذوب في المعاني السامية التي جاء بها الإسلام، وأن يطرح حظوظها وشهواتها من الاعتبار وأن يكون حظه من ميراث النبوة أن يزكّي ويعلم وأن يقول الحق بلسانه ويحققه بجوارحه، وأن ينصره إذا خذله الناس، وأن يجاهد في سبيله بكل ما آتاه الله من قوة >> (4).

(1) عبد الحميد بن باديس، مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير، مصدر سابق، ص 71.

(2) آثار محمد البشير الابراهيمى، مصدر سابق، ج 4، ص 145.

(3) المكان نفسه.

(4) المكان نفسه.

أما وسيلة النجاح فهي البدء بالنفس في نقطة الأمر والنهي حتى يكون أول فاعل للأمر، وأول تارك للنهي، وذلك ليأخذ الناس عنه بالقدوة والتأسي أكثر مما يأخذون عنه بواسطة الأقوال الجردة والنصوص اللفظية، لأن «الفعل في النهاية هو المقصد والثمرة وأن الأقوال في معظم أحوالها إنما هي أدوات شرح وقوالب تبليغ وآلات أمر ونهي، ووسائل ترغيب وترهيب» (1).

وعلى الأبراهيمي ذلك بنجاح علماء السلف الصالح في التأثير والتغيير لما فهموا الإسلام فهما كاملا بعقائده وعباداته وأحكامه وأخلاقه، وفهموا ما بين هذه الأجزاء من الزابط والتماسك ووحدة الأثر والتأثير وأنها - في حقيقتها - شيء واحد، هو الدين وهو الإسلام وأن ضياع بعضها مؤذن بضياع سائرهما، أو هو ذريعة لضياعه، فلا يقوم دين الله في أرضه إلا بإقامة جميعها.

ويتبع هذا التحليل الفذ والتعليل الواضح من إيمان علماء الجمعية بأنه ما تمكن الاستعمار من الجزائريين إلا بعد أن ضاعت بعض أجزاء الإسلام أو معظمها من نفوسهم وواقعهم وأن الاستعمار يعي ذلك تماما، وكانت وسيلته الدائمة إزائهم هي محاربة الإسلام في كل جزئياته ومحاربة كل ما يحققه في نفوس وعقول المسلمين، محاربة الفضيلة، محاربة العلم، محاربة اللغة العربية...

ومن ثمة فليس غريبا أن أكثر وأعمق وأدوم ما كانت تدعو إليه جمعية العلماء في كل أنشطتها هو التركيز على العودة إلى الإسلام بالعلم والفضيلة والعربية، وفهم علماء الجمعية ذلك أول خطوة للنجاح، وليس غريبا من أن روح رسالة علماء الجمعية هي التعاليم الإسلامية وذلك هو سر التكرار والتركيز على تغذية العلماء والخطباء والمعلمين والتلاميذ والجماهير بهذا الغذاء الدائم.

ولما كانت الخطابة ألصق الوظائف بالجماهير، لم يمل علماء الجمعية بالتذكير والتحصين حتى تبقى تعاليم الدين حية في القلوب ومرتبطة بأسبابها بواقع الجزائريين، وهدف جمعية العلماء من كل ذلك هو أن يعيدوا إلى هذه الوظيفة حقيقتها ومكانة أصحابها الذين يقول عنهم الأبراهيمي أنهم «كانوا ملوكا على الملوك، واقفين لهم

(1) آثار محمد الشير الأبراهيمي، مصدر سابق، ج4، ص 146.

بالمرصاد، لا يقرّونهم على باطل ولا منكر ولا يسكتون لهم على مخالفة صريحة للدين، ولا يتساهلون معهم في حق الله، ولا يترضونهم فيما يسخط الله >> (1).

وأما الذي رفعهم إلى تلك المنزلة بعد العلم والإخلاص كما يقول الإبراهيمي هو أنهم >> كانوا حاضرين غير غائبين. كانوا يحضرون مجالس الرأي مبشرين شاهدين وميادين حرب مغيرين مجاهدين، طبعهم الإسلام على الشجاعة بقسميها: شجاعة اللقاء. فكانوا يلقون الرأي شجاعا فيقهر الآراء، ويخوضون الميادين شجاعا فيقهر الأعداء...>> (2). وكان الإبراهيمي يرى أن للآراء اقتتال يظفر فيه الشجاع القوي، كما أن للأناسي اقتتال يظفر فيه الشجاع القوي. وأن العالم الجبان في أمة عضو أشل، يؤود ولا يذود >> (3).

ويجعل "الإبراهيمي" لعلماء الدين والقائمين بواجب التذكير بالقرآن، ووظيفة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واجبات ملزمة، وربط تدني مكانة الأمة الإسلامية بين الأمم بضياع تلك الواجبات، يقول:

- 1- واجب العالم الديني أن ينشط إلى الهداية كلما نشط الضلال وأن يسارع إلى نصرته الحق كلما رأى الباطل يصارعه، وأن يجارب البدعة والشرّ والفساد، قبل أن تمدّ مدّها، وتبلغ أشدها، وقبل أن يتعوّدها الناس، فترسخ جذورها في النفوس ويعسر اقتلاعها.
- 2- وواجبه أن ينغمس في الصنوف مجاهدا ولا يكون مع الخوالب والقعدة، وأن يفعل ما يفعل الأطباء الناصحون من غشيان مواطن المرض، لإنقاذ الناس منه وأن يغشى بجماع الشرور لا يركبها مع الراكبين بل ليفرق اجتماعهم عليها.
- 3- >> وواجبه أن يطهر نفسه قبل ذلك كلّ من خلق الخضوع للحكام والأغنياء وتملقهم طمعا فيما في أيديهم، فإن العفة هي رأس مال العالم فإذا خسرها خسرت كل شيء وخالفها الطمع فأرداه >> (4).

(1) آثار محمد البشير الإبراهيمي، مصدر سابق، ج4، ص 150.

(2) المكان نفسه.

(3) المكان نفسه، بتصرف.

(4) المصدر نفسه، ص 157.

وأنتهى الإبراهيمي مقالاته بتوجيه اللوم الحزين والعتاب الأخوي للعلماء من قومه
محاكما إياهم لضمايرهم غير متجنّ أو متزيد قائلًا: «إني يا قوم اعتقد أن أقسى عقوبة
عاقبنا بها الله على تحذلنا لدينه هي أنه جرد كلامنا من القبول والتأثير، فأصبح كلامنا في
الجيل القديم مستثقلًا وفي أسماع الجيل الجديد مسترذلاً، ومن ظنّ خلاف هذا فهو غر أو
مغرور أو هما معا» (1).

ومما تقدم يمكن الملاحظة بأن جمعية العلماء قد أولت موضوع الخطابة اهتماما بالغاً
مخصوصاً على المستوى التنظيري، وذلك لأن الخطيب في الإسلام هو الداعية إلى الله،
وهو العالم بدينه، وهو وارث الأنبياء في أعظم وظائفهم بعد "التبليغ" وهي وظيفة الأمر
بالمعروف والنهي عن المنكر.

ولاحظنا أن مقالات علماء الجمعية وبحوثهم ودروسهم وتقاريرهم - وقد قدّمنا
نماذج منها - تعدّ في حدّ ذاتها خطابة، من حيث مضامينها وطريقة إلقائها وأسلوبها،
وتدخل ضمنها - كما سوف نرى - القصائد الشعرية أيضاً ثم في شروطها وأركانها،
ولما كانت هي أخطر الوظائف في الأمة الإسلامية، بل ومن ميزات أمة الإسلام عموماً -
ومنها الأمة الجزائرية - لاتصالها المباشر بالجماهير وبمختلف شرائح المجتمع لاحتظنا التركيز
الخاص على مسؤولية العالم الديني نفسه، أو الداعي أو الخطيب من أجل أن تقبل موعظته
ودعوته والتي بها يتحقق القبول ويقع التغيير.

3- أهمية الخطابة عند جمعية العلماء على المستوى التعليمي:

أ- عن طريق المحاضرات العامة: تعدّ دروس الشيخ ابن باديس "بجالس التذكير" في
الجامع الأخضر بقسنطينة، اللبنة الأساسية لتعليم "الخطابة" والتشجيع على الإقبال عليها
من خلال المواضيع المختارة، الحائثة عليها أو المواضيع التي توضح طرقها وأساليبها وأهدافها
كما مرّ بنا، وبالإضافة إلى ذلك فقد كانت خطب الجمعة وخطب ابن

(1) آثار محمد البشير الإبراهيمي، مصدر سابق، ج4، ص160.

باديس وكذا علماء الإصلاح وتلاميذ المدرسة الباديسية الذين استقروا في مسقط رأسهم للدرس والخطابة تمثل كلها غذاءا ثريا في هذا المجال ، وكان وضع الجزائريين أنفسهم وتعطشهم للعلم وإقبالهم عليه كلما توفرت ميادينه ووسائله أكبر دافع ومشجع للإقبال على مجالس الخطابة ومنابرها .

وقد دأبت جمعية العلماء بعد ترسيمها، ونظرا لقلّة المدارس والمساجد بالنسبة إلى عدد سكان الجزائر وعدد الأميين منهم خاصة، إلى «> التعليم العام بالمحاضرات العامة ليس في المساجد والمدارس فقط وإنما في النوادي والقاعات العمومية والميادين الجامعة والأسواق»(1)، من حيث الوسائل والمؤسسات، أما من حيث الكفاءات فقد كلفت طائفة من رجالها الكفاءة في العلم والبيان بالطواف في مدن القطر وقراه وسهوله وجباله «>بزرعون الحماس بواسطة هذه المحاضرات ويبتنون الحقائق، ويثبتون العزائم، ويحركون الهمم، ويضربون الأمثال، ويربطون للأمة حاضرها بماضيها، ويذكرونها بما نسيته من أمجاد سلفها، ويهيئونها لنهضة شاملة في العلم والسياسة والاقتصاد»(2).

وحسب نص الشيخ الابراهيمى فقد استهدفت الخطابة والمحاضرات العامة أولا تعليم الجماهير الذين لم يجدوا لهم أماكن في المساجد والمدارس لقلتها، وايصال التعليم إليهم في قراهم وسهولهم وجبالهم على غرار مراكز الإصلاح الأخرى، وغاية الجمعية من ذلك تعميم التعليم وعدم حرمان أي فرد جزائري منه، لكن أيضا الجمع بين التعليم والتربية، وهي الطريقة التي بنت عليها جمعية العلماء أصول النهضة في الجزائر، لايمانها «>بأن العلم الخالي من التربية ضرره أكثر من نفعه وما أصيب المسلمون في عزتهم إلا يوم فارقت التربية الصالحة العلم»(3). وبالتالي فإن مهمة المحاضرات العامة، هذه بالإضافة إلى التعليم كانت الوعظ والإرشاد على مذهب الإصلاح السلفي.

ويشهد الابراهيمى بأن تلك المحاضرات قد فعلت مفعولها في الجمهور الجزائري،

(1) آثار محمد البشير الابراهيمى، مصدر سابق، ج4، ص 242.

(2) المكان نفسه.

(3) المكان نفسه.

وآتت أكلها هنيئا وأصبحت غذاء لذلك الجمهور، ومادة من مواد تعليمه، وصلة بينه وبين الجمعية، وأن أهم ما وفقت فيه مدى سبع سنوات، وهي المدة التي استغرقتها الجمعية في التعليم عن طريق المحاضرات العامة هو الوصول إلى الغاية التي كانت يرمي إليها <وهي توثيق التعاون بينها وبين الأمة على تعليم النشء وتكوين جيل صالح للحياة متحد النزعات متجاوب الخواطر والمقاصد، يحرر الوطن من الاستعماريين الروحي والمادي> (1)

ب- تأسيس النوادي العلمية والجمعيات :

1- واهتدت جمعية العلماء سيرا منها على عادة التوسل بكل الوسائل المتوفرة والممكنة بعدم تقييد فرصة التعليم العام على كل طبقات الشعب الجزائري إلى تأسيس النوادي العلمية.

وتجدر الإشارة أن "جمعية العلماء" كانت تستغني عن تأسيس النوادي، بتأسيس المساجد والمدارس الحرة بأموال الشعب، لكن لما اتسعت رقعة الإصلاح، ونظرا للقوانين الجائرة إزاء علماء الجمعية وإزاء الجمعية نفسها في مؤسساتها التعليمية التي بدأت تكثر يوما بعد يوم خاصة من المساجد والمدارس، وتمويها من الجمعية على الإدارة الاستعمارية اهتدت إلى تأسيس النوادي العلمية، كالتي كانت تابعة لشعب الجمعية في كل منطقة، وكذا إنشاء الجمعيات المتنوعة. وكان الغرض في هذا كله هو بعث ثورة فكرية، وحركة نشاط في أوساط الشعب الجزائري كله وحتى لا يحرم من أفراده أحد. بتعميم الدروس للكبار والصغار، وتعميم الخطب والمحاضرات العامة والعلمية، وحث الجزائريين على اتباع الأعبار ومناقشة القضايا في النوادي وقاعات الجمعيات بدلا من تجمعات المقاهي أو الملاهي... وحتى تعطي تجمعاتهم دلالات أخلاقية، وحضارية. وكان ذلك ضمن التعبئة العامة بتفنيذ مزاعم الاستعمار، ودلالات اجتماعية التي تتطلبها المصلحة العامة بالتجمع حول المشاريع الاجتماعية والاقتصادية كالتعاون على بناء المساجد والمدارس وتعزيب ذلك ماديا ومعنويا فتحي الإحساس بالمسؤولية الجماعية، وتدفع كل فرد من الجزائريين لأداء واجبه نحو أمته ووطنه.

(1) آثار محمد البشير الإبراهيمي، مصدر سابق، ج4، ص 242-243.

ويعتّل الشيخ الابراهيمى دأب الجمعية بتأسيس النوادي العلمية بقوله أن >> طبقات الأمة ثلاثة متفاوتة الشعور والإدراك، ولكنها مشتركة في القابلية والاستعداد وهي: الشيوخ والشباب والأطفال. فرأت الجمعية أن تصرف عنايتها على الطبقات الثلاث في آن واحد، كل طبقة على قدر استعدادها >> (1). وإذا كانت الجمعية قد تمكنت من لقاء الشيوخ والكهول ورفاد المساجد في المساجد وقامت بواجبها نحوهم، وتمكنت من لقاء الأطفال في المدارس وهي تؤدي رسالتها نحوهم على الوجه الذي عخطت له. تبقى لها شريحة هامة من الأمة هي شريحة الشباب الذين فاتتهم المدرسة ولم يكونوا رواداً للمساجد، فأنشأت جمعية العلماء مشروع "النوادي" لتكون وسطاً طبيعياً بين المساجد والمدارس، تلتقي فيها بالشبان اعتباراً لأمزجتهم وأعمارهم >> فهي أقرب إلى أمزجتهم ولأن فيها شيئاً من التسلية والمرح. ولأن فيها قليلاً من جو القهوة >> (2).

وتذهب جريدة (لالوت سوسيال La lutte Sociale) إلى أنه لا يوجد مكان في الجزائر لم ينشأ فيه العلماء منظمة بطريقة أو بأخرى >> (3). وهذا ما يؤكد الابراهيمى في أن الجمعية قد >> أنشأت في مدة قصيرة عشرات النوادي في المدن والقرى ودعت إليها الشبان فاستجابوا >> (4).

وقد استغلت جمعية العلماء النوادي للشباب لإلقاء الخطب والمحاضرات والدروس العامة التي تهذب أخلاقهم وتعرفهم بأنفسهم وقيمتهم ومنزلتهم في الأمة وتجمع قوتهم، وكذا تعلمهم دينهم ولغتهم وتاريخهم >> (5). ومادام المقصد الأول للجمعية هو التربية والتعليم أي ربط التعليم بالتربية كما هو ظاهر من مبادئها وأصول دعوتها، وتدل عليه نشاطاتها فقد >> كان هدف العلماء من التعليم في النوادي التربية على الشجاعة، والخطابة >> (6) وخاصة حثهم على العمل المسؤول والمنتج.

(1) آثار محمد البشير الابراهيمى، مصدر سابق، ج4، ص 343.

(2) المصدر نفسه، ص 243.

(3) أبو القاسم سعد الله، الحركة الوطنية، مرجع سابق، ج2، ص 423.

(4) المصدر السابق، ص 243.

(5) المكان نفسه.

(6) أبو القاسم سعد الله، الحركة الوطنية، المرجع السابق، ج2، ص 424.

وإذا أمكننا تخصيص الخطبة الدينية بالمنبر المسجدي، فإنه يمكننا تخصيص النادي كمنبر للخطابة في كل المجالات السياسية والاجتماعية والدينية وما إلى ذلك مما توفره الظروف السياسية والاجتماعية من مضامين للخطابة في الجزائر، الإلقاءية منها والكتابية وكذا للقضايا الشعرية المتنوعة.

وقد كان نادي "الترقي" في هذا المجال عبارة عن "سوق عكاظ" سنوي، فبداية من المؤتمر الخامس لجمعية العلماء، قرر المجلس الإداري أن يخصص يوما كاملا في آخر الاجتماع للخطب والقضايا وفتح هذا الباب لكل مستعد من الحاضرين بشرط أن تكون الخطبة مكتوبة قابلة للنشر، غير خارجة عن دائرة الأدب والعلم والدين. ولما كان الاجتماع العام أو مؤتمر جمعية العلماء المسلمين يحضره علماء الجمعية وأعضاؤها العاملين من أساتذة وخطباء ومعلمين وكانت خطبهم بمثابة محاضرات على مستوى علمي راق في فنون الخطابة وأساليبها وشروطها، فإن النادي بهذه الصفة يمثل معهدا عاليا أو جامعة لتعليم الخطابة رهو الهدف الذي يؤكد الإبراهيمي في أنها كانت «> لتدريب الناشئة الإصلاحية على الكلام في العموميات وتتمرن على الخطابة ومناحيها لتستعد للقيام بالدعوة والإرشاد <<(1).

وقد شهد نادي الترقي أثناء المؤتمر الرابع لجمعية العلماء إلقاء أكثر من عشرين خطبة وقصيدة شعرية (2)، ونحو ذلك في المؤتمر الخامس (3)، بل أصبح للخطابة يوما خاصا ورسميا، وإذا عرفنا بأن النادي كان يسع أكثر من خمسة آلاف من الحاضرين، وأنه كان يحتفظ بهم حتى لا يجدوا لهم مكانا للجلوس ويضطرون للوقوف في قاعات وشرفات وممرات النادي.. حسبما تصف ذلك تقارير الصحافة الإصلاحية في كثير من المناسبات (4)

(1) سجل مؤتمر جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، مصدر سابق، ص 10.

(2) عبد المالك مرتاض، نهضة الأدب العربي المعاصر في الجزائر، مرجع سابق، ص 43 نقلا عن الشهاب.

(3) أنظر المصدر السابق، مقدمة السجل، وفهرسة أعماله.

(4) أنظر تقرير عن الاجتماع الخامس العام لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين، البصائر، ع 37، المورخ: بد الجمعة

16 رجب 1355 الموافق لـ : 3 أكتوبر 1936.

علمنا ما كان للخطابة من مكانة هامة في المجتمع الجزائري، ودور خطير في تحريك الجماهير وتعبئتهم لصالح مختلف القضايا الوطنية المصيرية في الجزائر. وهو ما حرص الخطباء على التفاضح بل وعلى ارتجال الخطب البليغة التي كان لها الأثر البالغ في الجماهير الجزائرية >> التي كانت تطلب من الخطيب إعادة خطبته إعجابا بها وخاصة باللغة العربية الفصيحة التي أقيمت بها >> (1).

2- ولم يكن النادي مسرحا للخطابة والقصيدة فقط في الاجتماعات العامة الإدارية أو في مؤتمرات الجمعية بل كان كذلك في مناسبات كثيرة تدعو إليها الجمعية طبقا للظروف المختلفة والطارئة وكذا المناسبات الدينية كالأعياد، والمولد النبوي، وليلة القدر، وشهر رمضان بالإضافة إلى تنظيم النادي للمحاضرات والندوات والمناقشات التي كان ينشطها علماء الجمعية.

وعرفانا بمكانة النادي الدينية العلمية، والسياسية والوطنية الخ، قرضه عدد من الشعراء بقصائد تصف ذلك حتى جعله أحدهم وهو الشيخ أبو اليقضان " كعبة للقصاد" يقول: مرتقى الفخر اي هذا النادي
ته دلالة على جميع النوادي
مأزر الدين موئل العلم مغنى
الأدب الغض أنت حصن الضاد
مجمع العلما ومنبر كل
خطبا أو سباق كل جواد
مكروفون أعليت للعلم صوتا
داويا خارقا مدى أبعاد
أنت حقل الكهول منتزه الشد
بان روضة أنجب الأولاد (2)

وإذا كان نادي الترقى على هذا الجانب الخطير من الأهمية فإن بقية نوادي الجمعية كانت كذلك، لكن بدرجات متفاوتة فقد عبأت الشبان والجماهير لبناتها، واتبعت فيها رسالتها الإصلاحية نفسها من إلقاء الخطب والمحاضرات والندوات التي كانت كلها على >>أسلوب الخطبايات المؤثرة في العقول، الحافزة للنفوس، المنبهة للمشاعر على طريقة الترهيب والترغيب >> (3)، وبها أدت هذه النوادي كلها دورها بل >> أكثر مما تؤديه

(1) عبد المالك مرتاض، نهضة الأدب العربي المعاصر في الجزائر، مرجع سابق، ص 42، 43.

(2) سجل جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، مصدر سابق، ص 234-235.

(3) المصدر نفسه، ص 66.

المدارس والمساجد من التربية والتوجيه >> (1) فمنها خرج الشباب إلى المسجد يؤدون حق الله، وإلى ميادين العمل يؤدون واجبات المجتمع مما أحدث ثورة فكرية في الشيوخ والكهول على مستوى المساجد بدروس الوعظ والإرشاد وفي الشباب على مستوى النوادي بالمحاضرات الدينية والاجتماعية والعلمية مما نبّه الإدارة الاستعمارية إليها فاعتبرتها دروسا سياسية فأصدرت قرارات متعدّدة لحرمان النوادي من بعض الامتيازات كبيع القهوة والشاي لأعضائها (2).

وكان هذا القرار الذي لا يستند إلى قانون يقضي بإغلاق هذه النوادي بقطع مواردها المالية التي تقوم على أمان المشروبات التي تقدمها لأعضائها. وهو ما لم يؤثر في الجمعية ولا في الشباب الجزائري فتحدثت القرارات واستمرت في إلقاء المحاضرات فيها على النحو الذي بدأت به.

3- وتجدد الإشارة إلى أن الشعر الفصيح كان دائم الحضور إلى جانب الخطابة، أحيانا وكان يقوم مقام الخطبة أو المحاضرة في اختيار بعض المواضيع التي تطرقها الخطابة عموما. وقد شهدت منصات النوادي الإصلاحية والساحات العمومية، وكذا المدارس المتنوعة إلقاء كثير من القصائد التي كانت تؤدي إلى جانب الخطابة رسالة الإصلاح السلفي وتدخل في صميم الإعلام الشفهي الأصيل وكان الشعراء أو الأدباء يلقون قصائدهم على الناس وينشدونها على الأَشهاد بقصد التأثير فيهم فكريا ووجدانيا على نحو ما تفعله الأجهزة الإعلامية الحديثة.

وتما يميّز شعر الحركة الإصلاحية هو بعده عن الخيال والفرادانية في مضامينه وأغراضه فقد كان واقعا تمام الواقعية، قريبا من الأحداث يتفاعل معها وينفعل لها، وقد عانى من اضطراباتهما، وحمل أصوات الرفض التي تجسدت في النقمة على المحتل وفي التمسك بالتراث والدين.

(1) آثار محمد البشير الإبراهيمي، مصدر سابق، ج4، ص 394.

(2) المصدر نفسه، ص 243-244 بتصرف.

- وقد مرّ الشعر الإصلاحي بالمراحل نفسها التي مرّت بها حركة الإصلاح في الجزائر والتزم شعراء جمعية العلماء -قائدة الإصلاح- برسالتها ومضامينها وأهدافها حيث:
- أ- خصّ شعراء الجمعية معارك كثيرة ضد الفكر المتحجر، وضد الدروشة الطرقية، ودعا إلى اليقظة والعلم، وهاجم الخرافات.
- ب- دعا إلى الفضيلة وحافظ على القيم الأصيلة للجزائريين وعمل على ترسيخ علاقة الجزائري بأرضه وتراثه وتعزيز شعوره بالانتماء إلى الوطن.
- ج- عمل على تأكيد الذات بالتحدي الصريح وبتمجيد السلف الصالح والدعوة إلى رفض الاستعمار والمطالبة بالإصلاح.
- د- بشّر بالحرية والاستقلال وربطه النتائج بمقدماتها.

وقد حرص شعراء الجمعية التزاما منهم برسالتها الإصلاحية دائما -على تحمل مسؤولياتهم التي فرضتها أحداث المرحلة. >> وصبّ مضامين الثقافة الإسلامية في قصائدهم وكافة أعمالهم الشعرية التي كانت مسؤوليتهم المعاصرة والمتصلة >> (1).

وقد كان الحافز المشترك بين شعراء الإصلاح عموما هو الوجود الاستعماري ومظاهر ظلمه والواقع الجزائري المتردي الذي كان يبعث قرائح الشعراء للشكوى والتأمل والأمل، يرصدون الأوضاع السياسية ويتابعون خطوات جمعية العلماء يتفاءلون، فيقرضونها ويغزنون لعوزها المادي والمعنوي فيؤدون دور الدعاية والإشهار والتعبئة لصالح مشاريعها المختلفة التي هي في الحقيقة مشاريع الشعب الجزائري بأكمله ومنجزاته، وما يرتبط بهذا الدور من أغراض مختلفة ومن ثمة تأتي قلة المادة الشعرية في المرحلة الأولى من عمر الجمعية إلى جانب الأمية والجهل وقلة الكفاءات والتي بدأت تزداد يوما بعد يوم مع اتساع المدّ الإصلاحي. وقد أهاب علماء الجمعية في خطبهم ومؤتمراتهم وكذا صحافتهم بالخطباء والشعراء لقرض الشعر ورصد كل الأحداث والأوضاع في الجزائر.

ومن ذلك دعوة المجلس الإداري للمؤتمر الخامس للجمعية بأن يخصص اليوم الرابع

(1) محمد سعيد محمد، المرجع السابق، ص 147.

منه كُله للخطب والقصائد الشعرية، والذي أقره المجلس الإداري وأصبح الاجتماع العام مؤتمرا لتقديم التقارير الإدارية، ومنبرا للخطابة والشعر.

ومن ذلك أيضا اللوم الأحموي الذي وجهه محمد خير الدين في خطبته أثناء المؤتمر الخامس لجمعية العلماء قوله: «> إن من فتور العزائم الذي أصابنا في مبدأ نهضتنا، هذا الفتور الذي عقد ألسنة شعرائنا فهم لا يقولون الشعر إلا في المناسبات كالاتجاهات والاحتفالات، أما الطوارئ التي تتجدد كل يوم والأمراض الاجتماعية والأخلاق المرذولة فهم لا يهتمون بها لذاتها اللهم إلا إذا ذكرت عرضا في اجتماع فخيم، أو مآذبة تكريم..» (1).

ومن ذلك تشجيع الصحافة الإصلاحية للشعراء، بنشر قصائدهم وإنتاجهم الأدبي فيها وجاء العتاب على لسان أحد أعضائها العاملين لكل الأدباء في الجزائر على ضرورة ملء مجلاتهم الجزائرية أولا ثم الكتابة إلى المجلات المشرقية، يقول محمد خير الدين: «> أليس من العار أن تكون عندنا مجلة واحدة مستعدة للنشر ومؤسسة لنشر التراث العلمي والأدب القومي ثم تحتاج في بعض الأحيان إلى ما تنشر.. ونحن أمة تعدد بالملايين ولنا من الأدباء والشعراء عدد غير قليل ولكنهم في مواطن العمل قليلون؟.. والله إنه لعار وأي عار في حين أن الواجب على أديباتنا أن يملأوا مجلاتهم ثم يكتبوا في غيرها من المجلات المشرقية ليرفعوا لبلادهم بذلك ذكرا ويكسبوا لها فخرا» (2).

ويأتي إسم الشاعر "محمد العيد آل خليفة" ليتصدر أسماء شعراء الإصلاح، بل ليتفرد باسم الشاعر من أعضاء "جمعية العلماء"، وقد واكب كل خطوات ونشاطات جمعية العلماء الفكرية منها العلمية والمادية، مادحا، واصفا، راثيا، مرشدا.. الخ (3).

وعموما فقد أدى الشعر الإصلاحي دوره كاملا مواكبا في ذلك خطوات جمعية العلماء فبالإضافة إلى أنه كان يرصد نشاطها، ويقوم بالتعبئة الجماهيرية، والدعاية الإعلامية للجمعية والإصلاح في الجزائر فإنه عمل على:

(1) سجل مؤتمر جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، مصدر سابق، ص 178.

(2) المصدر نفسه، ص 177، 178.

(3) يرجع الرجوع إلى فصل التأليف عند جمعية العلماء المسلمين الجزائريين للاستفاضة حول الشخصية والموضوع.

- أ- الحفاظ على اللغة العربية في الجزائر لغة القرآن الكريم ولغة الإسلام دين الأمة.
- ب- خدمة الوطنية بالحفاظ على أهم مكوناتها ومقوماتها وهي اللغة العربية.
- ج- خدمة القومية العربية بالحفاظ أيضا على أهم العوامل الموحدة بين شعوبها العربية والإسلامية وبالتعبير عن الهمّ العربي المشترك والشامل تحت ظروف القهر الاستعماري المسيحي.
- د- رصد الأوضاع السياسية والاجتماعية والنفسية، فكان أداة فعالة وطيدة للتعبير بصدق ومعاناة عن المحنة الجزائرية فكان متنفسا للشاعر على مستواه الشخصي، ومتنفسا في التعبير عن المعاناة الجماعية للشعب الجزائري.
- وتعتبر الصحافة الإصلاحية الوعاء الأمين للشعر والأدب الإصلاحي الذي يمكن باحثه ودارسه من الإطلاع بعمق وصدق على مختلف الأوضاع الاجتماعية والنفسية ويمكنه بالتالي من الإطلاع على الاتجاهات الحقيقية للأحداث، والاتجاهات الجماهيرية على وجه الخصوص. وفي هذا الإطار، تعد قصيدة "ابن باديس" أفضل تعبير عن تأكيد الذات الجزائرية دينيا وقوميا، وهذا التأكيد الذي نذرت "جمعية العلماء" نفسها له عن طريق رسالتها الإصلاحية التي تعتبرها الدكتورة نور سلمان >> الوجه الآخر للرفض بعد خمود المقاومة المسلحة <<(1).: قال ابن باديس :

شعب الجزائر مسلم	وإلى العروبة ينتسب
من قال حاد عن أصله	أو قال مات فقد كذب
أو رام ادماجا له	رام المحال من الطلب
يا نشء أنت رجاونسا	وبك الصباح قد اقترب
خذ للحياة سلاحها	وحض الخطوب ولا تهب
نحن الأولى عرف الزما	ن قدينا العجم الحسب
ومعين ذلك المسج	د في نسل العروبة ما نضب
من كان يبغى ودنا	فعلى الكرامة والرحب
أو كان يبغى ذلنا	فله المهانة والحرب

(1) نور سلمان، المرجع السابق، ص 191.

هذا نظام حياتنا بالنور خطّ وباللهب(1)

وقد غلبت على شعر الحركة الاصلاحية عموما الخطابية والتحدي الانفعالي كما غلبت على محاضراتها وندواتها ومقالاتها الصحفية والمدفوعة كلّها بدافع التحدي والنشاط الدؤوب لمحاربة كل مكائد الاستعمار ومواجهة قوانينه وقراراته المححفة من جهة ومن جهة أخرى لما كان يتطلبه النشاط الاصلاحى في ظروف العوز والحاجة وضرورة الاستمرار إلى تعبئة مستمرة صبورة وواقعية للجماهير لصالح المشاريع الكبرى التي تعود بالصالح العام على كل الشعب الجزائري.

4- أهمية الخطابة عند جمعية العلماء على المستوى التنظيمي :

من أهداف جمعية العلماء في هذا المجال أن تعلم وتدرّب كثيرا من الكفاءات الاصلاحية وتمرنها على الخطابة في كل المجالات على ضوء مضامينها ومبادئها وأصولها حتى يصبح لها في كل منطقة واعضا خاصا بها، وهذا ما أشار إليه "الابراهيمى" في تعليقه على التقرير الذي تقدم به الشيخ "العربي التبسي" عن الدعوة والارشاد، يقول: «> لم تنفذ الجمعية من أعمالها على الوجه الأكمل إلا هذا العمل وهو الوعظ والإرشاد فمازال رجالها قائمين بهذه المهمة اكمل قيام ومازالت وفودها ورحلاتها تتعاقب وتتجدد لإلقاء دروس الوعظ في المدن والقرى وإن كان عدد الرجال الذين يوظفون بهذا العبء وتوفر فيهم الشروط التي بسّطها الأستاذ التبسي قليلا، وهي ترجو وتعمل لأن ترتب في كل قرية واعضا على منهاجها المعروف وستصل إلى هذه الغاية في أقرب وقت >> (2)

وبالإضافة إلى النوادي والاجتماعات والمناسبات الراقية والطارئة التي كانت تنظمها الجمعية لإلقاء خطبها وقصائدها ومحاضراتها وتنشيط ندواتها فإنها اتبعت نظاما فذا لتعميم هذه المناسبات على كل القطر الجزائري وذلك عن طريق:

(1) هذه الأبيات من قصيدة باثية طويلة (40 بيتا) عنوانها: "تحية المولد الكريم"، ألقيت في حفلة جمعية التربية والتعليم الإسلامية بقسنطينة سنة 1937م: أنظر: الشهاب، ج4، م 12، 11 جوان 1937م، ص 200، 202.

(2) سجل مؤتمر جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، مصدر سابق، ص 154.

أ- وفود الوعظ والارشاد: قرر المجلس الإداري في حياة "ابن باديس" منذ جوان 1935 م قيام رجال من جمعية العلماء بالوعظ والارشاد في أنحاء البلاد. وقد تمّ تعيين تسعة من العلماء لهذه المهمة وأخذ عددهم يزداد كل سنة بتزايد المدد الاصلاحى في أنحاء القطر الجزائري. وبعد وفاة "ابن باديس" رحمه الله وتولى "البشير الابراهيمى" تواصلت هذه الوفود مع كثرة مشاريع الجمعية تفقداً أو تعبئة لإنجاز الجديد منها، ولم يكن في مقدور الرئيس أن يقوم بكل الجولات، فكانت هذه الوفود تقوم مقامه في بعض المناطق.

وانتدب المجلس الإداري لجمعية العلماء >> طائفة مختارة من العلماء العاملين سنة 1954م للتجول في جهات القطر الجزائري. وحدّد لكل منهم منطقة يعمل فيها العمل الجدي المنصر لصالح الجمعية وفائدتها المالية والأدبية >> (1). ويربط المجلس الإداري مستقبل الجمعية بنجاح هذه المهمة مذكراً بنقل مسؤوليتها ومهيباً بكل رؤساء الشعب بتقديم العون الفعال للعلماء حتى تبوء مهمتهم بالنجاح المنتظر، >> وتتحقق غاية الجمعية من نظامها الجديد وتؤكد هذه الرابطة القومية الإسلامية بين رجال الجمعية وبين سائر أفراد الأمة الجزائرية المكافحة >> (2).

والجدير بالذكر أن عدد العلماء بلغ ستاً وأربعين عالماً في كل من قسنطينة والجزائر ووهران أختبروا ليجولوا في أكثر من (235) بين مدينة وقريبة وضاحية وأحراش (3) مما يدل على اتساع رقعة الإصلاح وشموله لكل مناطق الجزائر من جهة ثم على رسمية مهمة الخطابة والأهمية الاستراتيجية التي أولتها الجمعية لها.

ب- وفود الوعظ في شهر رمضان: انتدبت "جمعية العلماء" لإحياء شهر رمضان وعاظها من رجالها ليقوموا بالقاء الدروس العامة والمواعظ الدينية في جميع مراكز الجمعية ومدارسها ومساجدها في سبيل تبليغ الدعوة الصحيحة. وقد جعلت ذلك مهمة

(1) محمد خير الدين، المصدر السابق، ج 1، ص 259.

(2) المكان نفسه.

(4) انظر الملحق رقم 13: قائمة أسماء المعتمدين من رجال الجمعية إلى جهات القطر.

رسمية من مهام علمائها. وقد كانت تنشر القوائم الدقيقة بأسماء العلماء وبأسماء المناطق التي يودون فيها مهامهم تلك.

وتجدر الإشارة إلى أن إحدى قوائمها قد تضمنت :

72 شيخا لعمالة قسنطينة

24 شيخا لعمالة الجزائر

14 شيخا لعمالة وهران (1)

ج- دأبت الجمعية ضمن تشكيلاتها الرسمية لتنظيم كافة أنشطتها إلى تكوين عدة لجان خاصة بمجال الوعظ والارشاد وما يمسه من قريب أو من بعيد منها:

1- لجنة الفتيا الدينية

2- لجنة الوعظ والارشاد

3- لجنة الدعاية

4- لجنة الاتصال بالشعب المنتشرة في القطر.

وكان لكل لجنة لائحة داخلية تحدد اختصاصها زيادة عن اللوائح العامة للجمعية، وترتبط هذه اللجان وغيرها من تشكيلات الجمعية الأخرى إلى مجلس المسؤولين عن المقاطعات الثلاث (قسنطينة، الجزائر، وهران) ومن وراء الجميع الشعب المنتشرة في مدن القطر وقراه، وعددها يزيد على الثلاثمائة شعبة (2).

4- أنواع الخطابة عند جمعية العلماء:

إن تحديد أنواع الخطابة عند جمعية العلماء ينبثق عن حقيقتين أساسيتين في دأب الجمعية في مجال الخطابة خاصة وإن كان دأبها في مختلف وسائلها عموما. ونستخلص ذلك من:

(1) انظر الملحق رقم 14: قائمة الوعاظ لشهر رمضان.

(2) آثار محمد البشير الابراهيمي، مصدر سابق، ج4، ص 232 بتصرف.

يقول الابراهيمى: >> وجمعية العلماء صاحبة رسالة مقررة ومبدأ ثابت وهدف واضح، ومن خصائصها أن تقول وتعمل وتهتم المتداعي لتبني على أساس صحيح، وتسعى إلى الغايات بوسائلها الطبيعية أو المعقولة، وتراعي سنة الله في الأنفس والآفاق، وتجري مع أوليائها وخصومها على الجدد الواضح... ولما كان موضوعها الأمة، بنت أمرها معها على الصدق والثقة تعمل للأمة بصدق، وتعمل معها بثقة، ولما كان الاستعمار هو الذي قضى على دين الأمة الجزائرية وديناها، فقد جاهرته بالعداوة وتبعته في كل ميدان، وفضحت مكابده، وكشفت عن مخازيه وتحذت قوانينه (1).

واضح أن الجمعية قد قسّمت نشاطها إلى : 1- الأمة 2- الاستعمار الفرنسي وهما مرحلتين منطقتين ومتلازمتين، " فموت الأمة " في معاني الحضارة والأصالة واستقلال الذات الشعبية ضمن مقومات الشعب نفسه يلزم منه التمكين للاستعمار والاستمرار لظلمه واستعباده للشعب والقضاء على هذا الاستعمار يقتضي حياة الأمة، أما وأن واقع الشعب الجزائري يشهد على سكون موت وهوة سقوط، وهو الواقع ذاته الذي اقتضى من الجمعية واحتراما منها لمنطق الأمور والأحداث لزوم إحياء الأمة وبعثها أولا ليتسنى لهذه القضاء على الاستعمار إذ من غير المعقول أن يؤت بأمة أخرى أو شعب آخر "حي" ليقضي على الاستعمار.

ولما كانت الخطابة وسيلة للاتصال الواسع بال جماهير العريضة، ومع الشعب بكل طبقاته وفئاته، وهي منبر الجمعية الحر والتنقل، ولما كان منهجها إحياء الأمة الجزائرية ضمن مقوماتها وثوابتها حسب عبارة الجمعية الثلاثية وشعارها الدائم: >> الاسلام ديننا، العربية لغتنا، والجزائر وطننا >>، فإننا ونتيجة لكل ذلك سوف نلاحظ بصمات منهج الجمعية وكذا منطق رؤيتها للأحداث في توجيه مواضيع الخطابة -محاضرات ودروس وندوات ومناقشات- حسب الترتيب التالي :

1- الخطبة الدينية والإجتماعية

2- الخطبة الرسمية والتقارير الإدارية

3- الخطبة السياسية

(1) آثار محمد البشير الابراهيمى، مصدر سابق، ج4، ص 230.

1- الخطبة الدينية : وهي « التي تعتمد على تعاليم الدين أو تلقى لغرض من أغراضه وتشمل الخطبة المنبرية التي تلقى في الجمع والأعياد ويوم الحج وعند صلاة الاستسقاء. كما تشمل المواعظ والخطب التي تلقى في المجتمعات الدينية آيا كانت. . . وتستند هذه الخطبة في معانيها وأغراضها إلى الدين وتستشهد بالآيات القرآنية والأحاديث النبوية»(1).. وتعرض الخطبة الدينية « إلى مختلف المواضيع والقضايا لكنها تربط كل ذلك بالجزء الأخرى وتحذّر من الحساب على الأعمال وتذكّر بالوقوف أمام الله تعالى»(2).

ويأتي هذا النوع من الخطابة على رأس الأنواع الأخرى كثافة واستمرارا عند جمعية العلماء ويرتبط بفترة التعبئة الجماهيرية الواسعة التي تقتضي التركيز والتكرار والتنويع مع ترسيخ المضامين بالأسلوب المؤثر الذي يحقق الإقناع والاستمالة، بالإضافة إلى أكثر من عشر سنوات قضاهها علماء الجمعية على منابر المساجد، وانتهت بجولات عديدة وطويلة إلى كثير من مناطق الوطن تضاف إليها مرحلة الترسيم وما بعدها التي تلخص عند الجمعية في استرجاع الذات في مقرّماتها ومكوّناتها للشعب الجزائري.

وقد ركزت الخطبة الدينية على إحياء الشعور بالانتماء وتعميق الإحساس به واقعا وذلك عن طريق المواضيع التي تربط حاضر الأمة بماضيها وأمجادها من حيث انتمائها إلى الدين الإسلامي الحنيف الذي أكمله الله تعالى وارتضاه لعباده فختم به الأديان وختم به صلى الله عليه وسلام الرسل والأنبياء، وجعل كماله في كمال أحكامه من عبادات ومعاملات وآداب، وكمال أخلاقه الفاضلة التي تمثلها الرسول صلى الله عليه وسلم في حياته الكريمة فكان القدوة وكان الإسوة للمؤمنين من بعده والذين كانوا بها قادة وسادة العالم، ومن ثمة فإن مضامين الخطبة الدينية لم تخرج عن الدعوة بالقرآن الكريم إلى العودة إلى القرآن الكريم، كتاب الإسلام.

ولأمر ما كانت تقررير الصحافة الإصلاحية تلخص دروس ابن باديس ومحاضراته وخطبه في الجماهير في أنه « كان يبين لهم حقيقة الإسلام.. مما يشعروهم بأنفسهم ومن

(1) عبد الجليل شلي، المرجع السابق، ص 108 .

(2) المرجع نفسه ، ص 109.

هم <<(1)، وهي العبارة التي تعني الكثير للشعب الجزائري المسلم والتي ترتبط بماضيه الحقيقي البعيد كل البعد عن الماضي الذي أرادته له فرنسا وتدخّل تحت هذا النوع من الخطابة:

1- دروس مجالس التذكير: تفسير القرآن الكريم الذي أكمله ابن باديس في مدة خمس وعشرين سنة وتمّ احتفال ختمه في سنة 1938م(*) وقد جعل الإبراهيمي يوم ختمه والاحتفال به يوماً للقرآن الكريم ويوماً لتكفير الجزائريين عن ذنوبهم وإنابتهم إلى الله لتستأنف الجزائر نموها من جديد تحقيقاً لآمالها السامية. يقول في خطبته بالمناسبة:

أيها الإخوان :

إن يومكم الذي نتحدث عنه هو اليوم الأغر المحجل في تاريخ الجزائر الحديث.. هذا هو اليوم الذي يجب أن نؤرخ له في الطور الجديد من أطوار نهضتنا العلمية والدينية، وتؤرخ به لمبدأ ازدهارها وإثمارها، ونموها وإبداها.

هذا هو اليوم الذي التقت فيه الأمة حول دينها ولغتها، فأثبتت أنها أمة مسلمة عربية يأبى لها دينها أن تلين فيه للعاجم، وتأبى لها عربيتها أن تدين فيه للأعاجم، هذا هو اليوم الذي تعلن فيه هذه الأمة إنابتها إلى ربها، وتكفيرها عن ذنوبها، ورجوعها إلى الله رجوع عبد وبقته جرائره، وافتضحت سرائره، وانقطعت أوصاره، وعز مغيبته وناصره، وظنّ أن لا ملجأ من الله إلا إليه، فرجع على الطريق التي منها هرب، فإن هروب هذه الأمة من الله هو تفلتها من كتابه وبعدها عن هدايته، والتماسها الوصول إليه عن غير طريقة، فضلت وتاهت قرونا، وهاهي ذي تفيء إلى الله على طريق كتابه وسنة أصحابه، وعسى هادي الحائرين أن يعود عليها بعوائد برّه وإحسانه <<(2) إلى أن يقول:

أيها الإخوان :

إن الأمة الإسلامية التي يقرأ الناس أخبارها في التاريخ فيقرعون المدهش المعجب،

(1) آثار الامام عبد الحميد بن باديس، مصدر سابق، ج4، بتصرف. ص 274.

(*) تمّ الاحتفال بذلك في قسنطينة في: 13 ربيع الثاني 1957هـ الموافق ل: جوان 1938م.

(2) عبد الحميد بن باديس، مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير، مصدر سابق، ص 467.

ويرى الناس آثارها في العلم والتشريع، والأدب والحكمة فيرون الطراز العالي البارِع، فيستوي المحب والمبغض في الاعتراف بأن أمة هذه أخبارها، وهذه آثارها هي الأمة حق الأمة - إن تلك الأمة ما كانت أمة بذلك المعنى وتلك الأوصاف إلا بالقرآن.

فالقرآن هو الذي رباها وأدبها وزكّى منها النفوس، وصفّى القرائح، وأذكى الفطن، وجلا المواهب، وأرهب العزائم، وهذب الأفكار، وأعلى الهمم، واستفزز الشواعر، واستثار القوى، وصقل الملكات، وقوى الإرادات، ومكّن للخير في النفوس، وغرس الإيمان في الأئدة، وملاّ القلوب بالرحمة، وحفّز الأيدي للعمل النافع، والأرجل للسعي المشمر. ثم ساق هذه القوى على ما في الأرض من شرّ وباطل وفساد وباطل فطهرها منه تطهيراً، وعمرها بالخير والحق والصلاح تعميراً.

أيها الاخوة :

قارنوا بين هذه الأمة الاسلامية المطوية في بطن الأرض وفي بطون الكتب - وبين هذه الأمة الاسلامية التي تدب على وجه الأرض تجددوا الفرق بعيدا جداء، ووجوه الشبه مفقودة البثّة، مع وجود الاشتراك في الأسم والنسبة، ثم التمسوا السبب تجدوه قريبا منكم، وما هو إلا هذا القرآن، أقامه الأولون وجمعوا عليه قلوبهم، وراضوا نفوسهم على أخلاقه فعلمهم الإيمان والأمان والإحسان، واتخذة الآخرون مهجورا فحقت عليهم كلمة الله في أمثالهم، فمن لي بمن يرسلها في مسلمي الدعوة والعصية صيحة داوية يأهل القرآن لستم على شيء حتى تقيموا القرآن؟.... (1)

* شرح أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم بختم "الموطأ": الذي أقيم بمناسبة حفل ديني كبير أقيمت فيه الخطب والقصائد العربية، ومما جاء في خطب المناسبة حول دروس الحديث الشريف ما يلي: خطاب الشيخ محمد الجيلالي بن محمد الذي جعل دواء الأمة الجزائرية التي تكمن علتها في أنها >> قد عشعشت في أذهانها البدع وامتصت قوتها العقلية أدواء الجهل والتهمت حرياتنا سلطات المستبد، وأنقلت عاتقها فوادح

(1) عبد الحميد بن باديس، مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير، مصدر سابق، ص 469.

الخطوب هو في معالجتها بكتاب الله وسنة رسول صلى الله عليه وسلم» (1)، ويقول :
 وقد ظهرت على الأمة الجزائرية والحمد لله علامم الشفاء وبوادر الصّحة بعدما قضى هذا
 الحكيم (2) في معالجتها بكتاب الله وسنة رسوله ردحا من الدّهر في بذل جهده وروحه،
يبتّع الأعداء ويتقصّاهم في كل محاضرة وفي كل قرية، في كل سهل وفي كل جبل. يقتل
البدعة ويحى السنة، يطارد الجهل ويحارب الأمة، يميت اليأس من النفوس ويبعث فيها
الأمل، يقشّي البلدة أو القرية وقلوب أهلها متفرقة وأهواؤها متشاكسة وآراؤها متضاربة
فلا يرحمها إلا والقلوب مجتمعة، والأهواء متحدة، والآراء متعاضدة، شعارها الوحيد قوله
حلّ شأنه ﴿ فَإِنَّ تَدَاوُعَهُمْ فِيهِ مَقْرُونَةٌ فَرَفُوهَ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ ﴾ (2).

ويقول : ولعلّ أبلغ الظواهر دلالة على يقظة الأمة وتفشي روح النهوض في أفكار
 أبنائها وسريان الهداية النبوية فيها: ذلك التطوّر الفكري الذي نراه يزداد يوما فيوما بالرغم
من العراقيل المنصوبة في سبيله والسدود المضروبة لابقافه، ولكنه تيار إلهي قوي فاض
على النفوس لا يمكن ايقافه، إن الله بالغ أمره... ولو كره الكافرون.

فختم كتاب الله وسنة رسول الله في هذه الديار التي حلّ فيها الطارئ محلّ
 الأصلي، والسّالب محلّ الكاسب، والدخيل محلّ الأصيل، على ضرب من الأسلوب
يشرح بحق، فصول الحياة المعقدة للأمة ويوضح لها مناهج السلوك ويأخذ بيدها في طريق
لاحب وصراط سوي، وهو يحتم مؤذن يحتم عصر الجمود والركود وأقبال عصر النهوض
والتقدم» (3).

يقول ابن باديس في درس عنوانه "اتحاد المؤمنين وتعاونهم"، اختار له قوله صلى

(1) عبد الحميد بن باديس، مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير، مصدر سابق، ص 330،

(2) المقصود به هو "الشيخ عبد الحميد بن باديس" رحمه الله.

(2) النساء 59.

(3) عبد الحميد بن باديس، مجالس التذكير من حديث البشر الندير، مصدر سابق، ص 330-331.

الله عليه وسلّم: « المؤمن للمؤمن كالبنيان المرصوص يشدّ بعضه بعضاً » (1).

ألا ترى البنيان كيف يتركب من الحجارة الكبيرة والحجارة الصغيرة، والمواد الأخرى التي تلحم الحجارة وتكسي، وكل ذلك محتاج إليه في تشييد البنيان، فكذلك بنيان المؤمنين متكوّن من جميع أفرادهم، على اختلاف طبقاتهم، فالكبير والجليل له مكانه، والصغير والحقير له مكانه، وعلى كلّ واحد أن يسدّ الثغرة التي من ناحيته، مع شعوره بارتباطه مع غيره من جميع أجزاء البنيان التي لا غناء لها عنه، كما لا غناء له عن كل واحد منها، فكل واحد من المؤمنين عليه تبعته بمقدار المركز الذي هو فيه، والقدرة التي عنده، ولا يجوز لأحد وإن كان أحقر حقير أن يخلّ بواجبه من ناحيته. فإنه إذا أزيل حجر صغير من بنيان كبير دخل فيه الخلل بمقدار ما أزيل. وإذا ابتداء الخلل من الصغير تطرّق للكبير.. إلى أن يقول فكذلك المؤمنون باتحادهم وفيهم القوي وفيهم الضعيف تكون لهم قوة عامة زائدة وكل واحد منهم بمفرده يمكن قهره فأما إذا اتحدوا فإنهم يكونون بقوة اتحادهم في مأمّن من كل قهر» (2).

* دروس في نماذج من رجال السلف ونسائه: الذي يتم اختيارهم لدلالات خاصة وتدخّل كل منها تحت هدف التعبئة وتحريك العواطف والهمم عن طريق التربية بالقدوة والمثل الأعلى ثم الإعداد لمرحلة حاسمة آتية (*).

* دروس في نماذج من شخصيات إسلامية وتاريخية: اشتهرت في ميدان من الميادين ويتم اختيارها في مناسبات مختلفة فتكون رمزا للمناسبة، كشخصيات إسلامية جاهدت الاستعمار الصليبي وانتصرت بقوة الايمان والصبر، إلى شخصيات في مجال الثقافة والفكر، إلى شخصيات عرفت في مجال الاصلاح والنهضة.. الخ (*).

(1) أخرجه مسلم، كتاب: البر والصلة والآداب، باب: 17. (لبنان ، دار التراث العربي، ط 2، 1972م)، ص 1999. - والبخاري: كتاب المظالم، باب: نصر المظلوم.

وانظر ابن حجر العسقلاني، المرجع السابق، ج 5، ص 75.

(2) عبد الحميد بن باديس، مجالس التذكير من حديث البشير النذير، مصدر سابق، ص 100-101.

(*) يرجى الرجوع إلى نماذج من تلك الدروس في فصل الاتصال عن طريق التعليم المسجدي.

* دروس ومحاضرات في القصص الديني: التي يتعرض فيها إلى حياة الأمم البائدة وموقفهم من الأنبياء والرسل المبعوثين فيهم، وسنة الله في معاملة المؤمنين والكافرين من حيث الجزاء بالعقاب أو الثواب وتقديم العبرة المناسبة لكل مقام تنبيهها للجزائريين وربطها لحقيقة الأسباب بحقيقة النتائج.

2- دروس ومحاضرات وخطب وندوات ومناقشات الرحلات والجولات

التفقدية: وتدخل هذه تحت مفهوم الخطبة الاجتماعية التي يعرفها الدكتور عبد الجليل شلبي: والتي تلقى في موضوع يهم المجتمع ويعود إليه ببعض الفوائد، ومن أمثله أن يدعو الخطيب إلى إنشاء مدرسة أو ناد أو إقامة جسر.. الخ <<(1).

فمنذ سنة 1929 م تاريخ الجولة البادية الأولى، التي تبعتها رحلات كثيرة وشملت دروس هذه الرحلات بداية من الأشهر بالجمعية والتعريف بأصولها، وفائدة الأمة منها، إلى التعبئة الواسعة لصالح مشاريع التعليم الكبرى من الدعوة إلى بناء المدارس، والمساجد، والنوادي، إلى إنشاء شعب للجمعية تشرف بنفسها على إنشاء المدارس والمساجد والنوادي، وتوجه الجهود نحو المصلحة العامة، إلى تتبع الآفات الاجتماعية التي لها علاقة مباشرة بأحكام الإسلام وحدوده، فساهمت الخطابة في شرح أضرارها وبيان فائدة الابتعاد عنها، فكانت جولة 16 ماي 1934م مثلاً مناقشة لبدعة الجنائز والأضرار المترتبة عنها في منطقة "التلاغمة" نبه ابن باديس إلى أضرارها المادية من تبذير للأموال التي كان السكان أحوج ما يكونون لها، وأضرارها الأدبية في مخالفة أحكام الشريعة الفراء (2)، وتكفلت جولة جوان 1934م بمظاهر الانحلال الأخلاقي في سطيف وإرهاصات التغيير والدعوة إلى التعلّم والعلم بالإقبال والإنفاق (3).

(1) عبد الجليل شلبي، المرجع السابق، ص 91.

(2) آثار الإمام عبد الحميد بن باديس، مصدر سابق، ج4، ص 273. وقد نشرت مجريات هذه الرحلة في مجلة الشهاب، ج6، م 10، غرة صفر 1353 هـ - 16 ماي 1934م.

(3) المصدر نفسه، ص 288. وقد نشرت مجريات هذه الرحلة في مجلة الشهاب، ج7، م 10، غرة ربيع الأول 1353هـ - 14 جوان 1934م.

3- الأسئلة العامة في المجالس الخاصة والاجتماعات العامة: وقد كانت تلقيها الجماهير إلى العلماء استفسارا أو استفتاء، وتشمل المناقشات الدينية، التي كانت تدور بين علماء الجمعية وبعض ممثلي الإدارة الاسعمارية في مكاتب الإدارة والتي تتعرض إلى أمور العقائد والأديان واللغات والفضائل ومختلف العلوم. وقد كان يحضرها فرنسيون -وحتى يهود- ممن يهتمون بالعلم كالمستشرقين، أو إداريين فحسب بغية المعرفة (*).

ب- الخطبة الرسمية والتقارير الإدارية: ويمكن نعتها أيضا بالمؤتمرات الرسمية التي كانت تعقدها الجمعية مرة كل سنة جريا على قانونها الإداري لتعرض فيها تقاريرها حول ما قامت به من مشاريع، فتقيم الإنجازات وتخطط على ضوئها لكل عام بحسب احتياجات كل منطقة على حدة، وحاجة الوطن عامة، ثم حسب برنامج رسالة الإصلاح في الجزائر تحت توجيهها وإدارتها، ومن ثمة فيمكن تحديد مكان هذه الخطابة بالمقر الرسمي للجمعية "نادي الترقى" أولا ثم مقر الجمعية الثاني وتحديد مناسباتها "بالاجتماع العام" الذي أصبح يسمى منذ الاجتماع الخامس "بمؤتمر الجمعية"، وما يلاحظ على هذه الخطب:

- 1- دقة تنظيمها وصفحتها العلمية المبنية على ذكر المناطق، والقوائم والأرقام التي افتقرت إليها المؤتمرات الأولى للجمعية فتداركت ذلك في بقية مؤتمراتها.
- 2- اختصاص أعضاء الجمعية الإداريين خاصة والعاملين على وجه العموم ورؤساء شعبها في إلقائها دون غيرهم.
- 3- في أنها لسان حال جمعية العلماء المسلمين الجزائريين.

4- شموليتها لكونها تمثل مختلف مناطق القطر وبالتالي للأمة الجزائرية عامة بكل فئاتها وخاصة الجماهير الواسعة التي تميزها الأمية والفقر، فالجمعية إنما استهدفت التعامل مع هذه الفئة التي لا يمثلها أحد في إيصال صوتها أو السماع إليه. فكان صوت الخطابة هو صوت الجماهير المعبر عن آمالها وآلامها ومن ثمة متابعتها بالتقرير والتحليل واقتراح الحلول. وهو ما يطبع هذه الخطب بـ "الوطنية" المحدودة بحدود القطر الجزائري.

(* انظر بحريات الرحلتين السابقتين في: آثار الإمام عبد الحميد بن باديس، مصدر سابق، ص 267 و 305.

وينبع حرص الجمعية على تنظيمها لهذه المؤتمرات وبالتالي هذه الخطب الرسمية من أن «الجمعية تقول وتعمل وتهدم المتداعي لتبني على أساس صحيح» (1). وبعبارة أخرى فهي توعي وتمت وتعلم نظريا وتبني المدارس والمساجد والنوادي وتجمع الجزائريين فيها وحوّلها ميدانيا، ثم هي تهدم البدع والآفات الاجتماعية التي عرفها المجتمع من جراء الجهل بالدين والأمية في العلم، كما تهدم الأكاذيب التي تبنيها مخططات الاستعمار في النفوس والعقول وكذا الطرقية، لتبني من جديد لكن بناء على أساس صحيح من كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم.

يقول الابراهيمى : والعلاقة بين الجمعية والأمة علاقة روحية، ولذلك فهي تزداد مع كل حادث قوة وتماسكا، لأن أول الدين وآخره سواء، وزاد هذه العلاقة متانة وتوثقا أن الجمعية تعمل للأمة في النهار الضاحي وتعاملها على المكشوف، تبني لها قبل أن تطالبها بالثمن، وتشركها في العمل. فالأمة هي التي تأخذ وهي التي تعطي، ويد الأمة هي التي تقبض وهي التي تدفع. فإذا مرّ شيء من المال بيد الجمعية مرّ عليها وهو منطلق إلى مصلحة شاركت الأمة الرأي المقرر لها والوسيلة المتحققة لوجودها» (2) (*).

ولم تكن الجمعية تتعامل مع الأمة على أساس اشتراكها في العمل إنفاقا على المشاريع المختلفة وتسّلما للإنجازات وإنما كانت تطالب مثقفها بتقديم الاقتراحات المختلفة وفي كافة المجالات بغية اشتراكها في التفكير لصالح الأمة إزاء قضاياها المصيرية وخاصة مستقبلها مع الاستعمار. وتعميما للفائدة، وتأمينا لتاريخ الأمة الجزائرية، وتاريخنا للنهضة الاصلاحية العميقة وحركة ونشاط الجزائريين.

وقد حرصت صحافة جمعية العلماء على نقل بحريات المؤتمرات بكل أمانة ونشر خطبها، وتقاريرها، وكذا فصائد شعرائها وكل ما يتعلق بها من أحداث ومناقشات وحفلات..

(1) آثار محمد البشير الابراهيمى، مصدر سابق، ج4، ص 230.

(2) المصدر نفسه، ص 231.

(*) تسطير مقصود من الباحثة.

الح. وبالتالي فإن الجمعية كانت تخاطب الأمة بلغة المنجزات المتزايدة، وبالثمار الكثيرة في مختلف الميادين، فتشهدنا على ملامح التغيير الأكيد والأصيل في النفوس والعقول بما يبعث في الأمة الأمل ويؤكد لديها التفاؤل بمستقبل الاستقلال والحرية. فكلما سدّت ثغرة من ثغرات الضعف في الأمة الجزائرية فتحت بها هوة وخندقاً في قوة الاحتلال. وكلما اتحدت حول مصيرها كلما ضاقت عمر الاستعمار فيها.

وقد شهد المؤتمر الخامس لجمعية العلماء الذي انعقد ببنادي الترقى سنة 1935م مثلاً ما يلي من التقارير والخطب:

- 1- التقرير الأدبي: للأستاذ عبد الحميد بن باديس
- 2- التقرير المالي: للأستاذ مبارك بن محمد الميللي
- 3- تقرير عن الأمية للأستاذ محمد البشير الإبراهيمي (*)
- 4- تقرير عن التعليم المسجدي: للأستاذ عبد الحميد بن باديس
- 5- تقرير عن التعليم المكتبي: للأستاذ محمد بن العابد
- 6- تقرير ثان في الموضوع: للأستاذ باعزيز بن عمر
- 7- تقرير ثالث عن التعليم المكتبي للأستاذ مصطفى بن حلوش
- 8- تقرير في كيفية الدعوة والإرشاد للأستاذ العربي التبسي
- 9- محاضرة في الصرف المالي للأستاذ مبارك بن محمد الميللي
- 10- خطبة: للأستاذ محمد خير الدين
- 11- خطبة: للشيخ أبي اليقضان
- 12- خطبة: للشيخ حمزة بوكوشة
- 13- خطبة: للشيخ مصطفى حلوش
- 14- خطبة: للشيخ باعزيز بن عمر
- 15- خطبة: للشيخ فرحات الدراجي

(*) كان كل تقرير يلحق باستخراج للنقاط العلمية التي وردت فيه بتلخيص أمين لأهم المنجزات وتوجيه لأهم المشاريع من المقترحات العملية.

- 16- خطبة: للشيخ علي المغربي الفرفاري
- 17- خطبة: للشيخ السعيد الصالحي
- 18- خطبة: للشيخ بلقاسم بن رواق
- 19- خطبة: للشيخ رابع بن الأخضر السطايفي
- 20- خطبة: للشيخ ح.م (*)
- 21- خطبة: الشيخ علي بن سعد القماري
- 22- خطبة: الشيخ محمد بن صالح بن منصور
- 23- خطبة: الفضيل الورتيلاني
- 24- قصيدة: للشيخ أبي اليقضان
- 25- قصيدة: للشيخ عمر بن البسكري
- 26- خطبة: الشيخ السعيد بن عمر الفنزاتي
- 27- قصيدة: سعيد الصالحي
- 28- خطبة: الشيخ ناصر بن ناصر
- 29- قصيدة الشاعر: الشيخ محمد العيد
- 30- قصيدة الأستاذ: محمد السعيد الزاهري
- 31- خطبة: الشيخ محمد ابراهيم الكتاني

إن القارئ لهذه التقارير والخطب المختلفة، والمتعمق في أبعادها آخذاً بعين الاعتبار الوضع الجزائري، وسلطة الاحتلال. ليلحظ بوضوح تام حركة استقلال ذاتية بطيئة لكنها أكيدة وراسخة وهو تماماً ما استهدفته جمعية العلماء. ويلاحظ بدقة معالم تلك الحركة في وجود حكومة تامة بوزاراتها وإطاراتها ومختلف الميادين، خاصة في ناحية مخاطبة الأمة بلغة المشاريع والمنجزات، وقد وضع لدينا ذلك في ميدان التعليم، والشؤون الدينية، والناحية المادية الاقتصادية من جهة، ثم إعداد الجمعية للكفاءات والإطارات بالتعليم

(*) انظر سجل مؤتمر جمعية العلماء المسلمين، مصدر سابق، والمتضمن لكل التقارير، والخطب التي تضمنها المؤتمر السنوي الخامس سنة 1935م، وانظر أيضاً: جريدة البصائر التي تابعت بالنشر كل تقارير وخطب الاجتماع العام للجمعية سنة 1936م، بداية من عددها المؤرخ يوم الجمعة 16 رجب 1355 هـ الموافق لـ 2 أكتوبر 1936م.

والتربية والتوجيه ككل في ميدانه بما يطبعهم بطابع المسؤولية، والحرص على مصالح الجزائريين ومصالح الوطن من جهة أخرى، وهو ما بينه الأبراهيمي في أحد تصريحاته «بأن الجزائر ما عرفت قيادة روحية رشيدة قبل جمعية العلماء، وكل ما جاء بعدها من الحركات السياسية المحضة فهو في الدرجة الثانية من الاعتبار وفي آخر الدرجات من التأثير» (1). ويعلل سبب انزعاج الدولة الفرنسية من جمعية العلماء في أن الجمعية «حركة للعقول وللمدارس التي تربي العقول وأنها تعنى بالتربية والتعليم والتكوين والإعداد. وأنها تبني النتائج على مقدمات صحيحة. وأن الغاية الطبيعية لعملها هي إيجاد أمة تعرف كيف تطالب وومن تطالب وبماذا تطالب ثم تصر على المطالبة وتعرف كيف تأخذ وكيف تحافظ على ما أخذت ولا تنكس في مرحلة من مراحلها ولا تنتكس ولا تسامح لأنها تفكر وتقدر ولا يزعج الاستعمار شيء مثل الإعداد والتربية والرجوع إلى منابع القوة والعزة من دين ولغة وتاريخ ولذلك نراه يعمد إلى مقومات الأمم بالتشويه والمسخ والطمس حتى تنسى الأمة مقوماتها فيسهل عليه ابتلاعها والقضاء عليها وهكذا فعل بالجزائر منذ احتلالها» (2).

والجمعية بهذه التقارير وهذه الخطب تعمل على تذكير دائم ومتكرر ومتجدد في كل عام للأمة الجزائرية بكل مقوماتها كيف ضاعت وما هو سبيل استرجاعها، وما استرجع منها ونتائج ذلك... فهي العين الغيورة الساهرة على مصالح الأمة من الضياع والحريصة على خدمتها وتنميتها.

ج- الخطبة السياسية :

تعرف الخطبة السياسية بأنها الخطبة التي توجه حكومة الدولة إلى وجهة معينة سواء في علاقاتها الخارجية أو أعمالها الداخلية، تستعرض فيها أحوال الدولة وما يجب أن عمله للنهوض بأبنائها ورغاباتهم، وكذا ما يجب أن تنتهجه في الحروب أو تتحاشاه

(1) آثار محمد البشير الأبراهيمي، مصدر سابق، ج4، ص 171.

(2) المصدر نفسه، ص 172.

وغيرها» (1). وهذا تعريف في الظروف العادية لكن في الوضع الذي وجدت فيه جمعية العلماء وافتقارها نفسها إلى الحصانة والقوة التي تضمن لها الحياة والاستمرار فإن خطبها في هذا المجال تخضع لمعطيات معينة لا ينبغي لها أن تتعداها خاصة وأن الإدارة الفرنسية كانت تستغل كل الذرائع لتصدر قرارا بإغلاقها كما كان الأمر بالنسبة لجزائرها ومدارسها ومساجدها ونواديها وكذا قرارات نفي أعضائها ومنعهم من التدريس والوعظ والإرشاد ومن ثمّة سوف نلاحظ أن الخطبة السياسية عند جمعية العلماء كانت تتماشى مع مراحل وأولويات أنشطتها، ومدى رسوخ سمعتها بين أوساط الجزائريين، وكذا نوعية الحكومات الفرنسية المتتابة وحتى الظروف العالمية المحيطة والتي كانت تطلب منها حسب كل وضع المرونة والحذر، أو المسألة المدروسة، فالمصارحة والجرأة. وتتلخّص السياسة عند جمعية العلماء في: "إيجاد أمة تعرف كيف تطالب وممن تطالب، وماذا تطالب، ثم تصرّ على المطالبة، وتعرف كيف تأخذ وكيف تحافظ على ما أخذت" (2) ويفهم من هذا التعبير أن النشاط السياسي للجمعية يمرّ عبر ثلاث مراحل:

- 1- مرحلة المقاومة السياسية: وهي مرحلة المطالبة السلمية للحقوق المدنية، والاجتماعية والسياسية، التي تلخصها مقومات أي شعب من الشعوب، ويكمن ذلك في تعليم الأمة: كيف تطالب، وماذا تطالب. وممن تطالب، ثم كيف تصرّ على المطالبة.
- 2- مرحلة الثورة المسلحة: مرحلة القوة واسترداد ما سلب، بتلقين الأمة كيف تأخذ حقّها في الحياة حين تفشل طرق المطالبة السلمية.
- 3- مرحلة الاستقلال: مرحلة العودة إلى الذات من جديد، وهذا تلقين الأمة كيف تحافظ على ما أخذت.

فقد كانت سنة 1930 م سنة للاحتفال "بجنازة الإسلام في الجزائر" كما قالها أحد أقطاب السياسة الاستعمارية آنذاك، الذي علم كما يعلم كل عاقل بأن جنازة الشعوب إنما بجنازة مقوماتها، وقد كفاه الإسلام عن التعبير عن كل المقومات، إذ أنه هو دين الأمة

(1) عبد الحليل شلبي، المرجع السابق، ص 79

(2) آثار محمد البشير الإبراهيمي، مصدر سابق، ج4، ص 172.

الجزائرية، ولفته هي لغتها، وكتابه هو كتابها ومصدر قوتها. وقد أراد علماء الاصلاح أن تكون ذات السنة هي بداية النهاية للاستعمار الفرنسي وأهدافه، ومن ثمة كانت انطلاقة النشاط الرسمي لجمعية العلماء سنة 1931 م.

وكما عمدت فرنسا إلى مقومات الشعب الجزائري بالحو والطمس والتشويه حتى أتت عليها أو كادت فأقبرته بإقبارها، ثم نادى "بادماجه" في الشعب الفرنسي لسهوله أمر ذلك يومئذ وبرهن علماء فرنسا وعقولها أنهم يعلمون طبائع الشعوب وسنن الأنفس والآفاق فنوا حططهم على ضوئها وعضدوها بالقوة والظلم، فكان لهم ما حططوا. وكانت تلك سياستهم حسب مفهومهم، وقد عمدت جمعية العلماء إلى مقومات الشعب الجزائري بالبعث والإحياء والترسيخ حتى بعثتها قوية كما كانت أو أكثر فأحيت الشعب بإحيائها وأعدته لينفصل طبيعيا عن فرنسا. وقد أعدت أسباب ذلك . فقد بعثت شعبا يعرف من هو، ملتزما بدينه لا يرضى عنه بديلا معبرا بلغته مفتخرا بعروبته، يعرف حدود وطنه متمسك بها ويعمل للحفاظ عليها إذا ما توفرت له الوسائل، فكانت تلك سياستها حسب مفهومها. منذ أن بدأت جمعية العلماء فكرة ثم أصبحت حقيقة، وإذا أكدت في كثير من المناسبات بأنها جمعية دينية علمية فإنها تركت معاني تركها للسياسة إلى فطانة وقرائح الجزائريين المتتورين في ذلك الوقت والذين يمتنون الثقافة والفكر والقلم، فهل يعرف الجاهل ماذا يطالب وكيف يطالب، ومن يطالب؟.

وهل يبقى من صفة "شعب" لشعب ماتت مقوماته واحمت إلا أن يدمج في الشعب القوي الغالب وتلاشى معالمه بالذوبان فيه؟.

يقول ابن باديس في تعريف "الجنسية القومية والجنسية السياسية": "أن الجنسية السياسية -لأي شعب- هي أن يكون لشعب ما لشعب آخر من حقوق مدنية واجتماعية وسياسية مثل ما كان عليه مثل ما على الآخر من واجبات اشتركا في القيام بها لظروف ومصالح ربطت ما بينهما.

ومن الممكن أن يدوم الاتحاد بين شعبين مختلفين في الجنسية القومية إذا تناصفا وتخالصا فيما ارتبطا به من الجنسية السياسية التي قضت بها الظروف واقتضتها المصلحة المشتركة. ويقول: «فإذا لم يرتبطا بالجنسية السياسية فلا بد لهما -مهما طال الأمد- من

أحد أمرين: إما أن يندمج أضعفهما في أقواهما بانسلاخه من مقوماته ومميزاته فيندمج من الوجود، وإما أن يبقى الضعيف محافظاً على مقوماته ومميزاته فيؤول أمره -ولا بد- إلى الانفصال» (1).

فإذا سلمنا بأن نشاط جمعية العلماء كان كله مبني على خطة مدروسة، وبنيت فيها النتائج على المقدمات، ثم سلمنا بأن تلك الخطة تسن المراحل وتحترم الأولويات فهمنا بأن الجمعية كانت في كل ذلك تتحايل على الاسعمار قولاً: بأنها غير سياسية حذراً وتلمساً للثقة وضمناً للاستمرار ثم هي تسابق الزمن لبعث الشعب الجزائري بكل الوسائل عملاً وتحقيقاً لغاية واحدة: تحرره واستقلاله.

يقول "الابراهيمي": لقد جاهرنا الحكومة الفرنسية مراراً بأن هذه القضية -قضية فصل الدين - دينية محضة فلتنقض يدها ولتبقى المجال خالصاً لسياستها معنا ومع سياستها، فأما إذا أبت إلا أن تجعل ديننا جزءاً من سياستها فسننتقل معها إلى الميدان الذي أرادته واختارته لنفسها ولنا، وسنقود ككاتب السياسة في أضيق مجالها جالبة علينا ما جلبت وسوف تجدنا - إن شاء الله عند سوء ظنها وسوف تجدنا - كما عرفتنا - حيث تكره لا حيث تحب وسوف نعلمها فقهاً جديداً وهو أن أرض الجزائر حتى سجونها مساجد لإقامة الصلوات وأن كل عود فيها حتى المشائق منابر خطبة ومطية خطب، وأن كل صخرة فيها مئذنة ينبعث منها (الله أكبر) وسوف يريها بنا أن عاقبة المعتدي على الإسلام وخيمة» (2). ثم يوضح مفهوم الجمعية في تناولها للسياسة فيقول:

>> 1- نحن سياسيون منذ خلقنا لأننا مسلمون منذ نشأنا، وما الإسلام الصحيح بجميع مظاهره إلا السياسية في أشرف مظاهرها، وما المسلم الصحيح إلا المرشح الإلهي لتسيير دفتها أو لترجيح كفتها، فإذا نام النائمون منا حتى سلبت منهم القيادة ثم نزعنا منهم السيادة فنحن إن شاء الله كفارة الذنب وحبل الطنب.

(1) عمار الطالبي، المرجع السابق، ج3، ص 352. (تقلاً عن الشهاب).

(2) آثار محمد البشير الإبراهيمي، مصدر سابق، ج4، ص 277.

2- نحن سياسيون طبعاً وجبلة، ونحن الذين أيقضنا الشعور بهذا الحق الإلهي المسلوب، فما سار سائر في السياسة إلا على هدانا وما ارتفعت فيها إلا وكانت صدى مرّداً لصيحاتنا >> (1).

ويوضح "الابراهيمي" بعض معاني السياسة التي كان يمتنعها بعض الجزائريين في وقته والتي يعودون فيها إلى أصل معانيها الغربية وهي المعاني نفسها التي تجاوزتها الجمعية فيقول: >> ولكننا كنا لا نريد أن نخلط شيئاً كل وسائله حق، بشيء بضع وسائله باطل، وأن نتميز بين ما لا جدال فيه مما فيه جدال، وكنا نريد أن نبدأ بأصل السياسات كلها وهو الدين للنبي عليه كل ما يأتي بعده، فنسلم ونحن مسلمون، ونخاصم ونحن مسلمون ونصادق أو نعادي ونحن مسلمون... >> (2).

وينبه الابراهيمي مواطنيه الذين عابوا على علماء الجمعية دخول ميدان السياسة >> وبأن الجمعية تصرّح دوماً بأنها دينية ولا دخل لها في السياسة، بأنه قد غابت عن هؤلاء حكمة الجمعية في هذا السلوك أولاً >> ورّد ذلك إلى بحاراتهم لنغمة الاستعمار في هذا المجال، لأن الاستعمار الفرنسي هو أول من بثّ هذه الأغلوطة في الأوساط الجزائرية تحقيقاً لأهدافه ونشراً للفوضى والتفرقة. يقول الابراهيمي: >> إذا كان الإسلام ديناً وسياسة، فجمعية العلماء دينية سياسية. قضية مقنعة لا تحتاج إلى سؤال ولا إلى جواب، وجمعية العلماء ترى أن العالم الديني إذا لم يكن عالماً بالسياسة ولا عاملاً لها فليس بعالم، وإذا تخلّى العالم الديني عن السياسة فمن ذا الذي يصرفها ويديرها؟.

لاشك أنه يتولاها الجاهل المتحلّل فيغرق السفينة ويشقى الأمة. وكثيراً ما غلطننا الاستعمار حين يضيق ذرعاً بنا، فيقول أنتم علماء دين فما لكم والسياسة؟. إن الدين في الإسلام سياسة وأن السياسة دين فهما - في اعتباره - شيئان متلازمان، أو هما شيء واحد >> (3).

ثم يرد "الابراهيمي" على مواطنيه في اتباعهم لهذه الأغلوطة، يقول: >> وقد

(1) آثار محمد البشير الابراهيمي، مصدر سابق، ص 277-278.

(2) المصدر نفسه، ص 278.

(3) المصدر نفسه، ص 239.

جاراه (أي الاستعمار) في هذه النغمة الممجوجة بعض ضعفاء الأميين من سماسرة السياسة منا والغرضان متقاربان: فالاستعمار يريد أن يزيحنا عن طريقة فيزيح خصما عنيدا يمنعه العلم أن يخذع ويمنعه الدين أن يساوم في حق قومه، وضعفاء الإيمان من قومنا يريدون أن يخلو لهم الجو فيعيشوا ما شاء لهم العبت ولا علم يصدع ولا دين يردع»⁽¹⁾. إلى أن يقول: «وصفوة رأي الجمعية في السياسة الجزائرية تحرير الجزائر على أساس العروبة الكاملة والاسلام الصحيح والعلم الحى، وعلى ذلك فهذه الجهود الجبارة التي تبذلها جمعية العلماء في سبيل العربية والاسلام والتعليم كلها استعداد للاستقلال وتقريب لأجله، ولكن كثيرا من قومنا لا يفقهون، أو لا يريدون أن يفهموا، ولو أرادوا أن يفهموا لحكموا المحسوس الذي لا يرتابون فيه وهو أن جمعية العلماء حررت العقول وصقلت الأفكار وأيقظت المشاعر والنتيجة الطبيعية لذلك كله هي تحرير الأبدان، لأن الأول مدرجة إلى الثاني»⁽²⁾. ويضيف في موضع آخر: فمن كان من أبنائنا في ريب من الحكمة في سلوكنا فلينظر تشدد الاستعمار معنا وشدة (تمسكه) بديننا، إنه لا يعاديكم فيسرف في العداوة، ويظلمنا فيمعن في الظلم إلا لأنكم مسلمون. ولأن هذا الإسلام منبع قوة تقتل الضعف، ومبعث رروحانية تقهر المادة، فهل لكم أن تقابلوا (تمكسه) بالمعنى الذي يريده، بتمسك من جهتكم بالمعنى الذي يريده الله»⁽³⁾.

ثم يربط الابراهيمي معنى السياسة بالمفهوم الذي يريده الاستعمار ثم بوضع الجزائريين الذي يدفع لأن يكون كل جزائري سياسيا رداً على الظلم الفرنسي، فيقول: «نحن سياسيون لأن ديننا يعد السياسة جزءاً من العقيدة، ولأن زماننا يعتبر السياسة هي الحياة، ولأنها آية البطولة، ولأن وضعها يصير السياسة ألزم للحياة من الماء والهواء، ولأن السياسة نوع من الجهاد، ونحن مجاهدون بالطبيعة فنحن سياسيون بالطبيعة، ولأن الاستعمار الفرنسي بظلمه وعسفه لم يفرس في الجزائر إلا ثمرتين، بغض كل جزائري

(1) آثار محمد البشير الابراهيمي ، مصدر سابق ، ص 239 .

(2) المصدر نفسه، ص 240.

(3) المصدر نفسه، ص 278.

لفرنسا حتى الأطفال، وصيرورة كل جزائري سياسيا حتى الأئمة» (1).
 وبناء على نظرة الجمعية لمفهوم السياسة، ثم بناء نشاطها على ذلك الأساس من
 الشمول في تناول أزمة الجزائريين تحت الاحتلال، فإنه يمكن أن نلاحظ أن الخطبة السياسية
 هي في الوقت نفسه خطبة دينية واجتماعية غير أن السياسة منها سوف تستقل بمميزات
 عدة، تدل على ذلك عدة مؤشرات منها :

1- مؤشر تطور المدّ الاصلاحى نفسه قبل وبعد سنة 1930 م من حيث أنه لم يكن
 لديه « لاقوة الجماهير ولا قوة الحضور على الساحة الوطنية الجزائرية » (2). ومن ثمة
 التزمت الخطابة بالأسلوب المرن والحذر أو التكتيكي المرحلي وتكون الخطبة الدينية
 الاجتماعية هي الأظهر في هذه الفترة مع ما تتضمنه من مفهوم للسياسة وبالتالي فإن
 حضور المصلحين السياسى لم يكن بالفاعلية اللازمة إزاء الجزائريين وإزاء الإدارة
 الاستعمارية لكن بعد الاحتفال المتوي وأحداثه المهنية « أحس العلماء بأنهم قد تحرروا
 من تعهدهم اللأسياسى وانضموا إلى تيار المطالبة بحقوق المسلمين » (3). وغيروا لهجتهم
 بداية من ذلك وقد سجلوا حضورا جماهيريا واسعا رسميا في سنة 1937م أثناء احتفالات
 فرنسا المتوية لدخولها إلى مدينة قسنطينة 1837م بالبيانات والاحتجاجات والنداءات
 للجزائريين بمقاطعتها وهو ما وقع، « مما يدل على تطور واتساع مد الإصلاح في بحر
 سبع سنوات من تروسيه » (4) ومن ثمة تطور الخطابة أيضا من حيث مجالات اهتمامها.

2- مؤشر التطور الفكرى عموما والوعى السياسى خاصة عند الجزائريين بداية من
 سنوات الحرب العالمية الأولى ونتائجها، ثم تأخر الإصلاحات السياسية والاجتماعية التي
 وعدت بها حكومة باريز، التي لم تأت ولن تأتي، وبعدها الاحتفالات المتوية وظهور نيات
 الاستعمار الحقيقية وما تبع ذلك من أحداث وهو ما لم تكن لتأخر عنه الخطبة مسايرة
 لشرحه، وبيانه للجميع قصد التوعية العامة، وكذا متابعة لقضايا الأمة التي وضعت ثقتها
 في علمائها ومن ثمة فقد كانت طبيعو القضايا المطروحة على الساحة الجزائرية هي التي

(1) آثار محمد البشير الابراهيمى، مصدر سابق، ج4، ص 278.

(2) Ali Merad, le Réformisme Musulman en Algérie, Op Cit, p 389

(3) Idem.

(4) Idem.

تنحو بالخطبة وتحدّد مجالها.

3- مؤشر بداية المواجهة بين إدارة الاحتلال و علماء الجمعية وكذا مؤشر القوانين الجائرة إزاء مختلف أنشطة الجمعية التي بدأت مبكرا ضد الجمعية أي منذ عامها الأول بلسّ بعض الطرفين بغية السّطو على الجمعية وجعلها تحت تصرف الاستعمار وفي عدمته، >> إذ منذ انفصال الطرفين عن المجلس الإداري لجمعية العلماء تحدّد مصير الجمعية من الإدارة والرأي العام الأوروبي وكذا من خصومها التقليديين، باعتبارها >> مهد الوطنية الإسلامية، واتهامها ليس فقط بالخصومة للثقافة الفرنسية، وإنما أيضا للوجود الفرنسي على الأرض الجزائرية، وأنها وسيلة للدعايات الأجنبية (الإسلامية، العروبة، الشيوعية وحتى الهتليرية >> (1).

وبلغة القوانين فإن >> تعميمي (*) ميشال فيفري 1933م اللذان فرضا مراقبة مشددة على نشاطات رجال الإصلاح المختلفة ومنها النشاط التعليمي >> (2) يعدّان في أول قائمة المضايقات وبالتالي تغيير لجة الخطابة من الاعتدال والمرونة الدينية إلى أسلوب المواجهة الذي يتطلب صراحة أكثر وجرأة أقوى وهو ما كان يميّز الخطبة السياسية.

4- قد يتناول علماء الجمعية مواضيع مختلفة كمضامين لخطبهم الدينية والاجتماعية، لكن الخطبة السياسية تدخل ضمن صلاحيات رؤساء الجمعية، لأنها تمثل الرأي الرسمي لجمعية العلماء في نظرها لقضايا الساعة واتجاه الجمعية الرسمي أيضا في الناحية الثقافية والاجتماعية، ويبدو هذا واضحا في كثير من النصوص التي تركز على أن الإشارة إلى أن الخطاب باسم الجمعية أو باسم صاحبه مراعاة دائما للحذر والحيطه في التعامل مع إدارة الاحتلال وتحايلا عليها في نفس الوقت بأن ينسب الرأي إلى صاحبه وبالتالي تفويت لفرصة إقامة الحجة على الجمعية وإقامة الدليل عن طريق خطبائها أو تصريحات أعضائها. وفي هذا الإطار مثلا نجد أن ابن باديس في محاضرة ألقاها في تونس حول >> الحركة العلمية والسياسية في الجزائر >> نبّه مستمعيه إلى أنه يحدثهم بصفته

(1) Ali Merad, Le réformisme Musulman en Algérie, Op Cit, p 390.

(*) تعميما ميشال: (Circulaires Michel) لسنة 1933م.

(2) أحمد الخطيب، جمعية العلماء المسلمين الجزائريين وأثرها الاصلاحى في الجزائر، مرجع سابق، ص 200.

الشخصية وباسمه الخاص لا بصفته رئيسا لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين وقد تعرض ابن باديس في محاضراته إلى الدين والسياسة وما جاء فيها.

>> وإني أحدثكم لا بصفتي رئيسا لجمعية العلماء الجزائريين تلك الجمعية التي لا تدخل لها في السياسة وإنما أحدثكم اليوم بصفني شخصا خدم الصحافة (12) عاما، وخدم العلم (25) سنة فباسمي الخاص فقط أحدثكم >> (1). ولا يفوت الباحث ملاحظة تأكيد المحاضر على أن الحديث باسمه لا باسم الجمعية وتكرير ذلك في هذه الفقرة بماله من دلالة الحيلة والحذر.

وقد تعمد ابن باديس في تقديم محاضراته بملاحظة هامة بما كان يتناقله البعض جهلا أو غفلة عن اقتصار العلماء على العلم فقط دون التدخل في السياسة وقد فند ذلك بقوله: >> وكلامنا اليوم عن العلم والسياسة معا وقد يرى بعضهم أن هذا الباب صعب الدخول لأنهم تعودوا من العلماء الاقتصار على العلم والابتعاد عن مسالك السياسة، مع أنه لا بد لنا من الجمع بين السياسة والعلم، ولا ينهض العلم والدين حق النهوض إلا إذا نهضت السياسة مجد >> (2).

د- مميزات الخطابة عند جمعية العلماء:

إن أهم ما يميّز الخطابة عند جمعية العلماء المسلمين الجزائريين هو ما يلي:

1- لغتها العربية الرصينة والفصيحة (3) وأسلوبها القوي، وعباراتها المختارة في تناول المواضيع، باستعمال الشواهد التاريخية والقانونية، ومناقشة قضايا الساعة المحلية والعالمية وأهداف الاستعمار العالمي الذي تأتي فرنسا على رأس قائمته ثم في إيراد الشواهد القرآنية وأحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم والأشعار العربية، وكذا الأمثال

(1) آثار ابن باديس، مصدر سابق، ج4، ص 115.

والبصائر، السنة الثانية، ع 71، وربيع الثاني 1356 هـ - 18 جوان 1937 م.

(2) المكان نفسه.

(3) هذا في الغالب الأعم، ولكن قد يخاطب الخطيب بالعامية النارجية مراعاة لجهل أو أمية الجماهير في بعض المناطق، أو ربما في بدايات النشاط الاصلاحى وعدم إنشاء المدارس والنوادي وكان الهدف من ذلك على ما يبدو عدم تفويت فرصة الاستفادة على الجميع.

الشعبية التي تلمس مشاعر الجماهير مما يدل دلالة عميقة على نضوج أصحابها في ميادين عدة، وخاصة في المواضيع التي يختارونها لمواجهة الجماهير.

2- صراحتها في مخاطبة الجزائريين في تذكيرهم بمقوماتهم وأمجادهم وتوعيتهم بمشاكلهم الحقيقية وقضاياهم المصيرية، ثم صراحتها وجرأتها في مواجهة الاحتلال الفرنسي، متبعة في ذلك سياسة الجمعية في التزامها في بدايتها سياسة المرونة وأسلوب المروعة والحذر خدمة لمصلحة الجزائريين وتفويت لفرصة على إدارة الاستعمار بعدم الترخيص للجمعية أولاً أو غلقها ثانياً فتضيع فائدتها العلمية والدينية على الأمة ثم اعتباراً لأهداف الجمعية نفسها واحتراماً لمراحل النشاط الإصلاحي التي يتأسس على تحرير العقول والأفكار قبل تحرير الأبدان، وتكمن جرأتها في:

أ- كشف مخطط الاستعمار وشرح أهدافه من خلال مناقشة قوانينه الجائرة إزاء منجزات الأمة الجزائرية التي تمثلت في تزايد عدد المساجد والمدارس والنوادي، خاصة وأن فرنسا كانت تنظر إلى المساجد على أنها حصون مسلحة (1)، وإلى خطب الجمعية في المساجد وفي النوادي على أنها محاضرات سياسية كما مرّ بنا.

ب- التحدي الواضح للاستعمار الفرنسي، والمقارعة بالأدلة، وكذا في التحذيرات المتكررة التي تتضمنها خطب الجمعية على مختلف منابرها، فيقول: ابن باديس: «صيرنا على هذا الحيف طويلاً وعالجناه بما استطعنا مرات كثيرة من جهات كثيرة حتى جاء الوقت الذي نفذ فيه الصبر وأعيى العلاج فقلنا البيت الثاني من قول الشاعر المتقدم:

هذا وجدكم الصغار بعينه لا أم لي إن دام ذاك ولا أب (2)

ويقول في موضع آخر: وأما نحن الجزائريين فإننا نعلم من أنفسنا أننا أدر كنا هذا الإخلاف العرقي، وأدر كنا مغزاه وأخذ اليأس بتلايب كثير منا وهو يكاد يعم، ولا نتردد في أنه قد آن أوانه ودقت ساعته (3)، ويقول: كذب رأس السياسة وساء فألها،

(1) آثار البشر الإبراهيمي، مصدر سابق، ج4، ص 394.

(2) عمار الطالبي، المرجع السابق، ج3، ص 353. (نقلا عن الشهاب).

(3) المرجع نفسه، ص 364-365. (نقلا عن الشهاب).

والله لا تسلمنا المماطلة إلى الضجر الذي يقعدنا عن العمل، وإنما تدفعنا إلى اليأس الذي يدفعنا إلى المغامرة والتضحية.. ثم يخاطب الشعب الجزائري قائلا: أيها الشعب الجزائري، أيها الشعب المسلم، أيها الشعب العربي الأبي... استوح الإسلام ثم استوح تاريخك ثم استوح قلبك.. اعتمد على الله ثم على نفسك» (1).

ج- في التواعد بالثورة المسلحة ضد فرنسا: يقول ابراهيمي: «نضر الله أولئك الرجال الذين كانوا يوم الرأي صدور محافل، ويوم الروح قادة جحافل، وفي التاريخ محققين لنقطة الاقتراب بين الحرب والحراب... إلى أن يقول: فلا بد من يوم يتحرك فيه العلماء فيأتون بالأعاجيب» (2).

د- في تحريك الجماهير الجزائرية وإثارتها ضد القوانين الحائرة التي تقضي بغلق المساجد، والمدارس والنوادي في وجه العلماء، ومنع هؤلاء من التعليم إلا برخصة لذلك، وقد كانت الجمعية وراء المظاهرات الجماهيرية في صيف 1934م في الجزائر عموما، وفي قسنطينة خاصة. «والتى اعتبرت كمحاولات حقيقية للتجنيد ليوم معلوم» (3)، وقد ردت عليها بمرسوم "ريني" "Regnier" في 30 مارس 1935م القاضي باتخاذ اجراءات مشددة ضد الذين يخرقون الأنظمة أو يتظاهرون ضد السيادة الفرنسية (4).

هـ- التصريح بالتحدي والمواجهة للاستعمار الفرنسي، بوصفه بأوصاف الجيروت، والظلم وبالاحتلال والاستعمار، وبالصلبي، وبالوقاحة.. الخ والتعهد بكشف حقيقته وملاحقة مكائده وجرائمه، يقول ابراهيمي: «لو كانت فرنسا تتقابض مع الناس بالضمائر والعقول والقيم والمثل والغايات لقلنا إنها خسرت تاريخها ومبادئها ومقوماتها ودعاويها التي تديعها في الناس وبضائعها المزورة التي تعرضها على العالم، ولكنها لا تتقاض - فيما تكشفته عنه في العهد الأخير إلا بالتمتر للضعفاء والتذلل للأقوياء، والكيد

(3) المرجع السابق، ص 365. (نقلا عن الشهاب).

(4) آثار محمد البشير ابراهيمي، مصدر سابق، ج4، ص 151

(5) الجيلالي صاري، محفوظ قداش، المقاومة السياسية.. مرجع سابق، ص 44.

(6) أحمد الخطيب، جمعية العلماء المسلمين الجزائريين وأثرها الإصلاحي في الجزائر، مرجع سابق، ص 200.

فيما بين ذلك >> (1).

ويقول: ليت الاستعمار يأخذ منا من هذه الصراحة ما يفره بزيادة التشدد ظنا منه أنه يشغلنا بجانب عن جانب ويلهينا بديننا عن دنيانا حتى يعلم أننا أصبحنا = والفضل له = لا يلهينا شيء عن شيء. وأنا إذا لم نستطع شيئا استطعنا أشياء، وأنا إذا لم نستطع أن تكون عطشا لخصمتنا كنا كدرا في الماء، وأنا إذا حرمتنا قمح الأرض زرعتها أشواكا.. >> (2).

ونستدل بهذه الشواهد عن إيمان علماء الجمعية بالقضية الجزائرية، وعلى شجاعتهم في عرضها ومعالجتها وعمق أغراضهم.

3- بشمولها في النظرة إلى الأزمة الجزائرية من حيث الأسباب والنتائج التي كانت الجمعية تبني عليها خطط نشاطها عموما ببناء النتائج على المقدمات، وسن المراحل واحترام الوضع الاقتصادي والنفسي والاجتماعي للفرد الجزائري ومن ثمة الجماهير تحت الظروف المحلية والعالمية.

هـ- نماذج من الخطابة عند جمعية العلماء:

1- خطبة للإمام بن باديس رئيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين (3)

أما بعد فحياكم الله أبناء العروبة والإسلام وأنصار العلم والفضيلة. حوربت فيكم العروبة حتى ظن أن قد مات منكم عرقها، ومسخ فيكم نطقها، فجتتم بعد قرن تصدح بلابلكم بأشعارها فتشر الشعور والمشاعر وتهدر خطباؤكم بشقاشقها فتدك الحصون والمعازل ويهزّ كتابكم أفلامها فتصيب الكلى والمفاصل. وحررب فيكم الإسلام حتى ظن أن قد طمست أمامكم معالمه، وانتزعت منكم عقائده ومكارمه فجتتم بعد قرن ترفعون علم التوحيد وتنشرون من الإصلاح لواء التجدد

(1) آثار محمد البشير الإبراهيمي، مصدر سابق، ج4، ص 276.

(2) المصدر نفسه، ص 278.

(3) الشهاب: ج8، ص13، غرة شعبان 1356هـ - أكتوبر 1937م، ص 357-361. والخطبة طويلة، وهذه بعض الفقرات منها.

وتدعون إلى الإسلام كما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم وكما يرضى الله، لا كما حرقه الجاهلون وشوّهه الدجالون ورضيه أعداؤه.

وحرّوب فيكم العلم حتى ظنّ أن قد رضيتم بالجهالة وأخلدتم للنذالة ونسيتم كل علم إلا ما يشرح به لكم أو ما يمزج بما هو أضر من الجهل عليكم فجتتم بعد قرن ترفعون للعلم بناء شامخا وتشيدون له صرحا سامقا فأستتم على قواعد الإسلام والعروبة والعلم والفضيلة جمعيتكم هذه جمعية العلماء المسلمين الجزائريين.

وحرّوبت فيكم الفضيلة فستتم الخسف وديتتم بالصّغار حتى ظنّ أن قد زالت منكم المروءة والنجدة وفارقتكم العزة والكرامة فرتمتم الضيم ورضيتم الخيف واعطيتهم بالمقادة، فجتتم بعد قرن تنفضون غبار الذل وتهززون أسس الظلم، وتهمهمون همهمة الكريم المحقّ وتزججرون زججرة العزيز المهان وتطالبون مطالبة من يعرف له حقا لا بهد يعطاه أو يأخذه...

نعم نهضنا بعد قرن، بعدما متنا وأقبرنا أحيينا وبعثنا سنة كونية فقنهاها من القرآن ونعمة ربانية تلقيناها من الملك الديان ﴿ **أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذِرَ الْمَوْتِ. أَنْقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مَوْتًا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ. وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ** ﴾ (1).

نعم نهضنا نهضة (بنينا على الدين أركانها فكانت سلاما على البشرية) لا يخشاها -والله- النصراني لنصرانيته ولا اليهودي ليهوديته بل ولا الجوسسي لجوسيته ولكن يجب -والله- أن يخشاها الظالم لظلمه والدجال لدجله والخائن لخيانته.

.....

أيها الاخوان تنتظرون مني الآن أن أبين لكم مواقف الجمعية من بعض الجهات التي تعاصرها وتلتقي بها محجة السير وميدان الحياة.

أما موقفها من الحكومة فهو: المطالبة والاحتجاج من ناحية الجمعية والصدّة والإعراض من الناحية الأخرى، ولقد كنت في خطاب السنة الماضية علقّت رجاء الجمعية

على الحكومة الشعبية وحسنت الظن بها، وأنا أعلن اليوم -مع الأسف المرّ- (*) خيبة ذلك الظن ووهن ذلك الرجاء فحسبنا إيماننا بالله وثقتنا بأنفسنا فذلك -والله- أجدى لنا وأعود بالخير علينا.

وأما موقف الجمعية مع الأحزاب فأعيد نصّ ما قلته بالسنة الماضية:

>> إن الإسلام عقد اجتماعي عام فيه جميع ما يحتاج إليه الإنسان في جميع نواحي الحياة لسعادته ورقبه، وقد دلت تجارب الحياة كثيرا من علماء الأمم المتقدمة على أن لا نجاة للعالم مما هو فيه إلا بإصلاح عام على مبادئ الإسلام، فالمسلم الفقيه في الإسلام غني به عن كل مذهب من مذاهب الحياة فليس للجمعية إذا من نسبة إلا إلى الإسلام وبالإسلام وحده تبقى سائرة في طريق سعادة الجزائر، والبلوغ بها -إن شاء الله- إلى أرقى درجات الكمال.

وإلى هنا فنحن نشكر ونعترف بالجميل لكل من يؤيدنا في سيرنا نصرة للمظلوم ومقاومة وخدمة للإنسانية في جميع أجناسها >> (*).

وأزيد اليوم: إن الجمعية لا توالي حزبا من الأحزاب ولا تعادي حزبا منها، وإنما تنصر الحق والعدل والخير من أي ناحية وتقاوم الباطل والظلم والشر من أي جهة أتى. محتفظة في ذلك كله بشخصيتها ومبادئها محترسة في جميع مواقفها مقدره للظروف والأحوال بمقاديرها.

وأما موقفها من المؤتمر فقد أوكلته لمن شاء من رجالها ليحافظ فيه على اللغة والقومية والمطالب الدينية والعلمية، يعمل فيه على مسؤوليته لا على مسؤوليتها.

وأما مواقف الجمعية مع خصومها فإنها تعلم أن الأمة اليوم تحتاز طورا من أشق أطوارها وأخطرها فهي تتناسى كل خصومه وتعمل لجمع الكلمة وتوحيد الوجهة ولا تنبذ إلا أولئك الرؤوس رؤوس الباطل والضلال الذين لا تجدهم الأمة في أيام محنتها إلا بلاء عليها ولا يتحركون إلا إذا حركوا الغايات عكس غايتها فرّقوا المسلمين بددا

(*) - كل هذه العلامات هي أصل في النص.

وصيروهم قددا. وقد هدّ الله - والحمد لله - ركنهم المنهار وفضح أمرهم في رابعة النهار، وصيّرهم أقل من أن يعتني بهم وأحق من أن يضيع الوقت في الحديث عنهم >> .

2- خطاب الرئيس في الاجتماع العام لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين: (1)

أما بعد، فسلام عليكم يا أعضاء جمعية العلماء المسلمين الجزائريين أجمعين، وسلام على مساجينكم في المساجين، وسلام على متهميكم في المتهمين، وسلام على منكوبيكم في المنكوبين، سجون واتهامات ونكبات ثلاث لا تبنى الحياة إلا عليها ولا تشاد الصروح السامقة للعلم والفضيلة والمدنية الحقّة إلا على أسسها. فاليوم وقد قضى الله للجمعية بهذه الثلاث أثبتت الجمعية في تاريخ الإسلام وجودها، وسجلت في صحيفة الخلود رسمها، ونقشت في قلوب أبناء المستقبل اسمها، وبرزت في ذلك كلّ أسماء أولئك المسجونين والمتهمين والمنكوبين نجوما متألقة تأخذ بالأبصار.

....

أيها الإخوان قد اعتمدنا في كل اجتماع عام من اجتماعاتنا أن نرفع شكوانا واحتجاجنا إلى الولاية العامة وإلى الحكومة العليا، ولم يرد لنا جواب مرّة واحدة، بلى ويكون الجواب بزيادة الإرهاق وتضييق الخناق.

فصدر قانون النوادي الذي يرمي إلى إخلائها وحرمان الكبار من التهذيب في نواديهم، بعدما حرموا منه في مساجدهم، وصدر قانون 8 مارس الذي يرمي إلى غلق المدارس وحرمان المسلمين من تهذيبهم وتلقين دينهم وآداب فنهم ولغة دينهم، وصار من شروط إعطاء الرخصة القليل الذي أعطيت له أن يعمل على الكيفية القديمة الخالية من كل تهذيب ذات العصا والفلقة والحصير، في العصر الذي تتقدم الأمم كل عام في أساليب التعليم نرد إلى الوراء فاسمع وتعجب يا عصر المدنية والنور.

وصدر أمر الولاية العامة بتحجير القسم الجنوبي من الوطن على كل منتسب للعلماء بينما تعطى الإعانات وتمنح التسهيلات للبعثات غير الإسلامية لتنصير أبناء وبنات المسلمين.

(1) نشرت هذه الخطبة في: الشهاب : ج4، م 14 غرة شعبان 1357هـ - أكتوبر 1938م - ص 100-104. بتصرف

الخطبة طويلة وهذه فقرة منها وللإشارة فإن الخطبة أُلقيت بتنادي الترقّي.

....

أيها الإخوان فنحن مع بقائنا على جميع ما قلنا وبيننا، واستمرارنا في موقفنا كما كنا لا نريد اليوم أن نرفع شكوانا ولا أن نقدم احتجاجنا، وحسبنا في هذه السنة السكوت. وكفى بالسكوت احتجاجا عند من عرف وأنصف، وحسبنا الله ونعم الوكيل».

نماذج من القصائد: يقول شاعر جمعية العلماء وشاعر الإصلاح محمد آل خليفة في قصيدة "صرخة ثورية":

شباب الجزائر طب بالإخـا	ء فقد حزت في رعيه الأسبقية
أناديك للخير محير النداء	وأوصيك بالحق حق الوصية
ذر الخوف تعرف ثنايا السلوك	فمن هاب خاب وضلّ الثنية
رأيت المنايا سبيل المنسى	فخاطر تصب منية أو منية
إذا زلزلت بالخطوب البلاد	فلا خير في حذر أو تقيّه
تولى زمان الرضا بالهوان	ووافى زمان الفدى والضحية
أنصلي الجحيم، ونسقى الحميم	ونرعي الوخيم، ونعطي الدنية؟
ومن حولنا تستباح الديار	ويخزي الصبي بها والصبية
أتخضع للضيم يا ابن الاباء	وتطرق مستسلما للأذية
أما في عروقك أزكى الدما	أما في فؤادك أدكى الحميه؟ (1)

ويقول في قصيدة أخرى عنوانها " من للجزائر ؟ ":

يا مشهرين من العزائم	مثل مرهفة الأسل
حوضوا بها الأمواج واع	لوا الشهب واقتلعوا القل
من قال جلّ عدوكم	قولوا له المولى أجلّ
نحن الدعاة ولا ونسى	نحن الحماية ولا وجل
في الله نحتمل الأذى	في الله نفتحم الأجل

(1) وزراء التربية الوطنية، ديوان محمد العيد محمد علي. خليفة، (الجزائر، المؤسسة الوطنية للنشر والتوزيع، 1979م)،

فتبرؤوا بعلى العلى
وتفياً واظلل الظلل
وردوا الحياة لذيذة
فلا يساغ على نهل (1)

وتعتبر قصيدة "صرخة ثورية"، "ومن للجزائر؟" من القصائد التي كانت إرهاباً للثورة المسلحة، كما تحمله من دعوة صريحة إلى الثورة وهذا في سنوات سابقة لها (2) أي سنة 1932م وهي السنة الثانية في عمر جمعية العلماء المسلمين الجزائريين.

ز- خطباء جمعية العلماء: تشهد نشاطات جمعية العلماء المختلفة تمكن الكثير من أعضائها العلماء والعاملين في مختلف الميادين في مجال الخطابة العامة، وقد مرّ بنا أن معظمهم، - خاصة في بداية العمل الرسمي، ونظراً لقلة الكفاءات وكثرة الأعباء - كان يجمع بين التعليم في المدرسة، والإمامة في المسجد مدرسا وخطابة في الجمع والأعياد، وكذا الوعظ والإرشاد للكبار والمحاضرة للشباب في نوادي الجمعية المستقرة أو في رحلاتها وجولاتها التفقدية إلى مختلف المناطق.

ولم يكن علماء الجمعية مصلحين دينيين يعنون بالدين وحده، عازفون عن كلّ ماعداه كما يتخيّله الكثيرون، بل إنهم جمعوا بالإضافة إلى علوم الدين، ثقافة العصر بقضاياها ومشاكله المختلفة، وميادين المعرفة الإنسانية الأخرى في ذلك الوقت، وفيما ذكره الشيخ "الابراهيمي" من وظيفة علماء الدين من جهة، ثم مفهوم الجمعية للعالم الديني، وقد مرّ بنا شرحه ما يغنيننا عن إعادة ذلك في هذا المقام، وقد نلاحظ ثقافتهم في التعرض لصحافتهم لاحقاً إن شاء الله.

ويجدر بنا أن نلاحظ أنه قد يظهر نبوغ أحدهم في مجال دون آخر كالخطابة مثلاً دون الشعر أو في الأدب دون التاريخ وهكذا.

يقول عبد المالك مرتاض: >> وإحبال أن ابن باديس لم يبرز في ناحية أدبية تميزه في الخطابة التي يجب أن يكون أخطب الخطباء في النصف الأول من هذا القرن

(1) ديوان محمد العيد آل خليفة، المصدر السابق، ص 420-421 بتصرف.

(2) المصدر نفسه، ص 417.

في الجزائر. فقد كان فارسها المعلم، وزعيمها المقدم، وقائدها البارع في الاستحواذ على قلوب المخطوب فيهم بما أوتي من مواهب عالية في إثارة المشاعر، وإيقاظ العواطف، وتهيج القلوب.

ويقول: كان ابن باديس أعطب الناس في الجزائر على عهده، شهد له بذلك معاصروه جميعا من أعدائه وأصدقائه (1).

وتصف جريدة "الصباح الباكر" "Le Petit Matin" الناطقة بالفرنسية، والتي كان يشرف عليها فرنسيون خطبة ألقاها ابن باديس (2) وتأثيرها العجيب على المستمعين. تقول:

... «والشيخ ابن باديس يمثل حقا الزعيم الخطيب، فهو قد ملك مقاليد الكلام، وبصوته الناري يستفز الجماهير، فيثير الحروب، أو ينزل في القلوب سكينه السلام. وهو الرجل الذي وصل في القطر الجزائري إلى درجة التقديس، وتسير وراء خطواته تسعة أعشار الأمة. أما سمعته فقد احترقت البحار. وأصبح رجال الشرق يعتبرونه من أكبر رجاله..»

لقد حرك الشيخ بكلماته، أمس، أوتار القلوب فأبدع وأدهش، وقطع الأنفاس من شدة التأثير، وابتلت المحاجر وسالت الدموع.

إن الذين يسوقون الشعوب من أمثال ابن باديس كانوا دائما يصلون إلى أعلى الدرجات... لقد كان يستطيع أن يفعل ما يريد في الجموع التي كانت بالأمس تستمع إلى خطابه، كان يستطيع أن يجعل منها أسرابا من الطيور الكاسرة، أو قطيعا من الخرفان.

وهذا ما نستطيع أن نصف به هذا الرجل الخارق للعادة، وهل من اللازم أن أقول بأنه عندما سكت هذا الرجل، وصدق له الناس تصفيقا لم أر مثله في حياتي، أصبح كل كلام بعد ذلك غير مستساغ... <<(3).

(1) عبد المالك مرتاض، نهضة الأدب العربي المعاصر في الجزائر 1925-1954، مرجع سابق، ص 63.

(2) أوردت صحيفة "Le Petit Matin" هنا المقال في عددها المؤرخ بـ 29 ماي 1937م. وقد ترجمته جريدة الشهاب في: ج5، 13 الصادر في جوان 1937م.

(3) عبد المالك مرتاض، الثقافة العربية الجزائرية بين التأثير والتأثر، مرجع سابق، ص 31.

ويعتق مرتاض على مقال "الصباح الباكر" قائلًا: فهذا النص الذي كتبه فرنسي لا يجوز أن تشتم منه رائحة الذاتية، بل إنه نص شاهد بالموضوعية والنزاهة جميعًا» (1). وبهذا تكون الخطابة قد أدت دورها كاملا على يد العلماء فقد واكبت كل مراحل الجمعية وعقدت كل منها بما كانت تتطلب من أساليب وغايات خاصة. فقد كانت الخطبة الدينية وسيلة للتعبئة الروحية في إحياء ما مات أو شوّه من مبادئ، وتقوية ما وهن من أسس، وتصحيح العقيدة، وتثبيت الأفئدة وتوحيد السبل، وتوجيه الطاقات وجهة سليمة، وكان تأثيرها حاسما في الجماهير الجزائرية ولم تبطئ حتى ظهرت نتائجها.

وكانت الخطبة الرسمية وسيلة لتأهيل الكفاءات وتدريبها وتمارين الإطارات على مسؤوليات المجتمع في دراسة اتجاهاته وطاقاته وإعداد الدراسات والتقارير ليتمرس على تحمل الصعاب ومتابعة الأحداث وربط المسببات بالنتائج.

بينما ساهمت الخطبة السياسية في إيجاد العامة الراحية تماما كما ساهمت المساجد في إيجاد العامة المتعلمة حسب ما يقول ابن باديس في مقال هذا العنوان: " العامة المتعلمة" >>إذا كانت المساجد معمورة بدروس العلم فإن العامة التي تنتاب تلك المساجد تكون من العلم على حظ وافر وتتكون منها طبقة مثقفة الفكر صحيحة العقيدة، بصيرة بالدين فتكمل هي في نفوسها ولا تهمل - وقد عرفت العلم وداقت حلاوته- تعليم أبنائها، وهكذا ينتشر العلم في الأمة ويكثر طلابه من أبنائها وتنفق سوقه فيها» (2). وكذلك كانت الخطبة السياسية وراء العامة بتوعيتهم بقضاياهم، وتاريخهم وأجدادهم وقضايا الساعة المحلية والعالمية لتنمو حاسة التحليل وملكة المناقشة وغاية إحقاق الحق والصواب. ومن ثمة فإن الخطابة كونت ووعت ثم وجهت الرأي العام في الجزائر، وكانت سلاحا خطيرا وهاما في يد العلماء للدعاية للجمعية، ومن ثمة لمبادئ وأصول وأهداف حركة الإصلاح في الجزائر من جهة ثم للدعاية المضادة باتباع حملة مدروسة المراحل

(1) عبد الملك مرتاض، الثقافة العربية الجزائرية بين التأثير والتأثر، مرجع سابق، ص 34.

(2) وزارة الشؤون الدينية، آثار الإمام عبد الحميد بن باديس، مصدر سابق، ج3، ص 172.

منطقية الوسائل ضد مصالح الاستعمار الفرنسي الثقافية والاقتصادية والسياسية وبالتالي ضد الوجود الاستعماري نفسه في الجزائر.

وقد نقلت الخطابة في يد العلماء المجتمع الجزائري من طور إلى طور هو ما تشهد به نتائج الخطب والمحاضرات، والدروس التي كانت تلقى أثناء الرحلات. فقد أخرجت الجماهير الجزائرية من عزلة الزوايا والمخرفات الطرقيين، وبعثت فيهم حب الحياة بل والأمل في الحياة العزيزة الكريمة تشدّ فيهم الاحساس بالمصلحة العامة، والمسؤولية على الوطن والغيرة على الإسلام وبالجملة الاحساس بالانتماء والهوية الأصيلة مما يستوجب الدفاع عن المقومات بمناقشة مصير الوطن. ويعلّق ابن باديس على جماهير التلازمة الذين لم ينفضوا بعد خطاب الشيخ وعلا صوتهم بالنقاش في موضوع الخطبة فلما انتهرهم أحدهم لم يسمح له الشيخ عتابهم محتجا بأن « أولئك البؤساء طالما كانوا يجتمعون على البدع والمنكرات ويحتفلون على الزردات والوعادات، فأصبحوا -بحمد الله- يجتمعون على العلم، ويتأثرون به، وينتهون عما نهى عنه، ويأمرون بما أمر به » (1). وقد قضي بالخطابة على كثير من البدع والآفات وساهمت بالتالي في عملية التحرير الكبرى للعقول وتداعى بها جدار الخوف واللامبالاة والاحساس بالدونية وبنى بها صفات الفخر والاعتزاز والصلابة والإقدام.

(1) وزارة الشؤون الدينية، آثار الإمام عبد الحميد بن باديس، مصدر سابق، ج4، ص 275.

الفصل الثامن : الإنصال عن طريق التعليم المكتبي

- البحث الأول

المقصود بالتعليم المكتبي

I- التعليم المكتبي: الأبعاد الحضارية والمعطيات

التاريخية

1- الفترة التمهيدية:

أ- المرحلة الباديسية

ب- منهج التعليم في هذه المرحلة

2- مرحلة الانتعاش والرسمية 1930-1940م

أ- توفر الكفاءات

ب- نجاح الدروس وخطب الرحلات في تعبئة الجماهير لصالح التعليم.

ج- اليأس الصريح من سياسة الحكومة الفرنسية وضرورة الاعتماد على النفس

د- توفر الإطار القانوني والنمط الواقعي

هـ- مدرسة التربية والتعليم أول نموذج للمدرسة الإصلاحية

3- إصلاح وتنظيم التعليم العربي الحر في الجزائر

أ- نقد ابن باديس لمناهج التعليم في معاهد التربية الإسلامية وضرورة إصلاحها.

ب- تقارير التعليم المكتبي في المؤتمر الخامس لجمعية العلماء سنة 1935م.

ج- مؤتمر المعلمين الأحرار

د- امتداد التعليم الاصلاحى إلى فرنسا

4- فترة الركود الثقافي 1940-1943م

5- فترة 1944-1956م فترة نشاط أوسع وأشمل

أ- التعليم الثانوي

ب- الأساتذة

ج- دار الطلبة

د- البعثات العلمية

هـ- مشروع جامعة عربية إسلامية في الجزائر

- المبحث الثاني

II- أهداف التعليم المكتبي كوسيلة للاتصال

1- التعليم المكتبي مدرسة لتعليم الإسلام الصحيح

2- التعليم المكتبي برنامج للوحدة القومية للشعب الجزائري

أ- ضد دعوى البربرية كتبرير للتفريق

ب- ضد الطعن في الثرات

3- التعليم المكتبي مؤسسة لتكوين الرأي العام السليم.

4- التعليم المكتبي مدرسة عصرية بكل المقاييس.

الخلاصة

يمكن للدارس لأية حركة أن يحيط بالتحليل مذهبيتها الدينية والفكرية، وآثارها على الحياة الاجتماعية للأمة التي تواجهها. وقد تقتصر وسائل هذه الحركة وبهذا الوصف على الخطب الدينية والدروس المسجدية والمؤلفات الدينية البحتة والتي لا تخرج بها عنه. وقد تدخل جمعية العلماء المسلمين الجزائريين بهذا الوصف وتحت هذا الاعتبار في هذا النوع من الحركات لكن معطيات مذهبيتها الفكرية، وآفاق دروسها المسجدية ومواضيع خطبها تأتي إلا أن تجعلها ضمن وصف شمولي في مبادئها ودعوتها وأهدافها وكذا كفاءات تواجدها الراسخ في الحياة اليومية للجماهير وكذا المستقبلية. ويعدّ التعليم المكتبي أهم مؤشر ينقلها من الوصف الديني البحت إلى أبعاد تشمل الدين والسياسة والحضارة، وتتلخص في الانتماء والمقومات الشخصية للأمة الجزائرية، ويكسبها صفة الحضور الحي والفعال في الشارع والأسرة والمؤسسات المختلفة وبالتالي ^{الوجود} المصيري للشعب الجزائري. وإذا اختص المسجد بجلب الكهول والشيوخ وتحمل مسؤولية تعليمهم وتوعيتهم، وشيّدت النوادي للشباب حتى تحميه من الانحلال وتشغل وقته بالمفيد وتوجه طاقاته إلى خدمة الوطن والأمة، فإن مهمة التعليم المكتبي تقتصر بالنشء -بالجيل الجديد- حتى تحميه من التشرّد وتحفظه من الأمراض وتعدّه علمياً وثقافياً ليتحمل مسؤولية تحرير الوطن ضمن مقوماته الشخصية.

المقصود من التعليم المكتبي :

والمقصود بالتعليم المكتبي -والمسمى بجمعية العلماء تمييزاً له عن التعليم المسجدي هو التعليم المدرسي، الذي يخضع لمؤسسة مؤطرة بأساتذة ومعلمين، منظمة الأوقات والمناهج والبرامج، متوفرة -قدر المستطاع- على سائر الخدمات الاجتماعية من لوازم مختلفة ومرافق متنوعة وتسهر على كل ذلك إدارة بيداغوجية وإدارية موجهة. ويسمى التعليم المكتبي في الجزائر -باعتبار خضوعها للاستعمار الفرنسي- بالتعليم العربي الحر، أو التعليم العربي الشعبي الحر، ويقصد به التعليم الذي ينهض الشعب

بتأسيسه وتمويله من تبرعاته الخاصة وهو التعليم الذي احتضنته جمعية العلماء بعد تكوينها عام 1931 م، على نطاق الوطن الجزائري كله (1).

ويدخل التعليم المكتبي ضمن مفهوم التعليم الشعبي الحرّ في بعض الدول الأوروبية الذي كانت تتولاها الجمعيات الخاصة وبعض الدوائر الدينية الخاصة بترخيص من الحكومة لكن باستغناء عن خدماتها المادية والأدبية (2).

والمتبع لنشاط رجال الإصلاح في الجزائر يجد أن التعليم المكتبي كان على رأس الوسائل التي فكّر العلماء مبكرا في الاتصال بالجزائريين عن طريقها وجلبهم إلى ميدان الإصلاح الديني، وأدركوا ضرورتها الحيوية بالنسبة للوطن الجزائري، ومن ثمة فقد سخّرت جمعية العلماء كل وسائلها بما في ذلك التعليم المسجدي، الخطابة، الرحلة، والصحافة لخدمة التعليم المكتبي تحسّيسا وتوعية وتعبئة.

I- التعليم المكتبي: الأبعاد الحضارية والمعطيات التاريخية عند

جمعية العلماء:

أ- أدرك علماء الإصلاح الجزائري، وهم بعد فرادى مشتتون حقيقة الاسعمار الفرنسي، ومن ثمة طابعت المعركة التي عقدوا عزمهم على الدخول فيها متيقنين بالنجاح رغم أن كل المؤشرات الواقعية الجزائرية تجعل من الانتصار ضربا من الخيال أو مسّ من الأوهام. ولم يعد العلماء للمعركة سلاحا عسكريا، وإن كانت مرحلة السلاح نتيجة حتمية في براجمهم، لكنهم دخلوا معركة إعداد الأمة التي ستحمل السلاح. وهي التي أفقد الاستعمار الفرنسي كل معالم وجودها. وكانت تلك أولى المراحل، ولكن المنطق يشهد بأنها المرحلة التي حكمت على الاستعمار بالغبرة على أرض الجزائر، وعملت على فك رموز قوته وجبروته وآلت به وبها إلى حتمية الانسحاب من حياة الجزائريين، وقد تكفل التعليم المكتبي بتحقيق كل ذلك.

(1) رابح تركي، الشيخ عبد الحميد بن باديس، فلسفته وجهوده في التربية والتعليم، المرجع السابق، ص 152-153. بتصرف.

(2) وقد اعتبرت جمعية العلماء تعليمها المكتبي بهذا النوع من التعليم بحكم استقلاله عن ميزانية الإدارة الفرنسية لزوم ترخيصه من طرفها ضمن القوانين المحكوم بها. ونلاحظ هنا في بيان الجمعية سنة 1931م لاحقا.

والذي يدرك حقيقة الاستعمار الفرنسي في الجزائر، بأن لا يكتفي بالنظر إلى الظواهر والوقوف عند السطحيات يدرك طبيعة المعركة، ومن ثمة يعي خطورة سلاح العلماء المسلمين على مصير الوجود الاستعماري في الجزائر والذي تم به فعلا القضاء عليه. يشير الشيخ محمد البشير الابراهيمي إلى هذه الحقيقة ويؤكد لها في كل مناسبة قصد إفهامها لمواطنيه وكي لا تغيب عنهم في تعاملهم الآني والبعيد مع المفهوم الاستعماري: >>.. أما المتعمقون في التفكير فيرون أن هذه المعركة غير عادية، وإنما شأنها ما ذكرناه، وهو أنه صراع بين الإسلام والمسيحية. فالحكومة - وإن كانت لائكية في الاسم- مسيحية في المعنى والنسبة والأعمال والمظاهر، والاستعمار كله مسيحي، ينفى ذلك ما ينفيه فتفضحه الشواهد والشهود، والعنصر اللاتيني في هذا الباب، هو إمام الأئمة وقطب الأقطاب <<(1). ويقول: >>.. أما الحقيقة (*) التي يجب أن تعرفها أمتنا من هذه المعركة، ويجب أن تشيع فيها شيوع الحقائق المسلمة، ويجب أن يأخذ كل فرد منها خطوة من معرفتها فهي أنها صراع بين الإسلام والمسيحية .. <<(2).

والمقصود من المعركة في أقوال الابراهيمي إنما هي قضية التعليم العربي الحرّ الذي تقوده وتوجهه جمعية العلماء، والذي لم تواجه الحكومة بحالا آخر بالعراقيل والظلم والقوانين المحجفة، ثم بنفي أصحابه وتغريمهم وسجنهم ومحاكمتهم أمام محاكم الجرمين والمذنبين، بتهم تعليم العربية، والخطر على أمن الدولة.. أكثر من هذا المجال. ولم يغيب عن الفكر الاستعماري أصلا أهداف التعليم العربي الحرّ تحت قيادة جمعية العلماء في هدم القوالب الايديولوجية الثقافية والحضارية التي تفرضها برامج المدرسة الفرنسية في الجزائر وقد كانت هذه تستهدف القضاء على اللغة العربية، وتنصير الجزائريين تمهيدا لإدماجهم

(1) محمد البشير الابراهيمي، عيون البصائر، مصدر سابق، ص 273.

(*) إن تجاهل هذه الحقيقة "المسلمة" في الصراع بين الاستعمار الفرنسي والشعب الجزائري تحت قيادة جمعية العلماء في هذا المجال، أو إغفالها في تاريخ الجزائر الحديث، بجانب صريحة للمنطق التاريخي والمعطيات الواقعية للمعركة وهو تقصير واضح في فهم وتقويم عمق الصراع وعدم وزنه ضمن حقيقة اتساعه وشموليته التي تمتد عبر الحدود الحضارية للأمة الجزائرية، وبمجموع مقررات الشعب الجزائري، وهذا ما نلاحظه ملامح خطره على الهوية الوطنية في الوقت الراهن.

(2) المصدر السابق، ص 271-272.

في النهاية في الكيان الفرنسي. ومن ثمة فإحياء اللغة العربية، في إطار بعث الإسلام من نصوص القرآن الكريم والسنة الشريفة وهي أهداف المدرسة الباديسية هو روح المعركة غير المتكافئة ماديا ومعنويا بين نشاط جمعية العلماء التعليمي الدؤوب، وبين قوانين الإدارة الاستعمارية المحففة، ولا مجال إذا للحكم على الصراع بالأمر العادي الذي يقع بين الحاكم والمحكوم كما يتراءى للناظر إلى الظواهر (1)، وإنما يمكننا وصف ذلك بأن كلاً من الاستعمار الفرنسي وجمعية العلماء كانا على طول الموجة نفسها في فهم كل منهما لأهداف الآخر وغاياته، ومن ثمة -ومن ثمة فقط- نستطيع تقدير الجهود الجبارة التي كان يبذلها علماء الإصلاح وتحسن فهم منطق القوانين الاستعمارية في هذا المجال.

ب- يعي علماء الإصلاح البادسيون أنهم وجدوا في فترة من الافلاس الفكري والعلمي العام -وكذا المادي- لا تعود مسؤوليته إلى جيلهم الذي وجدوا فيه، ولكن إذا كان للاستعمار الفرنسي فيه معول الهدم والسلب والاححاف، فإنه لا يسلم جيل الآباء والأجداد عن التقصير في أداء الواجب، >> فلو أن آباءنا وأجدادنا الأذنين بنوا لنا المدارس لأراحونا من هذه المتاعب التي نلقاها في بناء المدارس، ولصرفنا هذه الجهود فيما بعد البناء من تدمير وتعمير، ولكنهم عفا الله عنهم عاشوا لأنفسهم في شبه غيبوبة عن زمنهم.. ولم يعيشوا لنا، ولا فكروا فينا، ولا أقرضونا شيئاً يذكرنا بهم، فماتوا غير مذكورين، ولا مشكورين..>> (2). ومنه إذا حق لكل جيل أن يحاسب الجيل السابق عن منجزاته وآثاره فإن جيلهم سوف لا يسلم من محاسبة جيل الأحفاد. >> إن أحفادنا -يوم تتصل أسبابهم بأسباب هذه النهضة - سيتحدثون عنها وعنّا، وسيوفوننا الحساب على أعمالنا لها وعلى آثارنا فيها حمداً وذمّاً، كما نتحدث نحن عن أجدادنا الأذنين والأبعدين ونذكر ما بنوا وشادوا وما نقضوا وتبرّوا >> (3). ومن ثمة فإن جمعية العلماء تنطلق من وعي تام لمسؤوليتها المزدوجة الخاصة بالواجب نحو الأمة الجزائرية الذي لا يقتصر على جيل واحد وإن كان جيلهم هو الأساس لكل إصلاح مقبل وإنما يشمل مصير الشعب الجزائري

(1) محمد البشير الابراهيمي، عبون البصائر، مصدر سابق، ص 273. بتصرف.

(2) المصدر نفسه، ص 277.

(3) المصدر نفسه، ص 276.

ومستقبله، ثم الحرص على أن يكون أداء الواجب بكل إجادة وإتقان فإن كان ولا بد أن يسجل التاريخ آثار علماء الإصلاح وإنجازاتهم فالأحرى أن تخلو لبنتهم من النقص والإعوجاج والتهافت وهو ما دعا إليه الإبراهيمي، وحذر منه الأمة الجزائرية، يقول: «فأحشي - يا أمة - يوما يعرض فيه هذا الطور من أطوارك، على أخلافك، ويمتحن هذا الساف (*) الأول من بنائك، بأيدي أبنائك، فيجدون هنا النقص والعوج هناك، والتهافت هنالك، ثم ينظرون فيجدون الأساس قد وضع على دمنة... ذلك هو الفضوح، وتلك هي سحنة العين» ويقول: إن التاريخ سيكتب عن يومك هذا أنه ميلاد نهضة، وفجر انقلاب، وبدء تجديد ستنتزع منه هذه الشهادة انتزاعا لا خيرة فيه، لما في طبيعة يومك هذا من الغلو والاسراف.. فاحرصي على سدّ الخلل وتقويم العوج ما استطعت، وأكثر مما تستطيعين، حتى تكون شهادة قريبة من الصدق» (1).

ج- يعتقد علماء الجمعية أن حياة الأمم والشعوب إنما تكون بالعلم والمدارس، فالمدرسة منبع العلم ومشروع العرفان، وطريق الهداية إلى الحياة الشريفة، فمن طلب هذا النوع من الحياة من غير طريق العلم زلّ، ومن التمس إليه من غيرها ضلّ، وحياة الأمم التي نراها ونعاشرها شاهد صدق على ذلك» (2). ولأن طبيعة الأحداث التي سببت النوم للأمة الجزائرية كما يقول الإبراهيمي قد «حقتها بأنواع شتى من المخدرات، منها ما يفسد الدين، ومنها يشكك في اليقين، ومنها ما يزلزل العقل، ومنها ما يشلّ الإرادة، ومنها ما ينسي الماضي. ومنها ما يغير الاتجاه، ومنها ما يزيغ النظر إلى الخير والشر فيغير مفهومها، ومنها ما يفسد الفطرة...» (3) فإنه لا بد من حقتها في المقابل بأنواع شتى من المنبهات وإعادة تركيب وتكوين وتوجيه العقلية الجزائرية ضمن ما يسميه علي مراد «بعملية إعادة قولبة للشروط الثقافية الخاصة بالمجتمع الجزائري» (4). بهدف إعادة

(*) الساف: هو السطر من البناء يضعه البناء حجرا بحجر ثم يملأ بالطين أو الكلس وصغار الحجارة ثم يتقل إلى ما فوقه وهو الساف الثاني.

(1) محمد البشير الإبراهيمي، عيون البصائر، مصدر سابق، ص 277.

(2) المصدر نفسه، ص 283.

(3) المصدر نفسه، ص 285-286.

(4) Ali Merad, Le Réformisme Musulman en Algérie, Op Cit, p 334

الضمير السياسي لدى الجزائري.

ومن هذا المنطلق فإن جمعية العلماء تثق تماما في الأمة الجزائرية في إمكانية تحقيق استقلالها وتحررها إذا ما وجدت من يبعث فيها الحياة من جديد، وقد كفلت ذلك إلى التعليم المكتبي واستندت فيه على الأمة الجزائرية بكل فئاتها تعلّما وتبرّعا وتشبيدا إيمانا منها بأن عملية التغيير لا تلخص في شعارات للمطالبة، ولا في نخبة تدّعي تمثيل الجزائريين وهي بعيدة عنهم واقعا ومطالب، وإنما لا بد أن يعيشه ويتفاعل معه كل فرد في الأمة فإذا تحقق لهم الاستقلال، فبالضرورة يشمل كل مقومات الشعب الجزائري وفي إطارها الأيديولوجي والعقدي والتاريخي والحضاري، وهو الاستقلال الصحيح. ومن ثمة فإن العملية التعليمية التي ستقودها جمعية العلماء تمثل أيضا عملية اتصال عميقة وواسعة تستند في الأساس على الأمة الجزائرية >> بجهودها وطاقاتها، ودينها وإيمانها ومنطلقات فكرها وغاياته، وإلى دروس مسيرتها وعبرها التاريخية، ومن هذا المرجع الزاخر قدّم علماء الجمعية منهاجها وأسلوبها علميا شموليا، يوظف الطاقات والامكانيات بشكل فعال منظم وسليم تفهم بها قوة التصدي للتحديات والعراقيل التي واجهتها في كل مراحلها >> (1).

وعليه فقد بنى علماء الإصلاح الجزائري أساس الإصلاح على العلم والمدرسة، لكن قدّروا نجاحهم على صلاح التعليم، وهو ما أكدّه ابن باديس في كثير من المناسبات، ففي مقال بعنوان >> صلاح التعليم أساس الإصلاح >>، يقول: >> فإذا أردنا إصلاح المسلمين فنصلح علماءهم >>، ويقول: >> ولن يصلح العلماء، إلا إذا صلح تعليمهم، فالتعليم هو الذي يطبع المتعلّم بالطابع الذي يكون عليه في مستقبل حياته وما يستقبل من عمله لنفسه وغيره. فإذا أردنا أن نصلح العلماء فنصلح التعليم، ونعني بالتعليم: التعليم الذي يكون به المسلم عالما من علماء الإسلام يأخذ عنه الناس دينهم ويقتدون به فيه >> (2).

وبناء على ما يؤكده الأبراهيمي فإن العملية التعليمية الإصلاحية، كانت مجهودا جزائريا محضا من حيث الأطارات والمناهج وفي المؤسسات التي تعدّ أو توضع أو تشيد

(1) عبد الحميد أحمد أبو سليمان: أزمة العقل المسلم. (عين مليلة، دار الهدى، 1992)، ط2، ص 217.

(2) آثار الإمام عبد الحميد بن باديس، مصدر سابق، ج4، ص 74.

على مقياس الأمة الجزائرية لا تخرج في ذلك عن مقوماتها ولا عن تحقيق متطلباتها الحيوية المرحلية البعيدة والآنية، يقول الابراهيمى: «نحن إنما نبن لك، ونفصل على مقدارك، ونرشدك إلى ما يجب أن تكوني عليه لتستبدلي حالة بحالة، ولبوسا بلبوس» (1).

وقد مرّ التعليم المكتبي بفترة تمهيدية وفترة علنية رسمية تختلف الواحدة عن الأخرى من حيث الأولويات، وطبيعة المرحلة ومن حيث الصعوبات والعراقيل والمواجهة مع الإدارة الاستعمارية، ثم من حيث الأهداف المتوخاة، ولكن يبقى ذلك ضمن عملية منسجمة ومتسلسلة ومنطقية انطلاقاً من غاية بناء الأساس على ما صحّ وقوي.

الفترة التمهيدية: 1- المرحلة البادية

يعود تاريخ التفكير في التعليم المدرسي في الجزائر، وتصور تنظيمه بوضع برامج ومناهجه إلى سنة 1913م أين التقى الشيخ عبد الحميد بن باديس والشيخ محمد البشير الابراهيمى ضمن اللقاءات الخاصة التي لم يكن يتطرق الحديث فيها إلا للوطن وسبل تحريره والتي تجمع على أن لا وسيلة لذلك إلا العلم والمدرسة كما يقول الابراهيمى: «فكنا نجتمع على أن لا وسيلة لذلك إلا العلم تنتشر أعلامه، والجهل ينقشع ظلامه، ومدارس تشاد للنشء وألسنة تفتق على العربية، وأقلاما تتشقق على الكتابة..» (2). ولم يكن ذلك أملاً بقدر ما كان واقعا ملموسا تحقق مباشرة بعد عودة ابن باديس سنة 1914م إلى الجزائر وجلوسه للتعليم المسجدي والتعليم المدرسي للنشء في الجامع الأخضر، كما يصف ذلك هو بنفسه: «كان التعليم المسجدي بقسنطينة قاصرا على الكبار ولم يكن للصغار إلا الكتابيب القرآنية. فلما يسّر لي الله الانتصاب للتعليم عام 1332هـ (1914م) جعلت من جملة دروسي تعليم صغار الكتابيب القرآنية بعد خروجهم منها في آخر الصبيحة وآخر العشية فكان ذلك أول عهد الناس بتعليم الصغار» (3).

وقد تحوّل تعليم الصغار من المسجد الأخضر إلى مكتب أسّس لهذا الغرض ليكون أساسا للتعليم الابتدائي وينتقل بعده إلى بناية الجمعية الخيرية إلى أن ينتهي إلى مدرسة

(1) محمد البشير الابراهيمى، عيون البصائر، مصدر سابق، ص 278.

(2) آثار محمد البشير الابراهيمى، مصدر سابق، ج4، ص 339.

(3) عمار الطالبي، المرجع السابق، ج3، ص 268.

جمعية التربية والتعليم الإسلامية سنة 1930م وحرر ابن باديس قانونها الأساسي الذي صادقت عليه الحكومة. وتصبح مدرسة التربية والتعليم الإسلامية نتيجة لجهود متواصلة عنوانا لمنهج التعليم الاصلاحى في الجزائر، الذي امتد على مدى ست سنوات عبر بضع مدارس أخرى لم تنته إلى العشر ويبرر الابراهيمى قتلها بفترة ما قبل حملة المحاضرات حيث يقول: >> ولكنها بعد حملة المحاضرات وتأثر الأمة بها وتأجج حميتها للغتها، ثارت الرغبات الكامنة فيها وامتدّ التنافس في هذا الميدان في المدن والقرى، فقفز عدد المدارس من عشرة إلى عشرات .. >> (1).

وتشهد مصادر الجمعية، أن الفترة الأولى من التعليم الاصلاحى في الجزائر كانت بمثابة ثورة فكرية قادها ابن باديس لوحده أولاً ثم بمعية زملائه العلماء، ميزتها سمات الثورة في الحمية والحماس والتفاني والتضحية، ومنهج التربية والتعليم، من حيث البرامج والتنظيم، وقف فيها ابن باديس موقف القائد المخلص الذي يدرب جنوده ويعدهم لمعركة المصير >> يتعجل بهم الفوائد، ويسابق بهم الزمن >> (2). مادامت الحرب طويلة والمعركة في بدايتها.

وإذا كان القائد -ابن باديس- عالماً فإنه ليس كعلماء الدين الذين عرفهم التاريخ الإسلامى في قرونه الأخيرة، كما يشهد زميله الابراهيمى >> فقد جمع الله فيه ما تفرّق في غيره من علماء الدين في هذا العصر، وأربى عليهم بالبيان الناصح، واللّسان المطاوع، والذكاء الخارق، والفكر الولود، والعقل اللّماح، والفهم الغواص على دقائق القرآن وأسرار التشريع الإسلامى، والاطلاع الواسع على أحوال المسلمين ومناشء أمراضهم، وطرق علاجها، والرأي الشّديد في العلميات والعمليات من فقه الاسلام وأطوار تاريخية والإلمام الكافى بمعارف العصر مع التمييز بين ضارّها ونافعها، مع أنه لا يحسن لغة من لغاتها غير العربية، وكان من التضرع في العلوم الدينية واستقلاله في فهمها إماماً في العلوم الاجتماعية يكمل ذلك كلّه قلم بليغ شجاع يجاري لسانه في البيان والسحر. فكان من

(1) عمار الطالبي، المرجع السابق، ج3، ص 244.

(2) آثار محمد البشير الابراهيمى، مصدر سابق، ج4، ص 338.

أخطب خطباء العربية، وفرسان منابرها، كما كان من أكتب كتابها» (1).

وهذه شهادة لها وزنها، ولم تصدر عن رجل عادي، وإنما من عالم دين من طراز ابن باديس نفسه، وهي بعيدة كل البعد عن المجاملة أو وصف الرجل بما ليس فيه وإنما هي شهادة للتاريخ، عامة عند الخصوم والأهل، وإيرادها في هذا الصدد شهادة أخرى تقول بأن صناعة الرجال لا تقتنى لأي كان وأن طبيعة المرحلة التي كانت تمر بها الجزائر، قدرها علماء الإصلاح وعلى رأسهم رئيسه وباعته الشيخ عبد الحميد بن باديس، مرحلة لبناء القاعدة ورسم الساف الأول للنهضة وهم الكتابب الأولى للمعركة أو تكوين جيل النهضة فتولى القائد بنفسه للتعليم والتربية، فدلّت على أنها مرحلة غير عادية في طبيعة برامجها وتنظيمها ومنهجها وأهدافها.

واجتمع حول ابن باديس، في الجامع الأخصر، ثم في مكاتب الجمعية الخيرية فيما بعد، عشرات من «الشبان المستعدين لتعليمهم لكن أيضا لتربيتهم وطبعهم على قلبه والنفخ فيهم من روحه وبيانه. تطوعا واحتسابا لا يرجو إلا جزاء ربه ولا يقصد غير نفع وطنه» (2).

منهج التعليم في هذه المرحلة :

لما كانت الوسائل المادية للجماعة الباديسية في البداية متواضعة جدا، ولما كانت عودة الوعي السياسي للمسلمين الجزائريين في بداياته ، «فقد كان على رجال الإصلاح أن يتصدوا لكل أنواع الصعوبات ذات الطابع النفسي دون حساب الصعوبات الإدارية التي تنوع حسب الأوضاع، وحسب اللعبة السياسية لكل منطقة، وحتى المواقف الشخصية لكل ممثل للسلطة» (3). ويمكننا ملاحظة أنه عملا لتحقيق أهداف هذه المرحلة بكل نجاح فقد اختار ابن باديس وجماعته أن تكون مرحلة هدوء ومرونة بل ومسالمة إزاء الحكومة، تحاشيا لكل اصطدام مع السلطة الإدارية حتى تبعد خطر قوانينها وعيونها على

(1) آثار محمد البشير الابراهيمي، مصدر سابق، ج4، ص 336.

(2) المصدر نفسه، ص 337.

(3) Ali Merad, le Réformisme Musulman en Algérie, Op Cit, p 342.

مدارسها وبرامجها، وكان >> من حسن حظ بداية الحركة العلمية الباديسية أن قارنت اشتغال الحرب العالمية الأولى على حين غفلة كما يقول الابراهيمى فأصيب الاستعمار الفرنسي بسكتة وقتية استتلافا للجزائريين إذ كان في حاجة إليهم، فاتسع بفضل تلك السكتة أفق الحركة، تمت بذورها، ورسخت جذورها، وما انتهت الحرب إلا وإيمان الأمة بنفعها قد كمل، وحمائتهم لها قد تأصلت وأمدادها من المشرق قد ترادفت والفكر العام والخاص قد تطور فلم يسع الاستعمار إلا الاستمرار على السكوت ... >> (1).

وقد واجه ابن باديس وجماعته، قلة الموارد المالية، بل وانعدامها، واستغل سكوت الاستعمار، ببذل جهود جبارة، وتضحيات جسيمة، وكان همه البحث عن كيفية تخريص حمية مواطنيه في هذا المجال بكل الوسائل والأساليب، فكانت مرحلة للتفاني والتضحية، ونكران الذات من طرف القائد، والاقبال المتعطش لتلقي العلوم بغيره وجدارة من طرف التلاميذ، وقد كانت بصمات ابن باديس واضحة في المنهج الفكري والعملية والروحي للمرحلة نشاطا ونتائج.

يصف محمد الصالح بن عتيق -أحد تلاميذ ابن باديس- في هذه الفترة طريقته في التعليم فيقول أن الأستاذ >> كان ينفرد بطريقته، فلم نعرف من الأساتذة من نهج هذا المنهج في زمنه >> (2). وكانت طريقة ابن باديس تجمع بين الطريقة القديمة التي عمدتها حفظ المتون وفهمها ودراسة الشروح، والتعليق عليها، فكان تلامذته يستعرضون الأقوال ويستنبطون، ويرجحون الصحيح منها. >> وكان في ذلك موقفا >> (3).

وأما الطريقة الحديثة عنده -كما يقول تلميذه- >> فتعتمد على الحوار بينه وبين التلاميذ، والمشاركة في دراسة النصوص، وتوجيه الأسئلة المفاجئة لهم من وسائل الدرس وبذلك يجعل التلميذ في تنبه ويقظة، وكثيرا ما يلاحظ الأستاذ غفلة أحدهم فيوجه له السؤال، فيرتبك ويخجل حيث لم يستطع الجواب فيقول له الأستاذ: كن معنا يا بني..

(1) آثار محمد البشير الابراهيمى، مصدر سابق، ج4، ص 340.

(2) محمد الصالح بن عتيق، المصدر السابق، ص 55.

(3) المكان نفسه.

وبهذا الأسلوب الحكيم يضمن فهم التلاميذ للدّرس >> (1).

ويورد ابن عتيق أمثلة عن طريقة ابن باديس في تدريسه للأدب العربي الذي يجعل الهدف منه تذوق تلاميذه للفن والجمال في التعبير العربي، وتدريسه للفقهاء الذي يربط فيه الفروع بالأصول ذاكرة منشأ مأخذها ومنشأ الخلاف فيها بين الفقهاء بتوسع وتعمق في الاستدلال والاستنباط حتى يزيل حيرة الدّارسين وارتباكهم أمام أقوال الفقهاء، ثم تدريسه للتاريخ الذي يجعل منه بعنا لحياتهم واعتزازا بتاريخهم، واقتداءا بأجدادهم الذين بنوا حضارة لا يوجد مثلها عند غيرهم من أمم الأرض، ويشير ابن عتيق أن الإمام الأستاذ >> كان يختار وقت الصباح لدراسة التاريخ ويقول: إن هذا الوقت تنام فيه الشياطين ويعني بالشياطين الجواسيس، وتستيقظ فيه الملائكة ويعني بذلك الطلبة >> (2).

كما كان ابن باديس يدرس التوحيد ويتبع في طريقته السلف الصالح في الاستدلال بالقرآن والسنة بعيدا عن تعقيدات المتكلمين، والتأثر بمذاهبهم الفلسفية في اثبات وجود الله على الشعور الفطري. وقد مرّت بنا طريقته في التفسير عندما تعرضنا إلى التعليم المسجدي.

ويضيف الابراهيمى من جهته منهج التعليم الباديسى في الفترة التمهيديّة بما يبيّن أن الرجل قد سخره الله فعلا لبعث أمة وبناء الجيل القائد فيها، يقول: >> كان -رحمة الله- يؤثر التربية على التعليم ويحرص على غرس الفضائل في نفوس تلاميذته قبل غرس القواعد الجافّة في أدمغتهم، ويدربهم على أن يتهجوا نهجه في العمل للعروبة والإسلام، فقد كان يستخرج من قواعد العلوم التعليميّة قواعد للاجتماع، وينتزع منها دروسا في التربية والأخلاق >> (3)، ويضرب الابراهيمى لذلك مثلا: يقول: >> فمن القواعد الاصطلاحية المعروفة -مثلا- الفاعل مرفوع، والعامل يتقدّم وهي من قبيل الحمل المتبدلة الدائمة على الألسن يستخرج ابن باديس من معانيها اللغوية نظرات اجتماعية طبيعية

(1) محمد الصالح بن عتيق، المصدر السابق، ص 55.

(2) المصدر نفسه، ص 57.

(3) آثار محمد البشير الابراهيمى، مصدر سابق، ج4، ص 338.

ككون الفاعل العامل مرفوع القدر عند الناس، وككون العامل يجب تقديمه على الكسلان العاقل في جميع المقامات..» (1).

ويقول الابراهيمى في مكان آخر: أن ابن باديس: «كان يدرّب تلاميذه على الأعمال النافعة كما يدرّب القائد المخلص جنوده ويعدّهم لفتح مصر أو لقاء مصر» (2). ويقول بأن الرجل كان يعمل على أن يخرج من تلاميذته رجالا، وأنه يجري بهم على هذه الطرائق ليجمع لهم بين التربية والتعليم، وكأنه يتعجل لهم الفوائد، ويسابق بهم الزمن، مادامت الأمم قد سبقتنا بالزمن» (3).

هذا عن طريقة التدريس، وأما عن تنظيم أوقات الدروس فإن ابن باديس كان حقيقة يسابق الزمن، فإن الوضع الفكري والتعليمي المنحط الذي كان يعيشه الجزائريون، دفعه إلى تكثيف الدروس والحرص الشديد على إفادة طلابه، وعدم التهاون في مواصلة الدرس دون اعتبار منه للعناء والمشقة والمهم عنده أولا همّ خدمة مواطنيه ووطنه «فقد يستغرق عمله جميع النهار وجزءا من الليل، يشرع في الدرس الأول بعد صلاة الصبح مباشرة، ويستمر إلى منتصف النهار، ثم يستأنف العمل بعد صلاة الظهر إلى أن يجين المغرب، فينصرف بعد صلاة المغرب إلى درس التفسير بالجامع الأخضر، وينتهي منه عند صلاة العشاء وهكذا دواليك كل يوم ماعدا يوم الجمعة..» (4).

وبناء على ما تقدّم نتبين أنه لما تصدى ابن باديس للتعليم في هذه المرحلة تدرّسا، وإشرافا ثم طريقة تدرّسه برنامجا ومنهجيا، كان يسير على ضوء خطة مرسومة وأهداف محسوبة وكأنه أمام معركة فاصلة ومصيرية، محدودة الوقت، محسوبة المخاطر، وكان عليه -وهو القائد- تحقيق النصر مهما كلفه من عناء وتضحية، وقد وضع نفسه موضع المسؤول والأستاذ بل والأب الثاني لتلاميذه. وتذكر الشهاب بأن ابن باديس كان يجمع تلاميذه بعد الامتحانات النهائية فيلقي عليهم كلمة الوداع ويزودهم بالوصايا النافعة،

(1) آثار محمد البشير الابراهيمى، مصدر سابق، ج 4، ص 338

(2) المصدر نفسه، ص 339.

(3) المصدر نفسه، ص 338.

(4) محمد الصالح بن عتيق، المصدر السابق، ص 56.

«ويذكرهم بما بينه وبينهم من رابطة الأبوة والبنوة وما بينهم من رابطة الأخوة، وما تقتضيه هذه الروابط من محبة مثمرة للأعمال الصالحة في الخدمة العامة، ومن دوام اتصال للتعاون على الخير، ومن تسامح بين الجميع، ومن تناصح بالتواصي بالحق والتواصي بالصبر»⁽¹⁾. كما كان يقوم بتوديعهم واحدا واحدا داعيا لهم بما فيه صلاح الحال والمآل.

وتجدر الإشارة إلى أن النظام الذي اتبعه ابن باديس مع تلاميذه «من حيث اهتمامه بهم من النواحي التربوية، والأخلاقية والغذائية، والصحية والاجتماعية يعدّ في حد ذاته نموذجا لتخريج القادة وهو الهدف الذي توخاه ابن باديس أساسا في هذه المرحلة»⁽²⁾. وينقل المطبقاني عن أحد الباحثين الأوربيين قوله: «بأن ابن باديس كان لتلاميذه أكثر من أستاذ، بل كان أبا ثانيا لهم، فقد كان يحضر الامتحانات النهائية ويودّع شخصا كل تلميذ عند ذهابه في إجازته، وكان يزور بيت الأيتام في مدينة قسنطينة مرّة على الأقل سنويا، لأنه كان يشعر أنه مسؤول عن مستقبل الشباب المسلم الموجود هناك»⁽³⁾.

ويبدو أن ابن باديس قد صبّ اهتمامه في هذه المرحلة على الكيف من حيث التعليم والتربية والتوجيه والتكوين، واكتفى بالعدد القليل من المساجد والمكاتب المدرسية التي ظهرت في مدينة قسنطينة كما اكتفى بالعدد القليل من التلاميذ الذين يؤمنونها، وقد هدف فعلا أن يجعل منهم الجيل القائد الذي سيتحمل مسؤولية التربية والتعليم وكذا رسالة الإصلاح وإيصالها إلى كل مناطق الجزائر وهذا ما توجهت إليه الجهود منذ 1930م.

واستطاع ابن باديس بأسلوبه الفذ، ومنهجه المحكم، لكن أيضا بتفانيه وتضحياته أن يحدث الأثر المطلوب، ويكوّن الجيل الذي تجمّع حوله وتعلّم على يديه، وتمكّن من بعث روح المسؤولية فيه وإحياء نداء الواجب نحو الوطن والأمة، وفتح عيونهم على الحقائق المرة لمصيرهما إن لم يسارع إلى انقازهما من قبضة الاحتلال يصف تلميذه ابن

(1) الشهاب، ج3، م11، غرة ربيع الثاني 1354هـ-3 جويلية 1935م، ص 265.

(2) المطبقاني، المرجع السابق، ص 107.

(2) المكان نفسه نقلا عن: M.S Belguacedj, Ben Badis et le Mu'tazilisme, Revue de l'occident musulman de la méditerranée, Centre National de la recherche scientifique de l'université d'Aix Marseille.

عتيق ذلك الأثر بقوله: « هو قوة روحانية تسري في العروق والدماء سريان الكهرباء في الأجسام، فتعزها هزا عنيفا، وتحدث فيها انقلابا مفاجئا، فتحوّلها من الخمول إلى اليقظة، ومن خرافات وأوهام إلى تفكير ونظر صحيحين، ومن استسلام وخضوع للباطل وجنوده، إلى شجاعة ومقاومة منطقية عاقلة. ثم يقول: وعلى الجملة: فإن الطالب ليجلس بين يديه الأيام القليلة، فتتغير تصوراته للحياة بسرعة، ويشعر بأنه خلق لتأدية رسالته الإنسانية الشريفة ويدرك مسؤوليته الكبرى كمسلم يدافع عن إسلامه وعروبته في حرارة وإباء ويحارب الخرافات التي ألصقت بالدين، ويكافح لإحياء لغة الضاد ويعتزّ بالانتساب إلى وطنه، ويفتخر بتاريخه وقوميته، ويؤمن بحقه في الحياة، كل ذلك بصبر وثبات واستعداد للتضحية بأنواعها..» (1).

ويقول الابراهيمى : « فما انتهت الحرب العالمية الأولى حتى تخرّج على يده وعلى طريقته جيل من الشبان، تتفاوت حظوظهم من العلم النظري، ولكنهم طراز واحد في العمل وصحة التفكير، والانقطاع للجهاد» (2) وهو الجيل الذي يسميه الابراهيمى في موقع آخر: « بالرعيل الأول في الثورة الفكرية الجارفة التي نقلت الجزائر من حال إلى حال» (3).

والخلاصة أن هذه المرحلة لم تشمل التعليم فقط وإنما التربية والتوعية السياسية، والتدريب على الخطابة.. الخ، وقد هدفت إلى تحقيق أهداف التعليم العربي الحر مجتمعة، ومن ثمة كانت مكتفة البرامج والمناهج، تطرّق فيها القائد الأستاذ إلى كل المعارف، وبأسلوب فريد ونظام خاص محكم بتكوين قاعدة للنهضة في الجزائر.

2- مرحلة الانتسام : 1930-1940م:

بعد النتائج الهامة التي حققها التعليم الباديسي، معززا بعودة بعض علماء الإصلاح من المشرق العربي كما رأينا، ووقوفهم على الثورة الفكرية التي أحدثتها ذلك التعليم في

(1) محمد الصالح بن عتيق، المصدر السابق، ص 54.

(2) آثار محمد البشير الابراهيمى، مصدر سابق، ج4، ص 338.

(3) المصدر نفسه، ص 339.

عقول فئة غير قليلة من الجزائريين، والتي تشهد عليها حركة الشارع الجزائري، وصحافة الإصلاح. كان لابد الانتقال إلى طور آخر، أكثر رسوخا وخاصة بعد توفر الكفاءات العلمية على طراز مميّز تحمل الفكرة الإصلاحية على المذهب السلفي، وتطمح في التحرر. ولم يكن الحديث وقتئذ عن الاحصاءات والأرقام بقدر ما كان عن التغيير الملموس في المظهر والسلوك والتوجه الجزائري الجديد، وتطلب الموقف اتصال أوسع بالجزائريين يهتم هذه المرة بالأرقام - دون أن يغفل الكيف - من حيث عدد المدارس، وعدد التلاميذ والطلاب وكذا الطالبات.

وتعدّ مدرسة التربية والتعليم في هذا الصدد أول مدرسة تحضن التعليم العربي الحرّ تحت قيادة رجال الإصلاح، بالمفهوم الحديث، ولم يكن التفكير فيها ابن يومه، لكن توفر لذلك الوسائل والإطار والعوامل فكانت نتيجة ملموسة لتأكيد طموحات وجهود سنوات طوال.

أ- توفر الكفاءات:

كانت المدة التي انتصب فيها ابن باديس للتعليم من 1914-1930م كافية لتخريج عدد كبير من الإطارات الإصلاحية والكفاءات العلمية، وقد تلقى تعليما ابتدائيا ثم متوسطا واختار ابن باديس النجباء منهم لمواصلة تعليمهم الثانوي والعالي بجامع الزيتونة بتونس، مع أنه يمكننا وصف التعليم الباديسي بأنه كان تعليما ثانويا وعاليا بناء على نظامه ومنهجه ومضمونه ثم أهدافه في تلك المرحلة. وقد شهد العلماء بأن هؤلاء الطلبة كانوا على طراز متين من الفكر الصحيح، والخلق السليم، والاتجاه القويم في الحياة وهو ما يميّز تعليمهم الذي يماثل أو يفوق نظيره في الزيتونة نفسها.

وكان ابن باديس يتابع نشاط تلاميذه باهتمام بالغ وقد أقام للعائدين منهم من حاملي الشهادات استقبالا رائعا على حد تعبير أحدهم وهو ابن عتيق الذي يضيف: «فأقام لنا حفلا مضييفا اقتصر فيه على أعضاء من جمعية التربية والتعليم، وإدارة الشهاب وبعض الشخصيات، وبعد الترحيب بنا والتهنئة لنا، وجّه إلينا نصائح، وأهاب بنا إلى القيام بالدعوة الإصلاحية في الجهة التي نكون فيها، ولم يكتف ابن باديس بهذا بل نوّه

بأسماء الذين فازوا في امتحان شهادة التطويق لهذه السنة ونشر أسماءهم في مجلة الشهاب تحت عنوان نجوم الجزائر >> (1).

ولا يخفى على الدارس أهمية هذا الموقف من رجال الإصلاح من تشجيع لطلاب العلم، وتعريفاً للأمة بهم، ومن تسهيل القيام بمهمتهم في مناطق تواجدهم، بعدما زكّاهم علماء الوطن وعلى رأسهم الشيخ عبد الحميد بن باديس الذي >> ملأت شهرته -يومئذ- أرجاء الوطن، وأصبح من دواعي الشرف وزينة الدنيا، أن يحدث الرجل بأنه رآه، أو حيّاه، فضلاً عن أن يكون تتلمذ له، وقرأ عليه >> (2) ثم تعريف الأمة بهم، لتعينهم على أداء مهمتهم بالاستماع والاحترام والاقبال، ثم بثّ الثقة بينها وبينهم، وتبشيرها بنجاح أبنائها وحثها على إرسال أطفالها للتعليم ومن ثمة دفعها للبذل في سبيل العلم لأنه سبيل التحرّر، ومبذد اليأس وناشر الأمل في النفوس.

وفعلاً لم يطل ابن باديس أن بعث إلى هؤلاء الناجحين وكلفهم بتولي مهمة التعليم في مناطقهم تحت إشراف الجمعية، والذين تجندوا حالاً للقيام بالمهمة كل في منطقتهم، يقوم فيها >> بالوعظ والارشاد ويهاجم البدع والخرافات، ويدافع عن فكرة الجمعية الإصلاحية، ويدعو إلى وجوب تعليم الأطفال اللغة العربية والتعاليم الإسلامية >> (3).

وكان ابن باديس قد دعا 1929م بعض العلماء المدرسين ومنهم >> الشيخ المولود بن الموهوب المفتي، والشيخ الصالح بن العابد، والشيخ عبد الحميد ابن الجامع، ونفسه إلى تكوين معهد علمي يكون أساس كلية دينية إسلامية بالجزائر >> (4). ولكن يبدو أنه لم يستجب هؤلاء لدعوته، وقد توفر له بعودة الزيتونيين، ثم الكفاءات العلمية التي واصل تكوينها في قسنطينة من تحقيق هذه الخطوة الجريئة في تكوين مدرسة "جمعية التربية والتعليم الإسلامية".

(1) محمد الصالح بن عتيق، المصدر السابق، ص 73

(2) المصدر نفسه، ص 53.

(3) المصدر نفسه، ص 74.

(4) الشهاب، ج 10، م 5، غرة جمادى الثانية 1348 هـ - نوفمبر 1929م.

ب- نجاح دروس وخطب الرحلات في تعبئة الجماهير لصالح التعليم:

قال جانب الدروس المسجدية بما في ذلك الوعظ والإرشاد والدروس النظامية، "بجالس التذكير" كان ابن باديس يقود ثورته التعليمية في مكاتب التعليم العربي. وكان يخطب الجماهير ويحثهم على البذل في سبيل التعليم المدرسي، عن طريق الرحلات المكثفة التي بدأها منذ 1929م وقادته إلى كثير من المناطق والتي أقامت الحجة وأوقعت الأثر المطلوب في إقبال الجزائريين على بناء المساجد التي كانت تتخذ للتعليم المسجدي والمدرسي. ولم يكن علماء الإصلاح ليقدموا على إنشاء جمعية "مدرسة التربية والتعليم" إلا بعدما تحققوا من القبول الحسن الذي سيحيطها به الجزائريون، يقول الابراهيمي: >> دعونا هذه الأمة - بعد ما تحققنا للقبالية فيها- إلى التعليم العربي الابتدائي-، لأنه الحظ الذي تبتدئ منه النهضة العلمية فلبت لاوانية ولا عاجزة، وشادت له من المدارس ما يفخر به الفاجر، ويفض به الشانئ السافر، وتمكنت منها الرغبة في هذا النوع من التعليم إلى درجة أننا معها الانتكاس والرجوع إلى الوراء >> (1).

ولا ننسى النصائح الهامة التي كان ابن باديس يودّع بها تلاميذه، والتي يحملهم فيها المسؤولية الكاملة لتمثيل أخلاق طالب العلم بالسلوك والحث عليه في مناطق تواجدهم، وقد جاء في الشهاب أن ابن باديس كان يحثهم على أن يمثلوا الأخلاق الإسلامية الفاضلة بين أقوامهم حتى تظهر عليهم آثار ما كانوا فيه من غربة للتربية والتعليم فيحببوا الناس في العلم ويكونوا لهم قدرة فيه وفي العمل به، ويوصيهم بنشر ما تعلموا من خير برفق ولطف وأن يكونوا مظاهر محبة ورحمة على ما قد يلقونه من جفوة من بعض الناس وأن لا يقابلوا ذلك إلا بالتسامح دون أدنى شيء من المكروه >> (2).

ويصف أحد التلاميذ كيف مهّدت فعالية تلك الخطب وتلك النصائح له الميدان للقيام بمهمته التي أقبل الجزائريون للمساعدة الفعالة فيها ببذل التطوع في العمل، وهو ما يمكن تعميم أثره في كل المنطق التي تمّ بها ذلك، يقول ابن عتيق الذي عينته الجمعية للإمامة والتعليم تحت إشرافها في منطقة قلعة بن عباس: >> لما حللت بها وجدت شعبا

(1) محمد البشير الابراهيمي، عيون البصائر، مصدر سابق، ص 279-280.

(2) الشهاب، ج4، م11، غرة ربيع الأول 1354هـ - 3 جويلية 1935م، ص 265.

جادا مستعدا للعمل، ومقبلا على العلم والرغبة في التعليم، وساعدني هذا على مواصلة العمل بلا فتور، ولم تمض سنة على إقامتي هناك حتى شرعوا في بناء مدرسة التربية والتعليم، وهبّ أبناء القلعة وتنادوا صغارا وكبارا وشيوخا وشبانا للمساعدة الفعالة ببذل المال والتطوع في العمل، وتمّ بناء المدرسة في أمد قريب وشكل بديع >> (2).

ج- اليأس من سياسة الحكومة الفرنسية وضرورة الاعتماد على النفس:

لقد توفر لانشاء "مدرسة التربية والتعليم" الظرف التاريخي المناسب الذي حرض الموقف النفسي العميق لعلماء الإصلاح في قضية التعليم العربي الحر، فقد استغل رجال الجمعية ومن التف حولهم من التلاميذ والطلبة العيد المتوي الفرنسي لاحتلال الجزائر ودعايتها ووسائلها وبرامج مهرجاتها فيه كمادة دسمة لمواضيع الخطب والمقالات والدروس والدعاية المضادة ضد فرنسا ومنها التحريض على النهوض بدين الأجداد ولغة الدين والوطن لتبديد أحلام فرنسا التي صرحت بها بكل غرور يقول الابراهيمي: >> أما نحن - وأعني تلك الفئة القليلة ومن التف بنا من تلاميذنا فقد بكرنا أيضا بدعوة مضادة لهذا العيد-، وكان كلامنا مع الأمة كله يدور على معنى هذه الجملة: (يا أيها الجزائريون: إن هذا العيد هو عرس فرنسا في مآتمكم، وهو تذكير بقتلهم آباءكم، وبكل ما صاحب الاحتلال من انتزاع أرضكم وانتهاك عرضكم وهو إسهاد للأمم على قهركم وإذلالكم وتسجيل عليكم بذلك وبيضيف: >> كنا ندير هذه المعاني ونكررها لتنفيذ إلى مواقع التأسير في نفوس إخواننا، ونعززها بكل ما يثير النخوة والحفيظة، ويحي العزة والكرامة فامتلات النفوس حقدا وغضبا، وبلغنا نحن غايتنا في تذكير من طال عليهم الأمد فقسست قلوبهم، ولا غاية أكمل من ذلك في ذلك الوقت >> (2).

وكان من آثار ذلك تعميم اليأس من فرنسا في نفوس كل الجزائريين وكشف ادعاءاتها التمديدية والحضارية في الجزائر، وقد شمل اليأس >> حتى النظارة المتفرجون الذين لم يكن لهم أرب في النظر إلا تصديق المعاني التي أثبتناها في دعايتنا المضادة

(1) محمد الصالح بن عتيق، مصدر سابق، ص 76.

(2) آثار محمد البشير الابراهيمي، مصدر سابق، ج4، ص 347.

للعيد» (1). كما يقول الابراهيمى . واندفعت الجماعات من الجزائريين في أخريات تلك السنة إلى تشييد المساجد في القرى الاستعمارية الصميمة التي لم تكن فيها إلا الكنائس الضخمة، وليس فيها من المسلمين إلا الطبقات العاملة عند المعمرين. ويشهد أن سلوك الجزائريين كان من الغرابة بحيث تمّ بناء العشرات من المساجد في الوقت الوجيز، الشيء الذي يثبت أثر الغيرة على الدين، ورسوخ الإسلام في قلوب الجزائريين، وأثر الدعاية المضادة التي عرفت كيف تخاطب الجزائريين وتشجعهم على البذل. «فقد رأينا الغرائب من تسابق أغنيائهم وفقرائهم، نسائهم ورجالهم في البذل للمساجد وتنبه هذا الخلق الأصيل فيهم لبناء المساجد كان هو السابقة المباركة لما تجلّى بعد ذلك على أكمله في تشييد المدارس حين دعوناهم إليها» (2).

وتجدر الإشارة إلى أن الصحافة الباديسية قد تناولت موضوع التعليم العربي الحرّ منذ ظهورها، وأن انتهاء العلماء إلى القناعة الواقعية لليأس من الإدارة الاستعمارية ودعوتهم الجماهير الجزائرية إلى الاعتماد على النفس لتعليم أبنائهم وانقاذ وطنهم من الجهل والاستغلال قد انضجته سنوات من التجربة الذكية التي تدرّجت من التحايل في المطالبة بتعميم التعليم المزدوج بالفرنسية والعربية، لما يعود من فائدة للأمتين المتساكنتين في الجزائر، إلى التمسك بدعوى أن تعليم الأهالي سيخدم سمعة فرنسا العلمية والحضارية بين شعوب العالم.. الخ، لكن مع التأكيد في كل ذلك على حياة مقومات الشعب الجزائري المتمثلة في لغته العربية ودينه الإسلامي والتنبية إلى استحالة ذوبان الأمة الجزائرية، وأن الجهود والدعاية والبرامج الفرنسية التي كانت تبذل في هذا الصدد كلّها إلى فشل. وقد اتجهت جهود الإصلاح في موازاة ذلك إلى التعليم المسجدي والمكتبي كما رأينا، ومن ثمة فإذا كانت برامج المدرسة الفرنسية وبحوث الإدارة الاستعمارية في هذا الصدد قد استهدفت تحقيق الاندماج التدريجي للجزائريين (*) وبحث وسائله النظرية والعملية الكفيلة

(1) محمد البشير الابراهيمى، مصدر سابق، ص 348.

(2) المكان نفسه.

(*) وقد مرّ بنا بيان عدم جدية هذا الاتجاه ورفضه من طرف الفرنسيين لدعوى عدم نضوج الجزائريين وعدم كفاءتهم للوقوف على قدم من المساراة مع الفرنسيين وبالتالي فشل هذه السياسة على كل الأصعدة.

بتسهيله واقعيا في المدارس الحكومية، فإن برامج المدرسة الاصلاحية قد هدفت إلى الدعاية المضادة نظريا على صفحات الجرائد المختلفة وواقعيا في المدارس والمساجد، مستغلة الدعاية الأولى نفسها لنسخها في عقول الجماهير وواقعهم.

ويدخل في هذا الصدد اقتراح الجمعية الجزائرية للتعليم الثانوي -الفرنسية- بحث في مشروع تعليم اللغة العربية والمدنية الإسلامية الذي وزعته هذه الجمعية تحت هذا العنوان على أفراد من أهل العلم (*) وبعض الصحف وطلبت الجواب عنه، لكن لم يجب عنه أحد منهم فترجمته إدارة الشهاب وعرضته على بعض علماء قسنطينة ثم استأذنت بنشر أحوبته فأذن لها، وقد تعرض مشروع البحث إلى موضوع تعليم اللغة العربية والمدنية الإسلامية من وجهه السياسي والاقتصادي، والعلمي، والفكري، والتعليمي، وتناولته الشهاب في سبعة من أعدادها (أي بداية من العدد 39 حتى العدد 46). وقد بنى البحث أسئلته على القرارات الوزارية والأوامر الرسمية التي صدرت في سنة 1906م والمعمول بها آنذاك في الجزائر ولم يرد في أسئلته أي شيء يخص الأهالي أو من شأنه منفعتهم، لكن لسان حاله يقول: ما القدر والمدى الذي يستفيد منه الفرنسيون إذا ما تعلموا اللغة العربية أو بالأحرى الدارجة منها؟.

وقد استطاع العالم المحجيب (لأن الموضوع نشر بدون إمضاء) أن يستغل الأسئلة لصالح التعليم العربي الحرّ الخاص بالمسلمين الجزائريين، ويبيّن إجاباته على أساس أن يجعل الفائدة متبادلة، وإن كان الجزائريون هم الأهم والأولى عنده في ذلك طمعا في توفير الوسائل والمدارس الضرورية لهم.

وقد كشف "الشهاب" في إجاباته على لسان العالم المحجيب عن كثير من الحقائق ووضح كثيرا من أهداف التعليم الحكومي الفرنسي في الجزائر، كما بيّنت موقف العلماء منها بصراحة العالم المسلم، ومرونة السياسي الذكي، وأسلوب البيداغوجي الحرّ، فمن الوجه العلمي، وردّا على سؤال: ما رأيكم في التعليم العالي العربي بـ "المدارس" (أي المدارس العربية)؟.

(*) يبدو حسب صيغة الشهاب أن أسئلة هذا البحث لم يتوجه بها إلى العلماء المسلمين الجزائريين البتة وإلا فقد لُس منهم الرسميون فقط.

قال الجيب: لا أبيع لنفسي أن أسمى التعليم الذي فيها عالياً، وإنما هو فوق الابتدائي ودون المتوسط، وإذا تذكرت أفراداً كثيرين من المتخرجين منها أقول ابتدائي فقط فقط... (1).

ومن الناحية الفكرية ردّ على سؤال: هل اللغة العربية الفصحى والدارجة معا قادرتان على تثقيف الفكر وإنضاجه على حد سواء مع اللغات القديمة والعصرية؟ قال: لغة العلم والأدب والقراءة والكتابة التي يتفاهم بها نيف وتسعون مليوناً من الناطقين بالعربية بلهجات مختلفة - إنما هي اللغة الفصيحة المعربة -، فإنها هي التي تثقف الفكر وتنضجه (2) وردّ على سؤال: هل يجدر بالعربية أن تدرس بمثل الأساليب والكيفية التي تدرس بها تلك اللغات العتيقة خصوصاً لتصويب الذهن وتثمير الفكر؟ قال: ليست العربية مية كاللغات العتيقة فلا تكون أساليب تعليمها واحدة (3).

وردّا عن سؤال: هل مجامع القصص والأخبار والنوادر المتداولة عند الأهالي باللغة في وفور وتنوع مادتها وشهرتها حدّاً يؤهلها لأن يكون منها تعليم جذاب خلاب مطرب؟ قال: اللغة الدارجة إنما هي لغة الوسط العامي للتخاطب، والتعليم الجذاب الخلاب المطرب إنما يكون في لغة الوسط الراقى، وتلك إنما هي اللغة الفصيحة المعربة لغة القراءة والكتابة والخطابة ومجالس العلم والأدب، وأكدّ في جواب آخر: ينبغي أن يكون تعليم العربية كتعليم الفرنسية سواء ولا حاجة لأبناء الأهالي لتعليم اللغة الدارجة لأنها فطرتهم. وردّا على سؤال آخر في الوجه التعليمي: هل الكتابة التي تعلّم ينبغي أن تكون هي المستعملة عند الأهالي أم يجب تصويرها (أي تصوير مخارج الحروف) بحروف رومانية أي (أوروبية)؟ قال: ينبغي الاعتناء بالخط العربي وتعليم لغته به، وتعليم العربية بحروف أجنبية يقطع الصلة تماماً بين التلميذ وما يكتب بالعربية (4).

(1) الشهاب، ع 42، 19 محرم 1345هـ - 29 جويلية 1926م

(2) المصدر نفسه.

(3) المصدر نفسه.

(4) الشهاب، ع 43، 23 محرم 1345هـ - 2 أوت 1926م.

ولم تتوقف الصحافة الباديسية عن مطالبة السلطات الفرنسية المسؤولة بتوفير الوسائل المادية والفكرية لتحقيق تعليم مزدوج فرنسي عربي، ولم يكن يهّمها في ذلك بطبيعة الحال إلا المسلمين الجزائريين، وقد تذرعت بالتعليم الفرنسي أيضا، بغية توفير الوسائل المادية والفكرية حتى يستفيد منها الجزائريون، لكنّها لم تكن تخفي في كل الأحوال تحسرها لسوء التفاهم القائم بين المعرّبين والمفرنسين، بل وخطورة التعليم الفرنسي على مقومات الشعب الجزائري، بعدما كشفت البرامج المدرسية حقيقة أهدافه والتي ترجمتها إلى الواقع "جماعة النخبة" من الجزائريين المسلمين بلسان حال يقول بأن الوحدة الوطنية التي يطمح كل الجزائريين إليها والتي هي بيت القصيد في نشاط علماء الإصلاح لا يمكن أن تتحقق في وسط من الانقسام اللغوي، وأنه لن يستفيد المجتمع شيئا من كونه منجذبا بين لغتين مضادتين، وتؤخذ مطالبة العلماء في هذا المجال على أنها حيلة وذريعة وتحايل على إدارة الاحتلال قصد تنبيهها إلى أهمية التعليم التي تعود فوائدها ليس على الجزائريين المسلمين وإنما أكثر من ذلك على الفرنسيين أنفسهم وعلى سمعة فرنسا، وقد صرّح ابن باديس في سنة 1926 م "تأكيدا لهذا الاتجاه" قائلا: >> يوجد في هذا الوطن لغتين أختين.. يا لسعادة الجزائر العظمى - وهما العربية والفرنسية-. نحن نتمنى بأن توفر السلطات المسؤولة الوسائل المادية والمعنوية المساعدة من أجل خلق وتحقيق وتعليم مزدوج فرنسي عربي الذي سيحقق ثمارا يستفيد منها الجميع >> (1). وصرّح في 1930م قائلا: إن قراءنا يعلمون بأننا لم نتوقف عن التصريح في كل مناسبة بأن التعليم العربي الفرنسي ضرورة حيوية بالنسبة للجزائريين.. ولهذا فإننا نساند دوما كل جهد وكل مبادرة لصالح هذا التعليم لفائدة الأمتين >> (2).

وتفانيا في تحقيق هدف تعليم أكبر عدد من الجزائريين سواء بالعربية أو بالفرنسية، ورغم اعترافهم بتفاهة التعليم الحكومي على حدّ تعبير الابراهيمى فقد كان العلماء يعتبرونه بابا للعلم يجب أن لا يحرمه الجزائري. يقول الابراهيمى: >> وما كنا في يوم من

(1) Ali Merad, Le Réformisme Musumlan en Algérie, Op Cit, p 335.

نقلا عن الشهاب (الافتاحية) 17 أوت 1926.

(2) Idem.

نقلا عن الشهاب في عدد أبريل 1930، ص 152-153.

الأيام حرباً للتعليم الفرنسي على تفاهته، بل نحض عليه، ونعدّه باباً من أبواب الثقافة، وسلاحاً من أسلحة الحياة» (1). ويقول: «قد أصبح من عقائدنا الراسخة، بل أصبح من الحقائق الواقعة أن هذه الحكومة عاملة على إفساد تعليمها الرسمي لأبنائنا، وتصويره هيكلًا بلا روح، وحرمانهم في الأخير من مفتاح التعليم الثانوي، وهو الشهادة الابتدائية. فهي تتعهد البرامج بالتنقيص من المفيد والزيادة من السفاسف، وهي تكثر بزعمها من التعليم الصناعي الآلي لتبعد أبنائنا عن منشطات الفكر والروح. وهي تكل تعليم أبنائنا - بدعوة الضرورة - إلى طائفة ليست لهم كفاءة المعلم، ولا شهادته، ولا مؤهلاته» (2). ويؤكد هذه المعاني - في موضع آخر - بصراحة أكثر وجرأة أكبر: يقول «والتعليم الأجنبي - على تفاهته في الكيف وقلته في الكم - وعلى اضطرارنا إليه وإقبالنا عليه - يسبقه جهل. وتقترن به آفات، وتعبه مفسد، وهو على ذلك كله يفتح عيننا، ليعمي عيننا، ومن بلغ إلى غايته منا أصبح بالطبيعة متنكراً لماضيه ودمه وقومه، لأن ذلك التعليم وجدّه فارغاً فملاه بما شاء هو، لا بما نشاء نحن ...» (3).

د- توفر الاطار القانوني والنمط الواقعي:

لم تكن تمنيات العلماء إزاء التعليم العربي الحر لتبقى في طي صفحات الجرائد، وقرائح النفوس المتوثبة خاصة بعد النتائج الهامة التي تمخضت عنها الثورة التعليمية الباديسية طيلة أكثر من عشر سنوات حيث بدت ملامحها في سريان اليقظة والوعي والحركة في جسم الشعب الجزائري. وقد كانت جماعة الشهاب تتابعه عن كثب وبمحذّر وأمل، وتسجله وتوجهه عبر مختلف الوسائل الأخرى وفي مختلف المناسبات، وعملاً بمنهج التدرج، وبناء النتائج على المقدمات - عملة الجماعة الاصلاحية - كان لا بد المرور إلى تجسيد الاعتماد على النفس والقيام بالمبادرة التاريخية في هذا المجال، ويعتبر مقال: «ما ينجم عن نشر التعليم الحر، وما ينشأ عن إهماله بعد خمسين سنة؟» الذي نشرته مجلة

(1) محمد البشير الابراهيمى، عيون البصائر، مصدر سابق، ج4، ص 247-248.

(2) المصدر نفسه، ص 248.

(3) المصدر نفسه، ص 303.

الشهاب (1) آخر إنذار منها للجزائريين لكنه في الوقت نفسه حوصلة دقيقة لمرحلة من الانتظار الطويل الذي آل إلى تصريح عن اليأس التام من الحكومة قصد القيام بإجراءات مفيدة في هذا المجال، والأهم من ذلك كله هو تقديم خطة عمل متكاملة الفصول لتطبيق هيكلية ونظامي لتعليم عربي حرّ في الجزائر المتمثل فيما بعد في "مدرسة التربية والتعليم الإسلامية". وقد بحث المقال هذه القضية من كل جوانبها القانونية والمادية والمعنوية، ومن ثمة اعتبره "علي مراد" بياناً (2) كما عدّه ميثاقاً للتعليم العربي الحرّ في الجزائر (3).

وأهم ما يمكن تسجيله عن هذا البيان - الميثاق - هو فرض جماعة الشهاب نفسها كمشرّع وحيد وأصلي في هذا المجال للمسلمين الجزائريين، وهذا هو هدفها أساساً، ولكن أيضاً كطرف مشرّع على قدم المساواة بالمشرّع الفرنسي، له الحق في النظر في مشاكل المجتمع وتقديم الاقتراحات والحلول التي يراها مناسبة لها، وهو أمر بالغ الأهمية بالنسبة للجزائريين تاريخياً في السنة المثوية للاحتلال بالذات، وله خطورته على مستقبل السيادة الفرنسية في الجزائر، بما في ذلك بداية وضع فرنسا على محك تداعي وعودها وجور قوانينها إزاء تعليم الشعب الجزائري المسلم وهو ما قامت عليه الشواهد الحية فيما بعد.

ويسجل المقال بكثير من التحسر وكثير من الحذر فشل إدارة "الجزائر العربية الفرنسية" في قضية التعليم عموماً، والتعليم الحرّ على وجه الخصوص في حين يؤكد أنه لو كان الجزائريون يحتفظون بمقدراتهم ويتصرفون في حظوظهم المالية كما تتمتع به أمم العالم (4). لما كان حال التعليم العربي الحرّ على الوضع الذي هو عليه، ومن ثمة فإن تطعيم البيان بعبارات مثل: التعليم الفرنسي، أو المزدوج، الجزائر العربية الفرنسية، عاطفة اللهفة على اللغة الفرنسية، السمو باللغة الفرنسية إلى قمتها.. >>، على قلتها لم يكن إلا بالقدر الذي يبعد التهمة ويظهر اهتمام العلماء بالتعليم بلغتيه وهو موقف تطلبه الحيلة والمرونة

(1) الشهاب، ج1، م6، غرة رمضان 1348هـ - فيفري 1930م ص 33-39، وتجدر الإشارة أن المقال لا يحمل أي امضاء، وفي هذا الحالة فهو من الإدارة ومن رئاسة التحرير بالذات.

(2) Ali Meard, Le Réformisme Musulman en Algérie, Op Cit, p343.

(3) Ibid, p 342.

(4) المصدر السابق، ص 33.

وسياسة عدم التصادم مع الاحتلال، بيد أن روح البيان وقضيته ومحور اهتمامه هم الجزائريون فحسب، ويمكننا أن نقبس منه عدة عبارات أو فقرات تأكيداً لما ذهبنا إليه:

1- «العقلية السائدة في الشعب الجزائري إسلامية بحتة، والنزعة المتفشية فيه عربية فرنسية صرفة، سواء من جهة اللغة أو العلم أو الثقافة، وشدة الحذب على هذه النزعة وتلك العقلية حقيقة وضاعة وأمر واقع لا يدعو إلى الاسترابة ولا يختلف فيه اثنان..، بيد أن ما يواجهه من العراقيل والأزمات تجاه هذه الظاهرة المتغلغلة في نفسه أبعد متغلغل قد بعثه على التفكير فيما عسى أن يجده من الوسائل لسحق تلك العراقيل، والحلول لتلك الأزمات» (1).

2- إن الشعب الذي يعتمد على غير جدّه ونشاطه يتعذر عليه إصابة المرمى، بل وقد يستحيل ذلك عليه، واستشهد المقال بعبارة نسبها إلى شخصية سياسية معترف لها بالخبرة الدقيقة والمران الطويل، لكنها في الحقيقة هي تمرير لطلب ومبادرة بتولي مسألة التعليم العربي الحر لجماعة الشهاب، فقال: «إن الحكومات في جميع البلدان لا تستطيع وحدها النهوض بالأمة، بل ذلك موكول إلى الجمعيات، وما على الحكومات إلا تعضيدها ومساعدتها» (2) ويبدو من ثمة إرادة إبعاد يد الحكومة عن هذا المجال تشريعاً وبرامج واقتصار دورها في تقديم المساعدة المادية والمعنوية.

3- ولأن مساعدة حكومة الاحتلال قول بالأحلام، فالأولى الاعتماد على النفس وعدم تفويت الفرصة المتاحة «ونحن ندرك لأول وهلة أننا لازلنا نمتي أنفسنا بالسراب من هذه الناحية، وإذا شئنا الانتفاع بمواهبنا فما علينا سوى الاقتلاع عن هذا التمي، والاعتماد على النفس، وهذا أولى من التحسّر على فوات الفرصة المتاحة حين كانت ميزانية الجزائر منضمة إلى ميزانية فرنسا...» (3).

4- يدخل التعليم الشعبي -العربي الحرّ- ضمن إطار مفهوم التعليم الحر في الدول الأوروبية، وهو يستجيب لطموحات الجماهير المسلمة ويجب أن يتمتع بتسامح الحكومة نفسه الذي تتمتع به الجاليات الإسبانية والجمعيات التبشيرية البروتستانتية في التعليم الحر

(1) الشهاب، ج1، م6، غرة رمضان 1348هـ - فيفري 1930م ص 33.

(2)، (3) المصدر نفسه، ص 34.

بالمدين الجزائرية دون بلوغ حدّ المطالبة بمساعدات حكومية أو تعميم القانون لاستفادة جميع العناصر منه. ولم يخرج المقال عن القانون الفرنسي الخاص بالجمعيات وقد استشهد >> بالمواد 70-71-72 منه القاضية باسترجاع الكنيسة قانون التعليم الحر تحت رقابتها، المخوّلة لها بتشكيل (13) جمعية لذلك الغرض >> (1) وعليه وضمن هذا القانون لزم أن يتخول للمسلمين - أيضا - تنظيم تعليم عربي حر، بإنشاء مدارس ابتدائية >> يكون هدفها إحياء اللغة العربية - لغة الأمة الجزائرية - وأيضا السمو بالفرنسية إلى قمتها... >> (2).

5- تشير أرقام التعليم الفرنسي بكل مستوياته إلى أن معدّل عدد المتعلمين في الجزائر لا يربو على اثنين في المائة (2 %) (*) فقط ولا يمس الجزائريين منها إلا فئة قليلة جدا منهم، ويؤكد المقال أن أغلب هؤلاء هم من أبناء القرى والواحات والأطراف البادية، أو من الأسر النابهة التي لا مطمح لها سوى التربع على دست الوظائف، الأمر الذي انجرّ عنه النزوح نحو المدن إما لأجل التخصص، وإما لاستثمار ذلك القدر التافه من المعلومات في سبيل العيش، ولا تخفى خطورة ذلك في تغيير الملكات والنزعات ومقت هؤلاء لجنسهم والزراية به وبحياته. فاستعراض حياة هؤلاء يبين >> أن نزعتهم الجديدة - إلا القليل - ليست على غرار غربي ولا على طراز شرقي، ونحن قد لا يمكن أن نستفيد من هذه الذبذبة شيئا >> (3)، كما يقول صاحب المقال.

ويقسم المقال الشعب الجزائري بالإضافة إلى هذه الفئة إلى :

أ- الفئات الجاهلة: وهي التي تتكون منها كل الأمة تقريبا، والتي تضطرها ضائقة العيش، والجهل إلى مزاوله الأعمال الشاقة وحمل الأثقال شأن كل من ضاقت عنه السبل، وشأن كل أمة عادت لا تنشد الثراء، بل مطمحها كلّه تجاه الفقر الجارف سد الرمق. وينبه

(1) الشهاب ، ج1، م6، غرة رمضان 1348هـ - فيفري 1930م ص 34.

(2) المصدر نفسه، ص 35.

(*) يشير علي مراد بأن هذه النسبة لا تماشى مع المعطيات الحكومية الرسمية التي تصل إلى 7 % في سنوات 1929م و 1930م على التوالي. انظر :

- Ali Merad, Le Réformisme Musulman en Algérie, Op Cit, p 342.

(نقلًا عن م فبولست، هل ستعيش الجزائر ؟)

(3) المصدر السابق، ص 35.

المقال إلى أن النتيجة المنطقية لهذا الوضع هو أن تدفن الأماني في الصدور، وأن تنصرف الأمة كلّها عن كل واجب وتنقطع دونها كل صلة بتقاليد الأسلاف ومقدساتهم >> (1).

ب- فئة أبناء المدن: يقول المقال هم الذين ليس لهم من البواعث ما يشوقهم إلى المعرفة التامة، إذ المؤلف عندهم الاكتفاء بمظهر الأزياء الفاتنة، والتشدد بنزر يسير من الألفاظ تشويها بسبب تلك الرطانة المكتسبة من رطانات لغات العناصر المتباينة، وهذا أنفس تراث في نظرهم يخلفه الأسلاف ويحتفظ به الأبناء والحفدة ذلك الموقف المدعم بالحقائق المشهورة التي لا تقبل المحاكمات ولا تغطي بالتشويهات، ولذلك فأملنا فيهم أمل ضائع أو قليل (2).

ج- فئة الشبيبة المستكملة ثقافتها ومعارفها باللغة العربية: يقول المقال بأنها >> على ضآلة عددها وتشنت وحدتها واختلاف منازعها فإن عداء الرجعيين والظروف العتيقة لم ينشطها، بل جعلها مهيبضة الجناح، ورغم أن صبغتها العربية لا تحوّل بهجرتها إلى المدينة فإنها لا تقوى أن تطبع أبناءها بطابعها، بل ربما كان الاخفاق الذي نالها وصدمة يدفع بها إلى تنقيف الأبناء بغير اللغة التي كانت سبب فشلها في الحياة، فيأتي هؤلاء على شاكلة فئات الشبان الأخرى >> (3). ولم يكتف المقال باستقراء الوضع المتردي للتعليم في الجزائر بأرقامه وحال فئات الأمة المسلمة إزاءه وإنما قدّم حلاولا مادية معضدة بالشواهد الواقعية وبالمعطيات المختلفة والتي تتمثل في :

1- تأسيس جمعية عامة أو جمعية في كل عمالة من العملات الثلاث مدعمة ببرامج

محكمة تناول:

- أ- وجوب تأسيس المدارس الابتدائية في البلدان والقرى.
- ب- انتداب المعلمين الكفاة من أبناء الجزائر، الحاملين لشهادات من الأزهر أو الزينونة.

ج- يمكن لوزارة المعارف الاشراف على هذه المدارس.

(1) الشهاب ، ج1، م6، غرة رمضان 1348هـ- فيفري 1930م، ص36،

(2) المكان نفسه.

(3) المصدر نفسه، ص 36-37.

د- تؤسس هذه المدارس على مثال المدارس الابتدائية الحرة في تونس
هـ- تمول هذه المدارس، الأسر الثرية، والنواب.

و- يستشار في هذه المشاريع بآراء العلماء وخبرتهم وتجاربهم.

2- يتعين على كل منطقة القيام بالواجب نحو أبنائها ولهذا فإن الوضع يتطلب:

أ- تأسيس جمعية إرشادية مؤلفة من العمالات الثلاث

ب- تختار كل منطقة مندوبين أكفاء يمثلونها في كل اجتماع عام

ج- تتمثل وظيفة هؤلاء المندوبين في أخذ الإرشادات، والتشجيع بروح العمل المثمر، وبتّ الدعاية في أوساطهم.

د- يفسح المجال للحائز على الشهادة الابتدائية في اللغة العربية والفرنسية

لمواصلة التعليم للإحراز على شهادة التخصص العليا بإحدى الكليات أو لحذق مهنة من المدارس الصناعية كالكهرباء والميكانيك (1).

6- وينتهي المقال معطياته ومقترحاته ببناء يضمنه تحذيرا واستصراحا، مذكرا بأن

هذه الوسائل تحتاج إلى همم شماء، وإلى عزائم فولاذية، وإلى شجاعة أدبية صحيحة، وأن في الأمة الجزائرية من يجمع هذه الخلال وهم يشعرون بهذا الواجب المقدس ويتحمسون له، لكن الذي يعزى إليه هو البادي بالعمل ويقول: << سواء وجدنا من نشدهم، أو أحققنا وسواء وفقنا أو عذلنا فإننا قلنا كلمتنا الأخيرة وهي أننا مشرفون على الهوة، وإذا لم نتدارك الأمر فإننا سنعود بعد خمسين سنة أثرا بعد عين >> (2).

وعلى ضوء ما تقدم فإن جمعية العلماء التي ستتحمل مسؤولية التعليم العربي الحر

ستنطلق بناء على قاعدة ناضجة من المعلومات الدقيقة، والمعطيات المحسوسة لا تختص

بمنطقة دون منطقة ولا بفتة دون فتة من الجزائريين وإنما هي مسؤولية 900.000 طفل

جزائري في سن التعليم حسب الاحصائيات الرسمية، ومصير أمة كاملة تطمح في التغيير

الروحي والفكري الذي يحقق لها التحرر من ذل الاستعمار الذي لم يجد العلماء طريقه إلا

بالتحرر أولا من سياسة التجويع والتجهيل وذلك بمدّ سياسة عن طريق التعليم العربي الحر

(1) الشهاب، ج1، م6، غرة رمضان 1348هـ- فيفري 1930م، ص 38 بتصرف.

(2) المصدر نفسه، ص 39.

الذي ينشط الفكر والروح، والمبني على خطوات منهجية ومنطقية تحيي اللغة والدين في النفوس ومنها تحيا مشاعر الواجب نحو الأمة بإحياء مقوماتها.

إن ملف التعليم إذا كان ناضجا تجربة وشواهد وأرقاما في مقررات العلماء في متابعتهم اليقظة لمستوى الوعي واستغلالهم لكل المناسبات للتذكير والتوعية بكل الوسائل، وروح المقال -البيان- تحريك للضمائر، واستنهاض للهمم، واستصراخ للعلماء على وجوب القيام بواجب الإشارة والتعليم وللأغنياء والنواب بواجب التمويل وكانت مدرسة التربية والتعليم الإسلامية هي الخطوة التالية التي جسدت بها جمعية العلماء طموحات الشعب الجزائري في هذا الميدان خدمة لأهدافها البعيدة.

هـ- مدرسة التربية والتعليم الإسلامية أول نموذج لمدارس الجمعية:

لم تكن جمعية العلماء إذا لتعلن عن إنشاء هذه المدرسة وتتقدم بطلب الترخيص للجمعية التي ستتولى انشاءها رسميا إلا بعد أن أعدت لذلك عدتها التي تضمن لها البقاء، فليس واردا في مشاريعها التقهقر والرجوع إلى الوراء، بل هي طريق وعرة من التحدي تحت رحمة حكومة استعمارية تخطط بدورها لطمس معالم أمة ووطن. كما أنها لم تكن لتنتقل في ميدان التعليم الحر وتحمل مسؤوليته في كل الجزائر، لولا أنها لم تلمس وعيا لدى الجماهير الذين جدت في إعدادهم بإحياء أمجادهم ومقوماتهم، ووجهت تفكيرهم نحو أمتهم، وبعثت فيهم معاني الاستقلال وجعلت من شعور المغايرة والانفصال عن حكومة الاستعمار وشعبها واقعا معيشا على مستوى الفكر والسلوك وأنماط الحياة اليومية، وكان هذا دافعا قويا، ومؤشر نجاح دعاها لخوض غمار مسؤولية التعليم العربي الحر، وقبل هذا وذاك إعداد الاطارات الكفيلة الكفوة والكافية. في ذلك الوقت على الأقل لتولي مناصب التدريس.

وقد رخصت الحكومة رسميا للجمعية التي تحمل اسم "جمعية التربية والتعليم الإسلامية" واعترفت بها في جريدتها الرسمية في فيفري 1931 م (*) فكانت أول جمعية من

(*) نشرت مجلة الشهاب، خبر الترخيص، وبعض مواد القانون الأساسي للجمعية، وذيلته ببناء للمسلمين قصد البذل في سبيل التعليم والاقبال عليه، ودعوة للأولياء إلى المبادرة بأبنائهم وبناتهم إلى مكتب التعليم. انظر: الشهاب، ج2، 7م، غرة شوال 1349هـ- مارس 1931م، ص 115-117.

نوعها في قسنطينة تحت رئاسة عبد الحميد بن باديس الذي كان قد تولى تحرير قانونها الأساسي المتضمن من المواد ما يوضح أهداف الجمعية وما ليتها وأهمها ما يلي:

>> المادة الثانية: مقصود الجمعية هو نشر الأخلاق الفاضلة والمعارف العربية الفرنسية والسناعات اليدوية بين أبناء وبنات المسلمين.

المادة الثالثة: تسعى الجمعية لمقصدها هذا، أولاً: بتأسيس مكتب للتعليم، ثانياً: بتأسيس ملحاً للأيتام. ثالثاً: بتأسيس ناد للمحاضرات، رابعاً: بتأسيس معمل للصناعات، خامساً: بإرسال التلامذة على نفقتها إلى الكليات والمعامل الكبرى.

المادة الرابعة: بما أن مقصد الجمعية هو التربية والتعليم لاغير، فإنها تحرّم على نفسها الخوض في المسائل السياسية والاختلافات الحزبية، والمذهبية والشخصية بأي وجه من الوجوه.

وأما مالية الجمعية فإنها تتكون مما يدفعه الأعضاء المشتركون وهو فرنكان في الشهر، ومن تبرعات المحسنين، ومن الإعانات الحكومية، ومن واجب تعليم التلامذة القادرين على الدفع >> (1).

ولا يقتصر التعليم على البنين فقط وإنما للبنات أيضاً، على أن لا يدفع من الأبناء حقوق التعليم إلا القادرون وأما البنات فتعليمهم كلّهن بالجان.

وبموجب هذا الترخيص فقد حولت الجمعية لنفسها حرية إنشاء ما تشاء من المدارس، في ما تشاء من المناطق، والتي ستتولاها فروعها فيما بعد وقد أشارت إلى ذلك في نداءها إلى الجزائريين :

>> أيها المسلمون : ها هو باب العلم والتقدم قد فتح أمامكم، على مصراعيه فادخلوه، ها هم أفراد منكم تعرفونهم وثقون بهم قد تقدّموا لخدمتكم فأعينوهم، فإنهم - بعد عون الله تعالى - بكم ولكم... >> (2). وهو ما أكدته بعد ثلاثة أشهر بعد ذلك وضمته أحد

(1) الشهاب، ج2، م7، غرة شوال 1349هـ - مارس 1931م، ص 116.

(2) المصدر نفسه، ص 117.

مواد القانون الأساسي لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين أي في ماي 1931م: « لكي تسهل على الجزائريين مهمة تكوين المدارس على غرارها في كامل القطر الجزائري، وتم ذلك في غالب مدن وقرى البلاد لا سيما في قسنطينة » (1).

وأهم ما يجب التنبيه إليه هو أن القانون الأساسي لجمعية التربية والتعليم الإسلامية هو تقريبا نفسه القانون الأساسي لجمعية العلماء ولم يفرق بينهما إلا بضع شهور. هذا من جهة، ومن جهة ثانية كان مقصد ابن باديس أن يجعل من هذه « جمعية عمومية بآتم معنى الكلمة من حيث اشتراك الأمة فيها بجميع طبقاتها » (2). كما بينه في "الشهاب" وكما هو واضح من مادتها الثالثة، ومن جهة ثالثة، يبدو أن النجاح الذي حققته جمعية التربية والتعليم - كما سنرى - كان الدافع الذي حرض إلى المبادرة لإعلان "جمعية العلماء" التي كانت بدورها تستحث السم وتنتظر من يقوم بالخطوة في هذا المجال.

وبالإضافة إلى أهداف الجمعية المعلنة في موادها، فقد كان لها هدف آخر وضّحه المقال وهو: تعويد الناس على البذل والسخاء المنتظم. وبإنشاء مدرسة التربية والتعليم الإسلامية تحت إدارة الجمعية التي تحمل الاسم نفسه، تكتمل عوامل توعية الأمة الجزائرية حول مسألة التعليم العربي الحر، ويكون نداء الشهاب آخر تحذير لها بمختلف فئاتها من طرف علماء الإصلاح بإقامة الحجة وأداء الواجب بفتح باب التعليم على مصراعيه ورسميا أمامهم. وبعد مرحلة التعليم الباديسي بقسنطينة، وكذا زملائه وتلاميذه في بعض مراكز الإصلاح كمدرسة الأغواط (3) مثلا. وبعد حملة المحاضرات، ثارت الرغبات الكامنة في الجماهير الجزائرية، استجابة لنداء علماء الأمة، وتكليلا لجهودهم الجلييلة، فاحتد التنافس بينها لبناء المدارس على منوال وبعنوان "مدرسة التربية والتعليم" القسنطينية، وقفز رقم

(1) محمد الطاهر فضلاء، دعائم النهضة الوطنية، مرجع سابق، ص 53.

(2) الشهاب، ج2، م7، غرة شوال 1349هـ / مارس 1931م، ص 116

(3) أنشأت هذه المدرسة سنة 1922م بالأغواط وكان أول من تصدّر للتعليم فيها الشيخ محمد السعيد الزاهري حتى آخر سنة 1923م ثم تولاها الشيخ مبارك الميلي. للاطلاع على الموضوع. انظر:

محمد علي دبور، نهضة الجزائر المباركة، ج3، مرجع سابق، ص 254-257.

المدارس من العشرة إلى العشرات حسب تعبير الابراهيمى (1) وفي وقت قياسي. ولم تحاول جمعية العلماء فتح مدارس حرة في مختلف المناطق بالقطر الجزائري، بمبادرات مباشرة منها لكنها كانت تسعى إلى ذلك عن طريق تكوين جمعيات إصلاحية محلية، بتكليف قدماء التلاميذ، أو بمبادرة أتباع الحركة الإصلاحية والمتعاطفين معها، وتحت إشرافها. وفائدة ذلك بدون شك تكمن في الصلاحيات الكثيرة التي تخول للجمعية دون المدرسة كما تبينه المادة الثالثة نفسها من القانون الأساسي لمدرسة التربية والتعليم في تأسيس المدارس والنوادي، وملاجئ الأيتام وتقوم بنفقاتها كلها.. الخ. فتكون المدرسة تابعة للجمعية وليس العكس، ومن جهة أخرى تكثير لمراكز الإصلاح ومؤسساته ومن ثمة انتشاره بين أوساط الجماهير واستقطابهم وهي سياسة الاعتماد على النفس، وتجاهل وجود الإدارة الاستعمارية بالتنازل عن خدماتها وهو مقصود جمعية العلماء. وهناك هدف آخر ويتمثل في عدم تفويت الفرصة على الجزائريين من الاستفادة من نشاط الجمعية المحلية الذي هو نموذج مصغر للجمعية الأم، ففي حالة ما إذا تعرضت المدرسة للغلق، أو بسحب الرخصة أو بنفي أو سجن المعلمين تبقى الجمعية قائمة بمختلف نشاطاتها الأخرى، وهي حيلة من جمعية العلماء علما بأن الرخصة قد تعطى لإنشاء جمعية ولا تعطى لفتح مدرسة للتعليم العربي.

وتتولى كل جمعية محلية تطلق على نفسها "جمعية الإصلاح" أو "جمعية التربية والتعليم" إذا فتح مدرسة حرة غالبا ما تحمل اسم الجمعية التي ترعاها، وتؤمن هذه دفع رواتب المعلمين وتوفير السكن لهم، كما تقوم بتوفير كل لوازم المدرسة المختلفة. وتعتمد في ماليتها على صندوق ماليتها الممول من الاشتراكات المنتظمة لأعضاء الجمعية والتبرعات النقدية أو العينية التي يقدمها المحسنون أو أولياء التلاميذ وكذا من مداخيل الحفلات التي تقيمها المدرسة في مناسبات مختلفة (3).

(1) آثار محمد البشير الابراهيمى، مصدر سابق، ج4، ص 244-245. بتصرف.

(2) تقوم الجمعيات بمشاريع البر والاحسان، كتوزيع الدقيق والزيت وغيرها على الفقراء والمساكين من الجزائريين وتولى تعليم أبنائهم مجانا بمدارسها. انظر: محمد خير الدين، المصدر السابق، ج1، ص 155.

(3) أحمد الخطيب، جمعية العلماء المسلمين الجزائريين وأثرها الإصلاحي في الجزائر، مرجع سابق، ص 199. بتصرف.

ويدخل في هذا الإطار "مدرسة الإخاء للتربية والتعليم" بيسكرة التي تولّت تأسيسها جمعية "الإخاء" سنة 1931م تنفيذاً لقرارات الروّاد بقسنطينة، كما يقول "الشيخ محمد خير الدين" الذي كان الكاتب العام للجمعية نفسها والذي يقول: «وأتقاء للعراقيل التي ما فتئت تقيّمها السلطة في طريق التعليم العربي الحر، اقترحت أن يكون مجلس إدارة المدرسة متكوناً من أعضاء لهم نفوذ لدى السلطة المحلية حتى يتيسر للمدرسة سبيل القيام بدورها في نشر الثقافة العربية والاسلامية» (1). لكن إدارة الاحتلال نفتته من "يسكرة" إلى "بجانة" بعدما خيّرته بين الاستقالة من "جمعية العلماء" أو من "جمعية الإخاء" فاختار الاستقالة من الأخيرة، ولما عاد من المنفى أعاد تكوين جمعية أخرى ومدرسة أخرى يقول: «وقد اخترنا لها اسم الجمعية الخيرية لإعانة الفقراء والمساكين وتعليم البنات والبنين» (2). وكان ذلك سنة 1936م.

ويأتي دور جمعية العلماء في اختيار المعلّمين لكل هذه المدارس، والإشراف على سلوكهم ونشاطهم، والمتابعة العلمية باختيار البرامج التعليمية، وتأمين الكتب اللازمة للتلاميذ، والتفتيش التربوي وكثيراً ما كانت الجمعية تحضن المدرسة في حال تدهور الجمعية المحلية فتقوم بتأمين كل متطلباتها الضرورية (3).

ومن ثمة فقد كانت جمعية العلماء في هذا الميدان وغيره من نشاطاتها المختلفة تقود سباقاً ضد الزمن وتدير صراعاً مريراً في عدة جهات وفي الوقت نفسه، فعملية التوعية وحملة التعليم ومحو الأمية، وحملة دروس الوعظ والإرشاد، ثم تعبئة الجماهير قصد البذل في سبيل المشاريع الكبرى من بناء المدارس والمساجد إلى التكفل بالفقراء والمساكين، وسط عداء الطرفين وسوط الإدارة، ولما كانت مشاريعها ممولة مباشرة من طرف المسلمين وموظرة منهم بكل استقلالية، فقد كانت تتطلب تضحيات جسيمة، ومبادرات معتبرة، وتحتاج إلى حركة واسعة من التوحد الشعبي» (4). ومن ثمة فطبيعي أن تكون

(1) محمد خير الدين، المصدر السابق، ج1، ص 92.

وحملة الشهاب، ج8، م7، ربيع الثاني 1350هـ - أرت 1931م، ص 528.

(2) المصدر نفسه، ص 153.

(3) رابع تركي، المرجع السابق، ص 364. بتصرف.

(4) Ali Merad, Le Réformisme Musulman en Algérie, Op Cit, p 336.

المدارس متواضعة البناء والانتساع في البداية -على الأقل- نظرا لفقر الجزائريين أو عدم تعوّدهم على البذل في سبيل التعليم >> فكان يضم بعضها غرفة واحدة وبعضها الآخر يتكون من غرفتين أو أكثر. ويدير هذه المدارس معلّم واحد، أو عدة معلمين على رأسهم مدير (1) على أنه قد خرج عن هذه القاعدة بعض المدارس في بعض المناطق فمدرسة قلعة بني عباس التي تمّ بناؤها في 1934م في شكل بديع كما وصفها مديرها محمد الصالح بن عتيق >> الأمر الذي جعل المعلمين بالمدرسة الفرنسية يضربون على التعليم بحجة أن المدرسة الأهلية أجمل وأحسن من المدرسة التي يعلّمون بها وهذا أمر لا يقبلونه، ففي ذلك إهانة لهم >> (2). وقد زارها ابن باديس سنة 1935م وأشاد بذكورها وسماها بقلعة الاصلاح >> (3). وعلى كل حال فإن مدارس الجمعية كما كان منها البسيط المتواضع، كان >> فيها الفخم الضخم الذي يقل نظيره في مدارس الحكومة، وفيها ما يحتوي على ثمانية عشر فصلا، وجميعها مستوف للشرائط كلّها على أحدث طراز. فمعظم هذه المدارس شيدتها الأمة بأيديها وبأموالها والقليل منها مؤجر >> (4).

ويبدو أن الجمعية كانت تسعى لاستيفاء كل الشروط التي قد تستعملها إدارة الاحتلال ذريعة لغلق المدرسة بما في ذلك النواحي التربوية، والغذائية، والصحية والاجتماعية خاصة بالمدارس التي بقسنطينة التي يؤمها الجزائريون من المناطق المختلفة بالوطن والتي وفّرت فم الجمعية مساكن خاصة ملحقة بالمدارس لإقامتهم فيها مدة الدراسة، إقامة داخلية أو نصف داخلية، وتجدد الإشارة إلى أن الدكتور بن جلول كان أحد الأطباء المتبرعين بالإشراف الصحي على طلبة الجامع الأضر. بالإضافة إلى الدكتور بن الموفق، والطبيب زرقين وهو طبيب للأسنان (5). وكانت الجمعية توالي نشر نشاطاتها في هذه المجالات في جرائدها وتنشر باستمرار قائمة المتبرعين والمبالغ التي تبرعوا بها إطلاعا للجماهير الجزائرية وتحفيزا لها على البذل المتواصل، ولحكومة الاحتلال حذرا.

(1) Ali Merad, Le Réformisme Musulman en Algérie, Op Cit, p338.

(2) محمد الصالح بن عتيق، المصدر السابق، ص 76.

(3) المصدر نفسه، ص 77.

(4) آثار محمد البشير الابراهيمي، مصدر سابق، ج4، ص 245.

(5) الشهاب، ج8، م10، غرة ربيع الثاني 1353هـ - جويلية 1934م، ص 362.

وكانت جمعية العلماء تولي اهتماما خاصا في بناء المدارس التابعة لها بحيث تضع مواصفات تراعي فيها ضرورة الجمع بين روعة الفن المعماري الإسلامي وبين ذوق العصر، ومتطلبات الصحة العامة، والنشاط الرياضي والاجتماعي للمتعلّمين لتساهم بذلك لتوحيد الجزائريين في مؤسساتهم العلمية وتكون هذه في مجموعها وحدة معمارية منسجمة شاهدة على وحدة الذوق والفكر والاتجاه العام للأجيال القادمة (1).

أما من حيث إحصائيات هذه المدارس فهي متعذرة من حيث الدقة والشمولية، فقد شهدت الفترة الممتدة من 1930م و 1933م إنشاء الكثير منها حسب تأكيد ابراهيمي، ويقول علي مراد: «>> أنها بلغت سنة 1935م: 70 مدرسة في كل من العاصمة وقسنطينة وتلمسان، كما بلغ عدد التلاميذ في السنة ذاتها 30.000 تلميذ وتلميذة» (2)، وبالتالي فإن الرقم قد يكون أكثر من ذلك بكثير إذا أخذنا بعين الاعتبار عددها المتوزع على مختلف مناطق الجزائر والتي لم يشر إليها "مراد" بالإضافة إلى استمرار حملات التوعية بالمحاضرات، والرحلات التفقدية المحرّضة لبناء المزيد منها، ثم النداءات المتواصلة من على منبر الصحافة الإصلاحية، والذي استجاب لها الشعب الجزائري سواء ببناء المدارس في مناطقهم بايفاد أطفالهم إلى مدارسها بأعداد كثيرة، وهو ما كان يتطلب منها زيادة في عدد القاعات والمدارس، وزيادة في نفقات السكن، ويشهد بذلك نداءات الشهاب من أجل إعانة صندوق الطلبة الذي كانت تنشر مصاريق دخله وخرجه، وكذا ديونه المسجّلة عليه كل سنة، وتشهد سنة 1934م مثلا على استدانته بـ 12.885.75 ف.ف. فديم (3) وهي السنة التي قدم فيها الطلبة من العمالة الوهرانية لأول مرة على الجامع الأخضر، والذين تمّ بهم تمثيل الطلبة للجزائر كلّها، وزاد من ثمة أمل تأسيس كلية للعلوم الإسلامية. وقد ختمت بيانات التعليم للسنة المذكورة بنداء أو رجاء مفاده «>> يرجو صندوق الطلبة من أهل البر والاحسان أن يفكّوه من دينه ويزوّدوه للسنة الآتية» (4).

(1) أحمد الخطيب، جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، وأثرها الإصلاحي في الجزائر، مرجع سابق، ص 211 بتصرف. (نقلا عن البشير ابراهيمي، مجلة اللغة العربية في عددها 21).

(2) Ali Merad, Le Réformisme Musulman en Algérie, Op Cit, p 338.

(3)، (4) الشهاب، ج8، م10، غرة ربيع الثاني 1353هـ - جويلية 1934م، ص 367.

ونشرت البصائر في الصدود نفسه : << نداء وبيان إلى الأمة المسلمة الجزائرية >> سنة 1936م بتوقيع عبد الحميد بن باديس، استهله بأهمية العلم، وتحريض الإسلام عليه مستشهدا بالقرآن الكريم وأحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم، وذكر بأنه قد وفد على الجامع الأخضر في تلك السنة ما يناهز الثلاثمائة من جميع جهات القطر. وذهب نحوهم - أو أكثر إلى تونس- وأنهى بيانه بنداء للشعب الجزائري إلى مد يد المعرفة على هذا العمل الواجب العظيم ومدّ صندوق الطلبة بما استطاعوا من خير .. >>(1).

ورغم عدم دقة الإحصاءات في هذا المجال فإن معطيات الصحافة الإصلاحية عن بعض المدارس، ومؤشرات تزايد الوعي الفكري العام في الجزائر، واستمرار التعبئة لصالح التعليم كلّها دلائل على أن عدد المدارس كان في تزايد مستمر، وتشهد عليه كل مناطق الجزائر، وكذا عدد المتدربين.

ويورد الأستاذ المطبقاني أرقاما استقاها من مصادر فرنسية تقول بأن عدد المدارس القرآنية قد بلغ سنة 1934م 55 مدرسة وارتفع سنة 1936م إلى 130 مدرسة حتى بلغ عام 1939م 350 مدرسة عدا المدارس التي لم تحصل على تصريح بعد صدور قرار 8 مارس 1938م(2). ونقلا عن وثيقة أخرى تقول بأن عدد المدارس قد بلغ في جانفي 1937م: 44 مدرسة في ولاية الجزائر، و 40 مدرسة في ولاية وهران و 130 مدرسة في ولاية قسنطينة ليصبح المجموع 214 مدرسة(3).

وينبه علي مراد إلى أن هناك مبالغة في بعض الأرقام التي تقدمها بعض المصادر تتأرجح بين المتعاطفين مع المدّ الإصلاحي وبين خصومه من حيث الإكثار والإقلال حسب هدف كل منهما، فالمتعاطفون يقصدون إلى طمئنة السلطة الشعبية أما الخصوم فمقصودهم التنبيه إلى خطورة مسألة التعليم العربي الحر <<(4)، على مصالح البعض وعلى السيادة الفرنسية في الجزائر.

(1) البصائر، ع 47، الجمعة 26 رمضان 1355 هـ - 11 ديسمبر 1936م، ص 377.

(2) المطبقاني، المرجع السابق، ص 106.

(3) المكان نفسه، عن: Les courants d'opinion de l'Islam en Algérie (A G C)

(4) Ali Merad, LE Réformisme Musulman en Algérie, Op Cit, p 338.

ومهما تكن حقيقة هذه الأرقام -سواء في فترة الثلاثينات أو الأربعينات كما سنرى- فإنه منذ انطلاق جمعية العلماء في نشاطها رسميا في 1931م بدأت تظهر مدارس ابتدائية عربية >> حرة في كل منطقة من الجزائر، وأمكنا تسجيل حركة تجديد واسعة وجادة في التعليم العربي الحر بعيدا عن التأثير المباشر للإصلاحيين، مع أن المدرسة الإصلاحية التي أنشأها العلماء كانت في كل الحالات النموذج المحتذى به >> فقد سارعت العائلات المرابطية، التي كانت تهتم بمحيطها الفكري، وتشعر بالتقدم وتابعه، إلى تحديث تعليمها ليوازي التعليم الإصلاحي القريب منها أو من أجل التآلف مع الحركة الثقافية المعاصرة. ونسجل أيضا بأن المدارس الحرة التي أسسها بعض المحسنين لصالح اليتامى كانت تستجيب تماما للقواعد الإصلاحية من حيث تجديد طرق التعليم والبرامج المدرسية >> (1). وهذه المدارس وإن لم تنتم كلها إلى جمعية العلماء فبصمات التغيير فيها على النمط الذي قصده المصلحون يبين نجاح دعايتهم ورسوخ سياستهم في هذا المجال، لكن أيضا يشهد على عموم النشاط وحركة التغيير لكل منطقة في الجزائر.

ومفيد أن نشير أنه للظروف الاستثنائية التي كانت تعيشها الجزائر، وحركة الاضطهاد الواسعة التي كانت تشنها إدارة الاحتلال على مدارس الجمعية وكذا مختلف نشاطاتهم الفكرية، وخشية الاتيان على كل مدارسها بالإغلاق، فإن صحافة الجمعية لم تكن لتقدم حقيقة أرقامها من حيث عدد المدارس أو التلاميذ - وخاصة تلك التي سحبت منها الرخصة وواصلت تعليمها متجاهلة ذلك تحت ظروف وفي أوقات أخرى-. وقد تتخذ من الكتابيب وحتى بعض النوادي أو المساجد مقرا لها، لكن بالمقررات والبرامج المدرسية نفسها، وهذا ما يمكن أن نستشفه من كثير من نصوص ومقالات وأخبار من مذكرات بعض الشخصيات الإصلاحية. ويكفي أن ننبه إلى أن جمعية العلماء >> وقد استطاعت أن تنشط في التعليم وتتوسع فيه على نطاق واسع بحيث لا نكون مغالين إذا ما قلنا أكثر مما فعلت فرنسا تجاه تعليم الجزائريين طيلة قرن كامل (2)، وقد أثبتت ذلك المقارنة والأرقام (3)

(1) Ali Merad, Le Réformisme Musulman en Algérie, Op Cit, p 339.

(2) رابع تركمي، المرجع السابق، ص 364.

(3) المرجع نفسه، ص 365.

إصلاح وتنظيم التعليم العربي الحرة:

حاولت جمعية العلماء منذ تأسيسها في 1931م أن تجعل تحت إدارتها كل المدارس الإصلاحية الحرة لكن كان عليها أولا خلال السنوات الثلاث الأولى على الأقل التمكين لدعوتها، ووضع أسس جهازها الإصلاحي، ومن جهة أخرى مباشرة إدارة كثير من المدارس عبر شعبها وجمعياتها المنتشرة في كل مناطق الجزائر.

وقد كانت هذه المدارس تختلف من حيث مستوى التعليم من منطقة إلى أخرى، ويعود ذلك إلى مؤهلات كل معلم إصلاحي، فهذه مدرسة يديرها معلم شاب أكمل دراسته للتو بمستوى الطور الأول من التعليم الزيتوني ومدرسة أخرى تفخر بأن يديرها شيخ ذو تجربة كبيرة وثقافة واسعة مثل الإبراهيمي في تلمسان، ومبارك الميلي في الأغواط(1)، وكان كل معلم ينظم تعليمه بناء على تجربته الخاصة وإذا كان المعلمون يشتركون في تقديم التعليم الضروري للدين (تفسير القرآن الكريم، الحديث، التوحيد، الأخلاق الإسلامية) وتلقينه بالعربية أساسا معتمدين على (النحو، المحادثة، تاريخ الإسلام). وقد كان بعضهم يتعمقون في إعطاء معلوماتهم وقد يبلغون فيها إلى المستوى الثانوي خاصة من حيث الكتب التي يختارونها لتلاميذهم، وطريقة عرضها وتلقينها، فإن هذه المحاولات تبقى نادرة وتخص كبار الأساتذة المصلحين، ويبقى أغلب المعلمين الإصلاحيين يقتصرون على المعطيات الأولية للغة العربية والمدخل إلى الإسلام.

وكما كان يجب توسيع مجال المدرسة الإصلاحية ومتابعة إصلاح طرق التعليم بها ومراجعة النظر في برامجها وكتبها وبالجملة زيادة الاهتمام بالكمّ والنوعية في الوقت نفسه، ولما كان ابن باديس رجل تربية بسليقته وطبعه، فقد تميزت فترة تعليمه المسجدي والمكتبي حتى 1931م - إذ تفرغ للمسجدي فحسب بعد هذه السنة وتولى مهمة الإشراف والتوجيه العام - بوقوفه شخصيا على الإشراف العلمي والصحي والاجتماعي وغيره على تلاميذه بالإضافة إلى التعليم، فكان يختار الكتب الدراسية التي تتماشى مع مستوى التلاميذ لكل عام دراسي جديد >> وكان دائم التنقيح والتعديل لمواد الدراسة >>(2)

(1) Ali Merad, Le Réformisme Musulman en Algérie, Op Cit , p 344.

(2) رابع تركي، المرجع السابق، ص 318.

كلما تطلب الأمر، وقد كانت جرائد الجمعية توالى نشر بيانات بذلك بين الوقت والآخر على النحو الذي قدّمنا.

وكان نظام التعليم بالجامع الأخضر يتدعى بالسنة الأولى وينتهي بالسنة الرابعة هذا من حيث الكم، وكانت هذه السنوات الأربع توهل التلاميذ مباشرة لمواصلة تعليمهم الثانوي بجامع الزيتونة والعالي كذلك، والسبب أن ابن باديس لم يكن يوجه اهتمامه للجانب المعرفي من شخصية تلاميذه فحسب وإنما كان يوجه اهتمامه الأكبر إلى تكوين شخصياتهم تكويناً متكاملًا في جوانبها المعرفية والخلقية والذوقية والاجتماعية والوطنية والدينية⁽¹⁾. وهي الطريقة التي كان ابن باديس قد اتفق مع الإبراهيمي لاتباعها التي يقول عنها هذا الأخير: « كانت الطريقة التي اتفقنا عليها أنا وعبد الحميد بن باديس في اجتماعنا بالمدينة المنورة في 1913م في تربية النشء هي: ألا نتوسع له في العلم وإنما نربيّه على فكرة صحيحة ولو مع علم قليل، قمت لنا هذه التجربة في الجيش الذي أعددناه من تلاميذنا »⁽²⁾.

وتبقى "مدرسة التربية والتعليم الإسلامية" نموذجاً فريداً في التنظيم الإداري والمالي، فقد كوّن ابن باديس لجنة خاصة من أعضاء جمعية المدرسة سماها "بلجنة الطلبة" مهمتها الإشراف على الطلبة والعناية بهم ومراقبة سيرتهم، كما تتولى الإشراف كذلك على الصندوق المالي الخاص بإعانة المحتاجين منهم وتغذيتهم، بحيث تراقب دخله وخرجه، ثم نظام العرفاء الذي يقضي باختيار طالب من كل جماعة تمثل منطقة من مناطق الجزائر وجعله عريفاً عليهم يضبط أمورهم ويراقب سيرتهم وسلوكهم، وينتهي تقريره بذلك إلى ابن باديس نفسه الذي يتولى النظر في الأمر ويتخذ ما يستلزم من الإجراءات التأديبية الضرورية لمعالجة الانحراف في وقته.

وبعد إنشاء جمعية العلماء تطلّب الأمر إدارة أكبر للشؤون المالية، وكذا إدارة للبيداغوجية والإشراف الفني على العدد المتزايد من المدارس وخاصة البرامج المدرسية والكتب وطرق التدريس، وسهرا من الجمعية على التنبيه إلى هذه المواضيع الخطيرة لبحثها

(1) رابع تركمي، المرجع السابق، ص 310.

(2) المرجع نفسه، ص 311. (نقلا عن الشيخ الإبراهيمي، مجلة اللغة العربية).

ومناقشتها وأخذ الإجراءات اللازمة إزاءها فقد شهدت هذه الفترة بحث ملفات عدة قضايا على صفحات الجرائد وعلى منبر مؤتمرات الجمعية ومنها:

أ- نقد ابن باديس لمنهج وطرق التدريس في المعاهد الإسلامية وضرورة إصلاحها:

- وقد بنى ابن باديس انتقاده لطرق التعليم في جامع الزيتونة مثلا على أساس >> أنه كلية دينية ولا يكون إصلاح التعليم فيه إلا على مراعاة هذا الوصف الذي هو أساسه وغايته >>(1). ويعني التعليم الديني عنده هو التعليم السني السلفي، بداية من التعليم النبوي الذي كان بتلاوة القرآن الكريم ثم بيانه بقوله صلى الله عليه وسلم وفعله وسيرته وسلوكه في مجالس تعليمه وفي جميع أحواله، >> فقد كان الناس يتعلمون دينهم بما يسمعون من كلام ربهم وما يتلقون من بيان نبّهم وتنفيذه لما أوحى الله إليه...>>(2). ولما كان تعليم الصحابة وكذا أتباعهم على هذه الطريقة التي كان أساسها التفقه في القرآن والسنة. فقد عاب ابن باديس على جامع الزيتونة والأزهر اقتصار التعليم فيهما على الفروع العلمية المنتشرة دون استدلال ولا تعليل وعدم ربطها بأصولها ومعرفة مآخذها مما جعلها بعيدة عن القرآن والسنة وهجران لهما وهو ما جعل >> العلماء -إلا قليل منهم- أجانب أو كأجانب من الكتاب والسنة من العلم فيهما وثقة فيهما >>(3).

وقد ضرب ابن باديس لذلك مثلا عن حالته هو شخصيا عندما كان طالبا بالزيتونة (1908-1912م) فذكر أنه تحصل على شهادة العالمية دون أن يدرس آية واحدة من كتاب الله، ولم يرغبه أو يشجعه أساتذته للإقبال على ذلك يقول: >> فقد تحصّلنا على شهادة العالمية من جامع الزيتونة ونحن لم ندرس آية واحدة من كتاب الله، ولم يكن عندنا أي شوق أو أدنى رغبة في ذلك. ومن أين يكون لنا هذا ونحن لم نسمع من شيوخنا يوما منزلة القرآن من تعلّم الدين والتفقه فيه، ولا منزلة السنة النبوية من ذلك >>(4). وقد صرّح

(1) الشهاب، ج10، م7، غرة جمادى الثانية 1350هـ - أكتوبر 1931م، ص 609.

(2) الشهاب، ج11، م10، رجب 1353-10 أكتوبر 1934م، ص 479.

(3) المصدر نفسه، ص 480.

(4) المكان نفسه.

بهذا المعنى نفسه سنة 1928م في محاضرة له بنادي الترقى تحت عنوان : " بماذا تنهض الأمة نهضة دينية" قائلا: << أنا رجل "طالب قرآن" حفظته في أول بلوغي وأنا لا أفهمه لأنني ما سمعت يوما من أحد أن القرآن يقرأ للفهم، ولا أكنمكم أنني أخذت شهادتي من جامع الزيتونة في العشرين من عمري وأنا لا أعرف للقرآن أنه كتاب حياة، وكتاب نهضة، وكتاب مدنية وعمران، وكتاب هداية للسعادتين لأنني ما سمعت ذلك من شيوخي، وإنما بدأت هذا يوم جلست إلى العلامة الأستاذ محمد النخعي... >>(1).

وعليه فإن مناهج التعليم وطرق التدريس بجامع الزيتونة وبغيره من المعاهد الإسلامية لا تؤدي إلى المقصود من التربية الإسلامية لأنها طرق قديمة تهتم بالجانب اللفظي والمناقشات العقيمة والخلافات الجزئية ثم أن الطالب فيها يقضي زهرة شبابه في دراسة العلوم الآلية، ومحاولة التوفيق بين آراء العلماء أو بين الشارح والحاشية والتعليق وتعليق التعليق >> دون أن يكون قد طالع ختمة واحدة للقرآن في أصغر تفسير للقرآن كتفسير "الجلالين" مثلا بل ويصير مدرسا متصدرا ولم يفعل ذلك >>(2).

- وانتقد ابن باديس أساليب التربية في الجامع الأزهر وعاب على علمائه اقتصارهم في الاتصال بتلاميذهم على ساعة الدرس فحسب ودعا إلى ضرورة تجاوزهم ذلك الأمر الذي من شأنه أن يستفيد منه الطلبة بالإضافة إلى العلوم والفنون، تلقي التوجيه الروحي والأخلاقي من العالم والذي سيكون له الأثر البارز في أعمالهم العلمية في سائر حياتهم، يقول ابن باديس: << أغلب المعلمين في المعاهد الإسلامية الكبرى كالأزهر لا يتصلون بتلاميذهم إلا اتصالا عاما لا يتجاوز أوقات التعليم فيتخرج التلامذة في العلوم والفنون ولكن بدون تلك الروح الخاصة التي ينفخها المعلم في تلميذه - إذا كانت للمعلم روح - ويكون لها الأثر البارز في أعماله العلمية في سائر حياته >>(3).

ولم يكتف ابن باديس بالنقد فحسب وإنما قدم الاقتراحات الثمينة المبنية على العلم والخبرة والوعي بقضايا العصر ومتطلباته لكن أيضا بالضروريات الدينية التي يجب أن

(1) آثار عبد الحميد بن باديس، مصدر سابق، ج4، ص 46 .

(2) الشهاب، ج2، م8، فيفري 1932م، ص 68-75

(3) الشهاب، ج8، م11، جمادى الأول 1354هـ - نوفمبر 1354 هـ، ص 449-453.

تشمل مجال التربية والتعليم بحيث لزوم ارتباطها بالمنهج النبوي وأساليب علماء الإسلام الصحيحة.

وتأتي أهمية هذه الاقتراحات من عدة نواح فيما يخص التعليم المكتبي الاصلاحى في الجزائر:

1- أن التعليم المكتبي في الجزائر تحت قيادة جمعية العلماء تعليم ديني متمثل لكل الاقتراحات العلمية والعملية التي حللها ابن باديس وقدم بديلا للطرق العتيقة في المعاهد الإسلامية الأخرى.

2- أن اهتمام ابن باديس بالمعاهد الإسلامية العربية يدفعه إليه انشغاله بمستقبل وتعليم تلاميذه الذين كان يؤهلهم بمواصلة التحصيل بهذه المعاهد، وهو إذا لم يخرج عن إصلاح التعليم في الجزائر ومدارسها، إذ ما فائدة أن يتابع هؤلاء تعليمهم على أسس من هذه التعليمات والطرق الحديثة ذات المرجعية الدينية أسلوبا ومنهجيا وغذاء فكريا وروحيا ثم ينتقلون إلى تعليم ثانوي وعال يفتقر إلى كل ذلك، بما فيه من تضييع الجهود وانحراف عن الأهداف المنشودة، وعلما بأن هؤلاء الطلبة سيعودون إلى الجزائر وسيصدرون التعليم في المدارس والمعاهد الاصلاحية فيها.

وقد قسم ابن باديس التعليم إلى ثلاثة أصناف هي: أ- القضاء والفتوى، ب- الإمامة والخطابة، ج- التعليم. وجعل لكل صنف منها وسائل خاصة لتحصيل الكفاءة فيها والاضطلاع بها بما يحتاج إليه تلاميذ كل منها إلى غير ما يحتاجه غيرهم في مجالهم، ثم قسم التعليم إلى: قسم المشاركة وقسم التخصص.

فأما قسم المشاركة فيتساوى فيه المتعلمون في المعلومات على طبقاتهم في مدة ثماني سنوات يفوزون بعد تمامها بشهادة "عالم مشارك" بدلا من (متطوع)⁽¹⁾. وأما قسم التخصص فجعل مدته أربع سنوات بالنسبة لفرع القضاء والإفتاء، وستين لفرعي الخطابة

(1) شهادة التطوع هي شهادة التعليم الثانوي في الزيتونة في مستوى البكالوريا أو فوقها، وتسمى أيضا بشهادة التحصيل وكانت أرقى شهادة عربية في المغرب العربي يومئذ. انظر: ديبوز، نهضة الجزائر، مرجع سابق، ج3، ص 254.

والتعليم ينال الفائزون فيها شهادة التخصص بالعالمية. كما حدّد مواد كل قسم وكل فرع (1) منها.

وكان هدف ابن باديس من ذلك أنه سيحافظ على مستقبل مجهودات الجمعية في التعليم الاصلاحى في الجزائر والذي سيتابع في الزيتونة خاصة إذا أخذت هذه الاقتراحات بعين الاعتبار، وهو في الوقت نفسه يقدّم برامج منهج التعليم الثانوي والعالي في الجزائر بفروعه وتخصصاته عند تأسيس المعاهد والكليات لهذا الغرض الذي هو في الحقيقة تمنيات غالية يردها علماء الجمعية خاصة ابن باديس، ويحضّر عليها النجاح المتواصل في التعليم الابتدائي وتتطلبها ضرورات مستقبل تلاميذه، وقد ردّتها صحافة الجمعية في كثير من المناسبات وكذا مؤتمراتها كما سنرى.

2- تقارير التعليم المكتبي في المؤتمر الخامس لجمعية العلماء سنة 1935م:

ونظرا لأهمية الموضوع وخطورته فقد عرضت فيه ثلاثة تقارير في المؤتمر وقد قلّم أصحابها اقتراحات عملية حول آفاقه ونظرة كل منهم إلى: كيف ينبغي أن يكون عليه ؟ : وينطلق أصحاب التقارير من:

- 1- حقيقة شعور كل الجزائريين المسلمين بضرورة تكوين تعليم عربي حرّ منظم واسع.
- 2- توقف هذا التعليم على الحرية والمال واستعداد جمعية العلماء رغم تعنت الحكومة وفقدان المال اللازم لفتح المكاتب العربية وتسييرها على نظام دقيق فصله كل تقرير حسب وجهة نظر صاحبه (2).

فقد جعل "محمد العابد الجليلي" حاجة النشء الاسلامي الجزائري إلى التعليم الحر هي حاجة الخلف لما يحقق صلته بسلفه، وهي حاجة السوارث لما يثبت استحقاقه لتراث أسلافه، وقد أوجب من ثمة ضرورة تجنيد الكل بما عليه نحوه لتحقيق مطمحه والغاية منه، بداية من العلماء والأمة بما فيها من الآباء والجمعيات والمعلمين وكذا ضرورة تسهيل

(1) أنظر الشهاب مقال "إصلاح الزيتونة عمّره الله" ج 10، م 7، غرة جمادى الثانية 1350هـ - أكتوبر 1931م. ص 601-605. بتصرف.

(2) سجل مؤتمر جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، مصدر سابق، ص 135.

الحكومة طرق القائمين بهذا العمل حتى يؤديوا مهمتهم على أكمل وجه وقال صاحب التقرير أن اليوم الذي نرى فيه:

1- أقلاما تجول في مختلف الميادين.

2- ألسنا تنفجر عن منابع الحكمة

3- شبابا يعتز بلغته.

4- عامة قادرة على التمييز بين الإسلام والخرافة، وبين الحق والباطل، في ذلك الوقت فقط نكون قادرين على إقامة الحجة على خطأ من يرمينا بالكسل والقعود عن واجباتنا، وفي ذلك اليوم فقط نطمئن إلى مستقبل العربية في وطننا <<(1).

أما تقرير الأستاذ باعزیز بن عمر⁽²⁾ فقد بناه على أن التعليم الذي صفته بحزن المعلومات في الحافظة وتدريب المتعلم على القراءة والكتابة، وحشو ذهنه بالحقائق والأرقام والمسائل المتنوعة هو شيء آخر غير التربية والتهذيب الذي يخلو منهما في كثير من الأحيان، وأن جمعية العلماء مقصودها منه إنما التربية والتهذيب اللذين يقومان بتقويم النفس وتهذيبها ورياضة العقل وتثقيفه وتربيته، ومن ثمة فيصح القول بأن كل تربية وتهذيب تعليم وأن كل مهذب معلم ولا يصح عكسه. والغاية من التعليم وبهذا الاعتبار هي قدرة المتعلم على توليد الأفكار الجديدة والاستنتاجات الخاصة كلما تقدم في سبيل التعلم ومراحل الحياة وكل ما يتم مع التعليم من معلومات أخرى فهي فوائد قانونية تأتي مع التعليم عفوا بطول الدراسة. وقد كان التعليم النبوي على أساس من هذه الأوصاف من التربية والتهذيب بإعداد الأمة لكل خير بالتركية وتكوين الشخصية كما بينته الآيات القرآنية.

والتعليم المكثي عند الأستاذ هو التعليم الابتدائي الذي جعله الأساس لكل نبوغ والأصل الأصيل لكل عبقرية عند جميع الأمم، الذي توليه الاهتمام المتزايد بل وتتنافس في تربيته وتعميمه وانفاق الملايين لإصلاح برامجهم، وقد بلغ من الاعتناء به أن جعله إجباريا، أما الإسلام فقد فرضه فرضا بما فوق معنى الإيجاب لأنه إذا جاز لأحد من غير بني الإسلام

(2) أنظر النص الكامل للتقرير في سجل جمعية العلماء المسلمين، مصدر سابق، ص 111-114.

(1) انظر النص الكامل للتقرير في المصدر نفسه، ص 115-126.

أن ينشأ جاهلا وبموت جاهلا، فلا يجوز للمسلم الذي يتطلب منه دينه تكاليف فردية واجتماعية لا يسقطها الجهل عليه ولا يمكن أن يؤديها إلا بالتعلم ومن ثمة أوجب على الأمة القيام به وبذل الجهد والعزم والثبات لأجله، لأن حياتها تتوقف عليه أساسا وعلى العمل، والشعب الذي أضاع العلم والعمل أضاع كل شيء.

وبعد سرد حالة التعليم العربي في الجزائر التي وصفها بأنها تبعث في النفوس الحسرة والأسى باستثناء بعض المدارس أشار صاحب التقرير إلى ملاحظة هامة يقول: «عندي أن ما يقع في مجتمعا من اضطراب في الأفكار وتشتت في الآراء لأدنى عارض، واختلاف في الميول والآمال منشؤه اختلال التربية في الأسر، واختلاف مناهج التعليم المكتبي الذي له أثره القوي في التفكير العام»، فتوحيد التربية في البيت والمدرسة، وتوحيد التعليم من شأنه تحقيق وحدة الثقافة الإسلامية المنشودة.

وقد بسط الأستاذ باعزيز بناء على ما تقدم اقتراحات هامة تتمثل :

- 1- في توحيد برامج ومناهج التعليم
- 2- بناء التعليم المكتبي على التربية الدينية ليس نظريا فقط وإنما ما يطبق منها عمليا داخل المدرسة.
- 3- اختيار الكتب المفيدة الملائمة للطرق الحديثة في السهولة وكذا من حيث مواد التدريس.

4- اجراء الاختبارات للكشف عن أهلية التلاميذ واستعدادهم .

5- منح الجوائز تشجيعا للهمم وبعنا للمقصرين... (1)

أما التقرير الثالث فقدمه الأستاذ مصطفى بن حلوش وبين فيه أهمية التعليم الابتدائي عند الأمم واعتناؤها به وحاجتها إليه في تقويم الخلق، وتهذيب الطبع. وحفظ اللغة في لسان الطفل، والايمان في قلبه والقومية في شعوره والذود عن الحمي في شجاعته، والاعتزاز بتاريخه في همته والافتخار بثرات أسلافه في كبرياته وأشار إلى أنه لولا رجاء الأمة المسلمة في الحكومة في تعليم جميع أبنائها، لما توانت في القيام بمهمة التربية والتعليم

(1) سجل جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، مصدر سابق، ص 126 بتصريف.

لأبنائها دون أن تستمد العون إلا من روح جماعتها المؤيدة بالله، ولن تتوانى بعدما رأت
لما نفاة ألف طفل تهيم على وجهها بين ماسح أحذية، وبائع جرائد، وشريد لا يأوي إلى
بيت، وبعد أن علمت أن هذا المجموع الهائل سيكون وبالاً على الخلق وشقاء على
الشعب وآفة الأمن، وفريسة السجون.. فقد ألحّت في طلبه والقيام به لاتقاء الصدمة
العنيفة التي تستهدف لغتها ودينها وتاريخها وقوميتها.

وأكد الأستاذ ابن حلوش⁽¹⁾ على أهمية تعليم اللغة العربية لأنها كما قال: سجل
تاريخنا، وعنوان مجدنا، ومعين بياننا وسرّ بقائنا، ونشرها يعني الطريق لفهم القرآن،
وانتشار الدين، والابقاء على التاريخ القوي المجيد.

ونظراً للعراقيل الإدارية المتعنتة فقد حث على التضحية والتجرد لأن الأمة مستعدة
للبذل وهي تشعر تماماً بوجوب التعليم غير أنها لم تجد إليه سبيلاً. أما وقد وجد العلماء
فإنها لن تتخلى عنهم ولن تعصي لهم أمراً في إرشادها وقيادتها. ثم قدم جملة من
الاقتراحات تكمل اقتراحات زملائه⁽¹⁾.

وما يمكننا أن نلاحظه في هذه التقارير هو مستوى الكفاءات والإطارات العلمية
التي ربّأها ابن باديس ووضوح بصماته على لغة التقارير من جهة ومن جهة أخرى
أسلوب هذه التقارير الذي اتسم بالحيطة والحذر والحكمة في تقديم بعض الأرقام، ثم
المرونة عند التعرض لإدارة الاحتلال وحكومته.

وتتفق التقارير في أن التعليم المكتسبي يقصد منه التعليم الابتدائي (طبعاً في ذلك
الوقت) وأشارت كلها إلى ضرورة:

- 1- توحيد البرامج المدرسية، وكذا المناهج في كل مدارس الجمعية.
- 2- ضرورة إصدار أو تصوير أو تأليف أو اختيار الكتب المدرسية بعدد
المدرسين وتوزيعها حسب المستوى التعليمي وتعميم ذلك في كل المدارس.
- 3- يوكل عمل ذلك وتنفيذه للجنة مختارة من ذوي التجارب وممارسة التعليم
والخبرة الميدانية في التأليف والاتصال بالتلاميذ حتى يستجيب لذوقهم ومستوياتهم.

(1) أنظر النص الكامل للتقرير في سجل جمعية العلماء، مصدر سابق، ص 127-134.

4- ضرورة إيجاد لجنة للمالية في كل مدرسة وتكون في مجموعها مسؤولة من اللجنة المالية للجمعية الأم.

5- تعليم البنات الجزائرية تماما كما يعلم الطفل وتعيم ذلك أيضا (1).
 والملاحظ أن كل هذه المقترحات ليست بالجديدة في جرائد الجمعية ولا في خطب رجالها ولا حتى في المناقشات الخاصة بين العلماء كما رأينا، وإنما هي تقرير انشغالات ومعطيات يتطلبها واقع التعليم الاصلاحى المتزايد، كما من حيث المدارس والمتدربين وكيفما من حيث بحث كفايات ترسيخ تقليد صارم وجاد لطرق التعليم قصد تحسينها واستكمال نقائصها، لكن أيضا التفكير في مرحلة ما بعد الابتدائي إذا من غير المعقول أن يكتفى به وإذا ضياع الجهود والأهداف بعدما بذل في سبيلها الغالي والنفيس.

كانت الجمعية تدعو معلمي مدارسها إلى مؤتمرات دورية بهدف تبادل الآراء فيما يهتم التعليم العربي الحر ومدارسه ومساجده ونظمه وأساليبه، وذلك حسب كل سنة دراسية وقد أشار الابراهيمي إلى أن مؤتمر المعلمين ينعقد قبيل ابتداء السنة الدراسية للنظر في شؤون التعليم كنها >> وكانت تطرح على المعلمين قبل حضورهم عدة اقتراحات وقضايا لبحثها ومناقشتها وتقديم آرائهم بشأنها عند انعقاد المؤتمر. كما كانت صحافة الجمعية تعلن عن تاريخ انعقاده ومكانه وبرامج أعماله. وفي هذا الإطار أعلنت البصائر(2) عن انعقاد "مؤتمر المعلمين الأحرار" يومي الأربعاء والخميس 22 و23 سبتمبر 1937م بنادي الترقى بالعاصمة وقدمت لهم مجموعة من المسائل قصد إعداد خلاصة آرائهم فيها ضمن تقارير تقدم للمؤتمر وهي :

1- وسائل توحيد التعليم

2- أسلوب التعليم

3- أسلوب تربية الناشئة

4- خلاصة تجاربهم في التربية والتعليم

(1) سجل مؤتمر جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، مصدر سابق، ص 134

(2) البصائر، السنة الثانية، ع71، 9 ربيع الثاني 1356هـ - 18 جوان 1937م.

5- الكتب، وهل الأحسن اختيار كتب مصرية أو تأليف كتب تتفق مع الروح الجزائرية.

6- رأيهم في تعليم البنت المسلمة ووسائل تحقيقه.

7- التعليم المسجدي ووسائل تنظيمه وترقيته

8- تقارير مفصلة لدرجة إقبال الأمة على التعليم بأقسامه السابقة (كل في جهته).

وقد عقد المؤتمر في موعده ومكانه (1) رغم محاولة بعض أعوان ابن باديس تنيه عن ذلك، لأن عقده كان تظاهرة تغيظ الاستعمار الفرنسي وتزيده حنقا فكان ردّ ابن باديس: «> قد يكون ذلك ولكننا لا نبالي به (الاستعمار) لأننا إذا لم نتقدم تأخرنا، والحركات كلّها محفوفة بأخطار وعقبات لا بد من اقتحامها..» (2).

وقد تمّ جمع كل ما ألقى في المؤتمر من تقارير وخطب في سجل خاص وأشرف على ترتيب مواده والتعليق عليها الشيخ الأبراهيمي. ويبدو أن ذلك السجل قد ضاع ويعلق المطبقاني على ذلك بقوله: «> ولئن فقد مثل هذا السجل فإن التقدم الذي حققته الجمعية في ميدان التعليم يدل على أن المؤتمر أعطى ثماره» (3).

لم تكن جمعية العلماء لتقبل على عقد المؤتمرات ومناقشة المسائل المصرية لقضية خطيرة كقضية التعليم لولا أنها لمست إقبال الأمة على بكرة أبيها على ميدانه، بالإقبال في أعداد تتضاعف كل سنة وبالبذل لبناء المزيد من المدارس والمساجد، ولولا أنها لمست وعيا راسخا، ومظاهر للتعبير عن رفض الاحتلال بكل أشكاله وقوابله. ولما وقع ذلك موقع الرضى كدليل على النجاح، استهان رجالها كل العراقيل وتجاوزوا كل الصعوبات استحابة لطموحات الجماهير التي وضعت ثقتها بين أيدي علمائها.

(1) لكن هنا ليس رأي الأستاذ رابع تركي، الذي يذهب إلى أن المؤتمر لم يتعقد وقد تكون ظروف حالت دون ذلك، ويبرّر ذلك بعدم عبوره على ما يدل على اعتقاده. والواقع هو شهادة أحد الذين حضروه وهو الأستاذ باعزيز بن عمر ووصفه لهنياته. انظر: رابع تركي، المرجع السابق، ص 337. بتصرف.

(2) المطبقاني، المرجع السابق، ص 108 (الهامش). (نقلا عن: باعزيز بن عمر، ابن باديس المرسي الكبير، مجلة "محات").

(3) المكان نفسه.

وقد شهدت هذه الفترة نجاحات كثيرة مثل تشييد مدرسة "دار الحديث" بتلمسان التي تم افتتاحها في صيف 1937م وقد حضره عدد من رجال الجمعية وبعض علماء المغرب وتونس وكانت المدرسة نمطا فريدا بين المدارس في هندسة بنائها وتخطيطها وللإشارة فقد بلغ تلاميذها نحو الألفين تلميذا.. <<(1).

وكانت قضية التعليم العربي الحر قد أحرزت على نجاح سياسي عظيم على الساحة الجزائرية حيث تبناها المؤتمر الإسلامي كمطلب هام سنة 1936م جاء نصها: <<تعتبر اللغة العربية رسمية مثل اللغة الفرنسية وتكتب بها مع الفرنسية جميع المنشور الرسمية، وتعامل صحافتها مثل الصحافة الفرنسية وتعطى الحرية في تعليمها في المدارس الحرة مثل اللغة الفرنسية >> (*).

ولم يكن هذا ليرضي إدارة الاحتلال بل كان يغيضا ويحفها، وقد أصدرت في هذه الفترة كثيرا من المراسيم والقوانين والأوامر تستهدف نشاط الجمعية في الصميم وتقضي بغلق مساجدها ومدارسها ومنع المعلمين من التدريس بدون رخصة، وكذا منع الأئمة والعلماء من الوعظ والإرشاد بالمساجد وأخطر ما ورد في أحد المقررات: <<قرار شيطان>> القاضي باعتبار اللغة العربية لغة أجنبية في الجزائر.

ولم يقتصر ضغط الإدارة الاستعمارية على مدارس ومعلمي الجمعية فقط بل تعداه إلى الأهالي الذين كانوا يرسلون أولادهم إلى مدارس الجمعية، وذلك بقطع التعويضات العائلية عن العمال الذين يتعلم أولادهم بها(2). ويبدو أنه كلما زاد الضغط من إدارة الاحتلال، كلما زاد عزم الشعب الجزائري على الإقبال على التعلم والبذل وتعضيد الجمعية وكلما زاد عزمها وتجلدا وصل إلى تجاهل قوانين سلطة الاحتلال وذلك في بناء المزيد من المدارس والمساجد.

(1) محمد خير الدين، المصدر السابق، ج1، ص 182 و 186

(*) انظر الملحق رقم 4.

(2) أحمد الخطيب، جمعية العلماء.. ودورها الإصلاحي، مرجع سابق، ص 205 (نقلا عن كوليت وفرنسيس

جونسون، الجزائر الخارجة عن القانون).

وقد وضحت صحافة الجمعية وخاصة "الشهاب" و"البصائر" بمقالات كثيرة تشرح للأمة فحوى القوانين الاستعمارية الخاصة بالمدارس والمساجد واللغة العربية قصد تحريك الرأي العام الجزائري بكل فئاته وتنبهه إلى خطورتها وكان ابن باديس يحرص دائما على أن يكشف للجزائريين عن العلاقة الموجودة بين العربية وبين الروح الوطنية والشعور القومي. كما يكشف عن الأهمية التي تلعبها في صنع خلود الشعب وصموده <<(1).

وفي هذا المجال يقول ابن باديس عن قانون 8 مارس 1938م الذي سماه بقانون "العقاب الرهيب" في مقال عنوانه "يا لله للإسلام والعربية في الجزائر" : << اعلموا أن لا بقاء للإسلام إلا بتعليم عقائده وأخلاقه وآدابه وأحكامه. وأن لا تعليم له إلا بتعليم لغته فاصبوا تعليمها العدا وتعرضوا لمن يتعاطى تعليمها بالمكروه والبلاء، ولما رأوا تصميم الأمة على تعلم قراءتها ودينها ولغة دينها، واستبسال كثير من المعلمين في سبيل القيام بواجبهم نحو الدين والقرآن ولغة الدين والقرآن، واستمرارهم على التعليم رغم التهديد والوعيد، ورغم الزجر والتفريم -لما رأوا هذا كله- سعوا سعيهم، وبذلوا جهدهم حتى استصدروا هذا القانون، قانون العقاب الرهيب... فهمت الأمة كل هذا وفهمت أن هذا القانون سلاح جديد أشهر لمحاربتها في أعز عزيز عليها، وأقدس مقدس لديها قرآنها ودينها ولغة قرآنها ودينها، وفهمته جمعية العلماء المسلمين الجزائريين المثلة للأمة في دينها وقرآنها ولغة دينها وقرآنها والناطقة في الدفاع عنها في هذه الناحية بلسانها والمعاهدة لله وللأمة على ذلك الدفاع إلى آخر رمق من حياتها(2).

وذيل هذا المقال بندا إلى << كل معلم مكتب قرآني أو مدرسة طلب الرخصة من الإدارة ولم تحب، وكل معلم مكتب قرآني أو مدرسة منع من التعليم وكل معلم نزعته منه رخصته >>، أن يكاتب الجمعية، لتسعى في أمره السعي المشروع وكذا << دعوة كل من تعدى عليه من معلمي المساجد أن يكاتبها لتتبع بطريق القانون كل من روعه وانتهك حرمة الدين والمسجد من رجال السلطة كائنا من كان >> ودعوة كل جماعة يريدون

(1) محمد الميلي، ابن باديس وعروبة الجزائر، مرجع سابق، ص 130.

(2) آثار الإمام عبد الحميد بن باديس، مصدر سابق، ج4، ص 126-127.

تأسيس جمعية وفتح مدرسة لتعليم الإسلام والعربية لترشدهم إلى الوجهه القانونية اللازمة(1).

ولما كانت بعض المدارس التابعة للجمعية تفتقر إلى الترخيص الرسمي سبق وأن رفضت الإدارة منحها أياه، ولما كان أغلب معلمي المدارس الإصلاحية لا يحملون تصاريح حكومية بالتعليم بسبب جهلهم اللغة الفرنسية، والتي كانت معرفتها شرطا أساسيا لمنح الترخيص، فقد أغلقت إدارة الاحتلال قسرا عددا من المدارس مثل مدرسة الحديث بدعوى عطلورتها، وحاولت إيقاف المعلمين عن ممارسة التعليم تحت طائلة التمهيد والملاحقة القضائية(2).

نشاط التعليم الإصلاحي في فرنسا:

لم تكف جمعية العلماء في هذه الفترة بمد نشاطها التعليمي إلى كل المناطق في القطر الجزائري، لكن انتقلت به إلى فرنسا حيث توجد الجالية الجزائرية التي يبلغ عددها نحو أربعمئة ألف(3). وقد كانوا في ازدياد مطرد وكلهم عمال هاجروا لطلب العيش من طريق العمل بسبب ما ضيق الاستعمار على الجزائر من سبل المعيشة، واستقروا في مراكز الصناعات في فرنسا. وتزوج كثيرهم من أوروبيات عاملات وولد لهم في أرض مسيحية من زوجات مسيحيات >> فكانت النتيجة اللازمة لهذا أن الآباء أضاعوا دينهم بتأثير البيئة فضلا عن الأبناء الذين اجتمعت عليهم البيئة والأمهات والقانون، إنهم بلا شك ينشأون مسيحيين خالصي>>(4) كما يقول الابراهيمي .

وأمام هذا الخطر الذي سيسلخ من الأمة الجزائرية على التدرج أجيالا، تكون نقصا منها وزيادة في عدوها، صممت الجمعية أن تقف له موقفا صارما، وتعمل على إنقاذ ما يمكن إنقاذه، وانتدبت للقيام بهذا العمل الأستاذ الفضيل الورتيلاني سنة 1936م الذي سعى في تأسيس النوادي والمراكز التعليمية في بعض المناطق الفرنسية وتم له في سنة

(1) آثار الإمام عبد الحميد بن باديس، ص 128-129 بتصرف.

(2) Ali Merad, le Réformisme Musulman en Algérie, Op Cit p 340

(3) آثار محمد البشير الابراهيمي، مصدر سابق، ج4، ص 235.

(4) المصدر نفسه، ص 236.

واحدة تأسس ثمانية عشر مركزا تعليميا في باريس وضواحيها، ثم في المدن الكبيرة في شمال فرنسا وجنوبها(1) وأمدته الجمعية بمجموعة من العلماء كان محمد الصالح بن عتيق من جملتهم(2) وقد سعى هؤلاء في وضع برنامج محكم للدروس والمحاضرات. وكان الإقبال عليها مشجعا وأصبح الكثير من العمال يتزدون على هذه المراكز ويتعلمون فيها تعليما منظما حسب البرنامج المسطر للسنة الابتدائية والمتوسطة وحتى الثانوية حسب ابن عتيق(3)، ويتلقون خاصة التاريخ والسيرة النبوية والرياضيات وعلوم أخرى مختلفة. وكان الأساتذة يحضرون بالتناوب في ناد معين. ويشير الابراهيمى إلى أن تلك المراكز كانت تعلم الأطفال العربية والدين ساعات من النهار فإذا جاء الليل أقبل الكبار فتلقوا دروسا سهلة في أصول الدين وفروعه ومارسوا العبادات العملية(4) وقد كانت هذه المراكز جادة النشاط محكمة التنظيم أشاد بها العلماء المشرقون الذين كانوا يقصدونها للزيارة وأحيانا للمحاضرة وأخرى بغية الاختلاط والتعارف بإخوانهم الجزائريين.

ويبدو أن الحرب العالمية الثانية كما أدت إلى اضطراب التعليم العربي الحر داخل الجزائر، بالإضافة إلى القوانين الفرنسية المعقدة فيها، فإنها في فرنسا قد قضت على العمل المستمر لمراكز التعليم فلم تبق منها إلا الأحاديث والأمانى والحسرات كما يقول الابراهيمى. وللإشارة فقد حاولت الجمعية إحياء ذلك المشروع وأوفدت بشأنه رئيسها ووكيلها إلى باريس بعد نهاية الحرب لكن اعترضتهما عقبة المال حيث «استحالة وجود الأماكن إلا بأثمان فاحشة، واكتفيا بشراء مركز متواضع ليكون رمزا للمشروع ونقطة بدء في تحقيقه»(5). وقد نبه الابراهيمى الحكومات الإسلامية ودعاها إلى القيام بواجبها نحو

(1) آثار محمد البشير الابراهيمى، مصدر سابق، ج4، ص 236.

(2) وكان من بينهم الشيخ السعيد الصالحى، محمد الزاهري الهلبي، حمزة بوكوشة، وفرحات الدراجي، والشيخ الهادي السنوسي. انظر: محمد الصالح بن عتيق، المصدر السابق، ص 83.

(3) المصدر نفسه، ص 84.

(4)، آثار محمد البشير الابراهيمى، مصدر سابق، ج4، ص 236.

(5) المكان نفسه.

الجالية الاسلامية(1) في فرنسا التي يسببها الكفر في غير حرب حسب تعبيره وحملها المسؤولية في ذلك.

وخلال هذه الفترة أنها لم تعد حدود التعليم الابتدائي وقد كانت تمنح بشأنه "الشهادة الابتدائية" للتعليم العربي والفرنسي، وقد اتسعت اهتماماتها التعليمية لتشمل مشاريع هامة مثل التفكير الجاد في التعليم الثانوي وتوفير ما يلزمه من مؤسسات وتكاليف وكذا تعليم عال. وشهدت الفترة تضييقا شاقا من طرف الاحتلال عن طريق منع الرخص وتغريم أولياء التلاميذ وكذا سجن ونفي رؤوس الإصلاح وغلق كثير من المدارس، ويتحدث زملاء ابن باديس عن أن موته -رحمه الله- لم تكن طبيعية ويشيرون إلى أنه >> كان يخطط لإعلان استقلال الجزائر خلال الحرب العالمية الثانية. كما يقول الدكتور سعد الله (2). لكن أهم ما صيغ الفترة هو عموم انتشار التعليم العربي الحر الذي مس كل الجزائر، وإقبال الناس على المدارس والنوادي كان كبيرا وتطلب الأمر في كل جهة توسيع المدرسة المحلية أو البذل لتأسيس مدرسة جديدة ولئن كان رئيس الجمعية قد مات فإن مشروعه الاصلاحى العظيم بمبادئه وأفكاره قد غرس في قلوب وعقول الجماهير الجزائرية بل وفي صخور الجزائر نفسها.

وقد عبّر ابن باديس نفسه عن تحدر المدرسة الاصلاحية في الجزائر وأشار إلى عبث وعدم جدوى ظلم فرنسا لها فقال: >> والخلاصة أن الحالة العلمية بالجزائر اليوم هي علم مبني على روح إسلامية عربية لا يمكن أن يقاومها مقاوم، أو يعارضها معارض، ولا يمكن للظلم أن يقف في طريقها >>(3). ويقول منبها حكومة الاحتلال إلى سوء عاقبتها في الجزائر: >> فهل تدرك الإدارة معنى هذه النفسية من الأمة ؟ وهل تبصر من وراء هذا

(1) بلغ عدد الجزائريين حسب المصدر نفسه في تلك الفترة 150 ألف عامل جزائري، وبلغ عدد الأطفال من الزواج المختلط -مع المسيحيات- أكثر من 20 ألفا بين ولد و بنت.

(2) أبو القاسم سعد الله: الحركة الوطنية، مرجع سابق، ج3، ص92. وانظر أيضا: محمد الميلي، ابن باديس وعروبة الجزائر، مرجع سابق، ص73.

(3) آثار الامام عبد الحميد بن باديس، مصدر سابق، ج4، ص117.

النبات والجلد شبح الحقيقة؟. وهل تشعر بما تنطوي عليه قلوب هذه الأمة المسلمة المسألة من الأمل واللوعة؟. ليتها، ولعلها يكون منها كل ذلك في صالح الجميع، وفي سبيل الحق والعدالة، ومن أجل الصفاء والسلام (1).

وختتم ابن باديس تقريره الأدبي في أواخر سنة 1939م بقوله: انني ابتدأت حديثي بالثقة بالله والاعتماد على النفس وأختمت بهما فنقروا بأنفسكم وتقوا بالله، واعتمدوا عليه وعلى أنفسكم وأعملوا وكونوا خير خلف لخير سلف (2).

ولئن مات رئيس الجمعية، فبعد أن أتم صياغة فلسفة الحركة ضد الجهل، ضد التخلف، ضد الذل وضد الضياع، وصاغ أفكار الرجال والنساء الذين يكوّنون الجيل القائد، كما صاغ أفكار الجماهير التي فتحت أمامها أبواب الأمل في التحرر من اليأس والذل، ووضع في أيديها مفاتيح كل ذلك ثم حملها مسؤوليتها على نفسها. ويمكننا أن نعدّ من 1940م إرهاصات الاستقلال وحياة الأمة المسلمة الجزائرية.

4- فترة الركود الثقافي 1940م-1943م:

مسّ نشاط جمعية العلماء في هذه الفترة ركود واضطراب نظرا لظروف الحرب وإن كان قد مسّ أكثر نشاطها الدعائي المتمثل في التجمعات والنوادي ودروس الوعظ والإرشاد لكن حركة التعليم والتوجيه قد استمرت ويمكن القول حسب سعد الله: >> أن نشاط الجمعية لم ينقطع خلال الحرب ولكنه كان هادئا كالجداول الصغير لا هادرا كالتنهر الكبير >> (3).

ولم تكن ظروف الحرب فقط هي التي أضفت ظلالها الثقيلة على نشاط الجمعية وإنما أيضا وفاة رئيسها الأول الذي ترك فراغا كبيرا لا يستطيع أن يملأه أحد في صلابته وثقة الجميع به، ثم إن انتخاب "الشيخ الإبراهيمي" كان غيايبا، إذ كان هو نفسه مسجوناً منذ بداية الحرب مع عدد من علماء الجمعية، وقد تذرعت حكومة الاحتلال

(1) آثار الامام عبد الحميد بن باديس، مصدر سابق، ج4، ص 139.

(2) المصدر نفسه، ص 150.

(3) أبو القاسم سعد الله، الحركة الوطنية، مرجع سابق، ج3، ص 201.

لذلك بتهمتهم بـ "الخطر على الأمن العام في البلاد"⁽¹⁾.

٤- فترة 1944-1956: فترة نشاط أوسع وأشمل:

بعد الإفراج عن "الابراهيمى" وبعض علماء الجمعية في ديسمبر 1943م عادت الجمعية إلى مزاولة نشاطها باكثر عزيمة وصلابة وإيمان، واستجابت الجماهير باكثر حماس واستعداد، حتى أن سنة 1944م لوحدها شهدت تأسيس سبعين مدرسة في مدن القطر وقراه⁽²⁾. وكانت هذه الفترة بالإضافة إلى استكمال المشاريع القديمة وتوسيعها، مجالاً لتحقيق أكبر الطموحات التي كانت أفكاراً تتداول بين خاصة العلماء في مناقشتهم ومؤتمراتهم لتنظيم هذا الميدان وإعطائه صفة الشمولية لكل مستويات التعليم، وصفة الوطنية حتى يعم توحيد برامجهم ومناهجهم حسب الفكرة الإصلاحية.

وقد نشطت حركة تأسيس المدارس الحديثة التي تستجيب لمواصفات الذوق العصري ومتطلبات الصحة العامة للمتمدرسين، ويدخل في هذا الإطار مثلاً مدرسة التربية والتعليم بسكرة في 1949م⁽³⁾ ومدرسة سيدي بلعباس في 1952م⁽⁴⁾ ومدرسة الشبية للبنين والبنات بالأغواط في 1945م⁽⁵⁾، ومدرسة سوق أهراس في 1953م⁽³⁾ ومدرسة النشاء الجديدة بباتنة في 1954م⁽⁷⁾.

ونلاحظ أن تدشين المؤسسات التعليمية والدينية من طرف علماء الجمعية في هذه الفترة قد اتخذ أبعاداً أكثر تعبيراً عن السيادة والاستقلالية، فالجمعية هي التي وجهت تأسيسها، ويعود لعلمائها الحق -وحدهم- لتفقدتها أو افتتاحها، وهو من جانب الأمة التي

(1) أبو القاسم سعد الله، الحركة الوطنية، مرجع سابق، ج3، ص 234.

(2) آثار محمد البشير الابراهيمى، مصدر سابق، ج4، ص 245.

(3) محمد خير الدين، المصادر السابق، ص155-158.

(4) المصدر نفسه، ص 198-202 (وانظر الاستفاضة حول مراسم التدشين وخطبة الاحتفال).

(5) محمد علي دبور، نهضة الجزائر الحديثة، مصدر سابق، ج3، ص 272-275 بتصريف (انظر صورة للمدرسة للاستدلال على طرازها العصري وخرقها الجميل).

(6) المصدر السابق، ص 189-192.

(7) المصدر نفسه ص 192-195.

لم تبخل عليهم بالمال، دلالة على ثقتها فيهم فكانت تستقبلهم على أنهم قادتها بالحفاوة والتقدير والطاعة وكل ما يلزم للقادة في هذه المناسبات.

وقد عبرت هذه المرحلة -التي كانت كلها نشاط- من تفقد لما أنجز إلى توسيع لما ضاق إلى تحضير لتأسيس المزيد عن استعداد الأمة بل واعتمادها التام على نفسها في إصلاح شؤونها >> معتدة في ذلك بقيمتها كأمة لها مقوماتها وخصائصها الطبيعية، وهي متطلعة في جد وعمل إلى مستقبلها بالاسم السعيد >> كما يقول محمد خير الدين(1)، وإذا أخذنا بعين الاعتبار تردد عبارة "الإصلاحات" بين ممثلي الحكومات الفرنسية في الجزائر في فترة ما بعد الحرب والتي لم تكن في النهاية إلا وعود كاذبة فهمنا كيف كانت الجماهير الجزائرية تعي مفهوم هذه الكلمة، في بناء المدارس والمساجد والنوادي وتعميرها بالثلاميذ والشباب وفي رد اعتبار الدين ولغة الدين، وفي نشر الفضيلة.. الخ، وهو ما بادرت به بنفسها في تجاهل تام لعودة الاستعمار الفرنسي، تقودها وتوجهها في كل ذلك جمعية العلماء المسلمين الجزائريين.

وإذا أخذنا بعين الاعتبار الملايين من الأموال التي كانت تتبرع بها الأمة في الجزائر في سبيل شراء محال لبناء المدارس والمساجد والنوادي داخل الوطن وخارجه كما رأينا، -وهي الأمة الفقيرة الجامعة اليائسة- ثم لاحظنا طريقة إقبالها على التعليم لفهمنا بأن القضية ليست قضية فقر ويوس وجوع بقدر ما هي قضية >> إرادة الحياة >> وهو ما تجسدت فيه جمعية العلماء لما اتخذت لذلك منهج: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾(2)..

فلما غير الجزائريون ما بأنفسهم من شح وفرقة وغفلة الخ، غير الله ما بهم، وما هذه الملايين من الأموال وهذه المدارس إلا بشائر للتغيير، ودلائل للنجاح وقرب للفرج من قوة تجمع، واتحاد وتعاون على المصلحة العامة، يقول محمد خير الدين: >> إن الإنسان في هذه الحياة يمحي ثم يموت، ثم لا يرجع إلا بعد أن يقف بين يدي الله، والأمم كذلك، ولكن الأمة لا تقبر بل تموت موتاً معنوياً وحياتها ليست بالروح تدخل وتخرج إنما نحيها

(1) محمد خير الدين، المصدر السابق، ص 200.

(2) الرعد، 13.

بالحياة الحقة، وما الحياة الحقة إلا العزة والكرامة والقوة، وموت الأمم معنوي، تفقد معه اتحادها ودينها وعزها وعلمها وأخوتها ثم تصير أشناتا، فبلا غيرة ولا رحمة، تداس حقوقها فلا تتحرك، وبذلك تفقد حريتها وتندمج في غيرها. وإذا وصلت الأمة إلى هذا الدرك فهي الميتة لا حياة لها، وهناك أصبحت لا تتحرك للهمز واللمز ولا للحرج» (1).

وبلاحظ من جهة أخرى من سلوك الجماهير الجزائرية في إقبالها على التعليم والبذل في سبيله، إدراكها تماما لفائدته ووعيتها الراسخ لقيمتها، فالأمة التي تبذل قوتها وعجز أطفالها في سبيل العلم، وتستमित في إيصال أموالها إلى صناديق الاكتاب ينم حقيقة على تعبيرها عن التكفير عن تأخر يقظتها بالتسابق في البذل، وكان ذلك منها كالجهد الذي يرحى به المغفرة والتعبير عن الندم. وهو وإن لم يعد على الأفراد بالجاء أو بطول بعضهم بوظائف فهو يعود على الأمة ببناء صرح عتيد لمستقبل الأبناء، ومصير الوطن، وقد وجدت قادة أفاذا منها يقودونها في أمانة وقوة جأش إلى ما تطمح إليه. وهو ما جارتها فيه جمعية العلماء في هذه المرحلة خاصة. يقول "الابراهيمي" بعد أن أطلق سراجه أنه استأنف العمل من أول يوم وبدأ يبعث الحركة من جميع جهاتها فمن تحريك الشعور السياسي وتنظيم حركة سياسية، إلى مجارة فورة الأمة في سبيل التعليم. وكان الاحتلال الأمريكي جالما على الجزائر، والأحزاب السياسية تعبت وتعبت، وهو يسعى في جمعها فترققها الأهواء والرعونات فرأى أنه «إذا ضاعت على الأمة الفائدة السياسية بسبب الوضع لحاضر، فلن تضيع عليها الفائدة العلمية والعلم تسليح» (2).

وقد أورد الابراهيمي أرقاما للمدارس في سنة 1953 م وكذا الغلاف المالي الذي أنفقته الأمة عليها فكانت كالتالي: أكثر من 140 مدرسة (مائة وبضع وأربعون مدرسة)، بلغت قيمة تشييدها وتعميرها ما يقرب من ألف مليون فرنك، وبلغ عدد تلاميذها الابتدائيين: خمسون ألف تلميذ وتلميذة، أما المتخرجون منها من بدايتها فنحو مائتين وخمسين ألف (3).

(1) محمد خير الدين، المصدر السابق، ج1، ص 202.

(2) آثار محمد البشير الابراهيمي، مصدر سابق، ج4، ص 245.

(3) المصدر نفسه، ص 246.

وبلغ مجموع المعلمين في هذه المدارس نحو أربعمائة معلم كلهم من تلامذة "جمعية العلماء" الحاملين لفكرتها وبلغ ما تنفقه الأمة سنويا على هذه المدارس في أجور المعلمين وغيرها خمسة وسبعون مليوناً من الفرنكات. هذه هي الأرقام التي أوردها رئيس الجمعية الثاني لسنة 1953م⁽¹⁾، وتعطينا مصادر أخرى أرقاماً أخرى ولسنوات أخرى، ويعود التراجع في هذه الأرقام بين الزيادة والنقصان إلى تدخل الإدارة لوقف بعض المدارس واستمرار بعضها في العمل رغم ذلك، ثم توقيفها للمعلمين ومتابعتهم قضائياً لكن الأکید في الأرقام هي ما يقدمه علماء الجمعية وما تنشره صحافتها⁽²⁾.

أ- التعليم الثانوي:

حتى سنة 1947م كانت جمعية العلماء تختار النجباء من تلاميذها لمواصلة تعليمهم الثانوي في جامع الزيتونة بتونس، لعدم وجوده بالجزائر، لكن حب العلم والتطلع إلى غاياته أحدث في عشرات الآلاف من حملة الشهادات الابتدائية الذين تخرجوا من مدارس الجمعية "ثورة عليها وإلحاحاً - كما يقول "الابراهيمى" يطلبون الانتقال بهم إلى التعليم الثانوي⁽³⁾، فالتقت رغبة العلماء مع رغبة الطلبة وتبلورت فكرة تأسيس معهد ثانوي. ولما لم يكن من الممكن العودة إلى التعليم بالجامع الأخضر، لعدم توفر رخصة التعليم به التي كانت للإمام "ابن باديس" قبل وفاته - رحمه الله - فقد اضطرت الجمعية لإنشائه من الصفر بداية من شراء محله وتأثيثه وتجهيزه وأطلق عليه اسم "معهد عبد الحميد بن باديس" اعترافاً بفضل الشيخ الإمام في قيادة وبعث النهضة التعليمية في الجزائر وتكريماً للمؤسس أول معهد ثانوي بالجامع الأخضر. وتولى إدارة المعهد الشيخ "العربي التبسي" تساعده لجنة من الأساتذة. وبعد أربع سنوات تولاها الشيخ "محمد خير الدين" بعد أن استعفى "التبسي" لأسباب صحية⁽⁴⁾.

(1) أنظر أرقام سنة 1952م في : جريدة النار، ع 9 س 1، المؤرخة بـ 1951/10/05، ص 2.
 (2) جاء في عيون البصائر، هامش ص 279. هذه الأرقام: سنة 1955م: 400 مدرسة، 75000 تلميذ وتلميذة ر 700 معلم.

(3) آثار محمد البشير الابراهيمى، مصدر سابق، ج 4، ص 246.

(4) محمد خير الدين، المصدر السابق، ج 1، ص 205.

وقد وضعت "جمعية العلماء" للمعهد لائحة داخلية قسمت فيها إدارة أعمالها على ثلاث هيئات : الهيئة العلمية والمالية وهيئة المراقبة(1). وقسمت الدراسة إلى أربع سنوات هي نفسها من حيث البرامج السنوات الابتدائية الأولى في جامع الزيتونة، مع اختلاف في بعض الجزئيات، ينتقل التلميذ من سنة إلى أخرى بامتحان سنوي، وتنتهي الدراسة بشهادة تساوي مثلتها في جامع الزيتونة، وقد دأبت إدارة المعهد توثيقا لشهادته إلى إشراك هيئة علمية من الزيتونة في الإشراف على سير الامتحان النهائي للتلاميذ(2).

ولم تكف "جمعية العلماء" في تنظيم الدراسة بالمعهد الباديسي برنامج "الزيتونة" وإنما تجاوزته بل وتجاوزت بقية المعاهد العربية في ذلك من حيث إضافة بعض المواد التي بقي الطالب العربي محروما منها لمدة طويلة، فقد عملت على توسيع البرنامج بدروسها في مبادئ الرياضيات والطبيعات والجغرافيا والتاريخ وحفظ الصحة وأصول الأشياء، يقوم بها طائفة من الأساتذة الأكفاء. وقد كانت تجربة موفقة بلغت الغاية من النجاح كما يقول "الابراهيمى" كما لقيت من الطلبة إقبالا يفوق الحدّ، مما دفع إدارة المعهد للعمل على توسيع البرنامج وزيادة حصصه الأسبوعية (3).

وكان المعهد يخضع لرقابة صحية منظمة حيث تقوم جماعة من الأطباء بفحص الطلبة وأماكن الدراسة والسكن، مرّة في كل أسبوع. وفي الحملة فقد كان "المعهد الباديسي" إنجازا باهرا من إنجازات الجمعية في المجال الثقافي. وقد تعدّت نفقات إنشائه بأهنيته ومرافقه كما يقول "الابراهيمى" أكثر من مائة مليون فرنك وكان ينفق عليه في كل سنة على شيوخه والقائمين بتسييره نحو عشرة ملايين من الفرنكات (4).

وقد وضع المعهد شروطا للتلاميذ الراغبين في الالتحاق به نشرتها صحافة الجمعية، واعتبرت فيها عوامل السنّ والصحة والالتزام، وخصّ حافظ القرآن الكريم عن غيره

(1) محمد خير الدين، المصدر السابق، ج1، ص 207 بتصرف. (رلاطلاع والاستفاضة حول مهام كل هيئة ومسؤولية أعضائها).

(2) المصدر نفسه، ص 206.

(3) محمد البشير الابراهيمى، عيون البصائر، مصدر سابق، ص 282.

(4) آثار محمد البشير الابراهيمى، مصدر سابق، ج4، ص 247. بتصرف.

بالتقديم في القبول وفي كل الامتيازات، كما جعل وجوب حفظ جزء معتبر من القرآن الكريم - لا يكون أقل من الربع - شرطا أساسيا للقبول⁽¹⁾. وفي هذا دلالة الخاصة في توجه العلماء وفي مضمون رسالتهم الاتصالية التي تستغل كل الطرق لردّ الجزائريين إلى دينهم ولغتهم وحضارتهم.

ويبدو أن الإقبال على المعهد ممن توفرت فيهم شروط الالتحاق كان يتزايد كل سنة وهو ما تشهد به مصادر الجمعية حسب الأرقام التالية:

السنة الدراسية	عدد التلاميذ وتقسيمهم على سنوات الدراسة
1947-1948م	300 (2)
1948-1949م	600 (2)
1950-1951م	702 (3)
1953-1954م	841 مقسمون كما يلي: (4) السنة الأولى : 259 السنة الثانية : 298 السنة الثالثة : 202 السنة الرابعة : 82
1954-1955م	913 مقيدون رسميا مقسمون كما يلي (5): السنة الأولى : 310 السنة الثانية : 284 السنة الثالثة : 227 السنة الرابعة : 29 87 غير مقيدين رسميا يزاولون دراستهم دون تقييد بالنظام لحيثهم متأخرين عن ميقات الافتتاح أو لتجاوزهم السن المحددة للالتحاق.

الجدول رقم 14 : عدد الطلبة بمعهد ابن باديس بقسنطينة بين سنوات 1947-1955م

- (1) محمد خير الدين، المصدر السابق، ج1، ص 207 و 209 بتصرف.
- (2) محمد البشير الابراهيمي، عبون البصائر، مصدر سابق، ص 229.
- (3) أحمد الخطيب، جمعية العلماء وأثرها الإصلاحي، مرجع سابق، ص 216.
- (4) محمد خير الدين، المصدر السابق، ج1، ص 225.
- (5) المصدر نفسه، ص 233. ويقول خير الدين "أنه لولا الضيق في المحلات السكنية لبلغ العدد إلى الضعف.

وكما كان إقبال الطلبة في تزايد مستمر على المعهد فإن نتائج التعليم به كانت باهرة بل وفوق المستوى العادي على حدّ تعبير الابراهيمى (1) نظرا لنسب المشاركة الهامة في كل سنة بالإضافة إلى نسب النجاح وكذا نسب الجوائز .

ب- الأساتذة: حتى سنة 1951م لم تكن جمعية العلماء تشرط الشهادة في اعتبار أساتذتها، فقد اكتفت في البداية بالكفاءة العلمية بالإضافة إلى الأخلاق الحسنة والشخصية القوية ثم قدّمت المتحصلين على شهادات "الزيتونة أو "القروين" في التوظيف واعتبارا من 1951م أعلنت لجنة التعليم العليا (2) عن اعتبار الشهادات العلمية شرطا أساسيا لقبول المعلمين بمدارس الجمعية. وأضافت الجمعية شرطا آخر سنة 1953م يتمثل في إجراء مسابقة، وهي عبارة عن امتحان خاص أطلق عليه "مناظرة أهلية التعليم" الذي يشتمل على:

1- إلقاء درس على جمع من الطلبة من منهاج التعليم لمدارس الجمعية.

2- موضوع إنشائي.

3- سؤال تربوي (3).

وقد كان عدد الأساتذة بدورهم في تزايد مستمر حتى يستجيب للعدد المتزايد من الطلبة، وقد دأبت إدارة المعهد الباديسي إلى القيام بإجراءات تحسينية كل سنة، ليس على مستوى البرامج والمناهج الدراسية فقط وإنما أيضا على مستوى الإنجازات التابعة له حتى توفر الجو العلمي الملائم للطلبة والأساتذة على السواء ولتشهد الجماهير الجزائرية من ثمة على مغزى عملها التعليمي ودلالته الحضارية في مستقبل الوطن.

(1) محمد البشير الابراهيمى، عبون البصائر، مصدر سابق، ص 281.

(2) أنشأت هذه السنة سنة 1948م بفرض الإشراف على شؤون التعليم في الجمعية، وحلّ المشاكل التربوية التي كانت تعترض سلك التعليم، والاهتمام بمشاكل الأساتذة ومتابعة المستوى العلمي. وكانت تنشر دروسا نموذجية خاصة بالمعلمين لتنمية ثقافتهم وتوسيع خبراتهم المهنية، كما كانت تسولى الإعلانات الخاصة بمجال التعليم مثل تواريخ إجراء الامتحانات، وفتح المدارس واستدعاء الأساتذة... الخ.

انظر: أحمد الخطيب، جمعية العلماء.. وأثرها الإصلاحي، مرجع سابق، ص 213. وأيضا محمد خير

الدين، المصدر السابق، ج 1، ص 165-166. (خاصة نماذج من إعلاناتها).

(3) المرجع السابق، ص ن.

ج- دار الطلبة:

كان علماء الجمعية يخططون مشاريعهم حسب إطار عام يضع كل مشروع منها حسب الأولوية والأهمية، وخاصة حسب الامكانيات المادية التي تسهّلها، ومن ثمة فقد كانت الجمعية تسير في خطى وثيدة لكنها ثابتة، وكانت كل سنة تقدّم الجديد الذي تكوّن قد وضعت له نصابه المالي وأعدت نظامه وأهدافه. وفي مجال التعليم بالذات فقد كان للجمعية نظرتها الشاملة والبعيدة التي هدفت من خلالها إلى مدّ سياسة ثقافية مبنية على معطيات واقعية، لا تفوت أهمية أجزائها على الأمة في كل مرحلة من مراحلها، لكن أيضا ودوما بعدما تأمن عليها عدم الانتكاس فيما سبق منها.

وكانت ضرورة تأسيس "دار الطلبة" سنة 1953م تستجيب إلى هذا المنطق في إنجازات جمعية العلماء، ودار الطلبة عبارة عن دار ضخمة مزوّدة بالمرافق الضرورية من مطعم وحمام وقاعة للمراجعة زيادة عن أماكن النوم⁽¹⁾ وهي بهذا تهيب للتلاميذ الحياة الكريمة التي تعينهم على مواصلة الدراسة في ظروف حسنة، ومطعم الدار يمكنهم تحت رعاية الإدارة من تناول طعام صحي ذي فائدة عظيمة وثمن زهيد ويحميهم من تبذير أموالهم وصرفها فيما يضر بصحتهم لقلّة الطعام أو لردائه ثم إن قاعة المراجعة وكذا مطعم الدار قد خصصا لتحضير الدروس، وكمتمدى للمسامرة بين طلبة العلم بعيدا عن جو المقاهي والأزقة وكل ذلك حفاظا على صحة الأبدان وأموال الأولياء التي هي في الحقيقة أموال الأمة بأكملها.

وقد وضعت الإدارة نظاما صارما للدار وشروطا خاصة للالتحاق بها، كما كوّنت مجلسا يقوم بالسهر على صحّة التلاميذ بمساعدة أطباء البلد، ويقول الابراهيمى أن >> مجموع ما أنفق على هذه الدار وحدها ثلاثون مليون فرنك <<⁽²⁾.

ويعدّ نظام المعهد ونظام الدار نموذجا في العزيمة والصرامة، حيث اتفقت طريقة الإدارة والتدريس على الحزم والكياسة في تعليم التلاميذ، ومراقبة سلوكهم داخل المعهد وعارجه، يظهر ذلك من لائحة المعهد الداخلية التي تصف واجبات المدرسين والتلاميذ،

(1) محمد خير الدين، المصدر السابق، ج1، ص 214.

(2) آثار محمد البشير الابراهيمى، مصدر سابق، ج4، ص 248.

وتبين الصلوات بينهم، ثم نشرة التلاميذ التي تصدر مرة كل شهرين والتي تشرح أعمال المعهد وسير التعليم به، وتسجل حركته، وتسمى كتيبه ودروسه، وتعلن عن مداخيله ونفقاته لتبصير الأمة بذلك، ثم من النظام العام الذي سطرته إدارة دار الطلبة لمراقبة أخلاق التلاميذ وتصرفاتهم من أداء الصلاة وتحضير الدروس وتلاوة القرآن ومن نظام العرفاء (1).

وكانت خطب افتتاح السنوات الدراسية أو ختمها صورة أخرى للصرامة والجدية، في مراقبة أخلاق التلاميذ وتبنيهم، وقد تعدت ذلك إلى التحذير بالطرد البات من المعهد. وهو ما جاء في خطبة نائب مدير المعهد نفسه وقد جعله جزاء كل:

- من لا يحافظ على الصلوات الخمس أو يتركها.

- من يمدّ يده إلى متاع زميله وماله، ويضبط متلبسا بجريمه السرقة

- من يجلس في المقاهي أو يخرج ليلا، وينتبت عنه عدم الامتثال ويقوم الدليل على سوء سيرته (2).

ومما جاء في خطبته: أيها الأبناء، هذا وقت الدرس والجد فيه، فمن كان يريد اللهو واللعب وعدم الاستقامة فعليه أن يعود لبلده، ولا حق له في البقاء بين صفوفنا، ومن يريد العلم للعلم وللخدمة بلاده بجد واجتهاد فليقبل على دروسه وله منا كل مساعدة بحول الله... (3).

وللإشارة فقد بعث الابراهيمى بكلمة مسجلة بمناسبة افتتاح دار الطلبة ألقىت بالنيابة عنه، نورد بعض فقراتها للدلالة على أن جمعية العلماء كانت تعي تماما أهداف مهامها ووسائلها، ثم آفاقها في كسب الجماهير الجزائرية وحثها على المساهمة في المشاريع الوطنية التالية، ثم غرس الرغبة في التغيير وزيادة أملها في المستقبل باقتناعها أنها هي وحدها التي تصنعه وأن هذه المنجزات ماهي إلا تقريب لهذا المستقبل الذي تنظر إليه بصر وأمل. جاء في كلمة الابراهيمى:

(1) محمد خير الدين، المصدر السابق، ج1، ص 211-213 بتصرف.

(2) المصدر نفسه، ص 214.

(3) الكان نفسه.

>> إن بدايسكم ، وأنتم الضعفاء هي نهاية الأقوياء، ذوي الطول والحوول، والدولة والصلوة، والعراقة والأصالة في العلم وأسبابه. فما بدأوا في التفكير والاهتمام بحال التلميذ وإقراره فيما يناسب شرفه، إلا منذ عقود قليلة من السنين. وإذا كانت الغاية هي راحة طالب العلم، وتسهيل السبيل إلى العلم، وتمهيد الوسائل له فإنهم لم يصلوا إلى تحقيق هذه الغاية إلا بعد مرور قرون على نهضتهم، أما أنتم فقد حققتم منها في أوائل النهضة، وإن نهضة تقرن مبادئها بتحقيق بعض الغايات منها لنهضة جديدة بالتمجيد والاحترام... إنكم لم تبنوا داراً وإنما بنيتم أجيالاً، وأقمتم ديناً، وكتبتم تاريخاً وثبتم نهضة... إن النهضات كيفما كان لونها هي بناء وتعمير، وهذا لعمرى هو البناء وهذا هو التعمير..

إن نهضة تبتدئ بمثل ما بدأتم لحرية أن تنتهي إلى الأمد الذي تنتهي إليه النهضات الخالدة...

هذا هو البناء الذي فيه من كل كبد فلذة، وفيه من كل كيس فلس، وفيه من كل عقل رأي، وفيه من كل فكر شعبة من شعب الفكر، وفيه من كل عزيمة أثر من أثر العزائم... <<(1).

ومع ذلك لم تكن جمعية العلماء لتفنع بهذه النتائج على أهميتها في تلك الظروف العصيبة، مع أنها كانت من المنجزات الملموسة العظيمة ولم تكن من قبيل لغة الخطب والمقالات والتمني، ولكنها هي طبيعة فيمن يبني لمستقبل أمة ومصير شعب. وقد كان لها في هذا المجال خاصة مشروع بناء حي كامل للطلبة يحمل اسمهم، ويتسم بسماهم من جهة ومن جهة أخرى، تعميم التعليم الثانوي في كل من الجزائر ووهران لكن يبدو أن القدر الذي اتسع له حال الجمعية وأموال الأمة -رغم وفرتها- لم يسعف الجمعية في أدائه وتحقيقه ويبقى أملاً تعمل على إيفائه حق الوفاء به للأمة حينما تسمح الظروف المادية خاصة.

(1) محمد خير الدين، المصدر السابق، ج1، ص237-242. (للاطلاع على النص الكامل للكلمة المسجلة للشيخ الإبراهيمي).

د- البعثات العلمية: لم يكن في مقدور الجمعية أن تمارس نشاطا تعليميا أعلى مما وصل إليه مستوى التعليم في معهد ابن باديس. وإن كان هذا المشروع قد فكر فيه العلماء بالصرامة نفسها التي أولوها لكل مشاريع الجمعية وقد جعلوه فعلا قيد الدرس. ولكنه لم يكن من السهولة بمكان حيث كان يحتاج كما يقول خير الدين: >> إلى إنشاء ثلاثة سنوات دراسية خامسة وسادسة وسابعة، وكل سنة تحتاج إلى أقسام للدراسة وشيوخ للتعليم وحجرات للمبيت<<(1). وحتى وإن لم تكن المسألة مادية لأن الجمعية لم تكن تبالي بصعابها وقد عودت الأمة بالتحدي والنتائج الباهرة، لكن المرحلة التاريخية الصعبة وظروف الثورة تكون قد أخرت المشروع وحالت دون تحقيقه في وقته.

ولعدم تفويت الفرصة على المتخرجين من المعهد الباديسي لإتمام دراستهم العليا، رأت جمعية العلماء بعث تلاميذها خارج البلاد نحو الدول العربية الإسلامية، وكذا الدول الأوروبية في كنف المدارس العلمية المتقدمة بتأسيس أقسام إضافية للفرنسية خاصة بمجالي شهادتها الابتدائية لإرسالهم إلى أوروبا للتخصص في العلوم الصناعية(2). وقد نجحت الجمعية في إيفاد طلبتها إلى جامعات الدول العربية كما سنرى بينما لم يوجد في مصادرها ما يفيد بعث تلاميذها إلى الدول الأوروبية.

وكانت أول خطوة في هذا المجال هي ربط المعهد الباديسي بجامع الزيتونة من أول أيامه من حيث البرامج والمناهج الدراسية، ومن حيث الاشراف الإداري على الامتحانات الانتقالية وكذا الشهادة النهائية، وذلك تسهيلا على البعثات نحو جامعة الزيتونة أمام الدراسة بها دون أن يعترض طريقهم من الاجراءات ما كان يهبط التلميذ الجزائري الذي سبق له أن تعلم بالجزائر.

وقد أوفدت الجمعية رئيسها وكذا أحد أعضائها البارزين هو الأستاذ الفضيل الورتيلاني للمسي لدى حكومات الدول العربية قصد قبول تلاميذ المعهد الباديسي في جامعاتها ومعاهدها العليا، وقد أبدت هذه الحكومات بجامعاتها استعدادها الكامل لقبول البعثات العلمية من الجزائر.

(1) محمد خير الدين، مصدر سابق، ج4، ص 224.

(2) آثار محمد البشير الإبراهيمي، مصدر سابق، ج4، ص 247. بتصرف.

وقد كلل سعي رئيس الجمعية الشيخ الابراهيمى باعتراف المعاهد المشرقية اعترفا رسميا بالشهادات التي تعطيها جمعية العلماء ومؤسساتها للتلاميذ وجعلها مساوية لمتيلانها في المعاهد الرسمية التي تشرف عليها هذه الحكومات الإسلامية لكن تبقى الجامعة الزيتونة الوحيدة التي لم تعترف رسميا بشهادة المعهد وهذا ما عرض تلاميذ المعهد إلى طائفة من الاجراءات الكثيرة التي تطول وتتعدد في كل مرة(1).

وقد وجد بعض التلاميذ عقبات في طريق الالتحاق ببعض المعاهد لتقص في المعلومات، لكن هذه المعلومات لم تدرس بالمعهد لأنها ليست في برنامج الدراسة الزيتوني وهو الشيء الذي تنبعت إليه إدارة المعهد وعملت بعد تحديد النظر في منهج التعليم على إدخال تحسينات على المقرر بما يتماشى مع المعاهد المشرقية إلى جانب المقرر الزيتوني ودون استشارته، ولهذا الغرض بعث رئيس الجمعية بمنهاج محكم يوهل تلميذ المعهد الباديسي للدخول إلى المعاهد المشرقية وهذا البرنامج وإن لم يطبق بتمامه كما يقول خير الدين فإنه قد شرع في تطبيقه حسب الامكانيات المتوفرة لدى الجمعية(2).

ولم تحاول جمعية العلماء ايفاء بعثاتها إلى خارج الجزائر، وخاصة إلى المشرق العربي في عام 1951م أي بعد مرور أربع سنوات على افتتاح المعهد الباديسي، إلا بعد أن أصبح لديها طلاب مؤهلون لاستئناف دراستهم الثانوية والجامعية في المعاهد الجامعية العربية، باعطائهم شهادات رسمية -الابتدائية والأهلية-. وحاولت الجمعية تلبية كل الرغبات في هذا المجال، ولكن تزايد الطلبات جعلها تضع شروطا لطلاب البعثة من جهة ثم ايفاد رئيسها إلى الدول العربية هذه المرة لتأمين المنح الدراسية لتلاميذها وقد نجح في مهمته، فعلا بدأت الجامعات العربية تستقبل بعثات طلاب جمعية العلماء المسلمين الجزائريين منذ 1952 1953م.

ويلاحظ أن البعثات العلمية إلى الدول المشرقية شملت إلى جانب حاملي شهادة التأهيل بالمعهد الباديسي، حاملو الشهادات الابتدائية التابعة لجمعية العلماء، ويبدو أن عدم تمكن الجمعية من تعميم التعليم الثانوي بالجزائر ووهران، ثم تزايد حاملي الشهادات

(1) عماد خير الدين، مصدر سابق، ص 224. (بتصرف).

(2) المكان نفسه.

الابتدائية جعلها تفتح له طريقا لتعميمه عددا من خلال البعثات إلى خارج الجزائر خاصة وأن الدول العربية ستضمن منحاً مدرسية لهؤلاء، وقد واجه جهود الجمعية في هذا المجال مشكل آخر تمثل في عرقلة إدارة الاحتلال لإعطاء جوازات السفر للتلاميذ، وإن لم يكن الرفض صريحاً كما يقول "خير الدين"، لكن «المماطلة جعلت الجمعية تنتظر، وقد قبل حوالي 109 تلميذ في سنة 1954م وحدها ولم تستطع الجمعية إلا بعث 25 تلميذاً فقط» (1).
وبالإضافة إلى إعلانها لشروط الالتحاق بالبعثات، فقد أضافت لجنة التعليم العليا للجمعية تنبيهات لأولياء التلاميذ بتكفل الجمعية بالقيام بإجراءات جوازات السفر (2).
وفي هذا الإطار التحقت بعثات عديدة سنة 1954م تجاه الدول العربية، وهي مصر، الكويت، العراق، سوريا، بالإضافة إلى تونس، وكان توزيعهم كما يلي:

البلد	عدد الطلبة	كيفية توزيعهم
مصر	26	- كليات الأدب - دار العلوم - الكلية الأزهرية - بعض الثانويات
الكويت	14	مدرسة الشويخ الثانوية
العراق	11	10 - دار المعلمين ببغداد 1 - كلية الحقوق
سوريا	10	5 - دار المعلمين بدمشق 5 - دار المعلمين بحلب

الجدول رقم 15 : طلبة بعثات الجمعية إلى الدول العربية وكيفية توزيعهم بها سنة 1954م (3)

(1) محمد خير الدين، مصدر سابق، ج 1، ص 232.

(2) المكان نفسه.

(3) أنظر المصدر نفسه، ص 247، 248 بتصرف.

وقد واصل رئيس الجمعية مساعيه لدى الحكومات العربية وهذه المرة عن طريق الجامعة العربية وذلك في مذكرة قدمها لها عن جمعية العلماء(1)، ذكر فيها أن القدر الذي تبذله الحكومات العربية من نفقات تعليم بعثاتها لم يزل قليلا جدا أولا يحقق الغرض من المقصود منه ولا يقاربه لأنه لا يتعدى في مجموعه ستين (60) تلميذا، ولا يزال مكتب الجمعية بالقاهرة يقوم على عدد منهم بتكميل نقائصهم وإسكانهم، وقد بلغت نفقاته في ذلك ثلاثمائة جنيه مصري شهريا سنة 1954م ويتوقع وصولها إلى خمسمائة جنيه مصري في سنة 1955م. وقد طالبت المذكرة من الأقطار العربية بأداء حق الجزائر والشعب الجزائري عليها، وإلا فإنها ستخسر رأس مال عظيم يقوم في العدد بأحد عشر مليون، وفي المعنى بذخيرة غالية من ذخائر الانسانية وفضائلها. وذكر الابراهيمى بأنه إذا استطاعت جمعية العلماء إنقاذ عدة آلاف من الجزائريين من نقيصة الجهل والأمية بما يفوق قدرتها وقد يفوق قدرة الأمة الجزائرية، فقد استنفذت في ذلك كل ما عندها من مدارس ومساجد ونواد وكذا كل ما عندها من معلمين، وهي في حاجة ماسة لإنشاء الجديد وتكوين الكثير لإنقاذ مليون ونصف جزائري آخر من الجهل.

وجاء في المذكرة أنه يمكن مساعدة الجزائر بـ:

- 1- اعتبار مكتب جمعية العلماء بالقاهرة مؤسسة من مؤسسات الجامعة العربية يجب الالتفات إليه والعناية به ماديا حتى يقوم بمهمته نحو البعثات فيتولى نفقاتها.
- 2- رفع نسبة البعثات إلى الأقطار العربية إلى المئات حتى تصل إلى الآلاف بالتدريج، وحتى تسدّ جمعية العلماء في سنين عوز الجزائر إلى المعلمين في مدارسها.
- 3- أن تعمل الجامعة العربية وكذا وزارة المعارف المصرية على سدّ عوز مدارس الجمعية من الكتب المدرسية المتنوعة خاصة وأنها تجسري في تعليمها على المنهاج المصري(2).

(1) آثار محمد البشير الابراهيمى، مصدر سابق، ج4، ص 391-403 بتصرف. (نقلا عن صحيفة "منبر الشرق" وصحيفة "الدعوة" أوت 1954م).

(2) المصدر نفسه، ص 399-340 بتصرف.

وتعدت مهمة مكتب الجمعية بالقاهرة مسؤولية النفقة المالية على البعثات إلى مراقبة أخلاق الطلبة ومتابعة سلوكهم (1). كما كان رئيس الجمعية يتابع ذلك بالمقالات الصحفية التي يضمنها نصائح أبوية مسؤولة في كيفية التحصيل العلمي السليم من حسن اختيار الكتب والحفاظ على الوقت وتذكير الطلبة بأنهم سفراء للوطن وأن واجب السفير هو تشريف الوطن ثم تشريف الجمعية بسلوك ما عملت على تربيتهم عليه من فضائل الأخلاق. وتبنيهم إلى أن الوطن الذي رضي بخلوه منهم فلائنه ينتظرهم لتعميره وإعادة مجده وبناء تاريخه وأن الأولياء رضوا بفراقهم وصبروا على غربتهم فذلك منهم تكفير عن جريمة الجهل ومحو لوصمة الأمية، وتنصل من ضعة الخمول.. (2).

وذكر الأبراهيمي في العديد من المناسبات أن الابتعاث ليس نتيجة لازمة لتقدم الحركة التعليمية التي تديرها جمعية العلماء، وتشعبها واتساعها واحتياجها إلى كفاءات علمية تباشرها، وكفاءات فنية تديرها وهو الظاهر الذي يراه الناس، ولكن الحقيقة أنه مستمد من روح الجمعية ومبادئها وهو تفسير لقوله تعالى: ﴿ قُلُوا لِعَلِّمُوا لِكُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ مِائَةً لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴾ (3). وأداء المهمة الجمعية الأولى وهي إحياء الإسلام، لأن الدافع الوحيد لنشأتها هو تصميم الاستعمار الفرنسي على محوه من الجزائر (4). ولما كان العلم وسيلة من وسائل الدين، وأن العربية لسان الدين المترجم عن حقائقه كانت هذه البعثات إلى الدول العربية، وكان من ثمة لا يهد أن لا يخفى هذا الاعتبار عن التلاميذ حتى لا ينحرفوا عن الإصابة والإفادة.

(1) ويبدو أن الجمعية قد اتخذت إجراءات وتدابير عملية وحادة لاستدراك هذا الجانب، فقد وكل رئيس الجمعية ذلك لمكجها النائم بالجزائر بالاحتياط والتشدد في حسن اختيار التلاميذ يجعل التقدير الأول للدين والأخلاق والسلوك الاجتماعي، لا للذكاء والحرص على التحصيل. أما في المشرق فأخذ رئيس الجمعية مهمة ذلك بنفسه بحاله من حق الرياسة المسؤولة والمؤمنة وقد فصل طائفة من أفراد البعثات ونشرت أسماءهم في جريدة البصائر. وروكل الأبراهيمي أمر مراقبتهم إلى الورتيلاتي وكذا إلى طائفة من علماء الدول المستقبلية. انظر: آثار محمد البشير الأبراهيمي، مصدر سابق، ج4، ص 127 بتصرف.

(2) محمد البشير الأبراهيمي، عبون البصائر، مصدر سابق، ص 216 بتصرف.

(3) التوبة، 122.

(4) آثار محمد البشير الأبراهيمي، مصدر سابق، ج4، ص 375.

هـ- مشروع جامعة عربية اسلامية في الجزائر:

لم يكن ابن باديس راضيا تماما لا بالتنظيم ولا بالمضمون التعليمي لجامع الزيتونة وعاصمة بضمير التعليم به، دون أن يبلغ به الحد إلى التقليل من كفاءة أساتذة المعهد القديم، الذين لا يزال بعضهم في ذلك الوقت يخصصونه بالاحترام والتقدير، وقد عاب ابن باديس الجهاز التعليمي الزيتوني الذي وصفه بالجمود والسلبية والعقلية الروتينية. وتوجههم غير الإصلاحي، حسب ما تراه المدرسة الإصلاحية الباديسية وكان كل شيء يدعو للاعتقاد بأن ابن باديس كان يشعر بالاحباط لما يلاحظ أن تلاميذه القدماء الذين سهر على تكوينهم بكل تفان حسب المنظور الإصلاحي أملا منه أن يجعل منهم إطارات إصلاحية ودينية للأمة الجزائرية يتحولون إلى الفكر الزيتوني، حيث لا يبدو في نهاية دراستهم أية حمية أو تفاعل لقضية الإصلاح في وطنهم، وقد عبّر عن انتقاده الصريح لطرق التعليم بجامع الزيتونة كما سبق توضيحه.

ومن ثمّة انبعث حلم الجماعة الباديسية بتوفير جامعة إسلامية في الجزائر تكون على رأس المعهد الباديسي الإصلاحي في قسنطينة، وقد راودت هذه الفكرة رئيس الجمعية الأول الذي عبّر عنها بكل وضوح في الجريدة الإصلاحية الناطقة بالفرنسية "الدفاع" *"La défense"* بقوله: >> إني أصرّح بكل الحرارة التي تتطلبها الوضعية الحالية، تكوين جامعة إسلامية في الجزائر العاصمة أو في إحدى البلدان الجزائرية الكبرى تماثل في كل شيء لما يوجد عند إخواننا وجيراننا في المشرق والمغرب >>(1).

ولم يتبع أمل ابن باديس شيئا ملموسا في هذا الإطار أثناء حياته -رحمه الله- ليس بسبب قلة الموارد المالية الباهظة التكاليف، لأن الجمعية م تكن لتعبأ بهذه الناحية لكن الإدارة الفرنسية لم تكن لتتحمل تحقيق هذا التعليم العربي العالي، في موازاة المدارس الرسمية العليا التي أنشأتها في كل من الجزائر وقسنطينة ووهران على اعتبار أنها مدارس إسلامية عليا. ومن ثمّة ستحتفظ المدرسة الجزائرية الإصلاحية بميزاتها الابتدائية الأساسية باستثناء -طبعا- المعهد الباديسي بقسنطينة(2).

(1) Ali Merad, Le Réformisme Muslman en Algérie, Op Cit, p 345.

(1) Ibid, p 346.

نقلا عن جريدة "الدفاع"، عدد 88. 3 جانفي 1936م.

ويبقى مشروع الجامعة الإسلامية قائما وحيًا، دعت إليه التقارير الرسمية للجمعية في اجتماعاتها العامة ومؤتمراتها السنوية، وكان انشغالا أساسيا في محتوى التخطيط الاصلاحى، تفكيراً وتحضيراً، خاصة بعد تغيير الإدارة البيداغوجية في الزيتونة ثم تسرب أصابع الاستعمار الفرنسي إلى برامجها ومناهجها وإدارتها وكذا بجامع القرويين بالمغرب، فضلا عن مستوى التعليم بالزيتونة الذي لا يصح أن يسمى جامعة بالمعنى العصري حسب الابراهيمى إلا مع التسامح، إذ كان يتطلب الاصلاح الناجز في مناهجها والقلب والتغيير في كتبها ونظامها والتوجيه السديد للروح المسيطرة عليها، ثم أن القرويين نفسه كان أدنى مستوى من الزيتونة نظاما واتساعا في الدراسات، وأبعد عن التجديد والإصلاح(1).

ولهذه الأسباب وغيرها كان التفكير من جمعية العلماء منذ سنواتها الأولى >> في تكوين جامعة عربية إسلامية بمدينة الجزائر تبنى الدراسات العالية فيها على الروح الإسلامية الشرقية الصافية وعلى غايات العلوم الحديثة النافعة، فتكون تكميلا للجامعيين وعونا لهما في إحياء الثقافة الإسلامية وحضرا لهما على الإصلاح >>(2). لكن خاصة، متابعة جهود الجمعية، وتحقيق أهدافها من التعليم، بمواصلة ترسيخ مبادئها الإصلاحية الثابتة في طلابها وضمان النجاح الكامل في ذلك. >> وكانت تأمل أن لا تبلغ التعليم الثانوي في مدارسها الحرة حده حتى تكون الجامعة قد فتحت أبوابها >>(3)، لكن استنفاذا لكل مواردها في نفقات مشاريعها ومدارسها الابتدائية، وكذا في معهد ابن باديس الثانوي بما كان يفوق قدرات الأمة الجزائرية حال دون ذلك يبقى المال دوما عقبة كأداء في طريقها.

II- أهداف التعليم المكتبي كوسيلة اتصالية :

لم تمثل وسيلة من وسائل جمعية العلماء خطورة على الوجود الفرنسي، وترسم نهايته في الجزائر كالتى كانت تمثلها المدرسة العربية تحت قيادتها في أهدافها وغاياتها، ولا غرابة أن نعلم أن السلطة الفرنسية لم تحارب وسيلة من وسائل الجمعية محاربتها للتعليم المكتبي، وذلك لوعي خبراء التربية والإجتماع والنفوس وكذا خبراء السياسة من منظري

(1) آثار محمد البشير الابراهيمى، ج4، مصدر سابق، ص 248.

(2)، (3) المكان نفسه.

فرنسا ومستشرقها. بظهوره العلمية التعليمية في تأثيرها في إعداد الأجيال وتهيتها لتولي إدارة المجتمع وخاصة في تربية الانجماهاات وتكوين الآراء وترسيخ المفاهيم والأفكار من خلال المواد الدراسية المنفردة على التلاميذ والطلاب.

وإذا لم تصرح المدرسة الفرنسية بحقيقة غاياتها فقد >> دلت القرائن الصادقة والشواهد الناطقة على أنها كانت بصدد تطبيق مقررات جاهزة، وبرامج عملية واسعة وعميقة ذات شعب متعددة ومرام بعيدة، وقد كانت هذه من الذكاء بحيث اعتمدت فيها على التنفيذ الصامت لا على القرارات المعلنة التي تثير النقد والاعتراض، ووكلت إدارة الاحتلال تنفيذها إلى مديريها ومعلميها >>(1). وقد شهدت مطالب النخبة الجزائرية - المتخرجون من المدرسة الفرنسية - على نجاح تأثير برامج هذه المدرسة في تشكيل توجهاتهم وتكوين آرائهم وقد تمثل ذلك خاصة في إضعاف شعور هؤلاء نحو قضية وطنهم وشعبهم، وفقدان الاحساس بالمسؤولية نحو مقومات شخصيتهم الأم، ومن ثمة فقد طالبوا بالاندماج وتساهلوا في قضية التجنيس وقد نجس معظمهم بالجنسية الفرنسية كلغة علم وثقافة وتعامل يوي، وكذا قلدوا نمط الحياة الغربية في كل سلوكياتهم اليومية منطلقا وملبسا.

يقول الابراهيمى: ونحن - يقصد علماء الجمعية - فقد أصبحنا مفتوحا علينا في فهم هذه الحكومة ومقاصدها واتجاهاتها. وأصبحنا من المبرزين في تأويل تصرفاتها وأعمالها، وأصبحنا نتدسس إلى مدب السرائر من نياتها وخواطرها، كما تفعل هي معنا، وهذا بذلك ولا عتب.. >>(2).

ورغم وضوح أهداف جمعية العلماء حتى لدى العوام والبسطاء من الشعب الجزائري فإنها قد خفيت أو تجهلت من طرف فئة النخبة وكذا فئة الطرقية لارتباط مصالحتها بالاحتلال على اختلافها الشيء الذي أحدث تصدعا وهوة بين الجزائريين مما زاد من ثقل مسؤولية الجمعية في محاولات الرأب والبناء وآخر نتائجها.

(1) محمد البشير الابراهيمى، عيون البصائر، مصدر سابق، ص 246-247.

(2) المصدر نفسه، ص 246.

وقد أجاب الابراهيمى بكل صراحة وتفصيل على سؤال أورده بنفسه في مقال له:
ماهي الغاية من المدرسة العربية الحديثة؟ قال:

>> ما دمنا من بناء هذه المدرسة، ومن أول الداعين إليها والقائدين لحركتها والواضعين لبرامجها والمشرفين على كل دقيقة وحليلة فيها، والمعرضين للبلاء في سبيلها ففينا من الجرأة ما يدفعنا إلى الجواب عن هذا السؤال: الغاية من هذه المدرسة هي تربية هذا الجيل وتعليمه. ثم وضح ذلك بقوله وغاية الغايات من التربية هي توحيد النشء الجديد في أفكاره ومشاربه، وضبط نوازعه المضطربة، وتصحيح نظراته إلى الحياة، ونقله من ذلك المضطرب الفكري الضيق الذي وضعه فيه مجتمعه إلى مضطرب أوسع منه دائرة، وأرحب أفقا وأصح أساسا، فإذا تم ذلك وانتهى إلى مداه طمعنا أن نخرج لنا المدرسة جيلا متلاحم الأذواق، متحد المشارب، مضبوط النزعات، ينظر إلى الحياة - كما هي - نظرة واحدة، ويسعى في طلبها بإرادة متحدة يعمل لمصلحة الدين والوطن بقوة واحدة، في اتجاه واحد.

وغاية التعليم هي تفتيحه في دينه ولغته، وتعريفه بنفسه بمعرفة تاريخه، تلك الأصول التي جهلها أبائهم فشقوا بجهلها، وأصبحوا غرباء في العالم، مقطوعين عنه، لم يعرفوا أنفسهم فلم يعرفهم أحد >>(1).

والتعليم المكتبي عند جمعية العلماء هو في الوقت نفسه التربية والتعليم من جهة ثم هو تعريف الشعب الجزائري بأصوله: التي تمثل في دينه ولغته وتاريخه من جهة أخرى، ولم يأت هذا الترتيب اتفاقا من رئيس الجمعية وإنما هو ترتيب له منطقته في حياة المسلمين، فالدين هو رأس الأمور وبه يتحقق تعليم اللغة والتاريخ وغيرهما.

1- التعليم المكتبي: مدرسة لتعليم الإسلام الصحيح:

بداية يعتقد علماء الجمعية بأن معظم عوام المسلمين لم يعرفوا الإسلام الصحيح، ولم يعيشوه في حياتهم وكان كل ما عرفوه وما عاشوه إنما هو الإسلام الوراثي التقليدي الذي يأخذ المرء من والديه بكل ما أدخل فيه مما ليس منه من عقائد باطلة ضارة وعادات

(1) محمد البشير الابراهيمى، عيون البصائر، مصدر سابق، ص 303، 304.

سيئة، فيشب ويكتهل ويشيخ وهو يعد من المسلمين بل وهو يعتبر ما أخذه عن أهله هو الإسلام الحقيقي، ولا توجه التهمة إلى هؤلاء عن زهد منهم في الإسلام، ولا عن قلة محبة فيه وإنما كما يقول ابن باديس >> عن جهل طال عليه الأمد، وغفلة توالت عليها الحقب>>(1).

ومع ذلك فإن للإسلام الوراثي جوانب إيجابية إذا تعلق الأمر بتقييم دوره تاريخياً في الفترات الماضية >> فقد حفظ على الأمم الضعيفة المتسكة به وخصوصاً العربية منها -شخصيتها رايحتها وشيئا كثيرا من الأخلاق ترجح به الأمم الإسلامية إذا وزنت غيرها>>(2). أما عند ما يتعلق الأمر بالمستقبل وبتحديد شروط النجاح في صراع العصر فإن الإسلام الوراثي لا يمكن أن ينهض بالأمم، لأن الأمم لا تنهض إلا بعد تنبه أفكارها وتفتح أنظاراتها والإسلام الوراثي مبني على الجمود والتقليد فلا فكر فيه ولا نظر >>(3).

وبناء على ذلك تأتي حاجة المسلمين إلى الإسلام الذاتي، وهو >> إسلام من يفهم قواعد الإسلام ويدرك محاسن الإسلام في عقائده وأخلاقه وآدابه وأحكامه وأعماله وينفقه -حسب طاقته- في الآيات القرآنية والأحاديث النبوية ويسني ذلك كله على الفكر والنظر، فيفرق بين ما هو من الإسلام بحسنه وبرهانه، وما ليس منه بقبحه وبطلانه، فيحيا حياة فكر وإيمان وعمل >>(4)....

ومادام المسلمون مطالبين بأن يكونوا مسلمين إسلاما ذاتيا بحيث يقوم الأمر بالتكليف على كل مسلم بعينه، فترتب على كل مسلم بالتالي أن يعرف بنفسه كل ما لا يكون المسلم مسلما إلا به، وليس من سبيل لذلك إلا التعليم كما يقول ابن باديس: >>لذلك سبيل واحد، هو التعليم فلا يكون المسلم مسلما حتى يتعلم الإسلام >>(5). ويتحقق بذلك :

(1) آثار الإمام عبد الحميد بن باديس، مصدر سابق، ج4، ص 66.

(2) المصدر نفسه، ص 124.

(3) المكان نفسه.

(4) المكان نفسه

(5) المصدر نفسه، ص 25.

1- تمكين المسلم الجزائري نفسه من تناول المادة الدينية قرآنا كانت أم حديثا قراءة وفهما واستيعابا >> فيصبح لديه معرفة ذاتية صحيحة بالضروريات الدينية ووعيا واضحا للقيم الروحية لايمانها، ويمرّره ذلك من أن يبقى رهينة للوساطات الروحية >>(1). غير المؤهلة وخاصة الفاسدة منها كالطرقية فيقف بنفسه على فساد رجالها وخطورتهم على الإسلام وعلى المجتمع الجزائري المسلم ويساهم بالتالي في كشف أباطيلهم والتقليل من تأثيرهم وهدم نفوذهم.

2- تمكين المسلم الجزائري من معرفة الإسلام الصحيح فيقوم نفسه ويزن غيره على عقائد الإسلام وأحكامه وحقائقه، ومن ثمة يعرف عدوه من صديقه ويفرق بين من يريد له الخير ممن يريد الايقاع به، ثم يقوم بنفسه بتعريف عائلته وأهله ومن هم في رعايته وكفالتهم.

ولابد أن يفرق بين المسلم الحقيقي والمسلم النسبي أو الجغرافي، ثم إن محبة الإسلام لا بد أن تظهر في >> التمسك به والمحافظة عليه والعمل على بقائه راسخا في القلوب منتشرا في آفاق الأرض >>(2). فترى المسلم الحقيقي كما يقول ابن باديس إذا هدى الله أحدا للإسلام أو أقيمت شعيرة من شعائر الإسلام أو رأى مظهرا من مظاهر الإسلام، كأنما سبقت إليه الدنيا بمحذافيرها، وإن كانت في بلد غير بلده وقوم غير قومه.

وترى المسلم النسبي أو المسلم الجغرافي -على حدّ تعبير بعضهم- يرى أبناء المسلمين تتخطفهم أيدي المضللين أو يهملون عن التعليم الإسلامي حتى يشبوا جاهلين وعلى غير مبادئه، ومشرّبين غير روحه ولا يربطهم به إلا خيط من العادة رقيق >> ويرى شعائر الإسلام تداس وتهان، ويرى المظاهر المزرية بالإسلام الملصقة كذبا وظلما به تقام - يرى كل هذا- ولا يتحرك منه عرق، ولا تكون له غيره، ولا حمية ولو كان ما يراه في بلده وقومه وفي نفس أبنائه >>(3).

(1) Ali Merad , Le Réformisme Musulman en Algérie, Op Cit, p 335.

(2) آثار عبد الحميد بن باديس، مصدر سابق، ج4، ص 65.

(3) المصدر نفسه، ص66.

فإذا تعلّم المسلم الجزائري حقيقة الإسلام، وزن ما يحيطه من أفكار ودعوات وآراء، وعرف كيف يقى نفسه وأهله، وتحوّل من جبهة الحياد والسلبية والجمود إلى جبهة الدفاع عن مقوّمات الوطن والشخصية الوطنية، ووعى مرامي كل دعوة إلى الفرنسة أو إلى الإذماج أو إلى التحنيس.

وبهذا يكون تعليم الإسلام للمسلم الجزائري تسليح له بالإيمان، لكن أيضا بالفكر الصحيح والحجة القوية، وهو السلاح الذي تخافه فرنسا التي كانت >> تنظر إلى المساجد على أنها حصونا(1) وإلى المدارس على أنها مصانع لتعليم تخطيم الذرة وكيفية تخضير القنبلة رغم أنها لم تكن إلا لتعليم أبناء المسلمين أشكال الحروف العربية وتركيب الكلمات منها فحسب >>(2).

ويكون التعليم المكتبي سياسة في حدّ ذاته لمحاربة سياسة الفرنسة وفكرة الإذماج ودعوة التحنيس، وكذا سياسة التنصير غير المعلنة، وفي الوقت نفسه تحرير الفكر الإسلامي من بدع الطرقية وخرافاتهم وكشف لأباطيل أعداء الإسلام في الداخل والخارج وردّها.

2- التعليم المكتبي: برنامج للوحدة القومية للشعب الجزائري:

في محاربتها للغة العربية هدفت فرنسا رأسا القضاء على الإسلام، ولما كان ذلك مستحيلا عليها كان من الأسهل محاربة اللغة العربية، لأنها لغة القرآن الكريم فهي بالتالي مفتاح فهم العقيدة الدينية ووسيلة المحافظة عليها فيتم لها القضاء على الإسلام بقطع أهله عن وسيلة فهمه : اللغة العربية. وقد سنت لذلك كما مرّ بنا قوانين معلنة وأخرى "صامتة" بداية من سياسة التجهيل العامّة، إلى فرض اللغة الفرنسية كلفة رسمية للإدارة والعلم والتعامل ومنعت اللغة العربية واعتبرتها لغة أجنبية في الجزائر، إلى تشجيع العامية العربية باصدار صحافة ذات عربية ركيكة وعامية إلى منع منح الرخصة لمعلّمي الجمعية حتى وسمها الابراهيمي بالفصحة(3) لعسر الحصول عليها، إلى اقتراح رسم الحروف العربية بالحروف اللاتينية، وقد بحثت فعلا مشاريع في هذا الإطار، لكنها لم تنجح فيها نجاحها في

(1) محمد البشير الابراهيمي، عيون البصائر، مصدر سابق، ص 2.

(2) المصدر نفسه، ص 242.

(3) المصدر نفسه، ص 236.

تشجيع اللهجات المحلية والمقصود منها البربرية، لتفريق وحدة المسلمين الجزائريين. ويأتي التعليم المكتبي الذي أرادته جمعية العلماء مدرسة حديثة عربية اللسان، إسلامية المضمون والمنهاج، تعي جيدا كل أهداف الإحتلال، فأرادتها برنامجا موحدا، وإدارة موحدة، ومن ثمة سياسة تعليمية تهدف إلى تحقيق كل ما تهدف إليه كل أمة تعلم أهمية عنصر اللغة في توحيد أفراد شعبها، وهدف كل أمة بنت حياتها على تجربة النافع والأخذ بالأنفع، وهدف كل أمة تعي أن توحيد الغايات لا يأتي إلا بتوحيد الوسائل»(1).

وبنشرها اللغة العربية كلغة للتعليم وجهادها في سبيل بناء أكبر عدد ممكن من المدارس للنشء، جهاد لاستقطاب أكبر عدد ممكن من هؤلاء إما على مقاعد المدارس المتوفرة وإما إبعادا وتحذيرا للبقية من التعليم الفرنسي، وتبنيه الجميع إلى أن كل ما يمس اللغة العربية إنما الهدف الحقيقي منه هو القضاء على الإسلام وبالتالي نشر حركة من النفور المعلن الصريح لكل المشاريع الفرنسية في أوساط الشعب و« تنمية شعور وطني لدى الجزائريين لصالح الشخصية الوطنية العربية الإسلامية للجزائر»(2).

وبتعليمها اللغة العربية هدفت جمعية العلماء إلى إعادة الاعتبار للثقافة الوطنية وإعطائها مضمونا إيجابيا وهو رد على ما حاولته فرنسا لإلغاء كل مضمون للثقافة الجزائرية، وهي بذلك تحفظ باللغة العربية الثقافة الجزائرية التي ستنتقلها إلى الأجيال المتعاقبة في المجتمع عن طريق التعليم، وتساعد بالتالي على تكييف سلوك الأفراد وضبطها حتى تتناسب مع تقاليد المجتمع الحقيقية بعيدا عن التقليد الغربي حاضرا ومستقبلا.

وما دامت اللغة تؤثر في الشعب الذي يتحدث بها تأثرا لا حد له كما يؤكد الفيلسوف الألماني فيخته Fichte، يمتد إلى تفكيره وإرادته، وعواطفه، وتصورات، وإلى أعماق أعماقه، وأن جميع تصرفاته تصبح مشروطة بهذا التأثير ومتكيفة به»(3) ثم أنها تمثل في كل الأحوال روح الشعب كما يقول الفيلسوف الألماني هاردلي HARDLY فإن

(1) محمد البشير الإبراهيمي، عيون البصائر، مصدر سابق، ص 304

(2) Ali Merad, Le réformisme Musulman en Algérie, Op Cit , p 336 .

(3) أحمد بن نعمان، المرجع السابق، ص 88. (نقلا عن محاضرة لولود قاسم بعنوان اللغة والشخصية).

لغة الآباء والأجداد - نخرن لكل ما للشعب من ذخائر الفكر والثقافة والتاريخ والفلسفة والدين» (1). فإن التعليم العربي الذي قاده جمعية العلماء ببرامجهم ومضامينه هدف إلى إيقاف الشعور التاريخي لدى الجزائريين وتوعيتهم بالانتماء إليه في بعده العربي والإسلامي بكل ما يحمل من قفزات ونكسات وهما وجهان للعملة الواحدة التي لا يخلو منها تاريخ كل أمم الدنيا ومنها أمة فرنسا نفسها ومن ثمة ينسف المغالطة الفرنسية. ويفتد الفكر الاستعماري في:

أ- محاولة جعل اللهجة البربرية سببا لتفريق الجزائريين:

فعلماء الجمعية يقرّون العنصر الأمازيغي في الشخصية الجزائرية لا ينكرون ذلك ولا يتجاهلونه لكنهم يقرّون حقيقة أخرى لا يمكن أن ينكرها أحد هي «أن الأمازيغ من أبناء الوطن دخلوا في الإسلام وتعلموا لغة الإسلام العربية طائعين ثم امتزجوا بالعرب بالمصاهرة وقاسموهم في مجالس العلم وشاطروهم سياسة الملك وقيادة الجيوش وقاسموهم كل مرافق الحياة فأقام الجميع صرح الحضارة الإسلامية⁽²⁾». ويقرّر رئيس الجمعية الأول حقيقة أخرى وهي واقع الجزائر كأكبر دليل على وحدة الأمة الجزائرية، يقول: «اللغة العربية والآداب العربية هي لسان الأمة الجزائرية كلّها، وأما الأمازيغية فلا تستعمل إلا في بعض النواحي القليلة استعمالا شفاهيا محليا، ثم اللغة العربية هناك هي لغة الكتابة والخطابة والتعليم» (3).

وقد نبّه ابن باديس في مرات عديدة إلى غلو الاحتلال الفرنسي في تهويل بعض المعطيات وجعلها مبررا منطقيا للتفرقة بين الجزائريين فاختلاط الدماء قائم في فرنسا وفي الدول الأوروبية ولم يمنع هذه ولا تلك من أن تكون أمة متحدة لاتحادها فيما تكون به الأمم يقول «إنك تجد في قرى من دواخل فرنسا وأعلى جبالها من لا يحسن اللغة الفرنسية ولم يمنع ذلك القليل - نظرا للأكثرية - من أن تكون فرنسا أمة واحدة، وهذه الحقيقة الموجودة في فرنسا يتعمى الغلاة المتعصبون عنها ويحاولون بوجود

(1) محمد الميلي، ابن باديس وعروبة الجزائر، مرجع سابق، ص 87. (نقلا عن ساطع الحصري، ماهي القومية؟ ٩).

(2) المرجع نفسه، ص 48.

(3) المكان نفسه.

الآمازيغية في بعض الجهات وجودا محليا وجهل عدد قليل جدا بالعربية في رؤوس الجبال، أن يشككوا في الوحدة العربية للأمة الجزائرية التي كونتها القرون وشيدتها الأجيال» (1).

ب- محاه لاتها للطعن في التراث عن طريق المقارنة مع حاضر التطور الغربي:

فرضت برامج وسياسة الاحتلال على الشعب الجزائري خيارا صعبا يتمثل في صياغة اختيار المستقبل في طريقتين متناقضتين: طريق الثقافة الفرنسية التي يستلزم التنكر للتراث العربي الإسلامي والتنصل من أبرز مقومات الشخصية الوطنية، أو طريق الثقافة الجامدة والانغلاق على الحياة العصرية ومتطلباتها، الشيء الذي جعل المسلم الجزائري حائرا في اختيار أحد الطرق وتلمس المستقبل الزاهر دون التنكر لتراث الأجداد.

واستطاعت برامج المدرسة الإصلاحية بعد إعادة الاعتبار لأهم عناصر الشخصية الوطنية أن تصوغ الطريق الأمثل بين الخيارين فأزالت الحيرة على الجزائريين ونبهت إلى أن الذين وقفوا في فح الفكر الاستعماري وارتموا في ثقافته إنما كان على حساب تراثهم وشخصيتهم. وأن الأولى الجمع بين أحسن ما في الطريقتين من جوانب الإبداع. وفي الاعتماد على التراث مع الاستفادة من ثقافة العصر، وهو ما كان يؤكدته رئيس الجمعية الأول في كل مناسبة، يقول «إننا أعلننا ولا نزال نعلن بأننا شعب من أشد الواجبات عليه الاحتفاظ بما في الماضي من نفع ومدنية، وعدم الزهد فيما في الحاضر من خير ومدنيات والإعراض عن الثروة بدون تفكير وروية» (2).

وتأتي البحوث العلمية إلى الدول العربية الإسلامية تطبيقا لبرامج جمعية العلماء وهدفها في التوجه نحو المشرق العربي الإسلامي بإعادة الجزائر والجزائريين إلى انتمائهم الطبيعي والتاريخي والحضاري وهو الشيء الذي منعه الاحتلال بضرب سياسة العزلة على الجزائر ثم بسياسة التفریب يوجهها المتعددة (الفرنسة، التجنيس، الأدماج، التنصير) حتى يتم لها فصلهم عن جسد الأمة العربية الإسلامية نهائيا.

(1) محمد الميلي، ابن باديس وعروبة الجزائر، مرجع سابق، ص 50-51. والنص مأخوذ من مقال لابن

باديس بعنوان «كيف أصبحت الجزائر عربية».

(2) المرجع نفسه، ص 53.

كما أن استحابة الدول العربية لاستقبال الطلاب الجزائريين والتكفل بتعليمهم في معاهدها وجامعاتها لأكثر دليل للشعب الجزائري المسلم على قوة هذا الارتباط الذي يعني من هذه الدول أداؤها لواجب أخوة الدين ووحدة الانتماء التاريخي والحضاري، وأنها تشاركهم آلامهم، ويقف الجزائريون بأنفسهم على أن طول الانفصال إنما سببه هو برامج الاحتلال ومن ثمة يتأكد لهم واقعا أهداف تلك البرامج وخفاياها الحقيقية.

وبطلاب العلم في المشرق العربي الإسلامي يتوثق الاتصال بين الإخوة، وتتقارب الأمزجة ويتحدّ الشعور، ويتقوى الأخ بأخيه، لكن أيضا بالنسبة للجزائريين، وقوفهم على واقع الإسلام والعروبة في هذه الدول، بما يعث في نفوسهم الاطمئنان ويعيد إليهم الثقة والأمل للعمل على تحقيق ذلك في الوطن وبين أهليهم ومواطنيهم، ولا يخلق ذلك في نفوسهم مجرد النفور السلبي من مشاريع الاحتلال فحسب واطلاعهم على المغالطات والمفارقات التي تبثها برامجهم وإنما تدفعهم للعمل بجد وثقة وافتخار لردّ الاعتبار لمقومات الوطن ثم توسلّ السبل للفضاء على الاحتلال نفسه.

وفي هذا الإطار يقول الابراهيمي: «أما بعد فنحن في أشد الحاجة إلى الاتصال بإخوتنا في الشرق لأن بيننا وبينهم أرحاما يجب أن تتعاطف وأسبابا يجب أن تتلاقى وحبالا من التاريخ رمتها الأيدي العادية بالوهن والارتخاء حتى أوشكت أن تنقطع.. ونحن في حاجة شديدة إلى إمدادهم إيانا بما نحن أفقر فيه منهم وهم في حاجة إلى التبيه على موقعهم منا وموقعنا منهم، وإلى معرفة أحوالنا، حتى تتعارف على بصيرة..»

وإن أوثق أسباب هذا الاتصال هو هذه البعثات العلمية التي تجهزها للشرق العربي كما تجهز البعث ليمتزج أفرادها بإخوانهم فتتقارب الأمزجة، ويتحدّ الشعور وتنمو الفضائل الأصلية في الفريقين وهي فضائل الإسلام، وتمحي الرذائل الدخيلة التي ابتلانا بها الغرب يملكنا ويمكننا، وليقول أحدهما للآخر: أنت أخي في الإسلام والعروبة فهلّم نظر إلى المجد بجناحين...» (1).

3- التعليم المكتبي مؤسسة لتكوين الرأي العام:

عمدت مدرسة جمعية العلماء إلى تسطير برامج تعليمية تهدف كل مادة منها إل

(1) آثار محمد البشير الابراهيمي، مصدر سابق، ج4، ص 125.

جامعة الأميرة
عبد القادر للطول الإسلامية
جامعة الأميرة

وقد كان هدفها من ذلك كله - مع أن طموحاتها لم تنته إلى ذلك الحد بل كانت لها بعد مشاريع مبرمجة تتحين لها فرص المال والوقت والحيلة - لا يتوقف عند تعليم الطفل الجزائري فقط وإنما تربيته و تكوينه حسب ما يتطلبه العصر الحديث وتطبعه بسلوكات اجتماعية حضارية تستجيب لقواعد اللياقة والأناقة وتبعد عنه صورة الأهلي الغبي الجاهل، الذي لا يصلح لأي تقدم أو تمدن كما كانت تروّجه وسائل الاحتلال الفرنسي خدمة لما كانت تسميه بالمهمة الحضارية للفرنسيين في الجزائر.

ومن زاوية أخرى فإن تعبئة جمعية العلماء للجزائريين حول مشاريع التعليم و دفعهم للزباط والتعاون على تحقيقات شعبية وخاصة وطنية، لم يهدف العلماء منه إلى أي شيء أقل من تحويل مواطنيهم الذين كانوا أفرادا بسطاء مستخدمين، عموما وغير مسؤولين، إلى رجال قرار، بإعطائهم ذوق المبادرة، ومعنى المسؤولية، وفي كلمة واحدة، إحياء الفضائل الاجتماعية فيهم التي تعمل منهم رجالا أحرارا.

ويؤكد علي مراد هذا المنحى مضيفا بأنه بالإضافة إلى مهمة التثقيف التي حملتها مدرسة جمعية العلماء على عاتقها فإنها كانت مدرسة لتحضير الجزائريين المسلمين بإعطائهم آفاقا طموحة يمكن الاستغناء بها وفيها عن الإدارة الفرنسية وأن يكونوا باستطاعتهم بعث تعليم عربي حديث بكل مستلزماته، يتماشى مع احتياجاتهم مع ما كان يتطلب من تضحيات حسام وأحيانا من فشل مر <(1)> ويشير الأستاذ "مراد" إلى هدف هام جدا في قوله: <> إن العملية التعليمية التي قادها رجال الإصلاح ستعطي للكثير من الجزائريين الإحساس بالرضى بأنهم ليسوا هذه الأعداد المكدسة من الأهالي الذين لا يتعامل معهم أحد لكونهم كتلة غير مفيدة وإنما هم الذين يكونون بطريقة ما حكومة صغيرة مسلمة وسط الحكومة الفرنسية الفعلية في ذلك الوقت <(2)>.

ويمكننا أن نستنتج هدفا عاما من العملية التعليمية لعلماء الجمعية وهي أنهم سيجدون تعبيرا واسعا لمذهبية الإصلاح السلفي المبني على الإسلام الصحيح، لأن التعليم العربي سيسمح للفريق الباديبي بتطبيق الكثير من أفكارهم، وأن يؤثروا بها بفاعلية على

(1) Ali Merad, Le Réformisme Musulman en Algérie, Op Cit p 336.

(2) Idem.

توجهات الشباب نحو الإسلام الإصلاحي والعروبة في الجزائر، وبتأثيرهم في الشباب فإنه يكون باستطاعتهم تحويل الضمير الجمعي للأمة كما يسميه علي مراد تدريجياً بحيث تصبح المذهبية الثقافية الإصلاحية هي مذهبية الشعب المسلم الجزائري.

والخلاصة في هذا الباب فإن العملية التعليمية لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين تنفيذ عملي وعلمي وسلمي للفكر الاستعماري في كفاءات إخضاعه للشعوب عن طريق إلغاء مقوماتها والتقليل من أمجادها وحضاراتها ووضعها أمام الخيار الصعب إما اختيار الذوبان وقابلية الابتلاع في البريق الحضاري الغربي والقالب الاجتماعي والنمط الذي يفرضه أو الرجوع القهقري والجمود والتخلف الذي يفرضه بنفسه عن طريق البرامج والسياسات المختلفة. ومن ثم يقف الفرد الجزائري والأمة الجزائرية على حقيقة أن المسلم الصحيح هو الذي لا يصعب عليه أن يكون متقدماً راقياً ما بقي دينه محزماً وعلى ذلك قس بقية المقومات الشخصية.

وإذا ساهمت الوسائل الشفوية للاتصال لجمعية العلماء في تحقيق كل الأهداف

التي شرحناها فكيف ساهمت وسائلها المكتوبة في هذه المهمة ؟.

الباب الثالث :
وسائل الاتصال المطبوع عند
جمعية العلماء المسلمين الجزائريين

الفصل التاسع : الاتصال عن طريق الصحافة

الفصل العاشر: الاتصال عن طريق النابغ

الفصل التاسع: الإنصال عن طريق الصحافة

تمهيد

- I- الصحافة الإصلاحية قبل ظهور جمعية العلماء
- II- مشاكل الصحافة الإصلاحية في فترة ما بعد الحرب العالمية الأولى

1- الإطار القانوني

2- الظغوطات الخفية

أ- الترجمة

ب- المضايقات

ج- المؤتمرات والوشايات

3- صعوبات الواقع الجزائري

أ- مشاكل تقنية وفنية

ب- مشاكل مادية

ج- مشاكل الجهل والفقر

III- علماء الجمعية والصحافة

IV- التعرف بـصحف جمعية العلماء

جريدة: المتقد .

جريدة: الشهاب- الشهاب مجلة .

جريدة السنة النبوية المحمدية.

جريدة: الشريعة المحمدية.

جريدة: الصراط السوي.

جريدة: البصائر.

المبحث الخامس

خطائر صحافة جمعية العلماء

1- المطبعة ضمان للحرية والاستقرار والبقاء

2- صحافة الجمعية: عناوين عديدة لمبادئ واحدة

3- مبادئ صحافة جمعية العلماء

أ- المبدأ السياسي

ب- المبدأ التهذيبي

ج- المبدأ الانتقادي

المبحث السادس

- أهم القضايا التي عالجتها جرائد جمعية العلماء

1- جمعية العلماء وتجديد العقيدة الإسلامية لدى الجزائريين

أ- محاربة الطرقية.

ب- محاربة الإلحاد

ج- محاربة التنصير

2- جمعية العلماء وقضية فصل الدين الإسلامي عن الحكومة

الفرنسية

أ- معنى ومقتضيات فصل الدين الإسلامي عن سلطة الاحتلال

الفرنسي عند جمعية العلماء.

ب- مكايد فرنسا القانونية والمعنوية للتمسك بالإسلام.

3- جمعية العلماء وقضايا الأمة العربية والإسلامية

- قضايا دول المغرب العربي

- قضايا دول المشرق العربي

- قضية فلسطين

خلاصة

تمهيد:

بالإضافة إلى الاتصال الشفوي لجمعية العلماء بالجماهير الجزائرية، كان لها بهم اتصال مكتوب يتمثل في الصحافة والتأليف.

وقد انطلقت جمعية العلماء في ميدان الصحافة مبكراً، وقبل ظهورها الرسمي بعدة سنوات كما تشير إليه مصادرها. واكتسبت خلالها تجربة ثرية وخيرة واسعة سواء في ذلك الشكل والمضمون وللصحافة أهمية حيوية وتاريخية بالغة بالنسبة لجمعية العلماء بحيث يمكننا القول بأنه لولا الصحافة لاندثرت أخبار الجمعية ونشاطها ولما أصبح لها ذكر وأثر، ويعود ذلك إلى أسباب كثيرة فرضها واقع الاحتلال وسياسته ثم مشايخ الطريقة الذين هم ألد من واجهت جمعية العلماء من أعداء بعد السلطة الفرنسية، زد إلى ذلك جماعة النخبة المتفرنسة التي ناصبت الجمعية العداء لأن علماءها كانوا يسرون في خط مغاير تماماً لطموحاتها السياسية وأهدافها. ومن ثمة فقد كانت صحافة الجمعية سجلاً أميناً لنشاطها الذي شمل جميع مجالات حياة الجزائريين واستقطب كل فئات الشعب الجزائري متعاملاً مع كل منها بأسلوبها وطريقتها، وكانت شاهداً حياً وأميناً على مرحلة من أدق مراحل التاريخ الجزائري، امتازت بدورها بصراع عنيف بين الأفكار والاتجاهات والآراء ذات المصادر المتناقضة بين مصالح الوطن ومصالح الاحتلال وأتباعه، ثم مواقف كل فريق تجاه سلطة الاحتلال من جهة وتجاه الفعاليات السياسية الوطنية الأخرى التي عرفتها الساحة الجزائرية في ذلك الوقت من جهة أخرى، وبعدها تطور هذه الأفكار والاتجاهات التي كان للجمعية فيها الأثر الفعال والحضور المتميز، والذي يهمننا في هذا المقام هو التعرض إلى :

- كيف استعملت جمعية العلماء الصحافة كوسيلة اتصال بينها وبين الجماهير

الجزائرية بجميع فئاتها؟

- إلى أي مدى استطاعت أن تؤثر فيهم وتثير بالتالي استجاباتهم وانفعالهم بها؟

- ماهي أهم القضايا التي عالجتها وطريقتها في ذلك؟ ماهي الأهداف التي توختها

من ذلك؟.

- المبحث الأول

الصحافة الإصلاحية قبل ظهور جمعية العلماء:

تعد صحافة جمعية العلماء امتدادا للصحافة الوطنية والإصلاحية في الجزائر، ويعزو تطورها بقسط وافر لتجربة هذه الصحافة التي تعود إلى 1893م تاريخ صدور أول جريدة في القطر الجزائري لمسلمين جزائريين⁽¹⁾ شجعهم لدخول معترك الصحافة:

1- صحافة المعمرين شديدة اللهجة تجاه الحكومة الفرنسية في نقاش قضاياهم ومشاكلهم وعرضها للرأي العام قصد اتخاذ الإجراءات اللازمة إزاءها.

2- صحافة المشرق العربي ثرية التجربة في معالجة قضايا شعوب دولها وتحليل أسباب تخلفهم ومن ثمة بحث ما يمكن لها من حلول.

3- فراغ الساحة الجزائرية من وجود صحافة تهتم بشؤون الجزائريين المسلمين، وتحلل ما هم فيه من تخلف، تبحث أسبابه وتضع له الحلول.

وقد اهتمت الصحافة الإصلاحية على وجه الخصوص يبحث مظاهر التخلف بين الجزائريين وتحديد أسبابه المختلفة، وهو الموضوع الذي تناولته أقلام الكتاب منذ قبل الحرب العالمية الأولى أثناءها وبعدها حتى بلته صحافة الجمعية بطريقتها ليصبح من أولويات نشاطها الميداني.

وطبيعي أن تختلف طريقة وأسلوب تناول هذه القضايا باختلاف الفترة التاريخية التي تفرض عليها وحي أحداثها، ثم باختلاف الكتاب وزوايا تناولهم لها. ومن ثمة فإن المقالة الصحفية ما قبل الحرب العالمية الأولى اختلفت في طرحها ولغتها عنها بعد الحرب التي أحدثت تطورا فجائيا في الأفكار والآراء، تمثل مثلا في شجاعة الطرح وصراحته، وتعمق النظرة إلى الأحداث ونضج القناعات وهو ما كانت تفتقده المقالة الصحفية قبل الحرب.

ومن الطريف أن نلاحظ الاتفاق الكامل تقريبا حول نوعية القضايا المطروحة والاتفاق حول تحديد هذه القضايا وكذا حول الحل لكل منها.

فقد غلب الجانب الديني والإصلاح الاجتماعي على الصحافة العربية الجزائرية فيما قبل وأثناء الحرب وكذا بعدها متأثرة في ذلك بالصحافة المشرقية في هذا المجال خاصة وأن

(1) انظر: محمد ناصر، الصحف العربية الجزائرية، مرجع سابق، ص 23.

هذه كرسّت الجهد سنين طويلة للإصلاح الديني الذي قاده محمد عبده ورشيد رضا بعد أستاذهما جمال الدين الأفغاني، ولم تحف بعض الجرائد صراحةً بأجهاها العبدوي حتى أن "عمر راسم" عندما أصدر جريدته "ذو الفقار" سنة 1913م اعتبر الشيخ محمد عبده المدير الديني (1) لها.

وقد حرصت الصحافة الإصلاحية قبل الحرب العالمية الأولى وأثناءها على محاربة الخرافات والبدع التي تبدو أنها كانت متفشية في المجتمع الجزائري وقتئذٍ تفشياً فظيماً، وتبعتها بالكشف بدعة بدعة مع بيان ما تنطوي عليه من أضرار أفسدت على الناس دينهم وديناهم. وقد بلغ من تمكن هذه البدع من عقول العامة أن أصبحت عقيدة راسخة لا يسلم من يخالف أصحابها من التهكم والأذى.

ومن أخطر ماواجه المجتمع الجزائري في هذه الفترة عقيدة "التوكل بلا عمل" كما يسميها الأستاذ "محمد ناصر" والتي كانت لها آثارها السيئة على جميع مناحي حياة الأمة، فقعدت عن العمل واكتفت بزد ما أصابها إلى القدر، حتى غدت فاقدة الروح لا أمل ولا عمل (2).

وهناك فئة الشباب المتفرنس التي بدأت تغزو الوسط الجزائري معبئة بطوفان خطير من الإلحاد في الدين، والانسلاخ من القومية، ولفتت إليها رجال الإصلاح الذين واجهوها في غير موارد أو خشية فقد ستمهم "عمر راسم" بالذين تخلقوا "بمفاسد التمدن الحديث" ممن يرتضون سياسة المداحاة والنفاق مع الاستعمار، لأنه ملأ أفواههم بالدنانير فلم يستطيعوا تكلماً، وأثقل صدورهم بالنياشين المزيفة فطأوا له برؤوسهم. وفيهم يرد راسم كل >> بلاء المسلمين الجزائريين إلى هؤلاء الذين يقول عنهم بأنهم جمعوا الخستين لأنهم باعوا جنسيتهم ودينهم عندما فضّلوا عليهما مفاسد التمدن الحديث وباعوا ضمائرهم وأوطانهم عندما باتوا ألعوبة بين يدي السلطات لقاء منصب أو وسام >> (3).

(1) قال راسم في افتتاحية العدد الأول من الجريدة: >> ذو الفقار جريدة عبودية إصلاحية وأنها لا تخرج عن الطريقة التي خطتها لها رجال الإصلاح المخلصين >>. انظر محمد ناصر، الصحف العربية الجزائرية، مرجع سابق، ص 40

(2) محمد ناصر، المقالة الصحفية الجزائرية، مرجع سابق، م 1، ص 77.

(3) المرجع نفسه، ص 79. (نقلا عن جريدة الحق الوهراني).

فإن "عمر ابن قنود" لا يجد من سبب مباشر للانحراف المسلمين وعندهم القرآن الكريم غير الجهل الذي ناء بكل كفه عليهم <<(1)>.

وفي تناوُلها هذه المواضيع فإن الصحافة الإصلاحية حاولت معالجتها على أنها مظاهر للانحراف ثم بدافع البحث عن أسبابه فقد كانت العين الحريصة والسلاح الوحيد في يد علماء الإصلاح في مواجهة تيار المسخ غير المعلن الذي انتهجته سياسة الاحتلال لكن ظروف الحرب وما أحدثته من آثار على المستوى الفكري والسياسي بالإضافة إلى استفحال أمر المتفرنسين، ووضوح أهداف المدرسة الفرنسية وظهور فئة رجال الدين الرسميين الذين اتخذتهم سلطة الاحتلال عيوننا تبلغ لها ما خفي عنها من أمر المصلحين، وأوصياء على كراسي الافتاء والقضاء وشؤون المساجد، كل ذلك نقل اهتمام هذه الصحافة إلى طرح أكثر شجاعة وبُحث أكثر تركيز في محاولة إنقاذ الجزائريين ووضع حل لأزماتهم.

فقد صرّح الأمير خالد بأن << سبب ذلة الجزائريين وهوان أمرهم، ووقوعهم فريسة بين يدي الأجنبي يتحكم فيهم كيف يشاء، إنما مرجعه إلى رقة دينهم وانحطاط أخلاقهم >>(2).

وجعل "ابن قنود" الدوّاء في العلم، والأخلاق والدين، فوجّه مواظبيه إلى طريق الإصلاح الشامل والناجح << يقول: .. يقولون أن الإصلاح واحد والطرق متعددة منها ومنها ومنها... أما المصلح حقيقة فهو من يتوخى النتيجة وإن طال الطريق وبعد المزار، كل صيد لا يقتنص إلا بفخه فهكذا المسلم لا ينقاد إلا بدينه ولا يصلح إلا بشرعه، ومن أراد بغير ذلك فقد خان الأمانة والله لا يحب الخائنين، أقول هذا والتاريخ يصدّقني والواقع يعضدني >>(3).

وبهذا كانت الصحافة الإصلاحية رداً لتيار المسخ واحتجاجاً ضمناً غير مباشر لدعوة فرنسا الجزائريين بشتى الوسائل والحيل لإدماجهم وتذويب شخصيتهم.

(1) محمد ناصر، المقالة الصحفية الجزائرية، مرجع سابق، م، ص 81. (نقلا عن جريدة الفاروق).

(2) المرجع نفسه، ص 87. (نقلا عن جريدة الإقلام).

(3) المرجع نفسه، ص 89. (نقلا عن جريدة لسان الدين).

وانتقلت الصحافة الإصلاحية بحكم عقلية ما بعد الحرب ثم بحكم ممارسة الكلمة وتعاطي المواجهة الصحفية من أسلوب العاطفة والخطابة إلى أسلوب تقديم الدليل العقلي والتقلي بما يتجاوز والعقلية الجديدة فأصبحت محاولة فكرية جادة في الوصول إلى الحلول المناسبة. ودعوة حارة للتشبث والحفاظ على مقومات الشخصية الجزائرية العربية الإسلامية. وفي هذا السبيل كان لابد للكتاب أن يعرضوا بصراحة بالاحتلال الفرنسي وهو ما خلقت منه الصحافة في الفترة السابقة.

وتبقى مواضيع الطرقية، التفرنج والإلحاد، رجال الدين الرسميين، الانشغال الأول للصحافة الإصلاحية فيما بعد الحرب، وقد اتجهت الحلول في هذه الفترة إلى اقتراح الجمعيات الدينية والتخطيط لها. وهو الشيء الذي ساهم بقسط هام ومهّد بالتالي لظهور جمعية العلماء المسلمين الجزائريين.

- اجمعت المتأرجح

مشاكل الصحافة الغزبية في فترة ما بعد الحرب العالمية الأولى:

رغم ولادتها الصعبة المتناقلة والفقيرة، كانت الصحافة العربية محل رقابة شديدة، حذرة وفي أكثر الأحيان قاسية من قبل سلطة الاحتلال، وقد سنت لها هذه قوانين معلنة وأخرى غير معلنة كان الدافع إليها اقتراحات إدارية يوحى بها مسؤولوا مكاتب شؤون الأهالي وأتباعهم فتصبح بعامل القدم والممارسة قوانين رسمية تخضع الصحافة العربية الجزائرية للمضايقات المختلفة كالمصادرة والمنع وأخرى متنوعة محاولة منها إرغام الجزائريين لقراءة أو لسماع الخبر الواحد ذو المصدر الواحد - صحافة الاحتلال - كوجه آخر للغزو الفكري، وسياسة العزلة الثقافية أو سياسة فرض الثقافة الواحدة.. وبالإضافة إلى المشاكل التي مصدرها سلطة الاحتلال، فقد عانت الصحافة العربية من مشاكل مصدرها الواقع الجزائري نفسه، ولما كانت الصحافة الوطنية والإصلاحية تجتمعان في هذه المعاناة، خاصة الناطقة بلسان الجزائريين كان غرض تعميمها تحت عنوان الصحافة العربية، لأن اللغة العربية هي المستهدفة من قوانين ومضايقات سلطة الاحتلال وحكومته بالإضافة إلى أهداف كثيرة أخرى بطبيعة الحال.

1- الإطار القانوني :

لم تتعامل سلطة الاحتلال الفرنسي إزاء الصحافة العربية في الجزائر في إطار قانوني محدّد وصريح، ورغم صدور العديد من القوانين الخاصة بالصحافة عامة لكنها لم تخص الصحافة العربية بمادة واضحة ومضبوطة وإنما ترك فهم موادها إلى نوايا الإداريين وأمزجتهم.

فقد خضعت الصحافة العربية في فترة 1848-1869م إلى شرط توفر الرخصة المسبقة لإنشاء أية جريدة، وكان تطبيق هذا الإجراء يعني أن السلطات المحلية كانت ترفض تلقائيا كل طلبات الأهالي (الجزائريين) لإنشاء جرائد خاصة بهم(1)، ثم تمددت هذه السلطات في تطبيق ما سماه الأستاذ زهير إحدادن بالإجراءات الوقائية ويتعلق الأمر ب :

أ- لزوم ترجمة مادة الصحف العربية إلى الفرنسية

ب- المراقبة الصارمة، والحذر الشديد إزاء الصحف العربية، والحيلولة دون تمتع الأهالي بهذا السلاح الخطير مادامت الجزائر لم تهدأ بعد(2).

وقد سمح الإجراء الأول خاصة بنمو صحافة مزدوجة اللغة، لم يفت الجزائريين الاستفادة منها، واستمر مفعوله حتى سنة 1868م حيث تدخل بشأنه رئيس مصلحة الصحافة لوضع حدّ له معتمدا على دليل عدم تطبيقه في فرنسا. ومع ذلك تبقى هذه الإجراءات نفسها وتعود بصفة رسمية منذ 26 نوفمبر 1908م حيث تسند مراقبة الصحافة العربية بالإضافة إلى مديرية الشؤون الأهلية إلى مصلحة أخرى أنشأت لهذا الغرض بالذات وبقرار رسمي: وهي « مصلحة الترجمة والتحليل للغة العربية لتحرير الجريدة الرسمية "المبشر" والمسائل المتعلقة بالصحافة العربية »(3) ومن ثمة سوف تخضع هذه الأخيرة إلى رقابة أشد ونظام أقسى.

وكان قد صدر في فرنسا ما عرف آنذاك بقانون حرية الصحافة في 29 جويلية 1881م(4). وعملت حكومة الاحتلال على تطبيقه في الجزائر أيضا وبموجبه ألحقت الصحافة

(1) Zahir Ihaddaden, Histoire de la presse indigène en ALgérie, Op Cit, p70.

(2) Idem

(3) Ibid, p 69.

(4) Ibid, p 70

العربية بالصحف الأجنبية بما تضمنته المادة 14 من القانون وتمّ هذا الإلحاق دون استناد إلى نص قانوني رسمي، وإنما فقط إلى قرار وزاري بسيط يصف الصحف العربية بالأجنبية والذي كان باقتراح الحاكم العام في الجزائر(1).

وقد ألحقت الصحف المزدوجة اللغة أيضا بالصحف الأجنبية، لكن تطبيق هذا الإلحاق كان يخضع لاعتبارات نوعية مسؤولي النشر والتي يقف الحكم فيها على مزاج ونوايا السلطات المحلية، حيث تعد أجنبية كل صحيفة مزدوجة اللغة إذا كان مديرها أو المسؤول عنها "أهليا" ولو كان متجنسا بينما تعد فرنسية إذا كان فرنسيا ولو كانت شديدة اللهجة، ومنصفة الرؤيا إزاء الأهالي المسلمين.

وقد أكدت هذا الاتجاه المادة 14 من القانون 4 فيفري 1883 الخاصة بالصحف والدوريات والنشريات الأجنبية والتي ألحقت الصحافة العربية بها على اعتبار أن اللغة العربية لغة أجنبية في الجزائر، والتي جعلت إنشاء أي جريدة من حق الفرنسي أصلا أو الجزائري المتمتع بكل الحقوق المدنية الفرنسية(2). ومن ثمّ يحرم الجزائري المسلم من حق إنشاء جريدة خاصة به حتى يتنازل عن قانونه الإسلامي.

ومع سنّ القوانين فإن سلطة الاحتلال عملت على تكريس اتجاه الفرنسية في المجتمع الجزائري وقد كانت المدرسة الفرنسية قد أسهمت في إيجاد الأرضية الفكرية التي سوف تتقبل ليس بسهولة فحسب لكن بإكراه واضطرار في معظم الأحيان القناة اللغوية الوحيدة المفروضة للتعامل الثقافي وهي اللغة الفرنسية، والتي تدخل ضمن سلسلة القيود الكثيرة التي استهدفت آنيا حتى صوت الصحافة العربية لكنها في الحقيقة الوجه الآخر للتعبير الواقعي عن سياسة المسخ غير المعلن المستهدف أساسا للغة العربية والإسلام. وليس أدل على بلوغ برامج هذه السياسة إلى مراميها أكثر من التيار الإدماجي وحضوره القوي على الساحة السياسية الجزائرية بوجهيه: المطالب بالإدماج والإلحاق والذي كان من ثمار المدرسة الفرنسية التي أوجدت عددا كبيرا من القراء بالفرنسية، وبه بلغت اللغة الفرنسية إلى مرحلة اللارجوع حوالي سنة 1930م. بينما حصرت اللغة العربية في الجنوب الشرقي

(1) Zahir Ihaddaden, Histoire de la presse indigène en ALgérie, Op Cit, p77.

(2) Ibid p 71.

للجزائر(1). وسيكون من المنطقي أن يؤثر ذلك على الجزائريين المهتمين بمجال الصحافة العربية لاعتبار أن طريقها يعد مقاومة يائسة(2)، ويفسح المجال لانتشار اللغة الفرنسية وهو الحل "الفخ" الذي انتهى كثير من الجزائريين إلى الوقوع فيه لأنه الطريق الوحيد للولوج بسلام في هذا الميدان، واستعمال هذا السلاح.

وإذا كانت حكومة الاحتلال وإدارته في الجزائر قد شرّعت الكثير من القوانين كقيود لخلق صوت الصحافة العربية والعمل على شلّها واختفائها، فإن هذه القوانين نفسها هي التي عملت على تحريض الجزائريين للمقاومة، وخلقّت شروطا سمحت بنمو صحافة عربية أصيلة ومتميّزة. وقد كانت العناوين تترى >> وتتوالد بشكل عجيب كما يقول الأستاذ محمد ناصر - فما إن تصدر السلطة جريدة عربية حتى يسارعوا إلى إصدارها بطريقة أخرى فقد يكون الاسم مختلفا ولكن المسمى واحد، يديرها المدير الملاحق نفسه والأسرة المنكوبة عينها، بل ولربما عادت بلهجة أشد وأقسى >>(3). ومن ثمة فقد ميّز الصحافة العربية قصر عمرها إذ لم يكن أكثرها يتعدى الشهور والأيام.

2- الضغوطات الخفية :

تعرضت الصحافة العربية بالإضافة إلى قوانين المنع الإدارية -مزاجية النزعة- إلى ضغوطات أخرى لا تستند إلى قانون ولا إلى نص رسمي، وكانت تجري في سرية تامة تعتمد في ذرائعها على دعوى المصلحة العامة وأمن المستعمرة. وقد كان منها ما يتصل بإدارة الجريدة المتمثلة في شخص مسؤولها أو أعضائها المحررين، ومنها ما يتصل بالمشاركين مع الجريدة والذين تعتمد عليهم في بقائها واستمرارها.

أ- الترجمة: كانت ترجمة الجريدة ذريعة هامة تنذرع بها إدارة الاحتلال لكتم أنفاس أية جريدة يشم منها روائح الوطنية والقومية أو غيرها مما يتعلق بمصلحة المسلمين الجزائريين ويكون خطرا على الوجود الفرنسي في الجزائر. وقد أسندت مهمة الترجمة إلى من لا يحسنها سواء بجهله اللغة العربية أو اللغة الفرنسية ويكون هذا ذاته مقصود إدارة

(1) Zohir Ihaddaden, Histoire de la presse indigène en Algérie, Op Cit, p 67.

(2) Ibid, p 68.

(3) محمد ناصر، الصحف العربية الجزائرية، مرجع سابق، ص 16.

الاحتلال التي قامت بتعطيل كثير من الجرائد بناء على ترجمة نص منها إلى غير معناه الصحيح واتخذت من ذلك سببا كافيا للمنع دون محاكمة مثلما وقع مع جريدة "الجزائر" لصاحبها محمد السعيد الزاهري والذي يبين بنفسه سبب تلك المصادرة في مقال له قال فيه: <<..ولما عطلت السلطة جريدة "الجزائر"(*)... كان من أسباب التعطيل أن المترجم ترجم عنها كلمة "النهضة" بكلمة فرنسية معناها "الثورة" وترجم كلمة "فرنسا الطافرة المنتصرة" بما معناه "فرنسا الظالمة الغاصبة">>. ثم يعلق الزاهري على ذلك وغيره بقوله: <<هكذا تذهب صحافتنا البريئة ضحية جهل بعض المترجمين >>(1).

وكشف ابن باديس السر الحقيقي الذي تعتمد عليه الاجراءات الجائرة للاحتلال ضد الصحافة العربية، وذلك بعدما صودرت جريدته "المنتقد" في قوله: << ولم نعجب من هذا كله لأن جريدتنا عربية، فهي معرضة للترجمة، وكلمة واحدة من المترجم عن قصد حسن أو سيء تنقل الكلام من باب إلى باب، ولم نعجب من هذا كله لأن جريدتنا أهلية وسور الأهلي قصير >>(2).

ب- المضايقات: لم تكن إدارة الاحتلال تكفي بمصادرة الجريدة وإنما تتعداها إلى مديرها أو المسؤول عنها باضطهاده بشنى الوسائل حتى لا يقدم على التفكير في إصدار جريدة أخرى. وتتوسع هذه المضايقات من المتابعة القضائية إلى التفرغ، إلى السجن والنفي. فقد سجن "عمر راسم" صدر ضده وحكم بالأشغال الشاقة، بعد اتهامه بالاتصال بالعدو(3). ولكن الحقيقة هي قلمه النائر ووطنيته الصريحة وأسلوبه العنيف في التحدي والمواجهة لسياسة المسخ. وتعرض "عمر بن قدور" للسجن المضيق بالعاصمة ثم النفي لمدة خمس سنوات(4). كما تعرض "الشيخ أبو اليقظان" إلى مضايقات واستجوابات

(*) "الجزائر": جريدة أسبوعية أصدرها محمد السعيد الزاهري سنة 1925م، وهي ذات نزعة إصلاحية وطنية لها شعار حرية: الجزائر للجزائريين.

(1) محمد ناصر، الصحف العربية الجزائرية، مرجع سابق، ص 13 .

(2) الشهاب، ع 1 ربيع الثاني 1344هـ - 12 نوفمبر 1925، .

(3) أحمد توفيق المدني، حياة كفاح، مرجع سابق، القسم الثاني، ص 53.

(4) محمد ناصر، الصحف العربية الجزائرية، مرجع سابق، ص 37

من طرف إدارة الإحتلال(1).

ج- المؤامرات والوشايات: لدى الدوائر الحكومية وحبك التقارير المفرضة ضد الجرائد العربية أو ضد أصحابها بدعوى خطورتها على الأمن العام والمصلحة العامة. وكان المقصود منها استصدار القوانين التي تقضي بمنع الجرائد ومعاقبة أصحابها على تجرئهم على انتقاد الأوضاع وكشف نظام الاستعمار وأساليبه.

وتمتد هذه المضايقات والوشايات حتى ضد المشتركين مع الجريدة، بتعطيل وصول الجرائد إليهم في أوقاتها المحددة مما يجعل إدارتها في حرج أمامهم، أو بحجز إدارة البريد للجريدة وإعادتها إلى مقرها، أو بمنعها عن أصحابها الذين قد تنالهم المضايقات في أشخاصهم بطرق خفية بمنعهم من حقوقهم أو تهديدهم في مصالحهم الخاصة.. الخ مما يجبرهم على انقطاعهم عن اقتناء الجريدة حفاظا على حياتهم ومصالحهم، ومن ثمة موت الجريدة بسبب العجز المالي. وقد تمثلت المضايقات في تشجيع إدارة الإحتلال لبعض الموالين لها بإنشاء جرائد مضادة تعمل على تشكيك وتخويف الجزائريين من الجرائد العربية ومن تمويلها وتخريف الحقائق التي تصل حتى إلى قذف أصحاب هذه الجرائد في أشخاصهم.

3- الواقع الجزائري:

في الواقع لم تواجه الصحافة العربية في الجزائر العراقيل التي وضعتها سلطة الإحتلال بقوانينها وضغوطاتها فحسب، وإنما واجهت الواقع الجزائري بكل صعوباته وتناقضاته والذي تقع عليه وبقدر غير قليل مسؤولية وتبعات عرقلة تطور ونمو الصحافة العربية وبث اليأس في أصحابها -رغم مابرتهم وقدرتهم الفريدة على التحدي- مما اضطر البعض إلى العدول عن الميدان، بعد الإضطراب إلى غلق الجريدة لعجز تقني أو مادي أو معنوي. ومن ثمة فيمكننا تصنيف المشاكل التي فرضها الواقع الجزائري إلى :

أ- مشاكل تقنية وفنية: وتتمثل هذه في فقدان المطبعة العربية أو ندرتها وضعف تجهيزاتها. وقد تكبد الجزائريون المشاق العظيمة لتحدي هذا العائق، فاضطر عمر راسم

(1) الزبير سيف الإسلام، تاريخ الصحافة في الجزائر، مرجع سابق، ج6، ص 41-42. بتصرف. (تقلا عن جريدة وادي ميزاب).

مثلا إلى القيام بنفسه ولوحده بأعباء جريدته "ذو الفقار" سنة 1913م ورسم صورها وإخراجها وطبعها: لكن الجريدة اضطرت إلى الإختفاء منذ العدد الثاني منها لتعود بعد ثمانية أشهر كاملة في عددها الثالث(1) واضطر الشيخ الطيب العقبي إلى طبع جريدته "الإصلاح" سنة 1925م بتونس لكنه ما إن صدر العدد الأول منها حتى منعت إدارة الاحتلال صاحبها من هذا الحق وهو ما جعلها تنوقف عن الصدور عامين كاملين(2) بعد أن تمكن العقبي من تركيب مطبعة بدائية في بسكرة بأموال بعض المحسنين والمنحسين للفكرة الإصلاحية أسماها "المطبعة العلمية"(3). التي تبقى ضعيفة وبسيطة في إخراجها. كما اضطرت فقدان وسائل الطباعة في الجزائر أن يتحمل أبو اليقظان مشقة طبع جريدته "وادي ميزاب" سنة 1926م في تونس أيضا. بينما كانت بعض الجرائد الصادرة بجنوب الجزائر تطبع بالعاصمة أو بقسنطينة ثم تعود في أكياس خاصة لتوزع في مناطقها بالصحراء الجزائرية.

وللإشارة فإنه حتى سنة 1930م بلغ عدد المطابع العربية في الجزائر خمسة فقط حسب توفيق المدني، وهي على التوالي: مطبعة دار مراد رودوسي بالعاصمة، مطبعة النجاح بقسنطينة، المطبعة الجزائرية الإسلامية بقسنطينة، مطبعة البلاغ الجزائري التي أوردتها محمد ناصر باسم "المطبعة العليوية"(4)، والمطبعة العربية الحديثة بالعاصمة التابعة للطريقة العليوية أيضا(5).

ويبدو أن هذه الندرة في المطابع بقيت مرافقة للصحافة العربية وكانت عائقا كبيرا لتطورها وانتشارها واستمرارها.

ب- مشاكل مادية:

لا تنته مصاعب الجريدة العربية عند البحث عن وسائل الطباعة ودفع تكاليفها

(1) صدر العدد الثاني في 1913/10/26. والعدد الثالث في 1914/7/14م.

(2) انظر محمد ناصر، الصحف العربية الجزائرية، مرجع سابق، ص 86 بتصرف.

(3) المكان نفسه. بتصرف.

(4) المرجع نفسه، ص 80.

(5) توفيق المدني، كتاب الجزائر، مرجع سابق، ص 348. بتصرف.

الباهظة من المال لصاحبها أو لأصحابها رغبة منهم في خدمة الوطن بتعليم مواطنيهم وتوعيتهم، إعلامهم وتمدينهم.. الخ، ولا عند ضغوطات إدارة الإحتلال المحجفة التي تعرقل سيرها، وتبث العيون حولها وتترصد خطواتها وتعدد أنفاسها.. فما إن تخرج الجريدة إلى النور إلا وتواجهها مصاعب مادية لا قبل لها بتحملها والتي هي ضمان حياتها، ونعني بهذا عدم إقبال الناس عليها سواء بالاشتراك المنظم أو الاقتناء بالعدد، وبالتالي قطع كل مورد مالي تستمد الجريدة منه الحياة والاستمرار.

لقد وجد الجزائريون أنفسهم تحت وطأة الواقع الإقتصادي الصعب في جهاد قاس أمام عدة جبهات في آن واحد بين قوت العيال ونفقات تعليم الأطفال التي كانت تزداد يوما بعد يوم، ثم نفقات التوعية الشخصية خاصة بعد انتشار حركة الصحافة الاستعمارية، ودخول الصحافة المشرقية، وظهور الصحافة العربية الجزائرية الوطنية منها والإصلاحية، والتي أحس الجزائري إزاءها بأنه معني بها بالدرجة الأولى وعليه أن لا يحرم نفسه حق الإطلاع على مضامينها المختلفة والمتنوعة المحلية منها والدولية، وإذا أصبحت الصحافة وسيلتها الوحيدة فهي بالنسبة إليه ضرورة حياتية، ثم ضرورة وطنية بدرجة أخرى، فقد كانت الحركة العامة التي يشهدها المجتمع تشد الجميع إليها بضرورة المشاركة إن لم تكن العملية فبالإطلاع.

ويبدو أن الفقر المدقع الذي كان يعيشه الجزائري قد اضطره إلى خيار أولوية قوت العيال عن غيره، وقد شجعه على ذلك - حسب رأبي - عدة أمور منها:

1- توفر فرصة الإطلاع على الأخبار في المقاهي أولا ثم في النوادي التي أخذت في الانتشار عبر مدن القطر، وحتى المتاجر ومختلف المحال من أماكن التجمع الشعبي في الأرياف والمدن، فقد كانت الجريدة الوحيدة تكفي لتكون زادا فكريا ومصدرا إعلاميا وحريرا لكثير من الناس، الذين كانوا يتحلقون حول القارئ لها يستمعون إليه في صمت وانتباه. ولم تكن هذه الظاهرة - في حقيقة الأمر - غريبة عن التقاليد الاجتماعية ولا عن الذاكرة الشعبية الجماعية للأمة الجزائرية، بل هي تستمد أصلها وصورتها وحيثياتها من مجالس الشعر، وحلقات المداحين، وحلقات قراءة القرآن الكريم في مختلف المناسبات ومنابر الخطابة، وهي كلها معروفة في تراث الأمة وتاريخها العريق، وقد استبدلت أو

أضيف إليها هذه الظاهرة -مجالس قراءة الصحافة- في ذلك الوقت بالذات لأن هذه قد استقطبت الجماهير كما استقطبت جميع الأدوار الفكرية، فكانت زادا متنوعا ومنيرا هاما.

2- تقديم بعض أعداد الجريدة -الأولى خاصة- مجاناً لبعض القراء أو السكوت عن عدم دفعهم الاشتراك طويلاً، مراعاة للفقر ورغبة في عدم تفويت الفرصة عليهم.. وكانت هذه طريقة أصحاب بعض الجرائد في الأشهر لجرائدهم، أو لربط الثقة بينهم وبين القراء، أو بقصد جلب هؤلاء إليهم، أو تشجيعاً لهم على القراءة أو بث روح الإطلاع على مضامين الصحافة فيهم، أو في النهاية التزاماً من أصحاب الجرائد بخدمة مواطنهم وعدم حرمانهم من حق المعرفة والرعي والإعلام ولو كان ذلك بالتنازل عن حق الاشتراك(1). لكن الاستمرار في عدم تسديد المشتركين لمستحقات الجريدة، وعجز البعض عن ذلك، وخوف البعض الآخر من افتضاح أمرهم ومغبة التعرض لعقوبة إدارة الاحتلال وتهديدها، أو عدم الإقبال عليها، يزيد في أعباء الجريدة التي تؤول حتماً إلى الإفلاس مما يضطرها إلى الاختفاء بعد عدد أو عددين أو أكثر بقليل.

ويبدو أنه لم تسلم جريدة من هذا المشكل المادي ويقول محمد ناصر بأننا: >> نكاد نجزم أنه لم تسلم جريدة عربية واحدة من ملاحظة المشتركين وترددهم في دفع ما عليهم من واجب الاشتراكات، بل إن توقف بعضها عن الصدور كان سببه العجز المادي قبل كل شيء >>(2)، والموت بفقر الدم كما عبّر عنه في موضع آخر.

ج- مشاكل الجهل والأمية والجمود:

الجهل، الأمية والجمود الفكري من المشاكل الأخرى التي تضاف إلى صعوبات الصحافة العربية لتحد مسيرة ظهورها، وتعرقل نموها.

(1) أصدر الصحفي كاسبراسم بجلته: الجزائر في شكل ملحق في عددها الأول والثاني وزعه مجاناً على المشتركين ونشر ذلك في الملحق الأول الصادر في 27 أكتوبر 1908. قاتلاً: >> وهذا الملحق وما بعده يعطى مجاناً للمشاركين >>. انظر: الزبير سيف الإسلام، تاريخ الصحافة في الجزائر، مرجع سابق، ج4، ص 213-214. بتصرف.

(2) محمد ناصر، الصحف العربية الجزائرية، مرجع سابق، ص 17.

ويمكن أن يكون الجهل والامية من التبريرات الواقعية العادلة التي قد تبعد عن المسلم الجزائري تهمة نفوره من الصحافة عموماً والصحافة العربية خاصة ولا مبالاته إزاءها، فإن الشعب الجزائري لم يجد يوماً من يعرفه بأهمية الصحافة ودورها الخطير والحيوي في انتشار الوعي السياسي والاجتماعي والحضاري عامة، بل لم يجد يوماً من يدفعه إلى سلوك طريقها للتعبير عن مآسيه وإسماع العالم فضائع الاحتلال في حقه بجرمانه من كل حق في الحياة ناهيك عن حق المعرفة والإعلام. وإذا كانت فاتورة هذا الذنب الكبير والسلوك اللانساني تقع على الاحتلال الفرنسي الذي انتهج سياسة تجهيل سافرة بناها على خطط مدروسة وبرامج محسوبة خدمة لأهدافه وقد واجهها الجزائريون بمقاومة صامتة تمثلت في العزلة والانكماش - كما مرّ بنا - لم يكن ذلك رغبة منهم في الانكماش والعزلة وإنما هو تعبير حزين عن رفضهم لواقعهم المر بعدما أدركوا حقيقة مشاريع الاحتلال إزاءهم وبعدها أوصدت دونهم قنوات التعبير فكان صمتهم ذلك صرخة رفض وإرادة للحفاظ والتشبث بمقومات شخصيتهم وذلك بمقاطعة كل مشاريع فرنسا والتي شملت التعليم والصحافة وغيرها فكانت نتيجة جهل عمّ الكبار والصغار كان حائلاً دون الاهتمام بقراءة الصحف أو اقتنائها سواء في لغتها الفرنسية أو العربية.

وكان لرجال الزوايا وشيوخ الطريقة جانب كبير من المسؤولية في الجهل الذي عمّ الجزائريين ومنعهم رغم تغير الظروف العامة شيئاً ما من الاهتمام بالصحافة العربية خاصة وإدراك أهميتها، فبعد أن أفسدوا فطرة الأمة وأماتوا ما غرسه الإسلام فيها من فضيلة وفككوا كل ما أحكم بينها من روابط أخوة راضوها على الذل والمهانة والخضوع، وسدّوا عليها منافذ النور فاستقامت لهم على ذلك (1)، ووصل بهم الأمر بعدما أحسروا خطورة الصحافة الإصلاحية على نفوذهم إلى السعي إلى تحريم قراءة الجرائد على الناس وخذلانهم عن مسانديها وتأييدها. فقد اعتبروا >> "علم الجرنال" علماً محرّماً لا يقل جرم صاحبه عن جرم لاعب القمار << (2). واعتبر آخرون منهم >> كل من دفع معلوم اشتراكه

(1) سجل مؤتمر جمعية العلماء، مصدر سابق، ص 33. بتصرف.

(2) محمد ناصر، الصحف العربية الجزائرية، مرجع سابق، ص 17.

في الجرائد والمجلات فهو عاص لا تقبل معذرتة إلا إذا تبرع لهم بمثله، أو بينه في ثلث وصيته» (1).

وتختلف أكاذيب الطرفين وتنوع مع الأيام في محاربتهم لحركة الاصلاح التي انبرت صحافتها بالذات لكشف ضلالهم وحقيقة أهدافهم، وكشف ضلال جهات أخرى في محاربتها للصحافة العربية خاصة دون غيرها في الجزائر، واستطاعت هذه إلى جانب بوادر الحركة العامة التي شهدتها المجتمع الجزائري أن تغلب على هؤلاء وأولئك بتحسين موقف الجزائريين من الصحافة العربية بالإقبال على اقتنائها والاشتراك فيها وتأييدها والإحساس بالمسؤولية إزاءها كجزء من المسؤولية نحو الوطن لأنها تبعث الحياة في الأفكار والوعي في العقول ومن ثمة العمل على ضمان حياتها واستمرارها.

ويشير "توفيق المدني" إلى هذا التحسن مجريا مقارنة بالأرقام بين سنة 1914م و1930م يقول «ففي سنة 1914م كانت أمة الجزائر برمتها تقرأ 8000 عددا من "الفاروق" و"ذي الفقار" في الشهر على حساب ألف عدد كل أسبوع من كل جريدة، أما في سنة 1930 فقد أصبحت أمة الجزائر تقرأ شهريا 18400 عدد من الصحف والمجلات» (2).

المبحث الثالث وعلماء الجمعية والصحافة:

تسمح هذه المعطيات بالإضافة إلى ما تقدم بالقول أنه كان يتوجب على علماء الجمعية بغض النظر عن كثرة جبهات التصدي، وتنوع العراقيل والصعوبات، ليس فقط خوض تجربة الاتصال المكتوب بالجماهير الجزائرية وإنما وبصفة ملحّة النجاح فيها، انطلاقا من اعتقادهم الراسخ بأن هذه الجماهير هي وحدها دون غيرها عملة التغيير وحميرة النجاح في مواجهة الاحتلال عموما وفي جانب غزوه الفكري على وجه الخصوص. فكل ما سنتناوله صحافتهم كأفراد أولا ثم كجمعية منظمة ثانيا إنما هو تكوين هذه الجماهير، تعليما وتوعيتها في كل المجالات حتى ترفع عنها الغبن الاجتماعي والنفسي المفروض عليها. فكانت أولى الخطوات المنطقية في هذا المجال هو كسر الحاجز، وتذليل الصعوبات وجذب الجماهير الجزائرية إلى الصحافة العربية.

(1) محمد ناصر، الصحف العربية الجزائرية، مرجع سابق، ص 17.

(2) أحمد توفيق المدني، كتاب الجزائر، مرجع سابق، ص 347-348.

وحدير الملاحظة التنبيه إلى :

أ- أن الحديث عن الصحافة العربية هو حديث عن سبيل للمقاومة، وطريق للجهاد بالكلمة في فترة تاريخية حلت من كل أشكال المقاومة بل شهدت على بوادر وملامح للاندثار مثلتها بعض عناوين الصحافة الجزائرية فرنسية اللسان وكذا "النخبة" المتفرنسة التي كرّست برامج ومشاريع المدرسة الفرنسية، والتي كانت الوجه الآخر - من حيث التوجه - لصحافة الاحتلال نفسها بل وتعزيد للاحتلال نفسه بحملاتها الصاخبة والمتواصلة لصالح سياسة الاندماج والفرنسة والتجنس الخ.

ب- أن الحديث عن الصحافة العربية هو حديث عن علماء الجمعية بصفتهم الفردية بحيث سنرى بأن صحافة هذه الفترة قد أنشأها علماء الإصلاح الذين هم في النهاية أعضاء المجلس الإداري للجمعية والعلماء العاملون بها، فبعد جيل المجاوي، وابن سماوية، ثم جيل عمر راسم وعمر بن قنور يأتي جيل ابن باديس والعقبي والزاهري، ومحمد الأمين العمودي وأبي اليقظان وغيرهم.

ج- أن الحديث عن الصحافة العربية كطريقة للمقاومة والجهاد هو في النهاية الحديث عن علماء الجمعية الذين صبغوا صحافتهم بالتحدي، والصبر، والجهاد، إزاء عراقيل الإدارة القانونية، ومضايقاتها اليومية ثم إزاء صعوبات الواقع الجزائري المتنوعة، فإذا كان إصدار جريدة عربية يعتبر في حد ذاته نجاحا فذا في معركة التصدي لجبهة الاحتلال الفرنسي، فإنها في الوقت نفسه بداية معركة شاقّة مخوفة بأسباب الفشل والموت في معركة التوجه إلى جبهة الواقع الجزائري في معطيات الجهل والجمود والفقر... الخ، ومن ثمة السؤال المحوري كيف تمّ للعلماء المسلمين توجيه أنظار مواطنيهم ضمن كل تلك الصعوبات إلى الصحافة العربية، وجعل هذه ضمن جدول اهتماماتهم اليومية ومحورا للتداول والمتابعة بينهم؟

و للإجابة عن هذا السؤال يمكننا التعرض إلى ما يلي من العوامل:

أ- أسماء العلماء مسؤولي الجرائد العربية:

إذا كانت الصحافة الجزائرية فرنسية اللغة قد تقلدتها أسماء من "النخبة المتفرنسة" التي طبعتها بطابعها ولغتها وأفكارها، وهي تعزو شهرتها إلى هذه الصحافة بالدرجة

الأولى، فإن الصحافة العربية في الجزائر قد آلت من أولى أيامها إلى يد النخبة العربية الإسلامية بداية من علماء الإصلاح عموماً ونهاية إلى علماء جمعية العلماء المسلمين الجزائريين المتخرجة من المدارس القرآنية أو من الزوايا - قبل أن تنحرف هذه عن مهمتها التربوية والتعليمية والدينية.. وكذا من معاهد المغرب العربي والمشرق العربي. وقد تتلمذ هؤلاء على تفاوت بينهم على أمهات كتب الفقه وأصوله، وعلوم التوحيد واللغة والحديث والقرآن، بعدما حفظوا القرآن الكريم وقسطا معتبرا من أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم من مضانها الصحيحة المعتمدة، فهم بالتالي علماء دين بالدرجة الأولى، وقد طبعوا الصحافة العربية التي آلت إليهم أو بالأحرى بادروا بأنفسهم إلى تسلم زمامها إذ لم يكن غيرهم مؤهلا لهذه المهمة، كما طبعوا قبل توجهات التعليم والارشاد والدعوة في الجزائر، فكانت الصحافة في النهاية تعبيرا عن آرائهم في السياسة والاجتماع وقضايا الوطن المختلفة حسب ميزان مرجعيتهم الفكرية.

ولم تعز شهرة هؤلاء العلماء إلى الصحافة إلا بدرجة ثانوية، فقد اشتهروا أولا بالعلم والإصلاح والتدين والأخلاق. وكما أهلتهم هذه الصفات لتصدر مجالس التعليم المسجدي والمكتبي، وكذا تصدر منابر الخطابة في الجمع والأعياد ومختلف المناسبات، أهلتهم بالتالي لتصدر منبر الصحافة التي كانت بالنسبة إليهم قناة اتصال جديدة وواسعة من حيث المضامين تتطلب وسائل أخرى عصرية فرضها الواقع والضرورة. وكما جعلت منهم أئمة للكلمة المسموعة ومرجعا للفتوى الدينية ومصدرا لحل الخلافات بين المسلمين الجزائريين الذين كانوا يحتكمون إليهم في المدينة والبادية بدل الاحتكام إلى محاكم وقضاء الاحتلال، فحري أن تكون أسماء هؤلاء على الصحف العربية محل اطمئنان للجزائريين المسلمين ومصدر ثقة في مضامين هذا الاتصال الجديد بهم، ولم يكن ذلك ليعر بهم دون أن يجذب انتباههم إلى أهمية الصحافة التي أقل ما كانوا يتمسكون منها هو نصائح العلماء وتوجيهاتهم التي لا تخلو من فائدة تعليمهم وتكوينهم وتوعيتهم، ومن ثمة تحثهم على الاطلاع على مضامينها وضرورة متابعتها بالإقتناء أو بالإشتراك أو باحدى الطرق المؤدية إلى ذلك. وإذا عرفنا أن لأغلب هؤلاء العلماء - أعضاء الجمعية فيما بعد- تجربة في ميدان التعليم المسجدي أو المكتبي، أو إمامة بعض المساجد علمنا بالضرورة أن شهرتهم لم تكن

لتغيب عن الجماهير التي كانت تتداول شؤونها وأخبارها الخاصة في أماكن تجمعاتها المختلفة كالأسواق والمقاهي والنوادي وكذا مختلف محال الاجتماعات والمسامرات. فاسم ابن باديس والابراهيمى مثلا أو العقبي وأبي اليقظان، ومحمد السعيد الزاهري، ومبارك الميللي، ومحمد الأمين العمودي، ومحمد العيد آل خليفة والعربي التبسي لم تكن لتمر بالجماهير الجزائرية، دون أن تلمس فيهما مشاعر الاحترام والتقدير وتستوقف لديها آيات العرفان الديني والعلمي.

ب- عناوين الجرائد العربية (الاصلاحية):

يبدو أنه من أولى الدعايات التحسيسية والاشهارية التي خدمت الصحافة العربية الاصلاحية كانت تكمن في عناوين جرائدها. فقد كان العلماء يولون هذا الجانب - اختيار العناوين - اهتماما كبيرا وعناية خاصة لكون عنوان الجريدة هو واجهتها التي هي أول ما يستوقف القارئ، فيلمس عنده رغبة الاطلاع على المحتوى الذي يحمل هذا العنوان، ويلمس لدى الأمي والجاهل إحساسا خاصا يتعلق ببعض خصائصه وبعض جوانبه النفسية باستجابته لشعور عنده.

وقد كان اختيار العلماء لعناوين جرائدهم مطبوعا أساسا بالمرجعية الفكرية لديهم والمستمدة من ثقافتهم الاسلامية منبع إلهامهم الخاص التي تضرب بجذورها في الواقع الجزائري نفسه وفي إطار الثقافة الجماعية والذاكرة الشعبية للمجتمع الجزائري المسلم. وغالبا ما كانت هذه العناوين تبعث على الأمل والتفاؤل، أو تعبير عن إرادة التحدي والمواجهة، التي تثير في حد ذاتها همم القراء وتجلبهم إليها. وقد كان لكل عنوان قصة في اختياره حسب ما يبدو في افتتاحيات بعض الجرائد التي لم تبخل عن التوقف عند سبب اختيارها لعنوان دون غيره قد يكون لاشتماله على معاني أكثر تستطيع اختزال أهداف مسؤولي الجريدة، وتوجهاتهم في المجالات المختلفة حتى تتمكن به إثارة الوقع الحسن لدى القراء والإثارة اللطيفة لمشاعر المساندة بالإقبال على الجريدة ومدتها بالمساعدة المادية ولم لا بالمواضيع المختلفة. وقد انتشرت عناوين كثيرة تعبر صراحة أو تعريضا عن الإصلاح أو عن أهدافه وعن فكرة الاستقلال، أو عن عدم الرضى عن الواقع الذي فرضه الاحتلال والعمل لأجل تغييره بكل الوسائل. وفي هذا الإطار لدينا جريدة "المنتقد" و"الشهاب"

لابن باديس التي ستعرض إليهما لاحقاً، وجريدة "الجزائر" للزاهري التي قال عنها صاحبها بأنه أصدرها لتكمل الرسالة الوطنية التي بدأتها جريدة "الاقدام" للأمير خالد. ولم تكن "الجزائر" عنواناً للجريدة وإنما أيضاً شعارها الجريء وهو "الجزائر للجزائريين". وقد جاء اسم "الجزائر" مكتوباً في وسط هلال. «وكان للهِلال معنى وطني معروف في تلك الفترة»⁽¹⁾. وأصدر العقبي جريدته التي تحمل عنوان "الإصلاح" للدلالة الواضحة عن أهدافه المتمثلة في: العمل على تحطيم الخرافات وهدم الأوهام، كواجب أول لتنوير الأفكار وتهذيب الرأي العام⁽²⁾. كما أصدر أبو اليقظان جريدته "صدى الصحراء" الذي يبدو من لسان حاله مشاركة الصحراء في مجاهدات الإصلاح ومحاربة الطريقة وتنوير المسلمين والعمل لأجل الوطن.

وكانت ظاهرة هذه العناوين قد انتشرت في المشرق العربي الذي سبقت تجربته الصحفية علماء الإصلاح في الجزائر، ويبدو أن انتشارها في الجزائر بالعناوين نفسها أحياناً ليس لتأثر أصحاب هذه الجرائد بأسماء الجرائد المشرقية - مع قبول هذا الرأي بشكل ما لكن الحقيقة تعود إلى وحدة مضان الثقافة الإسلامية التي تتلمذ عليها علماء الإصلاح في المشرق والمغرب العربيين الإسلاميين والتي هي العامل المشترك الذي يترجم فيما بعد في الاتفاق حول المسائل الكثيرة. ويبقى التأكيد على أن طبيعة الظروف التاريخية والسياسية والجغرافية والبشرية التي ميزت الجزائريين خاصة عن المشاركة حتى في اختيار عناوين جرائدهم التي يفرضها الواقع والتجربة ومتطلبات الممارسة العملية اليومية للإصلاح الذي يرتبط بحياة الجماهير نفسها فكانت هذه العناوين تخدم إلى جانب مختلف الأهداف عقلية ومشاعر هذه الجماهير بالدرجة الأولى.

ج- طبيعة المواضيع التي تعالجها الصحافة الإصلاحية:

بعد العناوين تأتي طبيعة المواضيع التي تعالجها الصحافة الإصلاحية، والتي تطرحها للتحليل والتعليق لا تنتظر في ذلك تقادم الجريدة وإنما منذ أعدادها الأولى، ومع أن ذلك يعرضها للمصادرة والمنع للهجتها الشديدة والصریحة، لكن يبدو أن مسؤوليها لم يكن

(1) محمد ناصر، الصحف العربية الجزائرية، مرجع سابق، ص 55.

(2) المرجع نفسه، ص 85-86. نقلاً عن صدر العدد الأول لجريدة الإصلاح الصادر في 08-09-1925 بيسكرة.

يهمهم ذلك بقدر ما كان يهمهم متابعة الأحداث بيقظة، والبت في جوانبها المختلفة باطلاع الجماهير المسلمة على حقائقها وأهدافها، و سواء في ذلك المحلية أو أحداث العالم الإسلامي أو أحداث العالم عموماً، والتركيز خاصة على ما كان للاستعمار فيها يد، ومن ثمة فقد كانوا في سياق متواصل مع الكلمة، وكان هدفهم هو بعث الحاجة إلى الإعلام في مواطنهم، هؤلاء الذين سيألفون الجديد مع كل عدد وبالتالي فغيابه عنهم يثير تساؤلاتهم ويدفعهم إلى توسل أسباب اقتنائه والأشراك فيه. هذا فيما يخص المثقفين من الجزائريين. أما فيما يخص الأميين فبالعرض إلى الأسماء والمناطق، وقضاياهم اليومية، التي قد تمسهم في أشخاصهم، أو أهليهم أو أطفالهم، في مجال الدين والصحة والنظافة ومن ثمة فإن الجماهير ستجد نفسها مدفوعة إلى متابعة هذه القضايا بنفسها معنية بها دون غيرها.

وإذا كانت الصحافة عموماً جديدة على القاموس اليومي والنمط المعيشي للجماهير الجزائرية، لكنها قد لا تصبح كذلك عندما تتعرض لأسماء علماء تعرفهم وتسمع بهم بل وتتكون قد سمعت من أحد منهم درساً أو خطبة أو احتكمت إليه في فتوى شرعية أو حل ديني لخلاف عائلي أو غيره، ولا تصبح كذلك عندما تتعرض لمناطق تعرفها وتذكرها بأن هذه المناطق بمواطنيها ما هي إلا أجزاء للوطن الكبير الجزائر. ولا تصبح كذلك عندما تواجه الحكومة الاستعمارية لتدافع عن حقوقها العامة والخاصة التي قد تتعلق بالصحة والتعليم، والدين.. ولا تصبح كذلك عندما تتعرض للآفات الاجتماعية وتحديد مسؤولية شيوخ الطريقة الذين لا يخفى اسم أحدهم على أحد في تلك الفترة بالذات، فتحارب الخمر والرذيلة والظلم، وفي الحملة فإن الصحافة لا تصبح غريبة عن الجماهير لأنها تعبر عن صوتها الذي يذكرها بغبنها ويستحثها لرفعها، ومن ثمة فهي وسيلتها للتفتيس وأداتها لمتابعة الأصدقاء ولذلك فمنطقي أنه إذا أصبحت الصحافة العربية بهذه الأهمية في حياة الجماهير فإنها تستثير فيها مقابلتها بالمساندة وذلك بالاشتراك فيها أو اقتنائها يندل المال، إذا أرادت تلبية حقها في الإعلام، وأداء حاجتها في الاطلاع على الأحداث وكذا إشباع رغبتها الخاصة والعامة في متابعة إبعاد شبح التهميش وتهمية الغنائية.

د- مصادرة إدارة الاحتلال للصحافة العربية دون غيرها في الجزائر:

لقد كان الجزائريون المثقفون منهم والجماهير الأمية يلاحظون تساقط العناوين العربية، واختفاءها المتتابع والمفاجئ دائما الذي يكون بعد صدور عدد أو عددتين أو أكثر بقليل فقط من الجريدة، ويتابعون أخبار ملاحقة إدارة الاحتلال لمسؤولي هذه الجرائد بالتهديدات والتفريجات والاستنطاقات لدى مصالح القضاء الخاصة بهذا المجال، وعلموا بأن هذه الجرائد هي التي كانت تعرض قضاياهم للمناقشة والتحليل، وتتابع مشاكلهم محتجة عن أوضاعهم، مدافعة عنهم مطالبة بحقوقهم من جهة، وعلموا بأن أصحاب هذه الجرائد إنما هم العلماء أهل ثقتهم ومحط تقديرهم من جهة أخرى، فلم يكن ذلك ليمر عليهم دون أن يسجل لديهم حركة استياء واحتجاج غير معلن خاصة إذ علموا أن هذه الاجراءات تخص الجرائد العربية دون غيرها غالبا. هذه المشاعر التي تستفزها الجرائد المختلفة في عناوينها الجديدة بأسرة التحرير نفسها والمسؤول نفسه، عند الاعتذار لجمهور القراء عن اختفائها والتعرض للأسباب المباشرة له أو قد تنوب عنها جرائد أخرى تعريضا بإرادة المنع الاستعماري لصوت المسلمين الجزائريين وتخريضا للجماهير بعدم توفير الفرصة لذلك بالسكوت والسلبية، وهو الأمر الذي يدفع الجزائريين للتعبير عن تضامنهم ومعاكستهم لهدف سلطة الاحتلال بالإقبال على اقتناء الجرائد.

٤- التعريف بصحف جمعية العلماء المسلمين الجزائريين

الصحافة وسيلة أخرى من وسائل الاتصال الهامة عند جمعية العلماء، وكانت بالنسبة لها وسيلة للتعبير عن رأيها وبتفكيرها الإصلاحية وتبليغ دعوتها، واتخذتها منبرا تعلن من فوقه مبادئها للرأي العام وتتصل بواسطته بكافة أفرادها وتجعله لسان حالها وهمزة وصل بينها وبين الشعب بجميع هيئاته ومؤسساته سواء كانت مناصرة أو معادية لها.

وقد استعان الإمام عبد الحميد بن باديس زعيم الحركة الإصلاحية الجزائرية بالصحافة لمتابعة نشاطه الفردي في بعث الأمة ونهضتها قبل تأسيس جمعية العلماء. فقد أسس جريدة "المنتقد" ثم جريدة "الشهاب"، ثم أسست الجمعية عدة جرائد أخرى تباعا كما سنرى.

جريدة المنتقد(*) : ظهرت في 2 جويلية 1925م لتصدر بعدها في خميس كل أسبوع، أسسها ابن باديس، وأسند إدارتها للسيد أحمد بوشمال. وقد جمعت الجريدة الأقلام الإصلاحية المتمثلة في الشباب العربي المثقف والمتعلم على مشايخ الأزهر والزيتونة وفي معاهد الشام والحجاز والعائد إلى الجزائر بعد الحرب العالمية الأولى، بالإضافة إلى الذين درسوا بالجزائر وخاصة منهم تلاميذ ابن باديس في الجامع الأخضر، وقد أشارت إليهم الجريدة في رأس الصفحة الأولى بـ «جريدة» تصدرها نخبة من الشبيبة الجزائرية صبيحة الخميس من كل أسبوع» ونجد من هؤلاء ابن باديس، الطيب العقبي، خبشاش محمد الصالح، مبارك الميلي، أبو اليقظان، ابن العابد الجليلي. وقد عمل هؤلاء وغيرهم تحت شعار: «الحق فوق كل أحد والوطن قبل كل شيء» كما أشاروا إلى طبيعة المنتقد بأنها «جريدة سياسية تهذيبية انتقادية»، وأنها «جريدة حرة وطنية تعمل لمساعدة الأمة الجزائرية بمساعدة فرنسا الديمقراطية» وتردد في بعض أعدادها أن «المنتقد لسان الشباب الناهض بالقطر الجزائري».

لماذا المنتقد؟

يبدو أن أسماء جرائد جمعية العلماء لم تكن تطلق اعتبارا وإنما كانت رموزا لمراحل، وخلاصة لقناعات، ومبادئ لمشروع، كما أشار الشيخ الإبراهيمي لما قال «بأنها كانت رموزا إلى أطوارها»(1). وفيما يخص «المنتقد» قال: «يظن الناس أنها وليدة الاختيار المقتضب والشعور الطافر، وغلطوا.. إنما هي وليدة شعور متمكن وتأثر نفساني عميق تزجيه مؤثرات قارة»(2).

أما من حيث الظرف الزمني فقد ولدت «المنتقد» في فترة تاريخية وسياسية حساسية، فقد انتهج الحاكم العام الجديد في ذلك الوقت، السيد «موريس فيوليت» سياسة جديدة تقضي بمحاولة مد جسور «حوار مع المسلمين الجزائريين بإقرار نظام «مراقبة» الصحافة وقد شجع ذلك ابن باديس وجماعته لإصدار هذه الجريدة، للتعبير عن آرائهم

(*) انظر صورة لجريدة «المنتقد» الملحق رقم 14.

(1) آثار محمد البشير الإبراهيمي، (الجزائر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1978)، ط1، ج1، ص 148.

(2) سجل جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، مصدر سابق، ص 51.

وإسماع صوتهم بأخذ زمام المبادرة في هذا المجال الخطير خاصة بعد نفي الأمير خالد وإفشال سياسته المتركرة حول قضية الشخصية الاسلامية للشعب الجزائري.

وكانت تحليلات الأمير التي كانت تنشرها جريدته "الأمة"، ترسم إمكانيات النهضة في الجزائر، وتوجه أنظار المسلمين الجزائريين إلى النهضة الشرقية، وتنبههم إلى ضرورة أن تبنى النهضة في الجزائر على المبادئ المقدسة للإسلام. فلم تكن هذه التحليلات لتمر على النخبة الجزائرية - العربية - دون أن تحرك الهمم، وتنزع عنها اللامبالاة وتحملها المسؤولية في رفع التحدي باسم الشعب الجزائري لخوض مسيرة التحرر، وتقرير المصير، وقد شحذ هذا الانشغال، التساهل المعلن وغير المعلن الذي وقفته إدارة الاحتلال وسلطته في التمكين لمشايخ الطرق في تشويه الدين الإسلامي وإفراغ مقدساته من كل معانيها السامية.

وأما من حيث الظرف التاريخي الخاص، فإن صدور "المنتقد" كان يستجيب لمقتضيات رأي ابن باديس الذي أجمعت عليه جماعته في ضرورة مواجهة خطر الطرق الصوفية ورؤسائها وأخذ أمرها بما تتطلبه من الشدة والحزم بهدف ضمان سلامة الجبهة الداخلية، لأن هذه الطرق كما يقرّر الابراهيمى: «هي علة العلل في الإفساد، ومنبع الشرور، وإن كل هو متفش في الأمة من ابتداء في الدين، وضلال في العقيدة، وجهل بكل شيء وغفلة عن الحياة وإلحاد في الناشئة فمنشؤه من الطرق، ومرجعه إليها» (1). فكان اسم "المنتقد" نفسه نذيراً بالشر لأهل الضلال، متحد لما نهوا عنه، هاتكا لحرمة ما شرعه في كلمتهم التي خدروا بها العامة وهي قولهم «اعتقد ولا تنتقد» (2).

وتكون "المنتقد" بهذا لسان حال الفكرة الاصلاحية لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين في طور الاستعداد والتمهيد كما يقول الابراهيمى (3)، مع التأكيد بأنها لم تقتصر على مجال محاربة الطرقية فحسب وإنما كان ذلك فقط مجال من مجالات انشغالاتها الكثيرة، وإن كان أكبرها في الفترة التمهيدية وفي الاصلاح الديني عموماً، كما سنرى.

(1) سجل جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، مصدر سابق، ص 61.

(2) المصدر نفسه، ص 51.

(3) آثار محمد البشير الابراهيمى، مصدر سابق، ج4، ص 233.

ولما كانت كذلك فقد تميّزت "المنتقد" بلهجتها الشديدة وأسلوبها العنيف، وتجربتها الصريح إزاء الطرفين وإزاء إدارة الاحتلال الفرنسي، وعملت بعمق على تبيينه الجزائريين بأنهم أمة لها قوميتها ولغتها ودينها وتاريخها، ومن ثمة >> فهي أمة تامة الأهمية، لا ينقصها شيء من مقومات الأمم >>(1)، كما يّنه المقال الافتتاحي للعدد الأول من "المنتقد" نفسها(2).

ويبدو أن هذا الأسلوب الصريح وهذه الحملة الجادة، قد أغاصت سلطة الاحتلال وأثارت حفيظة بعض الطرفين عليها وساندهم في ذلك بعض رجال الدين الرسميين، فأخذوا يسعون بالرشاية لدى الدوائر الحكومية ضد الجريدة وقد أشارت إليهم المنتقد في عددها (18) في مقال عنوانه: >> أعوان اللصوص يسترهبون الدولة ويخوفونها ولكنها لا تخشاهم >>(3). لكن هؤلاء قد نجحوا فعلا في وشايتهم حيث صدر قرار تعطيل الجريدة بأمر حكومي، فقد >> أثار الذين اعتادوا التملق صدقها، وكبر على الذين تعودوا النفاق صراحتها، وهال الذين اعتادوا الجبن من الرؤساء أو اعتادوا الجمود من الاتباع صرامتها، أجمعت هذه الطوائف أمرها فأخذوا يسعون في الرشاية ضدها، وحمل الخطب للمراجع العليا لحرقتها حتى عطلت >>(4).

وقد يّن العدد الأول من "الشهاب" الذي خلف "المنتقد" مباشرة الخلفيات الحقيقية للتعطيل الرسمي "للمنتقد" بعدما أمنت في التعجب من هذا التعطيل الجائر، تقول "الشهاب" في مقالتها الافتتاحي عنوانه "الشهاب والمنتقد"، رسمنا لأنفسنا خطة يّناها في جريدتنا المحتجة كتبناها بإخلاص وصراحة، مبيّنين ما ترمي إليه من الإصلاح والرقى والتهديب في كنف فرنسا "الديمقراطية" ومساعدتها... سرنا على تلك الخطة بحسن نية وسلامة ضمير، غير متوقعين من الإدارة أدنى معاكسة ولا (...)(5) >>، ثم يذكر المقال

(1) الشهاب، ج1، م11، المورخ ب محرم 1345هـ الموافق أبريل 1935م.

(2) سنعرض إلى هذا المقال بالتحليل لاحقا.

(3) المنتقد، ع18، المورخ ب : 10 ربيع الأول 1344 هـ الموافق لـ: 29 أكتوبر 1925م، ص 2.

(4) الشهاب، ع1، المورخ ب : الخميس 25 ربيع الثاني الموافق لـ : 12 نوفمبر 1925م، ص 1.

(5) المكان نفسه.

إجراءات حجز نشر الجريدة ورزاجها الذي قرّره وزير الداخلية الفرنسي شخصياً، ويتوقف عند صيغ للتعجب التي تكشف دعوى الديمقراطية الفرنسية وفراغ شغارتها التاريخية "العدل المساواة والأخوة".

يقول المقال: «عجبنا أن تعطل جريدة تصرّح بمبادئها السني الديمقراطي على رأس كل عدد منها، في الوقت الذي يؤذن فيه لجرائد فرنسوية ذات مبادئ شيوعية سامة مخطرة بالرواج في القطر الجزائري».

عجبنا أن تعطل جريدة ما نقلت خيراً إلا من الجرائد الفرنسية أو الموالية لفرنسا، ولا قالت أفكاراً إلا كانت بلهجة هي العطف بكثير مما تحرر به مقالات كثيرة في الجرائد الفرنسية نفسها.

عجبنا أن تعطل جريدة تنادي بمساعدة فرنسا الديمقراطية في أيام حكومة عصبة الشمال وولاية المسيو فيوليط (Maurice Violette) الاشتراكي الصميم الذي نصبته تلك العصبة ليطبق مبادئها على أبناء المستعمرات الذي طالما حجبتهم عن فرنسا الحقيقية سدول.. وأي سدول... عجبنا أن تعطل جريدتنا بهذه التصرفات الإدارية بدون أن نعرف بالسبب أو نناقش فيه، لندافع عن أنفسنا، أو نعرف على الأقل ما استاءت منه الإدارة لتعجبنا أو نعتذر عنه إن كان يوجب الاعتذار.. عجبنا.. وعجبنا... وعجبنا.. ولم نعجب من هذا كله:.. لأن جريدتنا أهلية وسور الأهلي قصير(1).

وقد لا يحتاج القارئ الرصيف أن يبحث بين سطور هذه السطور ليكشف أهداف العلماء من إصدار جرائدهم وليعرف حقيقة شعاراتهم فيها التي توهم بالاعتراف بالواقع الاستعماري وتكريس أساليبه وشعاراته، وإنما كل ما في هذه الصيغ اللغوية يفيض سيادة، ووطنية، ويكشف أباطيل ما تروجه قنوات الاحتلال الفرنسي من دعاوى التحضر والديمقراطية، التي تعرضها تعابير المقال المرنة إلى نوع من التهكم الخفي. وبمصادرة العدد 18(*) من "المنتقد" ينتهي عمرها القصير الذي لم يتجاوز أربعة أشهر صدر خلالها

(1) الشهاب، ع1، مصدر سابق، ص 1.

(*) يوحد بمديرية الوثائق لولاية قسنطينة أعداد "المنتقد" من 1 إلى 18، ويتنقص من بينها الأعداد (2-3-6)، انظر صورة عدد من أعداد "المنتقد" في الملحق رقم 14.

ثمانية عشر عددا >> كانت في ببيان النهضة ثمانية عشر سندا >>(1).

ولم تتغير فنيات إخراج "المنتقد" طيلة هذه المدة حيث بقيت تصدر في أربع صفحات إلا عددين منها فقد صدرا في صفحتين فقط وذلك بسبب أزمة الورق التي تعرضت لها الجريدة ، وقد تميزت مضامين الجريدة بالتنوع و الثراء ، وعالجت مواضيع في السياسة و الإصلاح الديني و الإجتماعي ، و شؤون التعليم وأهمية العلم و الدعوة إليه ، و أخبار الوطن و كذا أخبار العالم العربي و الإسلامي و بعض الدوليات قصد العبرة و الاتعاظ. وتعتبر "المنتقد" تحولا هاما في تاريخ الحركة الفكرية والأدبية في الجزائر من حيث مثانة اللغة وسلاسة الأسلوب، وعمق الأفكار بالإضافة إلى روح الوطنية والايمان العميق والاحلاص التام، ولا غرابة في ذلك إذ كانت قد جمعت نخبة الأعلام العربية في الجزائر في ذلك الوقت. ويبدو أنه كان للجريدة جمهور واسع جلبهم إليها جذبة المواضيع وأهميتها، إلا أن أعلى ما وصله رقم توزيعها حسب الأستاذ زهير إحدادن هو 1000 نسخة لكل عدد(2) كانت تباع عن طريق الاشتراك أو البيع بالوحدة.

2- جريدة الشهاب (1925-1939):

صدر العدد الأول (*) بعد ثمانية عشر يوما فقط من تعطيل "المنتقد"، (فقد عطلت المنتقد في 25 أكتوبر 1925م وصدر عدد "الشهاب" الأول في 12 نوفمبر 1925م)، ونكاد نقول بأن العدد الأول من "الشهاب" ماهو في الحقيقة إلا العدد التاسع عشر من "المنتقد" المعطلة، فقد غير اسمه فقط من "المنتقد" إلى "الشهاب" وبقي هو نفسه من حيث فريق إدارته وعنوان مراسلاته ومديره ومن حيث إخراجته وشعاراته ثم من حيث أركان الجريدة التي حافظت على عناوينها واحتفظت بزوايا صدورها من الجريدة بل إن أعدادا من هذه لم يكن إلا تتمتع لمواضيع لم تتم في العدد السابق المعطل فأكملها العدد الموالي الذي حمل اسم "الشهاب" بدل "المنتقد" فقط. وهو بالذات ما نلمسه في مقال "الشهاب" الافتتاحي

(1) الشهاب، ج1، م11 المؤرخ بـ محرم 1345 هـ الموافق لـ: أبريل 1935م.

(2) Zoheir Ihaddaden, Histoire de la presse indigène en Algérie, Op Cit, p370

(*) انظر صورة لعدد من الشهاب في الملحق رقم15.

حين تعرض إلى خطة الجريدة فقال: رسمنا لأنفسنا خطة بيناها في جريدتنا المحتجة... تلك هي خطتنا التي لا نرى أفضل منها. ولا يمكننا أن نحيد قيد شبر عنها، ولا حاجة بنا اليوم إلى إعادة نشرها >>. ثم في قوله في تحدّ وتشف في الوشاة وإدارة الاحتلال فقد وقف "المنتقد" ولكن الفكرة الحقة السلمية الاصلاحية لم تقف ولن تقف.. وقف "المنتقد" فهامو أخوه "الشهاب" (1).

لماذا الشهاب؟

ولم يكن مسمى "الشهاب" اتفاقيا وإنما كان تلخيصا لمبادئ، وبرنامجا لمشروع محدّد وقد عبّر ابن باديس بكل صراحة عن مقصود العلماء منه: فهو "شهاب" في سماء الحرية والأخوة والمساواة، أصول شيدّها الإسلام ومات في سبيلها أبناء فرنسا الأحرار... "شهاب" ينجلي بنوره الجهل والخرافات والأوهام عن شمس الدين والمدنية المشرقة السنّاء، وينير سبيل الحق والهداية لدعاة الإصلاح والرشاد.

"شهاب" رصد على الدين الصحيح من أن تلمسه أيدي دجاجلة السوء وأنصار البدعة بأذى. "شهاب" ناقب يقذف به كل شيطان رجيم وأفكك أئيم ودجال مارق وقات منافق، فيحترق من عاند واعتدى ويسلم من اقتدى بإخوانه من الجن لما لمسوا فوجدوها ملئت حرسا شديدا وشهبا >> (2).

وإذا كنا نلمس في "الشهاب" حرارة التصريح في الهجوم على الوشاة من رؤساء الصوفية والأئمة الرسميين فإننا نلمس في المقابل اصطناعا واضحا من المرونة السياسية البارعة، وخفة اللهجة عنها في "المنتقد" إزاء سلطة الاحتلال الفرنسي فقد صرّح ابن باديس يقول: >> هذه هي جريدتنا اليوم التي سنخدم بها ما هو خير ونافع للأمة الجزائرية وحكومتها الفرنسية.. ورجاؤنا من حكومتنا الفرنسية ورجالها الأحرار أن يتحققوا إخلاصنا كجزائريين برهنوا في جميع المواقف على حسن نواياهم نحو أم الوطن وإننا لا نريد إلا أن نعيش مع جميع أبناء فرنسا في حرية وأخوة ومساواة، متحايين متعاونين على

(1) الشهاب، ع 1 المؤرخ بـ 25 ربيع الثاني 1344 هـ الموافق 12 نوفمبر 1925م. ص 1.

(2) المكان نفسه.

ما فيه سعادة الجميع»(1).

وقد لاقت الشهاب من السلطة مرة ومن علماتها مرة أخرى «ما لاقت من العناء والبلاء فبنتت وصبرت وصابرت وثابرت على العمل تشد مرة وتلين أخرى»(2).

الشهاب جريدة ثم مجلة:

لقد استقبل الجزائريون "الشهاب" بارتياح وتفاؤل كبيرين وخاصة منهم الشباب في قسنطينة المثقفون بالثقافة العربية، الأمر الذي شجع إدارة الشهاب إلى تطوير الجريدة وتحقيق الأحسن فالأحسن لها. فأصبحت تصدر مرتين في الأسبوع وعلى ستة صفحات بعدما صدرت أسبوعية في أربع صفحات، واتخذ شكل عنوانها نجمة حماسية بداية من العدد 11، وتحول "الشهاب" شيئا فشيئا إلى ثمانى صفحات ثم 16 صفحة ثم 24 صفحة ليصبح بداية من العدد 75، (16 ديسمبر 1926) عبارة عن مجلة شهرية تصدر في 36 صفحة ثم 40، 56، 64 صفحة(3). وقد صدرت منتظمة حتى عدد سبتمبر 1939 (مع تسجيل فترات محل قصيرة تعود لأزمات مالية طارئة). وقد صدر آخر عدد منها في أوت 1939م. ويعلق ابن باديس عن الأزمات المالية المتتالية التي تعرض لها الشهاب وخاصة منها الأزمة التي صدمته في سنته الرابعة حين تحول من صورته الأسبوعية إلى الشهرية يقول: «سلخ "الشهاب" زهاء أربع سنوات أسبوعيا، وإذا لم يصل إلى غايته كما يجب فقد قام -بأمانة الله- بأعبائها كما يجب. وفوق المستطاع. ولقد غالبته الظروف بما لها من قوة وسلطان. ولقد قاومها بما له من حق وإيمان. ولوحاربه بغير المال لخرج كعادته غالبا منصورا ولو أراد الاستكثار من هذا السلاح من كل وجه، لكان نصيبه منه نصيبا موفورا، ولكنه عف وتكرم فكانت الغلبة عليه.

أجل قد قهرته الظروف فغيرته من صورته الأسبوعية إلى هيئته الشهرية، ولكنها

لن تستطيع -بإذن الله- أن تمس ضميره بسوء...

(1) الشهاب، ع، المورخ بـ 25 ربيع الثاني 1344 هـ الموافق 12 نوفمبر 1925م، ص 1.

(2) الشهاب، ج، 1، م، 11، المورخ محرم 1354 هـ الموافق لـ: أبريل 1935م.

(3) الشهاب، ج، 12، م، 5، المورخ بـ: شعبان 1348 هـ- الموافق لـ جانفي 1930م.

تستطيع الظروف تكييفنا، ولا تستطيع بإذن الله، إتلاقنا» (1).

ويقرّ ابن باديس حقيقة هامة للتاريخ والعبرة في حق "الشهاب" يقول: أنها ما عَطَّتْ حرفاً إلا بوحي ضميرنا واقتناع منها، لا بوحي ناحية ولا لارضائها، وما أنفقت فلساً إلا من مالها وكبسها لا من مال ذي غاية، ولا من كيس أية هيئة» (2).

والواقع أن "الشهاب" لم تتبع أسلوب اصطناع المرونة إلا في سنواتها الأولى إحصاءاً منها لألسنة الرشاة، وتفويتنا لفرصة تعطيل الجريدة من طرف إدارة الاحتلال التي لم تكن تستسيغ لهجة المواجهة الصريحة، وكانت تخاف من اتساع تيارها العنيف. والذي عطل بسببه "المنتقد" الشهيد كما يسميه ابن باديس ويذكره في كل المناسبات مع أخيه "الشهاب" (3). وقد مرت "الشهاب" إلى الصراحة والمواجهة مع الأحداث التي كانت تنفعل بها وتقود معركة بيان حقائقها. فقد صدرت أول الأمر تحمل هذه المبادئ: مبدؤنا في الإصلاح الديني والديني « لا يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها » وتحت مبادرته: الحق والعدل والمواخاة في إعطاء الحقوق للذين قاموا بجميع الواجبات، وكانت الأركان الأربعة للغلاف تحمل الكلمات التالية: الحرية، العدالة، الأخوة، السلام. فخذفت هذه الكلمات منذ عدد أفريل 1935م. وبداية من 1937م ظهر شعار الحملة الجديد مكتوب في أسفل الغلاف الخارجي: « لنعوّل على أنفسنا ولنتكلم على الله ». وهو تعبير عن مشاعر اليأس من وعود فرنسا ومؤشر ناضج للتفكير في وسيلة نهائية للتغيير، عبّر عنها ابن باديس نفسه « بالتضحية والمغامرة والتي علّق عليها الأستاذ أحمد حماني عضو الجمعية بقوله: فمهي المغامرة في ميدان الكفاح إلا الثورة المسلحة وأي تضحية ينوه بها ابن

(1) الشهاب، ج 1، م 5، 1348هـ الموافق فيفري 1929، ص 1.

(2) الشهاب، ج 1، م 11، 1345هـ أفريل 1935م، ص 1.

(3) منها مثلاً أنه ذكره خمس مرات بصفة "المنتقد الشهيد" في فاتحة السنة الرابعة عشر لجملة الشهاب، ج 2، م 14،

محرم 1357هـ الموافق لـ مارس 1938م.

باديس ويهدّد بها إن لم تكن التضحية بالنفوس >>(1).

وقد انتظم صدور مواضيع الشهاب -المجلة- ضمن عشرة أبواب قارة كما أعلن عنها ابن باديس نفسه هي كما يلي: مجالس التذكير، ورسائل ومقالات، ومجتميات من الكتب والصحف، وفي المجتمع الجزائري، ونظرة عالمية والمباحثة والمناظرة والفتوى والمسائل، وأخبار وفوائد، وقصة الشهر وثمار العقول والمطابع (2). مع إضافات أخرى أحيانا كلما اقتضى الحال.

وقد أنشأت "الشهاب" لتكون لسان حال الحركة الاصلاحية ولترافقها في جميع مراحلها. فلما أسست جمعية العلماء المسلمين الجزائريين أصدرت لها قرارا سنة 1933م يقضي بتخصيص جزء منها تنشر فيها خطبها ومحاضرتها، وفتاويها وجميع منشوراتها العلمية. فكانت من ثمة جريدة الجمعية غير الرسمية، يقول عنها الابراهيمى ومجلة "الشهاب" داعية إلى الحق في الدين والدنيا، صادقة الحملة على الضلال في الدين والسياسة، متحدية للاستعمار وهو في عنفوان طغيانه وكانت حليتها الفاخرة إعلانها لآراء الإمام عبد الحميد بن باديس في الدين والسياسة أو في فصول من تفسيره للقرآن بقلمه البليغ(3). ويقول ابن باديس بأن "الشهاب" في كل ذلك >> لم تهن لها عزيمة في موقف من المواقف التي تخور فيها العزائم وترجف الأفئدة، ولم يكب لها قلم في ميدان من الميادين التي تنعقد فيها الألسنة وتجمد القرائح >>(4).

و"الشهاب" من أطول صحف الجمعية عمرا فقد استمرت من 1925م إلى 1939م، حيث آثرت جمعية العلماء نفسها تعطيلها اختيارا كما أشار إلى ذلك الإبراهيمي(5)، ويبدو حسب زهير إحدادن أن توزيعها بلغ 2000 نسخة في 1930م وكان هذا الرقم في ازدياد متواصل(6).

(1) أحمد حماني، المصدر السابق، ج2، ص 262.

(2) الشهاب، ج1، ص5، 1348هـ الموافق فيفري 1929، ص 1.

(3) آثار محمد البشير الابراهيمى، مصدر سابق، ج4، ص 234.

(4) الشهاب، ج9. 10مؤرخ - جمادى الأول 1353هـ الموافق لـ 12 أوت 1934، ص 1.

(5) المكان نفسه

(6) Zoheir Ihaddaden, Histoire de la presse indigène en Algérie, Op Cit, p 374.

وتجدر الإشارة إلى أن ابن باديس هو الذي كان يغطي العجز الدائم للمجلة من ماله الخاص ضمانا لحياتها المتألفة، ولم تعد "الشهاب" إلى الصدور بعد الحرب العالمية الثانية.

يقول الأستاذ عبد المالك مرتاض عن قيمة "الشهاب" بأن مجموعة هذه المجلة عبارة عن دائرة معارف جزائرية بالمفهوم الواسع، إذ يظفر فيها القارئ بكل ما يتصل بالسياسة الجزائرية والثقافة الجزائرية، والنهضة الجزائرية والمجتمع الجزائري بوجه عام، أثناء حقبة معينة من التاريخ (1). وتبدو هذه الأهمية السياسية والتاريخية فيما أشار إليه عبد الحميد بن باديس في فاتحة السنة الرابعة عشر للشهاب وخاصة عندما ذكر أن مجلدات "الشهاب" الماضية سجل يحفظ اسم كل نائب وقف موقفا مشرفا يطلب حقا أو يدافع باطلا، "فالشهاب" ينوه بكل عامل ويشيد بذكره، ويهيب دائما بلزوم المحافظة على شخصية الأمة وعدم التساهل في شيء منها والمصارحة في كل موقف بأنها أمة لها لغتها ولها دينها... (2).

جريدة السنة النبوية المحمدية(*):

بعدما تأسست جمعية العلماء في 1931م قررت خوض ميدان الصحافة، فأنشأت صحيفة "السنة النبوية" لتكون اللسان الرسمي الناطق عنها، وقد ظهر العدد الأول في يوم الاثنين 8 ذي الحجة 1351هـ الموافق لـ 10 أبريل 1933م (3) لتصدر في الاثنين من كل أسبوع. وجاء في شعارها المتكون من آية هي قوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ (4). وحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من رغب عن سنتي فليس

(1) عبد المالك مرتاض، نهضة الأدب العربي المعاصر في الجزائر، مرجع سابق، ص 98.

(2) الشهاب، ج2، م14، المؤرخ بـ محرم 1357هـ الموافق مارس 1938م (المقدمة).

(*) انظر صورة لجريدة السنة النبوية في ملحق رقم 16.

(3) جعله الأستاذ محمد ناصر مخططا في أول مارس 1933م، انظر الصحف العربية الجزائرية مرجع سابق، ص 130.

وقد توفر للباحثة المجموعة الكاملة لجريدة السنة النبوية التي استقت منها معلوماتها الخاصة.

(4) الأحزاب، 21.

مئي» (1) يتوسطهما مسمى الجريدة : « السنة النبوية المحمدية لسان حال العلماء المسلمين الجزائريين ».

وقد أشرف على الجريدة رئيس جمعية العلماء الإمام بن باديس نفسه، أما رئاسة تحريرها فقد تكفل بها الشيخ الطيب العقبي والشيخ محمد الزاهري وكل منهما من أقطاب الحركة الإصلاحية في الجزائر اشتهر الأول بخطبه الحماسية المؤثرة كما رأينا واشتهر الثاني بكتابه الإسلامية الراقية.

لماذا جريدة السنة النبوية المحمدية؟

أول ما يتبادر للملاحظ أن مسمى "السنة النبوية المحمدية" هو تعريض واضح لما تقوم به « جمعية علماء السنة» (2). وهم مجموعة من مشايخ الطريقة انضموا إلى جمعية العلماء في بداية تأسيسها ثم انشقوا عنها في السنة الثانية وكونوا هذه الجمعية بعد ما أثاروا كثيرا من المكائد والضجيج. وكان لسان حال هذه الجريدة تبصير الأمة الجزائرية بحقيقة "السنة المحمدية" وتنبهها إلى خطر "جمعية علماء السنة" التي لم تكن إلا أداة طيعة في يد الاحتلال الفرنسي وإدارته في تشويه الإسلام والكذب على الرسول صلى الله عليه وسلم.

وقد بين ابن باديس في فاتحة العدد الأول للجريدة في مقال عنوانه: بواعثنا- علمنا- خطتنا- غايتنا، الهدف من إنشاء هذه الجريدة قال: « رأينا كما يرى كل مبصر ما نحن فيه معشر المسلمين من انحطاط في الخلق، وفساد في العقيدة، وجمود في الفكر، وعود عن العمل والمخلاق في الوحدة، وتعاكس في الوجهة، وانفراق في السير حتى خارت النفوس القوية وفترت العزائم المتقدمة، وماتت المهمة الوثابة، ودفنت الآمال في صدور الرجال واستولى القنوط القاتل واليأس المميت... ففزعنا إلى الله الذي لم تستطع هذه

(1) أخرجه مسلم. أنظر: صحيح مسلم كتاب النكاح، باب استحباب النكاح لمن تأقت نفسه إليه، ووجد مؤمنة، واشتغال من عجز عن المؤن بالصوم، المرجع السابق، ج2، ص 1020.

(2) وقد أسس هؤلاء جريدة "الاخلاص" 1932-1933م تحت رئاسة المولود بن الصديق الحافظي، وبعدها مباشرة جريدة "المعيار" 1932-1933م. وكان كل منهما للاعتقاد من حزب الإصلاح المقصود به جمعية العلماء، وامتازت الثانية خاصة ببناءاتها.

الأهوال والمصائب كلها أن تمس إيماننا به، وترزعزع ثقتنا فيه.. فهدانا إلى المنهاج الواضح الأقوم، هدانا إلى سيدنا وقدوتنا الأعظم سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم.. فكانت دعوتنا -علم الله- من أول يوم إليها، وقد زدنا من فضل الله أن أسسنا " السنة النبوية المحمدية " لتنتشر على الناس ما كان عليه النبي صلى الله عليه وسلم في سيرته العظيمة، وسلوكه القويم... فما نحن نتقدم بهذه الصحيفة للأمة كلها على هذا القصد وعلى هذه النية: عملنا نشر " السنة النبوية المحمدية " وحمائتها من كل ما يمسه بأذية، وخطتنا الأخذ بالثابت عن أهل النقل الموثوق بهم، والاهتداء بفهم الأئمة المعتمد عليهم، ودعوة المسلمين كافة إلى السنة النبوية المحمدية.. حتى يكونوا للناس كما كان هو صلى الله عليه وسلم مثالا أعلى في الكمال <<(1).

وقد أدت جريدة السنة مهمتها كاملة ضمن ما أعلنته من خطة ومبادئ، وفي لهجة حارة لم يتعود الاحتلال الفرنسي سماعها، فبدأ بشن حملة من المضايقات الجائرة ضد أشخاص العلماء مدفوعة من طرف "جمعية علماء السنة" وبناء على طلبهم أصدر الكاتب العام لولاية الجزائر منشورا مؤرخا بـ 16 فيفري 1933م يقضي بمنع علماء الجمعية من الوعظ والارشاد في المساجد، والسماح بذلك فقط "للعلماء" الذين تعيّنهم السلطات الاستعمارية وكونت السلطة -من أجل السّهر على تطبيق هذا القرار- لجانا في كل عمالة من العمالات الجزائرية الثلاث(2). ولم يتأخر قرار تعطيل "السنة" عن الصدور وقد أصدره وزير الداخلية الفرنسي. وحجزت الشرطة الفرنسية الأعداد الموجودة منها في السوق فعلا. وكان العدد 13 منها -والأخير- ر بتاريخ 3 جويلية 1933م وكعادة العلماء فقد سارعوا إلى إصدار جريدة أخرى تخلفها في كل شيء، لكن بعنوان جديد هي "الشريعة النبوية المحمدية" التي افتتحها ابن باديس بمقال ينعي فيها اختفاء "جريدة السنة" ويشير بحلول "جريدة الشريعة" يقول فيه : << روعت الأمة بنيا تعطيل جريدة "السنة" بقرار من وزير الداخلية، وتقاطرت على الإدارة رسائل الاستياء والتعجب. ولم يكن تعجب الناس

(1) السنة النبوية، السنة الأولى، ع1، المؤرخ بـ الاثني 8 ذي الحجة 1351هـ الموافق لـ 10 أبريل 1933م.

(2) محمد ناصر، الصحف العربية الجزائرية، مرجع سابق، ص 132 بتصرف.

من تعطيل جريدة دينية بعيدة كل البعد عن السياسة دون اسيائهم من عرقلة جمعية العلماء المسلمين الجزائريين من عملها الديني التهذيبي الذي ذافت الأمة حلاوته، وشاهدت جميل أثره ويضيف: أما نحن فقد شاركنا الأمة في الاستياء ولم تشاركها في التعجب. إذ أن قرار التعطيل هذا كان منتظرا أو متوقعا لكن الذي أثار العلماء هو التبدل العظيم والانقلاب السريع من إدارة الاحتلال نحو الجمعية» (1). ويشير المقال بهذا إلى أن سلطة الاحتلال قد قصدت بهذا التعطيل مناوئة الجمعية ومضايقة رجالها وعرقلة أعمالها لتفطنها لأهدافها الحقيقية وخطورتها على مستقبل فرنسا نفسها في الجزائر، ولولا كان الواقع يستند إلى معطيات وشاية جماعة "الاخلاص" و"المعيار" كسبب. وكما أمنت الجمعية في كشف هؤلاء الوشاة بالتلميح والتصريح، فإنها أمنت في اصطناع المداينة والمرونة لكسب ثقة إدارة الاحتلال وتحسيسها بخطئها إزاء جمعية العلماء ورجالها، يقول ابن باديس:

>> فما ينقم منا الناقمون؟ أينقمون علينا تأسيس جمعية دينية إسلامية تهذيبية تعين فرنسا على تهذيب الشعب وترقيته، ورفع مستواه إلى الدرجة اللاتقة بسمة فرنسا ومدنيته وتربيتها للشعوب وثقيفها؟ فإذا كان هذا ما يتقمون علينا أساؤوا إلى فرنسا قبل أن يسيئوا إلينا. وقد دلوا على رجعية فيهم وجمود لا يتناسبان مع المبادئ الجمهورية....

أفظنتم أن الأمة الجزائرية ذات التاريخ العظيم تقضي قرنا كاملا في حجر فرنسا المتعدنة ثم لا تنهض بجنب فرنسا تحت كنفها يدها في يدها، فتاة لها من الجمال والحيوية ما لكل فتاة أنجبته أو ربته مثل تلك الأم؟...

أم هالككم أن يكون في أبناء الجزائر الفرنسية من لا يزجره عن مبدئه وعد ولا وعيد ولا يستهويه رنين ولا زخرفة؟ فنبشركم بأن الجزائر المفطورة على مبادئ الاسلام، والمتغذية بمبادئ فرنسا، أنجبت وتنجب رجالا كما رأيتم وفوق ما تظنون: رجالا تفتخر بهم فرنسا كما تفتخر بسائر أبنائها الأحرار....

إلى أن يقول... ومهما تبدلت اعتقاداتنا في أناس بتبدل معاملتهم لنا فلن تبدل ثقنتنا بفرنسا وقانونها وعلى ثقنتنا بعدالة فرنسا وحرية الأمة الفرنسية وديمقراطيتها، أسست

(1) الشريعة المحمدية، السنة الأولى، ع 1 يوم الاثنين 24 ربيع الأول 1352هـ الموافق 17 جوان 1933.

جمعية العلماء، وأسست جريدة "السنة" المعطلة وأسسنا اليوم بدلها جريدة "الشريعة المطهرة" (1).

ومعاني هذا المقال مع صراحتها وتلميحاتها، مفتوحة لاستيعاب كل التحاليل الدقيقة، وتأكيد حقائق الواقع المر الذي يعاني منه الشعب الجزائري طيلة قرن من الزمن تحت احتلال تدميري يدعي في كل مناسبة مهمة تمدين الجزائريين الذين لم ينلهم من ذلك شيء طيلة قرن كامل بل كلما حاول النهوض، خلقت القوانين لتجهض محاولاته بالمضايقة والتعطيل....

جريدة "الشريعة المحمدية" (*)

صدر العدد الأول من جريدة "الشريعة المحمدية" بعد أربعة عشر يوما فقط من تعطيل "السنة النبوية المحمدية" وكان ذلك في يوم الاثنين 24 ربيع الأول 1352هـ الموافق لـ: 17 جويلية 1933م، وقد اقتضى من فريق التحرير بها القديم، تغيير شعار الجريدة فقط، كما يتطلبه اسمها فكسنت الآية الكريمة ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعةٍ مِّنَ الْأُمْرِ قَاتِبًا﴾ (2) لتكون الشريعة نسخة أخرى من جريدة "السنة" المعطلة.

وقد وضع ابن باديس في مقاله الافتتاحي في صراحة بأن الجمعية ستمضي في طريقها الذي خططته بنفسها محققة الغاية التي من أجلها وهي: «نشر العلم والفضيلة ومقاومة الجهل والرذيلة» وتثقيف الشعب الجزائري ورفع مستواه العقلي والخلقي والعلمي»، كما صرح بأن جريدة "الشريعة" لم تؤسس إلا لتخلف جريدة السنة المعطلة «وأنها ستقوم مقامها وتحل من القلوب محلها» (3). ومن ثمة فكان لابد أن يكون مصير "الشريعة" هو نفسه المصير الذي آلت إليه "السنة" قبلها.

فقد كانت جريدة "الشريعة" إذا تحمل قرار التعطيل في افتتاحيتها نفسها كما يقول

(1) الشريعة المحمدية، ع1، مصدر سابق، ص 1.

(*) انظر صورة لجريدة الشريعة المحمدية في الملحق رقم 17.

(2) الجانية 18.

(3) الشريعة المحمدية، المصدر السابق، ص ن.

الأستاذ محمد ناصر(1) وقد أكدت افتتاحية العدد الأول من "الصراط السوي" أن طلب تعطيل "الشريعة المحمدية" كان قد قَدَمَ بداية من صدور أول عدد منها (2). وما إن صدر العدد السابع منها حتى صدر فعلاً قرار التعطيل في تاريخ 29 جويلية 1933م أي بعد صدور عددها السابع -الأخير- بتاريخ الاثنين 7 جمادى الأولى 1352 هـ الموافق لـ : 28 جويلية 1933م. فلم تعمر الشريعة المحمدية (*) إلا واحد وأربعون يوماً فقط.

جريدة الصراط السوي (**).

بدل أن تصدر جريدة "الشريعة المحمدية" في عددها الثامن صدر مكانها العدد الأول من جريدة "الصراط السوي" يوم الاثنين 21 جمادى الأولى 1352 هـ الموافق لـ 11 سبتمبر 1933م، وهي نسخة أخرى لجريدة الشريعة وللسنة قبلها. وقد توسط اسمها الآية الكريمة التي اختير منها : ﴿ قُلْ كُلُّ مُتَوَبِّعٍ قَتَرَبَّعُوا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَهْمَابُ الصَّرَاطِ السَّوِيِّ وَمَنِ اهْتَدَوْ ﴾ (3). ولم يكن فريق التحرير هذه المرة في حاجة إلى تذكير القراء بأن "الصراط السوي" ستقوم مقام الشريعة المحمدية وأنها ستسير على خطتها وأهدافها المعلن عنها في افتتاحيتها -وأختها السنة قبل- وربما أتروا ذلك حتى لا يحملوا "الصراط" قرار تعطيلها فيها أيضاً، ثم أنهم لم ينعوا للقراء اختفاء الشريعة وبدلاً من ذلك فقد أصدروا العدد الأول من "الصراط" بالتعليق على تصريحات الوالي العام الفرنسي، الذي حاول فيه التملص من مسؤولية العراقيل الإدارية والملاحقة البوليسية لأعمال جمعية العلماء فقد أكد «أنه ليس ضدها ولا يقاومها بأي نوع من أنواع المقاومة» وأشار «من طرف خفي وبدون أدنى تصريح بأن كل الأعمال التي وقعت في المسألة الدينية وضد علماء الجمعية وغير ذلك إنما هو صادر عن إدارة العمالة، وهذه تابعة رأساً لفرنسا» (4). وقد علّق ابن

(1) محمد ناصر، الصحف العربية الجزائرية، مرجع سابق، ص 153.

(2) الصراط السوي، ع1، المورخ بـ الاثنين 21 جمادى لأولى 1352 هـ الموافق لـ: 11 سبتمبر 1933م، ص 2.

(*) تتوفر لدى الباحثة المجموعة الكاملة لجريدة الشريعة المحمدية.

(**) انظر صورة لجريدة "الصراط السوي" في الملحق رقم 18 .

(3) طه، 135.

(4) انظر: الصراط السوي، ع1، المصدر السابق، ص1.

باديس على هذه التصريحات بقوله : « كنا ومازلنا على ثقة من نبل غايتنا واستقامة طريقتنا فيما أسست له جمعيتنا من نشر العلم والفضيلة ومحاربة الجهل والرديلة »(1)، ليؤكد بالتالي على أن جمعية العلماء سائرة قدما لتحقيق غاياتها على عخطتها المرسومة وأن إجراءات التعطيل تلك، ما هي إلا عقبات طريق لا تأثير لها على الايمان العميق للعلماء في أداء مهامهم المقدسة.

ومع ذلك فلم تكن إدارة الإحتلال تصريحات الوالي العام، ولا ضغط برقيات الإحتجاج التي وجهتها جمعية العلماء إلى السلطات الحاكمة المسؤولة في كل من الجزائر وباريز(2)، ولا رفع قضية لدى مجلس الدولة الأعلى، ضد قرار التعطيل(3). عن ملاحظتها الجائرة لنشاط الجمعية، فما إن صدر العدد السابع عشر - الأخير - من "الصراط السوي" المؤرخ بـ الاثني 22 رمضان 1352 هـ الموافق لـ : 8 جانفي 1934م حتى عطل، وقد سبق بقرار في هذا الشأن من وزارة الداخلية مؤرخ بـ 23 ديسمبر 1933(4). ولكن قرار تعطيل "الصراط" لهذه المرة كان بصفة تحول بين الجمعية وبين إصدار أية جريدة أخرى بأية صفة وعلى أية طريقة كانت ومما جاء فيه: « وحيث أن وجود هذه الجريدة أنبأ عما يخالف النظام العام في الأوساط الأهلية بالقطر الجزائري، وبناء على التقرير الذي قدمه الوالي العام بالقطر الجزائري أمرنا بما يأتي: إن نشر وبيع وتوزيع الجريدة العربية المسماة "الصراط" الصادرة بقسنطينة، ممنوع في القطر الجزائري. هذا المنع ينسحب على كل جريدة باللغة المذكورة وعلى المشرب المذكور، ويكون مركز تحريرها وإدارتها بالقطر الجزائري ولو كان صاحب امتيازها غير المقدم ذكره وطبعت بمطبعة أخرى(5).

وقد كان من نتائج هذا القرار القاسية على العلماء أن « وفتت الجمعية مغلولة

(1) الصراط السوي، ع1، مصدر سابق، ص 1.

(2) انظر نص الاحتجاج على قرار تعطيل "السنة المحمدية" لدى وزير الداخلية الفرنسي في جريدة "الشريعة المحمدية" ع1، مصدر سابق، ص2.

(3) المكان نفسه.

(4) محمد ناصر، الصحف العربية الجزائرية، مرجع سابق، ص 181. نقلا عن:

C. Callot, Le Régime juridique .

(5) انظر نص القرار في جريدة البصائر، ع94 المؤرخ بـ 7 جانفي 1938م.

اليد عن كل عمل هو في برنامجها العام ومن غايتها الشريفة التي أسست لأجلها» (1). وقد علق الابراهيمى عن هذا القرار بقوله: «>> وفي هذا القرار من العجائب أنه صرح بأن اللغة العربية لغة أجنبية في الجزائر، وأن كل جريدة تصدرها جمعية العلماء فهي معطلة من قبل أن توجد ولا يشبه هذا القانون المخنون إلا الحكم بالإعدام على من لم يخلق» (2).

وهكذا توقفت جريدة "الصراط السوي" بعد أن عاشت نحو أربعة أشهر فقط.

وبتعطيل "الصراط السوي" لم يعد لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين -في الظاهر- أية جريدة تكون لسان حالها، لكن الواقع، وبالإضافة إلى مجلة الشهاب -مجلتها غير الرسمية فإن هناك الكثير من الصحف ممن اعتنقت مبادئ الجمعية وعملت ضمن إطار خطتها الإصلاحية، وكانت ترد على أعداء الجمعية وتكشف حقيقة المناهضين لها. وقد ذكر محمد خير الدين عدد منها في تعرضه لصحافة الجمعية فقال: «وكان لبعض أعضاء جمعية العلماء نشاطهم الصحفي، فأصدروا صحفا طال زمن صدورها أو قصر من ذلك: جرائد لأبي اليقظان، كلما عطلت له جريدة عوضها بأخرى وهي: "ميزاب، وادي ميزاب، النور، النبراس، الأمة، المغرب، البستان" (*)، وجريدة "المغرب العربي" (**). للزاهري و"الإصلاح" (***) وللعقبى، و"الليالي" (****) لعلي بن سعد، و"الدفاع" للأمين

(1) جريدة البصائر، ع1، المؤرخ بـ 1 شوال 1354هـ الموافق لـ: 27 ديسمبر 1935م، ص 2.

(2) آثار محمد البشير الابراهيمى، مصدر سابق، ج4، ص 234.

(*) والذي يهمننا في هذه الفترة بالذات منها هي: "النور" الصادرة بالجزائر 15 سبتمبر 1931م، التي اختفت في 2 ماي 1933م، بعد 78 عددا. و"البستان" الصادرة في 27 فيفري 1933م، وعطلت في 12 جويلية 1933م بعد صدور 10 أعداد منها، و"النبراس" الصادرة بالجزائر في 21 جويلية 1933م وعطلت في 25 أوت 1933م بعد صدور ستة (06) أعداد منها. و"الأمة" الصادرة بالجزائر في 8 سبتمبر 1933م وعطلت بقرار من وزير الداخلية الفرنسي في 24 ماي 1938. انظر الزبير سيف الاسلام، ج6، مرجع سابق، ص77، ص82، ص87.

(**) "المغرب العربي" أصدرها حمزة بوكوشة، وربما كان سهوا من الشيخ خير الدين حين قال بأن مصدرها هو الزاهري، وقد ظهرت في ماي 1937م بتصرف. وتوقفت في السنة نفسها بعد 105 عددا فقط.

(***) الإصلاح العدد الأول في 8 سبتمبر 1927م بيسكرة، توقفت عدة مرات لعدة أسباب، وتوقفت نهائيا في 3 مارس 1948م.

(****) "الليالي" صدرت في فترة 1936-1937م.

العمودي بالفرنسية، والمرصاد(*) و"الشباب"(**) لمحمد عباسية زيادة عن "الشهاب" لابن باديس <<(1)>.

ومن ثمة فلم يخف صوت جمعية العلماء الصحفي وإنما امتد عبر عدة قنوات كانت -في قوة الدفاع عن الحق ومواجهة الإدارة الاستعمارية وعمالها من الجزائريين أنفسهم- ألسنة أخرى كثيرة من ألسنة جمعية العلماء غير الرسمية، وقد عطّلت معظم هذه الصحف أو ضيق عليها الخناق لتنتهي إلى الاختفاء وما يفسّر قصر عمرها هو أنها تدخل ضمن الجرائد التي حكم عليها قرار وزير الداخلية الفرنسي بالإعدام وشملها بقرار التعطيل الشامل ومع ذلك فقد سخرت جمعية العلماء من هذا القرار كما يقول الابراهيمي، وأصدرت -بعد مدة- جريدة البصائر فسكت الاستعمار ومحا قراره بيده <<(2)>.

جريدة البصائر(***)

بقيت جمعية العلماء دون جريدة رسمية من جانفي 1934م تاريخ تعطيل "الصراط السوي" إلى غاية 27 ديسمبر 1935م وهو تاريخ صدور أول عدد من الجريدة الجديدة للجمعية جريدة "البصائر" الذي جاء نتيجة مساعي الجمعية الحثيثة والمتواصلة لدى إدارة الاحتلال التي حققت لها مطلبها في جريدة تكون لسان حالها في فترة حكم السيد "ميو" "Miou" الذي كان عميدا لكلية العلوم الكبرى بالجزائر(3).

وكانت "البصائر" هي شعار الجريدة الجديدة المستوحى من الآية الكريمة ﴿قَدْ جَاءَكُمْ بِصَائِرٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ، وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِخَفِيظٍ﴾(4). على أنها جريدة دينية مديرتها ورئيس تحريرها الطيب العقبي، وصاحب الامتياز فيها، الشيخ محمد خير الدين.

(*) "المرصاد" صدرت في فترة 1931-1933م، وعطّلت في 11 نوفمبر 1933 بعد صدور 64 عدد منها.

(**) النبات: استمرت من 1934-1935م واختفت بعد صدور 50 عددا منها.

(1) محمد خير الدين، المصدر السابق، ج1، ص 298.

(2) آثار محمد البشير الابراهيمي، مصدر سابق، ج4، ص 234.

(***) انظر صورة لجريدة البصائر، في الملحق رقم 19.

(3) انظر جريدة البصائر، ع1، مصدر سابق، ص 2.

(4) الأنعام، 104.

صدرت "البصائر" لتكون أسبوعية في جمعة كل أسبوع أولاً ثم تصبح في اثنين كل أسبوع، في ثمانين صفحات، في مدينة الجزائر أولاً ثم نقلت إلى قسنطينة في 29 أكتوبر 1937 م بإشراف إدارة جديدة آلت إلى الأستاذ مبارك الميلي.

"والبصائر" بصائران فقد صدرت البصائر الأولى في أول شوال 1354 هـ الموافق لـ 27 ديسمبر 1935م واستمرت حتى 25 أوت 1939م عشية قيام الحرب العالمية الثانية، وقد عطلها العلماء أنفسهم: >> فعتلناها باختيارنا، لأننا لا نستطيع أن نقول مانريد، ولا نرضى أن نقول ما يراد منا، فلما انتهت الحرب وما استتبعه من نفي واعتقال أعدنا صدورها >>(1).

وقد بينت افتتاحية "البصائر" الثانية في عددها الأول أسباب احتجاب البصائر - الأولى- طيلة فترة الحرب، قالت: >> جريدة البصائر هي إحدى الألسنة الأربعة الصامتة لجمعية العلماء، تلك الألسنة التي كانت .. كلما أغمد الظلم لسانا منها سل الحق لسانا لا ينثلم ولا ينبو، وتلك هي: السنة والشريعة والصراط والبصائر، أسماء ألهم القرآن استعمالها، وفصلت القرائح، والأفلاح المسددة إجمالها....

وكان تعطيلها (البصائر) لأوائل هذه الحرب مثلاً شروداً في الحفاظ والإباء، ومنقبة بكرها في الكبرياء والعزة، ذلك أنه لما.. لوّح لها أن تجري على ما يراد منها، لا على ما تريد.. خار الله للقائمين عليها في ذلك التعطيل، كما خار لهم من قبل في تقرير السكوت ولعمري أن التعطيل، لخير من نشر الأباطيل.

... ولقد كانت الجمعية تعلم أن القوة التي تستطيع الإسكات لا تستطيع الانطاق، ولأن سكت العاقل مختاراً، في وقت يحسن السكوت فيه، خير من أن ينطق مختاراً في وقت لا يحسن الكلام فيه...>>.

وتضيف: إن بيع القلم واللسان أقبح من بيع الجندي لسلاحه، وأن جمعية العلماء حين قررت السكوت حافظت على هذين ولم تتسامح في تسخيرهما لأحد، على أنها ما سكتت عن درس ديني أو علمي ولا عن نصيحة رشيدة، ولا على موعظة حسنة وإنما قررت السكوت عن كل ما يقال لها فيه: قولي (2).

(1) آثار عماد البشير الابراهيمي، مصدر سابق، ج4، ص 234.

(2) محمد البشير الابراهيمي، عيون البصائر، مصدر سابق، ص 16-17-18.

وقد صدر 180 عددا من البصائر الأولى(1) وكان العدد الأخير منها مؤرخا بـ 25 أوت 1939م. وصدرت البصائر الثانية في 25 جويلية 1947م(2)، وكانت أطول عمرا من الأولى فقد استمرت عشر سنوات (1947-1956) حيث توقفت أثناء حرب التحرير الجزائرية عندما طلبت جبهة التحرير الوطني من كل المنظمات والأحزاب والحركات الوطنية أن تتوقف وتنضم إليها فكان ذلك <<(3).

وقد استقبل الشباب الجزائري البصائر -الأولى والثانية- وخاصة منهم أنصار جمعية العلماء في كل القطر الجزائري بالاستبشار والسرور المتزايد وقد سجلت البصائر -الأولى- ذلك الوقع الحسن في عددها الثاني بكل ارتياح، وساهمت بصدورها في تهدئة الأفكار وطمأنة الرأي العام الجزائري والذي اصطلاح على تسميته في دوائر الحكومة الفرنسية وعناوين جرائدها بالقلق الجزائري(4) وقامت إزاءه بإجراءات في جهاز دائرة الشؤون الأهلية بالذات حيث وضعت على رأسها السيد ميو Miou -كما ذكرنا- الذي أذن لعلماء الجمعية باصدار جريدة خاصة بعدما منعهم قرار رسمي من ذلك مدة عامين كاملين. وقد جاء في مقال بعنوان "جريدة العلماء": مرحبا "البصائر" تزيل الغشاوة عن الأبصار وتبهر البصائر بنور العلم الصحيح والدين القويم وتنشر الفضيلة الإسلامية فتجدد التحلي بها وتحمي ماغرسه الاسلام في النفوس أولا من عقائد ظاهرة وعزائم قوية وأخلاق إسلامية وآداب نبوية ظلت في الكتب بعد القرون الأولى وأبت أن تنتقل من صفحاتها إلى صفحات القلوب..

إن سرورنا اليوم بعودة هذه الجريدة التي تعرف ما تقول، وتكتب ما ينفذ ويسر ويعت الأمة على السعي في سبيل العلم والحياة وتغذم العلم والحث على طلبه وتسهيل الطرق إليه...<<(4).

(1) محمد ناصر، الصحف العربية الجزائرية، مرجع سابق، ص 198.

(2) عبد المالك مرتاض، نهضة الأدب العربي المعاصر، .. مرجع سابق، ص 113.

(3) محمد خير الدين، المصدر السابق، ج1، ص 299.

(4) البصائر، ع1، مصدر سابق، ص3.

وفي عودة "البصائر" الثانية للظهور قال الابراهيمى في مقال الافتتاح: >> إن (البصائر) في حقيقتها فكرة استولت على العقول، فكانت عقيدة مشدودة العقد برهان القرآن، ثم فاضت على أسلأت الألسنة، فكانت كلاما مشرق الجوانب بنور الحكمة، ثم جاشت على ألسنة الأقلام، فكانت كتابة في صحيفة، والذي تعطل من البصائر إنما هو المظهر الأخير من مظاهرها...

فسلوها (البصائر) كيف تركت جمعية العلماء وكيف وجدتها؟ وسلوها حين فتحت عينها عن الوجود الثاني، ماذا عرفت وماذا أنكرت من الناس والأحوال؟... فانظروا فستجلى لكم الحقائق كما هي، وستفصح المحبآت التي كثر فيها لغط اللاغطين، وستكشف دعاوى الزائفة التي تجري بها ألسنة المظللين >>(1).

ويبدو واضحا أن "البصائر" قد عمدت إلى خطة ذكية مزدوجة ظاهرها مسألة الحكومة الفرنسية وإظهار الثقة بها، وباطنها مواجهة محكمة وشديدة للموظفين الرسميين، ومشايخ الطرق والأحزاب السياسية التي تتلاعب بمقومات الأمة الجزائرية بالإنكار والانفلات منها، أو بالتحقير والمساومة ولذلك فلم يتعد مسمى "الجريدة الدينية" إلا عاما وبضع أشهر فقط، حيث سيختفي تماما من واجهة البصائر، التي تمر إلى الصراحة في كشف الحقائق والدعاوى الزائفة التي تجري بها ألسنة كل المظللين.

(1) محمد البشير الابراهيمى، عبون البصائر، ص 16 و 20.

خصائص صحافة جمعية العلماء

1- المطبعة ضمان للحرية والاستقرار والبقاء:

أول ما فكر فيه العلماء لجمع جهودهم وتنظيم نشاطهم كان في إيجاد جهاز منظم ومؤسسة مؤطرة تعمل بصفة رسمية جارية على قوانين وبرامج ومبادئ - وهو ما تحقق فيما بعد في مسمى جمعية العلماء المسلمين الجزائريين - اقتنعوا بوجوب التمهيد لهذه المؤسسة بواسطة صحافة وطنية حرة، وفكروا في وسيلة تضمن لها البقاء والحرية والاستقرار، فكانت أولى الخطوات الجبارة في هذا الميدان هو انشاء مطبعة خاصة بهم، وقد بادر عبد الحميد بن باديس إلى ذلك فكوّن المطبعة الجزائرية الإسلامية(*) بمعية تلامذة له وهم أعضاءها(1). في 16 أفريل 1925م(2). وبعد أن ضمن لصحافته المطبعة حتى يأمن الضغط عليها تسهل عليه إصدار "الشهاب" مباشرة بعد تعطيل "المنتقد" ثم بقية صحف الجمعية تباعاً، وقد استطاعت الجمعية بفضل المطبعة أن تتجاوز مشكلاً كان يمكن أن يحول دون اتصالها بالجماهير الواسعة، وأداء مهامها المختلفة إزاءها تحقيقاً لأهدافها السامية والمصرية. ورغم أن تلك المطبعة لم تكن راقية وكاملة الأدوات فإنها أدت مهمتها في بداية النهضة الجزائرية بما كانت تستطيعه بل وفوق ما كانت تستطيعه في تلك الظروف الصعبة، يقول الابراهيمى >> ولو أن نهضة كنهضة جمعية العلماء صاحبها مطبعة راقية كاملة الأدوات لتقدمت بها خطوات فساحاً، ولكانت أعود عليها بالنفع والخير من عشرات المدارس>>(3).

(1) وهم: خليل بلقشى، أحمد بوشمال، وإسماعيل صحراري، انظر مديرية الوثائق، نصوص أساسية ووثائق، المصدر السابق، واجهة الغلاف الخارجي. وقد أضاف أحمد حماني، شخصية رابعة هي "عبد الحفيظ الجنان" لكن يبدو ذلك خطأ.

(*) انظر صورة "المطبعة الإسلامية الجزائرية"، الملحق رقم 20.

(2) جعل أحمد حماني انشاء المطبعة الإسلامية الجزائرية قبل ظهور المنتقد، انظر كتابه الصراع بين السنة والبدعة، المصدر السابق، ج2، ص 238. وجعله عمار الطالبي، في نفس التاريخ الذي صدرت فيه الشهاب.

انظر كتابه المرجع السابق، ص 58. لكن الحقيقة غير هذه ولا تلك كما أظهرته الوثيقة الميّنة للمؤسسي المطبعة. انظر الملحق رقم 21.

(3) آثار محمد البشير الابراهيمى، مصدر سابق، ج4، ص 131.

ولأهمية المطبعة وخطورتها فقد جعلها الابراهيمى في مكانة المدفع في قوله: «> إذا كان المدفع قد انتزع من سيف البطل صولته، فإن المطبعة قد انتزعت من قلم الوراق دولته» ثم يوضح ذلك بقوله: «> المطبعة هي الغرة الشاذخة في مخترعات هذا العصر وعجائبه، بل هي أشرف المخترعات قدرا وأوسعها أثرا، يستغني عن غيرها في بعض الأوقات، وعند طوائف من الناس، ولا يستغني عنها في وقت من الأوقات ولا في حالة من الحالات، ولا عند أحد من الناس، فإذا قورنت بالمدفع في عموم النفع بزمته، لأن المدفع أداة حرب، والحرب دمار، والعلم عمار، ولولا المطبعة ما ارتقى علم ولا فن ولا صناعة ولا تجارة ولا عمران، ولولا المطبعة ما تمّ للنهضات العقلية والفنية تمام، ولولا المطبعة لما أحيا الخلف مآثر السلف فوصلوا بها حلقات التاريخ العلمي»(1).

ويبدو أن جريدة البصائر قد عانت كثيرا من افتقادها لمطبعة خاصة بها وقد أشرنا إلى أنها كانت تطبع بالعاصمة على المطبعة العربية لصاحبها أبي اليقظان، ثم انتقلت إلى قسنطينة لتطبعها المطبعة الإسلامية الجزائرية التابعة للجمعية. وقد تطلب نموها وكثرة قرائها أن تتوفر لها مطبعة خاصة بها وهو الأمر الذي دعا إليه الابراهيمى قراء الجريدة بل وجعله دينا في ذمة الأمة الجزائرية، فقال «> وما زالت جريدة "البصائر" منذ نشأت تتطلب من قرائها وأنصارها أن ينشئوا لها العنصر الضروري الذي لا تعيش ولا تنمو إلا به وهو مطبعة كاملة تتلاءم مع سمعتها ومنزلتها في نفوسهم، ومع كرامة اللغة التي هي حارسة بيانها ورافعة بنيانها، وما زالت "مطبعة البصائر" دينا في ذمة الأمة الجزائرية العربية وفي ذمة كل من يعرف للبصائر قيمتها ويربأ بها أن تكون كابين السبيل: له في كل ليلة مأوى»(2).

ويستحث الابراهيمى الجزائريين لأداء هذا الدين للبصائر لأنها لسانهم والمدافعة عنهم ضد الاحتلال الفرنسي يقول: «> لقد شهد لها (البصائر) الموافق والمخالف أنها أعظم جريدة ظهرت في المغرب العربي، وأنها أرقى أسلوبا وأسمى بيانا من كثير من جرائد المشرق العربي، وحسبنا شرفا في الموضوع أنها أحييت العروبة والتمجدد بها في النفوس،

(1) آثار محمد البشير الابراهيمى، مصدر سابق، ج4، ص 132.

(2) المكان نفسه.

وأحييت العربية وبيانها في الألسنة والأقلام وأنها تناضل عن أشرف مبدإ وهو الإصلاح بقسميه الديني والديني، ووجهت المسلم إلى أعظم هداية نزل بها كتاب وجاء بها رسول وهي هداية القرآن وحاربت أحيث عدو طرق البشرية، وهو الاستعمار فكيف لا تستحق مع هذا كله - ومثله معه - أن تقدم لها الأداة التي تتوقف عليها حياتها، وأن تقلد السلاح الذي يضمن لها النصر في المعترك الذي تقتحمه، وأن تدفع عنها أنصارها غضاضة الإيجاز عند الغريب أو عند الجار ومحنة الانتقال من دار إلى دار فينألف من ذلك برهان على أن الجزائر أصبحت تقيم الموازين القسط لما ينفعها فتشبطه ولما يضرها فتشبطه؟» (1).

2- صحافة الجمعية: عناوين عديدة لمبادئ واحدة

المتبع لمشاريع جمعية العلماء منذ التمهيد لانشائها، والمتبع لصحافتها قبل أن يصبح لها صحافة رسمية تكون لسان حالها، والمتبع لعناوينها، وفريق تحريرها مع كل صحيفة، ثم مضامين ومبادئ مواضعها لا يمكنه إلا أن يقرّ بأن كل شيء فيها يدل على أن علماء الإصلاح في الجزائر - علماء الجمعية فيما بعد - إنما التزموا فكرا وعقيدة ثم نشاطا وسلوكا يوميا، السير ضمن خطة محكمة المرجعية، واضحة المنهج، مرنة التعامل مع الخصوم والأعداء، وهي في كل ذلك صريحة الأهداف التي تتمحور في مقاومة الاحتلال الفرنسي على كل الجبهات، والعمل على القضاء عليه بكل ما توفر من وسائل واستعادة حرية الشعب الجزائري المسلوبة منه قهرا وتنكيلا.

فقد أعلنت "المنتقد" في عددها الأول مقالا يمكن وصفه بالتاريخي، إذ أنه لم يكن في حقيقته خاصا بصحيفة "المنتقد" فحسب وإنما بكل صحف جمعية العلماء، ومن ثمة فهو خاص بالحركة الإصلاحية المنظمة تحت لواء جمعية العلماء. وليس هذا من قبيل الحكم غير المرر أو التعميمي باعتبار أفكاره ومضامينه وإنما لأننا نجد عينه في افتتاحيات كل جرائد الجمعية، مما نستدل به بأن "المنتقد" و"الشهاب" إنما هما مرحلة تمهيدية لجمعية العلماء ومن ثمة فهما من روح مبادئ العلماء الذين انجبوا جمعية العلماء وانجبوا صحافتها الناطقة بلسانهم والمعبرة عن تلك الروح والمبادئ.

(1) آثار محمد البشير الإبراهيمي، مصدر سابق، ج4، ص 133.

ورد في افتتاحية العدد الأول من "المنتقد" المقال المذكور بعنوانه: «مبادؤنا وغايتنا وشعارنا». وجاء في افتتاحية العدد الأول من "الشهاب": «رسمنا لأنفسنا خطة بينها في جريدتنا المحتجبة.. تلك هي خطتنا التي لا نرى أفضل منها، ولا يمكننا أن نعيد قيد شبر عنها، ولا حاجة بنا اليوم إلى إعادة نشرها»، ثم قالت: «وقف المنتقد فهاهو أخوه الشهاب» (1).

وجاء في افتتاحية جريدة "الشريعة المحمدية" أن هذه الجريدة إنما أسست لتخلف جريدة "السنة المحمدية" المعطلة وأنها ستقوم مقامها في تحقيق ماخطته الجمعية من الغايات. وكذلك كانت جريدة "الصراط السوي" بالنسبة للشريعة المحمدية والسنة المحمدية قبلها. وقد صرحت "البصائر" الأولى في افتتاحيتها التي لم تكن في الواقع إلا افتتاحية العدد الأول من "الشريعة المحمدية" المعطلة نفسها، قالت: «أما خطتنا التي سنشير إليها فهي تلك الخطة المعلومة والمبينة في جرائد جمعية العلماء السابقة» (2).

فماهي هذه الخطة وهذه المبادئ التي بنيت عليها جمعية العلماء أسس صحافتها وكانت عتبه كل جريدة من جرائدها؟

مبادئ صحافة جمعية العلماء المسلمين الجزائريين:

صدر أول مقال في أول عدد من أول جريدة لجمعية العلماء، في الصفحة الأولى عنوانه: خطتنا: مبادئنا، وغاياتنا وشعارنا، افتتح بهذه العبارة: بسم الله ثم باسم الحق والوطن، ندخل عالم الصحافة العظيم شاعرين بعظمة المسؤولية التي تحملها فيه، مستسهلين كل صعب في سبيل الغاية التي نحن إليها ساعون، والمبدأ الذي نحن عليه عاملون...» (3) وشمل المقال ثلاثة عناوين فرعية:

- مبدؤنا السياسي
- مبدؤنا التهذيبي
- مبدؤنا الانتقادي.

(1) الشهاب ، ع1، المصدر السابق، ص 1.

(2) البصائر، ع1، المصدر السابق، ص 1.

(3) المنتقد، ع1، المصدر السابق، ص 1

أ- يبدو أن ابن باديس قد تعمد البدء بالمبدأ السياسي قبل التهذيبي والانتقادي للإشارة إلى أن هذه المبادئ -وغيرها- إنما تدخل بهذا الترتيب(*) تحت إطار مفهوم جمعية العلماء للسياسة وتبرر نشاطها من خلالها ثم للتأكيد على أن الصحافة قبل أن تكون أي شيء آخر فهي أولا "سياسة". فإذا كانت الصحافة الجزائرية عموما، والإصلاحية على وجه الخصوص، قد تأثرت بصحافة المعمرين فرنسية اللسان فإن أهم زاوية في ذلك التأثير هو اللهجة الحارة والعنيفة التي كانت هذه الصحافة تعالج بها مختلف القضايا المتعلقة بمستقبل المستعمرة وبالأحرى بكل ما يتعلق بسياستها سواء الداخلية أو فيما يرتبط منها بالمتروبول في باريز رأسا وكثيرا ما أشار الكتاب إلى هذه الحقيقة لكنهم سرعان ما كانوا يتغاضون عنها كلية عند التعرض إلى نشاط الجمعية ليصفوه بالديني عامة أو بتركيزه على محاربة الطرقية فحسب. وقد كان التركيز على المبدأ السياسي تحديدا لإطار النشاط الصحفي خاصة ثم مختلف وجوه نشاط الجمعية العامة فيما يتعلق بعرض وجهة نظر المسلمين الجزائريين -الأهالي- في واقع وضعيتهم وكذا مستقبل وطنهم وبالتالي بحث شؤونه السياسية العامة والخاصة بين المسلمين الجزائريين على صفحات الجرائد قصد إبلاغها للحكومة، وإن كانت هذه لم تهتم بوجهة نظر الأهالي من قريب أو من بعيد طيلة قرن من الزمن لانعدام وجود لسان يعبر عنها بقوة ويبلغها أيها، ومن ثمة فقد قامت الصحافة الجزائرية عامة لكن الإصلاحية منها على وجه الخصوص بذلك الدور الخطير في إطار من المعطيات الصريحة الواقعية المحددة بدقة.

>> نحن قوم مسلمون جزائريون، في نطاق مستعمرات الجمهورية الفرنسية»(1).

بهذه العبارة الصريحة يفتح ابن باديس مبدأه السياسي الذي سوف تكرر كل صحف الجمعية صراحة أو إشارة فيما بعد تكريسا لحقيقة الانفصال بين فرنسا والجزائر دينا وحدودا جغرافية وكل ما يتبع ذلك، ثم تأكيدا لحقيقة تاريخية تقول للجزائريين، نحن أصحاب هذه الأرض التي نخضع للاستعمار الفرنسي، واقتضاء لذلك يقول ابن باديس :

(*) في تعرضه للحديث عن جريدة "المتقدم" وبالذات عن المبادئ التي أعلن عنها في افتتاحية، لم يذكر إحدادن هذه المبادئ بالترتيب الذي أرادها لها صاحبها وإنما جعل المبدأ السياسي هو الأخير، انظر:

Zoheir Ithadadden, Histoire de la presse Indigène en ALgérie, Op Cit, p.366-367.

(1) المتقدم، ع1، المصدر السابق، ص 1

* فلأننا مسلمون >> نعمل على المحافظة على تقاليد ديننا .. نحرص على الأخوة والسلام بين شعوب البشر، وهذه من تقاليدنا وأهم مقومات قوميتنا >> ينتهي بالتعريض بتجاهل فرنسا الكامل لدين الجزائريين الذين تحكمهم ونتائجهم : >> وأن الحكومة التي تتجاهل دين الشعب، تسيء في سياسته وتجلب عليه وعليها الأضرار والأتعاب، بل ربما حصلت لها هزاهز وفن >> . وبعيدا عن أن يؤكد صراحة تهديده بهذه الهزاهز والفن كنتيجة لهذه السياسة الفرنسية في حق الشعب الذي تحكمه، يوضح ابن باديس موقع الدين من السياسة عند المسلمين يقول بأن >> الدين قوام للمسلمين، ومهيح شرعي لسلوكهم، ونظام محكم يعملون عليه في حياتهم وقوة معنوية يلتجئون إليها في تهذيب الأخلاق وقتل روح الإغارة والفساد، وإماتة الجرائم بينهم >>، ويقر من أنهم واجبهام نحوه في >> خدمته بنشر مبادئه الحقة العالية وتطهيره من كل ما أحدثه فيه المحدثون، والدفاع عنه من أن يحس بسوء من أهله أو من غير أهله >>(1).

* ولأننا جزائريون: فإننا نعمل للم شعب الأمة الجزائرية وإحياء روح القومية في أبنائها وترغيبهم في العلم النافع والعمل المفيد حتى ينهضوا كأمة لها حق الحياة والانتفاع في العالم وعليها واجب الخدمة والنفع للإنسانية. ولهذا... فإننا -نبذل غاية الجهد في خدمة وطننا الجزائري وتحبيب بنيه فيه ونخلص لكل من يخلص له، ونداوي كل من يناوئه من بنيه مون غير بنيه >>(1).

* >> ولأننا مستعمرة من مستعمرات الجمهورية الفرنسية: -منفصلين عنها ديننا وقومية وحدودنا- فنسعى لربط أواصر المودة بيننا وبين الأمة الفرنسية وتحسين العلائق بين الأمتين المترابطين بروابط المصلحة المشتركة بما يدخل ضمن واجبنا لخدمة الإنسانية جميعا، التي نستمددها مباشرة من تقاليدنا ومن مقوماتنا أي من واجب خدمتنا لديننا الإسلامي لا لشيء آخر >>(1).

ثم يصرّح المقال بلا مورابة وبجراحة متناهية... >> إن الأمة الجزائرية قامت بواجبها نحو فرنسا في أيام عسرها ويسرها، ومع الأسف لم نر الجزائر (وطنا وأمة) نالت على ذلك

(1) المتقد، ع1، المصدر السابق، ص 1.

ملاحظة: التسطير مقصود من الباحثة.

ما يصلح أن يكون جزاؤها .. إن لفرنسا ما يباهر القرن في الجزائر غير أنها -ويا للأسف- ليست لها تلك الأيادي ولا نصفها في تحسين حال الأهالي العلمي والأدبي (1).
ويضمّن هذه العبارات تدريجيا مطالب هي من حق الجزائريين على فرنسا المستعمرة :

- رفع المستوى العلمي والأدبي للجزائريين بتعميم التعليم الحديث
- تشريك الجزائريين في إدارة شؤون وطنهم الجزائري تشريكا صحيحا سياسيا واقتصاديا.

هكذا شرح المبدأ السياسي رغائب الشعب الجزائري للحكومة الفرنسية ، وطالبها بصدق وصراحة بحقوقه لديها.

ب- وجاء في المبدأ التهديبي: شرح وجهة نظر جمعية العلماء في كفيات تهذيب الأمة الجزائرية عن طريق الصحافة ووسائلها وكذا أساليبها في ذلك بعدما وصفت الواقع الجزائري الذي آل إلى الفساد والتأخر والجمود وهو بالذات ما يبرّر اتساع تلك الوسائل والأساليب حتى يتم بها إصلاحه وتقدمه وحياته، >> فنحن ننشر المقالات العلمية والأدبية وكل ما يغذي العقول من منظوم ومنثور من صحف الشرق والغرب وأقلام كتاب الوطن، ونقاوم كل معوج من الأخلاق وفساد من العادات ونحارب على الخصوص البدع التي أدخلت على الدين الذي هو قوام الإخلاص فأفسدته...
وعاد وبال ذلك الفساد علينا، وتأخرنا من حيث يكون تقدمنا، وسقطنا بما لا نرتفع إلا به كما شوهناه بإدخال ما هو ضده عليه...

ونحسن ما كان من أخلاق الأمم حسنا وموافقا لحالنا وتقاليدها ونقبله، ونقبّح ما كان منها قبيحا أو ميانا لمجتمعنا وبيئتنا ونرفضه، فلسنا من الجامدين في جحودهم، ولا مع المتفرجين في طفتهم وتنطعهم، والوسط العدل هو الذي نؤيده وندعو إليه... <<(1).

ج- أما المبدأ الانتقادي: فقد فرقّت جمعية العلماء بين أمرين في انتقادها للأشخاص، فما تعلق بأحوالهم الشخصية وأعمالهم العمومية فليس مما تتعرض إليها بالنقد

(1) المتقد، ع1، المصدر السابق، ص 1 بتصرف

ملاحظة: التسطرر مقصود من الباحثة.

وإنما ما يتعلق بسلوكهم، مما يمس شؤون الأمة وفيما يتولون فيه من قيادتها وتدبير شؤونها الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والعلمية والدينية، يقول المقال: >> وأما صفاتهم وأعمالهم العمومية فهي التي نعرض لها وننتقدها، فننتقد الحكام والمديرين والنواب والقضاة والعلماء والمقاديم، وكل من يتولى شأنًا عامًا من أكبر كبير إلى أصغر صغير من الفرنسيين والوطنيين، ونناهض المفسدين والمستبدين من الناس أجمعين، فننصر الضعيف والمظلوم بنشر شكواه والتنديد بمظالمه كائنًا من كان، لأننا ننظر من الناس إلى أعمالهم لا إلى أقدارهم، فإذا قمنا بالواجب فلاشخاصهم منا كل الاحترام >>(1). والتزم صاحب المقال بأن يكون النقد هادفًا إلى الحقيقة المجردة مبنيًا على الصدق والإخلاص والنزاهة والنظافة في الكلام.

ويختتم المقال بالتذكير بأن هذه المبادئ التي تلخصها خطة العلماء -هي مبادئ الصحافة الحرة التي هي قوة لا غنى عنها، ولا رقي لأمة ناهضة في هذا العصر بدونها.

ويعترف صاحب المقال بأن هذه المبادئ لا ترضي الكثير بل ستغضبهم ولكن صوت الواجب أولى من أن يرضى يقول: >> هذه مبادئنا وسيرضى عنا بها الأحرار والمفكرون أصحاب الصدور الواسعة والقلوب الكبيرة من الوطنيين والفرنسيين، وسيغضب بها علينا المستبدون الظالمون والدجالون المحتالون وصغار الأدمغة وضيقو الصدور من بغاث البشر.. ونحن بين الجميع لا نخدم إلا الحق والوطن والدين >>(1).

وبهذه المبادئ الصريحة، الغاية في الجراءة، دخلت جمعية العلماء بكل مسؤولية مجال الصحافة في وقت لم تألف فيه الآذان بعد كلمة الحق، الوطن، الحرية، الصمود.. ومع تصنع إيراد بعض العبارات الطريفة مثل: >> أن الجزائر في كنف أمة قوية عادلة متمدنه >>. أو >> غايتنا السامية وهي سعادة الأمة الجزائرية بمساعدة فرنسا الديمقراطية >> تبقى جراءة اللهجة وحرارة التأسف وانعقاد العزم على المضي في خدمة الدين والوطن تصرخ بالغاية البواح التي لخصها المقال في نهايته بقوله: >> صارحين دائما بشعارنا الرسمي وهو: الحق فوق كل أحد، والوطن قبل كل شيء >>(2).

(1) المتفق، ع1، المصدر السابق، ص 1

(2) المكان نفسه.

ومن ثم فليس غريبا أن تكون «جريدة "المنتقد" أول الجرائد العربية الجزائرية التي يضربها قرار التعطيل» (1). وتتبعها في ذلك كل جرائد الجمعية لأنها عرفت كيف تعبّر عن الغضب الجزائري وتواجه به الظلم الفرنسي بلغة يخافها الظالم، هي لغة الحق والحق وحده ويدرك تماما أنها إذا عمّت فهي قاضية عليه حتما لذلك عمل جاهدا على القضاء عليها منذ الولادة، وظلت جرائد الجمعية تسقط الواحدة فتخلفها الأخرى حتى كتب

لآخرها أن تعيش زمن الثورة الذي مهدت له.

أهم القضايا التي عالجتها جرائد جمعية العلماء:

مرت جمعية العلماء منذ نشأت فكرة ثم عقيدة ثم حقيقة واقعة بمراحل عدة تطلبت كل مرحلة منها الفصل في عدة قضايا وتقديم الحلول لعدة مشاكل في آن واحد، مما كانت تعرضه الساحة الجزائرية وقد كانت الصحافة إلى جانب بقية قنوات الجمعية الأخرى، شاهدا ومسجلا أميناً، ومتابعا للأحداث يقظاً...

وليس من غرض البحث أن يعرض لكل مرحلة وجرده أحداثها ومن ثمة جرد مواضيع الصحافة، ثم تحليلها و.. الخ وإنما سنعرض فقط لبعض أهم القضايا التي أبليت صحافة الجمعية في الوقوف عندها حتى تكاد تنطق الحكم عليها بوصفها قضية المرحلة مع أنها في النهاية كانت تدخل ضمن أولويات الجمعية والمصنفة حسب الأهم فالمهم مما كانت تتحين لها من الفرص بتوفر بعض المعطيات المحلية أو العالمية وبتحرك الرأي العام نحو بعض منها دون الآخر فيكون البتّ فيها سدا للثغرة تأمين التفهقر فيها لاحقا حتى يمكن أن يدفعنا ذلك إلى تصنيف هذه المراحل حسب أهمية -أو بالأحرى- أولوية معالجة تلك القضية تحت عنوان القضية المهيمنة فنقول مثلا المرحلة الدينية، المرحلة التربوية التعليمية، المرحلة الاجتماعية الاقتصادية لكن بمنعنا من ذلك تعدد قنوات الجمعية في علاج هذه القضية كل بأسلوبها ووسيلتها ثم توازي كل الأنشطة في البحث في عدد من القضايا الأخرى في الوقت نفسه. ولما كانت كلها تدخل ضمن وجهة نظر الجمعية للأزمة في الجزائر ومن ثمة منهجها في التحليل والتصنيف وتوجيه الاهتمام فإنها قد سجلت حضورا كاملا وطنيا وسياسيا بديلا للطروحات الاستعمارية من جهة، وعملاء الاستعمار من جهة

(1) Zahir Ihaddaden, Histoire de la presse indigène en Algérie , Op Cit p 369.

أخرى فكانت لسانا واحدا لكل الجزائريين - الشعب المظلوم في كل المراحل ولكل القضايا المعالجة.

جمعية العلماء وتجديد العقيدة الإسلامية لدى الجزائريين:

لقد بنى أفريق الباديسي سياسته في الإصلاح على إصلاح الفرد كأساس للإنطلاق، وهو يعتقد باستحالة صلاح الانسان >> ما لم يصلح المعاملة مع الله وما لم يعمل لله وحده ويستغيب بالله ويتصل بالله >>(1). وذلك هو الكفيل وحده بتحقيق السعادة في الدارين >> لأن الانسان إذا تلفت إلى جهات متعددة فإنه يصبح بلا إرادة وما الانسان إلا إرادة رغبة فإذا صلحت إرادته صلحت عزمته >>(1) واستقرار بسيط في لوضع المسلمين الجزائريين بين غياب إرادتهم كلية حيث مآل أمرهم وزمامهم بيد المحتل يسيرهم في كل شيء كيف يشاء، لذلك جعلت جمعية العلماء المسلمين الجزائريين من نفسها القيادة الروحية الرشيدة التي تعمل على يقظة هم المسلمين وتنبه شعورهم، وبعث قوة النفوس التي تستكن في الإرادات، وبناء العقول التي ستأخذ بأسباب القوة الروحية والمادية. ومادام الاسلام يقوم بالكيف ولا يقوم بالكم أولا فقد التزمت جمعية العلماء بإقامة ذلك الكيف على أصوله الحقيقية بأن تكون >> حركة إصلاح شامل للمفاسد النفسية، يتغلغل إلى مكان الأمراض فيها فيطهرها لينبئ العلاج على أصل صحيح. وإلى عروق نشر منها فيمتلحها ليأمن النكسة >> ويجعل الابراهيمي مرد ذلك كله إلى الأخلاق >> فهي أول ما نسد بيننا فتكون أول ما أفسد علينا كل شيء، فلتكن هي أول ما نصلح إن كنا جادين في تثبيت الوعي واليقظة والنهضة.. لأن الأخلاق إذا استقامت تفتحت البصائر للوعي، وتهبأت الشواعر للليقظة وانبعثت القوى للنهضة. فكان الوعي بصيرا وكانت البقظة عامة وكانت النهضة شاملة وكانت الحياة لذلك كله كاملة >>(2).

ومن ثم فقد ركزت صحافة العلماء في اصلاح المسلم الجزائري وتجديد عقيدته

على عدة جبهات في الوقت نفسه:

(1) آثار عماد البشير الابراهيمي، مصدر سابق، ج4، ص 168

(2) المصدر نفسه، ص 176.

أ- محرارة الطريقة: وقد بادرت أولاً إلى الجبهة الداخلية لرأب ما بها من تصدع أخلاقي وعقائدي، من تتبع مظاهر الانحراف والآفات الاجتماعية بالعرض والكشف ثم مواجهة البدع والمنكرات العامة والشعائر المستحدثة التي كانت تنشرها الطريقة «كبدع المساجد، وبدع الجنائز وبدع المقابر، وبدع الحج وبدع الاستبقاء وبدع النذور ووقفت منها وقفة المنكر المشدد الذي لا يخشى في الحق لومة لائم، في وقت أصبحت فيه هذه البدع ديناً مستقراً وعقيدة راسخة، فغيرت بالقول، وأغارت بالفعل، وبينت بالدليل، وقارعت بالحجة، وطبقت بالعمل متبعة في كل ذلك شعاراً واضحاً هو «إن كل محدثة في الدين بدعة، وكل بدعة ضلالة» (1).

وساهمت صحافة الجمعية في هذا المجال في جمع الجهود الفكرية لعلماء الجمعية في مواجهة الطريقة «على فكرة تستند على نظام مقرر وبرنامج محرر، وخاصة بعد تأسيس جمعية العلماء رسمياً» (2). وكانت هذه المواجهة من جهتهم معركة قلمية اتبعوا فيها أسلوب الصراحة والمواجهة، تناولوا منها مهمة التحليل العلمي والبحث الرصين والمقارعة بالحجة الدقيقة والدليل المقنع المعتمد على آيات القرآن الكريم، والأحاديث الشريفة وآثار السلف الصالح من الصحابة والتابعين مما تلخصه الآية الكريمة ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ (3).

وتدخل ضمن هذا الأسلوب مثلاً مقالات الإمام عبد الحميد بن باديس الذي اعتمدها في كتاباته ودعا كتاب الشهاب وعلماء الجمعية عموماً بالالتزام بالحكمة والمجادلة بالحسنى وخاصة بعد أن أخذت المعركة الكلامية بين العلماء المصلحين وشيوخ الطريقة وأنصارهم منحى خطيراً نزل إلى التنابز وجرح العواطف ومسّ كرامة الأشخاص... «نقول لجميع الكتاب من الجانبيين بلسان الدين، والأخوة الإسلامية هذه الكلمة:

أقلعوا عن المهاترة والمشاغمة والمغامزة والملامزة مما هو حرام بإجماع المسلمين واسلكوا في المناظرة طريق القرآن العظيم، بيان لقول الخصم بدون تعرض لشخصه، وإقامة

(1) سجل جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، مصدر سابق، ص 68

(2) المصدر نفسه، ص 61

(3) النحل، 125.

للحجة التي ترد عليه مع حسن السلوك والقصد في الوصول إلى الحقيقة، والاذعان لها إذا ظهرت على أي لسان ومع الشرور بأن السراد والمردود عليه إخوان يريد كل منهما أن يهدي أحاه إلى ما يراه خيرا له، ويصرفه عما يراه شرا.. <<(1).

وفي تعرضه لشيوخ الطريقة، ينسب ابن باديس الجزائريين إلى الانحرافات الخطيرة التي كان يقترفها هؤلاء الشيوخ بعيدا عن أعين أتباعهم من شرب الخمر، وإتيان الفواحش، ثم تظاهرهم بالورع والصلاح أمام مرديهم تضليلا لهم وابتزازا لأموالهم، وقد كشف ذلك في مقال له في "المنتقد" تحت عنوان << بيان لا لبس فيه >>. قال فيه: << وما يستغرب فيه أن بعض الزوايا فيها من أنواع الخمر ما لا يوجد منه في أعظم الديار الأوروبية، يعدونه للحكام ومن يزورونهم من أعيان الأجانب، وفيها زخرف الدنيا وزينتها ما يحير عقول الجزائريين من الأوروبيين الذين يتوصلون من الشيوخ بالهدايا النفسية طلبا للمباهاة والأغراض الشخصية..

والبعض من هؤلاء الشيوخ عند حلولهم بالعاصمة يفعلون الأفعال القبيحة التي تغضب الخالق، وترزعج المخلوق وعند عودتهم لزواياهم يتظاهرون بالورع والصلاح، وحيث أن جلّ مرديهم بسطاء العقول، مقيدون بالجهل البسيط والمركب فإنهم يقعون بسهولة في شرك هؤلاء الشيوخ .. <<(2).

وتأتي مقالات ابن باديس في تفسير القرآن الكريم لتعرض وتشرح الوجه الصحيح للإسلام في عباداته وعقائده وأخلاقه وفضائله وكذا أجماده وأبطاله وعظمائه بما يقدم البديل العلمي والعملية الإيمان للباطيل التي ينشرها شيوخ الطرق المنحرفين عن حقيقة الإسلام والمنحرفين لشعائره.

كما تأتي مقالات ابن باديس المتنوعة حول السنة النبوية في جريدة السنة(3)

(1) الشهاب، العدد 102، المؤرخ ب: 23 جوان 1927م.

(1)المنتقد، ع13، المؤرخ ب: 24 سبتمبر 1925م.

(2) انظر "السنة النبوية"، ع4، المؤرخ ب: 1 ماي 1933م، مقال عنوانه "إنكار العلماء المتقدمين على المدعين المتدعين".

وغيرها لتضفي على هذه المعركة التي كان يسميها "بالمناظرة" جلال العلم، وهيبة الحقيقة العلمية ووقار الفضيلة الأخلاقية، فالقضية عند ابن باديس، رئيس جمعية العلماء لم تكن قضية أشخاص يفضيئون لأنفسهم بقدر ما كانوا يفضيئون للدين الذي يدافعون عنه وللأمة التي يتألمون لحالها ويعيرون بلسانها.

أما الأستاذ مبارك الميلي فلم يكن أسلوبه مختلفا كثيرا عن أسلوب أستاذه ابن باديس إذ تشهد فصول كتابه "رسالة الشرك ومظاهره" الذي كان عبارة عن مقالات ضافية على صفحات جريدة "البصائر"، على أنه كان متضلعا بأصول العقيدة، وأقوال العلماء، كما كان متضلعا في أحداث عصره متتبعا خاصة لأسباب التخلف المريع الذي كان يحيط أمته والذي يقف الجهل بالدين، وانتشار البدع على طرفي المعطيات الواقعية لأهمها، وقد اتبع الميلي طريق الاعتدال في الرد على المبتدعين بعد كشف مظاهر الخرافهم، وتبع آثارها السيئة على عقول العامة الساذجة مستدلا بالأدلة النقلية والعلمية والواقعية كما سنراه في الفصل اللاحق إن شاء الله (1).

وقد أوضح الشيخ العربي التبسي من جهته منهجه في الكتابة حول هذا الموضوع بما نشره في جرائد الجمعية: يقول في "الشهاب" في مقال عنوانه «بدعة الطرائق في الإسلام».. سوف اذيع ما أراه حقا لا إجابة لهوى كمين في النفس ولا قضاء لشهوة من الشهوات، ولا رغبة في الانتقام من فريق ولا حبا في تخطئة أناس أمر الله أن نقول في حقنا وحقهم ﴿رَبَّنَا أَفْعَرْ لَنَا وَلَا نُوَافِقِ الَّذِينَ سَبَّوْنَا بِالْإِيمَانِ﴾ (2)... سأجعل كل لحم من لحم الطرائق التي اشتهرت وذاعت بيننا كل واحدة منفردة يبحث، وأقيسها بعصر السلف، فإن وجد لها أصل بينهم قبلناها وعملنا بها وعززناها، وما لم نجد له أصلا في أيامهم ولا عرف بينهم، اعتقدنا أنها بدعة محدثة ممقوتة لقوله صلى الله عليه وسلم: «من أحدث في أمرنا ما ليس منه فهو رد..» (3).

(1) الرجاء الرجوع إلى الفصل الموالي: التأليف كوسيلة للاتصال عند جمعية العلماء. ومنه «كتاب رسالة الشرك ومظاهره للأستاذ مبارك الميلي».

(2) الحشر، 10.

(3) الشهاب، ع166، المؤرخ بـ 4 أكتوبر 1978م.

ويدو أن علماء الجمعية قد استجابوا لنصيحة رئيسها ابن باديس في توّسل الحكمة والاعتدال والموضوعية في الكتابة حول هذا الموضوع، مع أن بعضهم قد ثخا قبل سلوك التهكم الساخر، إلى حد التراشق بالشتم والسوء من القول وذلك على صفحات جرائدهم الخاصة التي تشارك مبادئ جمعية العلماء في أهدافها أمثال الشيخ العقبي والأمين العمودي، ومحمد السعيد الزاهري، الذين كانت لهم جولات عريضة ومباشرة في الكتابة عن الزوايا وشيوخ الطريقة وأباطيلهم. ونجد العقبي وهو الذي وهب من حياته الكثير لمحاربة الإنحراف الديني وقاومه بكل ما يملك من مواهب، خطابة، ووعظا وكتابة أنه كان يسلك طريقتين في آن الوقت تجمع بين حماس الأديب الحار، ووقار العالم الهادئ. فأما الأول ففي صحيفته الخاصة (البرق) وأما الثاني فعلى صفحات "الشهاب" التي لا يليق بها إلا ذلك كما يقول: .. >> وأعدكم وعدا صادقا بأنني إن شاء الله سأملأ "البرق" بمقالاتي الرعدية وصواعقي الزجرية، وسأرسل على رؤوس الشياطين كل ما أستطيعه من شهب نارية فأبعث إلى مجلة "الشهاب" ما يليق بها من كل ما يتفق مع خطتها وأرسل لكم بما يلتئم مع "البرق" ويخطف أبصار الجرمين >>(1). وفعلا فقد أجال قلمه في "المنتقد" ثم في "الشهاب" جريدة ومجلة من المقالات الكثيرة المتوالية حول هذا الموضوع بما يبين مجهوده الكبير في مواجهة مظاهر الإنحراف الديني بين الجزائريين ومعالجته. وأمثال ذلك منظومته الاصلاحية، التي امتدت تحليلا وتعليقا على عدة أعداد من "المنتقد"(2) وكذا مقالاته في "الشهاب" تحت عنوان "يقولون وأقول"(3).

وقد استطاعت هذه المقالات وتلك البحوث حول الطريقة، وإن لم تصل كلها إلى درجة عالية من حيث القيمة الفكرية، وامتازت بالعاطفة الجدلية أن تحييط الموضوع من كل جوانبه التي كانت تتطور مع تطوّر القضية مضمونا وأسلوبا استهدفت في الجملة تحقيق الغايات السامية للإصلاح الشامل للجزائريين بدل التعرض إلى الأشخاص

(1) عماد ناصر، المقالة الصحفية الجزائرية.. مصدر سابق، ج1، ص 132-133. (نقلا عن جريدة البرق، ع7، 1927/4/18م).

(2) انظر: المنتقد، الأعداد 8 المؤرخ 20 أوت 1925م. و 17 المؤرخ ب: 22 أكتوبر 1925م.

(3) انظر الشهاب الأعداد: 9 المؤرخ ب 7 حانفي 1926م. و 14 المؤرخ ب 11 فيفري 1926م.. الخ.

وأعراضهم الخاصة.

دفع شبهة ونقض فرية في هذا المقام (1)

لقد اتخذت قضية "الطرقية" من علماء الجمعية مجهودا معتبرا ووقتا مينا في محاربتها، لكن هل استوعبت كل نشاطهم وتفكيرهم حتى يمكن أن يحكم على الجمعية بأنها اقتصررت فقط على هذا المجال في تجديد العقيدة وفي إحداث الإصلاح الشامل للحزائرين وخدمة للغاية الأسمى في مواجهة الاحتلال الفرنسي والقضاء عليه؟.

تنبه علماء الجمعية مبكرا إلى هذه المسألة ويبدو أن اهتمامهم للرد على ما اعتبروه فرية ينزع أصلا إلى الدفاع عن الحركات الاسلامية التي تنتهج البدء باصلاح الجبهة الداخلية للمجتمعات الاسلامية برد هذه إلى مقوماتها الأصيلة والتي ينزل الاسلام من عملية التغيير فيها منزلة الدستور والمنهج وروح الطروحات الكلية كقاعدة الأساس لمحاربة الاحتلال في كل أشكاله عامة والظاهرة منها على وجه الخصوص كالاستعباد والاستغلال والقهر، لكن يأتي من يجعل اهتمامها بهذا الجانب مأخذا ويعده نقیصة لها حيث أنها لم تنتهج المواجهة الصريحة للاحتلال ماديا وعسكريا.. وأن يخص سجل جمعية العلماء حيزا هاما لهذه المسألة (ستة صفحات كاملة) تحت هذا العنوان : «> دفع شبهة ونقض فرية في هذا المقام <<(1). ما يرد على هذا المأخذ وأصحابه في ذلك الوقت وفي كل الأوقات بعده، يقول الابراهيمي في موقف جمعية العلماء الصريح من الطرق: «> فلا يجهلن جاهل، ولا يقولن قائل: إن المصلحين شغلوا أوقاتهم بالطرق، واستنفذوا قوتهم في مقاومتها حتى ألهتهم عن كل شيء، وربما كان فيما شغلوا عنه ما هو أحق بالاهتمام مما شغلوا به وهذه نقطة يجب إيضاها دفعا للأوهام.

إننا علمنا حق العلم بعد التزوي والتثبت ودراسة أحوال الأمة ومناشئ أمراضها أن هذه الطرق المبتدعة في الاسلام هي سبب تفرق المسلمين لا يستطيع عاقل سلم منها ولم يتل بأوهامها أن يكابر في هذا أو يدفعه، وعلمنا أنها هي السبب الأكبر في ظلالهم في الدين والدنيا. ونعلم أن آثارها تختلف في القوة والضعف اختلافا يسيرا باختلاف الأقطار. ونعلم أنها أظهر آثارا وأعراضا وأشنع صوراً ومظاهر في هذا القطر الجزائري.. ونعلم أننا

(1) أنظر سجل جمعية العلماء، مصدر سابق، ص 35-40.

حين نقاوم كل شر، وأنا حين نقضي عليها - إن شاء الله - نقضي على كل باطل ومنكر وضلال، ونعلم زيادة على ذلك أنه لا يتم في الأمة الجزائرية اصلاح في أي فرع من فروع الحياة مع وجود هذه الطريقة المشوومة ومع مالها من سلطان على الأرواح والأبدان ومع ما فيها من إفساد للعقول وقتل للمواهب >>(1).

وينتهي الابراهيمى قوله في هذا المقام بقوله: >> أن جمعية العلماء لم تنفق أوقاتها كلها ولم توجه قوتها بأجمعها إلى هذه الجهة فقط كما يتوهم بعض الواهمين، بل أن للجمعية برنامجا إصلاحيا عمليا حكيمًا، وهي موزعة أعمالها على فصوله، معطية كل فصل ما يستحقه...>>(2).

ب- محاربة مظاهر الفساد في الدين:

ومما يدخل تحت محاربة "كل شر" الذي أشار إليه الشيخ الابراهيمى، محاربة مختلف الرذائل التي انتشرت في المجتمع الجزائري، التي كان السبب المباشر فيها جهل الجزائريين بالاسلام - ولأمتهم - بعدم قراءة القرآن الكريم، كالخمر، والفجور، وترك الصلاة، وشهادة الزور، الإلحاد، وكذا محاربة التنصير الذي كانت حكومة الاحتلال الفرنسي تشجعه وتساند أصحابه بالأموال والتسهيلات الإدارية. وقد كان حضور صحافة الجمعية في هذا المجال فعالا ومتواصلا فقد تتابع نشاط العلماء في محاضراتهم في النوادي، وخطبهم في المساجد، ودروسهم العامة أثناء رحلاتهم الكثيرة ضمن وفود جمعية العلماء المختلفة التي كانت ترتبط بالمناسبات الدينية للشعب الجزائري أو ترتبط بمناسباتها الخاصة بافتتاح المدارس العربية الحرة أو تدشين شعب الإصلاح الجديدة التابعة لها، أو زيارتها التفقدية لمشاريع الجمعية ومنجزاتها أو ضمن الوفود المعتمدة الخاصة بالوعظ والإرشاد عموما ووفودها الخاصة بإحياء ليالي شهر رمضان في مناطق القطر الجزائري المختلفة، وقد تعرضنا لمضامين بعض هذه الدروس (*). وتلك المحاضرات في فصولنا السابقة، ومن ثم فقد كان دور الصحافة في كل ذلك هو تعميم أخبارها ونشرها قصد

(1) سجل جمعية العلماء، مصدر سابق، ص 61-62

(2) المصدر نفسه، ص 63.

(*) يرجى العودة إلى بعض عناوين مجالس التذكير التي ذكرناها في فصل التعليم المسحدي

الاستفادة منها وجعلها في متناول الجميع ممن لم يكونوا يفتشون المساجد أو ممن لم يعادوا صراحة جمعية العلماء وكانوا يقرؤون محتويات دروس علمائها ومحاضراتهم فيتأثرون بها ويعودون على ضورتها إلى دينهم الخفيف.

يقول الابراهيمي: لا نبالغ إذا قلنا أن من بواكر النجاح الأولى التي جنتها جمعية العلماء- ارجاع الغاوين من المسلمين إلى حظيرة الدين، ولا يحصى عدد الذين تأثروا بمواعظها فأصبحوا يحافظون على الصلوات بشروطها الحسية والمعنوية ولا عدد الذين هجروا أم الخبائث "الخمر" بل لقد كانت نتائج الإعراض عن الخمر ملموسة بارزة ضج لها تجار الخمر وتنادى بانعورها بالويل والثبور وتعالى أصواتهم بالتذمر كما تعالت أصوات مشايخ الزوايا وسدنة القبور <<(1)>>.

ج- محاربة الإلحاد:

وضمن قضية تجديد العقيدة الإسلامية بين الجزائريين اهتمت صحافة جمعية العلماء بموضوع "الإلحاد" واعتبرته ضيفا ثقيلا بالقطر الجزائري منذ انتشرت بين أبنائه الثقافة الأوروبية عن طريق التعليم اللاديني أو عن طريق التقليد الأعمى. وغذته غفلة الآباء والأولياء عن هذه الناحية الضعيفة من أبنائهم، فالطفل المسلم الجزائري يتعلم في المدرسة الفرنسية اللاهوتية من أول يوم فيها ما يتعارض مع ما يعيشه في محيطه من أفكار وسلوكات وعادات يومية وما يسمعه من أهله من حقائق الكون. وتزداد هذه المعارضة وتتكرر مع الأيام مع ما تقدم لها برامج المدرسة من دلائل تحمى اتجاهها فترسخ في عقل التلميذ وينجر عنها نفوره من أهله، ويزيده وضعهم المتردي من الفقر والجهل احتقارا لهم ولكل عاداتهم وينتهي به الأمر إلى الدين الذي لم يسق من حقيقته بينهم إلا قشورا من الخرافات والسلوكات اليومية المشوهة وتوول بهذا كله إلى الإلحاد.

وتعتقد الجمعية مع ذلك أن الإلحاد لم يتسرب إلى عقول الجزائريين - المتحدرسين بالمدارس الفرنسية- إلا بنسبة ضئيلة يعود السر فيها إلى تصلب الجزائري في دينه وإن كان جاهلا به ثم إلى سياسة التمييز التي يشهد المتعلم آثارها في التعليم و صفوف التعليم.(2)

(1) سجل جمعية العلماء ، مصدر سابق، ص 74.

(2) المصدر نفسه، ص 65 بتصرف.

وكانت جهود الجمعية غاية الممكن في هذا الباب فقد نقلت صحافتها دروس علمائها ومواعظهم في النوادي والمساجد والمدارس، متابعة ناشرة معتمة لفائدته بين كل الجزائريين مما كان له الأثر المحمود في تنبيه المتعلمين لخطر برامج المدرسة الفرنسية، وتنوير الرأي العام بإطلاعه على حقائق الإسلام وحث الجميع على التعلم - والتعلم العربي خاصة - بالإقبال والتسهيل والمساعدة المادية وخاصة دعوة الأولياء بالقيام بواجبهم نحو أبنائهم من التربية الصحيحة، وحثهم على غشيان المساجد حتى يتعلموا حقائق دينهم بما يقوم زينهم ويرجعهم إلى حظيرته، يقول الابراهيمي: وما دام أبنائنا يأوون إلى بيوت قواعدها الجهل والخرافات، وقعاتها الجاهلات الخرافيات، فنحن بين حالين لا ندري أيها شر؟ الأمية ومعها التخريف أو القراءة ومعها الإلحاد؟.

لكنه يستدرك للخروج من الشرين معا بما تقوم به الجمعية في محاربتها للطرقية يقول: «وإنك لا تبعد إذا قلت أن لغشو الخرافات وأضاليل الطرق بين الأمة أثرا كبيرا في فشو الإلحاد بين أبنائها المتعلمين تعلموا أوروبا والجاهلين بحقائق دينهم، لأنهم يحملون من الصغر فكرة أن هذه الأضاليل الطرقية هي الدين، وأن أهلها هم حملة الدين، فإذا تقدم بهم العلم والعقل لم يستسغها منهم علم ولا عقل، فأنكروها حقا وعدلا، وأنكروا معها الدين ظلما وجهلا. وهذه إحدى جنائيات الطرقية على الدين». وينتهي إلى النتيجة المنطقية يقدمها للقارئ عموما وللشعب الجزائري خصوصا: «أرأيت أن القضاء على الطرقية قضاء على الإلحاد في بعض معانيه وحسم لبعض أسبابه» (1).

د- محاربة التنصير:

وقد اقتضى تجديد العقيدة الجزائرية لدى الجزائريين من جمعية العلماء محاربة التنصير الذي كان الوجه الآخر للاحتلال الفرنسي، ومركزه في مد البرامج والمشاريع المختلفة لتجريد المسلمين الجزائريين من مقوماتهم الأصيلة وتعتقد جمعية العلماء بأن التنصير «نتيجة من نتائج التعصب المسيحي المسلح، ومولود من مواليد القوة الطاغية التي تسمى كل ما ترضى عنه من الأعمال المنكرة حرية دين أو حرية فكر، أو حرية تجارة، وأداة من

(1) سجل جمعية العلماء، مصدر سابق، ص 71.

أدوات السياسة في ثوب ديني وشكل كهنوتي دفعته أولا ليكون رائدها في الفتح وقائدها إلى الاستعمار وأمدته بالمعونة والحماية والصيانة والرعاية.. حتى إذا صاح صائح بالويل، أو صرخ مستغيث بالليل قالت السياسة: أسكت فعمل التبشير من عملي: هو حر وأنا حامية الحرية وهو إنساني وأنا منقذة الإنسانية <<(1).

وكان لجمعية العلماء برنامجها لمقاومة التنصير بقدر المستطاع، وإن خانها المال لأنه قوام الوسائل الكافية لتنظيم مقاومة منتجة فقد ارتفعت أصواتها حارة بمقاومة التنصير من كل وسائلها المتوفرة لديها في محاضراتها العامة، ودروسها وصحفها وفي مدارسها ومساجدها ونواديها.

ومن آثار صحفها في هذا المجال تتبع أخبار التنصير وأصحابه وإطلاع الرأي العام عليه وعلى وسائله وأهدافه ثم تحديد مراكز نفوذه وكشف أساليبه. ومن ثمة التعريض بالمنصرين من القساوسة والرهبان الذين كانوا يستغلون فاقة الجزائريين وجهلهم ليتصيدون أطفالهم المتشردين في الأزقة والبوادي فيجمعونهم في مراكز خاصة يطعمونهم ويكسونهم مقابل تعليمهم تعاليم المسيح لإخراجهم من الدين الإسلامي. وقد أشار سجل جمعية العلماء إلى أهم مراكزهم التي راعوا في اختيارها نفسية السكان وحالة معيشتهم، وكانت "مراكز ورقلة" في الجنوب الجزائري حيث يكثر طروق الجماعات، ومركز "بني اسماعيل" قرب بجاية، ومركز "ابغيل علي" ومركز "زواوة" <<(2).

وقد نشرت جريدة السنة في هذا المجال موضوعا تحت عنوان: << انتشار الإسلام : مبشر في العراق يعتنق الاسلام " مبيّنة فيه أن هذا المبشر قد أسلم عن درس وتبوع ورغبة في الاسلام، وأنه لما علم المبشرون ذلك قامت قيامتهم، وحاولوا إغراءه وإذيته لكنهم لم يثنوه عن رغبته ثم أن المسلمين قد احتضنوه وساندوه بالمال والوظيفة وأولوه مكان الأخوة منهم. ونشرت "السنة" خبر صحفي شهير اعتنق الاسلام أيضا بعدما درس تعاليمه وعكف على دراسة القرآن الكريم(3). وفي نشر خبر دخول الصحفي والمبشر الملحبي

(1) سجل جمعية العلماء، مصدر سابق، ص 72

(2) المكان نفسه.

(3) السنة النبوية، ع 7 المورخ - الاثنين 22 ماي 1933م، ص 5 بتصرف.

إلى الاسلام تعريض واضح بعمل المنصرين الفرنسيين المبني على استغلال الظروف الصعبة للجزائريين عامة ولأطفالهم خاصة وعلى نشرهم لضلال اكتشافه أهلهم فآثروا الحق عنه ودخلوا الاسلام.

ونشرت "الشريعة" من جهتها مقالا تحت عنوان "أخطار التبشير، عبر لمن يعتبر تكلمت فيه عن أحد أئمة الكاثوليكية ودعاة الاستعمار الذي قدّم لفرنسا خدمة عظيمة تمثلت في وثائق عن المغرب الأقصى وخريطة عظيمة الأهمية رسم فيها جميع الجهات المغربية التي زارها مما يسهل عملية غزو فرنسا للمغرب، ثم أنه وضع مبدأ آخر للاحتلال الفرنسي يعينه على الغزو ويتلخص في كيفية تنصير العرب والبربر قال فيه: ⁷ إن الفتيان البرابرة أبناء جنس لطيف وهم مستعدون لقبول الروح اللاتينية التي انتموا إليها في العصور الخالية. إن البرابرة ليسوا متعصبين ولا جاحدين وإن دخولهم في المسيحية هو الذي يعيد العرب ويدخلهم إليها مكرهين <<(1). وقد عرض هذا المقال بدور القساوسة الفرنسيين في إعانة الاحتلال الفرنسي على استغلال الجزائريين وتسهيل عمليات المسخ الحضاري إزاءهم يكون الهدف منه تنبيه المسلمين إلى دورهم تجاه دينهم بدل تشويبه...

ونشرت "الشريعة" أيضا مقالا طويلا للشيخ محمد السعيد الزاهري(2) يصف الجزائريين الذين تنصروا والذين احتفل بهم "الآباء البيض" في يوم وصفه الزاهري بيوم حزن وحداد على المسلمين في عاصمة الجزائر. وقد بذلوا لأجله من الجهود والنفقات أقصى ما يمكنهم ليحفلوا الاحتفال شائقا فخما يجمع كل أسباب البهجة والأبهة والجلال، ليعظموا في أعين الناس وليغمرهم بالمدح والثناء على ما عملوا من تبشير وتنصير وليقدر المسيحيون الكاثوليك أعمالهم هذه فيمدونهم بالمال من جديد، ويجزلون لهم الأجر والثواب.

ثم يصف الزاهري هؤلاء الجزائريين المنتصرين الذين كان منظرهم مؤثرا جدا يثير الهموم والأحزان يقول << فقد كانت تعلق وجوههم سحب سود من الغم والاكتئاب تدل على أن لهم نفوسا يأكلها العذاب، ويلح عليها، وعلى أن بين جوارحهم قلبا

(1) الشريعة ، ع3، المؤرخ ب الاثنين 31 جويلية 1933م، ص 6.

(2) الشريعة ، ع7، المؤرخ ب الاثنين 24 جويلية 1933م، ص 6-7 بتصرف.

مضطربة لا يخالطها شيء من الإطمئنان أو الرضى. وليس على وجوههم ولا علامة واحدة تدل على أنهم قد رضوا لأنفسهم هذا الدين الجديد أو ارتاحوا إليه. وكان أكثرهم أطفالا صغارا قد عجز آباؤهم وأولياؤهم أن يقوتوهم أو أن يقوموا لهم على ضرورياتهم، فالتقطهم المبشرون المسيحيون، واستغلوا جوعهم وضعفهم فاستولوا عليهم واحتلوا منهم العفائد والقلوب إلى أن يقول: أن هؤلاء المبشرين المسيحيين لو راعوا الهمة والرحولة لما رضوا لأنفسهم أن يستفيدوا مما يصيب الناس من المصائب والنكبات <<(1).

ويشير الزاهري إلى أن الطرفين قد اغتروا بأموال طائلة من المسلمين الجزائريين باسم الصدقات والتذورات والزيارات لكنهم بدل أن ينفقوها في وجه الخير التي جمعت لها من إنشاء ملاجئ للضعفاء والمعوزين ومن فتح المدارس والكتاتيب يتعلم فيها أطفال المسلمين أمور دينهم ومن ثمة فلن يتمكن المنصرون بحال من الأحوال من أن يظفروا بتنصير أحد من المسلمين. فقد انفقوها على أنفسهم في قضاء أهوائهم وشهواتهم وبذورها هدايا لمن لا يستحقونها. ولذلك فقد ساعدوا المنصرين على ضعفاء المسلمين وفقرائهم.

وقد حمل الزاهري جزءا من المسؤولية لكل الجزائريين ودعاهم إلى الانفاق وقيام كل منهم بواجبه بالانفاق للتمكن من استيعاب فقراء الأمة وحمايتهم من التنصير. كما حمل حكومة الاحتلال طرفا منها من حيث أنها لم تقم بواجبها من كفالة أطفال المسلمين ورعايتهم فكانوا ضحايا البؤس والتعاسة وأصبحوا فريسة للمنصرين. ثم أشار إلى العراقيل التي كانت تنصبها سلطة الاحتلال ضد جمعية العلماء من عدم الترخيص لعلمائها بفتح مدارس التعليم العربي الحرة، ومنعهم من الوعظ والإرشاد في المساجد، في الوقت الذي كانت تساند فيه دعاة النصرانية بشن غاراتهم على الدين الإسلامي والفتك بالمسلمين حتى يقول: <> أفليس من العدالة والانصاف أن تتركنا أحرارا في الدفاع عن ديننا، وفي حماية عقائدنا وعقائد أطفالنا من عادية المعتدين؟ <<(2).

وقد حاربت البصائر "التنصير" الفرنسي للمسلمين الجزائريين بلغة صريحة ولهجة شديدة واتخذت إزاء سلطة الاحتلال المواقف الجريئة نبهت الشعب المسلم الجزائري من

(1) الشريعة، ع3، مصدر سابق، ص 6.

(2) الشريعة، ع2، مصدر سابق، ص 7.

علاها إلى الأهداف الخفية والحقائق المخيفة لما تقوم به فرنسا "اللائيكية" ضد الدين الإسلامي في الجزائر المسلمة. ففي مقال للابراهيمي عنوانه "هل دولة فرنسا لائكية؟" غاب فيه أسلوب المرونة والمواراة وغلبت عليه لغة الجذ والدقة بما ينبئ بخطورة الموقف الذي لا يسمح بأي تساهل أو سكوت بل يعتبرهما خيانة بواح للأمة المسلمة الجزائرية التي يدافع عنها باسمها عن أقدس ما تملك: دينها. يقول:

>> جاءت فرنسا إلى الجزائر بالراهب "الاستعماري" لتفسد به على المسلمين دينهم، ونفتنهم به عن عقائدهم، وتشككهم بتليثه في توحيدهم، وتضار في ألسنتهم كلمة "الهادي بكلمة "الفادي" ذلك كله بعدما أمدته بالعون وضمنت له الحرية، وكفرت به هناك به (في فرنسا المسيحية) لتؤمن به هنا (في الجزائر المسلمة) >>(1).

ويقول في مقال آخر تحت عنوان: >> الأديان الثلاثة في الجزائر >> يتكلم عن أسلوب الاحتلال الفرنسي المدعى للائيكية في نشر المسيحية في الجزائر المسلمة، يقول: >>أما المسيحية فهي حاملة اللواء وقائدة الرّعييل، ومن ورائها الاستعمار بخيله ورجله وجيوشه ومدافعه، قوانينه، وأمواله وجراته يحمي حماها وينافح عنها، والحكومة برجالها، وأدواتها، ووسائلها تمدّها بالعون وتبذل لها المساعدة والتشيط، وتمهّد لها سبل العمل وتوسع لها في مجال الحرية ليث دعائها التبشيرية إلى أقصى حد، وتعمرها بالدعاة والأطباء والمعلمين، وتجهزها بكل وسائل الإغراء والإغواء، وتفتّم الجماعات والأوبئة فرصا لاصطياد الجوع واليتامى والمرضى لتفتنهم عن دينهم بلقمة أو ثوب أو جرعة دواء، وما مهد لها تلك الأسباب إلا الاستعمار، فهو الذي أجاج وأعرى، وهو الذي أفقر وأمراض، وهو الذي مكّن الجهل والجمود، كل ذلك عن عمد وقصد، وكل ذلك ليذل، ويقبل ويهيء للمبشرين ووسائل التنصير >>(2).

ويشير الابراهيمى إلى وسيلة خطيرة وجائرة استغلّتها سلطة الاحتلال الفرنسي لنشر المسيحية ومساندة دعاة التنصير يقول: >>وقد بلغ من تأييد الحكومة الجزائرية للتبشير أنها أو كلت للمبشرين في الكثير من مراكزهم توزيع المؤن المخصصة على المسلمين

(1) محمد البشير الابراهيمى، عين البصائر، مصدر سابق، ص 83.

(2) المصدر نفسه ص 64-65.

لتحبيبهم إلى الناس ولتيسر لهم سبل الاختلاط، حتى يجرح حديث حديثنا، وتسرب الدعاية التبشيرية بينهما. وإن توزيع التموين في زمننا هذا لسلطة تعلق على جميع السلط، وجاذب من أعظم الجواذب (1).

أما عن الراهب المسيحي ودوره في الجزائر وبين المسلمين فيحدده الابهامي في أسلوب يكشف عن أنه فقد وظيفته الأصلية في المسيحية كأب روعي يث تعاليم المسيح في تسامح وحب واختص بمهمة التمكين للاحتلال بامتهان قلوب وعقائد المسلمين يقول الابهامي: >> وإذا الراهب المبشر ذنب فلاة، يتربص اليتم لينصر الأبناء، والمجاعات ليفتن الآباء، فكأن من وصايا المسيح عنده أن لا يطعم البطن إلا إذا أخذ القلب، وأن لا يكسو الظهر إلا بالتجريد من الدين، ولا ينشر تعاليم المسيح إلا باستغلال أزمات الضعفاء والبايسين.. >> (2).

ويقول في موضع آخر >> ولكن الراهب الذي جاءتنا به فرنسا إنما جاء ليبارك على القاتل، ويدني الصيد من الخاتل، ويعاون المعمر على امتلاك الأرض، والحاكم على انتهاك العرض، وإنما جاء ليغفر للذين يسفكون دماء الأبرياء ما اقترفوه من ذنوب وآثام>> (3) ثم يتساءل مستكرا: >> أفهذه هي المنقبة التي تفخر بها فرنسا، وتعدها من وسائل التمدين، وتتقدم بها إلى التاريخ؟ >> (3).

وبهذه المقالات عن محاربة الجمعية للطرقية وللإلحاد، والتنصير، وغيرها كثير في صحافة جمعية العلماء فقد هدف العلماء إلى تنبيه الشعب المسلم الجزائري إلى كل الرسائل التي كانت تحول بينه وبين الإقبال على دينه ومعرفته وتعلمه والاعتراف من معينه الصافي لما يجدد إيمانه بمقدساته ويدفعه للدفاع عنها والتضحية دونها إذا ما شعر بما يهددها أو يعمل للقضاء عليها.

(1) محمد البشير الابهامي، مصدر سابق، ص 65.

(2) المصدر نفسه، ص 85.

(3) المصدر نفسه، ص 86.

2- صحافة جمعية العلماء وقضية فصل الدين الإسلامي عن الحكومة الفرنسية:

فصل آخر من فصول المقاومة القاسية التي قادتها جمعية العلماء عبر صحافتها ضد الاحتلال الفرنسي لعلها تكون أهمها وأطولها نفساً، فقد وسمتها بالقضية ذات الذنب الطويل، وعرضت معطياتها من مختلف الجوانب تحت هذا العنوان: «فصل الدين عن الحكومة» ثم «فصل الحكومة عن الدين» وذلك عبر أكثر من أربع وعشرين مقالة كاملة.

وقد بادرت الجمعية أولاً إلى تمكين الإطار الواقعي لهذه القضية، بتعبئة الجماهير لتشييد المساجد الحرة وتمليكها مباشرة للشعب الجزائري والذي شيد -فعلاً- عشرات المساجد التي أعادت الجمعية إليها وظيفتها الإسلامية التعبدية والتعليمية. وقد شهدت هذه المساجد فعلاً حركة ونشاطاً ملحوظين في هذين الميدانين، وأعدت من خلالها بناء ملامح وأسس الحياة اليومية للجزائريين في الريف وفي المدينة وفي إطار مقومات الشخصية الجزائرية في أبعادها الثلاثة الإسلامي، العربي والجزائري. وكان غرض الجمعية بهذا أن تضع يد الجزائريين من جديد على شؤونهم الدينية وترفع عنها يد الحكومة الفرنسية ولا تترك لها أية ذريعة للتحكم فيها أو الاشراف عليها وبصفة نهائية.

معنى ومقتضيات فصل الدين الإسلامي عن سلطة الاحتلال:

- تحرير المساجد برفع يد الحكومة عنها
- تحرير الأوقاف الإسلامية بإرجاعها إلى المسلمين
- تحرير "رجال الدين" الإسلامي من الحكومة الفرنسية
- تحرير القضاء الإسلامي برفع جميع القيود عنه
- تحرير الحج بعدم تدخل الحكومة في أي شأن من شؤونه
- تحرير الصوم، بحيث تتعد الحكومة عن كل شؤونه (1).

وقد أشار الإبراهيمي بصريح العبارة وشديد اللهجة في هذا المقام حين قال: «فلا نريد أن تبقى للحكومة يدولا إصبع في تعليمنا العربي الديني، ولا في شعائنا الدينية ولا في مساجدنا، ولا نريد إلا أن تكون الأمة حرة في دينها، مطلقة التصرف في مساجدها

(1) محمد البشير الإبراهيمي، عيون البصائر، مصدر سابق، ص 53.

وأوقافها وشعائر دينها (1). وقال: «و الأمة لا ترضى إلا بالفصل الحقيقي على الوجه الذي يستطره العلماء الأحرار والمسلمون الأبرار» (2). وقال في عدد آخر من "البصائر": «أما نحن فلا نرضى في القضية إلا بالحق وهو أن يرجع ميراث محمد إلى أمة محمد، فإن كانت رشيدة فهي أحق به، وإن كانت سفيهة لم نخسر رأس المال، ومهما تبلغ من السفه فلن تبلغ فيه إلى درجة الاستعمار، الذي ابتلع آلاف الملايين من قيمة أوقافها وجاد عليها بوضع "كيلوات" من الزلاوية وبدار سماها بأدل الأسماء على المهانة والسخرية وهي دار الصدقة» (3).

وحقيقة هذه القضية عند جمعية العلماء كما تقول "البصائر" هي «صراع بين الحق وبين المصلحة، فإذا كان صاحب الحق لا يتنازل، ومدعي المصلحة لا يسلم، لم تزد القضية إلا تعقدا، وإذا تمادى هذا الإصرار من الطرفين، إصرار الحق على حقه، وإصرار المبطل على باطله فمن الحكم؟... ثم يجيب المقال: الواقع -برغمنا- أن خصمنا في القضية هو الحكم، مادام يملك ما لا نملك من المال الذي يوجه وجوه أصحاب المطامع إليه، والنواب الذين يعولسون في الوصول إلى كراسي النيابة عليه، وهذه الطائفة التي تقبل الأرض بين يديه، ولكننا -على ذلك كله- مصرّون على المطالبة بحقنا، ولا يتينا تهديد ولا وعيد ولا مراوغة ولا مطاولة، إلى أن تفصل القضية على وجه يرضى الإسلام ويرضى الأمة، ونحن نتجاهل كل حل لا يفي بالرغبة كاملة، ونواصل كفاحنا مادامنا ودامت هذه الحكومة مصرة على باطلها...» (4).

وحسب "البصائر" فإن دفاع جمعية العلماء عن الإسلام، وخاصة في الميدان الخاص بالحكومة الجزائرية في قضية "فصل الدين عن الحكومة"، قد استمر أكثر من عشرين سنة من الزمن. حيث تقول: «فقد تناولت هذه القضية بالشرح والتحليل منذ عشرين سنة حلت، وتناولها هذا القلم (قلم الشيخ الإبراهيمي) بالبيان والتدليل من ثلاث سنوات، ولم

(1) محمد البشير الإبراهيمي، عيون البصائر، مصدر سابق، ص 91.

(2) المكان نفسه.

(3) المصدر نفسه، ص 167.

(4) المصدر نفسه ص 177-178.

تهن لها عزيمة ولاخارت لها قوة في المطالبة ولم يثغدها وعد، ولا ردها وعيد من تقييح سلوك الحكومة وموقننها من هذه القضية، ولا رمتها المطاولة بالملل.. وقد مرت عليها ثلاث سنوات متوالية وهي من القضية في عمل دائم وقول مستمر، وسيل من الكتابة منهمر...»(1).

ويقول الابراهيمى في مقال آخر بـ "البصائر" دائما: كتبنا في هذه القضية ما إن مداده ليكون عدة غدران، وما إن صحائفه لتغطي بضعة جدران، ولكن كنا مع هذه الحكومة المتصامة -من عتو ومن استعلاء- كمن يحرق البخور لأصحاب القبور»(2).

وفي تعرضها لتحليل ومناقشة هذه القضية لم تترك صحافة الجمعية أي أسلوب من فنون الكلام إلا وطرفة من أسلوب الاحتجاج، الشكوى، التعريض الصريح، النصيحة المخلصة، التقييح والتشهير، الاستدلال والمحاجة، السخرية والتهكم، التكرار، التساؤلات الاستنكارية تتبع التاريخي للقضية، وعن طريق هذه الأساليب وغيرها تنبعت مختلف مكاييد الحكومة الفرنسية وكشفت خفاياها وأهدافها التي نسجت لها لافشال البت وإنجاز الفصل للإسلام من الحكومة الفرنسية فعلا. تقول "البصائر" بأن فرنسا قد آثرت من أول يوم لاحتلالها الجزائر سبيل محق مقومات -الشعب الجزائري- المغلوب الروحية والمادية مغافصة، أو تدريجيا، وتحطيم عناصر المقاومة فيه جهرة أو اغتيال، فوضعت له الأصول ورتبت الوسائل. وآثرت من أنواعه التدريج المغطى بالكيد والاحتيال، وبدأت من المقومات بالدين، لأنها تعرف أثره في النفوس والإرادات، وتقدر ما فيه من قوة التحصن من الانحلال وقوة المقاومة للمعاني الطارئة...»(3).

وكانت فرنسا تدعي اللائكية وقد انتهجتها واقعا في باريز بنص دستوري يقضي بفصل الدين عن الحكومة، وتم ذلك بصورة حاسمة وبصفة عملية ونهائية منذ 1905م بتقرير مشرّعها بأن: الحكومة الفرنسية ليست ضد الدين ولكنها لا دينية»(4). وافترض أن

(1) عماد البشير الابراهيمى، عيون البصائر، مصدر سابق، ص 137-138.

(2) المصدر نفسه، ص 144.

(3) المصدر نفسه، ص 168.

(4) المصدر نفسه، ص 171.

يعتَم هذا الفصل في مستعمراتها بما فيها الجزائر، وبعبارة أخرى فصل الإسلام عن حكومتها بل لقد كان من المنطقي - كما يقول الابراهيمي - أن يكون الإسلام مفصّولا عنها قبل المسيحية لأن الإسلام ليس منها وليست منه بسبيل» (1).

لكن فرنسا لم تطبق الفصل في الجزائر وبقيت متمسكة بالإسلام واحتمالت لذلك ذرائع شتى رغم إقرار الدستور الفرنسي لمادة الفصل. تقول البصائر: «سلمنا بأن فرنسا دولة مستعمرة من ذلك الطراز اللاتيني، وأنها تمتاز بادعاء أنها ممدنة العالم ومعلمته وناشرة لواء الحرية فيه، وأنها السابقة إلى نبيذ الأديان، وقطع الصلة بين الله وعباده، وأنها واضعة نظام اللائكية التي معناها وضع سور بين الحكومات وبين الأديان كيفما كان نوعها، معناها أيضا تقوية السلطة المادية، وتوهين السلطة الروحية، وأنها الأستاذة الكبرى لكل من سلك هذا السبيل. وتأسى بهذه الشرعة، وأنها مرجع كل إباحي، وقدوة كل ملحد... كل هذا نما تدعيه فرنسا وتغري به البله منا وتغر المغفلين.. ثم تتساءل "البصائر": ولكن ما بالها خالفت العالم الاستعماري كله، وخرقت إجماعه، وشذت عن قاعدته، فهو يسالم الأديان حتى الباطل منها وغير المعقول، ويترك أهلها أحرارا في شعائره ومعابدهم، يوليها شيئا من الرعاية والاحترام، ويكتفي بالتسلط على الجانب الدنيوي من حياتهم، أما هي فضايق الإسلام في الجزائر وتحتكر معابده وشعائره، وتمتهن رجاله وتبتلع أوقافه، فلا مسجد إلا ما فتحه ولا إمام إلا من نصبته، ولا مفتي إلا من (حنفته) أو (ملكته)، ولا شيخ طريق إلا من (سلكته) ولا حاج إلا من حججته أو نسكته ولا صائم ولا مفطر إلا على يد (لختها)، ولا هلال إلا ما شهد برويته (قاضيها)...».

وتقول: ثم ما بالها خالفت نفسها، وناقضت مبادئها؟ فهي تدين باللائكية وحرية الأديان، ينص على ذلك دستورها، ويجري عليه تعليمها، وتتأثر به أمتها، وهي في الجزائر (تمسك) بالإسلام هذا التمسك، وتشدّد في (القيام) به هذا التشدد، وتنعت في الانفصال عنه هذا التعنت» (2).

وللاجابة عن هذا السؤال الصريح والجريء آثرت صحافة الجمعية أن تتعرض إلى

(1) محمد البشير الابراهيمي، عبون البصائر، مصدر سابق، ص 172.

(2) المصدر نفسه، ص 92-93.

مكايد فرنسا واحدة واحدة بالتحليل والتدليل لتنتهي إلى نتيجة كل منها، وهدفها الذي يصب في عرقلة قرار الفصل النهائي والحقيقي للإسلام عن الحكومة الفرنسية ثم بناء هذه النتيجة على ضرورة إنجاز هذا القرار.

1- تسليم تنفيذ قرار الفصل إلى المجلس الجزائري: لعل أكثر المكايد الفرنسية لا

معقولة في تعميم قرار فصل الدين عن الحكومة الذي انتهجته باريز رسمياً، إيكال فصله في الجزائر إلى المجلس الجزائري بدل تنفيذ قرار الدستور عملياً في الجزائر أيضاً مما يدل على عدم صدقها في هذا الفصل، وعن إرادتها لبقاء الإسلام تحت قبضتها. يقول الابراهيمي في مقال عنوانه: "فصل الدين عن الحكومة": "طلّامع ومقدمات: >> لو كانت الحكومة الإفريقية صادقة في فصل الإسلام عن حكومة الجزائر، مجتهدة فيه غير مقلّدة للإدارة الجزائرية، ولا متأثرة بأفكارها الاستعمارية الضيقة، لو كانت كذلك لتولت بنفسها بنفسها ذلك الفصل قبل تقرير دستور الجزائر، ولنفذت الفصل بأصوله وفروعه، حتى يكون الدستور - كدساتير الأمم الديمقراطية - خالصاً للدينويات التي يشترك فيها جميع الناس، خالياً من الدينيات التي تخص الطوائف >>(1). ويقول في مقال آخر بعنوان: قضية فصل الدين.. لمحات تاريخية": >> .. ولكن ذلك الفصل بقي مقصوراً على فرنسا وحدها، ولم يقطع البحر إلى الجزائر،.. لأن الدين في الجزائر الإسلام... >>(2).

ويقول في مقال آخر: >> نص الكتاب المفتوح إلى رئيس الجمهورية الفرنسية >>:

>> أن قضية فصل الدين عن الحكومة معلقة بين السماء والأرض، لا يهبط بها إنصاف، ولا يصعد بها عدل، وواقفة بين حكومة فرنسا وحكومة الجزائر موقف التنافس، تلك تحكم بالفصل قولاً وهذه تحكم بالوصل عملاً، وهي تماطل في الفصل لأنها لا تريده، وهي تهيء الوسائل لتعطيل تنفيذه، أو لجعله صورة بلا حقيقة، وحسداً بلا روح، وهي تملك من وسائل التعطيل مجلساً يقدم البحث في مرتباته وألقابه على البحث في مصالح الأمة التي لم يكن لها في تكوينه رأي، ولا في انتخابه حرية >>(3).

(1) محمد البشير الابراهيمي، عيون البصائر، مصدر سابق، ص 68.

(2) المصدر نفسه، ص 172.

(3) المصدر نفسه، ص 78.

وقد كان "المجلس الجزائري" نفسه كما يدل عليه كلام الابراهيمى أهم الوسائل التي سنتها الحكومة الفرنسية لتعطيل قرار فصل الاسلام عن الحكومة الفرنسية وهو ما يكشف عنه الابراهيمى في بعض فقرات نص الكتاب المفتوح للأعضاء المسلمين بالمجلس الجزائري فيبين أولاً أن المجلس الجزائري والدستور الجزائري ما هما في الحقيقة إلا بعض ثمرات الاستعمار الفرنسي التي أوكلت النظر فيهما إلى الأحزاب الفرنسية التي وضع كل حزب منها دستورا بنى أصوله وفروعه على ما يوافق هو حزبه لا على ما يوافق مصلحة الجزائر ورغبة أهلها. >> كأن الوطن موات وكأن أهله أموات، وكان تسعة ملايين مسلم كلهم أطفال قاصرون يتحكم في مصالحهم الأوصياء والقضاة وليس فيهم رجل رشيد >>، ثم توجه بصراحة إلى النواب: >> قائلًا: أتدرون لماذا أوقف البرلمان الفرنسي تنفيذ قانون الفصل عليكم، مع أنه لو تولى تنفيذه لأراح واستراح؟ يقول:

>> إنها لعبة شيطانية بكم من دهاء الاستعمار، إنها توريط لكم، إنهم يريدون أن يحرخوا النار بأديكم إنهم كانوا على اتصال بالحكومة الجزائرية، وكانوا على ثقة من أن المجلس الجزائري سيتم كما يريدون - وقد تم كما أرادوا - وأنهم لا ينتخبون له إلا كل سامع مطيع. وأن الحكومة الجزائرية ستوحي إليهم بأن لا يرضوا بفصل الدين عنها، فتكون النتيجة التي تديعها فرنسا في العالم أن المسلمين هم الذين لم يرضوا بانفصال دينهم عنها فتفوز مرتين، ويخسر المسلمون شيئين: الدين والسمة >> (1).

وقد أشار الابراهيمى إلى حقيقة "النواب" الذين سماهم بالموظفين فقط، دون تسميتهم النواب: فقال: >> اسمحوا لنا حين سميناكم أعضاء ولم نسمكم نوابا فإننا ممن لا يكذب على الحقيقة، وكل عاقل يعرف الوسيلة التي تذرعتم بها إلى هذا المنصب، يستحي أن يسميكم نوابا بمعنى النيابة الذي يعرفه الناس وإنما أنتم أعضاء تألف سببها هيكل غير متجانس الأجزاء لا يجمع بينها إلا معنى بعيد، وعامل غريب، ومصلحة ليس لكم ولا للأمة منها شيء، وإنما أنتم موظفون، لكم من النيابة لفظها وحروفها، ولكم من الوظيفة

(1) محمد البشير الابراهيمى، مصدر سابق، ص 199-200

معناها وحقيقتها، مادامت الانتخابات بالعصي فأبشروا بطول البقاء في هذه الكراسي» (1).

وذكر الابراهيمي بأن النيابة وكالة عن الجمهور، والشرط في الموكل أن يكون حرا مختارا مطلق التصرف بالاضافة إلى شروط أخرى، التي لا يتوفر منها شرط في نواب المجلس الجزائري، ومن ثمة « فإذا كان الأصل في هذه المجالس كما يقول مقال >> القضية ذات الذنب الطويل >> أنها تصارع الحكومات وتناقشها الحساب وتردها إلى الصواب، وتحارب النزعات الفردية >> (2). وإذا كانت الحكومة تقدم للمجلس ملف القضية، وفيما هو (ملفوف) فيه برنامجها الخاص، وعلى أحد وجهيه طابع الرغبة، وعلى الآخر طابع الرهبة... فكان أكبر دليل على أن الحكومة لا تنوي الفصل >> ومن ثمة كما يقول المقال أيضا .. كنا نسأل فصل الحكومة عن الدين... فأوشكنا أن نسأل فصل الحكومة عن المجلس، لأن تحرير المجلس من سيطرة الحكومة عليه هو الخطوة الأولى في فصل الدين عن الحكومة..» (3).

ودعا الابراهيمي "النواب المسلمين" إلى المطالبة بإدخال الدين المسيحي بكنائسه وأمواله ورجاله وكذا الدين اليهودي بيعة وأخباره وأوقافه تحت سلطة الحكومة دخولا عمليا بحيث يكون لها مطلق التصرف عليهما بتسمية الموظفين الدينيين، والقيام بأجورهم، وسائر تعاملاتهم تماما كما تفعل مع الدين الإسلامي، يقول: >> يجب على النواب أن يطالبوا بهذا ويتشدّدوا فيه، لأنه هو الديمقراطية. وحكومة الجزائر ديمقراطية. ولأنه إنصاف وعدل، وحكومة الجزائر منصفة عادلة -تبارك الله أحسن الخالقين- ولأنه المظهر الواضح لقوة الحكومة وسلطتها، ولأنه زيادة في تلك القوة وتلك السلطة. فإذا أبى عليهم زملاؤهم من النواب الفرنسيين واليهود، وقالوا إنهم لا يتدخلون في الأديان، أو أبت الحكومة وقالت: إنها لانتكية فليقل النواب المسلمون في صراحة وحق: والاسلام؟.. لماذا يبقى غريبا شادا عن هذه الإلامكية؟ إن الأديان في الوطن ثلاثة. فمن الواجب أن تعامل

(1) محمد البشير الابراهيمي، مصدر سابق، ص 196.

(2) المصدر نفسه، ص 192.

(3) المصدر نفسه، ص 193.

معاملة واحدة. وإن المسلمين ومعابدهم أكثر عددا، فمن الإنصاف أن يكونوا هم القاعدة في المعاملة والأصل في وضع الأحكام .. <<(1)>>.

وثبه الابراهيمى الرأي العام المحلي والعالمي إلى الوضعية الخطيرة للإسلام في الجزائر حين قرّر في مقال "الأديان الثلاثة في الجزائر"، قائلا: << إن الجزائر اليوم ميدان صراع، لا أقول بين الأديان الثلاثة كل على انفراده، وإنما أقول بين الإسلام وحده من جهة، وبين المسيحية واليهودية مجتمعين من جهة أخرى >>(2).

وحذّر في مقال آخر عنوانه "فصل الدين عن الحكومة -2-" قائلا: << إن المسألة خطيرة، وإن الأمة الجزائرية المسلمة في قلق عظيم، وإن أصحاب الأغراض والمنافع من حكومة وحكوميين يعبثون بديننا ونحن ننظر فلنقف الوقفة الحازمة التي توقف كل عابث عند حدّه >>(3).

واستطاعت صحافة جمعية العلماء في هذه القضية بالذات أن تفرض وجهة نظرها في الموضوع وأن تكشفه للجزائريين وتدفع بالمجلس الجزائري بأن يدرج القضية في جدول أعماله للنظر فيها.

2- حكومة الاحتلال تصطنع رجالا من المسلمين الجزائريين لتطبيق مشاريعها

في الفرقة وبث الخلاف :

ومن أخطر مكائد فرنسا في معاملتها للدين الاسلامي في الجزائر، هو بذر الشقاق بين الجزائريين ووضع أسباب ذلك بوسائل غير شريفة. ومنها أن تعتمد إلى بعض الجزائريين فتدخرهم لأوقات الشدة وتخضعهم لشروط خاصة وتهمتهم ليكونوا حلقة مفقودة لقضية ما في يوم ما كما تقول البصائر(4) ويكشف الابراهيمى هذه الحقيقة المؤسفة في مقال عنوانه : <<أهذه هي المرحلة الأخيرة من قضية: "فصل الحكومة عن الدين 13: " >> وواتحبا لما تصنع هذه الحكومة ببعض الرجال منا، تعتمد إلى الواحد منهم

(1) محمد البشير الابراهيمى، عيون البصائر، مصدر سابق، ص 67 .

(2) المصدر نفسه، ص 64 .

(3) المصدر نفسه، ص 95 .

(4) المصدر نفسه، ص 70-71 بتصرف .

فتبقيه على سحنته، ولكنها تفرغه من سحنته.. تفرغه من معاني الاسلام والغيرة عليه، والطيرة له، والدفاع عنه والاعتزاز به، وتملؤه بمعان أخرى منها الإفك والزور، ومنها الأنانية والغرور، ومنها الاستخفاف بالاسلام، والاحتقار للمسلمين، ومنها الانقياد للحكومة، والاعتماد عليها، والاعتزاز بها، والتعالي بقوتها على عباد الله، والتفني بمدحها حتى في بيوت الله، فيصبح ذلك الواحد لا يأبه لنقض الإسلام، ولا يفضب لنسخ الأحكام، ولا يبالي بغضب المسلمين، كل ذلك لأن الحكومة شاءت ذلك. وإن أباه الله ورسوله والمؤمنون من عباده...» (1).

ويقول في مقال آخر عنوانه " أهذه هي المرحلة الأخيرة من فصل الحكومة عن الدين " ، مخاطباً الحكومة الفرنسية بصراحة: «> كان الدين الإسلامي بطبيعته لا يتأثر بالمصالح الدنيوية، فلم تزالي برجاله حتى أفسدت فطرتهم الدينية وصيرت الإمام في المحراب كالجندي في الميدان، والبوليس في الشارع، والقائد في الدّوار، يسابق في الخدمة وينافس في الزلفى، ويزاحم على الدرجة ويتطلع إلى النيشان تلوّحين بالمطامع والوظائف لطائفة فتلتف حولك.. وتنقصين شروط الكفاءة الدينية بالكفاءة الإدارية، فتتقضين بذلك أصلاً من أصول الاسلام، وتتساهلين حيث يجب التشدد في اعتبار الشهادة العلمية، والقيمة الأخلاقية، وتروضيهن على أسوأ ما يربى عليه رجل الدين في الاسلام، وهو التوجه إلى الحكومة والوقوف بأبوابها.. وتفاقم الأمر حتى أصبح عادة، فوصلوا أسبابهم وقطعوها من الدين، وآمنوا بأن الأمر إليك فكفروا بجماعة المسلمين فلما انتهى الأمر إلى هذا الحد.. سلطت بعضاً على بعض، لتشغلي بعضاً ببعض وتستريحي» (2).

ويصف الابراهيمي "رجال الدين" الذين تصطنعهم فرنسا للاسلام في مقال آخر عنوانه: «> ونعود إلى فصل الحكومة عن الدين»، فيقول: «> فوضعية رجال الدين الاسلامي عند هذه الحكومة ليست وضعية رجال الدين وإنما هي وضعية الجزء المكمل للجهاز الحكومي كالجند والبوليس، فالإمام والضابط والمفتي والكوميستير

(1) محمد البشير الابراهيمي، عيون البصائر، ص 151 .

(2) المصدر نفسه، ص 145.

و(البراح) والمؤذن والبواب والحزاب، كل أولئك سواء في نظر الحكومة وفي اعتبارها، وفي نظر أنفسهم بعد أن راضتهم على ذلك، وكل أولئك موظف عندها، مفروض عليهم السمع والطاعة.. ويمتاز الموظف الديني بقابلية التسخير لكل عمل.. وبأنه ذنب لكل ذي سلطة حكومية كيفما كان مقامه لأنه ليس له مرجع ديني يرجع إليه..»(1).

وتمن "البصائر" في الجرأة والمواجهة الصريحة ردا على إمعان الحكومة الفرنسية في احتقار الجزائريين في هذا المقام، تقول: «ومن المضحكات المبكيات في هذا الباب.. إنعام الحكومة بنياشينها على أصحاب الوظائف الدينية» ويتساءل: «أية علاقة أو نسب بين الوظيفة الدينية وبين النيشان؟» ثم يجيب: «إن الأصل في هذه النياشين أنها تشريفات، أو مكافآت من الحكومات لرجالها العسكريين والإداريين ومنشطات لهم على العمل الحكومي الذي يتفاضل فيه العاملون.. ويساءل مستكبرا: وما هو العمل الذي يؤديه الامام إلى الحكومة حتى يظفر منها بهذا الإنعام. ليؤكد ما قرره أولا من أن هذه النياشين وغيرها «هي أكبر دليل، وأنهض حجة على أن هذه الوظائف فارقت الدين والتحققت بالحكومة»(2). وأن ميزان الحكومة الفرنسية في اختيارها لهؤلاء الرجال هو الذي لا يصلح منا لدين ولا دنيا(3).

وتكشف "البصائر" عن الهدف الخطير الذي تعمل سلطة الاحتلال لتحقيقه من اصطناعها لهذه الفئة من "رجال الدين" - كما تسميهم - من الجزائريين، يقول في مقال: ونعود "إلى فصل الحكومة عن الدين -7-": «سلكت هذه الحكومة الاستعمارية منذ كانت إلى نحو الإسلام من الجزائر مسالك شتى فلما أيقنت أن ذلك لا يتم لها من طريق الشعوذة والترغيب عمدت إلى تشويهه بهذه الأساليب التي مازالت محتفظة بها، دائبة عليها إلى الآن، وغايتها من هذه الأساليب ثلاثة أمور:

- تكوين إسلام جزائري مقطوع الصلة بماضي الإسلام الحقيقي

- وتكوين مسلمين مقطوعي الأسباب من جميع المسلمين

(1) محمد البشير الابراهيمي، عبون البصائر، مصدر سابق، ص 115.

(2) المصدر نفسه، ص 117-118.

(3) المصدر نفسه، ص 147 بتصرف.

- وتكوين طائفة تقوم لها بذلك ممن تسميهم رجال الدين(1).

وتؤكد مقالات "البصائر" كلها حول قضية فصل الدين عن الحكومة الفرنسية الكيفيات التي رصدها الاحتلال الفرنسي للقيام بهذه المهام الخطيرة، حتى تحقق أهدافه في إبقاء ما كان وتقييم بهم الدليل على أن المسلمين راضون على ذلك تمام الرضا. ومن ثمة :

1- أوحى إلى "العاصمي" -أحد رجال الدين الذين ربتهم على طريقتها- بأن يقدم تقريراً حول هذا الموضوع سماه الابراهيمي "بالتقرير الحكومي العاصمي"(2). ووصفه بأنه «طبخ في الإدارة الجزائرية العليا»(2). و«بأنه من الحكومة وينتهي إليها»(3).

"وقد ادعى التقرير ضرورة تسليم المساجد إلى الموظفين الرسميين الذين يسميهم "برجال الدين" لأنهم أولى الناس بذلك.

"قدح في الجمعيات الدينية وأعاب عليها أن تقوم هي بنفسها بانتخاب المجلس الاسلامي الأعلى، وادعى بأن وظيفتها التزميم والإصلاح والفرش فحسب، كما ادعى بأن وراء كل منها حزبا سياسيا يؤديها، ومن ثمة فقد جعل الانتخاب مدخلا من مداخل السياسة التي يجب ألا يهتم بها أو تشتغل فيها.

وردة الابراهيمي يكشف حقيقة "العاصمي" الذي جعلته الحكومة أحد رجالها، ونصبته مفتيا حنفيا في الجزائر لا لشيء إلا لأنه استوفى جميع الصلاحية للاستعمال وشروط القابلية والاستعداد، والطوع والانقياد، وقال : «بأن وظيفة المفتي من أساسها تزوير على الاسلام، لأن الفتيا في الحلال والحرام حق على كل عالم بالأحكام مستوف للشرائط المقررة في الدين»(4).

وكشف الابراهيمي حقيقة التقرير بأنه فيه طعم الادارة الاستعمارية ولونها وريحها ثم تساءل مستكرا... أليس تسليم الحكومة المساجد إلى هؤلاء الموظفين تسليما من الحكومة إلى الحكومة ؟ وهل يستطيع واحد من هؤلاء أن يعصي لها أمرا، ولو كان فيه

(1) محمد البشير الابراهيمي، عيون البصائر، مصدر سابق، ص 116. بتصرف.

(2) المصدر نفسه، ص 72.

(3) المصدر نفسه، ص 74.

(4) المصدر نفسه، ص 73.

خراب الكعبة؟..»(1).

وتوقف المقال عند دعوى الاشتغال بالسياسة في قضية المساجد قائلا: أما ما يغالط به التقرير من أن الانتخاب يجر السياسة إلى المساجد... فهو سلاح من أسلحة الحكومة المفلولة مازالت تخارب به كل عامل.. ونحن نرد عليها هذه التهمة بالحقيقة، وهي أن تسلطها على مساجدنا وأوقافنا -وهي لائكية- هو عين السياسة، وإسنادها الوظائف الدينية إلى من تختاره وترتضيه هو رأس السياسة، ووضع هذا التقرير باسم العاصمي هو ذنب السياسة، ولولا السياسة ما كان للمفتي الحنفي وجود..»(2).

وبدعوى الحفاظ على الإسلام، وبعد الاستحواذ على شؤون المساجد وأوقافها، استحوذت حكومة الاحتلال الفرنسي على شؤون القضاء، وشؤون الحج وأضاف إليها شؤون الصوم -مباشرة وأسندتها إلى موظفيها الرسميين ووقفت "البصائر" من كل هذه القضايا، موقف المواجهة والتنبيه والتحذير وكذا التهديد مؤكدة بأن شؤون كل هذه القضايا إنما المقصود بها القضية الأم، فصل الدين الإسلامي عن الحكومة الفرنسية.

أ- فصل القضاء الإسلامي عن الحكومة الاستعمارية:

فقد عرضت حكومة الاحتلال قضية القضاء الإسلامي على المجلس الجزائري بدعوى تنظيمه أو إصلاحه عن طريق إجراءات متنوعة ولوائح وبلاغات، لكنها في الحقيقة كانت تبيت لإلغائه كلية، وقد وقعت محاولات واستفتاءات في بعض الأحيان يراد منها إلغاء القضاء الإسلامي بالتدريج، وإرجاع مشمولاته إلى القضاء الفرنسي، وقد كانت حكومة الاحتلال الفرنسي «تمهد الأسباب لذلك وتهدى من زمان بعيد -كما يقول الابراهيمي- ولكنها لا تريد أن يجيء ذلك الإلغاء مباشرة، ولا أن تقدم عليه في دفعة واحدة، وإنما تعمل له بالحيلة والمطاوله حتى يتم وكأنه أمر طبيعي، لا يشير لغطاً ولا يحدث تشويشاً»(3). وطريقتها في ذلك مثلا:

-التغاضي لبعض الفضاة عن الهنات الأخلاقية المخلة بشرف القضاء المشوهة لسمعته

(1) محمد البشير الابراهيمي، عبون البصائر، مصدر سابق، ص 75 .

(2) المصدر نفسه، ص 76 .

(3) المصدر نفسه، ص 128 .

- إبعاد مراكز القضاء عن المتقاضين .

- إرادة فتح باب التخيير للمتقاضين بين القاضي المسلم وبين القاضي الأوربي .

- التقول أو الادعاء بأن القضاء الاسلامي قضية منفصلة عن الدين أو هي ليست من الدين وهدف حكومة الاحتلال من هذه الطرق كلها وغيرها: تنفير المسلم من القضاء الإسلامي وتزهيده في التحاكم إلى القاضي المسلم واختياره للقضاء الفرنسي.

وقد نبّه الإبراهيمي بأن قضية القضاء من صميم الدين، وأشار إلى أنه «> كان من الواجب أن يرجع فيها إلى أهل الدين وهم المسلمون وحدهم، وكان من اللياقة والحكمة أن يستشار فيها أهل العلم بالدين لأنهم أدرى بالخلل وبوجوه إصلاحه >>(1). وعليه فلا شأن للنواب غير المسلمين بهذه القضية. وقد احتج لذلك بعدة دلائل منها ومذكرا، وأشار إلى أن الدولة الفرنسية نفسها تعترف بهذه القضية اعترافا صريحا، وقد جعلت تخلي المسلمين عن قانون أحوالهم الشخصية الإسلامية شرطا أساسيا لنيل حقوقهم السياسية مع أنها بترت القضاء الإسلامي بانتزاع أحكامه في الجنایات والأموال. ولم تبق لأحكام النكاح والطلاق والمواريث منه حقيقة الشرعية حيث أصبح القضاء بحكم الضرورة لا يرجعون في أحكامهم إلى النصوص الفقهية، وإنما يرجعون إلى اللوائح التي يضعها وكلاء الحق العام الفرنسيون >>(2). بكل ما في هذا من ظلم وإجحاف.

ومن ثمة بينت "البصائر" موقف جمعية العلماء في قضية القضاء الإسلامي بصراحة وشموخ لما قالت: >> إنما نريد لقضائنا حرمة ومكانة، ونريد لرجالنا سمعة ومنزلة، ونغار عليهما، وندافع عنهما بحمية وحماسة ونطالب بإصلاح القضاء ثم باستقلاله، ونرى أنه لا عز لأمة إلا بعزة قضائها وقضائتها >>(3). وأجملت نقاط الإصلاح اللازمة التي لا بد منها لمن يريد الإصلاح وله فيه نية وقصد حسن:

1- وجوب توسيع برامج التعليم القضائي بمواده، واشتراط الكفاءة في معلمها.

(1) محمد البشير الإبراهيمي، عبون البصائر، مصدر سابق، ص 129.

(2) المصدر نفسه، ص 133-134 .

(3) المصدر نفسه، ص 129 .

2- وجوب إدخال المتخرجين من جامع الزيتونة أو غيره في المعاهد الأخرى في الخطط القضائية.

3- وجوب تكوين مجلس قضائي أعلى من القضاة المسلمين يتولى اختيار القضاة ومراقبتهم والنظر في سلوكهم.. وتكون سلطة هذا المجلس مستقلة عن القضاء الفرنسي.

4- وجوب تكوين محاكم استئناف إسلامية ذات سلطة إسلامية محضة، لأن حكم القاضي المسلم لا ينقضه إلا قاض مسلم (1).

وقرّر في الأخير فتوى شرعية مفادها عدم جواز تحاكم المسلم إلى حاكم غير مسلم، أو استباحته نكاحاً أو إرثاً من أية جهة كان أو دماً بأية شبهة كانت إلا بحكم قاض مسلم.

ولم يفت البصائر أن تسجل يأسها من استجابة حكومة الاحتلال إلى هذه المطالب، أو النظر فيها وعبرت عن ذلك بقولها: << إن طالب الاحسان من الاستعمار كطالب النسل من العقيم .. >> (2).

ب- فصل الحج عن الحكومة الاستعمارية:

نهت "البصائر" الجزائريين إلى أن قضية الحج من قضية الدين، وكشفت طرق حكومة الاحتلال للاستحواذ عليها مع أنها شعيرة دينية محضة، وهدفها من ذلك، فقد كانت الحكومة << تحجج كل سنة بضعة من صنائعها على طيارة - كما يقول الابراهيمي - ترسلهم دعاة ليسبحوا بحمدها ويوافقوها بالأخبار والتقارير تظهر لهم الثقة بهم وهي تسيء الظن بجمعهم لأنهم مسلمون .. وتزعم بذلك دليلاً على تسامحها في الدين واعتنائها بالاسلام والمسلمين >> (3). ثم أضافت فيما بعد شروطاً خاصة للشروط الشرعية الإسلامية المعروفة للحج وهي: البراءة من التهم والاحرامات المدنية والسياسية <> (4). والإحرام

(1) محمد البشير الابراهيمي، عيون البصائر، مصدر سابق، ص 134-135.

(2) المصدر نفسه، ص 134.

(3) المصدر نفسه، ص 56.

(4) المصدر نفسه، ص 58.

المدني في عرف الحكومة لا يتمثل في أمهات الرذائل وأصول الخبائث كالزنا والخمر والقمار...» لأن قوانين الاستعمار تبيحها وتعدّها من الحلال الطيب «(1)، والتي يكون الحج سبيلًا لطلب المغفرة فيها وطريقًا للتوبة منها، لكن الاجرام السياسي عندها - كما يبيّنه الابراهيميّ - «هو حب الوطن، والعمل على مفع أبنائه وبغض الاستعمار والعمل لمقاومته» (1). وهذا ما تعتبره الحكومة مانعا من أداء واجب ديني غير الصلاة والصيام. وقد منعت إدارة الاحتلال المرأة الجزائرية المسلمة من الحج - إلا القليل - مع أنه ليس بين المسلمات مجرمات مدنيات أو سياسيات.

وبهذا وغيره يقرر الابراهيميّ «أن الحج في نظر الاستعمار أداة مهياة لاستبعاد الأمم الإسلامية، يصرفهم بها في مصالحه، ويستخدمهم بسببها في أغراضه، ويسخرهم بها كما تشاء أهواؤه لا كما يشاء الاسلام وتقتضيه حكمته، ويجعل من وجوبه عليهم وسيلة لإخضاعهم وإذلالهم واستنزاهم على حكمه، ويجعل من خشيته من اتصال المسلمين وتعارفهم مبررا للتضييق عليهم» (2).

أما هدفه الآخر من تلاعب الاستعمار بأحكام الحج وعشه بشروطه ثم إيكال فصل الرخص فيه إلى الإدارات الكثيرة «هو أن يخرج الحج عن حقيقته الدينية التي هي معاملة بين المسلم وربه إلى مساومة تجارية سياسية أحد طرفيها الدين والضمير، وإلى معاملة استبدادية بين حاكم مسيحي مستبد بيده الباب ومفتاحه والرخصة والذهب والركب وطرق السفر في البر والبحر والجو، وبين مسلم مغلوب على أمره ليس له إلا إيمان في قلبه» (3).

وقد دعت "البصائر" إلى عدم معالجة قضية الحج بالتضرعات والتوسلات وإنما باستتصال جرثومتها بشيء واحد وهو فصل الدين عن الحكومة لأنه - كما تقول - فإذا حصلنا الفصل رجعنا إلى الأصل وإذا نقضنا الأساس لهذه القضية انتقضت فروعها» (4).

(1) محمد البشير الابراهيميّ، عيون البصائر، مصدر سابق، ص 58.

(2) المصدر نفسه.

(3) المكان نفسه

(4) المصدر نفسه، ص 60.

ج- فصل الصوم عن الحكومة الفرنسية: لم يكن شهر رمضان وموضوع الصوم يهيم حكومة الاحتلال الفرنسي من قريب أو من بعيد، لكن يبدو أن إمعان جمعية العلماء في الدفاع عن الإسلام في كل خصائصه وأركانه وشعائره وعباداته، دفع حكومة الاحتلال إلى الغلو في الكيد، وإلى نوع من العناد لا عقل فيه، >> فقد عزّ عليها أن تنقص أركان الإسلام ركنا ركنا ويبقى هذا الركن -وهو الصوم- خارجا عن نفوذها، ورأت نقصا في سمعتها وغميزة في كرامتها أن تفلت شعيرة الصوم من قبضتها.. فمدت يدها إليه تعبت فيه بالكيد وتفسده بالحيلة >>(1). ولم يكن عدم تدخل الحكومة في موضوع الصوم من قبل استغافا منها - كما يقول الابراهيمي -: >> وإنما كان استخفافا، لعدم وجود المال فيها... فرمضان ليس له أوقاف تنفق عليه ولا سفينة تحمل إليه، والأعياد، عاطلة الأجياد آمنة من طروق زياد، وطارق بن زياد...>>(2).

أما جديد الحكومة في هذه القضية فدخلته من ثغرة أصبحت خطيرة على المسلمين - كما يقول الابراهيمي وهي - >> وظيفة الفتوى والقضاء>>. فقد كوّنت حكومة الاحتلال لجنة الأهلة والأعياد التي أصبحت تتحكم في هلال رمضان >> يثبتونه وهو في حجورهم أو يخفونه وهو في كبد السماء، اتباعا لوجي مرسوم لا يتعدونه >>(3). ثم استصدرت منها قانونا يقضي باعتبار الأعياد الإسلامية رسمية تعطل فيها الأعمال الحكومية والمهنية والصناعية. وكان غرضها منه إلقاء الموظفين والعمال المسلمين إلى اتباع رأي لجنّتها في الصوم والإفطار، إذا اختلفت الآراء، وتهيء الجزائر للانقطاع عن الأقطار الإسلامية ثم قطعها نهائيا ليسهل عليها ويتم لها تكوين إسلام جزائري بعد أن أخفقت التجارب القديمة>>(4).

وعليه فقد نبهت صحافة الجمعية، الجزائريين، عن طريق عدة مقالات في "البصائر": "فصل الدين عن الحكومة -3-"، "فصل الدين عن الحكومة"، أو "فصل

(1) محمد البشير الابراهيمي، عبون البصائر، مصدر سابق، ص 175 .

(2) المصدر نفسه، ص 106 .

(3) المصدر نفسه، ص 175 .

(4) المصدر نفسه، ص 175-176 .

رمضان والأعياد عن قاضي الجزائر "...، "قضية فصل الدين ومن فروعها صوم رمضان"، كشفت فيها عن خيوط المكيدة ووقائعها وأهدافها، ودعت إلى أنه «على الأمة أن تتفطن لهذه المكائد الشيطانية، وترننها بآثارها، وتعتبرها بعواقبها، فإن هذه الحكومة لا تعمل عملاً إلا وله غاية وعاقبة، ثم لا تكون الغاية إلا هدماً لركن من أركان ديننا، ولا تكون العاقبة إلا ربحاً لها وخسارة لنا»(1). كما دعت إلى مقاطعة الحكومة، وحكمت ببطان كل ما تحكم به، وما يصدر عنها في شؤون الاسلام وأكثر من ذلك تبعت جمعية العلماء بنفسها هلال رمضان وعيد الفطر بدل لجنة الأهلة -المصنوعة- وبلغت الأمة التي اتبعت أمرها بدل أمر الحكومة واثبتت بالإجماع قطيعتها لها (2).

وعن طريق رجال الدين هولاء والموظفين الرسميين الذين لم يكونوا يعصون للحكومة الاستعمارية أمراً، سهل لهذه التزويج لكثير من الادعاءات والأكاذيب التي لم تكن تستند فيها إلى منطق أو واقع أو نزاهة والتي كانت صحافة جمعية العلماء لها بالمرصاد متتبعه كاشفة مستندة إلى الحقيقة والتاريخ.. ومن هذه:

-دعوى احترام الاسلام والحفاظ عليه: تقول "البصائر" رداً على هذه الدعوى: إن مائة وعشرين سنة تشهد بشهورها وأعوامها ولياليها وأيامها، وساعاتها ودقائقها، بأن هذه الحكومة على اختلاف رجالها ونزعاتها، لم تعمل عملاً إيجابياً يسمى -ولو مجازاً- محافظة على الاسلام، بل ما عملت إلا على إضعافه ومحوه (3).

وتنبه في مقال آخر إلى أن دولة فرنسا لانكية كما يثبت دستورها «في الزعم والمظهر، وإن كانت مسيحية في الحقيقة والجوهر، وعلى أي الحالتين كانت فلا يصدقها أحد في دعوى المحافظة على الاسلام لأنها إن كانت "لانكية"، فاللانكية لا هم لها بل لا معنى لها إلا محو الأديان، لأنها تخطر على سلطتها الزمنية في زعمها وإن كانت مسيحية فالمسيحية همها محو الإسلام على الخصوص، فأين تقع دعوى المحافظة عليه»(4).

(1) محمد البشير الابراهيمي، عبون البصائر، مصدر سابق، ص 176.

(2) انظر وقائع القضية المصدر نفسه، ص 107-117.

(3) المصدر نفسه، ص 114.

(4) المصدر نفسه، ص 113.

ويعتدّ المقال مكاييد وكيفيات استحواذ حكومة الاحتلال على أركان الإسلام واحداً واحداً، ليثبت أنها كانت كلها بقصد محوه وتهديم خصائصه وينتهي في مقال آخر إلى حقيقة هامة للتاريخ مقارنة فيها بين الاستعمار الفرنسي الذي يدعي الديمقراطية وبين الشيوعية التي شملها حكم محاربة الأديان وحدها، يقول: «.. ماذا أبقى الاستعمار الفرنسي "الديمقراطي" للشيوعية من حرب الأديان ومنها الإسلام؟... إنا نشهد ونشهد الله على أن الشيوعية إن حاربت الأديان، أو الإسلام خاصة فهي تلميذة للاستعمار الفرنسي في ذلك فهو الذي خطط لها الخطط وفتح لها الباب وضرب الأمثلة...» (1).

-دعوى الخصومة والاختلاف بين المسلمين الجزائريين في قضية فصل الدين عن

حكومة الاحتلال:

فقد تمسكت حكومة الاحتلال بعد أن كشفت جمعية العلماء أعمالها في هذه القضية خاصة بإشاعة أن علماء الجمعية يريدون احتكار القضية لأنفسهم قبل الفصل واحتكار استغلالها بعد الفصل (2). تم تمسكت بإشاعة سكوت العلماء الأوائل عن هذه القضية ومن ثمة تشجيع تدخل علماء الجمعية في معالجة أمور الدين، بل ذهبت إلى رميهم بالتعصب لتنتهي إلى ترويج دعوى الاختلاف والخصومة بين المسلمين الجزائريين وتذرع بها ولتبقى الدين الإسلامي بقبضتها >> لأنها إذا أرضت طائفة أغضبت طائفة، وإرضاء الجميع من الخيال >> (3) في زعمها.

وكانت ردود علماء الجمعية غاية في التحدي، غاية في الجراءة، غاية في المنطقية، حيث تساءلت "البصائر" أولاً >> هل يستوي الذين ينادون بتسليم القضية إلى جماعة من المسلمين بواسطة جماعة من المسلمين، والذين يريدون تسليمها إلى الحكومة، بواسطة رجال.. من الحكومة؟ >> (4). ثم تؤكد بأن سكوت علماء الأرض كلهم على الباطل في الدين لا يصيره حقاً، وإن تواطؤهم جميعاً على منكر فيه لا يصيره معروفاً، وإنا لسنا من

(1) محمد البشير الإبراهيمي، عيون البصائر، مصدر سابق، ص 184.

(2) المصدر نفسه، ص 148-149.

(3) المصدر نفسه، 140

(4) المصدر نفسه، ص 149 .

الكرامة على الله أن ينسخ أحكام دينه لأجلنا، أو نسخ صواب دينه لأجل خطئنا فيه، وما ثم إلا ما محتمت به الرسالة : ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ (1) فما لم يكن يومئذ ديننا فليس اليوم بدين «(2). وتنتهي "البصائر" بدورها إلى قطع كل التعللات والمعاذير عن الحكومة الاستعمارية الفرنسية في هذه القضية وهو إعلانها بكل صراحة على لسان علماء جمعية العلماء وأكثر من مرة في أكثر من مقال: قولهم: إننا نتحدى الحكومة،.. بأننا إذا رأينا صدقها في الفصل، وإخلاصها في التنفيذ، ونفض يدها من كل ما يتعلق بالقضية، وأقامت لنا الدليل على أن باطنها في ذلك كظاهرها، فإننا مستعدون لتسليم القضية إلى أي قادر على تسييرها من جماعات المسلمين، وللتنازل الخالص عن حظوظ جمعية العلماء في القضية. فهل في التحدي أبلغ من هذا «(3).

ومع كل هذه الحجج وهذه الحقائق والتحديات، وبعد أن أعبتها الحيلة والمعاذير لم تبت حكومة الاحتلال في هذه القضية، بل تمسكت بعذر آخر يعتبر القضية عويصة ومتشعبة حتى بعد عرضها على المجلس الجزائري، لكن الحقيقة هي أنها لم تكن تريد فصل الإسلام عنها وكانت تعمل لبقائه تحت قبضتها لكل الأهداف التي سبق وأن شرحتها "البصائر"، لكن جمعية العلماء من جهتها قد فتحت لها قضية فصل الدين عن الحكومة الفرنسية كل الأبواب ووفرت لها كل الفرص السياسية التي حاربت عن طريقها سياسات فرنسا في الاندماج والفرنسة والتجنيس، والبت فيها إزاء الشعب الجزائري المسلم، لأن نظرة الجمعية لقضية فصل الدين هذه كما شرحتها البصائر هي الجزء الأهم من أعمال جمعية العلماء لأهميتها في ذاتها ولأثرها البالغ في نفسية الأمة بالإضافة إلى قضية التعليم العربي: «> فالإسلام والعروبة دعامتان تمسكان هذا الوطن أن يزول، وفي فصل الإسلام عن الحكومة تثبيت للدعامة الأولى، وفي التعليم العربي تمكين للجنسية العربية، ولا يقدر قدر هاتين الدعامتين ولا يعمل جاهدا في تثبيتها إلا من يعلم كما نعلم - كما يقول الابراهيمى - أن الاستعمار جاء على هذا الوطن بثلاثة أشياء لمحوها ثلاثة أشياء:

(1) المائة، 3.

(2) محمد البشير الابراهيمى، عيون البصائر، مصدر سابق، ص 156.

(3) المصدر نفسه، ص 141 .

- جاء باللاتينية ليغمر بها العروبة

- وجاء باللغة الفرنسية ليقضي بها على اللغة العربية

- وجاء بالمسيحية لينسخ بها الاسلام

يبدأ بالمحاورة ثم المضارة ثم ترحيل الأقوى للأضعف، وكل أعماله وشرائعه -بعد ذلك حياطة لهذه المبادئ وتقوية لها، وما عمله في إحياء النزعات البربرية.. وضغطه على التعليم العربي، وتشجيعه للضلالات والبدع، ومشروع الاندماج، ولقب "مسلم فرنساوي" الذي يعرفنا به وغيرها من مبتكراته إلا عناوين على كتاب طويل عريض، مقدمته "مسام فرنساوي" وخاتمته "فرنسوي مسيحي" (1).

وكان أبلغ سهم سدّته جميعه العلماء لتقضي كلية على مشاريع الاحتلال الفرنسي في الفرنسية والتجنس والاندماج، ملخص قضية فصل الدين هو الفتوى التاريخية التي أفتى بها رئيس الجمعية الشيخ عبد الحميد بن باديس ونشرتها "البصائر" سنة 1938م. بعدما استفحل أمر المتجنسين بتسهيل حكومة الاحتلال لذلك ثم نشاطهم في الدعاية لتوسيع نطاق التجنيس بين ضعاف المسلمين، والتي تلتها موجة استنكار من المسلمين ترجموها برسائل كثيرة إلى لجنة الفتوى بالجمعية تستفتيها في الأمر.

وقد ضمّن ابن باديس فتواه في شرح معنى التجنيس ومقتضياته وآثاره وخطورته على الإسلام ومن لمة على الوطنية الجزائرية: يقول ابن باديس: «التجنيس بجنسية غير اسلامية يقتضي رفض أحكام الشريعة ومن رفض حكما واحدا من أحكام الاسلام عد مرتدا عن الاسلام بالاجماع، فالمتجنس مرتد بالاجماع. والمتجنس -بحكم القانون الفرنسي- يجري تجنسه على نسله، فيكون قد جنى عليهم باخراجهم من حظيرة الاسلام. ويدخل تحت حكم المتجنس بالتالي من احتكم في ماله قبل وفاته إلى الحكم المسيحي بكتابة وصية يقسم فيها ماله على غير القسم الاسلامي، ومن تزوج بأمرأة من جنسية غير اسلامية لأنه يورّط نسله في الخروج من حظيرة الشريعة الإسلامية.

(1) عمدة البشر الابراهيمي، عمون البصائر، مصدر سابق، ص 141.

وقد أوجب ابن باديس توبة هؤلاء - لمن أراد ذلك منهم - أن لا يكتفوا بالندم، فإفلاعهم لا يتحقق في الظاهر إلا إذا أقلعوا فعلا عن طلب الحكم الآخر أو بتنفيذهم لحكم الاسلام إن كان غيره قد وقع (1).

ولخصت "البصائر" نظرتها إلى قضية فصل الإسلام عن الحكومة الفرنسية، وكون البت فيها قضاء كلي لكل مشاريع فرنسا وكونها الأساس في الوطنية المتينة الخالصة قالت:

«نظرتنا إلى قضية الموضوع أنها أساس متين من أسس الوطنية، ووزننا لأعمالنا فيها أنها أعمال وطنية أولية، فإن الوطن مسلم عريق في الاسلام، عربي أصيل في العروبة، وعلى كل وطني مخلص في خدمة وطنه أن يبدأ من هنا، وإلا فهو مغمور في وطنيته: إما مدسوس فيها أو متاجر بها، أو مخدوع عنها، أما الوطني الصميم فهو المدافع عن دين وطنه ولغة قومه، حتى يثبت أن هناك وطننا يشرف الانتساب إليه، وقومية يحسن الاعتزاز بها، وما بذل الاستعمار هذا الجهد كله في حرب الاسلام والعربية، بهذا الوطن، إلا ليجرّده من اسم "الوطن" ويجرد أهله من صفة "الوطنيين" لأن الوطن إذا جرّد من هذين لم يعد أن يكون قطعة أرض يموزها من طلب أو من غلب» (2).

(1) انظر موضوع هذه الفتوى في: آثار الإمام عبد الحميد بن باديس، مصدر سابق، ج3، ص 308-309. بتصرف.

(2) عمد البشير الابراهيمي، عيون البصائر، مصدر سابق، ص 166.

III- صحافة جمعية العلماء وقضايا الأمة العربية والاسلامية:

يسند اهتمام جمعية العلماء بقضايا الأمة العربية والاسلامية على كم كبير من المعطيات والحقائق منها:

1- انتماء الأمة الجزائرية إلى الأمة العربية العظيمة التي تعني عند الجمعية : >> الأمة الممتدة من المحيط الهندي شرقا إلى المحيط الأطلسي غربا، والتي فاقت سبعين مليوننا غدا، تنطق بالعربية، وتفكر بها، وتتغدى من تاريخها، وتحمل مقدارا عظيما من دمها، وقد صهرتها القرون في بوتقة التاريخ حتى أصبحت أمة واحدة >>(1).

2- ارتباط الأمة الجزائرية بالأمة العربية الكبرى >> زيادة على رابطة اللغة - برابطة الجنس، ورابطة التاريخ، ورابطة الأمل، ورابطة الأمل >>(2). ومن ثمة كل ما تعنيه الوحدة الأدبية والقومية.

3- سقوط معظم الشعوب العربية في قبضة الاستعمار الأوروبي: الانجليزي، الفرنسي، الايطالي، والأسباني، الذي عمل بقصد وبلا هوادة على توهين هذه الروابط وقطع هذا الانتماء بين هذه الدول بكل الوسائل غير الشريفة والأساليب غير الانسانية المعلنة منها والمسترة.

4- إن العمل والمساهمة في كشف هذه الوسائل، وتلك الأساليب ينتهي إلى تغذية الشعور بالوحدة القومية والأدبية العامة بين شعوب الأمة العربية والاسلامية، وإبقائه حيا ليساهم متى توفرت الظروف، في إتمام وجوه الوحدة الأخرى وخاصة السياسية.

وقد أولت صحافة جمعية العلماء قضايا الوطن العربي الكبير اهتماما يتجلى في تتبعها الدقيق لأحداثه بصورة مستمرة، ويتجسد في الحرص الشديد في تليق أخباره رغم بعد الشقة وانعدام وسائل الاتصال، ورغم محاولات الاحتلال الفرنسي المتواصلة والمختلفة لعزل المسلمين الجزائريين عن إخوانهم بجرمانهم من الإمدادات الثقافية والإعلامية، أو بمتابعة من من يهتم منهم بهذه القضية بالتهمة المتنوعة تصب كلها في الخطورة على أمن فرنسا. ومع ذلك فإن الاحتلال الفرنسي لم يفلح قط في زعزعة عقيدة الجزائريين الراسخة

(1) آثار الامام عبد الحميد بن باديس، مصدر سابق، ج5، ص 370.

(2) المكان نفسه.

بالانتماء إلى الوطن العربي والاسلامي الكبير، ومازادت أساليبه ووسائله إلا إلهابا لحنين الأخ للأخ لمعرفة أخباره ومسايرة تطوراته.

ولم تفرق صحافة جمعية العلماء في عرضها لدول العالم العربي والاسلامي بين دولة وأخرى وكانت كل منها تعتبر >> قطعة ثمينة من وطن العروبة الأكبر، ومعقل حصين من معقل الإسلام الباذخة >>(1)، كما تعتبر العالم العربي، بما يربط دوله من مقومات الوحدة، >> كالجسد الواحد إذا ألم بجزاءه من أجزائه حادث أو نزلت به مصيبة تداعت له سائر الأجزاء بالنصرة والغوث، أو بالتوجه والامتعاظ وما ذلك إلا تضامن طبيعي لأنه حنين العرق غلى العرق، ومجاوبة الروح للروح، ونداء الدّم للدّم، وأنه فيض من شعاب الفطرة الانسانية، لا تملك القوة المادية زمامه، ونعرة من ذوي رحم لا يتوجه إليهم فيها اللوم فضلا عن المؤاخذة (2). وكان جديد الأحداث في هذه الدول هو الذي يفرض نفسه على الصحافة بضرورة التعرض إلى دولة قبل أخرى والتعليق على أحداثها بما تقدمه من معطيات محلية ووقائع حية.

ويمكننا أن نفرق بين طريقتين لكيفية معالجة صحافة جمعية العلماء وتعرضها لقضايا الأمة العربية فرضتها مرحلتين، المرحلة الأولى تمتد حتى العام الثاني من عمر الجمعية تقريبا، ثم المرحلة التالية لها، حيث لم تكن تعرض الصحافة الباديسية لقضايا الدول العربية مباشرة وإنما كان ذلك متضمنا في مقالات تتحدث عن الاستعمار الأوروبي الذي كانت تخضع له هذه الدول، بتتبع أساليبه، ووسائله وجديد طرقه في تشديد قبضته على الشعوب العربية، وإدامة سيطرته عليها وذلك عن طريق توحيده مع الدول الاستعمارية الأخرى ضمانا لقضاء مصالحها على حساب الشعوب التي تستعمرها ولو كان يقابله جنث وتضحيات حسام.

ولم يخل عدد من الشهاب سنة 1926م من التعرض إلى الإستعمار الأوروبي بكل جنسياته وأهدافه، ولذلك فإننا نجد المواضيع التالية مثلا:

(1) محمد البشير الابراهيمي، عيون البصائر، مصدر سابق، ص 448.

(2) المصدر نفسه، ص 478-479.

الموضوع المعالج	الجريدة، عددها وتاريخها
م: وزارة الاتحاد المالي. المالية الفرنسية في طريق التحسين. فرنسا تقتدي ببلجيكا	الشهاب ع 42 في 29 جويلية 1926م
ديون أميركا واتفاق واشنطن (وجهة النظر اليوم فيها)	الشهاب، ع43، في 2 أوت 1926م
فضيحة أنكليزية	الشهاب، ع46، في 12 أوت 1926م
روسيا في اضطراب، ونظام السوفيات في دور انحلال	الشهاب ع47، في 16 أوت 1926م
مسألة الحبشة. تجربة الاستقلال . جمعية الأمم	الشهاب، ع48، في 20 أوت 1926م
المعاهدة الإيطالية الإسبانية	الشهاب، ع49، في 23 أوت 1926م
التقرب الألماني الفرنسي	الشهاب، ع50، في 26 أوت 1926م
مسألة طنجة بين اسبانيا وانجلترا. المستعمر الإسباني بمن ويهدد	الشهاب، ع52 في 2 سبتمبر 1926م
جزيرة العرب والنفوذ الانجليزي الفرنسي	الشهاب ع53 في 6 سبتمبر 1926م
عاقبة الضغط، سوء الحالة في اسبانيا	الشهاب، ع54 في 13 سبتمبر 1926م
منورا الشرقيين- تركيا واليابان	الشهاب ع 58 في 27 سبتمبر 1926م
إلى ماذا تسير أوروبا ؟ إلى تسلم قريرة.. أم إلى حرب هيرة ا	الشهاب، ع60، في 7 أكتوبر 1926م

الجدول رقم 16 : موضوع 'الاستعمار الأوروبي في "الشهاب" سنة 1926م

استغلت صحافة الجمعية - الباديسية - أولا هذه المواضيع لتعرض فيها إلى صور الظلم والاضطهاد الاستعماري في كل ربوع الوطن العربي والإسلامي الكبير، لتندد به وتتخذ منه موقعا حصينا توجه ضرباتها من خلاله إلى العدو الفرنسي الذي يجثم على صدر الأمة الجزائرية، ثم إلى كل الاستعمار الأوروبي بألوانه وجنسياته، وكانت هذه منها، طريقة ذكية ومرنة تبعد بها عنها يد السلطة الفرنسية لكنها تحقق عدة أهداف في الوقت نفسه منها :

- 1- تنبيه الجزائريين وأفراد الشعوب العربية الأخرى إلى طرق ووسائل الاستعمار الفرنسي.
- 2- استنهاض همم العرب والمسلمين لمقاومة الظلم.
- 3- تلقينهم دروسا في السياسة العالمية.

4- تبيينهم إلى خطورة التفرق بينهم ودعوتهم إلى بحث أسباب الوحدة وأساليب تحقيقها للحيلولة عن مظالم الاستعمار فيهم.

ونلمس بوضوح هذه الاشارات خاصة في نهايات المقالات المذكورة التي يبدو أن صاحبها كان يتعمد أن يستخلص العبرة من الحادث السياسي ليجعله مؤشر تبيينه وتوعية لمواطنيه في الوطن الصغير - الجزائر - والوطن الكبير وتتبع ذلك فيما يلي:

يعلق ابن باديس على التقارب الياباني التركي وموقف الاستعمار الأوروبي منه، فيقول: « لا شك أن الذين لا يحبون للشرق حياة يسوءهم هذا التقرب، ويخشون منه سريان عدواه إلى أمم أخرى بالشرقين، لكن سواء حبوا أم كرهوا فإن روح التقارب والتفاهم بين أمم الشرق لم يبق فيها من خفاء، والذي يأمله محبو الخير للإنسانية عامة هو إدراك سياسة الغرب لذلك الذي لم يخف على أحد حتى يعملوا هم من جهتهم أيضا على بث روح التقارب والتواد بين الشرق والغرب »(1).

-ويعلق ابن باديس على دخول ألمانيا لجمعية الأمم المتحدة وأثر ذلك على السلم العالمي، يقول: « لقد خطا الغرب القوي خطوة واسعة بدخول ألمانيا للجمعية نحو السلم، ولكنه لن يخطو إليه الخطوة الأخيرة إلا إذا أحسن صحابة أخيه الشرق الضعيف إلى غايته »(2).

أما في قضية بيع انكلترا السلاح لتركيا الذي عنونه ابن باديس: " بفضيحة انجليزية" فيعلق على ذلك بقوله: « فهل كان هذا السلاح يراد إعطاؤه لتأييد الأتراك في مسألة الموصل؟ هذا ما لا يكون، لكن الذي لا يجهل عن سياسة انكلترا أنها لا تفتأ تستعمل أضعف أعدائها في أقواهم، ولكنها تبوء بالخفية إذا وجدت العقل التركي الذي يعسر عليها أن يفتخر بدساتسها »(3).

والقارئ لهذه المقالات لا يمكنه أن يتجاهل العاطفة الذاتية للكاتب، ولا أن يغفل

(1) جريدة الشهاب، ع58، المؤرخ بـ 27 سبتمبر 1926م.

(2) جريدة الشهاب، ع55، المؤرخ بـ 16 سبتمبر 1926م.

(3) جريدة الشهاب، ع46، المؤرخ بـ 12 أوت 1926م.

(4) جريدة الشهاب، ع52، المؤرخ 2 سبتمبر 1926م.

الدافع المحرك الذي يقف وراءها لمعالجة هذه القضايا وبتلك الطريقة، والحقيقة أنه لم تستحوذ النظرة العاطفية وحدها على مشاعر كتاب المقالات إنما صحبتهم في عاطفتهم تلك نقداً سياسية موقفة ينفذون منها من الوصف السطحي للأحداث إلى التفسير السياسي لها ويكشفون عما وراءها من أسرار ومؤمرات قد تخفى على المتبع العادي للأحداث وعن القارئ المتسرع للمقالات. وقد استطاعت صحافة جمعية العلماء في المرحلة التمهيديّة التي تطلبت منها المرونة في الطرح واللين في المعالجة أن تميّز اللثام عن دور الدول الاستعمارية المذهل في نسج شبك التآمر المحكمة حول البلاد العربيّة والإسلامية وتكشف القناع عن الشخصيات المتنكرة التي تغذي الثورات والفتن، ومع ذلك فلم تغل بعض هذه المقالات نفسها من أن تخرج أحياناً من أسلوب المرونة والتخفي لتسجل ملامح استنكار قوي وتنفيد عنيف وترسم مؤشراً للثورة التي هي عاقبة كل ضغط فتد عتق ابن باديس على مسألة طفحة بين إسبانيا وإنجلترا في نهاية المقال بقوله:

>> وأمة تتضى بضع عشرة سنة في منطقة لم توطد فيها أمتنا، ولم تزرع فيها عمراناً، ولم ينتعش فيها اليوم منها إلا بفضل غيرها - جديرة بأن تسمع هذا الكلام وأن تفهمه >> (1).

صحافة الجمعية في المرحلة الرسميّة

وتمر صحافة جمعية العلماء في مرحلتها الرسميّة إلى الصراحة في الطرح، والأجراً في العرض، والشدة في اللمحة وخاصة في التعرض إلى هذه القضايا من الوجهة السياسية، وكانت تتعمد إثارة ما كان الاستعمار الفرنسي والأوروبي عموماً يخافه، من قضايا وتختار لها الأسلوب المباشر الذي لا تلمح فيه لينا ولا مراوغة وذلك باستغلال كل المناسبات لتندد فيها بالاستعمار وتعاطف مع الحركات مع الوطنية والاستقلالية في الدول العربيّة وبإثارة ما يلهب المشاعر القوميّة ويبعث عواطف الأخوة الإسلامية والنخوة العربيّة في أفراد الشعوب العربيّة، ودعوة هؤلاء إلى التصرّ بواقعهم، والعمل على تغييره، وحثهم على التناصر والتكاتف والوحدة للوقوف ضد أساليب الاستعمار الأوروبيّة والحيلولة دون تحقيق المزيد من المطامع والمصالح على حسابهم.

فجدد صحافة جمعية العلماء تؤكد عروبة الشمال الإفريقي بجميع أجزائه >> كيفما

(1) محمد البشير الإبراهيمي، عيون البصائر، مصدر سابق، ص 477.

كانت الأصول التي انحدرت منها الدماء، والينابيع التي انفجرت منها الأخلاق والخصائص، والنواحي التي جاءت منها العادات والتقاليد، وهي أثبتت أساسا، وأقدم عهدا وأصفى عنصرا، من إنكليزية الانجليز، وألمانية الألمان(1). ثم تعرّض بسياسة التفريق التي ينتهجها الاحتلال الفرنسي بين شعوب هذه الدول، بالقول بأن كل ما يحتاج به القادحون في عروبة هذا الشمال هو حجة عليهم، ويورد لذلك الأدلة التاريخية والواقعية التي تنتهي إلى أن كل شعوب الشمال الإفريقي عربية صميمة، عربية في الضروريات المقومة للدولة، كوظائف القلم من إدارية ومالية، ووظائف القضاء من عقود وتسجيلات، وعربية في الكماليات التي تقتضيها الحضارة والترف، كالغناء والموسيقى والشعر»(2).

ومن ثمة كان من الطبيعي أن تهب مواطن العروبة كلها صارخة في وجه العدو، إذا ألم مواطن منها حادث أو نزلت به مصيبة، مما توقعها به أدوات الاحتلال الفرنسي وأساليبه الذي ينكر عروبة الشمال الإفريقي بالقول، ويعمل لمحوها بالفعل وهو في جميع أعماله يرمي إلى توهين العربية بالبربرية، وقتل الموجود بالمعدوم ليتيم ما يريد من محو واستئصال لهما معا.

وتكشف صحافة الجمعية طرق الاحتلال الفرنسي في ذلك لما تقول: فهو «يتعمد العربية بالحرب لأنها عماد العروبة ومسكة الدين أن يزول، ولأن لها كتابة، ومع الكتابة العلم، وأدبا، ومع الأدب، التاريخ، ومع كل ذلك، البقاء والخلود، وكل ذلك مما يقض مضجعه، ويظير منامه، ويصخ سمعه ويقصر مقامه»(3).

وتعرض به وبأهدافه في سخرية لما تقول: «.. فأما الاستعمار فإنه يسلك في ذلك فجاجا ظامسة الأرجاء، فيتناول الحقائق الثابتة بالتشويه والمغالطة، ثم بالمكابرة فيها، ويجادل بالباطل ليدحض به الحق، وكأن سنن الله (مستعمرة) أيضا فهو ينقلها من رقعة إلى رقعة كقطع الشطرنج، إذا خالفت سنته هو، وينقض قوله بفعله، وفعله بقوله، كلما

(1) محمد البشير الإبراهيمي، مصدر سابق، ص 478.

(2) المصدر نفسه، ص 479.

(3) المصدر نفسه، ص 481.

أفحمه المنطق وأوهى حجته <<(1)>.

وتصف عمل الاحتلال كله برجس من عمل الشيطان وتقول << وهل في عمل الشيطان خير أو حق؟ إنما هو عناد للحق، وتزيين للباطل، ونقض للخير، وبناء للشر، وما شاء الشيطان من النقائص >>(2).

وبناء على ما تقدم فإن تعرض صحافة الجمعية لقضايا الوطن العربي مفر به ومشرقه إنما تعرض لأعمال الاستعمار الواحد وأساليبه لتفريتها عن بعضهما، ونصرتها لهذه الدول إنما من قبيل نصره الحق الذي تشترك فيه ورفع الغبن الذي يجمعها تحت قبضة هذا الاستعمار الذي أهانها كلها ولم يرحمها قط.

وقد كانت صحافة جمعية العلماء تتبع أخبار الدول العربية وتعلق عليها، وتعرض مواقفها إزاءها بالاحتجاج والاستنكار والتنديد، كما تعرضها أية حكومة وبطريقة رسمية، وتسجل معاني الشكر والتهنئة والبشرى في مناسبات الفرح، كما كانت تعرض للشخصيات العربية الدينية أو السياسية والوطنية بكل ما كانت تتطلبه فيها مواقف البطولة والتضحية والشهادة، تحميساً للشباب العربي وتنبها لهم للقضية الأم التي ضحى هؤلاء لأجلها أو استشهدوا أو أهدنوا وسجنوا بسببها استنهاضاً لهممهم وتذكيرهم بواجب النصر، كما كانت تعرض للشخصيات التي كانت تتبع الاستعمار وتعمل ضد أوطانها بكشف أعمالها والتنبيه إلى خطورتها.

*قضايا شمال إفريقيا :

أ- ومن ذلك تعرضت صحافة الجمعية إلى "كتاب" أمراتنا" للشيخ الطاهر الحداد، التونسي، ونهت المسلمين إلى خطورته في << إبطال أحكام عديدة من أحكام القرآن الكريم الصريحة القطعية الاجتماعية، وتعطيل آيات عديدة من آياته لأن في ذلك الجحود نفسه جحود لبعض القرآن، وأن جحود بعضه كجحود كله في مفارقة الإسلام، ووعدت بالرجوع إلى الكتاب في فرصة أخرى(3).

(1) عماد البشير الابراهيمي: عبون البصائر، مصدر سابق، ص 481 .

(2) المكان نفسه.

(3) مجلة الشهاب، ج 11، ص 6 ديسمبر 1930م.

وهنأت جمعية العلماء التونسيين بمناسبة عودة الزعيم عبد العزيز الثعالبي مسي منفاه إلى تونس، وسجلت مشاركتها لهم في فرحتهم ببرقية تهنئة رسمية قررها مجلس إدارتها وأعادتها صحافتها(1). كما بعثت إلى باريز ببرقية احتجاج على تعطيل الدراسة بجامع الزيتونة وإهمال النظر في مطالب تلامذته، ودعت وزير الخارجية الفرنسي، وكذا المقيم العام الفرنسي بتونس إلى المبادرة «>> بفعل اللازم لنتهي الحالة الأسيفة التي أفلقت جميع المسلمين، ومسلمي شمال إفريقيا خصوصا، وأملت التعجيل بفتح الدروس من جديد(2)». وهنأت صحافة جمعية العلماء التونسيين بفتح "النادي العظيم" وتمنت أن يكون فتحا لتونس وإفريقيا الشمالية وللإسلام(3).

ب- أما عن المغرب الأقصى فقد تعرضت صحافة جمعية العلماء في العدد الأول من أول جرائدها "المنتقد" للحرب الريفية وسجلت موقفها وتعرضت إلى موقف الدول الاستعمارية فيها وكذا موقف الأحزاب الفرنسية، وقد أقرت الجمعية الحق الشرعي للشيخ عبد الكريم الخطابي، وهو ما كان من أسباب مصادرة "المنتقد" في شهره الأولى.

ولما منعت سلطة الاحتلال الشيخ ابن باديس منعا باتا عن تلبية دعوة المغاربة لتأيين الإمام المغربي المصلح، أبو شعيب الدكالي⁴ لم تتوان صحافة الجمعية بأن تسجل ذلك بكل استنكار وصراحة تحت عنوان "الاستعمار يحاول قطع الصلة بين الإخوان قائمة فيه: إزاء هذا ما وسعنا إلا التخلف والاعتذار لإخواننا المغاربة ثم الاحتجاج على هذه الحكومات الاستعمارية التي تحاول بمثل هذا العمل أن تقطع الصلة بين الذين ساقتهم الأقدار إلى يدها، وهي - في الحقيقة - ما تزيد إلا ارتباطا وشدة... <<(4).

كما سجلت صحافة جمعية العلماء احتجاجها الشديد لدى وزير الخارجية بباريس والمقيم العام بالرباط وبالنيابة عن كل المسلمين ضد منع الاحتفالات التي نوى مسلمو

(1) البصائر، ع76، الجمعة 23 جويلية 1937م.

(2) المكان نفسه.

(3) مجلة الشهاب، ج9، م 13 نوفمبر 1937م.

(4) مجلة الشهاب، ج7، م 13 سبتمبر 1937م.

مراکش إقامتها بمناسبة موسم المولد النبوي الشريف، واعتبرته اعتداءً فادحاً على الحرية الدينية، وعلى شرف مسلمي المغرب الأقصى والعالم بأسره، ونبهت سلطة الاحتلال إلى أن تكرر حادث من هذا القبيل يقضي على عواطف المسلمين بلا استثناء نحو دولة فرنسا»(1).

ج- وتعرضت البصائر من جهتها إلى قضية استقلال ليبيا من الاستعمار الإيطالي وكيف أنها استحققت هذا الاستقلال بعد أن قدمت له جسراً من الشهداء والتضحيات الجسام لتعبر إليه. وقد قضى مجلس الأمن باستقلال الشعب الليبي طامعاً كمكره ولكنه أرجأ الانحياز إلى أول سنة 1952م، تقول "البصائر" في مقال بعنوان: «> ليبيا، موقعها منا»:> «> كنا نعرف أن الاستقلال حنة لا يعبر إليها إلا على جسر من الضحايا، وكنا نعد إخواننا الليبيين أول الداخلين إلى هذه اللجنة بغير حساب، لأنهم قدموا من الضحايا ما لم تقدمه أمة شرقية، ولأنهم جمعوا أسباب الفلاح الأربعة، الصبر والمصابرة والمرابطة والجهاد، ولكن شيطان الاستعمار أبي عليهم ذلك، ووضع في طريقهم برزخاً زنياً، أو جسراً ثانياً غير الضحايا والقرايين والأعمال الصالحة، وهو هذا الأجل بسنة 1952م، ويقول الاستعمار: إنه وضعه للإعداد والتشويق ونقول نحن: إنه وضعه للإبعاد والتعويق... إلى أن تقول: «> وحنانا على إخواننا المجاهدين .. كتب عليهم أن يتجرعوا ثلاث مرارات في جبل واحد: مرارة الإهمال في العهد التركي، ومرارة الاسعباد في العهد الإيطالي، وهام أولاً: يتجرعون مرارة التنكر من خلفاء دولهم بفرور وسجروا بهم التنور، ثم أخلفوا الوعد، ونقضوا العهد من بعض حقكم علينا -أيها الإخوان- أن نسعدكم، ولو بقول معروف، من نصيحة خالصة، ودعاية نافعة وتذكير منبه، ويسعد النطق إن لم يسعد الحال»(2).

وفي القضية الليبية دائماً تعرضت "البصائر" إلى موضوع جدير بالدراسة والنظر، نبهت كل المسلمين إليه، ونجاسة الواقعين منهم تحت سيطرة الاحتلال، وهو عبارة "

(1) البصائر، ع76، الجمعة 23 جويلية 1937م.

(2) محمد البشير الإبراهيمي، عبون البصائر، مصدر سابق، ص 450-451.

طلب الاستقلال"، يقول الابراهيمي: « شاعت بيننا - معشر المستضعفين - كلمة خاطئة، أجبنا إليهما الضعف، وأملاها علينا العجز، فألفناها حتى غطى الإلف خطأها وسخافتها، ويسرّها التعود على الألسنة والأقلام، كما يسرّ كلمة الكفر على لسان قائلها.. فكلمتنا هذه مبعثها الاستخذاء، الاستخذاء وليد الضعف.

هذه الكلمة الخاطئة هي "طلب الاستقلال" ومعناها في الواقع، طلب الحق من غاصبه أو طلب الملك من سالبه، ولو كان من طبيعة الغاصب السالب أن يرد المغصوب فيئة إلى الرشد وإنابة إلى الله -يرده من غير طلب ولا رفع دعوى ولا إقامة دليل، أما الكلمة المصيبة لهدف الحق فهي «... إن العامل للشيء سائر إليه بذرائعه الطبيعية خطوة خطوة، فهو واصل إليه لا محالة، وهو آخذ له حين يأخذه بالاستحقاق الطبيعي، أما طالب الشيء - في مفهومه العربي- فهو كطالب الصدقة، إما أن يعطي وإما أن يحرم، فإن أعطى فبفضل، وإن حرم فبعدل، وعجيب أن تعيش هذه الكلمة الجوفاء بيننا مع كلمة عبقرية تضارها وتناقضها وهي أن «الاستقلال يؤخذ ولا يعطى» (1)

وذكر شروط الاستقلال فجعلها ثلاثة يقول: « شروط الاستقلال الحقيقية هي: الإيمان به مع التسميم ثم العمل له مع الإصرار، ثم المحافظة عليه عند تحصيله وليس منها - إلا عندنا- طلبه». (1)

ويتعرض بعدها إلى « مجلس الأمم المتحدة» ليكشف حقيقة تعامله مع المسلمين والمستضعفين عموماً، يقول: « هذا الشيء الذي يسمونه "مجلس الأمم المتحدة" لم يبلغ من العدل والرحمة أن يقسم الحقوق بالسوية، وأن يقتص للجماء من القراء- بل دينه وديده أن يركب للقراء قرونا أخرى تنطح بها المستضعفين، وتذودهم بها عن مواقع الحياة ومواردها» (1). ومن ذلك أنه قرّر استقلال ليبيا لكنه أجل إنجازه بعد سنتين إمعانا في اشقاء وتفريق الشعب الليبي.

أما أسباب هذه المعاملة التي أقل ما توصف به الإهانة والاحتقار للشعب الليبي والشعوب العربية والإسلامية عامة، هو عدم اجتماع دول هذه الشعوب على كلمة

(1) محمد البشير الابراهيمي، عبور البصائر، ص 452-453. بتصرف (نقلا عن البصائر، ع113، سنة 1950م).

واحدة، وتفرقهم على مصالح متنوعة ومتضاربة جعلتهم في يد الاحتلال يوجهها كيفما يشاء، لا يحسب لها حساب ولا يرقب فيها إلا ولا ذمة لكن قد تتغير المعطيات ونظرة الاحتلال إلى المسلمين إذا توفرت فيهم بعض ما يصفه الابراهيمي من صفات. وإذا عسروا لذلك بعدة خطوات كما يقول : >> إذا بدأنا بالأشواك المنصوبة بيده (بيد الاستعمار) فأزلناها وبأدرنا إلى الأوثان المرفوعة باسمه فكسرناها، وعمدنا إلى النقائص المتأصلة في نفوسنا فاستأصلناها، وعمدنا إلى الجموع المتفرقة فجمعناها، وإلى الألسنة الداعية بالتفريق فقطعناها، وإلى الشهوات الباغية فقمعناها، وإلى الألقاب المهينة فمحوناها، وإلى العزائم المرتحمة فقويناها بالحق وشددناها، وإلى جميع الثغر التي يأتينا منها العدو فأغلقناها في وجهه وسددناها، ثم لقيناها بعد ذلك بصف واحد، وإرادة واحدة، ولسان واحد، ورأي جميع، وعزيمة تترد عنها المحاولات حسرى، وكلمة واحدة لا يقبل معناها التأويل وهي (أن هذا الوطن واحد لا يقبل التقسيم، وأن أبناءه وحدة لا تقبل التجزئة وأنهم يريدون حياة كريمة، ولو فعلنا ذلك لجاء الاستقلال عفوا بلا طلب صفوا بلا كدر، وبمعناه في لغتنا لا في لغة قياصرة مجلس الأمم >>(1).

ويقرّر بعد هذا التحليل معطيات واقع العالم الإسلامي والعربي: يقول: >> أصل داتنا التفرق والخلاف بدأ صغيرا في الدين ثم بدأ كبيرا في الدنيا، ومن الخلاف تشعبت شعب تلتقي معه في الأثر والنتيجة والشر والضرر، والطعم المر، وكما يحمل الفرع خصائص أصله >>... ليؤكد بأن داء إخواننا الليبيين هو داؤنا جميعا >>(2).

ويفصل الابراهيمي بنظرة الملم بالأحداث السياسية، ونظرة المتفحص والدارس لنفسيات الشعوب العربية ومجتمعاتها، آثار الخلاف ومظاهره المختلفة يقول: >> واذكر الخلاف تذكر عدم الاعتداد بالنفس، وعدم الثقة بين الإخوان، وتعدد الأحزاب في الوطن الواحد، وضعف العقيدة وخطل الرأي، وبيع الذمم والضمان، والتفريط في المصالح الوطنية. واذكر الخلاف تذكر كل مرض عقلي نعانيه، وكل حقيقة في الحياة نغلط فيها، فالرجولة مائعة والتفكير سطحي، والتضحية أقوال، والأهواء متبعة، والزعامة زعم،

(1) محمد البشير الابراهيمي، عيون البصائر، مصدر سابق، ص 454.

(2) المصدر نفسه، ص 455 .

والنصر تصفيق، والقضايا الخطيرة نلقاها بالعقول الصغيرة، والألسن القصيرة >>. ليؤكد الحقيقة المرة التي استغلها الاستعمار بعدما عرف مواقعها في أفراد الشعوب العربية ومدخلها إلى نفوسهم.. يقول: >> وهذه الأمراض هي التي أدركها المستعمرون فينا فاحتقرونا، ولو لم يعتبرونا أطفالا لما وضعوا في أيدينا هذه اللعب يلهوننا بها عن أعمال الرجال >>(1).

وقد ذكّرت "البصائر" بواجب الأخوة بين الجزائريين واللبيين، بالمشاركة في الشدائد والحزن، ومقاسمة مرارة الامتحان الذي وضعهم فيه مجلس الأمم المتحدة لينتهي المقال بما يلي: >> إنكم في موضع قدوة لشعوب ترجو ما ترجون، وتعمل لما تعملون، فاحذروا أن تكونوا قدوة في الهزيمة ومثالا لخيبة الأهل، واقتلوا الألقاب تجموا الحقائق. وتضيف: >> إننا نعيذكم بشرف الرجولة أن تكون فيكم سيوف لا تصلح للضرب، وجنرات لا تصلح في الحرب >>(2).

لقد أبان هذا المقال القدرة الفائقة على التحليل والإحاطة بخفايا الأحداث، وخلفيات الوقائع والوقوف الصريح عند موضع السداء، والدقة المتناهية لوصف الدواء، وأظهر المقال جرأه في تعرية الحقائق والاعتراف بالنقائص مما يوجب وصفه بالفضيلة والمصادقية والاحلاص في معالجة القضايا العربية المشتركة والتي هي في مجموعها مشكلة واحدة تمثل في الخضوع لقوة استعمار صنعتها وضعية فرقة بين الإخوان، ومن ثمة فالدعوة إلى الوحدة في تلك الظروف الصعبة ونحت سمع ويد الاحتلال الفرنسي، وأكثر من ذلك بيان طرقها بالوقوف في صف واحد ضده، وضد كل استعمار أوروبي على الأرض العربية، لجدير بأن يشهد له بالشجاعة في الطرح والسداد في التفكير.

قضايا دول المشرق العربي:

وقد تعرضت صحافة جميعة العلماء لقضايا دول المشرق العربي بالمتابعة والتحليل والإحاطة، وسجلت إزاءها مواقفها ونظرتها، ولم تذهلها آلام الجزائريين ومأساتهم عن وضعية بقية الشعوب العربية الإسلامية لتشاركها مواسم الفرح وتقاسمها أوقاتها الصعبة

(1) محمد البشير الابراهيمي، عبون البصائر، مصدر سابق، ص 455-456

(2) المصدر نفسه، ص 455-456

وتؤكد صميم الانتماء بين الأخوة في المغرب والمشرق. فقد استبشرت صحافة الجمعية بالوحدة السياسية التي وقعت بين السعودية والعراق واليمن وبشرت بانضمام مصر والشام إليهم، ووضحت بأن الوحدة السياسية بين العرب لا يمكن تحقيقها إلا بعد أن يتم لكل دولة عربية استقلالها الحقيقي» فشعوب الشمال الإفريقي -مثلا- المصابة بالاستعمار -كما تقول الشهاب - لا وحدة سياسية بينها ولا بين غيرها ولا يتصور أن تكون» ولذلك دعا ابن باديس -صاحب المقال- هذه الدول إلى العمل لتحقيق استقلالها أولا حتى يمكنها تحقيق الوحدة السياسية مع بعضها ثم مع دول المشرق العربي ككل، حيث قال: «ومن الخير لها أن تعمل كل واحدة منها في دائرة وضعيتها الخاصة بالطرق المعقولة الموصلة، مع الشعور التام بالوحدة القومية والأدبية العامة، والمحافظة عليها، والمجاهرة بها»(1).

كما استبشرت "الشهاب" خيرا بمسيرة الإصلاح الاسلامي في العراق الذي أخذت زمامه الحكومة العراقية نفسها ونقلت ملخص حوار أجرته جريدة "البلاغ" مع مبعوث حكومة العراق إلى مصر، ركزت فيه على هدف الزيارة الرسمية التي تمحور حول توحيد الثقافة الدينية العامة بين الأقطار العربية خاصة والاسلامية عامة، والعمل على تغيير عقلية بعض المسلمين الذين صورت الأغراض لهم الاسلام الخفيف تصويرا عكسيا مخالفا لحقيقته، فابتدوا عنه، وأصبحوا عالة عليه (وكان لا بد لذلك) من مواصلة السعي لرفع مستوى هؤلاء المسلمين العقلي والروحي، على النمط الذي ترنضيه روح الإسلام، وبهذا يخلق الله الأمة خلقا جديدا يمكنها من استعادة مجدها بين الأمم (2).

- وسجلت جمعية العلماء موقفها من أزمة مصر في 1951م، وبلغت معاني التأييد والتضامن إلى الحكومة المصرية باسم جمعية العلماء والشعب الجزائري، بعدما أكرت فيها تصميمها على خطة الشرف والكرامة كما وسمتها "البصائر" التي قالت: «وجمعية العلماء تحمي جهود الشعب المصري، المجاهد في سبيل حريته واستقلاله، وتدعو له بالثبات في هذا المعترك الضنك، وبالانتصار في هذه المعركة الحاسمة، وأن يكون انتصاره آية من

(1) الشهاب، ج11، م13، حاتفى 1938م.

(2) الشهاب، ج3، م12، حوان 1936م.

الله يثبت بها عزائم المستضعفين، ويحل بها عقد الأقوياء، وإن الشعب الجزائري حين يظهر بهذا الإحساس الشريف الطاهر نحو أخيه الشعب المصري، إنما يقدم جهد المقل، من قلوب ملؤها الحب لمصر، والاعتزاز بأخوة مصر، والإعجاب بما صنعت مصر، وإنه يعتقد أن كل مصري يخرج عن اجماع مصر فهو مدخول العقيدة، مغموز النسب، وأن كل عربي لا يريد مصر، فهو عاق للعروبة، ناكث لعهداها، وأن كل مسلم لا يعين مصر بما يملك فهو مارق من الأخوة الإسلامية الشاملة ... <<(1)>>.

وتقول "البصائر" في مقال آخر عنوانه بـ "يا مصر"، تنبأ فيه الإبراهيمي بانتصار الشعب المصري في محنته بعد تحليل للأزمة واستنهاض لهمة الشعب بتذكيره بمآضيه المجيد وموقع مصر من تاريخ العرب والمسلمين ودعوته إلى المزيد من التصميم، لأن فوز مصر هو فوز للعرب وللإسلام والشرق... ولأن مصر في ذلك الوقت كانت قبلة للمسلمين كما تقول البصائر: << فكلما سيم الهوان في قطر، أو رماه زنديق بنقيصة فزع إليها، واستجار بها يلتمس الغوث ويستمد الدفاع>>. (1)

ويتهيء المقال بتذكير الجزائريين بواقعهم وحتمهم على تغييره بما يليق بهم من شرف وإباء، وتقول "البصائر": ويا مصر، نحن وأنت سواء في طلب الحق ومطاردة غاصبة، ونحن وأنت مستبقون إلى غاية واحدة في ظلام دامس، ولكنك أصبحت، فيا بشراك ويا بشرنا بك، ولم نزل نحن في قطع من الليل، نرقب الفجر أن ينبلج نوره، وما الفجر منا بعيد>>(2).

ولم تكن جمعية العلماء بتتبع أخبار الدول العربية والإسلامية عن طريق الصحافة فحسب وإنما أوفدت رئيسها الثاني إلى عدد كبير من الدول العربية والإسلامية وقد أبان أهدافه من جولته الكبرى التي منها: دراسة أحوال المسلمين في مواطنهم، وبحث المقارنات والمفارقات القائمة بين تلك الأحوال، ونسبة دركات الانحطاط فيهم إلى درجات الاستعداد للنهوض، والاتصال المباشر بعلماء الدين في هذه الدول والقيام بواجب تذكير هذه الطائفة بوجوب جمع كلمة المسلمين على الحق والخير ودراسة أحوال الحكومات

(1) محمد البشير الإبراهيمي، عبون البصائر، مصدر سابق، ص 559.

(2) المصدر نفسه، ص 566.

الإسلامية القديمة والناشئة ثم دراسة نفسية شباب الأمم الإسلامية المتباعدة الديار، ومبلغ تأثرهم بالعوامل الخارجية التي تبعدهم عن روح الإسلام، ليقدر بقدرها ما يجب هذه الحالة من علاج(*)... وقد كانت البصائر تنشر حيثيات الرحلة تباعا مما كان يعثه الإبراهيمي عن كل يوم فيها. وقد التقى رئيس الجمعية بالكثير من علماء ووزراء الدول العربية والإسلامية وبأحث معهم أحوال المسلمين ودرس وضعية الشباب وكذا مواقف الحكومات، وقد وفق إلى حد كبير من تسجيل حضور موقف جمعية العلماء كممثل للشعب الجزائري عبر دروسه وخطبه المسجدية، وعبر المحاضرات، وكذا الحصص الإذاعية التي كان يسجلها لبعض المحطات الإذاعية لهذه الدول. وكانت تنقله البصائر بدورها أول بأول. وقد أثمرت هذه الرحلة، ومن ثمة المتابعة الصحفية الحية لها من توطيد أواصر الأخوة وربط قنوات الاتصال، وتأكيد معاني الإنتماء وترسيخ أسباب الوحدة آثارا حميدة وملحوسة في واقع الجزائريين من جهة ثم إطلاع الدول الإسلامية على ما يحدث في الجزائر واستصراخ نجاتها الأدبية والمادية والعلمية خاصة التي تعممت فيما بعد أثناء ثورة التحرير الكبرى.

-ومن بين قضايا الدول العربية والإسلامية، استيقظت لجنة فلسطين اهتمام صحافة جمعية العلماء، ويظهر ذلك في العدد الكبير من المقالات حول فلسطين والتحليلات الضافية والتتبع المتواصل لأحداثها منذ بدايتها.

فمنزلة القدس الشريف عند جمعية العلماء تماثل مكانة مكة والمدينة كما تؤكد "الشهاب" تقول >> رحاب القدس الشريف مثل رحاب مكة والمدينة، وقد قال الله في المسجد الأقصى في سورة الإسراء: ﴿الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ﴾ (1) ليعرفنا بفضل تلك الرحاب، فكل ما هو واقع بها كأنه واقع برحاب المسجد الحرام ومسجد طيبة >> (2).
وذكرت "الشهاب" بتاريخ اليهود تحت الحكم الإسلامي في مختلف ولاياته الكثيرة، وكيف عاشوا طيلة قرون طويلة ينعمون فيها برحاء العيش، وحرية المعتقد،

(*) ترحى العودة إلى فصل "الرحلة كوسيلة للاتصال" للاطلاع على الموضوع أكثر.

(1) الإسراء 1.

(2) الشهاب، ج6، م14 أوت 1938م.

واحترام المعاهد وقد اعترف الكثير من اليهود بذلك حتى حلّ الاستعمار الأوروبي -
الانجليزي بفلسطين من جهة والصهيونية من جهة أخرى، وأن هذا الاستعمار الانجليزي
قد استعمل الصهيونية الشرهة لتقسيم جسم الأمة العربية، وخط قدس الإسلام، وملء
فلسطين بالصهيونيين النبوذين من أمم العالم، بسفك دماء الأبرياء من الفلسطينيين التي
تلطخ الرحاب المقدسة..:

وأشار المقال إلى أن العالم الاسلامي والعالم العربي قد ارتفعت أصواتهما
بالاحتجاج والاستنكار ضد حكومة الانجليز لكن لم يرفع أحد غيرهما صوته للاحتجاج
- كما يقول ابن باديس - : >> نقول العالم الاسلامي والعربي، لأننا لم نر ولم نسمع من
غيرهما احتجاجا واستنكارا صارخا حتى الذين رأيناهم يقيمون الدنيا ويقعدونها
بصراخهم ويذبلون ما يذبلون من مساعداتهم في أوطان أخرى لم نرهم إزاء فلسطين
الشهيدة إلا سكوتا أو شبه سكوت وشتان ما بين من يريد المقاومة ومن يريد رفع
الملام... <<(1). وبارك المقال ما كانت تقوم به الحكومات الاسلامية في نية عقد مؤتمر
برلماني عام للبحث في قضية فلسطين، ودعا الجميع إلى المشاركة فيه، لأن الدفاع عن
القدس من واجب كل مسلم (2).

أما "البصائر" فقد تعرضت من جهتها إلى نكبة فلسطين، وتبعت فصولها،
وصوّرت آثار الفجيعة على نفوس الجزائريين بعبارات حزينة بليغة المعنى، تقول : >> يا
فلسطين، إن في قلب كل مسلم جزائري من قضيتك جرحا دامية، وفي جفن كل مسلم
جزائري من محتكك عبرات هامية، وعلى لسان كل مسلم جزائري في حقل كلمة مستردة
هي: فلسطين قطعة من وطني الاسلامي الكبير، قبل أن تكون قطعة من وطني العربي
الصغير، وفي عنق كل مسلم جزائري لك - يا فلسطين - حق واجب الأداء، وذمام متأكد
الرعاية، فإن فرط في جنبك، وأضاع بعض حقلك، فما الذنب ذنبيه، وإنما هو ذنب
الاستعمار الذي يحول بين المرء وأخيه والمرء وداره، والمسلم وقبائته... <<(3).

(1) الشهاب، ج16، م14، أوت 1938م.

(2) المكان نفسه.

(3) محمد البشير الابراهيمي: عبون البصائر، مصدر سابق، ص 491.

وذكرت "البصائر" في العديد من المرات بأن قضية فلسطين محنة امتحن الله بها ضمائر العرب والمسلمين وهمهم وأموالهم ووحدتهم، ونبهت العرب والمسلمين بأن حق فلسطين لا ينال باهوننا والضعف، ولا ينال بالشعريات والخطابيات، وإنما ينال بالتصميم والحزم والاتحاد والقوة وقالت لهم: >> إن الصهيونية وأنصارها مصممون، فقابلوا التصميم بتصميم أقوى منه، وقابلوا الاتحاد باتحاد أمتن منه ... <<(1).

وفي وصفها لقرار التقسيم كشفت البصائر خيوط المؤامرة، وبينت حقيقة ما يسمى زورا -مجلس الأمم المتحدة- كما تقول الذي أقر وقرّر التقسيم رغم تعارض البيئة والشبهة ووضوح الحق من الباطل، ثم كيف غمط حظ الفلسطينيين الذين كان نصيبهم منه >> الجهات الرملية القاحلة والجبلية الجرداء <<، بينما اعطيت اليهود: الجهات الخصبة، المتصلة بالعالم، القرية من الصريخ، الموطأة الأكناف، المأمونة الأمداد والمرافق <<(2).

وذكر المقال مجدداً بأن قرار التقسيم امتحانا آخر للعرب وللمسلمين في رحولتهم وإيائهم ومبلغ التضحية فيهم، وجسا لمواقع الكرامة والشرف منهم وكأن كل صوت من أصوات اليهود والأوربيين على التقسيم - كما تقول "البصائر": >> صوت جهير ينادي العرب: أين أنتم؟... (3).

وتأسفت "البصائر" لتخاذل العرب والمسلمين عن العمل على نقض "وعد بلفور" قبل إقراره من طرف مجلس الأمم المتحدة، بينما عمل اليهود لنيل ذلك الوعد واعدوا له الرجال واتخذوا من الوقت سلاحا، وكان الأحوط للعرب أن يبدؤوا بالاستعداد والاعداد - كما تقول "البصائر" - : لا بالأقوال والاحتجاجات الجوفاء التي هي سلاح الضعفاء، ولكن بمصانع العقول وهي مدارس العلم، وبمعامل الأسلحة والعتاد، وبمسايد المال وهي الشركات التجارية، فلو فعلنا ذلك تضيف "البصائر": لا يتحجر صهيون في وجاره، وانكمش من يؤزره اليوم من أنصاره، ولو فعلنا ذلك لما كانت مماتلة الأمم ولا تقسيم

(1) محمد البشير الابراهيمي، عبون البصائر، مصدر سابق، ص 495.

(2) المصدر نفسه، ص 497.

(3) المصدر نفسه، ص 498.

اليوم >>. (1). ولذلك اعتبرت "البصائر" تقسيم فلسطين >> صدمة عنيفة وقاسية، وتأديب إلهي، ينقى من هممنا الوهن والزغل، وينقى من صفوفنا الكَلّ والوكَل، وقالت: >> بأن الأمم التي تصاب بمثل تأخرنا وتخاذلنا وغفلتنا لمحتاجة إلى أحداث ترجحها رجاء، وترجحها في المضايق زجاء، لتنفّض عنها أطمار الخمول والضعمة وتطهرها من أدران الخور والفسولة>>(2). ولم تكتف "البصائر" بتتبع مستجدات الأحداث في فلسطين، وتحليل مواقف الأوروبيين غير المشرفة إزاءها، وكذا كشف حقيقة الصهيونية وأهدافها من احتلال فلسطين، وإنما تعدت ذلك إلى توجيه الرأي العام والاسلامي إلى ما يجب القيام به إزاء هذه القطعة المقدسة من جسم الأمة العربية بعدما وقفت طويلا عند مظاهر الموقف العربي والاسلامي التي وصفتها بغير الكافية، وأن حق فلسطين على العرب أكثر من ذلك بكثير.

فعن المظهر الأول للموقف العربي المتمثل في >> التفجع والتوجع والتظلم والتألم والأقوال المتعالية والاحتجاجات المتتالية تساءلت "البصائر" تقول: >> هل من المعقول أن التفجع وما عطف عليه مجتمعات في زمن، مفترقات في قرن تدفع حيفا، أو تفل لظالم سيفاً أو تد عادية عاد، أو تسفه حلم صهيون في أرض الميعاد؟. وكان جوابها ببساطة: "لا": (3).

وعن المظهر الثاني المتمثل في الصحف والألسنة والأقلام، وإجماع كل الصحف العربية على التنديد والاستنكار، وخطباء العرب على التحريض والاستنفار، والمظهر الثالث المتمثل في تداعي الأمم العربية إلى المؤتمرات وتناديها إلى الاجتماعات والمظاهرات.. تساءلت البصائر قائلة >> ولكن هل من الجدل أن هذه المظاهر الثلاثة مجتمعة هي كل ما لفلسطين على العرب من الحقوق وهل هذه المظاهر الثلاثة مجتمعة تمحو قرار التقسيم، وتثبت حق العرب؟ وأجابت "اللهم لا" (4).

(1) محمد البشير الابراهيمي، عيون البصائر، مصدر سابق، ص 499

(2) المصدر نفسه، ص 499-500.

(3) المصدر نفسه، ص 514.

(4) المصدر نفسه، ص 515.

وتوقفت "البصائر" عند المظهر الرابع المتمثل في تحرك جامعة الدول العربية في جمع وزراء الدول العربية وزعمائها وقادتها العسكريين لتنسيق الآراء وترتيب الخطط وتدبير المقاومة المشتركة، ولكنها سجلت تخوفها من أن يكون من آثار التباطؤ، وإيثار الديبلوماسية، «فت في الأعضاء وتوهين للعزائم وتنفيس على العدو في الوقت، في حين نهبت كل العرب والمسلمين إلى أن ما قام به عرب فلسطين من نبذ التردد وحذف الامتناع، وفتح باب الموت على مصراعيه، هو الواجب الذي شرعوه لجميع العرب (1).

وحددت "البصائر" دور كل فريق تجاه أزمة فلسطين التي وسمتها بنائبة النوائب، ومصيبة المصائب بعد أن بينت واجب الجميع يتمثل في المال والرجال فواجب الدول العربية عندها هو: «التصميم الذي لا يعرف الهوادة، والاعتزام الذي لا يلتقي بالهويناء، والحسم الذي يقضي على التردد، والنظام الذي ينفى الفوضى والخلل... وواجب زعماء العرب

الاتفاق في الرأي، وتوجيه جميع قواهم الروحية والمادية إلى جهة واحدة وهي فلسطين، وعدم الافتتان بالتغيرات التي يفتحها العدو ليشغلهم بالجزئيات عن الكلليات وليجعل بأسهم بينهم... وواجب كتاب العرب وشعرائهم وخطبائهم هو التماس مواقع الاحساس ومكامن الشعور من نفوس العرب وتأجيج نار النخوة والحمية، وعروق الشرف والكرامة والإباء منها، وإثارة الهمم الراكدة.. وواجب شعوب الشرق العربي البذل لفلسطين كل ما تملك من أموال وأقوات...

وختمت "البصائر" هذا المقال الذي عنوانته: «فلسطين. واجباتها على العرب» بالتأكيد تقول: «لو أن هذه القوى -روحيها وماديها- أنطلقت من عقلها وتظافرت، وتوافت على فلسطين وتوافرت، لدفنت صهيون ومطامعه وأحلامه إلى الأبد، ولأزعجت أنصاره المصوتين إزعاجا يطير صوابهم، ويحبط ثوابهم، ويظيل حماتهم ويكيب أصواتهم، ولأحدثت في العالم الغربي تفسيرا جديدا للكلمة "عربي"» (2).

(1) محمد البشير الابراهيمي، عبون البصائر، مصدر سابق، ص 516.

(2) المصدر نفسه، ص 517-518.

أما << واجب عرب الشمال الأفريقي نحو فلسطين >> الذي خصته "البصائر" بمقال بهذا العنوان قالت فيه << بأن عليهم لفلسطين حقا لا تسقطه المعاذير، ولا تقف في طريقة القوانين مهما جارت، ومهما كانت فرنسية من ماركة (خصوصي للمستعمرات)، هذا الحق هو الامداد بالمال، ومن أعان بالمال فقد قام من الواجب بأنقل شطريه (1).>>

وهكذا فلم تمنع مضايقات الاحتلال الفرنسي ولا قبضته الحديدية جمعية العلماء من أن تتعرض صحافتها بكل جرأة وشجاعة وإباء إلى معالجة قضايا دول العالم العربي والاسلامي، جاعلة من قضية كل دولة منها قضيتها وقضية العالم العربي والاسلامي كله، لأنها كانت تؤمن حقيقة بأن الوطن العربي بكل دوله وشعوبه إنما هو وطن واحد وأن داءه واحد، ومهما تعددت وسائل الاستعمار وأساليبه فإنها بالنسبة للوطن العربي الكبير واحدة تهدف كلها إلى تقسيمه وتفريق شعوبه وإضعاف مقوماتها وتحذيرها حتى لا تتلمس طرق الوحدة والقوة، فكانت صحافة جمعية العلماء حاضرة لتوعى، وتنبه، وتذكر، وتحلل، وتقرح الحلول وقد غلب عليها أحيانا أسلوب الذاتية، فكانت تبدأ بمعالجة قضية دولة إسلامية أو عربية ما، لتنتهي إلى ما يجب أن يقوم به المسلمون جميعا بصيغة الجمع للتأكيد على أن أصل الداء واحد وما أن عولج في دولة عربية ما إلا وعم شفاؤه كل الدول العربية. وقد سجلت صحافة جمعية العلماء بهذا صفات هامة في آيات التآزر والتناصر والتناصح بين دول العالم العربي والاسلامي ومواجهة الاستعمار العالمي في وقت لم تكن تملك فيه الحركات الوطنية وسيلة إلا الكلمة الأخوية الصادقة لكنها كانت سلاحا أمضى من بعض الأسلحة في أوقات توفرت لها من الوسائل الشيء الكثير، وقد أشار الابراهيمى إلى هذا المعنى، يقول: << أينقم منا الاستعمار أن تتناصر بالكلام، وهو سلاح المغلوب، وتعاون بالأقلام، وهي بقية المتاع المسلوب، وتتعاطف منا الأرحام وذلك أيسر مطلوب، إن صح ذلك منا فلا رضى ولا حظى.. إننا لا نلومهم، إلا إذا لمنا السباع الضارية على الافتراس، وإنما نلوم أنفسنا أن نكون شوكا في لهواته، ونفصا في شهواته، وسوادا في لونه، وفسادا في كونه، وضياعا في صوته، وخذلانا في عونه، ولو كنا ذلك

(1) عمده البشير الابراهيمى، عبون البصائر، مصدر سابق، ص 521.

لأنصفناه وانتصنا لأنفسنا منه ...» (1).

وبناء على ما تقدم في هذا المجال فقد كانت صحافة جمعية العلماء وسيلة غاية في الأهمية، وسلاحا غاية في الخطورة على الوجود الاستعماري في الجزائر، فقد كانت إزاء كل الجزائريين، المنير الذي يعلم، ويوعي ويصحح، وينبه، واللسان الذي يبين ويعبر عن كل المشاكل ويتعرض إلى كل القضايا التي تهمهم من قريب أو من بعيد تبصرهم بوضعهم ويستحث بها همهم، ويدفعهم إلى تغيير واقعهم، ويقدم لهم أساليب ووسائل هذا التغيير التي لا تخرج في خلاصتها عن مقوماتهم، ومكانم الإباء والكرامة منهم، وأماكن النخوة والرجولة فيهم، التي ما استطاع الاحتلال الفرنسي أحكام قبضته عليهم إلا بمحاربتها فيهم. فبعد أن عملت جمعية العلماء على إحيائها عن طريق وسائلها الأخرى، جاءت الصحافة لتكون ثورة عامة وشاملة في العقول والقلوب، لتخلق الإحساس بذنب التفريط، ومن ثمة الشعور بمسؤولية العودة الصحيحة إلى المواقع الأصيلة لتتخذ من جديد كفواعد للثورة على أسباب الانحطاط ومظاهر الاستغلال ومحاربة الاحتلال في كل وسائله وأساليبه. وسيطلعنا الفصل الموالي على وسيلة اتصال أخرى استعملتها جمعية العلماء لتأكيد كل هذه المعاني وغيرها فما هي؟.

(1) محمد البشير الإبراهيمي، عيون البصائر، مصدر سابق، ص 474.

الفصل المباشر: الإنصال عن طريق التأليف

تمهيد

مدخل تاريخي لتطور الكتاب في الجزائر
الأهمية الإعلامية للكتاب

المبحث الأول : المشاكل والصعوبات التي واجهت جمعية العلماء في ميدان
التأليف وأساليبها لتجاوزها .

- أ- الصعوبات المادية .
- ب- صعوبات الواقع الجزائري .
- ج- ندرة المختصين في مجالات التأليف مقصودة لذاتها عند جمعية العلماء .

د- قلة المادة العلمية باللغة العربية .

هـ- قلة الفراغ وكثرة المشاغل لدى علماء الجمعية .

المبحث الثاني : كتاب "مجالس التذكير" للإمام عبد الحميد بن باديس

- أ- التعريف بالكتاب ومضامينه .
- ب- مصادر الكتاب وكيفية اعتماد المفسر عليها .
- ج- منهج - ابن باديس - في تفسير المادة القرآنية .
- د- خصائص منهج ابن باديس في التفسير وآفاقه الاتصالية (1-2-3-4) .
- هـ- نموذج من تفسير ابن باديس .
- و- كتب أخرى لابن باديس .

المبحث الثالث : كتاب "رسالة الشرك ومظاهره" للأستاذ مبارك الميلي:

- أ- لماذا رسالة الشرك ومظاهره ؟
- ب- مصادر رسالة الشرك ومظاهره .

- ج- مضامين رسالة الشرك ومظاهره.
- د- جمعية العلماء تقرر رسالة الشرك ومظاهره.
- المبحث الرابع : كتاب "تاريخ الجزائر في القديم والحديث" للأستاذ مبارك الميلي:
- أ- الحاجة إلى كتاب "تاريخ الجزائر في القديم والحديث"
- ب- ترتيب كتاب "تاريخ الجزائر في القديم والحديث"
- ج- أهداف "الميلي" من تاريخه (أ، ب، ج).
- د- منهج الميلي في التعامل مع المادة التاريخية
- هـ- تاريخ الميلي هو مذهبية جمعية العلماء في الوطنية والسياسة والقومية.
- المبحث الخامس : كتاب: "تقويم الأخلاق" للأستاذ محمد بن العابد الجليلي
- المبحث السادس : كتاب: "ديوان محمد العيد آل خليفة".

الخلاصة

مؤلفات العلوم الإسلامية

تمهيد :

- يرتبط تاريخ ظهور الكتاب في الجزائر بتاريخ ظهوره في الدولة الإسلامية الكبرى لكون الجزائر ولاية من ولاياتها، وقد شهد تطورا مستمرا فيها كغيرها من الولايات الأخرى سواء في ذلك أدوات نسخه أو خطه أو مجالات التأليف فيه. وقد انتشرت المكتبات العامرة بالكتب في كل ربوع الجزائر، في المدن والبوادي وامتدت إلى المناطق النائية والبعيدة كالصحاري والجبال، وحوتها المساجد والزوايا وخزائن العائلات الثرية أو المعروفة بالعلم. وقد شهدت هذه المكتبات مجودتها وكثرتها وحسن الاهتمام بها عل شدة ولع الجزائريين بالعلم وعنايتهم بالكتب منذ أزمنة طويلة، حيث كان هناك رصيد كبير من المكتبات قبل مجيء العثمانيين خاصة في تلمسان وبجاية وقسنطينة وكذا في وهران واعتبرت الجزائر في ذلك الوقت أكثر بلدان افريقية كتباً وأنه لم يكن يضاهاها فيها أحد منها(1).

وبعد دخول العثمانيين، لم يولّ الحكام هذا الميدان أي اهتمام وقد كان موقفهم منه كموقفهم من بقية كل ميادين الثقافة والفكر التي كانت سياستهم تقتضي إزائها عدم التدخل والاهتمام البتة، الأمر الذي يرجعه المؤرخون إلى مزاجهم الحربي وغير الثقافي الذي لم يخص الجزائر فحسب وإنما شمل كل المناطق التي حكموها(1). وعلى الرغم من ذلك فقد شهد ميدان التأليف والاهتمام بالكتاب في عصرهم حركة ونشاطا ملحوظين يعود الفضل فيه بل ويقتصر على جهود الجزائريين أنفسهم في هذا الميدان حيث اشتغل بعضهم بضاعة الكتب من وراقة وتجليد ونسخ وخط. وقد كان في الجزائر سوقا يدعى سوق الوراقين مخصص لبيع الكتب يكثر فيه النساخون والمشترون(2). وقد نشطت حركة التأليف حيث لا نكاد نجد عالما إلا ونجد له قائمة طويلة أو

(*) رقد عمرت المكتبات الجزائرية خاصة بكتب الأندلس نظرا لهجرة هذه الكتب مع أصحابها إلى الجزائر بعد حملة الإسبان ضد المسلمين الذين استقبلتهم السراجل الجزائرية أكثر من غيرها، رقد كانت هذه الناحية من الآثار الإيجابية لهذه الهجرة إلى الجزائر.

(1) أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، مرجع سابق، ج1، في ص 298 و 319 .

(2) المرجع نفسه، ص 293 تتصرف.

قصيرة من المؤلفات في مختلف العلوم المتداولة، والتي كان يؤلفها أصحابها داخل الجزائر أو خارجها حسب ظروف الاستقرار والأمن، واقتصرت حركة التأليف رغم نشاطها الواسع على الشروح والحواشي والتقايد والتعليق، والرسائل والفهارس، وكذا التأليف ذات الأجزاء⁽¹⁾.

وقد شاعت حركة النسخ والاستنساخ، أيضا، وكان لها احتصاصيون مشهورون، ووضعت لها عدة شروط لإتقانها كجودة ونجاحته الخط وحسن اختيار الورق، وإتقان صناعة الوراقة، والسرعة والمهارة في التوثيق والدقة في العمل وصحة النظر، وقد اشتهر بهذه الحرفة كثير من الجزائريين^(*). وبالإضافة إلى التأليف فقد كان نمو المكتبات يعود إلى مصادر أخرى منها:

* الشراء: ويعد من أهم طرق إقتناء الكتب، ولم يكن مقتصرًا على الأغنياء فحسب وإنما شمل الفقراء أيضا، وكان بعضهم يقوم بنسخها بنفسه، وقد تشتري الكتب من فائض أوقاف المساجد ويعود ذلك إلى ضمير كل وكيل مسجد وكفاءته ووعيه. ولم يكن شراء الكتب دائما لغرض الاستفادة منها كالتى توضع أو توقف بالمساجد والزوايا وإنما قد تشتري قصد المباهاة بالنسبة للبعض، أو للتشبه بالعلم أو بأهله عند البعض الآخر، كما قد تشتري للتبرك والتعبد.

* الوقف: فأغلب مكتبات المساجد والزوايا والمرابط قد عمرت بالكتب المختلفة عن طريق وقف أغنياء الشعب أو علمائه للكتب فيها، رغبة في خدمة أهل العلم من الجماهير والفقراء، ورجاء الثواب من الله، ثم أداء الواجب الديني وتعبيرا عن إرادة الخير خاصة إذا علمنا بأن الكتب الدينية هي التي كانت توقف غالبا والتي كانت تؤلف أيضا ومن ثم فوقفها يعد خدمة للدين ونشرا له بين الناس.

* الإهداء وكذا الحج والرحلة في طلب العلم هي: عوامل أخرى لتشجيع التأليف ونسخ الكتب أو استنساخها أو شرائها ومن ثم فهي مصدر لنمو المكتبات. وقد أثرت

(1) أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، مرجع سابق، ج1، ص 295.

(*) كان خط النسخ يتم بالخط الأندلسي الذي تغلب على الخطوط الأخرى في المغرب العربي، وهو المعروف اليوم بالخط المغربي، مع الخط العثماني الذي جاء مع العثمانيين.

حركة تنقل العلماء المستمرة داخل الجزائر وخارجها في ذلك كثيرا كما استفادت منها المكتبات آيما استفادة من حيث الكتب النادرة والهامة في العديد من العلوم. وتجدد الإشارة إلى أن الكتب الدينية كانت لها الصدارة في قوائم المكتبات العامة والخاصة، وهو ما كان يساير نمط الحياة الفكرية والاجتماعية التي كان يعيشها الجزائريون في ذلك الوقت خاصة وأن سمة التصوف السلوكي كانت تعم العلماء والجماهير عموما، وقد ميزتها كثرة الروايات والمرابط التي آلت بعد ازدهارها العلمي والديني إلى خلوات للأوراد والأذكار والدروشة مما أثر على الثقافة الجزائرية وطبع الحياة الفكرية بالجزائر عموما بالبساطة والسطحية.

ويؤكد أبو القاسم سعد الله أنه >> إذا حكمنا على النشاط الثقافي لأي بلد من كثرة الكتب والمكتبات التي فيه فإن الجزائر خلال العهد العثماني في طليعة البلدان الكثيرة الكتب والمكتبات >> (1). وقد شهدت عبارات الباحثين الفرنسيين الذين شاهدوا وجمعوا المخطوطات والكتب من مكتبات المدن الجزائرية، غداة الاحتلال على أنهم كانوا مندهشين من كثرة الكتب التي وجدوها ومن تنوعها وجمالها وحسن العناية بها (2).

- الأهمية الإعلامية للكتاب: وقد أدت المكتبات ومن ثمة "الكتاب" في ذلك الوقت دورا تربويا وإعلاميا وثقافيا وحقاريا هاما، فبالإضافة إلى أنها كانت تليج حاجة الفقراء من طلاب العلم، - وقد كان منهم بعض العلماء أنفسهم -، فقد كانت مركز إشعاع فكري وعلمي لكونها كانت تقوم بدور النادي والمؤتمر والمعهد العلمي، توضع فيها الفهارس، ويلتقي فيها العلماء وطلاب العلم فتتلاقح الأفكار وتندفع الهمم إلى النسخ والقراءة وكذا التأليف وكانت مركز إعلام هام من حيث الأعداد الكبيرة من الكتب بما تحفظه من مادة علمية وأفكار وآراء جديدة بأن لتكون وسيلة هامة لحفظ التراث وتسجيل التاريخ وتشهد بالتالي على مرحلة تاريخية من أهم المراحل للشعب والوطن. وقد كانت من جهة أخرى وسيلة للتزجبه حيث الاجتماع والنقاش والتمتع بالاطلاع على العلوم المختلفة وفي الجملة فقد كانت المكتبات وسيلة للإقناع الفكري والتعبئة والتحريض عند

(1) أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، مرجع سابق، ج1، ص 286.

(2) برجي الرجوع إلى فصل الاتصال الفرنسي بالجزائرين : أساليبه وأهدافه.

الحرب والدعاية وقت السلم، وبعد ذلك كله فإن الكتاب عامل تجاري هام فهو سلعة وصناعة وفن من أهم الفنون في مجال الاتصال تختلف وجوه أهميتها وفائدتها بحسب استعمالها.

وينتهي تطور الكتاب عشية دخول الاحتلال الفرنسي إلى الجزائر عند مرحلة النسخ أي مادون الطبع، وذلك بسبب رفض الحكام العثمانيين إدخال المطبعة إلى الجزائر رغم استعداد الجزائريين لذلك، بدعوى الخوف على النساخين والوراقين بذهاب مهنة ارتزاقهم. لكن الحقيقة كانت غير ذلك وهي جهلهم بأهميتها وعدم وعيهم بتطورتها، هذا علاوة على مزاجهم غير الثقافي كما سبقت الإشارة إليه.

ومن ثمة فإذا كانت الصحافة تغزو في ظهورها في الجزائر إلى الاحتلال الفرنسي بمطابعه ولغته وجرائده وهي ما لم يسبق للجزائريين بها، وقد كانت - كما رأينا - زاوية من زوايا مشاريع الاحتلال في تكريس قوالبه وتاريخه ولغته.. الخ. فإن "الكتاب" كوسيلة علمية وتربوية وكذا إعلامية لم تكن شيئاً جديداً على الجزائريين صناعة وفنا اللهم إلا وسائل انتاجه التي لم تكن تستجيب للتطور الحديث في ذلك الوقت وخاصة التطور التقني ، والذي نعني به الطباعة(*) . والراجع أن الآثار العلمية التي كان يؤلفها العلماء الجزائريون أمثال عبد القادر الجاوي، وعبد الحليم بن سماية، والمولود بن الموهوب وغيرهم قبل نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين قد اتبع في نشرها على أساليب ذلك الوقت ووسائله نسخا وخطا وتجليدا وتكون المبرر الصعوبات الكثيرة والمتنوعة التي واجهت الصحافة الإصلاحية والوطنية في هذا المجال والذي لم تكن مجال التأليف في منأى منها وبصفة أكثر تعقيدا، نظرا لتكاليف الكتاب التي تفوق تكاليف الجريدة من مختلف النواحي وهي بعض ما واجه جمعية العلماء منذ بداية اهتمامها بهذا الميدان .

(*) في الحقيقة لم توجد أي إشارة في مصادر ومراجع هذا البحث في تعرضها للكيب والآثار التي تركها العلماء الجزائريون إلى أنها كانت منسوخة (مخطوطة) أو مطبوعة، لكن الذي يؤكد كونها منسوخة هو كون هذه الآثار كانت موضوع اهتمام بعض الدارسين تحقياً وطبعاً.

- **المشاكل وال صعوبات التي واجهت جمعية العلماء في ميدان التأليف وأساليبها لتجاوزها:**

بداية يمكن سرد المشاكل التي واجهت الصحافة(*) لتكون هي ذاتها المشاكل التي واجهت جمعية العلماء في ميدان التأليف، إلا أن طبيعة "الكتاب" كوسيلة اتصال أطول عمر وأدوم فائدة وكذا أكثر وأعمق مادة علمية.. الخ ناهيك عن مجالات اختصاصه وجوانب فوائدها الجمة تجعل هذه المشاكل أعقد بكثير مواجهة للكتاب عنها بالنسبة للصحيفة ومع ذلك يمكننا ذكر بعض هذه الصعوبات التي تخص الكتاب.

أ-الصعوبات المادية: كانت فكرة "التأليف" و"طبع الكتب" واردة في مشاريع جمعية العلماء ناضجة في فكر علمائها وتمتد إلى ما قبل ظهور الجمعية رسمياً، وذلك من منطلق نظرتهم الشاملة لأزمة الشعب الجزائري تحت قبضة الاحتلال الفرنسي، ومن ثمة من منطلق استراتيجيتهم الشاملة للقضاء على الأزمة بتحرير الشعب منه. كما أن ملف "التأليف" إن صح لنا تسميته كذلك لم يكن إلا مرحلة بين مراحل وحلقة ضمن سلسلة حلقات في هذه الاستراتيجية، وقد وضع لكل منها مشروعها ودراستها ومعطياتها وتعيين لها من العوامل والأسباب ما يسهل تحقيقها والمضي فيها من نجاح إلى نجاح.

وقد تبلورت فكرة ثم مشروع طبع الكتب مع بداية ظهور الصحافة الباديسية، وخاصة بعد ظهور حلقات "محالس التذكير" على صفحات جريدة -ثم مجلة "الشهاب"- التي أصدرها ابن باديس. ويذكر الابراهيمى تداوله لهذا الموضوع مع ابن باديس وذلك في لقاء جمعتهما بعد أسبوع من وفاة الشيخ رشيد رضا، قال: << فذكرنا تفسير "المنار" وأسفنا لانقطاعه بموت صاحبه فقلت له: ليس لإكمالها إلا أنت فقال لي: ليس لإكمالها إلا أنت، إلى أن قال له ابن باديس واثقا مؤكدا: إننا لو تعاوننا وفرغنا للعمل لأخرجنا للأمة تفسيراً يغطي على التفاسير >>(1).

وقد وقعت أسباب مادية بحثة أمام الجمعية حالت دون إصدارها وطبعها للكتب

(*) يرحى الرجوع إلى فصل "الاتصال عن طريق الصحافة".

(1) عبد الحميد بن باديس، محالس التذكير، (قسنطينة، المطبعة الاسلامية، 1948م) ص 9. (وانظر مقدمة الكتاب للشيخ الابراهيمى)

وهو ما ذكره السيد أحمد بوشمال، أحد أعضاء جمعية العلماء، ومدير "الشهاب"، وهو أنه لما تصدى بجمع دروس من مجالس التذكير وتجريدها من مجلة العلماء الشهاب قصد نشرها في كتاب مستقل وذلك بمناسبة الذكرى الثامنة لوفاة رئيس جمعية العلماء "الإمام عبد الحميد بن باديس"، وبغرض إحياء آثاره، لم يجد من الورق ما يمكن به تسهيل هذه المهمة، ويبدو أن التفكير في هذا العمل قد بدأ مبكراً ولكن عوزه إلى المادة الأولى لتحقيقه جعله يتأخر كثيراً وهو ما تأسف السيد بوشمال له معتذراً⁽¹⁾. ومع ذلك يبدو أنه لم يستطع طبع دروس مجالس التذكير كلها وإنما فقط جزءاً يسيراً منها.

قال بوشمال: «كان من الواجب أن نبدأ بنشر "مجالس التذكير" وهي من أهم أبواب مجلة "الشهاب" وكان من الطبيعي أن نبدأ بمقدمات هذا الباب من الجزء الأول ولكن كمية الورق المناسب التي استطعنا الحصول عليها بالتقتير والادخار اضطررتنا للاقتصار على طبع ما نشر في أعداد من "الشهاب" تفسير لآيات القرآن من سورة الفرقان»⁽²⁾.

وتقف الأسباب المادية عائقاً دون بعض علماء الجمعية في إصدار كتبهم داخل الجزائر، وتضطرهم إلى طبعها بالشرق العربي ويتعلق الأمر هنا مثلاً بالشيخ محمد السعيد الزاهري الذي طبع كتابه "الإسلام في حاجة إلى دعاية وتبشير" في مصر سنة 1929م ثم في دمشق سنة 1934م⁽³⁾.

وعليه فلما كان "الكتاب" يتطلب من الورق الكثير بالمقارنة مع الجريدة، وقد يأخذ من الوقت الكثير أيضاً وكذا أساليب تغليفه وإخراجه ومنهجه فإنه من الطبيعي أن تكون تكلفته أكثر، ومن ثمة فصعوبته المادية تتجاوز مثلتها في الصحافة كلما ارتفعت كلفته.

وتجدر الإشارة إلى أن جمعية العلماء قد استغلت الصحافة في هذا المجال استغلالاً

(1) عبد الحميد بن باديس، مجالس التذكير، مصدر سابق، أنظر: الغلاف الخارجي الخلفي، بقلم أحمد بوشمال، بتصرف.

(2) المكان نفسه.

(3) محمد السعيد الزاهري الإسلام في حاجة إلى دعاية وتبشير، (دمشق، مطبعة الاعتدال، 1934م)، ط2، ص5.

مفيدا يقضي بعدم تفويت فرصة الاستفادة من مضامين الكتب -المشاريع- على جمهور قرائها من مثقفين إلى عامة الشعب، فقد كانت هذه الكتب أصلا عبارة عن مقالات صحفية متتابعة، تخدم الموضوع نفسه وبالعنوان نفسه أيضا، حتى إذا كمل بحثه واستوفت مواضيعه ومسائله أصدرته الجمعية باسم صاحبه في كتاب يحمل ذلك العنوان، ويتعلق الأمر هنا مثلا "بمجالس التذكير" ، وكتاب "رسالة الشرك ومظاهره": للشيخ مبارك الميلي الذي نشرت مواضيعه تباعا في جريدة "البصائر"، حيث يقول صاحب الرسالة: >> وبهذه الصحيفة نشرنا سلسلة مقالات في "موضوع الشرك ومظاهره" وما برزت من تلك السلسلة حلقات حتى أخذت الرغبات من مختلف الطبقات في عدة جهات تتوارد على تجريد تلك المقالات وجمعها في رسالة خاصة، فاستصوبنا اقتراح الراغبين وأمسكنا عن قراء "البصائر" ما بقي من حلقات السلسلة وأعلنا بها استعدادا لتنفيذ مقترحهم، ثم رجعنا إلى ما كتب بالتهذيب والتبويب وتنقيح عبارات للتقريب وتغيير في الترتيب، وأضفنا إليه بعض الفصول، فجاءت في شكل غير ما ظهرت به من قبل >>(1).

وللإشارة فإن كتاب "الزاهري"، >> الإسلام في حاجة إلى دعاية وتبشير" أيضا كان عبارة عن مقالات نشرها في مجلة "الفتح" القاهرية بالإضافة إلى مقالات نشرها في جريدة "النور" الصادرة بالجزائر العاصمة والتي أضافها إلى الطبعة الثانية للكتاب(2).

ب- صعوبات الواقع الجزائري:

لوسائل الاتصال المطبوعة دور خطير في تغيير الحياة البشرية وصفها بعض الباحثين " بالتغيرات الهامة في تنظيم المجتمع ووظيفته >>(3)، بينما وصفها البعض الآخر بالثورة في كل مراحل الحياة بما فيها من تجارة وسياسة وتعليم وغيرها >>(4). وقد ردّ عالم الاجتماع الأمريكي "كولي" Charles Horton Cooley عوامل تلك الثورة إلى أربعة قال: بأن هناك أربعة عوامل جعلت هذه الوسائل الجديدة - ويقصد الصحافة والكتاب - أكثر تأثيرا من

(1) مبارك بن محمد الميلي، رسالة الشرك ومظاهره، (الجزائر، مكتبة النهضة الجزائرية، 1966م)، ط2، ص 14.

(2) محمد السعيد الزاهري، المصدر السابق، ص3 و 86 بتصرف.

(3) حمدي حسين، مقدمة في دراسة وسائل وأساليب الاتصال، (القاهرة، دار الفكر العربي، 1987م)، ص 27.

(4) المكان نفسه

أية عمليات اتصالية في تاريخ الانسان من قبل وهي:

- 1- القدرة على التعبير ونقل كم هائل ومتنوع من الأفكار والمشاعر.
- 2- التغلب على الزمن بتسجيل وحفظ المعلومات.
- 3- التغلب على المكان من خلال مرونة وسرعة الحركة.
- 4- الانتشار بحيث تتيح المعرفة لكل الطبقات في المجتمع (!)

لكن هل يمكن أن تؤدي هذه الوسائل دورها وتحديث التغيير الذي أشار إليه هؤلاء العلماء في مجتمع متخلف جامد وجاهل؟ وبالأحرى هل ستجد لها قبولا بينهم وهم لا يعرفون دورها ولا تأثيرها؟. إن المنطق يريد أن تجد هذه الوسائل القبول والانتشار عند الناس، عندما تتوفر عدة ظروف تسمح بقدر من التمويل وسرعة الطباعة والتوزيع. ومع أن هذه الخطوة هامة لكنها تأتي بعد خطوة أخرى أهم والتي بها تتوفر هذه الظروف أو تساعد على إيجادها وهي التي ترتبط بتوفر مجموعة معقدة من العناصر الثقافية داخل المجتمع وبدايتها التعليم الذي يتيح فرصة الاطلاع والقراءة لكل فرد، ثم الأحداث السياسية والتغيرات الاجتماعية التي تكوّن المحفزات على متابعة الأحداث والانفعال معها وبها بما يبعث الشعور بالحق في الإعلام والحاجة إلى الاتصال.

ووعيا من علماء الجمعية بهذه الخطوات المنطقية فإنهم سعوا من خلال وسائلها الاتصالية التي سبق لنا دراستها قبل إلى إيجاد هذه الحاجات الاتصالية في المجتمع عن طريق التعليم المسجدي الذي يعلم القراءة والكتابة ثم التعليم المكتبي المنظم الذي يوسع المدارك ويثبت المعلومات بالدقة والتكرار والمتابعة. وكذا عن طريق الرحلة يبعث الهمم وتحريك العقول قصد الاهتمام بالقضايا المصرية للأمة الجزائرية والوطن الجزائري بداية بالتعبئة لصالح المشاريع الاجتماعية والثقافية والائتساف حول المصلحة العامة بالمساهمة المادية والعملية، فكان أن تغيرت معطيات الحياة الفكرية والسلوكية عموما وتحولت من الجمود واللامبالاة السلبية إلى الحركة والتفاعل الايجابي وهو ما شهدته كل المناطق التي امتدت إليها يد الإصلاح. ونتج عن ذلك نخبة مثقفة باللغة العربية ومستمدة من منابع التاريخ والتراث الأصيل للجزائريين وبالجملة توفر المجموعة المعقدة من العناصر الثقافية والاجتماعية

التي تستدعي وجود هذه الوسائل ومن ثمة اقتناعها ومتابعتها بشغف تعدى إلى المشاركة العلمية والصحفية وإلى النقد والاقتراح البناء. وليس أدلّ على ذلك من أن تجتمع رغبة القراء في الاقتراح على جريدة "البصائر" في نشر موضوع "الشرك ومظاهره"، وقد كانت عبارة عن مقالات - كما ذكرنا - في رسالة مستقلة تقول "البصائر" في شأنها: - بعد نشر الجزء السابع عشر من الموضوع - هذا آخر ما كتب من هذا المقال قبل اجتماع جمعية العلماء، وقد علمنا بعد هذا الاجتماع وقبله أيضا أن كثيرا من القراء يرغبون في نشر هذا الموضوع (الشرك ومظاهره) في رسالة مستقلة. ولما تأكدنا من هاته الرغبة وعرضناها على محرر الموضوع أجاب بالقبول... وعليه فلا ينتظر القراء بقية المقال بعد الآن في "البصائر" وسنعلن عن الرسالة عند تمثلها للطبع <<(1).

ويمكن أن نستدل بالإضافة إلى ذلك بإقبال الجزائريين على الاشتراك في شراء نسخ من الكتب المؤلفة وقرضها بالمقالات الصحفية المستحسنة والمشجعة، وكذا بالقصائد الشعرية، فقد ذكر "أحمد توفيق المدني" مثلا أنه عندما ألف كتابه: "تاريخ الجزائر" أعلن عنه وطلب إلى الشعب الاشتراك فيه وقدم له بيانات عن محتوياته يقول: << لقد انهالت عليّ الاشتراكات بصفة كادت أعجز معها عن تسجيلها وضبطها، وما كاد ينقضي شهران على ذلك الإعلان حتى كان قد تجمّع لدي من المال ما غطى كامل مصاريف الطباعة ومداريف الخريطة وهي باهظة >>(2). وللإشارة فقد طبع كتاب "تاريخ الجزائر" على المطبعة العربية التي أسسها الميزانيون في العاصمة ووضعوا على رأسها أبا اليقضان، وقد طبع منه خمسة آلاف نسخة وهو أضخم عدد لما أصدرته المطبعة الجزائرية(3) في ذلك الوقت. ويضيف المدني بأنه عرفانا منه لفضل الشعب الجزائري فقد وضع على واجهة الكتاب بالخط العريض: طبع بنفقة الأمة الجزائرية >>(4). ويقول في موضع آخر:

(1) البصائر، ع45، السنة الأولى، بتاريخ الجمعة 12 رمضان 1355هـ الموافق 27 نوفمبر 1936م، ص 8.

(2) أحمد توفيق المدني، حياة كفاح، مرجع سابق، القسم الثاني، ص 205-206.

انظر المعنى نفسه في كتاب الجزائر، مرجع سابق، (المقدمة)

(3) المرجع نفسه، ص 205

(4) المرجع نفسه، ص 206

>> بأن الكتاب تقبل بضجة استحسان وحذل، ونشرت حوله مقالات غفيرة متباينة، وقد وصله (533) رسالة أغلبها من البلاد الجزائرية فيها تحييد وتمجيد >>(1) للكتاب.

وقد أشار "روبير أجرون" "Ch. Robert Ageron" إلى كتاب "المدني" استدلال به على ما سماه بولادة الوطنية في الجزائر سنة 1931م قال: >> فكتاب التاريخ الوطني الذي ألفه الشيخ المدني، وهو كتاب الجزائر (1931م)، الذي طبع بنفقة الأمة الجزائرية كان كتابا يحمل فوق غلافه (*) "شعار جمعية العلماء" الإسلام ديننا، الجزائر وطننا، العربية لغتنا، كلمات ذات معاني جديدة ظهرت إذا في اللغة العربية الجزائرية مثل الوطن، الأمة الجزائرية، الشعب... >>(2).

ونستدل بكلام أجرون "Ageron" بدرونا ليس لتتفق معه في تأكيد جدة هذه الألفاظ على قاموس واقع الجزائر الاجتماعي والسياسي كلية وإنما للإشارة إلى أنها كذلك فقط من حيث المنطوق لأن مضامين هذه الكلمات عريقة عراقية الشعب الجزائري نفسه التي تصب في مقوماته الدينية والفكرية التراثية. ومن ثمة فهي تدل أكثر على عودة هذه المضامين إلى الحياة والفعالية والحركة مما وفر بدوره جملة من العناصر الثقافية التي استدعت وجود "الكتاب".

جـ- ندرة المختصين في مجالات التأليف مقصودة لذاتها عند جمعية العلماء:

ونعني بهؤلاء المختصين أولاً: الكتاب أو العلماء الذين يمتازون بالعلم الواسع والمادة الغزيرة والإدراك القوي في المجالات التي كانت تتطلب التأليف في ذلك الوقت مثل علم التاريخ وعلم العقائد، والتي كانت من أولويات مشاريع جمعية العلماء في هذا المجال، لأن العلماء أدركوا أهمية تأليف كتب في هذه المجالات بالذات وهي التي شملها الفكر الاستعماري أكثر من غيرها لأنها هي الأساس بالمقارنة بسواها - بالتشويه والطمس مستهدفاً من خلالها دون غيرها بث الفرقة ونشر الفوضى في الأفكار والمشاعر تسهيلاً لسياسة الإدماج والفرنسة وتحقيقاً لمهمة خلق شعب جديد ينتسب إلى تاريخ غير تاريخه

(1) أحمد توفيق المدني، حياة كفاح، مرجع سابق، القسم الثاني، ص 207.

(*) نشير إلى أن عمر راسم هو الذي صمّم الغلاف الخارجي لكتاب "تاريخ الجزائر" في طبعته الأولى.

(2) Ch.Robert Ageron, Histoire de l'Algérie contemporaine, Op Cit, p 86.

وينتسب إلى أجماع هو في الحقيقة لا يمت إليها بصلة ولا قرابة. ومن ثمة فقد تطلبت هذه الحالات بالذات التأليف فيها لردم هوة الفرقة والحيلولة دون الاحتلال في تحقيق مآربه التي اصطلاح الباحثون على تسميتها "بالغزو الفكري".

وإذا سهل على الاحتلال بعد نهب وسرقة ودفن التراث الجزائري -العربي الاسلامي- من الكتب التي حوتها المكتبات الكثيرة في المساجد والزوايا والخيام البعيدة، ثم تجنيد جيشه من المستشرقين والمؤرخين وكذا كثير من المغامرين لتأليف بديلا لها، كتبها ضمنها نظرتة الاستعمارية البحتة وملاؤها بمكتبات جديدة وكسرت مضامينها عن طريق مدرسته في الواقع اليومي للمسلمين الجزائريين، فإنه أشرك معه في مهمة تشويه العقيدة شيوخ الزوايا والطرفيين وكذا الأئمة الرسميين على أن يتابع أعمالهم وسلوكاتهم بما بعضها من أباطيل وشبهات عن طريق الصحافة والمحاضرات والندوات وغيرها.

ثانياً: نعي بهم العلماء الذين ينمون إلى جمعية العلماء بحمل فكرتها الإصلاحية ومناصرتها، وهي بالإضافة إلى الصفات التي حدتها العضوية الإدارية بها من صفات الخطيب والإمام والمعلم والداعية المسلم كما مرّ بنا >> يتطلقون من مواقع فكرية ثابتة، ومعايير محددة سلفاً، ومن الإيمان بأن هناك نظاماً فكرياً صالحاً هو الإسلام يتخذ كنقطة ابتداء وانتهاء في أية محاولات إصلاحية<< (1). وفي الجملة من يؤمن بمبادئ الجمعية وأصولها، ويعي أهداف الاحتلال ويدرك خطورة وسائله، ثم يعمل على إحياء مقومات شعبه ضمن استراتيجية الجمعية فكراً ومنهجاً ووسيلة.

ولئن لم يطرَح هذا المشكل بحدة بالنسبة لمجال العقيدة فإنه لم يكن في مجال التاريخ وذلك لتوفر أصول مضامينها في القرآن الكريم وكتب السنة النبوية، ثم الطبيعة الدينية لتكوين علماء الجمعية أنفسهم. بما درسوه في الجزائر أو تونس أو في معاهد المشرق العربي وفي الحجاز. وقد شهدت صفحات الجرائد الإصلاحية مادة علمية دقيقة تعرض أصحابها خلالها سواء من علماء الجمعية أو علماء الإصلاح الآخرين لشتى المواضيع التي تمس العقيدة وكان أهمها ومحورها رد شبهات وأباطيل الطرفين بأي القرآن الكريم وأحاديث النبي صلى الله عليه وسلم، وأقوال الفقهاء والعلماء في هذا المجال وغيره ممن بلوا

(1) عبد الرحمن سلوادي، المرجع السابق، ص 203

هذا الموضوع من قدامى ومحدثين مما يدل على تمكنهم من البحث العلمي والمادة العلمية وهو ما يمكن جمعه في كتب كثيرة بما يفيد ويفسي ويحيط. ومن ثمة فلم يطرح في مجال العقيدة مشكل قلة المادة العلمية من توفر للكتب والآثار المختلفة لكن مشكل عدم التفرغ للعمل والتعاون. ففي محاوره الابراهيمي لابن باديس في قضية إكمال تفسير "المنار" دائما احتج "الابراهيمي" بأن ما وفرته مكاتب القاهرة "لمحمد رشيد رضا" هو الذي ساعده على نجاحه في إعداد ذلك التفسير أو الجزء منه، لكن ابن باديس أكد أن الجزائريين في هذا المجال خاصة ليسوا في حاجة إلى مكاتب القاهرة وإنما إلى التفرغ والتعاون يقول الابراهيمي: فقلت له: (لابن باديس): حتى يكون لي علم رشيد، ومكتبة رشيد ومكاتب القاهرة المفتوحة في وجه رشيد قال: فقال لي واثقا مؤكدا: «إننا لو تعاوننا وتفرغنا للعمل لأخرجنا للأمة تفسيرا يغطي على التفسير من غير حاجة إلى ما ذكرت» (1).

ويطرح مشكل التخصص بالحاح في مجال التأليف التاريخي خاصة وأنه لم يعد يقتصر على سرد الأحداث وتسجيل الوقائع ومتابعتها وإنما أصبح يشمل عدة أبواب أخرى لم تهتم بها المؤلفات العربية وهو ما يشير إليه الشيخ مبارك الميلي: «إن المؤرخين صاروا يهتمون بأبواب من التاريخ لا عناية للمؤلفات العربية بها وصار القارئ - إن كان متمسكا للروح العصرية - يعدّ التاريخ الخالي من الأبحاث الاقتصادية وذكر حال الآداب ومبلغ الحضارة تاريخ قصص وأساطير لا شأن للعاقل بها» (2).

ويعترف "مبارك الميلي" نفسه، وهو أول من دشّن هذا الميدان ووضع كتابا في تاريخ الجزائر «أنه لم تحدّثه نفسه ولا يوما بالكتابة في هذا العلم» (3) - يقصد التاريخ - ويقول عن نفسه وعن رفاقه: «أنا من المتعلمين بالمساجد، اشتغلت أيام الدراسة بما به يشتغلون، ففضيت دور التعلم بعيدا عن هذا العلم - شأن رفاقي - لا عناية بي بكتبه ولا بحث لي عن دواوينه، ذلك بأنني لم أعاشر مدة طلبة للعلم من يلفت نظري لهذا العلم

(1) عبد الحميد بن باديس، مجالس التذكير، مصدر سابق، ص ر (أنظر مقدمة الكتاب).

(2) محمد مبارك الميلي، تاريخ الجزائر في القديم والحديث، مصدر سابق، ج2، ص12.

(3) المكان نفسه.

النفيس ولا من يذكر لي من فصوله ويشرح لي من أسرارهِ ما يشوقني إلى محاسنه ويعثني إلى ورود عذب مناهله» (1). ويضيف بعدما يعدّد ما قرأه من علوم تهتم بتراجم الفقهاء والنحاة ثم إطلاعه على كتب الأقدمين من أهل العصور الأولى من الإسلام وكتب المتأخرين من أهل عصره يقول: طالعت فيما طالعت بعض رسائل ألفت حديثاً في التاريخ فتعرفت إلى هذا العلم ورغبت في الاستزادة منه فأخذت أبحث عن مواده ولكن لم اتصل -لعوارض- إلا على القليل منها» (2).

ويمكننا أن نستخلص من قول "الميلي" طبيعة الحياة الفكرية وقلة محفزاتها ومنها قلة مواد التاريخ الذي سيصبح من بين الاهتمامات الأولى للجزائريين بفضل جمعية العلماء المسلمين الجزائريين.

د- قلة المادة العلمية العربية: ويختص التأليف في مجال التاريخ دون غيره بهذا المشكل ويمكن ردّ أسبابه إلى :

1- التجربة القاسية التي تعرضت لها المكتبات الجزائرية على يد جنود ومشتشرقين ومؤرخي الاحتلال الفرنسي بعد غزوهم مباشرة للجزائر فقد انتهبوا آلاف الكتب، ونقلوا ما استطاعوا منها على البغال والجمال إلى الشمال، بعد جمعها من خزائن المكتبات الجزائرية في مختلف المناطق وبزوايا الجنوب الجزائري خاصة تمهيدا لنقلها إلى فرنسا بشهادة كتاب الاحتلال نفسه.

2- قلة المادة العلمية العربية نفسها في مجال التأليف التاريخي بمفهومه الحديث- في تلك الحقبة- الذي يهتم بالاقتصاد، والأدب، والحضارة، واقتصار التاريخ العربي على السّير والتراجم والغازي والقصص. يقول ميلي بأنه لما «ابتدأ العمل ليضع حجر الأساس في هذا العلم عن تاريخ الجزائر بالقلم العربي اعترضه مشكل» المادة العربية القليلة جدا» في حين توفرها باللغة الفرنسية مضيفاً بأنه كان يجهل الفرنسية وقد فاته وقت تلافيتها» (3).

(1) محمد مبارك ميلي، تاريخ الجزائر في القديم والحديث، مصدر سابق، ص 11

(2) المصدر نفسه، ص 11-12.

(3) المصدر نفسه، ص 12.

والإشارة فإن أغلب علماء جمعية العلماء المسلمين الجزائريين لم يكونوا يحسنون سوى اللسان العربي^(*) ويقول علي مراد >> بأنه يمكن التأكيد على أن المصلحين كانوا يعانون من العزلة الثقافية التي سببها جهلهم للغة الفرنسية ويبرّر ذلك بأن اللغة العربية تكوّن سلاحهم الوحيد للتأثير، وبأن معاناتهم تأتي خاصة من شعورهم بالمرارة عندما يلاحظون مواطنيهم المفرنسين ينضمون بكل انسجام في النظام الفرنسي، ويضيف بأنه >> لم يكن هؤلاء العلماء يبذلون أي جهد للتأقلم مع الحقائق الجزائرية وخاصة العامل اللغوي>>⁽¹⁾، ومع غرابة رأي علي مراد في هذا المجال لكن ردّ المليي وهو فوات وقت تلافي ذلك النقص يشترك فيه جميع العلماء وخاصة كثرة الاشغال وصعوبة المهام والأهداف التي تكون منعت هؤلاء من استدراك ما نقص لكن الحقيقة أنهم لم يكونوا يعانون من هذا "النقص" البتة إلا من تصدى منهم للقيام بما قام به "مبارك المليي" في إعداد كتابه التاريخي والذي تجاوزه بالإستعانة بعدد من الترجمة الجزائرية في ترجمة مادة الفصول الفرنسية إلى اللغة العربية، وقد أسدى "المليي" شكره لهم عرفانا بفضلهم ومساعدتهم له وخاصة في الجزء الأول^(**) كما استعان في ذلك بالأستاذ توفيق المدني، في الجزء الثاني من كتابه وقد أشار المدني إلى ذلك لما تعرض إلى مساهمته في "كتاب المليي" قال: >> كنت أعرب بعض الفصول الطائفة من مختلف أمهات كتب التاريخ الغربي، وأرسل له -يعني إلى مبارك المليي- تلك المادة الخام تباعا طيلة أعوام>>⁽²⁾، وأورد صورا

(*) لابد أن نستنتج محمد الأمين العمودي، الأمين العام لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين، مؤسس جريدة "الدفاع" "La défense" باللغة الفرنسية سنة 1935م. ويذكر الدكتور عمار الطالبي أن عبد الحميد بن باديس كان بطالع الصحافة الفرنسية وقد روى ذلك عن الأستاذ محمد الصالح رمضان أحد أعضاء الجمعية بأنه كان يشتري جريدة "لاديبش در قسطنطين" "La dépêche de Constantine" وقبّد عنه ذلك في محاضرة ألقاها نادي "اتحاد الطلبة الجزائريين" إحياء لذكراه بتاريخ 16 أبريل 1964م ومع ذلك فإنه يؤكد بأن ابن باديس كان لا يتحدث باللغة الفرنسية. انظر عمار الطالبي، المرجع السابق، ج1، ص 92 (الهامش).

(1) Ali Merad, Le Réformisme Musulman en Algérie, Op Cit , p348

(**) يقول "مبارك المليي" في شكر خاص لهم >> أولئك الذين أذكر منهم، الشبان العاملون الأصدقاء: عيسى الزهار الترجمان بالأغواط، محمد التهامي الترجمان بجيلة، عمر دهنية أحد المعلمين بالمكاتب الفرنسية..أنظر :

تاريخ الجزائر في القديم والحديث، مصدر سابق، ج1، ص : إهداء شكر- بتصرف.

(2) توفيق المدني، حياة كناع، مرجع سابق، القسم الثاني، ص 209.

لرسائل كانت بينه وبين "الميلي" تتكلم في هذا الشأن >>(1).

وقد أكد "الميلي" معاناته في الجزء الثاني من كتابه، التي كانت تعود خاصة إلى قلة وجود المادة التاريخية باللغة العربية، ومن ثمة صعوبة ترجمتها إلى العربية بالنسبة لمن يجهد غير اللغة العربية وقال: >> وقد قاسبت في تصحيح الأعلام وجمع المواد وإيضاح الأغراض التاريخية من تقريب الأسلوب من النهج العصري ما لا يعلمه إلا من عمل عملي وكان مثلي جاهلا بغير العربية >>(2) وهو ما يعطينا منذ الآن فكرة عن عظمة العمل الذي أقدم عليه "الميلي" في كتابه ذلك.

هـ- قلة الفراغ وكثرة المشاغل: في الحديث عن هذا الشكل بالذات يجب التركيز بالإشارة إلى أن المدرسة الإصلاحية في الجزائر، لم تكن مدرسة للتنظير العلمي المجرد كالتي قادها علماء الإصلاح في المشرق العربي، وإنما كانت ورشة عمل مفتوحة، متواصلة ومترابطة المشاريع، وهي تشهد في كل إنجاز منها بأن علماء الجمعية كانوا علماء ميدان بالدرجة الأولى بالإضافة إلى كونهم علماء تنظير علمي. وهو بالذات ما كانت تتطلبه الأزمة في الجزائر وكذا ما كان الشعب الجزائري في حاجة إليه قبل أي شيء آخر.

فقد كان علماء الجمعية في سباق مع الزمن، ضد أعداء يختلفون في الطبيعة والأسلوب والوسائط، وبالتالي فإنهم كانوا بصدد ثورة بناء على مختلف المستويات وفي جميع الميادين. ولما كان التأليف وهو المجهود العقلي والعلمي الذي يتطلب الشغور والصبر والإحاطة، ويستلزم قواعد من المناهج والأساليب اللغوية والفنية والتقنية فإنه كان يستوجب بالتالي انقراض التام والاهتمام بالموضوع قصد جمع مادته، وتنظيم معطياته ثم تحرير مضامينه، ولما كانت الانشغالات الكثيرة تستوعب كل أوقات علماء الجمعية فإنها حالت دون تفرغهم لهذا الميدان ومن ثمة قلة إنتاجهم الفكري وخاصة من حيث الكتب.

فإذا تكلمنا عن "ابن باديس" فإن تلاميذه يشهدون بأنه قد بلغ في عطائه كأستاذ في المسجد الأخضر إلى أقصى حدود التحصيل البشري >>(3)، وقد رأينا أنه كان يتبع

(1) توفيق المدني، حياة كفاح، مرجع سابق، القسم الثاني، ص 210-211.

(2) مبارك ميلي، تاريخ الجزائر في القديم والحديث (قسنطينة، المطبعة الجزائرية الإسلامية، 1932م)، ج 2. (صفحة شكر واعتذار).

(3) Ali Merad, Ibn Badis, Commentateur du Coran, Op Cit , p 46

الدرس بالدرس قبل صلاة الفجر وحتى بعد صلاة العشاء، وكان يستغل عطلة نهاية الأسبوع وحتى العطل الصيفية للتجول في مختلف مناطق الوطن في زيارات علمية إصلاحية، لإلقاء الدروس والخطب والمحاضرات لنشر مبادئ الإصلاح، ومدّ حُضور الاتصال ومن ثمة المودة والتعاون بين أفراد الشعب الجزائري، وكذا مع شيوخ الطرق الصوفية. يضاف إلى ذلك ضرورات رئاسته لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين دون انقطاع منذ 1931م⁽¹⁾، وما كانت تتطلبه من تنقلات دورية وخاصة إلى مركزها بالعاصمة للاجتماعات الطارئة وكذا المنتظمة، وكذا في المواسم المختلفة لإحياء المناسبات الدينية أو تدشين منجزات الجمعية من مدارس ومساجد ونوادي.. الخ.

ولا ننسى أن ابن باديس كان رئيس تحرير جريدة "المنتقد" ثم "الشهاب" -بعدها جريدة ثم مجلة- دون انقطاع أيضا منذ 1925م وقد كان يتطلب منه ذلك العناية الصحفية والعلمية التامة. ومنذ أن صرّحت الجمعية بتوجهها السياسي، كان على رئيسها وقد كان المدافع الفذ عن الجماهير الإسلامية الجزائرية في مطالبها المختلفة الآنية والمصيرية -متابعة القضايا والأحداث بالتحليل والتعليق والنشر قصد إطلاع الرأي العام الجزائري والعالمي بمقائق الأمور، ووجهة نظر الجزائريين في أحداث الساعة في ذلك الوقت، كما تطلب منه تنقلات إلى خارج الجزائر، نحو فرنسا وتونس^(*).

وتضاف إلى مهام الرئيس الثاني للجمعية الشيخ البشير الإبراهيمي -بعد ممات الرئيس الأول- مهمة أخرى تمثل في التنقل بين الدول العربية الإسلامية نظرا لضرورات الإصلاح في مرحلة ما بعد الحرب العالمية الثانية الذي أرتأت الجمعية ضرورة مدّ جذورها في منابعها الطبيعية من حيث انتماء الشعب الجزائري إلى الأمة الإسلامية العربية العظيمة، ومن ثمة تأكيد مقومات الشعب الجزائري. وقد أشار "الإبراهيمي" إلى أن الأعمال الداخلية للجمعية قد حالت دون قيامه بهذه الوجهة لعدة مرات حيث قال: «وكانت

(1) Ali Merad, Ibn Badis, Commentateur du COran, Op Cit, p 54.

(*) نعي بذلك سفر ابن باديس ضمن وفد المؤتمر الإسلامي الأول 1936م إلى فرنسا لتقديم المطالب الإسلامية لحكومة ليرن بلوم Léon Blum. أما زيارته إلى تونس فالأولى كانت في ماي 1937م لاجتماع الذكرى العشرين لوفاة الشيخ "بشير صفر" وكان استادا لابن باديس، والثانية في جويلية 1937م بمناسبة عودة عبد العزيز النعالي صديقه وزعيم تونس، من المنفى.

تذودني عن هذه الرحلة كلما همت بها - الأعمال الداخلية لجمعية العلماء، وما هي بالقليلة >> (!).

ونكاد نجزم أنه كان على كل عالم عضو في إدارة الجمعية القيام بأكثر من مهمة وعمل في الوقت نفسه خاصة إذ عرفنا أن الجمعية قد كثرت تشكيلاتها سنة بعد سنة (*)، وتفرعت شعبها، وزاد عدد مدارسها ومساجدها، ونواديبها بالإضافة إلى المشاركة في تحرير جرائدها والتعليق على القضايا والأحداث ومتابعة الساحة الفكرية والسياسية والاجتماعية عموماً. وكذا المشاركة في وفود الجمعية إلى الأقاليم والشعب لتفقد المنجرات أو تدشينها أو وضع حجر أساسها أو الوعظ والإرشاد كما مرّ بنا. وإذا أضفنا إلى هذه الأعمال كلّها المضايقات الاستعمارية لعلماء الجمعية وظروف المتابعات القضائية والتهديدات والاستنطاقات، وكذا ظروف السّجن والنفي وآثار هذه على الواقع النفسي والاجتماعي والمادي عليهم، نتساءل هل سيبقى مع كل هذا وقت يتفرغون فيه للتأليف؟. ومع ذلك، ورغم كل ذلك، فإن جمعية العلماء لم تتأخر عن مجال التأليف، بل كان لها بصده إنشغال خاص ومشروع محدد المجالات والأفكار. وقد سجلت الجمعية فعلاً اسماً وأسماء علمائها في ميدانه. وأثبت علماؤها بأنهم علماء من الطراز العالي نضجاً فكرياً ومن حيث اللغة والأسلوب والمنهج.

وتجدر الإشارة إلى أن جمعية العلماء كانت الرائدة في ميدان التأليف على المستوى الجزائري إذ لم يسبقها إليه في التفكير ثم المبادرة العلمية والعملية من الحساسيات السياسية المتواجدة آنذاك. وإذا حق ملاحظ أن يقول بأن هذا المجال يدخل ضمن مبادئ جمعية العلماء ووجهة نظرها حل أزمة الشعب الجزائري فإنه وإن كان فعلاً، فقد كان من المفروض أن يكون ضمن الأولويات الهامة والرئيسية ليس فقط لجمعية العلماء وقد أدت واجبها فيه وكفت، وإنما أيضاً لكل من تصدر كل منبر يقول فيه بأنه يمثل الشعب الجزائري، ويحق للسائل أن "يسأل" فيم يمثله إذا لم يهتم بتاريخه ولغته وانتمائه الحضاري؟.

(1) آثار محمد البشير الإبراهيمي، مصدر سابق، ج4، ص 10.

(*) انظر تشكيلات جمعية العلماء (سنة 1953م) في : آثار محمد البشير الإبراهيمي، مصدر سابق، ج4، ص

فقد كان "مبارك الميلي" مثلاً أول من وضع حجر الأساس في علم التاريخ في الجزائر باللغة العربية ويقول عن نفسه - بعد إلحاح العلماء في طلب ذلك منه - رأيت أن ابتدئ العمل وأضع حجر الأساس <<(1)>>، كما يعتبره سعد الله << أول مؤرخ جزائري حديث >>(2)، ويقول بأن أهم المساهمات التي قام بها العلماء خلال العشرينات هي "معلق وبعث التاريخ الوطني"(3).

ثم إنه لم يحتم القرآن الكريم تفسيراً درساً ودراية في الجزائر، غير ابن باديس منذ أن حتمه أبو عبد الله الشريف التلمساني في المائة الثامنة(4).

ونجد في رأي ابن باديس ما يزيح اللبس في قضية قلة التأليف في قوله: << شغلنا بتأليف الرجال عن تأليف الكتب >>، حيث كان انشغاله ومن ثم انشغال جمعية العلماء منصبا على بعث الجيل الذي يحمل فكرة الإصلاح والتغيير^{الذي} يعنى معنى أزمته ويطمح في التحرر منها، وقد كان يرى حين تصدى لتفسير القرآن، أن في تدوين التفسير بالكتابة مشغلة عن العمل المقدم وإزالة لعمر الضلال، لذلك آثر البدء بتفسيره درساً تسمعه الجماهير فتعجل من الاهتداء به ما يتعجله المريض المنهك من الدواء وما يتعجله المسافر العجولان من الزاد(5).

ويقول الابراهيمى << كان (ابن باديس) رحمه الله يستطيع الجمع بين الحسنين لولا أنه كان مشغولاً مع ذلك بتعليم جيل وتربية أمة ومكافحة أمية، ومعالجة أمراض إجتماعية ومصارعة استعمار يؤيدها >>(6).

ومع ذلك فلا بد من الإشارة إلى مسؤولية تلاميذ ابن باديس نفسه، الذين أهملوا تقييد دروسه بالكتابة وهو ما أسف له الابراهيمى، وكلامه وإن خصّ دروس التفسير فإنه يعتم على كل الآثار الشفوية لجمعية العلماء، يقول: << وإذا كان من دواعي الغبطة نحتم

(1) مبارك الميلي، تاريخ الجزائر في القديم والحديث، مصدر سابق، ج1، ص 12، .

(2) أبو القاسم سعد الله، الحركة الوطنية، مرجع سابق، ج2، ص 425.

(3) المكان نفسه.

(4) عبد الحميد بن باديس، مجالس التذكير، مصدر سابق، ص و.

(5)، (6) المكان نفسه.

تفسير القرآن.. في القصر الجزائري، فإن من دواعي الأسف أنه لم ينتدب من مستمعي هذه الدروس من يقيدتها بالكتابة ولو وجد من يفعل ذلك لربحت هذه الأمة دخرًا لا يقوم بمال ولا ضطلع هذا الجيل بعمل يباهي به جميع الأجيال، ولتمخض لنا ربع قرن عن تفسير يكون حجة هذا القرن على القرون الآتية. ومن قرأ تلك النماذج القليلة المنشورة في الشهاب باسم مجالس التذكير علم أي علم ضاع، وأي كنز غطى عليه الإهمال >>(1).

1- كتاب "مجالس التذكير" للإمام الأستاذ عبد الحميد بن باديس:

أ- التعريف بالكتاب: يتعلق الأمر بكتاب "مجالس التذكير" الذي جمعه أحمد بوشمال مدير مجلة "الشهاب"، وطبعته جمعية العلماء بمطبعتها الخاصة، المطبعة الجزائرية الإسلامية بقسنطينة، وهو أول ما بدأت هذه المطبعة في نشره من آثار الإمام ابن باديس، يقول أحمد بوشمال >>... تبدأ المطبعة الجزائرية وهي من مؤسساته -رحمه الله- في تنفيذ ما يعتقد بقية أصحابها أنهم مطالبون به من إحياء آثاره وفي إحيائها حياة >>. وقال: >>إصدار هذا الجزء تحديد لذكر فقيه الإسلام والعروبة فضيلة الأستاذ الرئيس عبد الحميد بن باديس، وبعث لآثاره العلمية الخالدة وتمكين للمستفيدين بالإطلاع على أساليبه في درس التفسير إحياء هداية القرآن العظيم، أما مناسبة نشره فكانت إحياء للذكرى العامة لوفاة ابن باديس في غرة جمادى الثانية 1367 هـ الموافق 16 أبريل 1948م(2).

يقع الكتاب في 96 صفحة من الحجم المتوسط والتنوع الجيدة (متضمنة للفهرس) بعد مقدمة للشيخ الإمام محمد البشير الإبراهيمي امتدت على سبع صفحات، وتضمن الكتاب، درس في التذكير ثم تفسير آيات من سور الفرقان الذي قسّم حسب عناوينه إلى 28 عنوانًا جاءت على الترتيب التالي:

- | | |
|-----------------|---------------------|
| 1- التذكير | 4- ندامة الظالم |
| 2- منزل الرسالة | 5- شكوى النبي |
| 3- فتنة العباد | 6- التسلية والتثبيت |

(1) عبد الحميد باديس، مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير، مصدر سابق، ص 399-400.

(*) انظر صور لغلاف الكتاب في الملحق رقم 22.

(2) عبد الحميد بن باديس، مجالس التذكير، مصدر سابق، ص (خاتمة الكتاب).

- 7- تثبيت القلوب
18- الصفة السادسة والسابعة والثامنة
- 8- الحق والبيان في آيات القرآن
19- مزيد بيان لتوحيد الرحمن
- 9- حشر الكفار إلى النار
20- الوعيد بالعذاب الشديد
- 10- من إكرام الله عبده
21- استثناء التائبين
- 11- عدم طاعة الكافرين
22- مسألتان أصوليتان
- 12- تعاقب الليل والنهار
23- بشارة التائبين
- 13- القرآن يصف عباد الرحمن
24- القرآن يصف عباد الرحمن
- 14- الصفة الأولى والثانية
25- الصفة التاسعة
- 15- الصفة الثالثة
26- الصفة العاشرة
- 16- الصفة الرابعة
27- الصفة الحادية عشر
- 17- الصفة الخامسة
28- قيمة العباد عبد ربهم

وقد أشار بوشمال - كما سبق وأن ذكرنا- إلى أن هذا الكتاب إنما هو جزء فقط من تفسير الامام ابن باديس، ثم إلى أنه اقتصر على طبع آيات من سورة الفرقان وهي ليست بالبداية في تفسير ابن باديس وكان من الطبيعي كما قال: >> أن نبدأ بمقدمات هذا الباب من الجزء الأول << لكن كمية الورق المناسب سمحت فقط بنشر هذا الجزء.

وتعتبر هذه الطبعة أول محاولة لجمع ونشر آثار ابن باديس، التي كانت عبارة عن مقالات تنصدر "مجلة الشهاب" منذ 1929⁽¹⁾ وهي السنة التي أتم فيها ابن باديس عمر أربعين سنة كما يؤكد "علي مراد"⁽²⁾، مع أن مجالس التذكير كانت تمتد إلى أبعد من ذلك التاريخ حيث كانت أهم دروس الشيخ في "الجامع الأخضر".

وقد أعيد طبع تفسير ابن باديس سنة 1964م من قبل محمد الصالح رمضان وتوفيق محمد شفيق بعدما أضافا إليه اضافات هامة بلغت صفحاته 496 صفحة في مجلد واحد تحت

(1) بال ضبط في العدد المورخ ب : 11، م، 5، غرة رجب 1348هـ الموافق ل : ديسمبر 1929م، ص 1-4.

(2) Ali Merad, Ibn Badis, Commentateur du Coran, Op Cit, p 63.

فالامام ابن باديس قد ولد في ديسمبر 1889م، وبدأ بنشر تفسيره للقرآن في ديسمبر 1929م. وقد اعتمد علي مراد في اعتقاده على بعثة الرسول صلى الله عليه وسلم التي كانت على رأس الأربعين نقلا عن الزمخشري في الكشاف، وعن ابن هشام في السيرة النبوية. أنظر هامش المكان نفسه.

عنوان "تفسير ابن باديس" (1). وقد لاحظ عليه "علي مراد" أخطاء كثيرة لغوية وإملائية مع تغيير كبير في عناوين دروس التفسير التي كانت تنشرها الشهاب (2). وطبع مرة أخرى سنة 1971م بإضافة شروحات وتعليقات تتعلق بحياة الأستاذ ابن باديس وآراء بعض الباحثين فيه، حتى بلغت صفحاته حوالي 700 صفحة (3). وقد قام الدكتور عمار الطالبي بجمع آثار الإمام عبد الحميد بن باديس، ومنها دروسه في التفسير والحديث التي تضمنها الجزء الأول والثاني، طبع أولا سنة 1968م، ثم في 1983م (*). كما قامت وزارة الشؤون الدينية بجمع آثار الشيخ الإمام ابن باديس التي بلغت إلى حد الآن سنة أجزاء وقد خصت الجزء الأول بعنوان "بمحاسن التذكير من كلام الحكيم الخبير" وهو عنوان دروس التفسير التي نشرت به في مجلة الشهاب وقد طبع الكتاب سنة 1982م.

ب- مصادر الكتاب : جاء في خطبة افتتاح دروس التفسير التي ألقاها الإمام ابن باديس على طلبته في الجامع الأخضر بقسنطينة ذكره للمصادر التي كان يعتمد عليها في تفسيره لكلام الله وسبب اختياره لها يقول : « وعمدتنا فيما نرجع إليه من كتب الأئمة : - تفسير بن جرير الطبري، الذي يمتاز بالتفسير النقلية السلفية، وبأسلوبه الترسلية البليغ في بيان معنى الآيات القرآنية، وبترجيحاته لأولى الأقوال عنده بالصواب. - وتفسير الكشاف الذي يمتاز بدوقه البياني في الأسلوب القرآني وتطبيقه فنون البلاغة على آيات الكتاب والتنظير لها بكلام العرب واستعمالها في أفانين الكلام. - وتفسير أبي حيان الأندلسي الذي يمتاز بتحقيقاته النحوية واللغوية وتوجيهه للقراءات. - وتفسير الرازي الذي يمتاز ببحوثه في العلوم الكونية مما يتعلق بالجماد والنبات والحيوان والانسان، وفي العلوم الكلامية ومقالات الفرق والمناظرة في ذلك والحجاج (4).

(1) عبد الرحمن سلوادي، مرجع سابق، ص 57. بتصرف.

(2) Ali Merad , Ibn Badis, Commentateur du Coran, Op Cit, p 250.

(3) عبد الرحمن سلوادي، المرجع السابق، ص 57.

(*) يوجد في أربع مجلدات، وطبعته دار اليقظة العربية 1968م، ثم دار المغرب الإسلامي سنة 1983م. وهو مرجع من مراجع معتنا هنا.

(4) عبد الحميد بن باديس، محاسن التذكير من كلام الحكيم الخبير، معمدن سابق، ص 49-50.

ويبدو في اعتماد ابن باديس على هذه المصادر تركيز خاص على عدة أمور بالنسبة
لستمعيه أو لقراء تفسيره فيما بعد، منها:

- فهم المادة القرآنية فهما جيدا، وتقديم تفسيرها لهم بأسلوب بليغ يكون جديرا
بتبنيهم إلى سحر بيان اللغة العربية وجمالها.

- الابتعاد عن نقل اختلافات العلماء حول تأويل الآيات، ومحاولة تقديم الأرجح
منها، الأقوى والأصح فقط وهي ما تحقق منه هؤلاء المفسرين بعد تمرس للمادة القرآنية
التي انفقوا لأجلها أعمارهم. فنقل الخلاف إلى التلاميذ والمستعنين هو نشر له بينهم
وتكريس له في فكرهم وسلوكهم.

- بث لروح السلف الصالح في فهمهم للقرآن الكريم من تقديسه وحسن السماع
إليه ونهاية بالإتقان بأوامره والانتهاز عند نواحيه واتخاذة دستورا في الحياة اليومية.

وهناك عدة تفاسير أخرى كان يستشهد بها ابن باديس أحيانا وكذا كتب
الحديث مما يجده الثارئ في تفسيره ومما يدخل، تحت قوله - بعد ذكره مصادره المعتمدة -:
>> إلى غير هذا مما لا بد لنا من مراجعته من كتب التفسير والحديث والأحكام، وغيرها مما
يقتضيه المقام (1) ومن هذه نجد: تفسير الجلالين وأنوار التنزيل للبيضاوي، وكذا كتاب
"العواصم من القواصم" لأبي بكر بن العربي الذي يبدو تأثير الإمام ابن باديس به كثيرا
وغيره.

وقد كان يعتمد قبل كل شيء على القرآن الكريم وعلى سنة الرسول صلى الله
عليه وسلم، وكذا بيان السلف الصالح من الصحابة والتابعين، وهو ما كان يقرره ويردده
كثيرا في هذا المجال: >> وما أكثر ما تجد في القرآن بيان القرآن >> ، و >> ما أحسن
التفسير عندما تعضده الأحاديث الصّحاح : (2).

ولا يخرج ابن باديس بعد إقراره لمصادر تفسيره عن طريقته الشخصية في هذا
المجال وهي التي لخصها في وصية شيخه "النخلي": اجعل ذهنك مصفاة لهذه الأساليب
المعقدة، وهذه الأقوال المختلفة وهذه الآراء المضطربة، يسقط الساقط ويبقى الصحيح

(1) عبد الحميد بن باديس، مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير، مصدر سابق، ص 50.

(2) عبد الرحمن سنوادي، المرجع السابق، ص 65.

وتستريح» (1). ولا غرابة أن ينقل ابن باديس هذه الوصية الغالية لتلاميذه - ثم إلى قرائه عموماً - ضمن تفسيره وكذا ضمن نصائحه لطلاب المعرفة والعلم حيث كان يقول لهم: «فعلى الطالب أن يفكر فيما يفهم من المسائل وفيما ينظر من الأدلة تفكيراً صحيحاً مستقلاً عن تفكير غيره، وإنما يعرف تفكير غيره ليستعين به، ثم لا بد له من استعمال فكره وهو بهذا التفكير الاستقلالي يصل الطالب إلى ما يطمئن له قلبه ويسمى حقيقة - علماً وبه يأمن فيما أخطأ فيه غيره» (2).

ويلخص الابراهيمي طريقة "ابن باديس" في التفسير والتي تظهر فيها بصماته الاستقلالية. فإذا كان ابن باديس قد أشار إلى المفسرين الذين اعتمد على فهمهم في بسط فهمه للقرآن الكريم فإنما هو من باب الاعتراف بالفضل لأصحابه ممن سبقوه إلى هذا الميدان الشريف مع التأكيد أنه «كان لا يعطيها أكثر من أنها فهم نصيب وتخطئ»، أما المعنى الصحيح لكتاب الله «فكان يستجليه من البيان العربي والشرح النبوي ومن مقاصد الدين وأسرار التشريع، ومن عجائب الكون وسنن الله ومن أحكام الاجتماع الانساني، ومن تصاريف الزمن ونتائج العقول وثمرات العلوم التجريبية».

ومن ثمة أيضاً فإن ابن باديس كان يعتمد على هذه التفاسير "المخصوصة" دون غيرها في مواضع مخصوصة وهو ما يعلق عليه الابراهيمي بأن «ذلك صحيح ومفيد لمن يجعل فهم الرجال متاييس لفهمه ولا يعطيها أكثر من أنها فهم نصيب وتخطئ» (3).

ويقرر ابن باديس بنفسه جانباً من المنهج الذي اتبعه في تفسير القرآن الكريم بقوله «ويكون عمله - العقل - في كتاب الله وهو التفهم والتدبر لآياته والتفطن لتنبهاته ووجوه ولآئته واستشارة علومه من منظومه ومنشوره على ما دلّت عليه لغة العرب في

(1) عمار الطائي، المرجع السابق، ج1، ص78، وقد اعترف ابن باديس بفضل نصيحة شيخه وكان يردد ذلك في العديد من المناسبات ومنها حفل ختمه للقرآن الكريم. انظر: عبد الحميد بن باديس، مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير، مصدر سابق، ص476.

(2) المرجع نفسه، ج1، ص204

(3) عبد الحميد بن باديس، مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير، مصدر سابق، ص399.

منظومها ومنثورها، وما جاء في التفاسير المأثورة وما نقل من مفهوم الأئمة الموثوق بعلمهم وأمانتهم، المشهود لهم بذلك من أمثالهم <<(1)>.

وفي الجملة فإن ابن باديس بهذا لم يكن يهتم ببسط المسائل العلمية والمتفرعة التي قد يتطلبها المقام أحيانا، وما فيها من اختلافات وترجيحات، وإن كان يفعل ذلك أحيانا بطريقة لا يخرج فيها عن قاعدته الأساسية التي بنى عليها أيضا نظرتة في التعليم المكتبي والمسجدي واتخذها منهجا في دروسه وهي: نشر العلم الصحيح ولو كان قليلا، كما رأينا.

ج- منهج المفسر - ابن باديس - في تفسير المادة القرآنية:

إن المقصود من التفسير عند ابن باديس هو << أن يطلع المتعلم على التفسير بفهم المفردات وأصول المعاني بطريق الإجمال >>(2) إذ لا حاجة له بالاطلاع على أقوال العلماء المختلفة وعلى آرائهم المضطربة، ولتحقيق ذلك اتبع المفسر منهجا فذاً يجمع بين البساطة في الأسلوب، والدقة في اختيار مواضع التبيين والجمال في التسلسل والانسجام بين الأفكار والآراء المعروضة التي تنقل الطالب من الجزء إلى الذي يليه في جو من التسامح النفسي والعقلي بما يحقق للطالب الراحة والاعتناء والاطمئنان وفي الجملة التفاؤل.

ولم يكن ابن باديس نفسه ليتبع هذه الطريقة لولا أنه عانى هو نفسه من أساليب المفسرين وإدخالهم تأويلاتهم الجدلية واصطلاحاتهم المذهبية في كلام الله، واختلافاتهم فيما لا اختلاف فيه من القرآن مما جعله متبرما منهم ضيق الصدر (3). ولم تكن دروس التفسير بالزيتونة تتعد عن هذه الطريقة والتي كانت تنفر الطلبة من مادة التفسير وهو ما جعل ابن باديس ينتقد التدريس وطرق المدرسين فيه كما رأينا.

وقد أحجم ابن باديس منهجه في التفسير حين قال: << فقد عدنا.. إلى مجالس التذكير، من دروس التفسير.. على عادتنا في تفسير الألفاظ بأرجح معانيها اللغوية، وحمل التراكيب على أبلغ أساليبها البيانية، وربط الآيات بوجوه المناسبات معتمدين في ذلك على صحيح المنقول، وسديد المعقول، مما جلاه أئمة السلف المتقدمون أو غاص عليه

(1) عبد الرحمن سلوادي، المرجع السابق، ص 69.

(2) آثار الإمام عبد الحميد بن باديس، مصدر سابق، ج 4، ص 60.

(3) عمار الطائي، المرجع السابق، ج 1، ص 78 بتصرف.

علماء الخلف المتأخرون >> (1).

وإذا ما تأملنا نموذجاً واحداً من دروس التفسير فإننا نجد هذه الخطوات :

- 1- عنوان يعطي الفكرة العامة أو يلخص مضمون الآية التي هي موضوع الدرس.
- 2- النص القرآني مشكولاً.
- 3- تمهيد أو مقدمة موجزة، لتقديم النص يركز فيها على مناسبة النص تحت عنوان فرعي: سبب النزول أو المناسبة.
- 4- شرح الألفاظ والمفردات والتعابير بإيجاز في الغالب، ودون تعمق لغوي أو بلاغي إذا لم تكن هناك ضرورة، أما إذا كانت هناك ضرورة فإنه يتوسّع في أداء حق المفردة والعبارة من البحث والاستشهاد بإيراد شواهد أو مقارنات بآيات أخرى تحمل الألفاظ أو التركيب نفسها.
- 5- عرض الأفكار التي تتضمنها الآية أو الآيات القرآنية أو إعطاء المعنى الإجمالي أحياناً إذا سمحت سهولة المادة القرآنية بذلك.
- 6- تحليل مضمون النص القرآني، بعرض التوجيهات الأخلاقية والقواعد الشرعية والأحكام. ويستطرد أحياناً مع بعض الآيات مضمناً أياها عناوين خاصة حسب طبيعة الموضوع المستطرد فيه نحو استطراد تاريخي، نكتة استطرادية، مسألة أصولية، توسع في البيان.
- 7- نداء المؤمنين بعبارات الأمل والرجاء والتفاؤل لتأكيد معنى معين من موضوع النص القرآني مثل: رجاء وتفاؤل، ترغيب، تذكير، أو عبارات التحذير والتنبيه للتركيز على نهى معين مثل: تحذير، تنبيه، تبصير.
- 8- نداء المؤمنين إلى تطبيق هذه الأحكام في حياتهم اليومية الاجتماعية والأخلاقية على أساس أنها إنما نزلت ليس للتذكير فقط وإنما للتطبيق والامتثال فعلاً أو تركاً مثل: سلوك، اقتداء، موعظة أمر وإرشاد، امتثال، تطبيق.
- 9- تقويم تفسير النص القرآني بتقديم الاستنتاجات البناءة مثل: استنباط، الأحكام، فقه.

(1) عبد الحميد بن باديس، محالس التذكير من كلام الحكيم الخبير، مصدر سابق، ص 49.

10- ختم درس التفسير دائما بدعاء بالتوفيق لجميع المسلمين لتطبيق واتباع الأحكام والمواظب التي تضمنها النص القرآني.

وقد كان لابن باديس إكسالا لكل الخطوات قدرة عجيبة على استحضر الشواهد من القرآن الكريم ومن السنة النبوية أو من مآثور العرب وأمثالهم وقت إقامة الدليل على المسائل التي تتطلب ذلك ومن ثمة فإنه لا تكاد تخلو صفحة من صفحات مجالس التذكير من آية أو حديث أو قول مأثور يدعم بها تفسيره.

د- خصائص منهج ابن باديس في التفسير وآفاه الاتصالية:

إن المتصفح لتفسير ابن باديس يجد نفسه أمام دليل عملي شامل، اختيرت مواده بعناية فائقة، وبني على تسلسل منطقي، روعيت فيه معطيات من علم الاجتماع وعلم النفس، وكذا سنن الكون وحدد بمقاييس جغرافية وفصل لحل أزمة قد تتجدد، كيف ذلك؟

* اشتقراء الواقع الجزائري يدعو إلى ضرورة العودة إلى المنابع الأساسية للأمة

الجزائرية:

1- ينطلق هذا "دليل العملي من قاعدة عقديّة مسلمة في ذهن صاحبها (ابن باديس) وكذا في أذهان زملائه رواد جمعية العلماء المسلمين الجزائريين وهي: أن القرآن الكريم وهو كتاب الانسانية العليا أنزله الله تعالى من السماء ليصلح به الأرض وليدل أهلها المستخلفين عليها من بني آدم على الطريق الواصلة بالله، وبالتالي الموصلة إلى السعادة الكاملة.

2- كما أتى القرآن الكريم لأول نزوله بالعجائب والمعجزات في إصلاح البشر فإنه حقيق به بأن يأتي بتلك المعجزات في كل زمان ومكان إذا وجد ذلك الطراز العالي من العقول التي فهمته، وكذلك ذلك النمط السامي من الهمم التي نشرته وعمّمته. فإن القرآن لا يأتي بمعجزاته ولا يؤتي ثماره في الإصلاح إلا إذا تولّته بالفهم عقول كعقول السلف، وتولّته بالتطبيق العملي نفوس سامية وهمم بعيدة كنفوسهم وهممهم <<(1).

(1) عبد الحميد بن باديس، مجالس التذكير، مصدر سابق، ص أ، ب (انظر المقدمة للشيخ عماد البشير الابراهيمي).

3- إن المتأمل لوضعية وكيفية انتشار الإسلام بين المسلمين «> يجد صورة جافة من الحفظ المجرد ونمط سخيف من الفهم السطحي، وأسلوب تقليدي من التفسير اللفظي ونتيجة كل ذلك فإنه لا يفيدهم شيئا، ولا يفيد بهم شيئا بل يزيدهم بعدا عن هدايته ويزيد أعداءهم استخفافا بهم وإمعانا في التكالب عليهم والتحكم في رقابهم وأوطانهم»(1).

4- إن المتأمل لوضعية الجزائريين -والبشرية عموما- يجدها أشد شبها بالانسانية قبل نزول القرآن الكريم في جفاف العواطف وضراوة الغرائز وتحكم الأهواء والتباس السبل وتحكم القوة وتفول الوثنية المالية، وقد عجز العقل عن هدايتها وحده»(2).

وبناء على كل هذه المعطيات الواقعية التي تسمح بها استقراء الواقع الجزائري والبشري عموما تتقرر حقيقة هامة هي أن الجزائريين لم يكونوا في حاجة أكثر من العودة الفورية، الرسة والدائمة للقرآن الكريم وسنة النبي صلى الله عليه وسلم يستمدون العون من مددهما، ويدركون الوهن الذي حل بهم. وهو الطريق الوحيد الذي يضمن إعادة التوازن للنفسية الجزائرية. وهي في جوهرها حقيقة شرعية وضرورة أخلاقية وجوب العودة إلى المنابع الأساسية(3). كما يسميها "علي مراد" بعيدا عن أي اعتبار مذهبي.

* صياغة نموذجية لتفسير المادة القرآنية:

إن استقراء طريقة التفسير للقرآن الكريم في المعاهد الإسلامية أثبتت عقمها وعدم استجابتها لمعطيات التغيرات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية وكل ما يتبعها من تأثير على الحياة اليومية لشعوب المنطقة التي تعد فنة الشباب فيها أهمها من حيث العدد وأخطر من حيث الانشغالات. ومن ثمة فقد كان تفسير ابن باديس في هذه الناحية حاضرا واعيا ومحيطا. فقد تجاوز مجرد الانتقاد لطرق التدريس والتبرم منها وخاصة تفسير القرآن الكريم -أساس اهتماماته- إلى صياغة طريقة نموذجية لتفسير المادة القرآنية اعتمد فيها على:

(1) عبد الحميد بن باديس، مجالس التذكير، مصدر سابق، ص.ب.

(2) المصدر نفسه، ص أ. ويمكن الاطلاع على المعاني نفسها بأكثر تفصيل في: "مجالس التذكير من كلام الحكيم

الخبير، مصدر سابق، تصدير الشيخ محمد البشير الابراهيمي أيضا ص 17- 24

(3) Ali Merad, Ibn Badis Commentateur du Coran, Op Cit, p 111

et -, le Réformisme Musulman en Algérie, Op Cit, passim.

أ- الابتعاد عن تناويلات الجدلية، والاصطلاحات المذهبية، والاختلافات الكثيرة حول لفظ أو عبارة.. الخ من نص الآية القرآنية.

ب- التبسط في عرض المادة القرآنية لغة وأسلوباً، فلم يكن مفسرنا يريد لنفسه جاهاً علمياً، أو يبيّن لشخصه صرحاً وذكرًا خالداً، وإنما كان شغله الشاغل هو توسل كل ما يوصله إلى عقل و نفس المستمع -والقارئ- من أقرب طريق وأسرع وقت، وهو ما وصفه بنفسه قائلاً >> بنمط من الأساليب "وسط بين الاستقصاء والتقصير" (1).

ج- اتباع طريقة تربوية (2) أو مدرسية في كيفية التدرج في بسط المادة القرآنية بحيث تصل إلى أفهام المستمعين ومن ثمّ القراءة إجمالاً، ثم لفظاً وعبارة إذا تطلّبت صعوبتها شرحاً وبيانا ثم استنتاجاً نهائياً يصل إلى كنه أهمية النص القرآني المختار فيما يدعو إليه ويأمر به أو ينهى عنه وينفّر منه.

ولو أننا تأملنا مجموعة العناوين الفرعية التي كان ابن باديس يضعها على رأس شروحه واستطراداته - كما يقول - الدكتور غفت الشرقاوي >> لظهر لنا بجلاء أن الغرض الرئيسي من تفسيره إنما هو غرض توجيهي إرشادي يتمثل في عرض القيم الأخلاقية عرضاً اجتماعياً. لإثبات صلاح العقيدة والقرآن لحياة البشرية على اختلاف الأجيال والأقاليم >> (3).

* تحديد مهمة النصوص القرآنية المختارة للتفسير بالضبط:

1- كان ابن باديس كما نتبينه بوضوح من النصوص القرآنية المختارة من جهة، ثم من خلال الخطوات السابقة الذكر من جهة أخرى أنه قد يحدّد بالضبط مهمة التفسير الذي هو في صدد تدريسه أولاً ثم كتابته عبر مقالات الشهاب ثانياً، كما أنه قد قصد فئة معينة من بين فئات الشعب الجزائري ألا وهي فئة الشباب خاصة. فالغزو الفكري الشامل الذي انتهجته سياسة الاحتلال الفرنسي عبر مدارسها وكتبها وصحافتها ومن خلال جيشها من المستشرقين والمؤرخين والكتاب، كان يستهدف فئة الشباب بالذات لسبب

(1) عبد الحميد بن باديس، مجلّد التذكير، مصدر سابق، ص 2. بتصرف.

(2) Ali Merad, Ibn Badis, Commentateur du Coran, Op Cit, p 85.

(3) عبد الرحمن سارادي، المرجع السابق، ص 72، (نقلا عن الدكتور غفت الشرقاوي، قضايا إنسانية في أعمال المفسرين).

منطقي تفرضه بعض المسلمات من علم النفس، هو لأن الكهول والشيوخ قد تجاوزوا مرحلة التأثير بطبيعة الحال، وهذا يعود إلى ثقافتهم التقليدية الخاصة التي ترسخت مع الأيام - وهذا بالنسبة للمتعلمين منهم على وجه الخصوص -، وهو الذي ينتج عنه متانة في القناعة وبالتالي حصانة عن إمكانية التأثير بسهولة، بغض النظر عن صحة مضامين هذه الثقافة، عن ثرائها أو نوعيتها. فالمهم أنه من الصعب جدا تغير القناعات والتوجهات لدى الإنسان في هذه المرحلة من العمر. هذا بالإضافة إلى أن معطيات الغزو الفكري كانت في الحملة غريبة في اللغة والوسائل عن أغلبية الشعب الجزائري وقد كانت هذه في حد ذاتها محط تجنبه ونفوره كما رأينا. والنتيجة تكمن في أن فئة الشباب كانت المستهدفة أكثر من غيرها وهي بيت القصيد في اهتمامات مضامين الغزو الفكري الفرنسي في الجزائر لأن مصير الشعب الجزائري سيؤول حتما إليها مستقبلا.

ب- دلت الحقيقة التاريخية وأكدت معطيات التعليم المسجدي، فالمكتبي، ونتائج الرحلات وكذا المقالات الصحفية بأن الشعب الجزائري بكل فئاته، شعب متدين مسلم، ذو فطرة سليمة، وأنه قد حافظ على الإسلام والعروبة في كل مراحل تاريخه وأظهر تمسكه بهما في أحلكها. وإذا كانت حملات الاحتلال الفرنسي التي استهدفت محور مقومات الجزائريين قد فشلت في عمومها، فإنها أثمرت للأسف في توهين العلاقة المتينة التي كانت تربطهم بالإسلام والعربية وهو ما نتج عنه واقع من الحيرة النفسية المقهورة وخاصة بين فئة الشباب، يعود السبب كما يؤكد "محمد السعيد الزاهري" إلى :

- عدم التجربة والتسليح الديني عند الشباب .
 - عدم التدين على بينة وعلم.
 - معاونة الاستعمار "للتبشير" ونشر الإلحاد بين المسلمين لحماية جمعيات المبشرين المسيحيين بالمال من أوقاف المسلمين نفسها.
 - تنشيط الاستعمار أصحاب الشعوذة والأباطيل التي ألصقت بالإسلام، للصد
- عن دين الله(1).

(1) محمد السعيد الزاهري، المصدر السابق، ص 113.

ويذكر الزاهري أن الشباب الجزائري كان حريصا على سماع المحاضرات المختلفة التي نشطت إدارة الاحتلال في تعميمها في مختلف مناطق الجزائر وخاصة منها المناوئة للإسلام، التي انتدبت لها بعض رؤوس الإلحاد ومعاداة الأديان ممن أسسوا الجمعيات الكثيرة لنشر أفكارها في هذا الميدان بين الشباب المسلمين. وقد كان ذلك يسوء هؤلاء الشباب ويخفقهم ويجعلهم يتميزون من الغيظ على حد تعبير الزاهري (1) لكن يمنعمهم من الرد قلة التجربة، وانعدام الزاد في المعلومات الدينية، وهو ما اعترف به أحد المحاضرين أنفسهم بأنه كان يستعمل الحيلة والمكر في دعاية الشباب الإسلامي إلى الكفر والإلحاد ويقول: >> كنت أحد من شباب الإسلام مقاومة وأرى على وجوههم كراهية لما أدعوهم إليه >> غير أنهم كانوا أحداثا أغرارا غير مجربين، وكانوا غير مزودين بالمعلومات الدينية الإسلامية التي كانت تكفيهم للمناضلة والدفاع عن دينهم، فأغرى بهم دعاة الإلحاد في الغرب >> (2).

والتأمل للنصوص القرآنية التي كان يختارها "ابن باديس" دروسا لتفسيره يلاحظ بوضوح أنه كان يختار ما يسعف به النفوس الخائرة هؤلاء الشباب، بتزويدها بالمعلومات الإسلامية الصحيحة، وتسليحها بالموارد العلمية بما يحقق لهم الراحة النفسية كخطوة أساسية أول، ويبدد الشبهات ويبين سفه الأباطيل مما يكسبهم الحصانة الواعية ضدها ولذلك فقد آثر البدء بتفسيره درسا تسمعه الجماهير >> فتعجل من الاهتداء به ما يتعجله المريض المنهك من الدواء، وما يتعجله المسافر العجلان من الزاد وجعله درسا ينهل منه الصادي، ويتزود منه الرائح والغادي >> (3). >>ويكون ذلك أدعى لرجوع النفوس الجامحة عنه إليه وأعون على فيأتها إلى حماه والاستظلال بظله والاستمسك بحبله >> (4). وقد يتعلق الأمر هنا على وجه الخصوص بالشباب المتفرنس الذي أثمرت مشاريع وبرامج

(1) محمد السعيد الزاهري، المصدر السابق، ص 107-108.

(2) المصدر نفسه، ص 109.

(3) عبد الحميد بن باديس، مجالس التذكير، مصدر سابق، ص و. بتصرف انظر (مقدمة الكتاب للشيخ محمد البشير الابراهيمي).

(4) عبد الحميد بن باديس، مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير، مصدر سابق، ص 21. (أنظر التمهيد بقلم الشيخ محمد البشير الابراهيمي).

المدرسة الفرنسية التي كان يؤمها بزراع بذرات من الشبهات والشكوك الواهية في فكره والتي قد انتقاد لها مكرها تحت تأثيرها المستمر والمركز. ومن هذه الناحية فقد كان تفسير ابن باديس الغداء الروحي، والزاد الغني المختصر والمفيد الذي يستجيب لطبيعة الشباب في إرادة الحقيقة ولطبيعة العصر في السرعة.

* تفسير ابن باديس يستجيب لمطالب الواقع الجزائري أولا والأمة الإسلامية

عموما والبشرية جمعاء بصفة أعم:

كان ابن باديس مدفوعا بتجربة العالم المسلم يقظا جدا لأحداث وأفكار عصره ومتحمسا بصفة خاصة بالمشاكل التي تكبل الأمة المسلمة الجزائرية ومن ثمة فقد صب اهتمامه بها من خلال توسل الحلول العاجلة من المادة القرآنية درسا ثم كتابة. وقد كان بتقريره نشر مقالات تفسيره يهدف إلى إفادة جميع مواطنيه دون استثناء حتى "فيما وراء المراكز الإصلاحية" كما يقول "علي مراد" بمعطياته الهامة والضرورية(1).

والقارئ لدروس "محال التذكير" يلاحظ بوضوح أن كل شيء فيها يدل على أن المفسر لم يكن يهمه شيء أكثر من خدمة مواطنيه خاصة وقد اتبع في ذلك:

- إحصاء المشاكل التي كان الشعب الجزائري يتخبط فيها.
- التعرض لها حسب الأولوية من حيث خطورتها ثم من حيث درجة تأثيرها وغالبا حسب نظام كرونولوجيا لأهم الأحداث التي شهدتها الساحة الجزائرية تباعا.
- اختيار النص القرآني الذي يعالجها مع التركيز فيه على الأهمية العملية.
- وإذا علمنا أن ابن باديس قد ختم تفسيره درسا في مدة خمس وعشرين سنة - حوهي مدة تعادل مع حذف الفترات مدة نزول الوحي >>(2) - كما يقول الابراهيمى - يمكننا أن نستخلص أن ابن باديس - وخاصة من مغزى التدرج في النزول قد أعدّ تفسيره حسب "نظام طوارئ"(3) معين أخذ فيه بعين الاعتبار الظروف اليومية، والشروط الاجتماعية والأخلاقية والدينية للأمة المسلمة الجزائرية وتعرض لمعالجتها على ضوء تعاليم

(1) Ali Merad, Ibn Badis Commentateur du coran , Op Cit, p 63.

(2) عبد الحميد بن باديس، التذكير من كلام الحكيم الخبير، مصدر سابق، ص 15. (انظر التمهيد بقلم الشيخ محمد البشير الابراهيمى).

(3) Ibid, p 91.

القرآن الكريم وضمن إطارها الزماني والمكاني، بلغة تفهمها العقلية الجزائرية وأمثلة حيّة تعايشها ومواقف تواجهها وأسماء تعرفها ومن ثمة فقد قدّمت المادة القرآنية لمتناول الجزائري المسلم، عرضاً ثم تفسيراً كمصدر إلهام دائم، وملجأً روحي ونفسي حصين.

وقد أثبت ابن باديس، أن القرآن، الكريم بهذا صلاح لكل زمان ومكان وأن على المسلمين فقط حسن اللجوء إليه في عرض مشاكلهم وأمراضهم على ضوئه وإعطائه الكلمة للفصل فيها. فالاعتقاد بصلاحه لذلك لا بد أن لا يقتصر على الإقرار الفكري وإنما بالتوكل عليه فعلاً وترك مهمة معالجة المستجدات إليه دون غيره ثم النزول التطبيقي الفوري لما حكم به كما تدل عليه الآية الكريمة: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ. وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُّبِينًا﴾ (1). وقرّرتَه مقدمة مجالس التذكير بقول الشيخ البشير الابراهيمي: >> ولو فهمنا القرآن كما فهمه السلف، وعملنا به كما عملوا به، وحكمناه في نفوسنا كما حكموه، وجعلنا أهواننا ومشاربنا تابعة له وموزونة بعميزات.ه لو فعلنا ذلك لكننا أعززة في أنفسنا وأئمة لغيرنا >> (2). وهو ما نستخلص منه رسالة الإصلاح الذي أرادته جمعية العلماء وعملت على تحقيق مهمته الزمانية والمكانية وهو بالذات ما أشار إليه الابراهيمي في موضع آخر مبيناً بأن الاحتفال بختم القرآن العظيم دليل >> على انسياق الأمة الجزائرية المسلمة إلى القرآن، واستجابتها لداعي القرآن، واجتماع قلوبها على القرآن، وشعورها بلزوم الرجوع إلى هداية القرآن، ولا معنى لذلك كلّه إلا أن إحياء القرآن على الطريقة السلفية إحياء للأمة التي تدين به >> (3).

وإذا كان ابن باديس قد اقتصر في تفسيره لما اختاره بعناية من نصوص المادة القرآنية على ما يستجيب للحاجات الروحية والأخلاقية والاجتماعية للأمة الجزائرية وضمن معطياتها الخاصة فإثماً ذلك استجابة للواجب نحوها وأداء لحقها عليه هي دون

(1) الأحزاب 36.

(2) عبد الحميد بن باديس، مجالس التذكير، مصدر سابق، ص.ب (انظر المقدمة بقلم الشيخ محمد البشير الابراهيمي).

(3) عبد الحميد بن باديس، مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير، مصدر سابق، ص 15. (انظر التمهيد بقلم

محمد البشير الابراهيمي).

غيرها من الأمم والشعوب الإسلامية الأخرى. وإذا ذكرنا بمفهوم المفسر "أعيش للإسلام وللجزائر" علمنا بأن العيش للجزائر -خدمتها- هو في الوقت ذاته خدمة للأمة الإسلامية جمعاء، وفي الوقت ذاته أيضا خدمة للبشرية جمعاء، فقد قال ابن باديس بعد استقصاء معطيات ومظاهر الإنسانية في الإسلام من كتابه القرآن الكريم: «علمنا أنه دين الإنسانية الذي لا نجاة لها ولا سعادة إلا به، وأن خدمتها لا تكون إلا على أصوله، وأن إيصال النفع إليها لا يكون إلا من طريقه، فعاهدنا الله أن نقف حياتنا على خدمة ونشر هدايته، وخدمة كل ما هو بسبيله ومن ناحيته، فإذا عشت له (للإسلام) فإنني أعيش للإنسانية لخيرها وسعادتها في جميع أجناسها وأوطانها وفي جميع مظاهر عاطفتها وتفكيرها.

أما الجزائر فهي وطني الخاص الذي تربطني بأهل روابط من الماضي والحاضر والمستقبل بوجه خاص وتفرض عليّ تلك الروابط لأجله - كجزء منه - فروضا خاصة وأنا أشعر بأن كل مقوماتي الشخصية مستمدة منه مباشرة. فأرى من الواجب أن تكون خدمتي أول ما تتصل به مباشرة.. هكذا هذا الاتصال المباشر أجده بيني وبين وطني الخاص في كل حال وفي جميع الأعمال...»(1).

وإذا كان القرآن العظيم لا يفسر إلا بلسانين : لسان العرب ولسان الزمان كما يقرره علماء الإسلام(2). فإن ابن باديس قد توفر له بعد لسان العرب، لسان البيئة الجزائرية -الأزمة- التي كانت أحوج ما تكون إلى من يبحث حلونها ويفصل فيها، وقد اهتدى علماء الإصلاح السلفي في الجزائر إلى القرآن الكريم انطلاقا من يقينهم أنه المنهج الخالد والدستور الشامل. يقول ابن باديس: «إن القرآن كتاب الدهر، ومعجزته الخالدة، فلا يستقل بتفسيره إلا الزمن، وكذلك كلام نبيينا المبين له، فكثير من متون الكتاب والسنة الواردة في معضلات الكون، ومشكلات الاجتماع، لم تفهم أسرارها ومغازيها إلا بتعاقب الأزمنة وظهور ما يصدقها من سنن الله في الكون. وكم فسرت لنا

(1) الشهاب، ج10، ص12، يناير 1937م.

(2) عبد الحميد بن باديس، مجالس التذكير من كلام الخبير الحكيم، مصدر سابق، ص 26. (انظر التمهيد بقلم

محمد البشير اليراهيمي).

حوادث الزمن، واكتشافات العلم من غرائب آيات القرآن الكريم ومتون الحديث، وأظهرت منها للمتأخرين ما لم يظهر للمتقدمين، وأرنتنا مصداق قوله صلى الله عليه وسلم في وصف القرآن "لا تنقضي عجائبه". والعلماء القوامون على كتاب الله وسنة رسوله لا يتلقونها بالفكر الجامد، والفهم الجامد، وإنما يترقبون من سنة الله في الكون وتدبيره في الاجتماع، ما يكشف لهم عن حقائقها. ويكولون إلى الزمن وأطواره ما عجزت عنه أفهامهم.. وقد أثر عن جماعة من فقهاء الصحابة بالقرآن قولهم في بعض هذه الآيات << لم يأت مصداقها أو تأويلها بعد >> يعنون أنه آت، وأن الآتي حوادث الزمان ووقائع الأكوان، وكل عالم بعدهم، إنما يعطي صورة زمانه، بعد أن يكيف بها نفسه >>(1).

ومن هذا المنظور يعدّ تفسير ابن باديس استقصاء لمشاكل المسلمين الجزائريين ونظرا في عمق أزمته من كل جوانبها وصور مظاهرها، بتسجيل أمين لها، ثم عرضها على ضوء النصوص القرآنية التي اختيرت لها للبت فيها دون الخروج عن بيئتها وظروفها الخاصة والعامة وهو ما علّق به الأستاذ عبد الرحمن شيبان بقوله : << إن الحقيقة العظمى التي عبّر بها أمامنا الجليل (عبد الحميد بن باديس) المتمثلة في ارتباط التفسير ببيئة المفسّر وأحوالها الاجتماعية وظروفها المعيشية وأبعادها السياسية والثقافية هي التي زادتنا إيمانا بضرورة تعميم هذا التفسير واعتماده فهو أقرب إلى مجتمعتنا وبيئتنا وأكثر دراية بأدواتها وأدويتها >>(2).

وبناء على ما تقدم فإننا نخلص إلى أن تفسير ابن باديس هو رسالة الإصلاح السلفي نفسها في الجزائر، وأن جمعية العلماء بنشرها له فإنما بلسان حال يقول أنه على كل من يتصدر أزمات الأمة الجزائرية إذا ما تعرضت لها في مختلف مراحل تاريخها - إذا ما قدر الله - فإن حلّها يكمن أولا وآخرا في القرآن الكريم، كتاب دينها الحنيف وهو وحده الكفيل بحلّها ومن تمة إحيائها وبعثها من جديد، وأن المتأمل لحال المسلمين الجزائريين قبل دروس مجالس التذكير وبعدها ليقف عند عظمة هذا القرآن في حسن التكفل بهم وهدايتهم وإحيائهم وأن جمعية العلماء التي قلّ انتاج علمائها في نسخ الكتب، فإنما لوعيتهم

(1) عبد الحميد بن باديس، مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير، مصدر سابق، ص 411.

(2) المصدر نفسه، ص 10. (انظر المقدمة بقلم الأستاذ عبد الرحمن شيبان وزير الشؤون الدينية).

بأن الكتاب الذي نُزلهُ اللهُ تعالى كُفيلٌ بتحقيق كل ما يطمحون إلى تحقيقه، بمنهجٍ سديد، ونتائجٍ راسخة، وبدل أن يهتموا بنسخ كتبٍ أخرى قد تختلف في النظرة والحلول فقد آثروا نسخ الرجال الذين يحملون هداية الكتاب الواحد الذي يجمعهم في اتجاه واحد وصف واحد. وإذا دلت مجالس التذكير على شيءٍ فإنما تدل في أوسع معانيها على الثورة الثقافية كما يسميها الأستاذ عبد الرحمن سلوادي التي استطاعت -رغم مناهضة الاحتلال الفرنسي- أن تحدث تغييرات بارزة في جوانب عديدة من الحياة الجزائرية كتكوير الجمعيات المتعددة، وتشبيد النوادي المتنوعة والمدارس الحرة، والصحافة الإسلامية، والمطبعة الإسلامية⁽¹⁾، وتغلبها إلى مد جسور الاتصال بالعالم العربي والإسلامي والغربي بعد أن قرّر الاستعمار الفرنسي موتها إلى الأبد منذ احتفالاته القرنية في 1930م.

وهدف ابن باديس بالإضافة إلى هذا إلى إعطاء القرآن الكريم قيمته الأولى كهداية للعالمين، وذكرى للناس، بمحاولة بعث الحقائق القرآنية في الحياة الإسلامية، وقد سعى مفسرنا جاهداً في إقناع إخوانه في العقيدة كما يقول "علي مراد" بأنه >> دون القرآن القرآن الكريم فإن الحياة الإسلامية لا يصبح لها من الإسلام إلا الاسم فقط، ودون الإستلهاًم "الدائم من القرآن الكريم، فإنه لا يصبح تعامل المسلمين مع القرآن إلا كمن يتنحى فعلاً عن الإعتقاد بالأصل الإلهي للكتاب ومن الخلود الفعلي لرسالته >>⁽²⁾.

(1) عبد الرحمن سلوادي، المرجع السابق، ص 289. بتصرف.

(2) Ali Merad, Ibn Badis Commentateur du Coran, Op Cit, p 235.

١- نموذج من تفسير ابن باديس: (1).

نموذج من مجالس التذكير

جزء عباد الرحمن

﴿أُولَئِكَ يَجْزُونَ الْعُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيَلْقَوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا (75)، خَالِدِينَ فِيهَا
مُسَلَّمِينَ مُسْتَقْرَأًا وَمَقَامًا (76)﴾ (سورة الفرقان).

المناسبة وفقهها: لما ذكر في الآيات المتقدمة صفاتهم وأعمالهم ذكر ما أعد لهم من عظيم الجزاء على تلك الأعمال تنبيها على ما وضعه تعالى بمشيئته وحكمته ورحمته من الارتباط بين هذه الأعمال وهذا الجزاء وفضائها إليه افضاء السبب لمسببه ليسعى الراجون لهذا الجزاء من طريق هذه الصفات وهذه الأعمال كما يسعى لسائر المسببات من طريق أسبابها وتؤتى جميع الأمور من أبوابها. وفي هذا حث لأهل هذه الأعمال على التمسك بما هم به عاملون وتنبيه لأهل الغرور على بطلان ما هم به مغترون >> والكيس من دان نفسه وقهرها على الطاعة وحاسبها، وعمل لما بعد الموت والعاجز من اتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأمانى <<.

المفردات: يجزون: يعطون في مقابلة أعمالهم. العرقة: البيت الأعلى فوق بيت وال فيه للجنس فيصدق بالمتعدد. صبروا: حبسوا نفوسهم. والباء فيه سببية. يلقون: من لقي بمعنى يجدون ويلقون من لقي بمعنى تلقى الملائكة أي تقابلهم وتلقاهم. تحية: دعاء بالحياة. سلاما: دعاء بالسلامة. خالدين: باقين. مستقرا: هو المكان الذي انتهى إليه من غيره وبثبت فيه. فقاها: هو المكان الذي يقام فيه ويمكث فيه.

التراكيب: جملة أولئك مستأنفة بيانها فإن تلك الصفات والأعمال تشوق السامع إلى معرفة ما لهم وثمرة أعمالهم فيسأل عنهما. فكانت الجملة جوابا لذلك السؤال المقدر وعرف المسند إليه بالإشارة تنبيها على أن استحقاقه للمسند كان بما تقدم من صفات. وجملة حسنت مستأنفة بيانها لأن من عرف حالتهم من الحياة والسلامة والبقاء يتشوف لمعرفة حال مكان هذه الحياة السائلة الباقية فيسأل عنه فوقعت جملة حسنت موقع الجواب

(1) أنظر عبد الحميد بن باديس، مجالس التذكير، مصدر سابق، ص 87-91.

عن هذا السؤال المتكرر وهي انشائية فإذ انشاء مدح الغرف بالحسن وتعظيم ذلك الحسن، وقد استقر لأن أول الخنول استقرار والمقام ببقاء الاستقرار واستمرار المكث.

المعنى: أولئك الذين ذكرت صفاتهم وأفعالهم يعطون جزاء أعمالهم البيوت العلالي في الجنة بسبب صبرهم وحسبهم لأنفسهم على الطاعات والجاهدات وكفهم لها عن المعاصي والشهوات وتلقاهم الملائكة بالتحية والسلام باقين في هذا النعيم المقيم في علالي الجنة التي هي أحسن مستقر ينتهي إليه الإنسان ومقام يمكث فيه.

تطبيق حديث وفقهه: روى الشيخان عن أبي سعيد الخدري (رض) أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: «إن أهل الجنة ليرتاعون أهل الغرف من فوقهم كما يرتاعون الكوكب الدرّي الغابر في الأفق في المشرق والمغرب لتفاضل ما بينهم، قالوا يا رسول الله تلك منازل الأنبياء لا يبلغها غيرهم، قال: «بلى -والذي نفسي بيده- رجال آمنوا بالله وصدقوا رسوله».

فهذا الحديث بين أن أهل الغرف هم أكمل المؤمنين وأعلامهم درجة في الجنة بهذا المقدار من البعد فهم الموصوفون بالصفات المذكورة في الآيات المتقدمة على أمتها ومن لم يكن مثلهم فيها لم يكن في منازلهم التي جوزوا بها عليها وكان على حسب حفظه من الإيمان في منزلة من منازل أهل الجنة الذين يرتاعون أهل الغرف، فدرجات أهل الجنة في منازلهم على حسن سلوكهم في أعمالهم ﴿أَمْ سَبَّ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ، سَاءَ مَعْيَاهُمْ وَمَا نَحْمُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ، وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَلَتَجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ (1).

دلالة: دلالة الآية على السبب الذي أفضى بهم إلى هذا الجزاء العظيم وهو أعمالهم، ودلت على السبب الذي تمكنوا به من القيام بهذه الأعمال وهو الصبر لقوله تعالى: ﴿بِمَا صَبَرُوا﴾، ومن أعظم الحكمة معرفة الأسباب والمسببات وارتباط بعضها ببعض فلا ينهض بامتنال الأمور وترك المنهيات إلا من صبر، والصبر خلق من الأخلاق التي تتربى وتنمو بالمران والدوام. فواجب على المكلف أن يجعل تربية نفسه عليه وتعويدها به من أكبر همه إذ لا يقوم بالتكاليف الشرعية إلا به، ولا يستطيع الحياة في هذه الدار

الدنيا 'الموضوعة على الخنة والابتلاء إلا إذا تمسك بسببه.

بيان القرآن للقرآن: في هذه الآية أنهم يلقون تحية وسلاماً وقد بين من يتلقاهم بذلك في قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ لَهُمْ خُزِنْتُمْ بِسَلَامٍ عَلَيْكُمْ طَبْتُمْ فَأَدْفُلُوها خَالِدِينَ ﴾ فالملحكة هم الذين يتلقونهم بالسلام والدعاء لهم بالطيب وهو مما يدخل في التحية لأن من طيبهم طيب حياتهم وما أكثر ما تجد في القرآن بيان القرآن فاجعله من بالك تهتد - إن شاء الله - إليه.

اقتداء ورجاء: هؤلاء هم السالكون وما ذكر من أعمالهم وأحوالهم هو سلوكهم ولما سلكوا الصراط المستقيم بالعمل انتهى بهم السير إلى أحسن قرار ومقام إلى دار النعيم المقيم في جوار الرحمن الرحيم. فإذا اشتقت إلى نهايتهم فتمسك بيدائهم وزن أعمالك بأعمالهم وأحوالك بأحوالهم، فإذا جعلت ذلك من همك، وحملت عليه نفسك بصادق عزمك، وصبرت كما صبروا رجوت أن تظفر بما ظفروا. فالله نسأل لنا ولك وللمسلمين صحة الإقتداء، وصادق الرجاء، وحسن الجزاء، ﴿ مِنْ عَمَلٍ صَالِحٍ مَنْ ذَكَرَ أَوْ أَنْتَوِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُجِيبَنَّه حَيَاةً نَائِبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ (2).

كتب أخرى للإمام ابن باديس: وتعدر الإشارة إلى أنه بالإضافة إلى مجالس

التذكير - أهم ما كتب ابن باديس - فإن له كتابات أخرى نشرها في حياته وهي :

1- كتاب "العواصم من الوقاصم" للقاضي أبي بكر محمد بن عيد الله بن العربي الأندلسي (1076-1148م)، الذي قام باستنساخه بنفسه عن مخطوط من الجامعة الزيتونية، ثم قام بعد ذلك بتحقيقه ونشره في جزئين الأول في 1925م والثاني في 1927م(3). وقد اتبع فيه طريقة حديثة من حيث الهوامش والفهارس، وترجمة لصاحب الكتاب في نهاية الجزء الثاني. ويبدو أن اهتمام ابن باديس بكتاب القاضي الأندلسي وتأثره به قد لخصه في أهم معطيات مشروعه الإصلاحية في الجزائر خاصة في جانب إصلاح العقائد الفاسدة ومحاربة

(1) الزمر، 73.

(2) النحل، 97.

(3) انظر عبد الحميد بن باديس، مجالس التذكير، مصدر سابق، ص 87-91.

البدع بالدلائل القاطعة (*) .

2- نشر رسالة ألفها ردًا على شيخ الطريقة العليوية الصوفية تقع في 37 صفحة بعنوان "رسالة جواب عن سؤال مقال"، طبعتها المطبعة الإسلامية بقسنطينة سنة 1933م مع تقارير عشرة من العلماء في المغرب العربي.

3- نشر رسالة تبين خطورة وبدع الطريقة التيجانية، وقد كانت في الأصل مقالا في "الشهاب" (1). ثم نشرت مستقلة في نسخ كثيرة لتوزع على الأوساط الشعبية، وتقع الرسالة في 16 صفحة .منوان: << الجواب الصريح في بيان مضادات الطريقة التيجانية للإسلام الصريح >> طبعتها المطبعة الإسلامية بقسنطينة سنة 1938م.

وقد انبرى عدد من الكتاب الجزائريين والعرب من المهتمين بآثار الشيخ ابن باديس خاصة وبآثار جمعية العلماء المسلمين الجزائريين عموما بتجريد مقالات ابن باديس من الشهاب كالتي تخدم موضوعا واحدا أو كانت قد نشرت تحت عنوان موحد فكان منها :
- مجانس التذكير من حديث البشير النذير، عبد الحميد بن باديس، من مطبوعات الشؤون الدينية، سنة 1982م.

- رجال السلف ونساؤه: عبد الحميد بن باديس، مكتبة الشركة الجزائرية، 1949م
- من هدى النبوة، عبد الحميد بن باديس، جمع وتصنيف محمد الصالح رمضان شاهين، مكتبة الشركة الجزائرية، 1966م.
- العقائد الإسلامية من الآيات القرآنية والسنة النبوية، عبد الحميد بن باديس، رواية وتعليق محمد الصالح رمضان، مطابع الكيلاني، بدون تاريخ.

- دروس في أصول الفقه، عبد الحميد بن باديس، جمع عمار الطالبي، بدون تاريخ.
ويضاف إلى ذلك آلاف المقالات الصحفية التي كان يكتبها ابن باديس طيلة خمسة عشر سنة في مختلف المجالات التاريخية والسياسية والتربوية والأدبية وغيرها. القيمة في

(*) ويظهر تأثير أبي بكر العربي في كتابه "العقائد الإسلامية" الذي لم يسلك فيه مسلك الفلاسفة ولا منهج المتكلمين وإنما نهج طريق القرآن في الاستدلال، وأساليبه في الرد والحجاج...>>. انظر، عمار الطالبي، المرجع السابق، ج1، ص 92.

(1) نشرت في مجلة الشهاب في عددها 5 المؤرخ بتمبر 1938، ص 49، 57.

مبادئها والتي تبين قراءتها نوعية شخصية الرجل الفذ الذي كان على رأس جمعية العلماء لكن أيضا وهو الأهم سر اهتمام جمعية العلماء المسلمين الجزائريين ومحو انشغالها.

كتاب "رسالة الشرك ومظاهره" للأستاذ الشيخ مبارك الميلي:

بعث كتاب "رسالة الشرك ومظاهره" مساهمة هامة تضاف إلى جهود علماء جمعية العلماء المسلمين الجزائريين في الإحاطة بميدان التنظير للمذهبية الدينية للإصلاح السلفي الذي كانت تقوده. وقد بدأ "مبارك الميلي" نشرها في شكل مقالات صحفية على صفحات جريدة "البصائر" منذ 1936م، ودفع نجاحها بين القراء أن طلب هؤلاء من صاحبها ومن إدارة الجريدة بإعادة نشرها في كتاب مستقل، ولبي الكاتب رغبة قرائه وعاد إلى مادته بالتهذيب والتبويب والتثبيت مع إضافة فصول عديدة ثم جمعها في كتاب "رسالة الشرك ومظاهره" الذي تم طبعه بالمطبعة الإسلامية الجزائرية بقسنطينة في 1937م(1).

أ- لماذا "رسالة الشرك ومظاهره"؟

يقف الكاتب طويلا لتقديم مبرراته للكتابة في هذا الموضوع بالذات في عدة فقرات ذات جمل تقريرية منطقية ومتسلسلة، تقرر كل منها حقيقة معينة تكون تبريرا لتقرير الحقيقة التالية لها. فبعد أن يقرر أن << حق الله على عباده أن يعبدوه، لا يشركون به شيئا، ثم أن الشرك مرض طارئ على الأمم كما تطرأ الأقسام على الأجسام يشير إلى أن الشرك نتيجة لنوم البصائر الموجب لشقاء الأرواح. ويقول: << وإذا كان حفظ الصحة بالإنذاء والدواء فإن حفظ التوحيد يكون بالتعلم والدعوة، ولا يحفظ التوحيد علم كعلم الكتاب والسنة، ولا تحلّي الشرك دعوة كالدعوة بأسلوبهما >> (2).

فرسالة الشرك إذا مجهود علمي وأسلوب دعوي لحفظ التوحيد في الجزائر من مظاهر الشرك التي أحاطت به كنتيجة حتمية لموت بصائر الجزائريين ودليله شهادة واقعهم

(1) لم تحصل الباحثة على الطبعة الأولى "رسالة الشرك ومظاهره" حتى تستوفي بطاقته الفنية الأصلية. أما الطبعة الثانية فهي تقع في 304 صفحة متضمنة فهرس المراجع (سواد الرسالة) وفهرس الموضوعات، مع مقدمة الكاتب وتبرير جمعية العلماء للرسالة (ص 5-8).

(2) مبارك الميلي، رسالة الشرك ومظاهره، مصدر سابق، ص 13.

الشقي. وأن أول ما اعتمد عليه كاتب هذه الرسالة هو الكتاب والسنة وأسلوبهما في بيان الشرك ومظاهره وإحلاله.

ويؤكد الكاتب أن إهمال الدعوة للكتاب والسنة هو الذي أدى إلى جهل جمهور المسلمين بعقائد الإسلام حتى خفي عنهم ما ينافيها بطول الوقت فانتشرت بينهم العقائد الزائفة والبدع الفاسدة مكان العقائد الصحيحة فاستغلها بعضهم في السطو على العلماء العارفين وإنكارهم عليهم تذكيرهم للمسلمين بالدين الحق.

واقترضت حكمة الله أن يخص الإسلام بالرعاية بحفظ كتابه لقوله تعالى ﴿ إِنَّا نَمُنُّ لِرَبِّنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لِعَاقِبُونَ ﴾ (1) ثم بقيام علماء ربانيين على تبليغه لقوله صلى الله عليه وسلم : «> إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها أمر دينها» (2). وهؤلاء هم المجددون الذين حبا الله بهم الجزائر. من تجتمع فيهم صفاتهم من أخلاق وهمم وعلم. وقد ظهوروا منذ 1343 هـ وهي من أوائل المائة الرابعة عشرة بعد عصري النبوة والخلافة والذين قد واجهتهم حملة من الجهلة بالدين - وحفاظا على مصالحهم المادية الخاصة - شاركوا المستعمر الفرنسي في امتهان كرامة الجزائريين وابتزازهم.. وما هؤلاء إلا علماء جمعية العلماء المسلمين الجزائري التي هي وراء هذه الرسالة تشجيعا وتمهيدا عبر صفحات جرائدها (3).

ورسالة الشرك ومظاهره بهذا الاعتبار، تعد وجها آخر من وجوه نشاط جمعية العلماء العلمي والديني، الذي يهدف إلى محاربة الجحود في الجزائريين ومحاولة بعثهم من جديد مع التأكيد دائما إنها ركزت في ذلك على دعوة الجزائريين إلى الرجوع إلى عقائد الإسلام الصحيحة بكشف العقائد الزائفة منها والبدع الفاسدة، ثم أنها توسلت لذلك أسلوب القرآن والسنة وهو ما يضمن لها النجاح في دعوتها. ثم إن رسالة الشرك موجهة في الأساس لمحاربة الطرقية في الجزائر وهي الطائفة الوحيدة في الجزائر التي ترفض دعوة الجمعية وهو ما أشار إليه تقرير جمعية العلماء للرسالة بالقول «> نستطيع أن نقول ولا

(1) الحجر، 9.

(2) رواه أبو داود، والحاكم والبيهقي وغيرهم بإسناد صحيح، وأخرجه أبو داود في كتاب الملاحم، باب ما يذكر في قرن المائة. انظر: أبو داود سليمان بن الأشعث بن إسحاق الأزدي السحستاني، سنن أبي داود، تعليق: الشيخ أحمد سعد علي، (مصر، مطبعة مصطفى البابي، 1952م)، ج2، ص 424.

(3) مبارك الميلي، رسالة الشرك ومظاهره، المصدر السابق، ص 14-15 بتصرف.

نخشى مفندا أنه لم يرفض دعوة الجمعية إلا طوائف معلومة في الجزائر يضر بها العمل بالدين الحق، ويهد بينانها القائم على أساس العوائد التي ظهرت في المسلمين في العصور التي بلى فيها العالم الإسلامي بزعماء جهلاء اغتصبوا هذه الزعامة من غير كفاءة علمية ولا هداية إسلامية >>(1).

ب- "رسالة الشرك ومظاهره" من حيث مصادرها: يقول مبارك الميلي: في وصف

رسالته : >> ولم أحتد فيما كتبت إلا ما تخيله فكري، ولم أنسج فيما جمعت على منوال غيري إذ لم أقف على كتاب مجموع على النسق الذي أردته في الموضوع >>(2). ويعني الكاتب بهذا أنه لم يواجه صعوبات من ناحية قلة المادة العلمية في هذا الموضوع، إذ أن دوره كان في جمعها كما ذكر -وهو ما كانت تتطلبه حاجة دعاء الإصلاح في ذلك الوقت وعملت على تحقيقه جمعية العلماء في هذا الميدان-، وإنما واجهته صعوبات في طريقة "ابتكار العناوين وتنسيقها" حتى تفي في النهاية كمجهود علمي جاد بالحاجة فلم يسبق مبارك الميلي أحد في القيام بهذا العمل في الجزائر، وهو ما جعله يقول >>أن هذه الرسالة في موضوع بور على أسلوب من عندي بكر >>(3)

ويبدو أن "علي مراد" عندما تناول هذه النقطة قد أخذ على الميلي تأكيده سبقه في هذا الموضوع وحاول تفنيد هذا التأكيد بقوله: وبممكننا بسهولة تفنيد هذا التأكيد >>(4). والحقيقة أن تأكيد الميلي في سبقه إلى هذا الموضوع ليس من ناحية المضمون وإنما فقط من حيث تأليف كتاب مستقل فيه واتباع طريقة علمية في تصنيف المواضيع، ضمن منهج في تنسيق العناوين. فموضوع الشرك ومظاهره قد تناولته أقلام المصلحين الجزائريين بغض النظر عن علماء الإسلام عموما الأقدمين منهم والمحدثين ممن ظهوروا في المشرق العربي،

(1) رسالة الشرك ومظاهره، ص 6.

(2)، (3) المصدر نفسه، ص 15.

(4) Ali Merad, Le Réformisme Musulman en Algérie, Op Cit, p 267

أو في المغرب العربي، والذين يعتبر فريق الشهاب تلميذاً وفيما لهم بما فيهم مبارك الميلي بطبيعة الحال. منذ أ بدايات الأولى للصحافة الإصلاحية بالجزائر عموماً كما رأينا، أي قبل ظهور صحافة علماء الجمعية أنفسهم وهو ما عضد به "علي مراد" تفيده وإشارته أن موضوع محاربة النظام الطرقي بدأ منذ سنة 1925م، ثم إن تأكيد تقرير الجمعية للرسالة أشار إلى أن دعاة الإصلاح كانوا في حاجة ماسة إلى رسالة في هذا الموضوع جامعة لأدلة هذه المسائل ناقلة للآيات أو الأحاديث في كل نقطة من النقاط التي تتناولها الرسالة المترجمة المرغوب في تأليفها» (1). ومن ثمة فإن "الميلي" لم يدع سبقه في الكتابة في هذا الموضوع وإنما على العكس من ذلك فهد أكد عناءه في ترتيب مواد ومواضيعه الكثيرة المبثوثة عبر الصحافة -- كما رأينا -- ثم في تنسيقها وربطها بمضامينها وأدلتها من الآيات والأحاديث وهو عمل يتطلب جهداً كبيراً خاصة إذا لم يجد صاحبه نموذجاً ينسج على منواله، ومع ذلك فقد أثبت صاحب "الرسالة" فهرساً لمواردها وأشار إلى ذلك بعنوان:

الغرض من بيان مواد الرسالة قائلًا: وفيما يلي نثبت أسماء الكتب التي صرحنا بالنقل منها في صلب الرسالة إظهار الصلة بين كلامنا وكلام الأقدمين» (2). وقد قسمها إلى ثلاثة

أقسام (3) هي: -- كتب من اللغة وفقها وأدبها: (10 مصادر)

-- كتب التفسير وأحكام القرآن: (12 مصدر)

-- كتب الحديث وفقهه ورجاله: (03 مصادر)

أما كتب التوحيد فقد ذكر الميلي في مقدمة رسالته أنه اتصل ببعضها بعدما حرر عدة فصول من الرسالة ولذلك تأسف عن تأخرها لعدم استعانتها بها في تحريرها لخلو مكتبته ومكتبات زملائه العلماء منها، إلا أنه بعد تمام التأليف وقبل الشروع في طبع الكتاب أهدي إليه كتاب "فتح المجيد بشرح كتاب التوحيد" فاستعان به بفوائد ألحقها بمواضعها معزوة إليه» (4).

(1) رسالة الشرك ومظاهره، ص 7.

(2) المصدر نفسه، ص 295.

(3) المصدر نفسه، ص 296-297.

(4) المصدر نفسه، ص 15.

ج- مضامين رسالة الشرك ومظاهره وأهداف جمعية العلماء: للإطلاع على

مضمون "رسالة الشرك ومظاهره" يجدر بنا نقل عناوين فصولها التي تتضمن مختلف مواضعها:

- | | |
|---|--|
| 1- الحاجة إلى معرفة الشرك ومظاهره | 19- الرقية والعزيمة |
| 2- الغرض من بيان الشرك ومظاهره | 20- التيممة |
| 3- الرجوع في بيان الشرك إلى الكتاب والسنة | 21- المحبة |
| 4- تنزيل الآيات النازلة في قوم على من أشبه حالتهم اليوم | 22- الدعاء |
| 5- ذرائع الشرك وطبائعه | 23- الوسيلة |
| 6- معنى الشرك وأقسامه | 24- الشفاعة |
| 7- الشرك في قوم نوح -س- | 25- الزيارة والمزارات |
| 8- الشرك في قوم ابراهيم -س- | 26- الذبائح والزرعات |
| 9- الشرك عند العرب | 27- النيرة والغفارة |
| 10- العبادة والنسك | 28- اليمين. |
| 11- الشرك وسدّ الذرائع | 29- هداة الشرك ورحمته: قدم البدعة |
| 12- آثار الشرك في المسلمين | مصدرها التصوف- القطب، الابدال، |
| 13- الولاية | الخرقة، أصناف المحاربين للدعوة، القراءة على |
| 14- الكرامة | الموتى، الميثاق، الشيخ، الولي، يوم النظر، |
| 15- التصرف في الكون | الضمان، استلاب الأموال. |
| 16- علم الغيب | 30- إلى لدين الخالص، ابتداء الحرب |
| 17- الكهانة وما حكمها | على حكومة القطب. |
| 18- السحر | 31- قصيدة العمري وتأثيرها على الأمة |
| | 32- حاتمة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر(1) |

إن أول ما تفيده معطيات هذا الفهرس هو غلبة مواضع مظاهر الشرك كسلوكات يومية في حياة الجزئيين بأسمائها وأماكنها وكذا أسماء الدّاعين إليها، على موضوع "الشرك" كبحت عقدي بحت ولا غرابة في ذلك إذا علمنا أن هذه هي رغبة المؤلف وكذا هدف جمعية العلماء، التي أقوت الرّسالة باسمها. ذلك لأن الجمعية كانت تركز دوما على الجانب العملي والتطبيقي من الدين الإسلامي حتى تحمي عباداته وأخلاقه وجميع شعائره -الصحيحة- كسلوكات يومية يعيشها المسلمون ويتعاملون بها فيما بينهم،

(1) رسالة الشرك ومظاهره، نُظِرَ فهرس المواضع، ص 298-299.

على ضوء معرفة أصولها من الكتاب والسنة وعمل السلف الصالح.

وعليه فتأكيد "المبلي" على جرد مظاهر الشرك بالاستدلال والتحليل إشارة منه إلى أن الجزائريين - والمسلمين عموماً - إنما كانوا يتبعون الطرق الصوفية في مناسكها وشعائرها فلنا منهم أنها طرق للعبادة ووجوه للعقيدة، وخفي عنهم إنما هي بالذات صور للشرك لكونها بدع وعقائد فاسدة نشرها شيوخ الزوايا والطرق الصوفية وكرسوها بين أتباعهم فحلّوا بها بينهم محلّ المشرّع الواحد، والمبّين المعصوم صلى الله عليه وسلم. فبدل أن يعبد الله عبدواهم وبدل أن تنشر سنة الرسول صلى الله عليه وسلم في كفيات العبادة، عمّت طرائق هؤلاء وأورادهم وأذكارهم، فوقع المسلمون في الشرك بدون علم. وقد أدى عامل الوقت من جهة بتكاثر أتباع هذه الطرق مع الزمن وطول مدة الجمود الفكري إلى تمكن هذه الطرق الصوفية من قلوب الناس وعقولهم وسطوها على أموالهم وذمهم، الشيء الذي وقف دون جهود علماء الدين المتوسمين بسنة الرسول صلى الله عليه وسلم في إبطال، دعواتها وطرائقها، ودعوة الناس إلى الدين الصحيح وتعدى الأمر إلى إثارة الأتباع ضدهم مما أضاع حجتهم وأذهب برهانهم أدراج الرياح.

وقد كان "المبلي" بارعاً في التمهيد لموضوعه الذي جعل منه حواراً عقلياً منطقياً بين طرفين بين سائل ومجيب، ومع أن طرف السائل لا يظهر في حيثيات المضمون لكن يدل عليه عنوان كل موضوع على حده مما كان يستقيه من معطيات الحياة العقلية وقسّم وتسأولاتها في هذا المجال. ونرى المبلي لا يخل بحجة أو آية أو حديث للإحاطة في إجابته منتقلاً بين المواضيع باحثاً جزئياتها بالتدرّج مما يجعلنا نؤكد أن كل شيء في رسالة الشرك ومظاهره يدل على أن الرجل كان في مهمة رسمية تتطلب منه الدقة في العرض والحجة في الدّعوى لكن بأسلوب بسيط يمكن وصفه أيضاً بالمدرسي فهدفه لم يكن لإبهار قرائه بقدر ما كان إحقاق الحق وبيان الباطل في كل مظهره وهي مهمة جمعية العلماء بالذات.

ففي موضوع الحاجة إلى معرفة الشرك ومظاهره⁽¹⁾ يقرّر "المبلي" الطبيعة البشرية في طلب الحياة والافراط فيها أحياناً وميل الإنسان إلى المادة والشرك وهو أكثر ما اعتنى به الكتاب والسنة دعوة وتحذيراً >> فأول ما كان المرسلون يدعون إليه أقوامهم هو

(1) رسالة الشرك ومظاهره، ص 18.

التوحيد الخاص وأول ما ينكرونه عليهم هو الشرك ومظاهره >>(1). وهم لا يكتفون بشرح التوحيد وإنما يتحدثون موضوع الشرك ومظاهره عناية وتفصيلا حتى يرسخ في نفوس العامة الخذر منه والابتعاد عن وسائله ولا يفقد المتأخر نص قبله في جزئية من ذلك، لكن الذي وقع بين المسلمين هو قلة خوضهم في موضوع الشرك ومظاهره مما جعل الشرك >> أخفى المعاصي معنى وإن كان أجلاها حكما مع الإقرار بأن المسلمين عامتهم يتبرأون منه ويفضون كل الغضب إن هم نسبوا إليه >>(2). وقد أدى جهل المسلمين وخفاء معنى الشرك، عنهم أن وقع منهم من وقع فيه وهم لا يشعرون، ثم وجدوا من أدعياء العلم من يسمي ضم عقائد الشرك وأعماله بأسماء تدخل في عقائد الإسلام وأعماله ثم يدافع عنهم ويحشرهم في زمرة أهل السنة ويشنع على العلماء الناصحين المتأسين برسول الله صلى الله عليه وسلم، عن خيرة وصدق(3). ومما زاد خطر الشرك كما يقول الميلي: >> هو اعتناء علماء الكلام به ببيان عقائد الإسلام وسلوكهم في التدليل عليها سبيل المنطق اليوناني ثم جمود المتأخرين على هذا الأسلوب فحادوا بذلك عن بيان القرآن الكريم للشرك ومظاهره فخفي على الناس ما هو الشرك أو ما هو السبب إليه. وأضاع شيوع التقليد وذبوع الجمود حجة العلماء وبرهانهم >>(4).

ويختتم "الميلي" هذا الموضوع بقوله، ويا ليتنا تركنا كتب المتكلمين للخاصة، يستعينون بها في مواطن الجدال مع الخصوم، ووضعنا للعامة كتباً في العقائد على أسلوب الكتاب المجيد فيكون من تلك رياضة للعقول وحماية للحق، ومن هذه طهارة للقلوب وهداية للخير، وليس كل الناس بحاجة إلى تلك الرياضة، ولا لهم قدرة على تلك الحماية، ولكن كلهم في حاجة إلى تطهير البواطن ومعرفة الهدى، فعسّت الحاجة إلى معرفة الشرك ومظاهره >>(5).

(1) رسالة الشرك ومظاهره، مصدر سابق، ص 19

(2) نفسه، ص 20

(3) نفسه، ص 21؛ أنسرف.

(4) نفسه، ص 21.

(5) نفسه، ص 22-23.

وبهذا يقرّر "الميلبي" مهمته وهدفه المتوخى -والذي هو بالذات هدف جمعية العلماء- في تأليف كتاب -أو بالأحرى جمع ما كتب فيه وحوله في العقيدة ليس على طريقة المتكلمين وإنما على أسلوب القرآن الكريم يكون المقصود منه خاصة -العامّة من المسلمين- الجماهير المسلمة الجزائرية، وهم الذين انتشر بينهم الشرك ومظاهره. ولما كان جميع المسلمين خاصتهم وعامتهم في حاجة دائمة إلى تطهير البواطن ومعرفة الهدى فإن كتاب "الميلبي" هذا رسالة للجميع في هذا المجال. وتبين من هذه المهمة العلمية الدينية أن انشغال جمعية العلماء كان منصباً دائماً وأساساً على خدمة الجماهير بتوعيتها وتعليمها تنبيهاً وتحذيراً من مخاطر الشرك ومن ثمة تحريرها من سلطان الطرقية وأباطيلها كخطوة أساسية لتحريرها من سيطرة الاحتلال.

وفي موضوع الغرض من بيان الشرك ومظاهره يقرر "الميلبي" ما يلي: «> إذا كان الاحتياج إلى معرفة الشرك شديداً كان تعريف الناس به أمراً لازماً أكيداً، وإذا كان الباعث على هذا التعريف إقامة العقيدة فهو من النصيحة المفيدة الحميدة، وليس الإرشاد إلى الخير النافع بأولى من التنبيه على الباطل الضار بل كلاهما غرض حسن وسنن لا يعدل عنه الساعون. وهذا ما حمل المسلحين المجدّدين على الاهتمام بدعوة المسلمين إلى إقامة التوحيد وتخليصه من خيالات المشركين» (1).

ويضيف "الميلبي" بكل صراحة مخصصاً إشارته إلى تفنيد ما تروجه الطرقية ويدعيه بعض الجاهلين بالدين: «> وغرضنا من الخوض في حديث الشرك تحذير المسلمين منه لا الحكم عليهم به تعييناً. نحن بالعقيدة السلفية قائلون، وما نحن إلا وعاظ مرشدون، ولم ندع أننا حكام منفذون...» (2). ثم قال بأن الآيات القرآنية وأحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم تفيد «> بأن مخاطبة المسلم باجتئاب الشرك وأمره بالتوحيد ليس من الحكم عليه بالوثنية ولا التعريض باشتماله عليهما...» (3). ومع ذلك «> فإن

(1) رسالة الشرك ومظاهره، ص 22-23.

(2) المصدر نفسه، ص 25.

(3) المصدر نفسه، ص 26.

نطق الجاهل بالشهادتين لا يمنع عنه وصف الشرك >> (1) واستفاض "المبلي" في ذكر الأدلة والبراهين وانتهى إلى تقرير الغرض من بيان الشرك ومظاهره بالقول: >> إن المسلمين قد عمّهم الجهل وفشا بينهم الدجل وانتشرت فيهم البدع والمعاصي وكثفت غفلتهم عن بوادر الأخذ بالنواصي، وهذا ضروري لا يستطيع جحده المكابر العنيد والمسؤول عن هذه الحال هم العلماء بكتماهم لعلمهم. ومن ثمة فإن بيان العلماء لمسائل الشرك أداء للأمانة وقيام بواجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ثم رجاء إصلاح حال المسلمين وأن لا يكونوا حجة على هذا الدين ولا سبة بأفواه المتمدنين >> (2).

وينتقل "المبلي" بعد هذه التمهيدات التي رسخ بها الحاجة الماسة والمنطقية لمعرفة الشرك ومظاهره وضرورة الخوض في الحديث عنه إلى تأكيد أن أنجح وسيلة في تنبيه المسلمين إلى ذلك هو الرجوع في بيانه إلى القرآن والسنة وهو فعلا ما قام به في إيراد الآيات القرآنية والأحاديث النبوية التي تشمل على الفصل فيه مؤكدا بأن هذه الآيات التي نزلت في الأقوام السابقة ملزمة لكل الأقوام الحاضرة التي تشبههم في مظاهر الشرك. ثم بين ذرائع الشرك وطبائعه، معناه وأقسامه متمشلا ببعض أبرز مظاهره في أقوام الأنبياء كقوم نوح وقوم إبراهيم -عليهما السلام- وكفياته عند العرب لينتهي إلى خطورة آثاره على المسلمين عامة في الانحراف عن حقيقة الإسلام كما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم.

ويخصص "المبلي" أكثر من مائتي صفحة للحديث عن مظاهر الشرك المختلفة كما يبينه فهرس رسالته بداية من "الولاية" وحتى "الضمان" ضمن عناوين فرعية لبيان المعنى وشرح الكيفيات وتقديم الأمثلة والنماذج بأسماء أصحابها و... الخ. مما يؤكد لنا المغزى الحقيقي من رسالته في محاربة البدع المتفشية في الواقع الجزائري وكشف أباطيل شيوخ الزوايا الذين يعرفهم المسلم الجزائري أو يسمع عنهم أو يتعامل معهم. وهو ذاته ما يعود بنا إلى الرأي الأول الذي بنت عليه جمعية العلماء قاعدة نشاطها في الوطن الجزائري في هذا المجال بما قال ابن باديس بلزوم >> أخذ المبطلين مغافصة والهجوم عليهم وهم غارون

(1) رسالة الشرك ومظاهره ، ص 27.

(2) المصدر نفسه، ص 30

وإسماع العامة المغرورة صوت الحق فصيحاً غير مجمم» (1). وعلّق الابراهيمسي بقوله :
 «ويتركز هذا الرئي عنى أن هذه البدع والاشكرات التي يريد الإصلاح أن يكون حرباً
 عليها هي أمور قد طال عليها الأمد، وشاب عليها الوالد وشبّ عليه الولد. وهي بعد
 تنديده الاتصال بمصالح ألفها الرؤساء حتى اعتبروها حقوقاً لهم، وأنس بها العامة حتى
 اعتقدوها فروضاً عليهم، فلا مطمع في زوالها إلا بصيحة مخيفة، تزلزل أركانها، ورجة
 عنيفة تصدع بنيانها، وإعصار شديد يكشف السر عن هذا الشيء الملفف، والسر الذي
 يأبى أن يتكشف، ليتبينه الناس على حقيقته وأقل ما يكون من التأثير لهذا العمل أن
 يضعف هيبتهم في نفوسهم وتضؤل رهبته في صدورهم، وهناك يسهل العمل في نقضه،
 وتخف المؤونة في هدمه» (2).

وقد كانت "رسالة الشرك ومظاهرة" بناء على هذا الرأي، وبالإضافة إلى مختلف
 وجوه نشاط الجمعية في هذا الميدان، الصيحة المخيفة، والرجة العنيفة التي وجهها العلماء
 إلى شيوخ الزوايا، وأتباعهم وكذا إلى إدارة الاحتلال التي تستغلهم لمصالحها ضد مصالح
 الشعب الجزائري، والذين كانوا لها مطية لضرب أقدس ما عند الجزائريين، دينهم
 الإسلامي، ومن ثمة يأتي منطقياً الفصل الختامي في كتاب المليبي: "حرية الوعظ والارشاد
 " (3). الذي وجه كلامه فيه إلى كل من يسعى ضد الجزائري من أن يتعلم دينه ولغته وشنع
 على العلماء عدم قيامهم بهذا الواجب لدى دائرة الاحتلال بقصد منعهم فقال : «ألا
 فليعلم هذا من سعوا في منع العلماء غير المتوظفين من الوعظ بالمساجد وليعلمه من سرّهم
 ذلك المنع، وليعلمه المؤيدون للعلماء في الاحتجاج على ذلك المنع» (4). ثم ذكر بعناية
 السلف بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وشجاعتهم في قول الحق دون أن يخافوا حاكماً
 أو ظالماً أو لائماً، وعاتب علماء الخلف تقصيرهم في أداء هذا الواجب.

(1) سجل مؤتمر جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، مصدر سابق، ص 50.

(2) المصدر نفسه، ص 50-51.

(3) محمد مبارك المليبي، رسالة الشرك ومظاهرة، ص 291.

(4) المكان نفسه.

د- جمعية العلماء المسلمين تقرّر رسالة الشرك ومظاهره:

وبهذا تكون "رسالة الشرك ومظاهره" للشيخ مبارك الميلي ترجمة علمية لجهود جمعية العلماء في محاربة البدع وكشف حقيقة شيوخ الزوايا التي كانت تحتم على صدر الجزائريين تبتز أموالهم وتمتهن كرامتهم، والأخطر من ذلك تستغل جهلهم وعاطفتهم الدينية السليمة لايقاعهم في الشرك بالله تعالى بتكريس ممارسات ظاهرها العبادة وباطنها الشرك بالله، فبيان حقيقة الإسلام بشعائره النقية وعباداته الصحيحة، وب نماذج من شخصياته الفذة ثم بالاستدلال بآيات القرآن العظيم، وما صحّ من أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم معالجة للجزائريين بالدواء الصحيح الذي هم في أمس الحاجة إليه وهو إعادتهم إلى إسلامهم الصحيح بوسائل الإسلام نفسه، فكانت هذه الخطوة هي الأساس اندي يبنى عليه للخطوات التالية. ولذلك فقد صدرت "الرسالة" بتقرير جمعية العلماء الذي يضيف عليها رسمية المهمة العلمية التي تصدى لها "مبارك الميلي" من جهة ومن جهة أخرى بيان العلماء للجزائريين عن قيام علماء الجمعية بواجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر خدمة للدين الصحيح وعدم التواطؤ على السكوت على المنكر ومن ثمة دعوة بجمع الجزائريين إلى الاقتداء بالعلماء في هذا المجال تمهيدا لأمر أعظم يخص مصيرهم ومستقبلهم. وقد جاء في تقرير الجمعية للرسالة تحت عنوان: المجلس الإداري لجمعية العلماء يقرّر أن ما اشتملت عليه "رسالة الشرك ومظاهره" لمؤلفها الأستاذ "مبارك الميلي" هو عين السنة، وأن هذه الرسالة تعد من الكتب المؤلفة في نشر السنة وردع البدع، فإن الدعوة الإصلاحية التي يقوم بها دعاة الإصلاح الإسلامي في العالم الإسلامي عامة وتقوم بها جمعية العلماء المسلمين الجزائريين في القطر الجزائري خاصة، تتلخص في دعوة المسلمين إلى العلم والعمل بكتاب ربهم وسنة نبيهم والسير على منهاج سلفهم الصالح في أخلاقهم وعباداتهم القولية والاعتقادية والعملية وتطبيق ما هم عليه اليوم من عقائد وأعمال وآداب على ما كان في عهد السلف الصالح. فما وافقه عددناه من دين الله فعملنا به واعتبرنا القائم به قائما بدين الله، وما لم يكن معروفا في عهد الصحابة عددناه ليس من دين الله ولا علينا فيمن أحدثه أو عمل به فالدين حجة على كل أحد، وليس عمل أحد حجة

على الدين... (1).

وإذا بلغت هذه الدعوة الصاخبة وانتشرت، وقبلها المسلمون وعدوها نعمة من الله عليهم، كان تأليف رسالة جامعة لأهمّ النقط التي يدخل منها ليل البدع على نور السنن من أوجب الواجبات على حملة السنن وعلى أعضاء جمعية العلماء إذ دعاة الإصلاح اليوم في حاجة ماسة إلى رسالة في هذا الموضوع جامعة لأدلة هذه المسائل ناقلة للآيات والأحاديث في كل نقطة من النقط التي تتناولها الرسالة المقترحة المرغوب في تأليفها لتكون حجة للمستيقنين وهداية للمسترشدين وسيفاً مصلتا على أعداء السنن المعروفين في الجزائر من المتعشقين بهذه البدع والعوائد الضالة.

وإن الأستاذ المحقق مؤرخ الجزائر، مبارك الميلي، يجمعه "رسالة الشرك ومظاهره" خدم بها الإسلام ونصر بها السنة وقاوم بها العوائد الضالة والخرافات المسندة للعقول. وقد عرض هذه الرسالة على مجلس إدارة الجمعية >> فتصفحها واستقصى مسائلها، فإذا هي رسالة تعد في أولويات الرسائل أو الكتب المؤلفة في نصر السنن وإماتة البدع تقر بها عين السنة والسنيين وتنشر لها صدور المؤمنين..

وأن المجلس الإداري لجمعية العلماء يقرّ باجماع أعضائه أحقية ما اشتملت عليه هذه الرسالة العلمية المفيدة ويوافق مؤلفها على ما فيها ويدعو إلى دراستها والعمل بما فيها فإنه العمل بالدين >> (2).

ومن جهة أخرى فإن "رسالة الشرك ومظاهره" تعد الحجة العلمية والدليل الواقعي على تنفيذ مزاعم الاستعمار العالمي الذي يستغل جهل الأمم في الإمعان في تخديرها ليضمن استعباده لها، ثم الردّ على الاحتلال الفرنسي في الجزائر -بالذات- الذي عرف كيف يستغل رجل الدين -من الأئمة الرسميين وشيوخ الطرق الصوفية ورؤساء الزوايا- >> في سبيل تحويله إلى أداة تهيج الغطاء الأيديولوجي لعمليات الظلم والإقتات على كرامة الإنسان، وحقه في الحياة وأخوية وتقرير المصير >> (3). فبعد أن استولت إدارة الاحتلال

(1) رسالة الشرك ومظاهره، ص 5-6 بتصرف.

(2) المصدر نفسه، ص 7-8

(3) عبد الرحمن سلوادي، المرجع السابق، ص 287.

على المؤسسات الدينية واستحوذت على أموالها وحوّلت اتفاقها على مشاريعها الاستعمارية، عملت على تضييق ممارسة الجزائريين لدينهم في ممارسات خاصة ولت سلطتها الروحية فيها إلى رجال دين صنعتهم تحت رعايتها وتوجيهها. ثم عملت بطرق خفية وغير نزيهة على تميع المعاني الاجتماعية للشعائر الإسلامية وإفراغ هذه من كل مضمون >> حتى أصبحت الممارسة الدينية على صعيد الجماهير طقساً مفرغاً من أي مضمون، يسهم في تكريس الواقع ويعرقل كل محاولة جادة للنهوض به وتغييره >>(1). ثم عادت إدارة الاحتلال لتروج ضمن حملات تشويهية وتبشيرية لإدعاءات باطلية تعيد أسباب تغلف المسلمين الجزائريين - وكل المسلمين - إلى الإسلام الخفيف، حتى أصبح معروفاً ومسلماً به عند الجميع بأن "الدين أفيون الشعوب".

وتأتي "رسالة الشرك ومظاهره" لتكشف حيلوط الحقيقة، وتشرح معطيات الواقع، فتسلح المسلم عموماً والمسلم الجزائري على وجه الخصوص نفسياً وعلمياً وتكسبه حصانة العقل، ومناعة الحجة الصحيحة وتهدى به القواعد العلمية السليمة لايدولوجيا التغيير الجاد والذي يبدأ باصلاح النفوس الذي سيفضي إلى إصلاح الجبهة الداخلية والذي يفضي بدوره في النهاية إلى التحرر من كل أسباب الهيمنة الروحية والمادية. ومن ثمة فالتحرر من الطرقية الفاسدة هو نفسه الطريق الذي يؤدي إلى التحرر من قبضة الاحتلال الفرنسي وهذا ما أكدته تقرير جمعية العلماء لرسالة الشرك ومظاهره حين قال بأنها: >>رسالة تعد في أوليات الرسائل أو الكتب المؤلفة في نصر السنن وإماتة البدع، تقر بها عين السنة والسنيين، وتشرح لها صدور المؤمنين، وتكون نكبة على أولئك الغاشين للإسلام والمسلمين من جهلة المسلمين ومن أحمره المستعمرين الذين يجدون من هذه البدع أكبر عون لهم على استعباد الأمم فيتخذون هذه البدع التي ينسبها البدعيون إلى الدين "إسلامي مخدراً يخدرون بها عقول الجماهير، وإذا تخذرت العقول وأصبحت تروج الأوهام، وجدت الأجواء التي تروجها غلاة المستعمرين للأمم المصابة برؤساء دينيين أو دنيويين يغشون أممهم ويتاجرون فيها >>(2).

(1) عبد الرحمن سلوادي، المرجع السابق، ص 287.

(2) رسالة الشرك ومظاهره، ص 8.

كتاب : " ربيع الجزائر في القديم والحديث " ، للأستاذ مبارك المليبي :

كان شعار جمعية العلماء المسلمين الجزائريين «> الإسلام ديننا، العربية لغنا، الجزائر وطننا << سيقى مجرد شعار نظري دعائي قيل لحظة حماس واندفاع، مفرغ من أي محتوى، لو لم يؤكد العلماء عن طريق نشاطهم وممارستهم التي تصب كلها في هذا المعنى، وأكثر من ذلك فقد أكدوا أبعاده السامية عبر المؤلفات العلمية الجادة والدقيقة فقد كفى بعده الإسلامي كل من كتاب "مجالس التذير" للأستاذ الإمام عبد الحميد بن باديس، وكتاب "رسالة الشرك ومظاهره" للأستاذ الشيخ مبارك المليبي ويأتي كتاب: "تاريخ الجزائر في القديم والحديث" لمبارك المليبي ليثلم بعده التاريخي ويشير إلى معنى: "الجزائر وطننا" بأعمق الأبحاث وأدق الدلالات وأشمل المعطيات.

والأكيد أن مبارك المليبي لم يلبح هذا الميدان الصعب من تلقاء نفسه، إذ لم يكن يهتم بالتاريخ كموضوع للمطالعة ناهيك عن التأليف فيه كما اعترف هو نفسه بذلك. لكن إلحاح زملائه من علماء الجمعية، الملهم من اهتمام إدارة جمعية العلماء بهذا المجال الخطير ووجوب الإحاطة به جعله من قبيل المهمة الرسمية التي كلف المليبي نفسه بها على رغم قلة زاده ونزر بضاعته فيه، وقد كان منه أداء لواجب خدمة الشعب الجزائري العظيم وخدمة الإنسانية في أسمى معانيها في الوقت ذاته. فهو تصحيح لما شوّه، وتقويم لما روج، وكشف لما حطّط بلبيل قرن كامل من الجهل والجمود الفكري لدى الجزائريين استغله الاحتلال الفرنسي عبر قنواته ومشاريعه في حملات متواصلة وكتب ونشريات وصحافة تدعي أن الجزائر فرنسية، وأن الشعب الجزائري ينتهي إلى الغالين انتماء.

وليس هناك من العبارات ما يمكن به وصف عمل الاحتلال الفرنسي في تشويه التاريخ الجزائري وطمس حقائقه، ودفن مستحقته المادية والمعنوية، ومن ثمّة دفن الحقيقة العلمية البحتة ثم إدعاء النزاهة والموضوعية. ولكن قد يكفينا ذلك وأكثر منه نية جمعية العلماء عبر هذا المؤلف الفريد: "تاريخ الجزائر في القديم والحديث" إذ أن كل شيء فيه بداية من إهداء الكتاب. ومقدمة الجزء الأول إلى فهرس الجزء الثاني يدل على أن تاريخ "المليبي" لم يكن مجرد كتاب في التاريخ وهو ما قد يستطيعه كل باحث في أي وقت من الأوقات، ولكنه دفاع عن شعب، ومرافعة حاسمة في قضية القضايا "الجزائر وطننا" تعيد

الأمر إلى نصابها، تصف نزاهة كتاب الاحتلال بالاحتيال والمغامرة والادعاء الكاذب، وتسمي تحليلهم وادعاؤهم «م الدقة والجدية بالكذب تم تدعو الجميع (المسلمين الجزائريين، الكولون، الشعب الفرنسي، ومن ثمة كل شعوب العالم...) للوقوف على كيفية استغلال الاحتلال الفرنسي لضعف الأمة الجزائرية وجهلها، لاستعبادها وامتها إنسانيتها وابتزاز خيراتها وطمس ماضيها ثم ادعاؤه مهمة تمدنيها بل واستعصائها على التحضر لأسباب فيها عرقية أو دينية أو لغوية كذبا واحتيالا.

ترتيب كتاب : "تاريخ الجزائر في القديم والحديث":

قسم "الميلي" بحثه "في تاريخ الجزائر في القديم والحديث" إلى أربعة كتب ذكرها كما يأتي :

>> الأول : في تاريخ الجزائر قبل الفتح العربي.

الثاني : في تاريخ الجزائر في العصر العربي.

الثالث : في تاريخ الجزائر في العصر البربري.

الرابع : في مصير أمر الجزائر إلى الأجنب وأحوالها في هذا الدور <<(1).

ولم يستطع "الميلي" تحقيق أمنه في إصدار الكتب الأربعة كلها فقد صدر الجزء الأول والثاني والثالث منه فقط وأكمل ابنه "محمد ميلي" الجزء الرابع، مبينا أنه كان على ضوء ما وجدته من مخطوط وأوراق والده(2).

فأما الجزء الأول فقد جاء في 686 صفحة من القطع العادي(*) بما في ذلك الإهداء والمقدمات وفهرس الموضوعات واشتملت أبوابه الثمانية من المواضيع ما يلي: 1- جغرافية الجزائر الطبيعية

2- ذكر قدماء الجزائر أهل العصر الحجري

(1) تاريخ الجزائر في القديم والحديث، ج1، ص 19.

(2) أبو القاسم سعد الله، الحركة الوطنية، مرجع سابق، ج2، ص 425 بتصرف.

(*) هنا حسب طبعة أ.بدران وشركائه البنانية سنة 1963م، المتوفرة لدى الباحثة، أما الطبعة الأولى فقد أشار محمد العابد الجيلاي، إلى أنها كانت في 350 صفحة بالقطع الكبير، انظر "تقويم الأخلاق، المصدر السابق، ص 177. بتصرف.

3- ذكر البربر وأحوالهم وقبائلهم وما يترتب بجمياتهم.

4- ذكر الفنيقيين وأخبارهم.

5- ذكر البربر وملوكهم على عهد قرطاجنة ورومة الجمهورية.

6- ذكر الرومان وأحوالهم مع البربر.

7- ذكر الفندال ومآل أمرهم.

8- ذكر الروم ومصير دولتهم(1).

وقد بشر محمد العابد الجليلي في تقريره ببروز كتاب الميلي في سنة 1927م(2)، الذي

تمّ طبعه بالمطبعة الجزائرية الإسلامية بقسنطينة، وظهر فعلا في بداية سنة 1928م(*).

أما الجزء الثاني فقد أتمّ الميلي تحريره في رمضان من سنة 1350هـ / 1932م، ويشمل

على الكتاب الثاني والثالث من تاريخ الجزائر في القديم والحديث، وقد تمّ طبعه بالمطبعة

الجزائرية الإسلامية وصدر سنة 1932م(**). وللإشارة فقد أقيمت للمؤلف حفلة تكريمية

أقامتها الجمعية الخيرية بالمناسبة وتمّ ذلك في 9 يوليو 1932م(3).

وجاء الكتاب في 414 صفحة بالقطع العادي وشمل بالإضافة إلى صفحات مواضيع

الكتاب:

- صفحة شكر واعتذار،

- فهرسا للأعلام الواردة في الكتاب وقد عدّها في 396 بين رجل وامرأة.

- فهرسا للمدن والقرى وعدّها في 381 بين مدينة وقرية.

- فهرسا لتصحيح ماورد من أخطاء مطبعية في الكتاب مما يدل على الاهتمام

بالتأليف على الطريقة الحديثة وتوخي الجدية والدقة في الإخراج.

وتضمنت أبواب الكتاب الثاني من المواضيع ما يلي:

(1) تاريخ الجزائر في القديم والحديث، ج1، ص 20.

(2) محمد العابد الجليلي، المصدر السابق، ص 177.

(*) تحمّلت الباحثة على الطبعة النانية من الكتاب لسنة 1963م ومنها أخذت معلوماتها في هذا الموضوع.

(**) للباحثة الطبعة الأصلية الصادرة سنة 1932م وأخذت منها معلوماتها.

(3) أبو القاسم سعد الله، الحركة الوطنية، مرجع سابق، ج2، ص 426.

- الدولة الرستمية.
- الدولة الإدريسية.
- الدولة الأغلبية.
- الدولة العبيدية.
- نزوح الهلاليين إلى المغرب.

وقد اهتم المؤلف في عرضه لكل دولة بعوامل وأسباب تأسيس الدولة والأوضاع السياسية والاقتصادية والاجتماعية والعلوم والآداب وكذا الحروب والفتن كلما تطلب الأمر ذلك ثم ينتهي بأسباب السقوط. وأما أبواب الكتاب الثالث فتضمنت من المواضيع مايلي:

- 1- في ذكر القبائل البربرية.
- 2- الدولة الحمادية.
- 3- دولة المرابطين.
- 4- الدولة الموحدية المؤمنية.
- 5- في أحوال انعرب لعهد الخفصيين والزيانيين والمرينيين.
- 6- في الدولة الخفصية.
- 7- في دولة بني مرين.
- 8- في دولة بني زيان.

أهداف الميلي من "تاريخ الجزائر في القديم والحديث":

لم يكتب الميلي أهدافه وأمانيه من إصدار هذا الكتاب على قرانه وقد وقف موقف الأستاذ الذي يملي عناوين دروسه على تلاميذه، ولكن أيضا موقف التلميذ الذي أنفق الجهد والصبر في الاحاطة بمادته ليعرضها بكل همة ويقين من أداء واجبه وتفانيه لأجله، قال الميلي:

>> وكل كتاب من هذه الكتب سيقع في أبواب وفصول تشرح حالة الجزائر في ذلك الدور، وتزيد المعتبر استبصارا، وتقف بالبائس على منابع الرجاء، وتبعث في المتكاسل روح النشاط، وتهيب بالمتواكل إلى العمل، وتحدث: إن شاء الله - في

الأتانيين حب الصالح العام حتى يؤمنوا - إيمانهم بوجودهم - أن السعادة الحقة هي السعادة العامة فيحصرّون مصالحهم في مصلحة أبناء وطنهم ويستعذبون العذاب في سبيل إسعاد شعبهم... إلى أن يقول، وإن كان شعبنا هو البعيد عن تناول تلك النتائج الجليّة وإدراك تلك الأغراض النبيلة. فالمستقبل هو الكفيل بكشف هذا السرّ وما على العامل إلا أن ينظر إلى شرف المقصد ونبيل الغاية فيجهد نفسه إذ ذاك ويغالب العوارض التي منها سخرية ضعاف الهمة ولغو أجهلين ولغو الثرثارين، وعلى العامل أن لا يكون مستقربا لنتائج عمله قلقا من طول انتظارها أو متشككا في إصابة أسبابها فيأني أرى الوسط - كالهواء - إذ عمر بشيء لا يد أن يحمله إلى العموم ويحدث أثره فيهم قريبا أو بعيدا <(1)>.

فكتاب " الميلي " إذا موضوع المعيرة وللأمل، ودعوة إلى النشاط والعمل لأداء الواجب الوطني المقدّس وهو خدمة المصلحة العليا للشعب والوطن. وهو عبارة عن خلاصات دقيقة تصل بنا جميع إلى الحقيقة الناصعة التي تمثل في <> أن الأمة الجزائرية المسلمة متكوّنة موجودة، كما تكوّنت ووجدت كل أمم الدنيا، ولهذا الأمة تاريخها الحافل بجلال الأعمال، ولها وحدتها الدينية واللغوية، ولها ثقافتها الخاصة، وعوائدها وأخلاقها بما فيها من حسن وقبيح، شأن كل أمة في الدنيا <(2)>. فإذا وصل الجميع إلى هذه الحقيقة دفعتهم إلى الافتخار والاعتزاز بتاريخ هذه الأمة وبعثت فيهم الأمل في تغيير ما حلّ بها من وهن وانحطاط، ودفعتهم إلى التضحية في سبيل عودتها إلى ركب الحياة والتقدم من جديد.

ومن ثمة نرى الميلي يفصل أهداف كتابه من خلال فقرات منهجية متتابعة النتائج:

1- نتائج جهل الجزائريين لتاريخ بلادهم: يعرف الميلي التاريخ: بمراة الغابر،

ومراة الحاضر، ودليل وجود الأمم وديوان عزها ومبعث شعورها وسبيل اتحادها وسلم رقيها <(3)>. ويتأسف على الجزائريين في وقته جهلهم كل شيء عن تاريخهم الخاص

(1) تاريخ الجزائر في القديم والحديث، ج1، ص 19

(2) آثار عبد الحميد بن باديس، مصدر سابق، ج5، ص 293.

(3) المصدر السابق، ص 9.

ومعرفتهم لتاريخ البلاد الأجنبية. كما تأسف عن حكمهم القاسي غير المنطقي على تاريخ بلادهم الذي هو تعبير عن جهلهم له ولحقائقه.

ويقرّر الميلّي واقع المتعلمين الجزائريين إزاء بلادهم في وقته بقوله: «إن المتعلمين اليوم من أبناء الجزائر قطعوا الصلة بينهم وبين ماضيهم، فجهلوا ما فيه من عز وذل ونعيم وبؤس ومدنية وهمجية وسيادة عبودية»⁽¹⁾، ثم يقسم المتعلمين إلى :

أ- المتعلمون بالمندارس - ويقصد بهذه المدارس الحكومية الفرنسية- الذين يعرفون تاريخ بعض الأمم الأجنبية أكثر من تاريخ شعبهم ووطنهم وكان الأجدر بهم أن يعلموا مثله عن تاريخ وطنهم أولاً، والأحسن أن يقتصروا عليه ويكتفوا به لأنه هو الضروري لهم ولأن في تقديم تاريخ الأمم الأجنبية عليه خطر عليهم "ففيه قصر الكمال والسيادة عليها وحصر المعارف والحصارة فيها وذلك تهديد للمتعلم في وطنه وتفسير له من بني جنسه»⁽²⁾.

ويستدل الميلّي على جهل هؤلاء المتعلمين بأحكامهم غير المنطقية على حاضر بلدانهم ومستقبلها، فيقول : «ولقد بلغت الحال ببعض هؤلاء أن صار ينظر إلى بني جنسه نظر المؤرخ إلى ما قبل التاريخ، فإذا دار الحديث على الشعوب وقسطها من الحياة وأفضى إلى قومه رأينه - من جهله بتاريخهم - يستدل على حياة الماضين بحياة الموجودين ويستنتج من ذلك أن لا حضارة للأوائل إنما هم قوم عاشوا في الهمجية وسقوط الأخلاق بعيدين عن نظم الحياة وفقه طبيعة الكون وسنن العمران، ويرى أنه اعتمد في هذا الحكم القاسي على أعدل شاهد، قياس الغائب على الشاهد وأنه لقياس فاسد وماذا عسى أن تبلغ قيمة قياس دعامة الجهل؟»

ثم يترقى في حكمه ويلحق المستقبل بالماضي فيقضي على مستقبل أمتة بالشقاوة والتعاسة ويرى أن داءها عياء لا يوجد له دواء وربما طلب لها من الأدوية ما هو عين الداء»⁽³⁾.

(1) تاريخ الجزائر في القديم والحديث، ج1، ص 9.

(2) المصدر نفسه، ص 10.

(3) المكان نفسه.

وفعلا فقد قطع فرحات عباس مثلاً أي أمل للأمة الجزائرية في الحياة، بعد أن نفى لها أي وجود وقد كان يرى أن لا حياة لها إلا بالاندماج بفرنسا وبالغاء جميع ما يحول دون تحقيق هذا الاندماج التام من دين وحضارة وقومية ولغة. وفرحات عباس كما عرفنا هو من النخبة المتخرجة من المدرسة الفرنسية وقد كان نائباً محلياً في أحد المجالس المالية، وكان من كبار المتوظفين في منطقته..(1).

ب- المتعلمون في المساجد: الذين يقتصرون على مبادئ بعض العلوم اللسانية والدينية، ويهملون من برامج قراءتهم التاريخ وكذا من مراجعتهم بعد تخرجهم من المساجد، وبذلك فهم أنشطون في قراءة علم يعود على أخلاقهم بالتهذيب وعلى عقولهم بالتدريب على التفكير(2).

ج- المتعلمون في الزوايا: وهؤلاء يقتصرون على قراءة كتب المناقب والخوارق التي تطبع في المرء عقيدة الاتكال على ما وراء الطبيعة وعدم السعي في الحياة حسب قوانينها التي أحكم الله وصفها وأرشد عباده إلى أنها قواعد ثابتة وأن ما خرقت أحيانا فذلك الخرق حادث جزئي لا يتخذ قاعدة عامة في الحياة(3).

ونجد الميالي يدعو كل فريق إلى استكمال ما ينقصه في علم التاريخ، فدعا المتعلمين بالمدارس إلى مطالعة الكتب التي ألفت في تاريخ الجزائر وقال بأنها كثيرة متنوعة المباحث ومختلفة الألسنة وقال: «فمتى طالع -هؤلاء- كلام الكتاب واستعان بذكائه في تمييز الخطأ من الصواب، اهتدى إلى حقيقة بني جنسه وذهب ذلك بقنوطه ويأسه، فلم يسد على من حوله طرق العمل بل يفتح لهم أبواباً واسعة من الأمل»(4).

ودعا المتعلمين بالمساجد والزوايا إلى مطالعة كتب تاريخ البشر وحياة الأمم لينيروا عقولهم ويطلقوها من ذلك السجن فتكتشف من خبايا الأيام وخفايا الطبيعة ما يعود على

(1) آثار عبد الحميد بن باديس، مصدر سابق، ج5، ص 292 بتصرف.

(2) تاريخ الجزائر في القديم والحديث، ج1، ص 10-11.

(3) المصدر نفسه، ص 11.

(4) المصدر نفسه، ص 0.

الإنسانية وبنى جنسهم خاصة بالفوائد الجليلة وذلك أهم ما يطلبه الإنسان من تكميل عقله بالعرفان (1).

ويعتقد الميلّي اعتقاداً أصيلاً، غذاه بالخبرة والمطالعة والتأمل في حياة الأمم وتاريخ الشعوب بأنه إذا درس أبناء الأمة تاريخهم وأحاط شبابها بأدواره، عرفوا وجودهم، فلم تبتلع قوميتهم القوميات الحية النهممة المحاورة لهم، وأدركوا ما لماضيهم من المجد وما لأسلافهم من الشرف، فلم يقبلوا تنقيص المنقصين وعبث المدلسين وقدمح المغرضين، وشعروا بعزّ السيادة ولذة الحياة، فأنفوا من سيطرة المستبدين ولم يخضعوا لذل المستعبدين ورأوا سعادة الأوائل بالاتحاد والتناصر، وإن ما أصابهم وأرداهم إنما هو التفرق والتدابير، وكيف وجدت الروابط بين المتحالفين وسبب انحلالها بين المتخالفين، فسلكوا بأمتهم إلى الاتحاد مناهجه ونحاموا مهاوي الشقاق ونكبات الخلاف، ووصفوا بين أيديهم برامج الأمم التي ارتفعت بها وحنقت في سماء العز، ثم نزلت على الأمم التي تركتها الحوادث جيفا صرعى فانتهستها وتقوت من ضعفها واقتدرت من عجزها، فاتخذوا من تلك البرامج سلماً لرقى أمتهم ونالوا حظهم من الجود والهواء كما لم ينقصوا من نصيبهم من اليس والماء <<(2).

إن تعميم "الميلّي" في هذا الرأي السديد لا يذهب بمقصوده المحوري الخاص بالانشغال بحال أمته من الهوان، وحال شبابها إزاءها. ولسان حاله إنما يصف كيف أن جهل شباب الأمة الجزائرية لتاريخهم وعدم اطلاعهم على ماضيهم بما فيه من الأجداد والبطولات قد أعان الاحتلال الفرنسي على إحكام قبضته على الشعب الجزائري وامتھان كرامته منذ ترن من الزمان، وعليه فكتاب "تاريخ الجزائر في القديم والحديث" قد ألفه الميلّي بغرض توفير مصادر تاريخي بالغة العربية تسهلاً على شباب الأمة اقتناءه والاطلاع عليه حتى يعيدهم عن طريقه إلى أمجادهم وشرف أسلافهم، ومن ثمة سيحولون دون القومية الفرنسية التي يخطط أصحابها لابتلاع قوميتهم، ولن يستسلموا بعدها لليأس في تغير حالهم، ولن ينقادوا إلى ما تروجه قنوات الاحتلال للتنقيص من تاريخهم بل إن

(1) تاريخ الجزائر القديم والحديث، ج 1، ص 11 بتصرف.

(2) المصدر نفسه، ص 9.

اعتبارهم من الحوادث التاريخية التي يعرضها الكتاب سيقودهم حتما إلى استخلاص النتائج لإنقاذ أمتهم وقوميتهم، ومن هذه النتائج :

- 1- إن الاتحاد والتناصر هو سبيل السعادة، فينبذون التفرق والتدابير
- 2- توسل أسباب التحالف، ونبذ أسباب التخالف والسلوك بالأمة على منهج الاتحاد وبرامج الأمم التي ارتفعت إلى العز، ينالون حظهم من العزة والمكانة اللاحقة بين الأمم والشعوب.

وباعتبار الميلّي عضوا من جمعية العلماء، فقد ركز في "تاريخه" على فكرتي الإصلاح والوطنية، بل إن ما دعا إليه شباب أمته إلى الوحدة والتناصر، واستخلاص العبرة من نتائج التفرق ونتائج الاتحاد في تغيير وضعهم الآني، وبمحث سبيل التحرر في المستقبل. كل ذلك هو عين ما تعمل له جمعية العلماء بل هو عينه برنامجها في هذا المجال، وأن كتاب "تاريخ الجزائر في القديم والحديث" لبنة من لبنات نشاطها في سبيل وحدة الجزائريين وعرض أسباب ومبررات التناصر خدمة للمصلحة العامة. وليس غريبا أن يهدي الميلّي كتابه << إلى الشعب الجزائري، إلى شبابه المفكر ورجاله العاملين والمخلصين >>(1). وليس غريبا أيضا أن يؤكد بالإشارة إلى أن قوة فرنسا وسلطتها إنما استمدتها من جبن الجزائريين وجمودهم في ذلك الوقت يقول: <<إذا كان المتقدمون يهدون الملوك أعصارهم نتائج قرائحهم فذلك لأنهم في أزمنة لا ظل فيها لإرادة الأمة، أما اليوم ونحن في عصر عمت فيه الديمقراطية كل الشعوب أو كادت، وعرفت الشعوب أن إرادة الحاكم إنما تقوى من جبنهم وجمودهم، وأن الإرادة الحقيقية التي بيدها رفع مستوى الأمم هي إرادة الشعب ، فقد أصبح الكتاب يهدون كتبهم لشعبهم أو لعظيم من عظمائه هو رمز عظمة ذلك الشعب>>(2).

وبناء على رأي نوشي André Nouchi فإن تاريخ الميلّي كان يعني الجنسية والوطنية بالنسبة للجزائريين واستدلّ بما كتب الميلّي في قوله : << عندما يدرس أبناء أمة تاريخهم،

(1) تاريخ الجزائر في القديم والحديث، ج1، ص إهداء الكتاب

(2) المكان نفسه.

سيعرفون واقفهم، وإذن سيعرفون أن القومية الموجودة (أي القومية الفرنسية) سوف لا تتسلم قوميتهم وبالتالي «> فإن هذا الواقع التاريخي هو فهم محد ماضيهم ونبالة أجدادهم»(1).

ويقول سعد الله بأن تاريخ الميلي لم يكن عملا اختصاصيا، فموضوعه الرئيسي هو تمجيد الماضي الجزائري وكان هدفه أن يظهر أن للجزائريين -رغم الحكم الأجنبي- تاريخا يجب أن يكونوا فخوريين به، ويضيف قائلا: وبناء على رأي كاتب فرنسي فإن الميلي قد عامل الماضي كذكرات من الشهامة الوطنية «> التي قد تساعد إذا بعث على أن تجعل الجزائريين ينهضون من حالتهم التي يرثى لها. ونقل عن ديارمي Desparmet قوله: «> وإذن فإن هدف هذا التاريخ كان سياسيا ووطنيا»(2).

ومهما يكن من آراء هؤلاء الكتاب، فإن الميلي قد أبان بوضوح منهجه في التعامل مع المادة التاريخية التي بين يديه، مشيرا إلى خلاصة تعامل الأجانب مع ما يتعلق بالتاريخ الإسلامي خاصة وتاريخ الأمم الأجنبية عنهم عموما خدمة لأغراضهم وسياسات دولهم.

منهج الميلي في التعامل مع مادته التاريخية:

قبل أن يختصر لنا الميلي معطيات منهجه في مؤلفه التاريخي، يدعو القارئ عامة والجزائري خاصة إلى دوافعه العلمية والواقعية التي جعلته ينتهج هذا المنهج بالذات بناء على فهمه الخاص للتاريخ كمادة علمية لها قواعدها ومبادئها ثم كموضوع للمعرفة البشرية غير مجردة من عامل التأثير والتأثر وترك بصمات الاعتبار للاحق من الأجيال ثم أخيرا كثرات أمة وذاكرة شعب مقصود منه في ذلك الوقت بالذات، البيان والدفاع والرد والتعبئة النفسية ورد الاعتبار حين عز العلم وقلّ طالبه، وعمّ الجهل وكثر سيء آثاره حتى عمّ اليأس الجميع.

فترى الميلي يعيب على أكثر المؤرخين من المتقدمين كتابتهم لكل ما يسمعون ونقلهم لكل ما يجدون من غير تصحيح للرواية ولا تمحيص بالفكر والدراسة، واعتناؤهم بالحكايات الغريبة والروايات المدهشة «> كأنهم يرون التاريخ بمجموع عجائب تحير

(1) أبو القاسم سعد الله، الحركة الوطنية، مصدر سابق، ج2، ص 426.

(2) المكان نفسه.

الأفكار لاديوان حقائق تهدي المتأخر سبل الاعتبار». وقد ذكر ابن خلدون في مقدمته أمثلة من خرافاتهم وانتقدهم في ذلك معتمداً على العقل وطبيعة العمران.

أما المؤرخون في وقته - ويقصد الفرنسيين بالذات - فقد أخذوا على المؤرخين الإسلاميين تساهلهم في النقل وذهبوا إلى تنفير القارئ من كتبهم لكون أصحابها حشوها بما يخالف الواقع وأغرقوا في المبالغة في وضع بعض الوقائع واقتصروا على سرد الحوادث من غير تعليل ولا استنتاج وبذلك أهملوا روح التاريخ وسره «(1).

ويقف الميلي للرد على المؤرخين الفرنسيين في هذا الموضوع مبيناً أنه يوافقهم على رأيهم مع تسليمه لهم في بعض ما وصفوا به المؤرخين الإسلاميين من غير تعميم، ومن غير تنفير للقارئ عن قراءة كتبهم، مشيراً إلى أن ابن خلدون "مؤرخ إسلامي وهو الذي علم هؤلاء نقد كتب التاريخ، وهو أول من نقد مؤرخي الإسلام بما أبداه في مقدمته، لا شك أنه استفاد فوائد جمة من نفس الكتب التي انتقدها أو انتقد أصحابها، فإن هذه الكتب لا تخلو من علم يجمله المتأخر، ثم إن المفكر هو من ينظر الكتاب فيميز بين خبيثه وطيبه، ولا يمنعه رديته من تناول جيده.

ويبين الميلي بأن إهمال المؤرخين الإسلاميين لتعليل الحوادث والاستنتاج منها. لا يقدح في منزلتهم أو ينقص من مزيتهن، ولا يكون أدعى للتنفير من قراءة كتبهم، وعلل ذلك بأنهم بأنه كانوا يعرضون المادة بصورتها للقراء الذين تبقى لهم الحرية في التعليل والاستنتاج، ثم شنع على الفرنسيين نقد هذه الطريقة وأخذهم على المؤرخين الإسلاميين بينما هم وفي وقتهم ذلك كانوا يطالبون بها «»، فقد أنكروا على الجرائد الإنجليزية نقلها لأخبار وتصرفها فيها بالشرح والتعليق وجعلوا ذلك من قبيل طمس الحقيقة على القراء وتضليلهم في فهم تلك الأخبار «(2).

وعليه فإن "الميلي" يرى بأن أحسن طريق يسلكها المؤرخ هي "أن يضع بين يدي القارئ، الحادثة التاريخية كما هي ثم يرشده إلى كيفية الاستنتاج منها وبذلك يكون

(1) تاريخ الجزائر في القدم والحديث، ج1، ص 14

(2) المكان نفسه

المؤرخ نزيها نزيلها في نقله والقارئ في مأمن من عشرة ذلك المؤرخ لأنه إذا أخطأ في نظره استطاع القارئ أن يدرك خطأه. فرب حامل فقه إلى من هو أفقه منه، وكثيرا من الناس لا يحسن الابتكار ولكن لا يفوته التمييز بين السليم والسقيم من الأفكار» (1).

ويذكر "الميلي" بأن عقل الانسان: فطري وهبه إياه خالقه، فلا دخل للإنسان في ضالة شعاعه أو سطرغ ضيائه وكسبي يزيد وينقص ويقوي ويضعف على قدر ما يعدله صاحبه من المواد، ثم ينسب القارئ إلى أن للقرآن الكريم دخلا كبيرا في تكوين العقل الكسبي للإنسان و ترقيته لأن به تعرف سنة الكون، وطبيعة العمران ومنه تتلقى سيرة الانبياء والأولياء وأعمال الأبطال و تدابير السياسيين، ولكن لا يمكن لأي إنسان أن يحقق لعقله الترقية والقوة إلا إذا اعتمد على نقل الآيات و ابتعد عن تدليس المفرضين، وتجنب خرافات أكثر لتقدمين و تعب المتأخرين (2).

و ينتهي ميلي إلى مناهج المتأخرين في التاريخ ويكشف للقارئ خلفياتهم و حقيقة أحكامهم، فأما المؤرخون المتأخرون فيقصد به الفرنسيين خاصة، وأما القارئ فهو الجزائري، ليقف بنفسه على خطيئه في عدم الإقبال على تاريخه بالإطلاع و البحث والإحاطة. و كذلك تعامل المؤرخ الفرنسي إزاءه بالطمس و التشويه و الحكم المتعصب فنال من المؤرخون أنهم توسعوا في مباحثهم و نوعوها إلى أنواع خللت منها أسفار القدماء و استعانوا على أبحاثهم بالبناءات الأثرية و الكتابات الحجرية و لكن أكثرهم ينجب عن القارئ المادة التاريخية و يناوله أبحاثه و إستنتاجه حتى يحمله على رأيه في ذلك الموضوع وهو تغرير بالقارئ و تضليل للفكر و يحصر أسباب سلوكهم هذه الطريقة في :

1- التعصب الجنسي و الوطني: ومفاده أن المؤرخ ينظر إلى جنسه بعين الإعجاب و إلى وطنه بعين الرضى فيجهد فكره في تأويل المساوى وإختلاق الخاسن و يتنون التاريخ بكتمان ما لم يستطع تأويله من النقائص. و لا يقنع بهذه الخدمة لجنسه ووطنه حتى يعدو على غير أمته و سوى وطنه. ينقصهما و ينسب لهما الهمجية و رداءة الطبع و يسطو على محاسنهما فيكتمها أو يشوهها بأفكاره . كل ذلك ليظهر فضل أمته ووطنه على سواهما

(1) تاريخ الجزائر في التدمر الحديث، ج1، ص 15.

(2) المكان نفسه بتصرف.

عسوما وخصوصا - من الأمم و الأوطان.

2- حب التفوق و استبعاد الغير: يقول الميللي: «> إذا حكم القضاء على أمة بانتزاع أمرها من يدها، واستيلاء الأجنبي عليها فإن ذلك الأجنبي يحمل تلك الأمة على الاعتراف بسيادته وإيها وانحطاطها عن مرتبته كي لا تنفر من خدمته و لا تستنقل و طأته وترضى عن إضطهادها لها و تخضع لسلطانه و يضيف: و لا أعون على بلوغ هذه الغاية واجتناء هذه الثمرة من التلاعب بالتاريخ و قلب حقائقه و إعطاء كل الفضائل و المزايا للمحاكم و كل النقائص و الدنايا للمحكوم عليه و المغلوب على أمره» (1).

الجهل بالمصادر الصحيحة: يقول الميللي: «> قد يكون المؤرخ العصري قليل التعصب بعيد عن المنازع السياسية و الحيل الإستعمارية ولكنه لا دراية له بالكتب التاريخية التي توافق مشربيه و يستعين بها على تحقيق مذهبه فيغتر بمن كتب قبله من المتعصبين و الإنتفاعيين و تحفى عليه مقاصدهم القومية و الشخصية فيضل و يخطأ الحقيقة. و قد أعان هؤلاء على حطتهم المنحرفة عظيمة أمهم في الحال فاستقروا من تلك العظمة كذبهم لماضيها و سهل عليهم العبث بتاريخ الأمم الضعيفة أو المغلوبة على أمرها و اندكاك صرح مجده الغابر و دروس معاله و إنطماس آثاره، فلم يبق لها من شرف يذكر و لا من عظمة و مفخرة حتى إذا انبرى غيور منصف لكشف الحجب عن عظمة قومه و رفع الستار عن محاسن أسلافه كان الريب أسبق إلى كلامه من اليقين و التكذيب أقرب من التصديق و العناد أيسر من التسليم.

ولما كان من القواعد المقررة لدى الأمم الغربية أن الغاية تبرر الوسيلة فهم لا يرون من العار أن يتوسلوا لخدمة شعوبهم و حكوماتهم بتضليل الأفكار و مصادرة الواقع ولا يبالون بخدمة الحقيقة التي يجب أن تكون الضالة المنشودة للمؤرخ و الباعث الوحيد للباحث» (2).

وبهذه المرافعة الصادقة فإن مبارك الميللي يتوجه إلى كل الجزائريين وخاصة إلى المتعلمين منهم، على نسان جمعية العلماء ليقدم لهم درسا في الوطنية الحققة، لا يشوبها

(1) تاريخ الجزائر في القديم والحديث، ج1، ص 16.

(2) المصدر نفسه ص 17.

تعصب أو استغلال لمواتة ظروف آنية تحترم الوطنية القوميات الأخرى، وتعمل إلى جانبها وبطرق نزيهة لرفعي الإنسانية جمعاء فعلى من يريد أن يكون وطنيا حقا:

- أن يقبل على تاريخ وطنه وقوميته، بالاطلاع والمدارسة والإحاطة، ويحسن به أن يقدمه على غيره من تاريخ الأمم الأجنبية عنه.

- أن يقف موقف الحذر من كتب الأجانب لتاريخ وطنه، فلكل منهم مصلحة وغرض ومأرب في تشويه جهلا أو قصدا، لكن عليه أن يلتزم النزاهة التامة فلا ينفر من قراءتها، وإنما يستعين بفكره وذكائه لتمييز الطيب من الخبيث، ووزن الغث من السمين فيأخذ ما يفيد وينبه غيره إلى خطر ما لا يفيد.

- أن يتعامل مع ماضيه بحسن ظن، وثقة الابن بالده، وعرفان اللاحق بمجهود السابق، فلا يغتر بواقع وطنه فيحكم على ماضيه بالسوء من النعوت، ولا يغتر بواقع الأجانب (الفرنسيين) من التقدم والحضارة فيقصر الكمال والفضائل عليهم ويحصر المعارف فيهم، ولا يستعير من ماضيه، وإنما عليه أن يتقبله بفضائله وسيئاته، فإنه لم يخل تاريخ أمة من أمم الدنيا من قفزات ومن كبوات، فتلك طبيعة البشر وسنة الكون، ويدفعه واقعه إلى استخلاص العبر من ماضيه ليتجنب بها ما يوقع في التفرق والمساوي وليذكر أنه إنما سيحكم عليه في يوم ما وعلى ما عمل، وستقف الأجيال اللاحقة موقفه هذا في الحكم عليه كما وقف هو موقف الحكم على سابقيه.

- أن يدافع عن ماضيه وحاضره بالعلم والحقيقة والحجة كلما تطلبت منه المواقف والأحداث، ولم يبق له حجة للجهل أو التجاهل بعد صدور كتاب "تاريخ الجزائر في القديم والحديث".

- أن لا يتعجل النتائج في التغيير، وليكن دليله في ذلك العمل الدائم والأمل الدائم.

وللإشارة فقد انتهى المليي يجزته الأول من كتابه إلى انقراض السلطة الرومية من الجزائر، وقد لخص وضعية سكان الجزائر في ذلك الوقت بقوله: >> والخلاصة أن البربر عادوا في العصر الرومي إلى حياة الوحشية والهمجية تحت رؤساء لا دراية لهم بغير الحرب والسلب، ونعل الروم لو كانوا في هذا العصر لقالوا: إننا جننا لننقذ البربر من الهمجية

ونشر بينهم المدنية ولئن سألتهم عما بلغ إليه البربر من الوحشية والفوضى بعد قرن لأجابونا بأن البربري وحشي الأخلاق ثوري بطبعه. لا يقبل التعليم ولا يحسن النقل عن جاره الرومي، ولعلمهم ينقطعون عن الجواب إذا قلنا لهم: هذه الأمة قد أحسنت النقل عن الفينيقيين، فبلغت بذلك أوج العز، وشادت دولا عظمى. وبعد مدة من القرون نقول لهم أيضا، هاهي تلك الأمة قد استفادت من العرب، وأحسنت النقل عنهم، ودعا لها عزها، فشادت ممالك عظمى كما شادتها من قبل(1).

ولعلنا نفهم بصراحة إلى ما كان يشير إليه "الميلي" من تعليقه هذا الذي يغمز به طرف الاحتلال الفرنسي الذي جرد المسلمين الجزائريين من كل ممتلكاتهم، وتعامل معهم بسياسة الحديد والنار والإبادة الجماعية، ثم استحوذ وطمس كل أثر لهم في العلم والحضارة وشنّ عليهم حملة شعواء من التسييس والتشويه، وبعدها روج لاستعصانهم على العلم إذنا سألناه عن الجزائريين لأجاب بما كان سيحجب به الاحتلال الرومي في حق البربري من وحشية الأخلاق وثورية الطبع، وبأنه لا يقبل التعليم ولا يحسن النقل عن جاره الفرنسي، بل إن الاحتلال الفرنسي قد ردّ كل ذلك إلى الإسلام والعربية وتمسك الجزائريين بهما....

وقد انتهى الميلبي بجزئه الثاني عند القرن السادس عشر الميلادي عند الحديث عن غدر النصارى الأوربيين بالسواحل الإسلامية، وقال: << وحديث غدر النصارى بالسواحل وعبثهم بالمساجد طويل عريض وإذا أكثر الأوروبيون من تنقيص المسلمين في غزواتهم ورموهم باللصّوصية فذلك مضرب المثل: «رمتني بدائها وانسلت» >> وإذا جاراها كثير من أعرار شبابنا في هذه السبّة فهو كما قيل:

الناس أعران من واتته دولته وهم عليه إذا خانت أعوان(2)

هو تاريخ الميلبي هو مذهبية جمعية العلماء في الوطنية والسياسة والقومية:

ونخلص بدورنا إلى أن تاريخ الميلبي إنما هو تاريخ وسياسة ووطنية في الوقت ذاته، وقد كان الجزائريون في أمس الحاجة إليه، بعدما وصلوا إلى درجة من الخمول دعغهم إلى

(1) تاريخ الجزائر في القديم والحديث، ج1، ص 280.

(2) تاريخ الجزائر في القديم والحديث (قسنطينة، المطبعة الجزائرية الإسلامية، 1932م)، ج2، ص 401.

مجاراة "شعب الفرنسي المستعمر في أنماط حياته ولغته وثقافته حتى نسوا أو كادوا أن ينسوا أن لهم تاريخا خاصا وقومية خاصة وأن لهم انتماء لأمة عظيمة هي الأمة العربية وإلى دين هم أعظم الأديان وحاكمها وهو الإسلام الخفيف، وكان من أهم ما اشتغلت به جمعية العلماء هو إحياء هذا التاريخ العظيم بأبعاده وأبطاله لايمانها بأن «التاريخ هو البوق الذي تنهض على صوته عزائم الشعوب، وبدونه لا يقظة ولا حياة» (1). وهو ما تصدى لتأليف فيه الأستاذ مبارك الميلي ليحيط به في "تاريخ الجزائر في القديم والحديث".

وقد عبرت "النجاح" في عدد 2 أكتوبر 1932م ما يلخص عمل "الميلي" وغيره من المؤرخين في وقته وقد كانت صادقة كل الصدق في ذلك، قالت: «أن مؤرخي الجزائر الجديدة، نفضوا الغبار عن تاريخ أجدادنا.. وبعثوا الحياة في بقايا أجدادنا لكي يجعلوهم يخبروننا بأنفسهم عن ماضيهم العظيم والمجد» (2). وبالتالي فلا حاجة للجزائري للأجنبي حتى يخبره عن تاريخه الخاص، وقد كفته كتب مؤرخيه ذلك وأكثر. يبعث نخوته وحض همته بلغته وتعابيره وأحداثه ومناطقه التي يعرفها وتعرفه، وإذا كان لابد من كتب الأجانب فالخذر الخذر.

ويبدو أن علماء الجمعية، وقبل أن تولد جمعية العلماء رسميا قد بنوا أسس المذهبية السلفية ومشروع الإصلاح الذي سيقودونه في الجزائر، وحددوا لها معالمها الكبرى، ومناهجها وكذا أهدافها وقد لاحظنا ذلك من خلال كتاب "مجالس التذكير". الذي بدأها ابن باديس تدريسا شفويا منذ 1925م ثم كتابة بداية من 1929م، وكتاب "تاريخ الجزائر في القديم والحديث لمبارك الميلي سنة 1928م في جزئه الأول، وسنة 1932م في جزئه الثاني، ثم كتاب "رسالة الشرك ومظاهره" لمبارك الميلي أيضا سنة 1937م، ومن ثمة فقد اهتم العلماء بمد أرضية الإصلاح السلفي في أبعادها الدينية والعقدية والتاريخية أولا ليتفرغوا بعدها لتأليف الجيل الجزائري على ضوء منها وتبصر من أصولها.

كتاب "تقويم الأخلاق" (٥) للأستاذ محمد العابد الجليلي: تقويم "الأخلاق" ليس

(1) محمد العابد الجليلي، المصدر السابق، ص 176. (نقلا عن جريدة النجاح).

(2) أبو القاسم سعد الله، الحركة الوضعية، مرجع سابق، ج 2، ص 427 بتصرف.

(*) انظر صورة للكتاب في الملحق رقم 23.

مؤلفاً في علم من العلوم أو فن من الفنون وإنما هو كما يدل عليه اسمه وكما عرفه صاحبه محمد بن العابد الجليلي(*) بقوله: «التقويم في الاصطلاح هو كتاب سنوي يحوي المهم من معلومات القطر بحيث يكون له بمثابة المرآة تتجلى فيها صورته على ماهي عليه من حسن التركيب أو فساده.

وتنحصر أهم مباحث هذا التقويم في: تاريخ البلاد، موقعها الجغرافي، نظام إدراتها، محصولاتها، روحها الوطني والأدبي بالإضافة إلى منفرقات الفوائد كالفلك والأدب العام وبعض الملح والأخبار المستحدثة»(1).

أما عن فائدته فيقول الجليلي: «فهي معرفة الانسان حقيقة بلاده ماديا وادبيا لتكون غيرته عليها مبنية على أساس المحبة الخالصة من شوائب الشكوك والاضطراب ويكون دفاعه عنها متحفا نحو الغاية السامية التي يؤديه فيها الحق وتتضائل أمامه الخيالات الوهمية، فإن الانسان مادام يجهل حقيقة بلاده محجوب عن مظهر جمالها ووجه الرغبة فيها فلا يعقل أن يحبها المحبة التامة أو يدافع عنها وهو بهذه المنزلة من جهله بها»(2).

لماذا كتاب التقويم؟: يذكر المؤلف في مقدمة التقويم قوله بأن سبب انشائه هو إعجابه بالحركة التي قام بها الكتاب الجزائريون في ذلك الوقت وطرقوا بها كثيرا من مواضيع الإصلاح أقاموا بها انجحة على أن الفكر الجزائري لا يزال كوكبه متألقا في سماء الوطن رغم تكاثر الحجب وتعدد العراقيل، فأحب أن يتخذ منزلة بينهم ويشاركهم في ذلك العمل النافع ويضرب معهم سهما في تلك النهضة المباركة لعله يفني بحق من حقوق الوطن ويقضي واجبا من واجباته. ورأى أن أهم شيء هو تقديم "تقويم" سنوي يحمل

(*) محمد بن العابد الجليلي (1890-1967م) ولد بيسكرة تعلم على يد والده ثم بقسنطينة على يد الشيخ عبد الحميد بن باديس، من رائل كتاب التمسة في الجزائر اشغل في مدارس جمعية العلماء أكثر من ثلث قرن. أنشأ سنة 1937 م جريدة "أبو العحائب". وكان يمزج فيها النقد بالفكاهة، التحق بالنورة عند اندلاعها في 1954م. ألقى عليه القبض، فسجن وعذب، وبعد الاستقلال عاد إلى التدريس، من آثاره "تقويم الأخلاق" والأناشيد الإسلامية شعر قليل. انظر عادل نويبيض، المرجع السابق، ص 115 بتصرف.

(1) محمد العابد الجليلي، المصدر السابق، ص 4.

(2) المصدر نفسه، ص 4، 5.

لأبناء جنسه أنواعاً من الفوائد وفنونا من الأدب سبباً فيما يتعلق منها بالأخلاق السليمة هي
 عملاً جميع التمهينات (1). وقد جاء "التقويم" في 180 صفحة من الحجم المتوسط، وتم
 طبعة في المطبعة الجزائرية الإسلامية التابعة لجمعية العلماء بقسنطينة سنة 1927 م.
 ويمكننا معرفة مضامينه من خلال فهرس موضوعاته:

- الأستفتاح - المقدمة: الميقات
- جغرافية الجزائر
- القضاء الإسلامي
- جراب الحكمة
- القسم الأول من مبحث الأخلاق و الآداب الإسلامية
- القسم الثاني.
- قسم التراجم: عمر راسم ، عقبة بن نافع محمد العاصمي ، الفرقد، أعمال
 الشيخين محمد ابن العربي وابن رحال.
- الأدب الجزائري قديماً وحديثاً
- جواب الباب العالي على فكرة تقسيم تركيا.
- خواطر في الشعر
- حركة العلم. تبرج النساء في القديم
- الجزائر الأمريكية
- الطيران... الخ.
- مؤسساتنا ومؤلفاتنا : - مدرسة الشبيبة الإسلامية الجزائرية بالعاصمة.
- مدرسة الشبيبة بالأغواط
- بعض مؤلفاتنا :- شعراء الجزائر في العصر الحاضر لمحمد الهادي السنوسي.
- مقدمة في درس الإسلام - بالفرنسية - للأستاذ عبد الرحمن بن الجفاف الجزائري.
- تاريخ الجزائر في القديم والحديث، للأستاذ مبارك الميلي (2).

(1) عماد العابد الجليلي، المصدر السابق، ص 2.

(2) المصدر نفسه، ص 179-180.

... الخاتمة .

أول ما يلاحظ على فكرة تأليف أو جمع هذا "التقويم" هو:

1- أن علماء الإصلاح - علماء الجمعية فيما بعد - كانوا يتوسلون كل السبل لخدمة وطنهم وأمتهم ويعتدون ذلك أداء لحق الوطن عليهم وقضاء لحاجة من حاجاته.

2- روح الأمل والتفاؤل الذي يقدم بها علماء الإصلاح على أداء هذا الواجب وقضاء هذه الحاجة رغم الصعوبات والعراقيل حتى يقدموا نموذجاً للوطنية، وحجة لسواهم ممن أقعدهم اليأس عن العمل، وثبطهم التواكل والكسل عن مجارة أهل العلم والبصيرة في عدم تعجل النتائج والايمان بأن العاقبة الغلم والعمل.

3- تنوع مضامين "التقويم" وكثرتها تدل على جو الحركة الحثيثة والنشاط الذي كانت تعيشه الجزائر بفضل علماء الإصلاح بما يدل على مؤشر لنهضة وإرهاص لثورة بدأت بالفكر والثقافة وستنتهي إلى التحرر النهائي.

4- مواضيع "التقويم" تصبّ في فكرة تمجيد الوطنية، وعرض منجزات العلماء والكتاب من الجزائريين أنفسهم، ثم تذكير ببعض شخصيات الإسلام وبطولاتهم.. شحذ لهمة الجزائري ودعوته إلى نبذ التواكل والاقدام على العمل على منوال مواطنيه حتى يفيدهم ويستفيد منهم.

5- التقويم مساهمة علمية جادة -أخرى- تضاف إلى جهود علماء الإصلاح في مجال التأليف تزيل الغبار عن الماضي، وتستحث الجميع إلى النهوض، وهذا ما أشار إليه مؤلفه بقوله في عرض تأليفه: «> هو إنارة السبيل لبصائرنا كي ندرك وجودنا في هذه البلاد على أي حالة هو، فإن هذا النوع من الجهل لم يبق له أثر في غير نفوس الجزائريين الذين غفلوا عن ماضيهم فارتبك عليهم طريق مستقبلهم ولهذا تراهم واقفين في حاضرتهم وقوف الطلل الشاخص وسط التموجات الهائلة الدائبة نحو التجدد وماذاك إلا ليعبد أعصاب الاحساس عنهم عن ممارسة الجهاز العلمي المنوط به توزيع أشعة الحياة على مستحقيها >>(1).

(1) عماد العابد الجليلي، المصدر السابق، ص 5.

ومن ثمّة "فالتقويم" وغيره من التّأليف التي أسبقنا الحديث عنها تأكيد من الجزائري عني وجود الند للند للاحتلال الفرنسي، يواجهه بأساليها، ويكرّس انفصاله عنها بمجهوداته في مختلف الميادين ولا ندري إذ صدر "تقويم الأخلاق" في السنة التالية كما وعد صاحبه أم لا؟.

ديوان محمد العيد آل خليفة:

لن نرح ميدان التّأليف حتى نشير إلى أن هناك قطب من أقطاب علماء الجمعية قد أدى حق الوطن عليه في مجال من النهضة لا تكتمل فروعها إلا به، ولا تؤدي رسالتها كاملة إلا بذكره، وقد يعد قصور في البحث إذ نشر إليه ونقف عنده رغم أنه لا يدخل فيما طبعته جمعية العلماء بمطبعتها، ذلك هو ديوان شعر محمد العيد آل خليفة وأسبابنا في ذلك تعود إلى :

1- أن محمد العيد آل الخليفة كما يقول الابراهيمى: هو أول شاعر نشطت عنه صدفة النهضة في الجزائر، وشعره أول شعر حي وافق النهضة العامة وحدا قوافلها الفذة فأطرب، وأول شعر جرى في عنانها وسجّل مراحلها (1). فكان بذلك سجل صادق لهذه النهضة وعرض رائع لأطوارها.

2- إن النهضة كانت كاملة في الأدب والسياسة والعلم، وكانت فروعها سائقا بعضها إلى بعض لأن ضرورة الوطن كانت تستدعي سيرها في طريق واحد وكان مظهرها الأعلى وعنوانها الأجلى هو جمعية العلماء المسلمين الجزائريين التي جمعت الشتات وأحييت الموات وحددت المبادئ ووفرت الوسائل للأفكار المقيدة أن تبحث وتعمق، حتى بدأت النهضة الأدبية تسابق الإصلاح الديني وتغذية (2).

3- لأن ديوان محمد العيد كان يفترض أن تطبعه الجمعية بعد قيامه بجمع قصائده، لكن يبدو أن عوارض وشواغل ثم صعوبات قد حالت دون ذلك. ويبدو أن أمنية علماء

(1) أبو القاسم سعد الله، محمد العيد آل خليفة، رائد الشعر الجزائري في العصر الحديث (مصر، دار المعارف، 1961)، ص 2. انظر تصدير الكتاب بقلم الشيخ محمد البشير الابراهيمى.

(2) المكان نفسه

الجمعية قد أجمعت على ضرورة جمعه وقد أشار بعضهم فعلا على الأستاذ الشاعر محمد العيد(*) ذلك وألح عليه مع كل قصيدة، وبقيت أمنيته قائمة بعد الاستقلال وقد اعتبر الابراهيمى عدم جمع ديوان محمد العيد وطبعه نقص في النهضة العلمية الأدبية بالجزائر، حيث قال: «وإذا كان في النهضة العلمية الأدبية بالجزائر نواحي نقص، فمنها أن يبقى شعر محمد العيد غير مجموع ولا مطبوع(1).

4- لأن عدم التعرض إلى شخص محمد العيد آل خليفة كقطب من أقطاب الإصلاح خيانة للحقيقة التاريخية، ونقص في معطيات النهضة العامة التي شهدتها الجزائر على يد علماء الجمعية التي كان "محمد العيد" أحد أعلامها، وحسبنا أن نصفه بما وصفه به الشيخ البشير الابراهيمى بقوله: «محمد العيد، شاعر الشباب، وشاعر الجزائر الفتاة بل شاعر الشمال الافريقي بلا منازع، شاعر مستكمل الأدوات، خصيب الذهن، رحب الخيال، متسع جوانب الفكر، طائر اللحمة، متين التركيب، فحل الأسلوب، فخم الألفاظ، محكم النسيج ملتحمه، مترقق القوافي، لبق في تصريف الألفاظ، بصير بدقاتق الاستعمالات، فقيه في اللغة علما وعملا، وقاف عند حدود القواعد العلمية لا تقف في شعره على كثرته على شذوذ أو رخصة أو تعقيد في تركيب أو معازلة في أسلوب... ومن يعرف محمد العيد ويعرف إيمانه وتقواه وتدينه وتخلقه بالفضائل الاسلامية. يعرف أن روح الصدق المتفشية في شعره إنما هي من آثار صدق وصحة التخلق ويعلم أنه في هذه الناحية بدع في الشعراء»(2).

(*) الأستاذ الشاعر محمد العيد آل خليفة ولد سنة 1904م بمدينة عين البيضاء تعلم بها ثم انتقل إلى بسكرة ثم إلى تونس في 1921م. ليعود في 1923م وبشارك في حركة الانبعاث الفكري بمنطقته عن طريق التعليم والصحافة. عمل مدرسا بمدرسة الشيبية الاسلامية الحرة بالعاصمة منذ سنة 1927م ولمدة 12 سنة، وقد ساهم في هذه الفترة في تأسيس جمعية العلماء. ثم عين مديرا على مدرسة التربية والتعليم بباتنة حتى 1947م ثم بمدرسة العرفان بعين مليلة حتى 1954م. وبعد اندلاع الثورة أُلقي عليه القبض وسجن وعذب وفرضت عليه الإقامة الجبرية ببسكرة حتى الاستقلال. انظر : منشورات وزارة التربية الوطنية، شعراء الجزائر: ديوان محمد العيد (الجزائر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1979م)، ص ب بتصرف.

(1) المصدر نفسه، ص ي (نظر التقديم بقلم الشيخ محمد البشير الابراهيمى).

(2) المصدر نفسه، ص ط. (انظر التقديم بقلم الشيخ محمد البشير الابراهيمى).

وبناء على ما تقدم، فإننا نفي بالوقوف عند ديوان "محمد العيد آل خليفة" بحقه في التعريف بآثاره وجهوده ضمن جهود زملائه العلماء في ميدان لا يقل عظمتة ولا خطورة عن الميادين التي كفاها هؤلاء كابن باديس في التفسير خاصة، والميلي في رسالة الشرك ومظاهره، وتاريخ الجزائر في القديم والحديث، ثم محمد العيد في ميدان الشعر، ولا غرابة أن يسم محمد العيد بشاعر الجزائر، أو بأمير شعراء الجزائر أو بزهير الجزائر كما سماه أمير البيان العربي شكيب أرسلان (1).

مضامين ديوان محمد العيد آل خليفة:

يشتمل ديوان محمد العيد آل خليفة على 255 قصيدة حسب أغراضها ومواضيعها

إلى :

- الأدبيات والفلسفيات - الإخوانيات - الألغاز
- الإسلاميات والقوميات - الثوريات - الأناشيد
- الأخلاقيات والحكميات - المراثي
- الاجتماعيات والسياسيات - الذكريات
- اللزوميات - المنفردات

تطور مواقف الشعرية:

نقد مهدت الحركة الوطنية بجميع أشكالها إلى ظهور الشاعر محمد العيد آل خليفة، ولذلك فهو لم يكن بدعا في أفكاره واتجاهاته، لكنه استطاع أن يبلور الاتجاه الوضحي ويمثله واضحا مستقيما ثم يصوره ويصور من حوله كل العواطف والمشاعر التي كانت تلهب القادة وتحركهم في هذا الاتجاه، >> وقد كان محمد العيد رائدا من رواد الحركة الوطنية ولم يكن مجرد حاد يهش بكلماته على قافلة الحرية مع الحادين (2)، كما يقول سعد الله .

وقد تلقفت الحركة الإصلاحية "محمد العيد" وهو بعد شاعر يافع، فاندفع فيها

(1) ديوان محمد العيد، ص ي.

(2) أبو التمام سعد الله، محمد العيد آل خليفة، رائد الشعر الجزائري في العصر الحديث، مرجع سابق، ص 27

كلية وكان لسانا قويا من ألسنتها بل كان على رأسها جميعا في مجاله، فقد كان يشارك في تحرير صحافتها أحيانا وبالشعر في أغلب الأحيان، وصدرت أكثر قصائده في "الشهاب" و"البصائر" وغيرها من الصحافة الوطنية، وكان إماما يؤم المصلين، وأستاذا لمدرسة إصلاحية لمدة 12 سنة ثم مديرا لأخرى حتى قيام الثورة المباركة في 1954م، وفي الحملة كان أحد وجوه الإصلاح الباديسي حيث لم تكن المنصة الشرفية الإصلاحية تخلو من قصيدة من قصائده، فخلد المناسبة بوصف أو إشادة أو تعريض أو رثاء(1). فقد شارك محمد العيد في افتتاح كثير من النوادي والمدارس الإصلاحية وتدشين شعبها ومراكزها وسائر منجزاتها. ويمكن لدارس شعر محمد العيد أن يتعرف على مبادئ الإصلاح السلفي في الجزائر وكذا أهدافه وشخصياته ومناسباته وأن يقف على تطور مراحلها في الزمن والأسلوب.

فقد صور شعر محمد العيد في مرحلة ما بين الحربين صور الكفاح الجزائري على اختلاف أشكاله فكان يبشر بالإصلاح ويباهي بأجداد الوطن وتاريخه ويدافع عن حقوقه السياسية بلهجة عنيفة حين لا يجب إلا العنف وخفيفة حين لا يجد من ذلك بد وبتعريض إذا كان التعريض أسلم وأوقع أو تصريح إذا كان التصريح أجدى. ولما كانت هذه الفترة غنية بالأحداث السياسية والوطنية - كما رأينا - فقد كان شاعرنا متمردا على كثير من الأوضاع التي خلقها الاحتلال الفرنسي وكان مندفعاً متحمساً، وتغنى بقافلة الحرية التي يتقدمها رواد أكفيا.. ثم تحول حماسه فيما بعد إلى عمل، وأصبح عقيدة داخلية تؤدي دورها في صمت ووعي وانقطاع كغيره من علماء الجمعية.

أهم قضايا شعره :

أ- شعره الاجتماعي: لقد تربي "محمد العيد" في أحضان الشعب منذ الطفولة، واستطاع بحق أن يكون لسان هذا المجتمع الناطق وقلبه النابض، فتحدث عنه في هجراته وتشرده وإقامته الذليلة وقلقة وضياعه، وصور كفاح الشعب ومواقفه البطولية عبر التاريخ، وتحدث عن مآسيه وآلامه، وجسم عواطفه وأمانيه في الحرية والحياة الشريفة،

(1) Ali Merad, Le Réformisme musulman en Algérie, Op Cit, p 106

وحسب دراسة الدكتور سعد الله لشعر محمد العيد فإن أغلب شعره المنشور في الصحف هو من الشعر الاجتماعي الذي يتناول فيه القضايا الاجتماعية والمشاكل الشعبية بأدق ما يكون التناول وأجمل ما يكون العلاج، وقد وجد "محمد العيد" فيه شاعرا اجتماعيا دقيق الملاحظة شعبي الإحساس (1).

ويؤكد سعد الله بعد دراسته لمراحل شعر محمد العيد وحياته بأنه -محمد العيد- كان مواطنا قلما يتعبر بذاته وسط الجماعة، فهو في شعره لم يكن يمثل اتجاهها سياسيا معينا أو يخدم شخصيته بذاتها كما كان يفعل بعض شعراء العربية وإنما كان يمثل الرأي العام ويخدم مبادئ الإصلاح الوطني الشاملة حتى أنه جعل موضوع شعره وشعوره هو الشعب الجزائري عن صدق ووفاء، حيث يقول :

أيها الشعب أنت موضع شعري وشعوري لا زينب والرباب (2)

ويقول أنه خلق لبواسي الخرومين والباثيسين ويشيد بصرعى الوطنية ويؤنس موتاه المظلومين بقلب جريح وعين دامعة:

يناعني الباثيسين كما يناعني لعمرى العندليب العندليبا
ويحي في رثائهم اللبالي وينهض في مصارعهم خطيبا
بقلب يلفظ الأنفاس حرى وعين تذرف الدمع الصيبا (3)

ونجد في شعر محمد العيد ألوانا من الحديث عن المدرسة والتعليم والمرأة والشباب، والصحافة والمساجد الخرة ومناهضة دعوة الاندماج ومنح الجنسية الفرنسية والدعوة إلى تأسيس المصانع والنوادي والجمعيات الخيرية، ومكشلات الفقر والامية والبطالة والمواسم الدينية الهامة كرمضان والحج والمولد والتكبات والأهوال المختلفة، من رثاء عظيم أو فقد

(1) أبو القاسم سعد الله، محمد العيد آل خليفة، رائد الشعر الجزائري في العصر الحديث. مرجع سابق، ص 86. وللإشارة فإن أبو القاسم سعد الله هو أول كاتب يقوم بدراسة عن شاعر جزائري. (انظر تصدير هذا الكتاب بقلم الشيخ محمد البشير الابراهيمي، ص 2).

(2) من قصيدة بائية عنوانها "يا شباب" (36 بيتا) ألغها الشاعر في احتفال مدرسة بسكرة، نشرت في البصائر، ع 11 سنة 1947م. انظر ديوان محمد العيد آل خليفة، المصدر السابق، ص 261.

(3) من قصيدة عنوانها "باخرة الموت" (39 بيتا)، المصدر نفسه، ص 287.

صديق ونحو ذلك. بما فُخلص بالقول إلى أنه دخل في معركة الحياة اليومية بالإستماع إلى همسات الشعب وصرخاته وإلى دموعه وبسماته والتحمّس على آلامه وجراحه وتصوير كل ذلك في شعر جميل طابعه الحماس والغيرة على الوطن والحقوق الضائعة وروحها الايمان بعظمة الجزائر ومجد الجزائريين.

وبهذا يتمثل "محمد العبد" رأس اهتمامات جمعية العلماء ومحور انشغالاتها في الاهتمام بقضايا الجزائر بهدف إسماع صوتها والسّماع إلى صراخها المكتوم. وقد تمثّل - مثلاً- الهدف التربوي الذي كان له فيها تجربة طويلة مدرسا ثم مديرا للمدرسة الإصلاحية في قوله:

أرى جلّ أصحابي اذروا بوظيفتي وقالوا هموم كلها ووجائع
وقد زعموا عمري مع النشء ضائعا وتالله ما عمري مع النشء ضائع
• سيروون عي الشعر والعلم برهة وتطلع للإسلام منهم طلائع
فمنهم خطيب خاضر الفكر مصقع ومنهم أديب طائر الصيت ذائع
ومنهم ولوع بالقوافي لفكـره بدائه في ترصيفها وبـذائع
ومنهم زعيم لنجزائر قائد له في مجالات الجهاد وقائع (1)

ب- شعره السياسي:

كان "محمد العبد" كغيره من علماء الإصلاح يؤمن بالتنظير البطيء والنضج قبل العطفرة، وكان يحترم الأولويات في النشاط. والمرحلية في العمل ومن ثمّة التدرج في نوعية الجماهير ثم التدرج في وعيها، وكان يدعو إلى العمل بحكمة وحذر، وينبّه إلى التآني والعبرة والاستعداد قبل الاندفاع والندم ومع أنه عاش في فترة غنية باليقظة والوعي فإن مبدأه الإصلاحية لم يمنعه من أن يقول في السياسة حين: "ب القول وحين يصبح السكون خيانة للضمير وزعزعة في الوطنية، >> وكان شعره السياسي مثالا للمواطن المتحرّر فهو مصلح معتدل إذا رأى الخير في الإصلاح والاعتدال، وهو مغامر أو محايد إذا تشابكت عليه المسالك >>(2).

(1) قصيدة عنوانها "تناول" (7 أبيات) أنظر: أبو القاسم الله، محمد العبد رائد الشعر الجزائري. مرجع سابق، ص 379.

(2) المرجع نفسه.

وقد تضمّن شعره القصائد السياسية الخالصة والوطنية الحارة، وكذا العديد من الأبيات التي قد تأتي عرضاً لكنها تحمل إشارات لمواقف وأحداث سياسية معينة ومن الموضوعات التي طرقتها، المؤتمر الإسلامي ومقاومة الاندماج، والإشادة بعروبة الجزائر، ومأساة الأحزاب الجزائرية، وضحايا الاستعمار وسخر من وعود فرنسا، وقد رثى العديد من الشخصيات السياسية والوطنية.

وقد أبدى رأيه في السياسة بصراحة، وكذا في العمل الحزبي، ودعا إلى تقديم المصلحة الوطنية على كل الاعتبارات الأخرى، ويسدو أنه بدأ داعياً إلى الرفق والهدوء والاستعداد الثقافي والاجتماعي، في فترة ما بين الحربين لينتهي إلى الدعوة إلى الثورة على الاستعمار وعدم الخضوع، واختيار طريق الموت خير من العبودية تحت الحكم الفرنسي. وقد عرّضه هذا الموقف إلى كثير من المضايقات من الدوائر الاستعمارية، وليس لنا أن نستشهد على كل هذا بما جاء من شعره بل نكتفي بإيراد بعض الأبيات من قصيدة "هذه

جذوة" يقول فيها :
 نح على أمة حظها تاعس
 أمة مجدها دارج دارس
 أمة مالها قائد سانس
 نحن في بيئة لصها حارس
 فارع فيها الجنى أيها الفارس
 قل لشعب سجنى ليله الدّامس
 هذه جذوة هل لها قابس؟(1).

ويقول في قصيدة عنونها "رعد البشائر" يقول فيها :

حياتك حرب للضعيف فكن بها قويا أيبا أن تذلل وتخضع(2)
 ويقول في قصيدة عنونها "ذكرى المؤتمر":

فقم يا ابن البلاد اليوم وانهض بلا مهمل فقد طال القعود
 وقل يا ابن البلاد لكل لص تجلّى الصبح واتبه الرقود

(1) انظر: ديوان محمد العيد آل خليفة، المصدر السابق، ص 291-293 بتصرف.

(2) المصدر نفسه، ص 188 والقصيدة طوية (75 بيتاً).

فحضر يا ابن الجزائر المنايسا تظليلك البنود أو اللهود(1)

وقد تغنى محمد العيد بالعربية الفصحى وكان يؤمن بأن الجزائر عربية وطننا ولسانا وتاريخنا، رغم القوانين الجائرة والأصوات المنفرة، وعمل طوال حياته على إذكاء روح العروبة في الشباب الجزائري ودعوته إلى الافتخار بانتماثه إلى الأمة العربية العظيمة.

فيقول في قصيدة عنوانها : "العروبة أمتنا الكبرى"

إن العروبة أمتنا الكبرى التي في الأمهات نظيرها لا يوجد
قد انجبتنا كالسيوف مواضيا في الضرب غضب كلنا ومهند
إنا بنوا لهيحاء نصلي نارها من يستبد من العدى أو يفسد(2)
تبقى العروبة من جديد قلعة من حولها قصف المدافع يرعد
ويخاطب "الجزائري" في قصيدة أخرى عنوانها "ختست كتاب الله"

صل العرب العرباء وأحم لسانهم فإنك من أصلابهم تتحدّر
وسر في طريق الراشدين على الهدى فكل طريق غيرها لك معثر(3)
وأشار محمد العيد في قصيدة أخرى عنوانها "إلى العلم" إلى أن الشعب الجزائري من سلالة عربية عريقة، وأن الذين يحاولون فصله عن عروبه وتجريده من لسانه سيتركهم الفشل لا محالة: يقول فيها:

نـحـن إلى نيل الحقوق نفوسنا وتأبى علينا نيلها قـوـة الغشم
ونقصى عن الفصحى ونلهى بغيرها وليس سوى الفصحى لسان لنا رسمي
وما نحن إلا من سلالة يعرب فمن رام عنها فصلنا باء بالرغم(4)

ولم تكن هذه القضايا الحيوية التي يعالجها الشاعر "محمد العيد" والتي كانت قضايا الساعة في كل فترة من فترات التاريخ الحديث إلا جزءا من قضية العرب الكبرى التي كان يعيشها كل مواطن عربي في كل قطر عربي. ومن ثمة فقد كان "محمد العيد" في

(1) ديوان محمد العيد آل خليفة، مصدر سابق، ص 304-305 بتصرف.

(2) المصدر نفسه، ص 229-230 بتصرف (والقصيدة طويلة 72 بيتا).

(3) المصدر نفسه، ص 159. (أبيات القصيدة 76 بيتا)

(4) المصدر نفسه، ص 205. (أبيات القصيدة 59 بيتا).

«دفاعه عن التراث القومي في الجزائر والدعوة إلى الإصلاح، والوقوف في وجه سياسة الاندماج، والتبشير بالثقافة واللغة العربية، فإنما كان يهدف إلى أن تصبح الجزائر حقيقة واقعة جزءاً من الأمة العربية والتأكيد للرأي العام أن الجزائر مشرقية عربية لا غربية فرنسية كما يروج لذلك الاحتلال الفرنسي وأذيانته» (1) ولذلك فقد كان محمد العيد يقول:

وابن الجزائر يابن الشرق مرتبط وإن أحاطت به الأشواك أسواراً (2)

وكما عاش محمد العيد في مأساة وطنه الجزائر، عاش أهم قضايا وطنه العربي الكبير بنفس الإحساس الذي يعيش به كل جزائري وقد كانت "فلسطين" قضية الجزائريين الأولى رغم ما كانوا يعانونه من كبت وعزلة وخصمها "محمد العيد" بالعديد من القصائد رثاء وتنبها للرأي العام الجزائري ليقدم على التطوع والتبرع وحمل السلاح.

شعره الديني

كان محمد العيد يطرق في هذا المجال موضوعات دينية محضة كقصائده حول تارك الصلاة والزكاة وقصائد ترقيق القلوب بالمواعظ والتذكير بالله واليوم الآخر، وموضوعات تهدف إلى غرض ديني كالحملات التي شنّها على بعض المستشرقين والقصائد التي هناؤها الداخلين في الإسلام من الأوروبيين أو التي أشاد فيها بمصلح كبير أو مؤسسة إصلاحية معروفة كما فعل مع الشيخ ابن باديس في حفلة ختمه تفسير القرآن العظيم أو تقريظ كتب دينية كما فعل مع "رسالة الشرك ومظاهره" للأستاذ مبارك الميلي.. الخ وهذه القصائد وغيرها يتضمنها ديوانه حسب مواضيعها المختلفة.

ومع أن محمد العيد قد تغذى من ينابيع الثقافة العربية الإسلامية وثقافة العصر في الجزائر ثم في تونس وأعد لرحلته الثقافية الشاقة ما يكفيه من زاد علمي إطفاء لظمابه الشخصي من الثقافة، فإن ذلك كان أيضاً استعداداً لخوض رحلته في عصر يعي جيداً أنه يدين بالفكر، وبين جيل يعتز بالعرفه، وفي بلد متعطش إلى قوميته وثقافته، فقد كان شاعرنا يعمد إلى البساطة في الأسلوب والسهولة في المعنى. لأنه إنما يتغنى لشعب يعرف إمكاناته الفكرية واللغوية، فكان يتمثل قضاياها وآماله، ويعيش آلامه ودموعه وصمته

(1) أبو القاسم سعد الله، محمد العيد آل خليفة رائد الشعر الجزائري في العصر الحديث، مرجع سابق، ص 145.

(2) المصدر السابق، ص 456. (من قصيدة رثاء شاعر النيل حافظ إبراهيم).

الصارخ وخوفه على مسيره، ويدعوه فيها إلى التعلم والمشاركة في النشاط الجماعي والانعاز من حوادث التاريخ وقضايا العام، ويسلحه بمعطيات محيطه فينبهه ويعبئه ويحذره، ومن ثمة فكلما كان أسهل وأبسط ما يكون، كان أصدق وأرسخ ما يكون مع العلم أنه لم يكن ذلك في كل شعره وإنما كلما تطلب الموقف منه ذلك فكان شاعر الإصلاح في الجزائر بصورة أخص، وشاعر الشعب الجزائري بصورة أعم.

ويبقى أن نشير إلى أنه كما كان للحركة الإصلاحية في الجزائر منظورها وخطباؤها ومؤرخوها وصحافيها وأمتها ومدرسوها فقد كان لها أيضا شعراؤها الذين كان على رأسهم محمد العيد آل خليفة الذي كان له هو نفسه بعض الجوانب من هذه المهام الكبرى ككل علماء الجمعية، لكن الذي ميّزه عنهم هو أنه أضفى على الحركة الإصلاحية في جانبها الفكري لمسة من بلاغة وسحر البيان العربي(1). فقد كان حضور القصيدة الفصيحة إكمالاً للفضائل الاجتماعية للكلام، وبغض النظر عن رسالتها المنطقية وقيمتها الفنية فقد كان ينظر منها جمالا ضروريا يثير الإعجاب والروحانية، فكانت من ثمة الوجه الانساني المؤثر لعملية الحركة الإصلاحية الجزائرية.

(1) Ali Merad, Le Réformisme Musulman en Algérie , Op Cit, p 107.

المسألة:

حدّدت جمعية العلماء المسلمين الجزائريين مهمتها كحزب ديني اصلاحي في الجزائر في شعار ثلاثي هو: الاسلام ديننا، العربية لغتنا والجزائر وطننا، واختارت لتحقيقه منهجاً يتلخص في قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾. وفي الأثر: «لن يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها». ومقصود هذا المنهج عند جمعية العلماء هو:

أ- أن الشرط الجوهرى لكل تحوّل اجتماعي رشيد يتحقق بإعادة بناء الفرد ضمن عناصر مقوماته الأصيلة والأساسية، وأن تحرك الفرد يتبعه منطقياً تحرك المجتمع، ومن ثمّ وجب إعادة تكوين الإنسان الجزائري وبعثه في إسلاميته وعرويته وجزائريته ورجولته بما يقتضيه ذلك من الالتزام بمبادئ دينه وأخلاقه وتقتضيه قيادة الأمة من شجاعة وصبر وثبات.

ب- أن الشعب الجزائري لن ينجو من الاحتلال الفرنسي إلا إذا نجحت نفسه منه، ولا يتم ذلك إلا بعملية تحوّل نفسي عام يصبح فيه الفرد الجزائري قادراً على القيام بوظيفته الإجتماعية وجديراً بأن تحترم كرامته ويتطلب ذلك من جمعية العلماء إعادة الشروط الأولى التي كان فيها المجتمع أو - الفرد الجزائري فعالاً - بإيجاد أمة تعرف كيف تطالب وممن تطالب، وماذا تطالب ثم تصرّ على المطالبة، وتعرف كيف تأخذ وكيف تحافظ على ما أخذت، على حدّ تعبير الأبراهيمي في آثاره. وهو ما من شأنه أن يجعل الاستقلال واقعا معيشا وسلوكا يوميا يكرّس المعاني الحقيقية للانفصال التام عن الاحتلال الفرنسي في قوالبه وأشكاله ومشاريعه وشعاراته.

وتكمن مبررات اختيار هذا المنهج عند علماء الجمعية في:

١- أن القرآن الكريم هو كتاب الإنسانية العليا أنزله الله تعالى من السماء ليصلح به الأرض ويدلّ أهلها المستخلفين عليها الطريق الواصلة بالله والموصلة إلى السعادة الكاملة.

2- أنه كما تبي القرآن الكريم في أول نزوله بالمعجزات في إصلاح البشر فإنه حقيق بأن يأتي بمثل تلك المعجزات في كل زمان ومكان إذا وجد ذلك الطراز العالي من العقول التي فهمته وذلك النمط السامي من الفهم التي نشرته وعممته.

3- أن التأمل في وضعية الجزائريين وكيفية انتشار الإسلام بينهم يجد صورة جافة من الحفظ الجرد ونمط سخيف من الفهم السطحي وأسلوب تقليدي من التفسير اللفظي، ونتيجة كل ذلك أنه لا يفيدهم شيئا ولا يفيد بهم شيئا. وإنما هو يزيدهم بعدا عنه ويزيد أعداءهم استخفافا بهم وإمعانا في التكالب عليهم والتحكم في رقابهم ووطنهم.

4- أن الاستعمار الفرنسي آثر من أول يوم من الاحتلال سبيل محق مقومات المغلوب الروحية والمادية تدريجيا، وتحطيم عناصر المقاومة فيه جهرة أو اغتيا لا فوضع له الأصول ورتب الوسائل وآثر من أنواعه التدرج المغطى بالكيد والاحتيال، وبدأ من المقومات بالدين، لأنه يعرف أثره في النفوس والإرادات، ويقدر ما فيه من قوة التحصن من الانحلال، وقوة المقاومة للمعاني الطارئة. >> كما يقول الإبراهيمي.

وقد توسلت جمعية العلماء في عملية قيادتها في تغيير ثم تحرير الجزائريين في ضوء هذا المنهج ما وفره العصر من وسائل وأتاحته قرائح العلماء من أساليب، فكانت وسائل للاتصال بالشعب الجزائري، شفوية وهي: التعليم المسجدي، الرحلة، الخطابة، التعليم المكتبي، ومطبوعة وهي الصحافة والتأليف، استمدت ملامح تخطيطها من الدعوة الإسلامية الأولى في ربط النتائج السليمة بالمقدمات الصحيحة، ومن ثم فقد مرت بمرحلة تمهيدية طويلة وصعبة تلتها فترة رسمية أطول وأصعب.

وقد تميزت نفرة التمهيدية من حيث الكيفيات بـ :

أ- الهدوء والمرونة ومسالمة إدارة الاحتلال وحكومته ومسالمة خصوم الحركة الإصلاحية في الداخل والمتمثلة في شيوخ الطريقة ودعاة الاندماج فاجتنت العلماء إثارة النعرات السياسية أو الدينية حتى لا تتعرض الجمعية إلى الضرر بعرقلة مشاريعها وتقويت منافعها عن الأمة الجزائرية.

ب- سمات الثورة في الحمية والتفاني والحماس الذي ميز جهود علماء الإصلاح

في مقابلة قلة الموارد وندرة الكفاءات وذلك بـ :

* تولّي -القائد - رئيس الجمعية بنفسه عملية التعليم والتربية والتكوين والتوعية للجيل الأول للثورة يدرّبهم على الأعمال النّافعة يتعجّل بهم الفوائد ويسابق بهم الزمن، انطلاقاً من إيمانه بأن صلاح المسلمين -الجزائريين- لا يكون إلا بصلاح علمائهم وأن صلاح العلماء يكون بصلاح تعليمهم.

* الاهتمام بالكيف من حيث كثافة برامج التعليم ومناهجه وأوقاته وتنظيمه وقد رأى العلماء ضرورة بنائه على الفكر الصحيح ولو بعلم قليل .

* جمع جهود كل علماء الإصلاح في الجزائر، ليتعاونوا على خدمة الاسلام والعربية والنهوض بالأمة الجزائرية عن طريقهما.

وتميّزت من حيث الأهداف بـ :

أ- إحداث ثورة روحية تعتمد على غرس الفضائل قبل غرس القواعد الجافّة.

ب- إحداث ثورة تعليمية من شأنها بعث شعور الحق في المعرفة، والحاجة إلى الإعلام والاتصال والإحساس بالمسؤولية التاريخية والحضارية، والوعي بقضايا الأمة المصرية بإدراك أهداف ووسائل الاحتلال الفرنسي والخيولة دون تأثيرها، والاستعداد للتضحية دون مقومات الأمة.

وتميّزت من -نيت النتائج بأن :

1- أصبحت جمعية العلماء مطلباً جماهيرياً بعدما كانت مشروعاً عند خاصة العلماء

2- أخرجت جيشاً من المتعلمين تختلف حظوظهم في العلم لكن تتفق إرادتهم في الإصلاح.

3- وفّرت قاعدة ثرية من المعطيات الواقعية والمعلومات الدّقيقة التي تشمل

انشغالات الشعب الجزائري في مدنه وقراه ومداشره التي وصل إليها الإصلاح وفي مختلف فئاته، بنت عليها الجمعية مشاريعها وضمنت بها عدم التقهقر.

4- أوجدت شعباً مقبلاً على العلم ومستعداً للعمل.

5- سمحت بانتشار شعور يأس صريح من سياسة الاحتلال ونفور عام معلن من

مشاريعه وقناعة واعية بضرورة الاعتماد على النفس في عملية التغيير.

ما الفترة الرّسمية فقد ميّرتها:

من حيث الكيف: الصراحة والجرأة والتحدي في مواجهة الاحتلال. وكشف مكابده وأساليبه وتخريبك الجماهير ضد قوانينه وإجراءاته إزاء مشاريع الجمعية أو بالأحرى مشاريع الأمة الجزائرية في محاولتها للعودة للفعالية الحضارية.

من حيث الأهداف: تنظيم أجهزة الجمعية المختلفة في مجال التعليم المسجدي والمكتبي بإنشاء مؤسساته وإداراته ومصالحه ومرافقه، ورسمية نشاطاتها ورحلاتها عبر مناطق القطر الجزائري في استقلالية تامة واستغناء كامل عن حكومة الاحتلال، وحرية في تفقدها لمنجزاتها ومباحثة أهلها ونشر انشغالاتهم في صحافتها وكتابة التقارير الرسمية بذلك ومن ثم وضع سياسة كل ميدان على ضوء ما يحتاج إليه من وسائل وبما يتوقّر من إمكانات وموارد.

من حيث النتائج: صياغة عامّة لمذهبية جمعية العلماء في الإصلاح في جوانبه المتعدّدة التي قادتها الجمعية، عبر مختلف وسائلها التي تمثّلت في:

التعليم المسجدي:

1- - سمح بزرع الفكرة الدينية من جديد في الجزائريين وذلك بتلقينهم المادة القرآنية مشافهة عن طريق تقديم حلّول موجزة وحازمة لقضايا الساعة تشمل النواحي الثقافية والسياسية والدينية والاجتماعية عبر اختيار دقيق وواع للآيات القرآنية بما يتحقّق معها توجيه الجزائريين إلى القرآن الكريم ليستلهموا منه الحلّول لقضاياهم اليومية وكذا لقضايا عصرهم عامّة.

2- - عمل على بعث الأمل فيهم ونحرير ضمائرهم عن طريق تقديم غذاء روحي مستمر للعقول والقلوب بنماذج من المثل العليا التي تشتمل عليها القيم الأخلاقية وتحدّدها الفكرة الدينية، والمقصود منها مواجهة حملات التشكيك والتشويه والتبئيس التي كانت تقوم بها وسائل الاحتلال الفرنسي وتحصين الجزائريين ضدها.

3- - عمل على تعليم الجزائريين عن طريق تفسير القرآن الكريم مشافهة اتّخاذ المواقف الإيجابية واقتراح الحلّول على أساس من عقيدتهم بعد تنظيم علاقاتهم وتوجيه حياتهم على ضوء منها فتشأ تلك المواقف في نطل الطاعة والالتزام.

1- عمل على تدريب الجزائريين عن طريق تيسير عرض المادة القرآنية وتفسيرها بعيدا عن التأويلات الجدلية والإصطلاحات المذهبية الضيقة واختلافات العلماء، على تكوين رأي عام ناضج وسليم.

الرحلة:

1- كانت الرحلة عملية جسّ نبض عامة وشاملة للشعب الجزائري واطّلاعا على عمقه الإنساني وقياسا لمدى استعداده وقابليته للتغيير وإقباله على أفكار الإصلاح، وكيفيات تعبيره عن رفضه للاحتلال ومن ثمّ قياسا لمدى إقباله على العمل الجماعي المثمر.

2- وكانت منبرا عاما تحقق به التعارف بين الجزائريين والقيام بواجب التذكير، وعملية واسعة للاتصال المباشر بالجمهير وتعبئتها لصالح مشاريع التعليم العربي الحر وإشهار بالجمعية وبيان لفوائدها وتعريف بعلمائها.

الخطابة:

1- سمحت الخطابة باحياء فريضي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ومواجهة مباشرة لمظاهر الفساد الاجتماعي، والبدع في الدين.

2- سمحت ببعث حركة وعي ونشاط فكري واجتماعي عن طريق ما كانت تبثه من دروس عامة، ومحاضرات، وخطب دينية وسياسية واجتماعية تستغل لها مناسبات مختلفة، وتلقى في المساحات العامة والمساجد والمدارس، ومحالّ التجار، والقاعات الخاصة.

3- عملت على توجيه حملة مدروسة مباشرة ومتواصلة ضدّ مشاريع الاحتلال، في التشويه والتشكيك ووسائل الطرقية في التضييل.

التعليم المكتبي:

1- كان التعليم المكتبي مدرسة لتعليم الاسلام الصحيح والاسلام الذاتي بما يمكن الفرد الجزائري المسلم من التفريق بين ما هو إسلام بحسنه وبرهانه، وما ليس منه بنقصه وبطلانه.

2- هدف إلى تحرير الجزائري من الوسائط الروحية غير المؤهلة والفاصلة بتمكنه من تناول المادة القرآنية بنفسه قراءة وفهما واستيعابا حتى تصبح لديه معرفة ذاتية صحيحة

بالضروريات الدينية ووعيا واضحا للتيسيم الروحية ويقف بنفسه على خطورة الضريبة ويساهم في كشف بدعتها وأباطيلها وهدم نفوذها.

3- وضع التعليم المكتبي برنامجا للوحدة القومية للشعب الجزائري فقد كان مدرسة عربية اللسان، إسلامية المضمون والمنهج هدفت إلى كل ما تهدف إليه كل أمة تعي أهمية عنصر اللغة في توحيد أفراد المجتمع وتعني أنّ توحيد الغايات لا يتأتى إلا بتوحيد الوسائل، ومن ثمّ وعي الجزائريين بأن كل ما يمس لغتهم إنما المقصود منه هو دينهم، فنبّه شعورهم لصالح شخصيتهم الوطنية ونفورهم التلقائي من سياسة الفرنسة والإندماج والتجنس.

4- كان التعليم المكتبي مدرسة عربية اللسان تعطي الثقافة الوطنية مضمونا إيجابيا للردّ على محاولة الاحتلال في التشكيك في ذلك، وبيان بأن لغة أي شعب إنما هي روحه لأنها تستوعب كل ذخائره من الفكر والثقافة والتاريخ والفلسفة والدين ومن ثمّ ايقاظ الشعور التاريخي لدى الجزائري وتوعيته بأصالة الانتماء في بعده العربي والإسلامي.

5- كان التعليم المكتبي مدرسة جزائرية تصوغ الطريق الأمثل للمستقبل وتزِيل عن المسلم الجزائري حيرة الخيار الصعب الذي وضعه فيه الاحتلال الفرنسي بين طريق الثقافة والنمط الغربي الفرنسي مع التنصّل من مقومات الشخصية الوطنية أو طريق الثقافة الجامدة والانغلاق على الحياة المتخلفة، وذلك بتوجيهه إلى اختيار طريق الاحتفاظ بما في الماضي من نفع ومدنية وعدم الزهد فيما في الحاضر من خير وتقدّم، والإعراض عن الثروة من دون تفكير ولا روية.

6- وكان مؤسسة لتكوين الرأي العام الذي يتسم بالنضوج والصحة، فتوحيد البرامج والمناهج والوسائل، وترسيخ وحدة المقومات، ونبذ طرق التلقين الجامدة وآبناج النظريات التربوية العصرية، معطيات تصهر الجزائريين وتحدث بينهم التقارب والتآلف والتجانس في الأذواق والمشارب والنزعات، وتوحد من ثمّ نظرتهم إلى القضايا والأحداث تحليلا وحكما، ثم توجيهها واختيارا.

7- وكان مدرسة عصرية بكل المقاييس، ومجهودا جزائريا محضا، يعطي الجزائريين الإحساس بالرضى، وتقنيدا عمليا حضاريا، جاد وسلما للفكر الاستعماري ويكشف كفيات إخضاعه للشعوب عن طريق استغلال جهلها وإلغاء مقوماتها، ويضفي على

الجزائريين الاحساس بالاستقلال والسيادة في كونهم يكتونون بطريقة ما حكومة صغيرة تحت حكم الاحتلال، مستقلة المنشآت والمؤسسات والمرافق، مستقلة الميزانية والموارد والمناهج.

8- وكان التعنيم المكتبي مدرسة تعلم الإنسان الجزائري أن المسلم الصحيح هو الذي لا يصعب عليه أن يكون متقدما راقيا ما بقي دينه محترما وعلى ذلك قى بقية المقومات.

الصحافة:

استخدمتها جمعية العلماء لتكون منبرا للتعبير عن مبادئ الإصلاح الجزائري ومذهبيته في السياسة والدين والاجتماع، ينطلق من شعار واحد دائم هو: الحق فوق كل أحد والوطن قبل كل شيء، ومبدأ عام يقول: نحن قوم مسلمون جزائريون في نطاق مستعمرات الجمهورية الفرنسية.

أ- فالمبدأ السياسي يحدده وصف الاسلام والجزائرية والمستعمرة الفرنسية.

* ومفهوم وصف "الاسلام" عند صحافة الجمعية: العمل على المحافظة على تقاليدنا بالحرص على الأخوة والسلام بين الشعوب وأداء الواجب نحوها في نشر مبادئ الحق العالية وتطهيره من كل ما أحدثه المحدثون والدفاع من أن يمس بسوء من أهله أو من غير أهله.

* ومفهوم وصف "الجزائرية": هو العمل للنم شعث الأمة الجزائرية وإحياء روح القومية في أبنائها بتزغيبهم في العلم النافع والعمل المفيد حتى ينهضوا كأمة لها حق الحياة والانتفاع بما في العالم، وعليها واجب الخدمة والنفع للإنسانية!

* وصف المستعمرة الفرنسية هو: السعي اربط أو اصير المودة بين الأمة الجزائرية الفرنسية، وتحسين العلاقات بين الأمتين المرتبطتين بروابط المصلحة المشتركة.

ب- والمبدأ التهذيبي: نشر المقالات العلمية والأدبية وكل ما يغذي العقول من منظوم ومنثور من صحف الشرق والغرب وأقلام كتّاب الوطن، ومقاومة كل معوج من الأخلاق وفساد من العادات، وتحسين ما كان من أخلاق الأمم حسنا وموافقا لحال الأمة الجزائرية وتقاليدنا ورفض ما كان منها قبيحا.

ج- والمبدأ الانتقادي ومفهومه: النقد الهادف إلى الحقيقة المجردة، المبني على الصدق والإخلاص والنزاهة في الكلام، للحكام والمديرين والنواب والقضاة والعلماء والمقاديم، وكل من يتولى شأنًا عامًا من شؤون الأمة الجزائرية من أصغر صغير إلى أكبر كبير في مجالاتها الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والعلمية والدينية، أما صفاتهم وأشخاصهم وأعمالهم العمومية فلا يتعرض لها بالنقد ولها من الجمعية كل الاحترام.

2- كانت الصحافة منبرا لمعالجة أهم القضايا المصرية للأمة الجزائرية عن طريق:

أ- تجديد العقيدة الإسلامية لدى الجزائريين: « فالأخلاق هي أول ما فسد في الأمة الجزائرية فتكون أول ما أفسد عليها كل شيء فلتكن هي أول ما يهتم بإصلاحية وذلك بمحاربة كل مظاهر الفساد في الدين والافتحاح في الأخلاق، ومحاربة الطرقية، والإلحاد والتنصير» حسب تعبير ابراهيمي في عيون البصائر.

ب- فصل الدين الإسلامي عن الحكومة الفرنسية.

* بتحرير القضاء الإسلامي والأوقاف الإسلامية، والمساجد، "رجال الدين" الإسلامي، وتحرير الحج والصوم، حتى لا تبقى لسلطة الاحتلال يدولا إصبع في التعليم العربي ولا في الشعائر الدينية للجزائريين « حسب تعبير ابراهيمي دائما.

* بكشف مكاييد حكومة الاحتلال لعرقلة تنفيذ قرار الفصل.

- بادعائها اللامكية وهي تتمسك بالاسلام.

- في أنها لم تتول التنفيذ مباشرة وسلّمت ذلك للمجلس الجزائري الذي تنتجه إدارتها.

- في أنها تصطنع رجالا من المسلمين الجزائريين لتطبيق مشاريعها في بث الفرقة والخلاف وتحقق من خلالها:

- تكوين إسلام جزائري مقطوعي الأسباب بماضي المسلمين.

- تكوين طائفة تقوم لها بذلك ممن تسميهم بـ "رجال الدين".

* بكشف ادعائها احترام الاسلام والحفاظ عليه مع أن عشرين ومائة سنة تشهد على أنها لم تعمل عملا ايجابيا يسمى ولو مجازا محافظة على الاسلام وكل ما عملته هو إضعاف للاسلام وإضعاف صلة أهله به .

* بررد ادعائها؛ لاختصومة بين المسلمين الجزائريين وصعوبة إرضاء الجميع في قضية فصل الدين.

3- وكانت منبراً لمعالجة قضايا الأمة العربية والإسلامية:

أ- تنطلق من أن كل وطن عربي أو إسلامي هو قطعة ثمينة من وطن العروبة ومعقل حصين من معقل الإسلام، ومن ثمّ فتعرضها لقضايا هذه الدول هو تعرض لأعمال الاستعمار الأوروبي -الفرنسي- وأساليبه فيها، وأن نصرتها لهذه الدول هي نصرة للحق الذي تشترك معها فيه الأمة الجزائرية، ورفع الغبن الذي يجمعها تحت قبضته عنها.

ب- تبهت الجميع إلى قضية خطيرة هامة تتمثل في وجوب تغيير كلمة خاطئة منتشرة في المجتمعات العربية وهي طلب الاستقلال إلى العمل للاستقلال، لأن طلب الاستقلال في مفهومه العربي كطالب الصدقة إما أن يعطي و إما أن يحرم وأن الاستقلال يؤخذ ولا يعطي.

ج- قدّمت شروط الاستقلال الحقيقية: الإيمان مع التصميم، العمل مع الإصرار، المحافظة عليه بعد الحصول عليه.

4- وكانت الصحافة منبراً صادقاً واعياً وصارماً غاية في الأهمية. غاية في الخطورة على الوجود الاستعماري في الجزائر، لسان حال جمعية العلماء ومن ثمّ لسان حال الأمة الجزائرية، يعبر ويكشف، يندّد ويحتج، يستحثّ المهتم، ويدفع إلى التغيير؛ يقدم وسائل التغيير التي لا تنفج عن مقومات المجتمع الجزائري ومكامن الإباء والكرامة منه، وأماكن النخوة والرجولة فيه والتي ما استطاع الاحتلال الفرنسي إحكام قبضته عليه إلا بمحاربتها فيه.

وهدفت صحافة جمعية العلماء إلى إحداث ثورة عامة وشاملة في العقول والقلوب، تخلق الإحساس بذنب التفريط وتبعث الشعور بمسؤولية العودة الصحيحة إلى مواقع الأصالة لتتخذ من «يد قواعد نهضة عامة وثورة على أسباب الانحطاط ومظاهر الاستغلال ومحاربة الاحتلال في كل وسائله.

وقد قدّم التأليف عند جمعية العلماء الصياغة العلمية، الجادة والحضارية للمذهبية الإصلاحية الجزائرية في مجالات الدين والسياسة والتاريخ والوطنية.

1- لقد كان كتاب "محاليس التذكير" للإمام عبد الحميد بن باديس:

دليلا علميا شاملا اختيرت موادّه بعناية فائقة. وذكاء مدرّوس، وبنيت على تسلسل منطقي لمعطيات الواقع الجزائري الاجتماعية والنفسية وسنن التدرّج، وتصنيف أولويات عملية التغيير، وحددت بمقياس جغرافي لحلّ أزمة قد تتجدّد انطلاقا من إدراك العلماء بأنهم إنّما يعلمون لنهضة أمة، وبعث جيل، وأنهم كما حاسبوا الأجداد على تقصيرهم، فإن الأجيال اللاحقة ستحاسبهم إذا قصرُوا...

ب- عرضا اجتماعيا للقيم القرآنية يستجيب لحاجة الإنسان الجزائري ويثبت له صلاح العقيدة الإسلامية -عقيدته- حياة الجماعة البشرية في اختلاف الأجيال والأزمنة.
ج- تسليحا للشباب الجزائري بالحجة والبيّنة العلمية التي ينتج عنها راحة نفسية ضد حملات التبييس الفرنسية، وحصانة دون التأثير بها، وتبديد الشبهات والبدع التي يروجها مستشرقوا الاحتلال وصحافيوه ومن شأنها إسعاف نفوس الجزائريين وتزويدهم بالمعلومات الإسلامية الصحيحة التي تحول دون التفرير بهم.

د- مجهودا جزائريا نهضويا يسجّل مساهمة الجزائر في النهضة العربية والإسلامية، من شأنه إعادة تربيته أنظار الجزائريين إلى عظمة هذا العمل الشريّف في وطنهم.

2- وكان كتاب "رسالة الشرك ومظاهره" للأستاذ مبارك الميلي الهلالي

أ- مجهودا علميا جادا لحفظ التوحيد في الجزائر يعتمد على الكتاب والسنة طريقة وأسلوبا، ومواجهة لعقائد الفاسدة والبدع الزائفة التي استغل بها الطرقيون في الزعامة الروحية للأمة الجزائرية من غير كفاءة علمية ولا هداية إسلامية وسطوا بها على العلماء العارفين فأنكروا عليهم تذكيرهم للجزائريين المسلمين بالدين الحق.

ب- وتفنيدا لما يروجه الطرقيون فتحذير الجزائريين من مظاهر الشرك لا يعني وصفهم به، وبيان ذلك مخاضبة القرآن الكريم للمسلم باجتنب الشرك وأمره بالتوحيد ليس من الحكم عليه بالوثنية ولا التعريض به لاشتماله عليهما مع التأكيد بأنّ نطق الجاهل بالشهادتين لا يمنع عنه وصف الشرك.

ج- أداء لأمانة التبليغ، وقياما بواجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ورجاءا لإصلاح المسلمين الجزائريين حتى لا يكونوا حجّة على الإسلام ولا سبّة بأفواه المتمدّنين.

د- قاعدة علمية، وسلاحا فعالا لتهيء الأرضية السليمة لإيديولوجية التغيير الجادة الذي يبدأ بإصلاح النفوس ورأب ما في الجبهة الداخلية من تصدع وخلاف وينضى في النهاية إلى التحرر من كل أسباب الهيمنة الروحية والمادية.

3- وكان كتاب "تاريخ الجزائر في القديم والحديث" للأستاذ مبارك الميلي

الهلاي:

أ- أول مصدر علمي في تاريخ الجزائر باللغة العربية، يقدم للشباب الجزائري خلاصات تاريخية علمية، ودقيقة توصله إلى حقيقة ناصعة تتمثل في: أن الأمة الجزائرية متكوّنة موجودة كما تكوّنت ووجدت كل أمم الدنيا، ولهذا الأمة تاريخها الحافل بجلائل الأعمال ولها وحدتها الدينية والتغوية، ولها ثقافتها الخاصة وعوائدها وأخلاقها بما فيها من حسن وقبيح شأن كل أمة في الدنيا، ومن ثمّ بيان أن للجزائريين رغم الحكم الأجنبي - الاحتلال الفرنسي تاريخا يجب أن يكونوا فحورين به.

ب- تنبيهها للجزائريين والشباب منهم خاصة خطورة جهلهم لتاريخ بلادهم مع معرفتهم لتاريخ البلاد الأجنبية أو تقديمهم له عليه أو اقتصارهم عليه، فهو يدفعهم إلى الحكم غير المنطقي والقاسي على تاريخ بلادهم وقطع الصلّة بينهم وبين ماضيهم وجاهل ما في هذا الماضي من عزّ وذلّ ونعيم وبؤس، وقصر الكمال والسيادة على الأمم الأخرى وحصر المعارف والحضارة فيها فيزهدهم في وطنهم وينفّرهم من بني جنسهم.

ج- دعوة للشباب الجزائري المتعلّم في المدارس الحكومية الفرنسية أو العربية أو بالزوايا والمساجد إلى استكمال ما ينقصهم في علم التاريخ ليهتدي جميعهم إلى حقيقة بني جنسهم ويذهب عنهم القنوط واليأس ولم يسد أمامهم طرق العمل ويفتح لأنفسهم أبوابا واسعة للأمل.

د- تاريخ الجزائر في القديم والحديث: بيان لكيفية تعامل المؤرخين الفرنسيين مع التاريخ الجزائري وكشف لدعواهم الدقة والنزاهة والموضوعية، وتنبية لحقيقتهم بكونهم أداة تحتال للاستعمار وتكذب على الحقيقة وتطمسها عن الجزائريين والرأي العام، أما أسباب ذلك فتكمن في التعصّب الجنسي، أو حب التفوق واستعباد الغير، أو الجهل

بالمصادر الصحيحة للتاريخ الجزائري، ومادام منهجهم الغاية تبرر الوسيلة فإنهم لا يسألون في خدمة شعوبهم بتضليل أفكار غيرهم ومصادرة الواقع.

هـ- كتاب تاريخ الجزائر في القديم والحديث، درس في الوطنية الصحيحة بناها صاحبه في :

- * وجوب احترام الوطنيات الأخرى.
- * وجوب الإقبال على تاريخ الوطن وقوميته بالاطلاع والمدارسة والإحاطة، ويمسّن تقديم تاريخ الوطن على غيره من تاريخ الأمم الأخرى.
- * وجوب الوقوف موقف الحذر من كتب الأجانب في تناولهم لتاريخ الوطن فلكل منهم مصلحة أو غرض في تشويهه جهلاً أو قصداً.
- * التزام النزاهة بعدم تنفير الغير من قراءتها والاستعانة بالذكاء في تمييز الطيب من الخبيث بأخذ ما يفيد والتنبيه إلى خطر ما لا يفيد.
- * التعامل مع الماضي بحسن الظن وثقة الإبن بوالده وعرفان اللاحق بجهد السابق.
- * الدفاع عن الماضي بالعلم والحجة والمصادر الصحيحة في التاريخ.
- * عدم تعجّل النتائج في التغيير وليكن الدليل في ذلك العمل الدائم والأمل الدائم.
- * كتاب "تقويم الأخلاق" للأستاذ محمد العابد الجليلي: مجهود جاد آخر من علماء الجمعية ووسيلة علمية لخدمة الثقافة الجزائرية ومتابعة جهود الجزائريين في مجال التأليف ودليل على انتعاش حركة الثقافة ووعي الجزائريين بأبعادها.
- * كتاب ديوان محمد العيد آل خليفة: مساهمة أخرى هامة تشير إلى أن النهضة الأدبية كانت تسابق الإصلاح الديني وتغذيّه، ودليل على أن النهضة في الجزائر كانت شاملة فكما كان لها منظروها وخطباؤها ومؤرخوها وصحافيوها وأمتها ومدرسوها فقد كان لها شعراؤها الذين أضفوا على الحركة الإصلاحية في جانبها الفكّي لمسات من بلاغة وسحر البيان العربي.

وبهذا تكون وسائل جمعية العلماء المسلمين الجزائريين قد ساهمت كل منها في صياغة جانب من جوانب استراتيجية الجمعية في نظرتها للأزمة الجزائرية تحت حكم الاحتلال الفرنسي وقدمت على ضوئها صياغة إعطيات المعركة في الميدان الديني

والسياسي والثقافي وصياغة منهج تغيير ضمن مشروع لمجتمع وبرنامج لبعث أمة وأجهزة لحكومة متكاملة بشكل ما.

وبعد، فقد اعتمد البحث في إقرار هذه النتائج في المعنويات والماديات على مصادر الجمعية نفسها ويبقى الحكم على نجاحها من فشلها فإن ما تحقق منها قد شهدت عليه الأرقام الواقعية وحركة النشاط والوعي الملموس. ولم يفت رئيس الجمعية في الإشارة إلى هذا الموضوع بعد عرض نتائج أعمالها في مختلف الميادين قائلا: «ولا نقول رجحنا أو خسرنا، فالربح والخسارة من مفردات قاموس التجار، أما الجهاد الذي غايته تثبيت الحقائق الإلهية في الأرض وغرس البذور الروحية في الوجود فلفته سماوية لا تحمل معاني الزاب متسامية لا تسف إلى ما تحت السحاب، وأما المجاهدون في ذلك السبيل، فلا يعدون الربح والخسارة في آرائهم، ولا يدخلون الوقت طال أم قصر في حسابهم»⁽¹⁾.

فجهود علماء جمعية العلماء المسلمين الجزائريين حلقة في حركة جهود علماء الإصلاح الإسلامي في الجزائر، وقاعدة بنيت عليها مراحل جهاد قاس وطويل ضد الاحتلال الفرنسي في مختلف أبعاده الحضارية، وفصل هام من فصول معركة التحرير الجزائري الكبرى.

(1) آثار محمد البشير الإبراهيمي، مصدر سابق، ج.1، ص 276.

الملحقات

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الملحق رقم 1 :

هذه مناداة من سار عسكر أمير الجيوش الفرنسية إلى سكان الجزائر وأهالي القبائل

بسم الله المبدي المعيد وبه نستعين

يا أيها ساداتي القضاة والأشراف والعلماء وأكابر المشايخ والاختيارية أقبولوا مني أكمل السلام وأشمل على

أشراف قلبي بمزيد العز والاكرام أما بعد :

اعلموا هداكم الله إلى الرشيد والصواب سعادة سلطان فرانسى مخدومي وعزة جنابه الأعلى عز نصره قد أنعم عليّ بتوليته أيادي منصب سار عسكر ويا أعز أصدقائنا ومحبينا سكان الجزائر ومن ينتمي إليكم من شعب المغاربة أن الباشا حاكمكم من حيث أنه تجراء على بهدلة بيرق فرانسى المستحق كل الاعتبار وإقدام على إهاتته فقد سبب مجهله هذا كل ما هو عتيد أن يحلّ بكم من الكوارث والمضرات لكونه دعى عليكم الحرب من قبلنا فإن عزة اقتدار سلطان فرانسى دام ملكه نزع الله من قلبه ورأفته المعروفة المشهورة فلا بد أن هذا الباشا حاكمكم من قلة بصيرته وعمارة قلبه قد جذب على نفسه الانتقام المهول وقد دنا منه القدر المقدر عليه وعن قريب يحلّ به ما استحقه من العذاب المهين. أما أنتم يا شعب المغاربة اعلموا وتأكدوا يقينا أنني لست أتيا لأحلّ محاربتكم فعليكم أن لا تزالوا آمنين ومطمئنين في ماكنكم وكل ما لكم من الصنائع والحرف براحة سرتم إنني أحقق لكم أنه ليس فينا من يريد بضرركم لا في مالكم ولا في أعيالكم ومما أضمن لكم أن بلادكم وأراضيكم وبساتينكم وحواشيتكم وكل ما هو لكم صغيرا كان أو كبيرا يبقى هلى ما هو عليه ولا يتعرض لشيء من ذلك جميعه أحد من قومنا بل ويكون في أيديكم دائما فآمنوا بصدق كلامي ثم إننا نضمن لكم أيضا ونعدكم وعدا مؤكدا غير متغير ولا متأول أن جوامعكم ومساحدكم لا تزال معهودة معمورة على ما هي الآن عليه وأكثر وأنه لا يتعرض لكم في أمور دينكم وعبادتكم فإن حضورنا عندكم ليس هو لأجل محاربتكم وإنما قصدنا محاربة باشتكم الذي بدأ وأظهر العداوة والبغضاء وما لا يخفى عليكم غاية تحكمه وقبح طبعه المشوروم ولا ينبغي لنا أن نطلعكم على أخلاقه الذميمة وأعماله الرذيلة فإنه واضح لديكم لأنه لا يسعى إلا على خراب بلادكم ودنارها وتضييع أموالكم وأنفسكم. ومن المعلوم أنه إما يريد أن يجعلكم من الفقراء المنحوسين المبهدين الخاسرين أكثر من المسخط عليهم، فمن أعجب الأمور كيف يغيب عنكم أن باشتكم لا يقصد الخير إلا لذاته والدليل كون أحسن العمارات والأراضي والخيل والسلاح واللبس والحلي وما أشبه من شأنه وحده فيا أيها أحيابنا سكان المغرب أنه عزّ وجلّ ما سمح بأن يصدر من باشتكم الظالم ما فعله من أعمال الخيبت والردى إلا انعاما منه سبحانه وتعالى حتى تحصلوا بهلاكه وبزوال سلطته على كل خير ويفرّج عنكم ما أنتم من الغمّ والشدة وإذ الحال هذه أسرعوا واغتنموا الفرصة ولا تعمى أبصاركم عما أرسفه الله عليكم من نور اليسر والخلاص ولا تغفلوا عما فيه مصلحتكم بل استيقظوا لكي تتركوا باشتكم هذا وتبعوا شورنا الذي يؤول إلى خيركم ومصلحتكم وتحققوا أنه تعالى لا يبغى قط ضرر خليقة بل يريد أن كل واحد يرايه يجوز ما يخصه من امر نعمه التي سبغها على سكان أرضه .

يا أيها أهل السلام إن كلامنا هذا صادر عن الحب الكامل وأنه مشتمل على السلاح والمودة إذا شيعتم مراسيلكم إلى أوردينا حينئذ نكنتم والمرجو من الله تعالى أن عبادتنا مع بعضنا بعضا تزول إلى ما فيه منافعكم وصلاحيكم وعظمنا بالله أنكم بهد ما تحققتم أن مقاصدنا وغايتنا الفريدة ليست هي سوى خيركم ومنفعتكم تشيعوا لنا صحة مراسيلكم كل ما يحتاج إليه عسكرنا المنصور من الذخائر ما بين طحين وسمن وزيت وعجول وغنم وخيل وشعير وما يشبهه وحين رسلت مراسلاتكم هذه إينا فحالا ندفع النمن فلوسا تقديبه على ما تريدون وأكثر هذا وإما إن كان منكم معاذ الله خلاف ذلك فتشاروا محاربتنا ومقارمتنا اعلموا أن كل ما يصيبكم من المكروه والشر إنما يكون سببه من ديهتكم فلا تلوموا إلا أنفسكم فأيقنوا أنه ضد إرادتنا فليكون عندكم محققا أن عساكرنا المنصورة تحيط بكم بأيسر مرام ودون تعب وأن الله يسلطها عليكم فإنه تعالى كما أنه يأمر من يجعل لهم النصر والظفر بالرحمة والمساعدة على الضعفاء المظلومين فكذلك يحكم بأشد العذاب على المفسدين في الأرض العائنين على البلاد فلا بد أنكم أن تعرضتم لنا بالعداوة والشر هلكنم عن آخركم.

هنا أيها السادة ما بنا لي أن أكلمكم به فهو نصيحة مني إليكم وأيقنوا يقينا مؤكدا أن كلام سلطاننا المنصور المحفوظ من الله تعالى غير ممكن تغييره لأنه مقدر والمقدر لا بد أن يكون والسلام على من سمع وأطاع.

* ورد هنا المنشور :

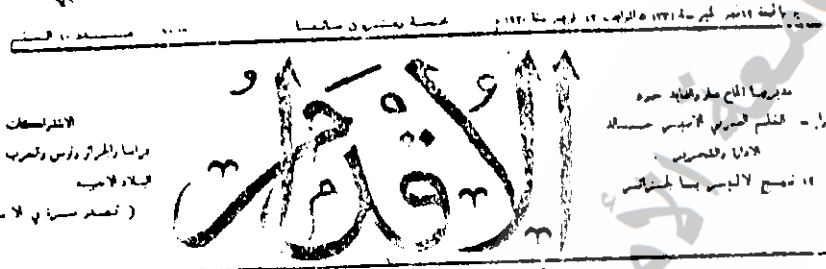
- أحمد توفيق المدني، مذكرات الحاج أحمد الشريف الزهاري، المرجع السابق، ص 177.
- أبو القاسم سعد الله، الحركة الوطنية، ج2، مرجع سابق، ص 443 (تغير بسبب في صياغته)

الملحق رقم 2 :

برنامج الأمير خالد الذي ضمته رسالته إلى رئيس الجمهورية الفرنسية "هيريو" Edouard Herriot في سنة 1924م(*) .

- 1- مساواة التمثيل النيابي في البرلمان الفرنسي بين الجزائريين والأوروبيين القاطنين بالجزائر.
- 2- إلغاء القوانين والاجراءات الاستثنائية الخاصة بالجزائريين في المحاكم الرادعة والمحاكم الجنائية إلغاء كاملا نهائيا...
- 3- نفس الحقوق والواجبات مع الأوروبيين في الخدمة العسكرية.
- 4- ارتقاء الجزائريين إلى جميع الرتب المدنية والعسكرية دون تقييد ذلك بشرط سوى الكفاءة والمقدرة الشخصية.
- 5- تطبيق قانون التعليم الإلزامي تطبيقا شاملا على الجزائريين مع الاحتفاظ بحرية الاختبار في نوع التعليم
- 6- حرية الصحافة والاجتماع.
- 7- تطبيق قانون فصل الدين عن الدولة على الشريعة الإسلامية.
- 8- عفو عام عن المعتقلين والمتهمين.
- 9- تطبيق القوانين الاجتماعية والعمالية على الجزائريين.
- 10- الحرية المطلقة للعمال الجزائريين من جميع الحرف والمهن في الذهاب إلى فرنسا.

الملاحق رقم 2: صورة "الجريدة الإقدام" التي كان يحرقها الأمير خالد



أروبا الترابية قد انحطت فبنتها ولدهن
 لا يوسعة نمل . وحيث أنه في وقت ضحك
 من النسيب أن لا تتأهل من نال هذه الحيات
 التي تتأهل على النوبين .
 واستاء اليونان على سواحل جزر اللمر
 قطع سبل المواصلات ما بين الأستانة
 والأخول وتوعدت كذلك بسببه مع تبديل
 العملة الخلوبات الأروبية هذه الحالة مصرحة
 المصانع الأروباوين .
 ملاءب من رد المواصلات بين الأستانة
 والأصول ووجه آخر للمحافظة على
 المصانع الانتصارية الأروباوية وما ارتكبت
 من سوء المعاملة مع بلجيم في جعلوا
 هذا الحالة الحاضرة .
 فدعوا أن ينادى بالتشروع في هذا العمل
 وتضم العروة لرفع قدرها الذي هو في
 غاية التضخم عند العالم الإسلامي .

الغسوايين الزجرحة
 أقال برلي من باوزير محفرا في مجلس
 النواب في جلته 8 ويا من الحادي استنزل
 بساكة حبل للفاخرة مع الضامن من المبعوث
 مسيو موتي الذي احتضن له في الحفلة
 الأخيرة من احتفالات الفاروط بان مجلس
 النواب وتمت منه بدون أي معاورة على
 تعدد القوانين الزجرحة: فوضع طلبه في
 زوايا العموم وبين المجلس للذكر في الغارة
 يوم شهر ديسمبر القابل .
 ونسأ الأمل الوطيد والثقة الثابتة في
 مجلس النواب صاحب العدل والأصناف
 التي برهت أوجه مرارا وحاله الصمام مولاهم
 للأخائي الخرازيين للخلصين لام الوطن
 وفرنسا .

الحسوات الداخلية
 لفضة لتصاوية
 تشكلت حول الله مع فوتمتركة تجارية
 في مدينة فلسطينية جهة القروطنية الثبور والتاجر
 الجبير الشير السيد ابن وطاهب عبد الحق
 السطبي من أبنان حجاز ماس صاحب
 الثبور والتبع الطويل في من التجارة ولله

الفرش السوطيني
 بما أن الأماهي ضحوا الأقبس العزيزة
 وادعوا الأحوال والشان وسماوكم لهم
 1. سبيل اللطافة من حرية وسيطرة وديعة
 وثالثا الأبل مكي يحظر ياك كل عامل
 لهم يتأخرون عن بقل مالهكت أماتهم لام
 الوطن العزيز لينتفي لها اصلاح ما يفسده
 المثر الأسيرة الموتة وتبما تنجح للألبا
 الوسيطة ما عرض عليها جبرا وفنصرا في
 داواسة ما أهدته أيدبها السوردل من الخراب
 والبساد التي لم يهدت له في تاريخ الدول
 البليدة ولا نيك بأن الحرة المناجيس
 الخبز من لثاوية تسولهم على التنازح
 لومس الكويس ثبية لندل مؤلهم البديهة كما
 تنصح في سعادة الوطن الإقدام

الحسوات الخرازية
 صد حشوق في حين الاسم
 من وجزيرة لا لا لانسور من المناجيس
 اليونانية في بلاد الأندول . عند حرسيت
 نعم الجيوش اليونانية في الأندول صرحت
 أساوم اليونانية بان ما أتخذت من الاحتياطات
 هو بمعد توطيد الترتيب والأمن في الولاية
 الأندول . ولكن بين في هذا الاحتفال
 قد حل في الاستعمار . ان حرفة القديام
 التركية وضحت في عدة مقالات بكيفية التصاوية
 أسطر القاشي . من مزايا الأمازة العسكرية
 اليونانية ومن جهة أخرى ان المسألة صرحت
 لأنها ليست مخلصه فعدا بحرة ماله لمصالح
 تركيا الليانية بل بالأمر الخيرية المحلية
 للملاحين بلتمت عدالت كالأصلاص لعموم
 من جهة التجارة اليونانية . فلا شك في لصالح
 اليونانيين بين حطة الأمم أمثال .
 قالت حربة : وعدم أهميا لنت العمومات
 للوجه عند الأثر التي تجت بر الأدارة اليونانية
 ان الملاحين وروس إيجوش يتخلصوا
 حشرك الوابع العذاب فعلا من مزارعتهم
 لراهميه وورشك من ذلك تراعات نتيجتها
 وحبيبه وتكون مرة لتعزق منوشة الامن في
 البلدان وخموصا عند نشر بلغاريا لإيكاروا
 للمضادة للونان والمخربة لرمسكيا حسنا
 صرحت حربة تا صيره . له وليحتودو
 بلشاري .

والفالمس من شيم السورس
 قد نزل به القذات . العظيم تحت حناص صعل
 حرمه - ونا الأهل نطاب وناج البعل وسام الإصلاح
 وروى من جمع أمما اللغة شرب الإنساني نادر العمل
 في مع هلم وعال الخلم في صوم الألام وتنت في صفاة
 من بترت هذه ال في صناع عس الجهر الصفاة وصل
 أصل المصنفة القوية . . في صرحت كما صعدا وروس
 الألام صعدا في موضع الأمام موز القليل والمان أجمع
 أورا لانسار ونا حدة الحرب عالا نا يدي من الألام صم
 الألية ساسا يرك الحرب ضريرة خطه وحسن عنه وصل
 انه وطفة راته معد لكل الرهنة ويول لكل وطف حشا
 ومن ترك على صفاة هلميه جسر طورا مشرا لوت حربة .
 بان يا ستر اجزل ال صفاة لانسار وصفاة القم وسكا
 لانت صرود حرمه من في اصلاح وصل موز
 وبل الخرواني من الشكر وحس اللطف والألام وصل
 وبل من برك الصبح . . وعلك عسكة بنهري ال المبر
 والمزون والقروا ويمن في الشكر والذكور المنصور .
 حربة . . والمخا المنة في الأمام راحة ليلين . .
 وأدرا ان شرفنا حشمة لانسار عسك ويطم وأنضم
 وحس الأمان جاكم . . ذلك لانسار في حشمة
 في بلاد وطفه بهر لني حبل لامل اللطف الذي راحته
 على في الأمان وديهم حبل قربة ويزرع في مزارعهم
 في الخلق بوايد حبه في صمك وشك وهمما راحة في
 للمدكس صم . . مينا ثروة لامل والصب وملاسا
 في الأمان لامل مزا وعلانية . صفة لانسار في حشمة راحة
 في في الأمان لامل في اللطف المنة وقدمه من لانسار
 ووطن بلن وصل . .
 جادا لا يترها بوزلا على في حرية لا في صرحت
 وأصرت من طرف بلتم منلهم لأول . حشمة لانسار
 تدعنا في ذلك وعلك بالذكية الصم جعلت هذا الأمان وما
 حياها قلا وصفاة صفاة وطف ال ماس في . .

الفرش السوطيني
 بما أن الأماهي ضحوا الأقبس العزيزة
 وادعوا الأحوال والشان وسماوكم لهم
 1. سبيل اللطافة من حرية وسيطرة وديعة
 وثالثا الأبل مكي يحظر ياك كل عامل
 لهم يتأخرون عن بقل مالهكت أماتهم لام
 الوطن العزيز لينتفي لها اصلاح ما يفسده
 المثر الأسيرة الموتة وتبما تنجح للألبا
 الوسيطة ما عرض عليها جبرا وفنصرا في
 داواسة ما أهدته أيدبها السوردل من الخراب
 والبساد التي لم يهدت له في تاريخ الدول
 البليدة ولا نيك بأن الحرة المناجيس
 الخبز من لثاوية تسولهم على التنازح
 لومس الكويس ثبية لندل مؤلهم البديهة كما
 تنصح في سعادة الوطن الإقدام

الملحق رقم 4:

- >> الميثاق المطالب للشعب الجزائري المسلم <<(*) المنبثق عن المؤتمر الاسلامي المنعقد في 7 جوان 1936. يصدّق المؤتمر على :
- 1- إلغاء جميع القوانين الاستثنائية.
 - 2- الضم المحض والمطلق لفرنسا مع إلغاء المؤسسات الخاصة:م مجلس المندوبين الماليين والبلديات المترجة والولاية العامة.
 - 3- ابقاء قانون الأحوال الشخصية: بإعادة تنظيم إدارة العدل الاسلامي حسب مفهوم عقلائي يتفق وروح الشريعة الاسلامية.
 - فصل الكنيسة عن الدولة: تطبيق جميع القوانين القائمة بموجب هذا المبدأ
 - إعادة جميع المؤسسات الدينية بصفة عاجلة لمجموع المسلمين الذين يتمتعون بها ويتصون فيها بواسطة الجمعيات الخيرية المشكّلة قانونا.
 - ترميم المؤسسات الدينية ودفع أحوار القائمين بها من دخل أموال الأوقاف
 - إلغاء جميع الاجراءات الاستثنائية المتعلقة باللغة العربية والرامية إلى اعتبارها أجنبية
 - حرية التعليم باللغة العربية وحرية التعبير للصحافة العربية.
- 4- مطالب اجتماعية:
- التعليم الإلزامي لجميع الأطفال ذكور وإناث والشروع العاجل لتحقيق برنامج واسع من البناءات المدرسية.
 - دمج المعلمين: الأروبي والأهلي، تطوير خدمات الاسعاف: مستشفيات، مصحات، محمّضات (إعادة تنظيم النظام الراهن)، ومطاعم للمساكين.
 - إنشاء صناديق البطالة لجميع البطالين.
- 5- مطالب اقتصادية:
- أ- لعمّل مماثل، أحر مماثل
 - ب- لاستحقاق مماثل. رتبة مماثلة
 - ج- توزيع المساعدة الناتجة عن الميزانية الجزائرية للزراعة والتجارة والصناعة الحديثة والصناعة التقليدية حسب الحاجات ودونها أي تمييز من حيث الأصل.

راجع: الجيلالي صاري، محفوظ قداش، المقاومة السياسية 1900-1954، ص 31-32-33.

ومحمد الطيب العلوي، المرجع السابق، ص 142-143. مع ملاحظة تغيير في صيغة بعض انقاط، مثلا: جاء في المطلب الثالث الخاص بالأحوال لاشخصية : >> فصل الدين عن الدولة بصفة تامة، وتنفيذ هذا القانون حسب مفهومه ومنطوقه << نم وصف المطالب بالاصلاحات..

د- إنشاء تعاونيات زراعية ومراكز ومراكز تشييف الفلاح.

هـ ايقاف كل العجز

و- توزيع المزارع الكبرى غير المستغلة بين الفلاحين الصغار والعمال الزراعيين.

ز- إلغاء القانون الغابي.

6- المطالب السياسة :

أ- اعلان العفو السياسي العام

ب- توحيد هيئة الناخبين في سائر الانتخابات

ج- إعطاء الحق لكل ناخب في ترشيح نفسه

د- النيابة في مجلس الأمة.

عبد القادر للعلوم الإسلامية

الملحق رقم 5: مطالب "البيان" (*)

- 1- إداة الاستعمار والقضاء عليه.
- 2- تطبيق تقرير المسير لجميع الشعوب الصغيرة منها والكبيرة
- 3- منح الجزائر دستورا خاصا بها يضمن لها :
 - أ- حرية جميع السكان والمساراة بينهم بدون ميز حنسي ولا ديني.
 - ب- إلغاء الإقطاعية الفلاحية وذلك بإصلاح زراعي واسع النطاق يضمن الرفاهية والرخاء لسواد الجماهير الفلاحية.
 - ج- الاعتراف باللغة العربية كلغة رسمية بجانب اللغة الفرنسية.
 - د- حرية الصحافة وحق الاجتماع.
 - هـ- التعليم المجاني والإجباري لجميع الأطفال ذكورا وإناثا.
 - و- حرية الدين لجميع السكان، وتطبيق قانون فصل الدين عن الحكومة على الديانة الإسلامية.
 - ز- مشاركة المسلمين في حكم بلادهم مشاركة عاجلة وفعلية في جو من الوثام والوفاق.
 - ن- إطلاق سراح جميع المعتقلين السياسيين من جميع الأحزاب.

ملاحظة 1 : تمّ تبليغ البيان في 31 مارس 1943م وسلّم إلى الوالي العام مارسال بيروتون Marcelle Perthon، وسلّمت نسخ منه إلى ممثلي الولايات المتحدة، وإنجلترا، وروسيا وإلى الجنرال دوغول De Gaule، وإلى الحكومة المصرية.

ملاحظة 2: لقد وقع على هذا البيان كل من حزب الشعب الجزائري، وجمعية العلماء المسلمين الجزائريين بدون صعوبة، والمتخبون بدون إقناع ومناقشة.

الملحق رقم 6:

ملحق البيان (*) : يتضمن فصلين: إصلاحات آجلة يتم إنجازها بعد نهاية الحرب العالمية الثانية، وإصلاحات عاجلة وهي كما يلي :

- 1- تحويل الولاية العامة إلى حكومة جزائرية، وتحويل الإدارات الحالية إلى وزارات، تقليد الوالي العام رئاسة الحكومة، ويكون بمثابة سفير فرنسا في الجزائر ومندوبها السامي.
- 2- تمثيل المسلمين والفرنسيين في الجمعيات المنتخبة وفي كل المجالس.
- 3- الإدارة النائية للدواوير والقرى وتصبح الجماعة مجلسا بلديا، وشيخها هو رئيس الدواير.
- 4- منح المسلمين جميع الوظائف ومنها وظائف السلطة ومساراتهم مع الفرنسيين في شروط الانخراط في سلك الوظيفة العمومية والترقية والرواتب والتقاعد.. إلخ.
- 5- إلغاء جميع القوانين والاجراءات الاستثنائية، وتطبيق القانون العام في نطاق التشريع الجزائري.
- 6- إلغاء التحنيد الأهلي والخدمة العسكرية.
- 7- إعطاء الراية الجزائرية للجيوش الجزائرية التي تحارب في جيش الحلفاء لرفع معنويات الجنود الجزائريين.

ملاحظة 1 : أضيف "الملحق" للبيان" بعد الترحيب الذي لقيه البيان.

ملاحظة 2 : تضمن الملحق الملاحظات والشروط التي تقدم بها حزب الشعب الجزائري.

ملاحظة 3: مهمة الملحق توضيح بعض المطالب وتدعيم الاتجاه الوطني وتسجيل رغبة مسؤولي حزب الشعب الجزائري في النص على نولة جزائرية.

الملحق رقم 7:

مطالب نجم الشمال الفريقي في نصّها الأول(*)

- 1- إلغاء قانون الانديجينا مع جميع توابعه.
- 2- حق الانتخاب والترشيح في جميع المجالس ومن بينها البرلمان الفرنسي بنفس الحق الذي يتمتع به المواطن الفرنسي.
- 3- إلغاء تام وعام لجميع القوانين الاستثنائية، والمحاكم الزجرية والمجالس الجنائية والمراقبة الإدارية، وذلك بالرجوع إلى القوانين العامة.
- 4- إلغاء التمييز العنصري بين الفرنسيين وغيرهم من الشعوب.
- 5- توصل المسلمين الجزائريين لجميع الرتب المدنية والعسكرية من دون تمييز سوى الكفاءة والمهارة الشخصية.
- 6- التطبيق العام لقانون التعليم الاجباري مع حرية التعليم لجميع الأهالي.
- 7- حرية الصحافة والجمعيات.
- 8- تطبيق قانون فصل الدين عن الحكومة فيما يخص الدين الإسلامي.
- 9- الحرية التامة للعمال الأهالي بالتنقل في فرنسا أو إلى الخارج من غير إحصاءات أخرى، غير ما يتطلب من مواطن آخر.
- 10- تطبيق القوانين الاجتماعية والعمالية على الأهالي.
- 11- يجب تليق قوانين العفو الماضية والآتية على الأهالي مثل غيرهم من المواطنين.

(*) محمد قنانش، محفوظ قنانش، المرجع السابق، ص 41.

الملحق رقم 8:

مطالب الجزائريين على لسان حزب "نجم شمال إفريقيا"

في مؤتمر العادي للامبرالية في بروكسل في 25 فيفري 1927 (*)

التوصيات المباشرة :

- 1- الإلغاء الفوري لقانون المستعمرين البضع ولكل التدابير الاستثنائية.
- 2- العفو عن كل المسجونين، ومن تحت المراقبة الخاصة، أو المنفيين، لمخالفتهم قانون إدارة المستعمرين أو مجرم سياسي.
- 3- حرية السفر المطلقة إلى فرنسا والخارج.
- 4- حرية الصحافة والتجمع، والاجتماع، والحقوق السياسية والنقابية.
- 5- استبدال المفوضات المالية المنتخبة بالاقتراع المحدود ببرلمان وطني جزائري منتخب بالاقتراع العام.
- 6- إلغاء الكومونات المختلطة والأراضي العسكرية واستبدال هذه الهيئات بجمعيات بلدية منتخب بالاقتراع العام.
- 7- وصول كل الجزائريين لكل الوظائف العامة من دون أي تمييز، ومساواة الجميع في الرواتب بالنسبة للوظيفة الواحدة.
- 8- التعليم الإلزامي باللغة العربية، واطاحة الوصول إلى التعليم بكل درجاته وإنشاء مدارس عربية حديثة، كل الصكوك يجب أن يتم تحريرها باللغتين في آن واحد.
- 9- تطبيق القوانين الاجتماعية والعمالية، الحق في مساعدات البطالة للعائلات الجزائرية في الجزائر في الإعانات العائلية.

البرنامج السياسي :

- 1- استقلال الجزائر الكامل.
- 2- الانسحاب الكامل لقوات الاحتلال.
- 3- تكوين جيش وطني وحكومة ثورية، وجمعية دستورية منتخبة بالاقتراع العام.
- الاقتراع العام على كل الدرجات، وحق كل سكان الجزائر بالترشح لكل الجمعيات .
- اعتبار اللغة العربية لغة رسمية.
- 4- تسليم الدولة الجزائرية كامل المصاريف والمناجم وسكك الحديد والمرافق التي كان الفاتحون (****) (الغزاة) قد استولوا عليها.
- 5- مصادرة الملكيات الكبرى التي استولى عليها الإقطاعيون المتحالون مع الفاتحين(****) (الغزاة)، والمعمرن والشركات المالية، وإعادة المصادرة إلى الفلاحين. احترام الملكيتين الوسطى والصغيرة. إعادة الأراضي التي كانت استولت عليها الدولة الفرنسية إلى الدولة الجزائرية.

- 6- التعليم الجهاني والالزامي على كل الدرجات باللغة العربية.
- 7- إعتراف الدولة الجزائرية بالحق النقابي في الاتحاد والإضراب ومن قوانين اجتماعية.
- 8- مساعدة مباشرة للفلاحين بتخصيص الزراعة بالقروض من دون فائدة لشراء الآلات والبذور الأسمدة، تنظيم الري وتحسين طرق المواصلات.. الخ (هكذا).

(*) محمد حربي، المرجع السابق، ص 26-27.

ملاحظات : (**) وردت هذه المطالب بصياغة أخرى خاصة المطالب السياسية منها، لكن باختلاف في تاريخ انعقاد مؤتمر بروكسيل الذي جعله بين 10-15 فيفري 1927م.

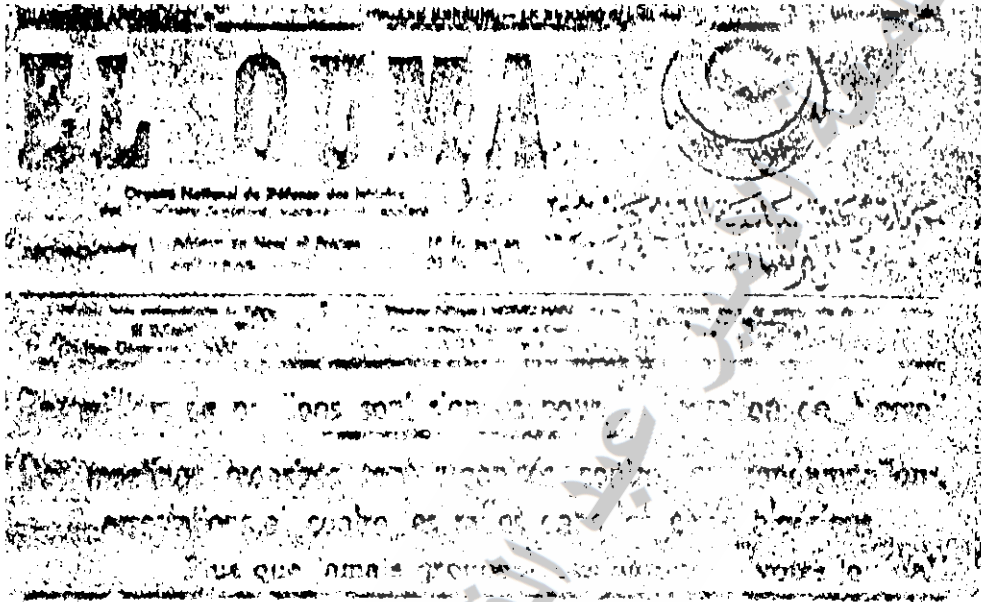
أنظر: محمد قنانش، محفوظ قداش، المرجع السابق، ص 48-49.

(***) هذه هي المطالب بنفسها التي حددها البرنامج السياسي والقوانين الداخلية والمطالب المستعجلة يوم انعقاد مؤتمر نجم الشمال الافريقي في 28 ماي 1933.

انظر المرجع نفسه ص 56-57 مع تغيير النقطة رقم (9).

(****) لاحظ إيراد كلمة الفاتحين لوصف الفرنسيين وقد وضعت بدلاها الغزاة. على علم أن الكتاب بالفرنسية وقد يكون المترجم قد تصرف في وضع هذه الكلمة بالذات.

المالح رقم 9: "صورة لجريدة الأمة"



LA REPRESSION CONTINUE

La répression s'accroît

Les châtiments s'accroissent

La répression s'accroît... Les châtiments s'accroissent... (The text is very faint and difficult to read due to the high contrast and graininess of the image. It appears to be a continuation of the article's main text.)

... (Faint text, likely a sub-section or a continuation of the main text.)



MERHATE BATH (Portrait of a man)

LA REPRESSION CONTINUE

La répression s'accroît

Les châtiments s'accroissent

... (Faint text, likely a sub-section or a continuation of the main text.)

... (Faint text, likely a sub-section or a continuation of the main text.)

... (Faint text at the bottom of the page, possibly a footer or additional notes.)

الملحق رقم 10 :

القانون الأساسي لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين

القسم الأول : الجمعية

- الفصل الأول : تأسست في عاصمة الجزائر جمعية إرشادية تهذيبية تحت اسم «جمعية العلماء المسلمين الجزائريين» مركزها الاجتماعي بناي الترقى الكائن ببطحاء الحكومة عدد 9 بمدينة الجزائر.

- الفصل الثاني: هذه الجمعية مؤسسة حسب نظام وقواعد الجمعيات المينة بالقانون الفرنسي المؤرخ بفرحة جويلية سنة 1901م.

- الفصل الثالث: لا يسوغ لهذه الجمعية بأي حال من الأحوال أن تخوض أو تتدخل في المسائل السياسية

القسم الثاني: غاية الجمعية

- الفصل الرابع : المقصد من هذه الجمعية هو محاربة الآفات الاجتماعية كالخمر والميسر والبطالة والجهل وكل ما يجرمه صريح الشرع وينكره العقل وتحجره القوانين الجاري بها العمل.

- الفصل الخامس: تدرع الجمعية للوصول إلى غايتها بكل ما تراه صالحا نافعا لها غير مخالف للقوانين المعمول بها ومنها أنها تقوم بحولات في القطر في الأوقات المناسبة.

- الفصل السادس: للجمعية أن تؤسس شعبا في القطر وإن تفتتح نوادي ومكاتب حرة للتعليم الابتدائي.

القسم الثالث: أعضاء الجمعية

- الفصل السابع: أعضاء الجمعية على ثلاثة أقسام

1- مؤيدون وقيمة اشتراكهم عشرون فرنكا

2- عاملون وقيمة اشتراكهم عشرة فرنكات

3- مساعدون وقيمة اشتراكهم خمسة فرنكات.

- الفصل الثامن: يتألف المجلس الإداري من الأعضاء العاملين فقط.

- الفصل التاسع: الأعضاء العاملون فقط هم الذين يتخون كل ستة أعضاء المجلس الإداري المتألف من رئيس ونائب له و كاتب عام ونائب له وأمين مال ونائب له، ومراقب وأحد عشر عضوا مستشارا.

- الفصل العاشر: للجمعية أن تنشئ بمركزها بالجزائر مكبا يكون على رأسه مدير مكلف بإدارة شؤونها ومصالحها.

- الفصل الحادي عشر: وللجمعية أيضا أن تخدم مكاتب عمالية في كل العمالات الثلاث وعلى رأس كل مكتب منها كاتب مكلف بإدارة شؤون الجمعية وهذه المكاتب كلها تكون مرتبطة بتم الارتباط بالمكتب المركزي.

- الفصل الثاني عشر: الأعضاء العاملون هم الذين يسمح أن يطلق عليهم لقب عالم بالقطر الجزائري بدون تفريق بين الذين تعلموا ونالوا الإجازات بالمدارس الرسمية الجزائرية والذين تعلموا بالمعاهد العلمية الإسلامية الأخرى.
- الفصل الثالث عشر: الأعضاء المؤيدون والأعضاء المساعدون يشكلون كل من راق له مشروع الجمعية من غير الطبقة الميَّنة بالفصل المتقدم وأراد أن يساعدها بماله وأعماله على نشر دعوتها الإصلاحية.

القسم الرابع:

- الفصل الرابع عشر: مالية الجمعية تتألف من معلوم اشتراكات الأعضاء بكافة أنواعهم الميَّنة في الفصول السابقة.
- الفصل الخامس عشر: للجمعية أن تطلب من المحاكم المحليين إعانات مالية.
- الفصل السادس عشر: مبلغ الاشتراكات والإعانات يقبضه أمين المال ويسلم فيه وصلا .
- الفصل السابع عشر: مال الجمعية يوضع باسمها في إحدى البنوك المحلية ولا يبقى أمين المال منه تحت يده أكثر من خمسمائة فرنك
- الفصل الثامن عشر: لا يجوز إخراج شيء من المال بقصد صرفه إلا بأمر كتابي ممضي من الرئيس والكتاب العام أمين المال، وذلك تفينا لما يقرره المجلس الإداري.
- الفصل التاسع عشر: يصرف مال الجمعية فيما تقتضيه مصلحتها ويوجه الوصول إلى غايتها الميَّنة بالفصل الرابع من هذا القانون الأساسي.

القسم الخامس: الاجتماعات الإدارية والعامة:

- الفصل العشرون: المجلس الإداري يجتمع في الأوقات التي يراها مناسبة ويجب أن تكون جلساته كلها مسجلة في دفتر محاضر الجلسات وكل قرار يقرره المجلس ولا يكون مسجلا بالدفتر المعد لذلك يعتبر لغوا عمل عليه ويجب أن يمضي المحضر رئيس الجلسة وكتابتها.
- الفصل الحادي والعشرون: يعقد الاجتماع العام لسائر الأعضاء مرة في السنة ويعقد هذا الاجتماع، بمدينة الجزائر اثر استدعاء من الرئيس وزيادة على هذا الاجتماع السنوي يجوز عقد اجتماع آخر في اثناء السنة في الزمان والمكان اللذين يعينهما الرئيس وبعد أن يتفارض أعضاء الجمعية في أثناء الاجتماع العمومي العادي في برنامج الجمعية وتعرض عليهم أعمال الجمعية في السنة السابقة تنعقد جلسة ثانية بحضورها الأعضاء العاملون والمؤيدون والشرفيون ويطلع هؤلاء على الحالة الأدبية والمادية للجمعية، وبعد ذلك ينتخب الأعضاء العاملون وخدمهم المجلس الإداري الجديد.

- الفصل الثاني عشر: إذا شجر خلاف بين عضوين أو أكثر من أعضاء الجمعية أو تغيرت سيرة أحد

الأعضاء بما تراه خطرا على حياتها، فلمجلس الإدارة أن تعين لجنة تحت
وتحكيم تشمل خمسة من الأعضاء العاملين وخمسة من الأعضاء المؤيدين. وهذه
اللجنة تعرض تبيحة نحتها وما تراه في القضية على المجلس الإداري وهذا الأخير
يطبق العقوبات والأحكام المنصوص عليها في لائحة نطامها الداخلي.

-- الفصل الثالث والعشرون: لا ينظر في طلب متعلق محل الجمعية إلا إذا كان صادرا من ثلث الأعضاء

العاملين على الأقل، ولا يعمل به ولا ينفذ إلا إذا صادق عليه أربعة أحماس الأعضاء العاملين، وإذا أغلقت الجمعية
-لا قدر الله- يسلم أئانها وما لها إلى جمعية خيرية إسلامية يعينها المجلس الإداري

جامعة الجزائر
عبد القادر للعلوم الإسلامية

الملحق رقم 11:

دعوة جمعية العلماء المسلمين الجزائريين وأصولها (1)

- 1- الإسلام هو دين الله الذي وضعه لهدي عباده، وأرسل به جميع رسله، وكمله على يد نبيه محمد الذي لا نبي بعده.
- 2- الإسلام هو دين البشرية لا تسعد إلا به وذلك لأنه :
 - أولاً : كما يدعو إلى الأخوة الإسلامية بين جميع المسلمين يذكر بالأخوة الإنسانية بين البشر أجمعين.
 - ثانياً: بسوّي في الكرامة البشرية والحقوق الإنسانية بين جميع الأجناس والألوان.
 - ثالثاً : لأنه يفرض العدل فرضاً عاماً بين جميع الناس بلا أدنى تمييز.
 - رابعاً: يدعو إلى الإحسان العام
 - خامساً : يحرم الظلم بجميع وجوهه وبأقل قلبه من أي أحد على أحد من الناس.
 - سادساً : يحث العقل ويدعو إلى بناء الحياة كلها على التفكير.
 - سابعاً: ينشر دعوته بالحجة والافتقار لا بالختل والاكراه.
 - ثامناً: يترك لأهل كل دين دينهم يفهمونه ويطبّقونه كما يشاؤون.
 - تاسعاً : شرك الأثرياء مع الأغنياء في الأموال وشرع مثل القراض والمزارعة والمغارسة مما يظهر به لتعاون العادل بين العمال وأرباب الأراضي والأموال.
 - عاشراً : يدعو إلى رحمة الضعيف فيكفي العاحز ويعلم الجاهل ويرشد الفضال ويعان المضطر، ويقاوم الملهوف وينصر المظلوم ويؤخذ على يد الظالم.
 - حادياً عشر: يحرم الاستعباد والجهود بجميع وجوهه.
 - ثاني عشر: يجعل الحكم شوري ليس فيه استبداد ولو لأعدل الناس.
- 3- القرآن هو كتاب الإسلام.
- 4- السنة "القولية والفعلية" الصحيحة تفسير وبيان للقرآن.
- 5- سلوك السلف الصالح << الصحابة والتابعين واتباع التابعين >> تطبيق صحيح لهدي الإسلام.
- 6- فهم أئمة السلف الصالح أصدق حقائق الإسلام ونصوص الكتاب والسنة.
- 7- البدعة كل ما أحدث على أنه عبادة وقربة ولم ينبت عن النبي صلى الله عليه وسلم فعله وكل بدعة ضلالة.
- 8- المصلحة كل ما اقتضته حاجة الناس في أمر دنياهم ونظام معيشتهم وضبط شؤونهم وتقديم عمرانهم مما تقره أصول الشريعة.
- 9- أفضل الخلق هو محمد صلى الله عليه وسلم لأنه:
 - أولاً : اختاره الله لتبليغ أكمل شريعة إلى الناس عامة
 - ثانياً : كان على أكمل أخلاق البشرية.
 - ثالثاً: بلغ الرسالة ومثل كمالها بذاته وسيرته.

- رابعاً: عاش مجاهداً في كل لحظة من حياته في سبيل سعادة البشرية جمعاء حتى خرج من الدنيا ودرعه مرهونة.
- 10 - أفضل أمته بعده هم السلف الصالح لكامل أتباعهم له.
- 11 - أفضل المؤمنين هم الذين آمنوا وكانوا يتقون وهم الأولياء والصالحون، فحفظ مؤمن من ولاية الله على قدر حفظه من تقوى الله.
- 12 - التوحيد أساس الدين فكل شرك << في الاعتقاد أو في القول أو في الفعل >> فهو باطل مردود على صاحبه.
- 13 - العمل الصالح المبنى على التوحيد، به وحده النجاة والسعادة عند الله فلا النسب ولا الحسب ولا الحظ بالذي يغني عن الظالم شيئاً.
- 14 - اعتقاد تصرف أحد من الخلق مع الله في شيء ما، شرك وضلال ومنه اعتقاد الغوث والديوان.
- 15 - بناء القباب على القبور، ورفع السرج والذبح عندها لأجلها والاستغاة بأهلها ضلال من أعمال الجاهلية ومضاهاة لأعمال المشركين فمن فعله جهلاً يعلم ومن أقره ممن ينتسب إلى العلم فهو ضال مضل.
- 16 - الأراضع الطرية بدعة لم يعرفها السلف ميثاها كلها على الغلو في الشيخ والتحيز لاتباع الشيخ وخدمة دار الشيخ وأولاد الشيخ إلى ما هنالك من استغلال وإذلال وإعانة لأهل الإذلال... والاستغلال ومن تجميد للعقول وإماتة للهمم وقتل للشعور وغير ذلك من الشرور.
- 17 - ندعو إلى مادعانا إليه الإسلام وبيناه منه من الأحكام بالكتاب والسنة وهدى السلف الصالح من الأئمة مع الرحمة والاحسان دون عداوة أو عدوان.
- 18 - الجاهلون والمفرزون أحق الناس بالرحمة.
- 19 - المعاندون المستغلون أحق الناس بكل مشروع من الشدة والقسوة.
- 20 - عند المصلحة العامة من مصالح الأمة، يجب تناسي كل خلاف يفرق الكلمة ويصدع الوحدة ويوجد للنشر النفرة، ويتحتم التأزر والتكاتف حتى تنفج الأزمة وتزول الشدة بإذن الله ثم بقوة الحق وادراع الصبر وسلاح العلم والعمل والحكمة.

عبد الحميد بن باديس

حرّر بقسنطينة بالجامع الأخضر إثر صلاة الجمعة

4 ربيع الأول 1356 هـ

(1) أنظر نصوص أساسية ووثائق من جمعية العلماء المسلمين الجزائريين (1350-1363هـ) الموافق إلى (1931 - 1944م) مطبوعات مديرية الوثائق لولاية قسنطينة رقم 7-8-9 الطبعة الثانية 1982م، ص 5-6.

- الشيخ محمد خير الدين، مذكرات، الجزء الأول، المصدر سابق، ص 127-130.

الملحق رقم 12:

قائمة بأسماء المعتمدين من رجال الجمعية إلى جهات القطر (*)

في عمالة قسنطينة:

- الشيخ أحمد همامي: مدينة قسنطينة، سيدي مروك، رأس الواد، الغابة، المنية، حنان الشيشية، جبل الوحش.
- الشيخ محمد كحلوش والشيخ يوسف القلي: الحامة، الخروب، روفاك، أقطار العيش، بيزو، سيقوس
- الشيخ معمر خي والشيخ محمد بن المكي: عين البيضاء، أو البواقي، مسكبانة، صدراتة، أمداوروس، قصر الصبح.
- الشيخ ابراهيم بن عمار: خنشلة، بيار، قايس، بوحمامة، الزوي، النمامشة، العمامرة.
- الشيخ أحمد السرحاني: أوراس ودائرته.
- الشيخ عبد الحفيظ الجنان، والشيخ محمد بن المكي: تاملوكة، واد الزناتي، روبنة، قالمة، رأس العقبة، عين عبيدة، رقادة، الركينة.
- الشيخ علي المغربي: سكيكدة، عزابة، سان شارل، الحروش، سيدي مزغيش، مجاز الدشيش، القل، السمنور، قاسطو نجيل، الأربعاء، أم الطوب، تامانس، عين قشرة، عيون بوزيان.
- الشيخ نعيم النعيمي: سطيف، عموشة، العين الكبيرة، عين أزال، عين المان، أولاد حجاز، أوربسة، خراطة، قصر الطيور.
- الشيخ علي مرحوم: العلمة، جميلة، بيضة، برج، بني عزيز، سيلاق، البلاعة.
- الشيخ محمد الميلي والشيخ المولود النجار: ميلة، القرام، سيدي مروان، عين الكرمة، أولاد صالح، عين التوت.
- الشيخ الأمين سلطاني والشيخ محمد الابراهيمي: عين مليلة، عين كرشة، عين الفكرون، لافاسور، عين ياقوت.
- الشيخ الطاهر الحركاتي والشيخ أحمد السعودي: باتنة، بريكة، مروانة، المغدر، اتقاوس، رأس العيون، عين التوتة، تهامت، تازولت.
- الشيخ أحمد حسين: برج بوغريويج، برج الغدير، رأس الواد، بحانة، القلعة، المنصورة، بوندة، نينة الحميس.
- الشيخ الحملاري بوالزرد والشيخ أحمد بن ذياب: عنابة، منوفي، القحوصية، بوليس بلاتندال، القالة، عين العسل، بارال، بوشقوف، الباردة، مرداس، بوحجار، عين أم الرخا، تاكوش.
- الشيخ أحمد برورج والشيخ محمد بن العوادي: سوق أهراس، تاوردة والضواحي والأعراس.
- الشيخ انطاهر حرات والشيخ العيد مطروح: تبسة، الشريعة، الكويف، الرنزة، العوينات، مرسط، يكس، المريج، واد الكيريب.

- الشيخ بلقاسم مزهود والشيخ سليمان بشنون: فح مزالدة، ريشيليو، أراس، بينان، تامنونت، تسالة.
- الشيخ الصغير قارة والشيخ الحفناوي هالي: شاطودان، تلاجمة، تاحات، العنمانية، تلسارة، عين المنوك
- الشيخ عبد الرحمن شيبان والشيخ الصادق عيسات: بحاية وضواحيها.
- الشيخ عماد الطاهر الجيجلي والشيخ أحمد بوروح: مدينة حيحل، المنصورية، تاكسنة، الطاهير، الشقفة، الجناح، أولاد علال، اعوانة، النيلية، سوق الجمعة، بني فرقان.
- الشيخ باقي بوعلام، مسيلة وداث تما.

في عمالة الجزائر:

- الشيخ عبد اللطيف سلطاني: مدينة الجزائر، بلكور، سانتوجين، الخراش، حسين داي، الرويسو، القبة، بئر الخادم، الأبيار، تيليمي، نوتردام.
- الشيخ الجيلالي الفارسي: الأصنام، بحاجة، بوقادير، عين مراد.
- الشيخ محمد الطيب العلوي: مليانة، هميس مليانة، عين الدفلى وما حول ذلك من القرى.
- الشيخ علي شتير: شرشال، القلعة، تسس، مارانقوا وما حولها من القرى.
- الشيخ الطاهر طاهري: سيدي عيسى والأعراش، بوسعادة والأعراش، سورة الغزلان.
- الشيخ أحمد بوزيد قصبية: المدينة، البراقبة، البخاري، شلالة، الجلفة، الأغواط، سعد.
- الشيخ علي الشرقي: برج منابل، أبو دليس، بقلبة تادمايت، عزيز، رعموم، هميس يسر، فليكس فور، ثنية بني عائشة، بودوار، روية، رغبة.
- الشيخ سعيد صالح: بوية، عين بسام، فراع الميزان، أصنام البوية.
- الشيخ محمد الصالح بن عتيق: البلدة، باقلم، عين طاية، البرتوتة، بوفاريك، هميس الخشننة، الأربعاء، بني موسى.

في عمالة وهران:

- الشيخ عبد القادر الباجوري والشيخ السعيد الرموشي: وهران، المرسي الكبير، اوزيو، بطوية، المساعدة
- الشيخ عبد الوهاب بن منصور والشيخ محمد مخلف: مستغانم، واد الخير، مازونة، وما اتصل بذلك من الأعراش.
- الشيخ عبد الباقي بوعلام: معسكر، تيغنيف غليزان، زمورة، واد رهيو.
- الشيخ العباس بن الشيخ الحسين: تلمسان، ندرومة، الحنايا، الغزوات، مغنية، سيدو، بني هنديل، أولاد سيدي الحاج، صيرة، أولاد ميمون، بني صاف، عين تموشنت، بلعباس، المساعدة.
- الشيخ عبد الحفيظ التعاللي: تيارت، سوق، فرنقة، تيسمسيل (فيالار).

الملحق رقم 13:

وفود الوعظ: قائمة المواعظ لشهر رمضان (*)

عمالة قسنطينة : المشايخ:

تبسة	- العربي التبيسي
قسنطينة بالجامع الكبير	- محمد خير الدين
(المعهد)	- عبد القادر الباجوري
العلمة	- أحمد بن ذياب
شاطوران	- الصغير قارة
تاملوكة	- محمد بن الشيخ بن المكي
اغيل علي	- الصادق عيسات
بيزر	- يوسف القلي
سيدي مزغيش	- الأنحضر علواني البادسي
فج مزالفة	- محمد بن شبروف
نقاروس	- عيسى مرزوقي
أقبو	- محمد التزكي
بني يخلف	- محمد الشريف الثعالبي
تازايرت	- محمد الطيب دارد
تازولت	- أحمد زوزو
غيرة	- أحمد الميموني
قمار	- الحفناوي هالي
قدوز	- محمد الطاهر اليوجلبي
سيدي ابراهيم (البيبان)	- محمد بن أحمد الديلملي
بني فرقان	- محمد بوكعباش
بسكرة	- علي بن المغربي
قاسطونفيل	- حسن الأعور
منعة	- العربي خطراوي
اينوغين	- محمد الدرنونني
المعذر	- محمد الصالح شبيخي
أريس	- محمد الأمير
ميلة القديمة	- أحمد بوعروج
غسيرة	- محمد الصالح الغسيري
أولاد منصور	- محمد الصالح مدوري

- المولود السعدوني
 حامد رواشنة
 - بوجمعة الزكراوي
 - معمر حفي
 -- بلقاسم اللجاني
 - عيسى البجاوي
 - المولود النجار
 - مصطفى الجحلي
 - يوسف البعلاوي
 - مرزوق بن الشيخ الحسين
 - محمد الأحباسي
 - علي هوأم
 - علي الشرفي
 - أحمد السرحاني
 - عيسى المعتوق
 - بلقاسم بن عمار الميموني
 - الأكحل شرفة
 - بلقاسم بن مزهود
 - الكامل الحناشي
 - محمد الطاهر الجحلي
 - الأمير السلطاني
 - عبد المالك فضلاء
 - محمد الطاهر التليلي
 - عبد الرحمن شيان
 - محمد السيري
 - الصادق حماني
 - محمد الصادق بن عتيق
 - محمد الصالح طيار
 - محمد بن الشيخ مبارك الميلي
 - محمد بن علي الأبراهيمي
 - الطاهر الحركاتي
 - أبو القاسم الجبلي
- تلاغمة
 سوق أهراس
 وانزة
 مداوروش
 صدرانة
 بريكة
 القرارم
 أولاد غلال
 قمر بني خيار
 عزابة
 زيامة منصورية
 اعوينات
 عين البيضاء
 مشونش
 طولقة
 آراس
 اغيل علي
 سيدي مروان
 مسكينة
 جيجل
 القنطرة
 تازمالت
 برج بوعريرج
 سيدي مبروك
 سكيكدة
 اتبية والتعليم (قسنطينة)
 الميلية
 المسجد (ميلة)
 ميلة (النادي)
 عين ميلة
 باتنة
 خنسلطة (نادي)

- علي مرحوم
- محمد الشبوكي
- أحمد بن عثمان
- بلقاسم بن صالح
- صالح مسعودي الصغير
- العربي السعدوني
- الطاهر سعدي
- عبد المجيد حيرش
- محمد الهادي
- أحمد بوروح
- ابراهيم مزهودي
- سطيف (المدرسة)
- الشرية
- عين التوتة
- تاورة
- عين آزال
- قلعة بني عباس
- عناية
- سطيف (النادي)
- عين ولان
- الطاهير
- يوكس الحمامات

عمالة الجزائر: المشايخ

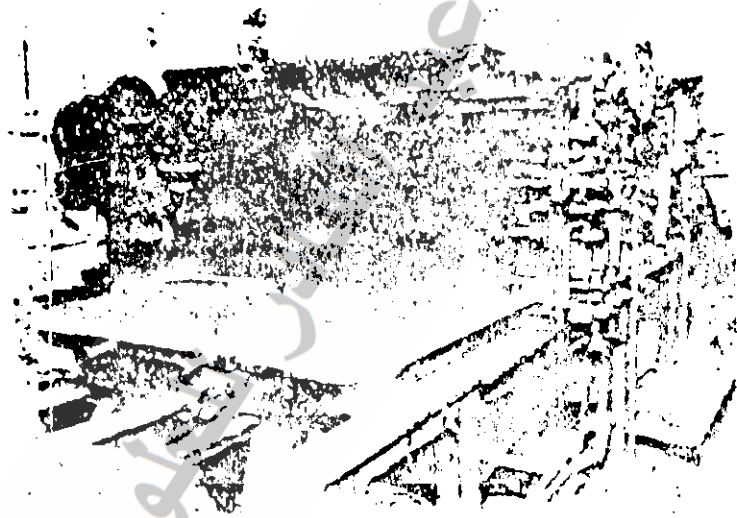
- عبد اللطيف سلطاني
- أحمد سحنون
- أحمد حسين
- مكّي النعماني
- محمد البحاري
- عبد الكريم العقون
- محمد الطاهر الأطرش
- محمد الطوب القاسمي
- محمد السعيد عدنان
- صالح صالح
- ابراهيم بن سليمان
- الربيع بوشامة
- الجليلي الفارسي
- رابع بونار
- أبو بكر الأغواطي
- أحمد شطا
- النعمي
- أحمد بن عاشور
- علي بن سعد
- مركز جمعية العلماء بالعاصمة
- جامع سانت أوجين
- جامع بلكور
- عين طاية
- بقالم
- تيليملي (الجزائر)
- بني منصور
- القصر
- آيت يوسف وعلي
- أكفادو عزازقة
- سلام باي
- الحرائش
- الأصنام
- تيزي وزو
- الأغواط
- الأغواط
- بوسعادة - المسيلة
- البليدة
- بوفاريك

- عَلِي شَيْتِر
- اِسْمَاعِيل حَيْرِي
- الطَّاهِر طَاهِرِي
- أَبُو الْأَعْرَاسِ
شَرْشَال
القَلْبِيَّة
سَيْدِي عَيْسَى
تَنْس

عَمَالَة وَهْرَان :

- الْعَبَّاسُ بْنُ الشَّيْخِ حَسِينِ
- عَمَدُ الْعَدَوِيِّ
- السَّعِيدُ الزَّمُوشِي
- سَعِيدُ الْعَدَوِيِّ
- مُحَمَّدُ الْمُهْرِي الْمَجَارِي
- مُحَمَّدُ رِضَا بْنِ الشَّيْخِ الْحَسِينِ
- مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ الْمَسْعُودِي
- عَبْدِ الْبَاقِي بُوْعَلَامِ
- عَمَدُ الْأَنْغَوَاطِي
- عَمْرُ حَمَانِي
- مُحَمَّدُ الطَّاهِرِ الْمَنَاحِي
- الْعَرَبِيُّ الرَّمِيلِي
- عَمَدُ بُوْجَمْعَةَ
- الْجِيلَالِي حَجَّاجِ
تَلْمَسَانِ
مَسْتَفَافِمِ
وَهْرَانِ
الْمَرْسِيُّ الْكَبِيرِ
الرَّمْنِي
بَيْتِي صَافِ
تِيَارْتِ
الْبَيْضِ
الْحَمْرِي (وَهْرَانِ)
عَيْنِ مَمُوشَنْتِ
الْمَسَاعِدَةُ
صَبْرَةَ
أَرْزِيوِ
الغَزْوَاتِ

الملاحق رقم 14: المطبعة الجزائرية الإسلامية
التي كانت تطبع جريدة ومجلة الشهاب.
تأسست هذه المطبعة سنة 1443-1925 في نفس التاريخ الذي صدر فيه الشهاب.
وتقع في نهج عبد الحميد بن باديس. قسنطينة



المطبعة الجزائرية الإسلامية التي كانت تطبع جريدة ومجلة
الشهاب : تأسست هذه المطبعة سنة 1343 - 1925 في نفس
التاريخ الذي صدر فيه الشهاب . وتقع في نهج
عبد الحميد بن باديس - قسنطينة

الملحق رقم 15: صورة:

الواقفين خلف "شيخ عبد الحميد بن باديس هـ:

من "يمين إلى اليسار: خليل بلقشي - أحمد بوشمال واسماعيل صحراوي
وهؤلاء هم المؤسسين للمطبعة الإسلامية الجزائرية يوم 16 أفريل 1925م.
(الصورة أخذت في بداية سنة 1925م).



الإسلامية

المحقق رقم 17: صورة لجريدة الشباب

السنة الأولى

الجريدة جريدة حرة وطنية تصل لعدد السنة المأزومة بمائة وثمنا الدينريين

العدد ٣

الاشتراكات
من سنة المأزوم ١٥ فرنكا فرنكا فرنكا فرنكا
سنة ١٩٢٥ ٢٥ فرنكا من سنة المأزوم ١٥ فرنكا

الاعلانات
تستمر المأزوم ٣٠ ايام الايام
ويشترى مع الايام

من السنة ٢٥
ACU-CHUEB

الشباب

المراسلة
تشر على جريدة اصحابها وانشاءتم القريفة مصرعا يراى
المريفة انشازا ازمصرطة في ١٥ ايام لا يرد انشازا اعل
المكاتبات
باسم مدير شؤون المريفة وصاحب اشرافها
- سيزيل نوشال احمد
فتح الجسسين لاسر صمد ٢٢ لطيلة
BOUHAL AMMEL
BOUHAL AMMEL

الطبعة ١٩٢٥ م / ٢٦ تشرين ١٩٢٥ م / الى فرق كل احد والفرق كل كل شيء

تفرقا واحتمرا من بعد ما دام البيت وارواح
لم يدب ظلم ومن دون ان نحقق بقطة
الاجرام المظلمين من افعال افعالها ضد
اشراخ مانيها من العفلات الاعلان في العفلات
تشيما بنظر العفلات يا من العالم ، وضد افعالها
في الحياة المصونة ، وهناك يقول لها : فانه
صياح المديري
وراء لم تلك الصورة تكيفت جزومة
العفلات ، الشرف لثلاثين لقب المبرسي ،
الذي كان يمكن اهدم من بعده ، وتكون
حين من امر عظيم ، لم الدليل على انه لم
سنة ما يحدث في صفتهم - ان نقرا - سن
ان تسلطت في ارض نفس العفلات المحبة في
اصل نظريهم كل مارك فيكونون لها كبروع
اشرح شفته خاروه فلفظت فاسوى على
سوقه بسبب الرباع ، وان لم ايجان نقف
هذه العفلات المصونة بهرودنا الفواصل من
بين ثروت وهم نحن في اطقن العفلات الكبرى
الذين لا يروننا لاننا لاننا لسنا ابراه
اوراها ، ونظري ، انهم تالما لم : اما اكل
عسرة الدم ، اكلنا مقلين الادار منجدون
والك صيد القنا والياوم ، يجب قطع داركم
ولادى الله ان يقام - كما يقع في المروية
الطاحة المادية حسن حكمك ستسور ، لا تتعرف
على قايما من شامس - وسلاخا الدين والقي
بسي يضا الدين هو الدين - وحسنا ذلك
تم لا نبت ان تتسكن المصاحفة المرتكزة
على الاحداث بقدر ما يمكن في شان ربط
العلاق اللبية ، والعسلة فرة الاحكام يجرى
الدين والقومية ، والقمام بينا الذي يفتل على
المراعات المشقة الوحده المبطلة للاصلا
والاصلا
(جمع)
به المحق .

الهم ما من لم يحسن شمله بقدر ما يبلغ
الاصلاح .
ومن تتسكنا هذا الصلاح الطوري الذي
يرينا طريق الارشاد ان نخلنا صمد اعداء ، بل
نصالح حرتونة القتل بنشوبه سناده . ونيله
سقطه الشرح في امين العفلاتين - تلك الشيعة
الشيعة الاسلام ، السطوة الالهة ، التي اصل
واكثما ، وطنا طوطان تشدها والتي جعلت الاكسب
والريرة وثائق المعصفت والثريرة والفاضة
والام والصف والشيعة والشيعة من مطالبها في
عدواها ودواصاتها ، كالمنا من طاعة المديري ،
الذين يمارون اعداءنا سلبا ، وبنفس : الف
تطعد بعقل العفلات ، اماها بامل يسول
بالا توري نسكك نسكك م ، بل حسب صمد
اشماليان حيا تلك الاكثا المريفة ، والمريخ
والمرح دينا وبصيلة ، يات من كسبنا نفس
وهي الخاطلة تت وكسبل اولها الطاصرة
اسرايا ، المشغلين ، من اراسهم زورا ، واخر
الانوار ، من فخر باسم الدين ، التي ما من الاصل
من مربية والثرة الفت واللعاب من سن
مقدس تحاول الابني الابية ارضاق روحه
تطورا لفرض ارضاق تشدها من الذين يمسون
اشيب المرح ، تاركين دينهم المريفة فريضا
لسياهم الرايا والفرافات ، وارضاق المرح البيوس من
الحياة ، وانكسك البيوس منها ورحمة ، وشالهم
كشفتك بلكا واصلا قولهم : المرد صمد ،
حتى اصي طيم الدهر كما اعني على اليد
اما الحياة فتعكسكسكسهم . وارى نسه المشر
فهر نساها تم من لورحت صمد هذا المد لمن
المطب ، ولكن زاهما قبل في اجدتها مراسل المقد
على المرح ، فبينا تفرى هؤلاء الذين هم صمدية
يدعيا على طاعة اشعيه تشدها الملة من مادها
صمد فخر بها من كل صمدية تطرح من يشتر
الطاسير ، من ميران ترعب لها سلترا لها
برحة العافية في قوله تعالى ولا يكونوا كالذين

الى الإصلاح الديني
فانصاروب الخاطلة المصيبة
صلاح الناصر الديني
ان تشيها من تلك البدن الشابة من الشعب
سوقنا البيا ، وسلفا حول تالينا ، وشكرا
بصه نظرها ونشنا ، اكر باية اخلاصيا ،
وذلك هو البري الوصول الى قرا الرجال
الطام عرش هذه العافية ، والي تصوم م
الوجدانيات من صور عسرة ، والادوية والادوية
في صور كالمنا مخرصة ، ذلك الامر الذي يردون
من سواهم العافية على تشوبه تشيعة طيليا
شعورهم التوري ، فحسبنا تيل كل احد المص
تانه ، تشدهم تشدهم ، تشدهم تشدهم
كالمنا السائرة .
ثم م من اولها عفاوة في هذا السبل
بشعور التالفة كل طارسي حاد رحب ، لان
العفلات المريفة تشدهم في صوب الاصلاح ، ولم
تعد الى سواهم الناس حيا ، بل
تسبلون من الذين اقلوا بالاسرا يضا فاذ
صمد اشعيه ، بل الاية ، وشكرا التي ابي حني
تصوي التي ارضاق تشدهم ، قامت عاملا مريضا
بالمثل وانسبلوا ان الله يجب التسليين ،
وسلاخا المرح العافية - بل اما انا صمد
ذلك الكد والسب ، والاعفلة في سبل اصلاح
الدين انا وشكرا فلا خير ، التي يقا في
الميراث الاثنت من ذلك تشدها زورا سلبا
اشماد الحياة من المراعات ، تشدهم في سبلها
وليس فلك الا ان الميراث لا يدوم اشماديا
كالتيس اذا عسها الدين لسلاف السبل يفرق
بالوراها ، وانال تلك المراعات ما عالم من
وصب العافية والهم على ما لم يحسن ظلم .
حسنا نظري ، المثل ، المصرون يتشرون سب

فيل لاس سبل الى ذلك ، ولا حيا
نيل الانتفاخ تدب الصدم على كعدة تشدهم
الابية على العافية ،
فك سبنا فها صمد - ولا تشدهم على
الاختلاف ، فكان سلفا مثل من نسه جيدا
تواكت طية الامن دة تحففت تشدهم تشدهم
الاخبار ، ليس من العافية ان يحسن ،
الابية الميراث في كاله العفلات وروته الميري
جمال وروته اي حرة عسرة تشدهم تشدهم
ولكاتبه العافية ،
ما حرة الى رجال عظيمين ، يتشرون
العافية وراهم التي في تشدهم العافية
يرين العفلات والتاين ارض حبل وجه الذين
المطبات تلك المبرهنة ، التي انما الا ان يبق
صافها الايام ، وارض العفلات تشدهم تشدهم
على طسها ، حتى لا تشدهم - فها تشدهم -
صمد اعالم السبنة نيا ، يبروا غضب على
غضب ، ويحصل عليهم بالمشقة وسوء العفلات
وعفلات يا ان لراصل العفلات في سبل
رجال الاصلاح والهدم ، ولو تشدهم تشدهم
ما نيل بيه اشعا ، على تشدهم تشدهم
ما فيها من الواهب التكرية والادوية العافية
طرق تشدهم في نفس العفلاتين ، فاحسن حيا
والشامس العفلاتين تحوي المبرهنة على الدين
والله والوطن ، لم لا نبت ان قلبه سكتان
الامة من حلة الى رقة ومن رقة الى حرة -
هبة المشكك الاكثا - لكن تلك تالفة
اصلها ، وليست ما يبيلة ، فها اذا كانت
مراعاة العافية ، ومرة على العافية ، تشدهم

العدد رقم 5: "صورة جديدة" "الشريعة النبوية المحمدية"

العدد الأول

لنن النسخة 5 من

العدد 1

المراسلات
كأبنا بهذا العرف
ACH-CHARIA
Journal Religieux
13, rue A. Lambert, 13
CONSTANTINE
الأشرف اشكات

من سنة 30
والتلازمة 20
من نصف سنة 20

الشريعة

النبوية المحمدية

تصدرها الجمعية تحت إشراف رئيسها
الأستاذ

عبد الحميد بن باديس

برأس تحريرها
الأستاذان

العقبي والزاهري

صاحبها: 13 شارع بوشارب
تليفون الإدارة: 105

من رغب عن سنتي فليس مني

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تم جعلناك على شريعة من الأمر فاتقها

Constantine le 17 Juillet 1933

تصدر يوم الاثنين من كل اسبوع

تسبطينة يوم الاثنين 24 وبيع الأول 1302

تعطيل «السنة» وإصدار «الشريعة»

للأستاذ عبد الحميد بن باديس رئيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين

اطفانتم ان الامة الجزائرية ذات التاريخ العظيم
تتضي زنا كلالا في حبر فرسا التسدنة تم لا
الشمس يجب فرسا تحت سكتنا بدما في بدما
فداء لها من الجلال والجلوبية ما لكن فناء اعينها
اورثنا مثل تلك الام اخطانتم بافولاء التقدير
واسأتم الظن بالمرى والرى وصدتم من العلم سن الكون
في نصات الام بعضنا بعض عند الاختلاط او
التجاوز او التواط شبه من روابط الاجماع .

انظروا شيئا ان ما حوالكم من الام وتأملوا
فما تنادي به الشعوب وما تطلبه من مطالب فاكم
اذا تفرتم وتألمتم حذتم لهذه الجزائر الشبية فضتها
المادسة وتسكوا الذين فراسا وارثها العتي
بيادها وعدا تشبها جزا عيا وصرها لظنعا
منا على ان سطى جميع حذتها كما فانت جميع
واجباتنا وان لا يتقدمها في ايام السلم من فدا
يسأرونا في ايام الحرب

لا تخالكم تخفرون ولا تتاملون فان
الائرة السطوية على النفوس حجاب سكتيف
بحول دون رؤية المفاتيح كما هي وبحول حتى دون
رؤية مصلحة فرسا الحقيقية لنفسها . وان لانتم
من ماضكم المعجبة للجمعية وهي جمعية دينية
لهيوية بعيدة عن كل سيادة - انكم لا تريدون
من الجزائر لان تبق جامدة وان لا تتبع شيئا
من الحق الا ما لا يخافه ولا تقي معه . ولصر التي

ارباب في الجمعية او استئصال لامها لما الذي
يدل العقول وحول اليات وحول ربي العاصم
على ابداء مشاركة الجمعية فراره المهور وحول تلك
الادوات عن سائر الجمعية ومضابفة رجالها
وعرضة اعلمنا حتى نعالرا حريدة السنة لفرما
سبب الا انها حريدة الجمعية وانسان حالما 11 هذا
عمل سألها ومناظ تحينها .

وبعد فما ينتم علينا القرون 1 اينفقون علينا
تأسيس جمعية دينية اسلامية تذبسية تعين فرسا
على تذيب الشعب ورفقته ورفع مسواه الى الدرجة
اللائقة بسعة فرسا ومدنيها وتزيتها للشعوب
وانهينا فاذا كان هذا ما يتفقون علينا فتمد اسامرا
الى فرسا قيل ان يسبوا الفنا وقد دلوا على رجسية
فيهم وجود لا يتناسبان مع ايادي الجمهورية ولا
مع سالة هذا العصر . انذكمون في الهند جميعات
للغلاء فتمم باعمالها بقية الحرية والمناه عشرات من
السنين تحت السلطة الانجليزية القائمة القابلية وتضيق
صندوقكم اتم عن تسكون جمعية واحدة للعلماء
المسلمين بالجزائر تحت التبدلي الجمهورية العاتية المشقة
حلوها على الام فتماضها ورم ما يزال في المهد

ووعت لامة دينيا تعطيل حريدة السنة
بترام من وزارة الداخلية وتقاطرت على الادارة
وحائل الاحياء والسبب ولم يسكن تعجب الناس
من تعديلات حريدة دينية حود كل البعد عن السياسة
دونت لضعفهم من فرقة جمعة العلماء المسلمين
الجزائريين من علماء الدين العباسي الذي ذات
الامة حلالته وشاهدت جميل اثره .

اما نحن فقد تار سكتنا الامة في الاحياء ولم
نشاركها في الضعف نداء سكتنا فعدنا باشياء هذا
الكتطيل اعداها لظف ونحن له نتوتون . غير ان
الذي تعجب منه نحن المباشرين لسبب الجمعية
التجمل العظيم والانتقال الرئيس الذي شاهدناه
من بعض الادارات نحو الجمعية .

لقد تجرلت وفود الجمعية الدسة الاضربة على
جميع جهات الوطن والتي وعانها تنظيم ودرهم
في المهتم العامة وسكتنا ما كان بحضورها رجال
من الحكم وكالوا يتقون من شيوخ البلدان الامبار
وحكام العوازل كل تعذيب وتقدير وقابلنا بتداهم
الرجل ادارة الشؤون الرعائية بالصامه فلم تسدع
على سكتنا ادنى انكار ولم نتابع اقل اشارة الى

"الجملة" رقم 21: صورة لجريدة "البصائر"

N°111

من السنة 1415 هـ

السنة الرابعة عدد 141

يوجه الى ادارة الجريدة ما يتعلق به من مقالات ومكتات واشعار كانت

الرسائل

تقديمات
ملاحظات

المدير ورئيس تحرير فيلادلفيا مشالين

الطران المالي 04 الجزائر
Monsieur SHADIMI Mobarek
DIRECTOR OF JOURNAL
13, Rue A. Lambert, CONSTANTINE

من سنة 1925
من سنة 1925
من سنة 1925

الاشهارات

البصائر

لجنة التحرير والادارة

TELEPHONE 2627

صاحب الاشهار

الشيخ محمد نعيم السويدي

EL-BASSAIR

13, Rue A. Lambert, 13 CONSTANTINE

الموافق اليوم 25 اكتوبر 1928

تصدر يوم الجمعة من كل اسبوع

تسليطية يوم الجمعة 3 شوال 1357

ولمعد الى الكتاب والقراء جميعا فندكم بمحبة صحيفتهم الساطعة بالعدد 84 وتوفد ما به عبارتها التي هي:

والبصائر صحيفة جمعية ومبدأ. وعلى كل مؤمن ببسفا ان لا يدخر وسعه في نشر صحيفة تستخدم ذلك المبدأ. ولا بالوجوه في اعدائها مادبا وادبيا. وعلى كل فرد من افراد جمعية ان يقدي صوتها في الدعوة الى مبدئها. ويطلب لها المانع ما فيها ..

وعلى ضوء تلك الحقيقة ينبغي ان يعطى كل عضو من اعضاء الجمعية. كمال موافقة شرف خلفها ورحمن غايتها. نفسه ازاء صحيفتها البصائر. ليرى اأدى ما عليه من واجب مادي وادبي. وكيف أداءه وما هو قدره في التقدير.

المن ان هناك نزاحي تامل مثلا الجمعية وانصارها فيها قايما نحو صحيفتهم مشكورا. ومن الهبات ما لا يزال اهلها ضعيبي الغاية بصحيفتهم. واذا كان في اثبات القاتنين مراجعهم هذا انفراما بجهدهم هم له أفضل من نبي أيضا تميزا لهم من المتصدين لتييرا يسوء اولئك المتصدين وقد يند ضربا من الياس منهم. لهذا لا يزيد ان نحاسب الناس على صفحتهم البصائر. والمال نتبعهم الى ان يحاطوا انفسهم.

أنا طريفة الحساب التي يحرف كل واحد بها ما يسأل عنه فهي الرجوع الى القترحات التي اقرها مجلس ادارة الجمعية. ونشرت بالعدد 84 وهانحن اولاء نضما مرة اخرى بين يدي القراء والصحف جميعا

١ - على العلماء البارزين ان يبتوا بحري

المثالات الراقية في صحيفتهم

البصائر

تقدي تراهما الكرام بيده القلم. وتزجرو ان يعبد الله عليه. وعلى المسلمين عامة باليمن والعز وخيري الدنيا والآخرة. وها ما نسا. في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة. وقدنا بطلب القارة

عزم الامور ..

وتد قامت جمعية العلماء - والمحدثه - بعضها من هاته الوصية. ولا نزل - يترقب الله - قائمة بذلك. وادبية اليه. ومراجعة تقديروا رئيسا الحائيل عن حلقا في اجتماعها العامة كهيئة تصور الدرجة التي ارتقت اليها في تحقيق تلك الوصية. وهذه صحيفتها. والهازم. جعل اناطار الالهة ومرجع نشاطها وصبرها ناطقة بها. ما من حق صريح. وممارسة بها عليها من ظلم وعدوان. وهي لا تزال على خطتها التي امرت بها ان تلتحق السنة الثانية بهذا المجلس

العمل لرفع مستواها الاجتماعي في دائرة الاسلام والعروبة. من غير كراهية بلحس اوبعدا أو شخص. والاجدس الظلم وابدأ الفرق وشخص العالم والافرق.

ورنا عان هذه الحطة من وتدرج لا يصب متعجب. وحتى لا يشغله منصب. ولا نزال نرى تحسروا حول الجمعية وصدانس عليها وملاحق لتطبيقين عليها. واذا عرفنا الملق والخاصا في خدمته وصيرنا على تكليفه فان لكل الزمة انفراجا ولكل عادل جزاء

اشهدني ازمة تنفجني. قد آذن ليك بالبالج

فاتحة

السنة الرابعة

المدته رب العالمين. الذي انزل على عبده الكتاب هدى للناس. ومرجعا في انحطاط خطط العمل المثل لكل العالمين.

والصلاة والسلام على من كان شلقه القرآن. يحكمه به معارفه وآدابه. ويأنم به في سلوكه ويهدى قواعده في سيره انرا غايته. والملاع ومرفه. ووضو الله عن الله وامسحاه الذين زارهم الايمان الى شعابهم شجامة. واوجد فيهم حسن الانتقاد والطاعة. ومن نعمهم احسان الى قيام الساعة

اما بعد فان عدود الذين الصلوة. فمستن حنظها وحافظ غيبة فقد حفظ دينه. ومن ضيها قولنا سواها اشبح. وان نداء الذين الحطة لتوته وشبابه الامر بالمعروف والنهي عن المنكر. فلانة الموثورة المتعسبة هي خير امة اخرجت للناس. والتي لا تتأمر ولا تفتناهي. هي شرمة لغت على السنة الاقياء. وان نجاح الامر بالمعروف الدهن عن المنكر بالصبر والبات. أي عالم صبر على أدى الأعمورين وثبت على تينج الحق وقد اخذ بعقله من ارت الذبوة.

نمل ككل مسلم أن يضع نصب عينه وصية لقان لا به لانها وصية عارف لامر الناس عليه. وقد أقرها احكم الحاكمين وارحم الراحمين. اذ حكاهما لتاني كتابه العزيز بقوله

يا ايها اتم الصلاة وامر بالمعروف. والله المنكر. واصبر على ما اصابك. ان ذلك من

الملحق رقم 22، صيغة لكتاب "مجالس الذكر" تأليف عبد الحميد بن باديس
وتم بحمد الله "الجمهورية الجزائرية" التابعة لجمعية العلماء.



لفضيلة الأستاذ الرئيس

عبد الحميد بن باديس

رحمته الله



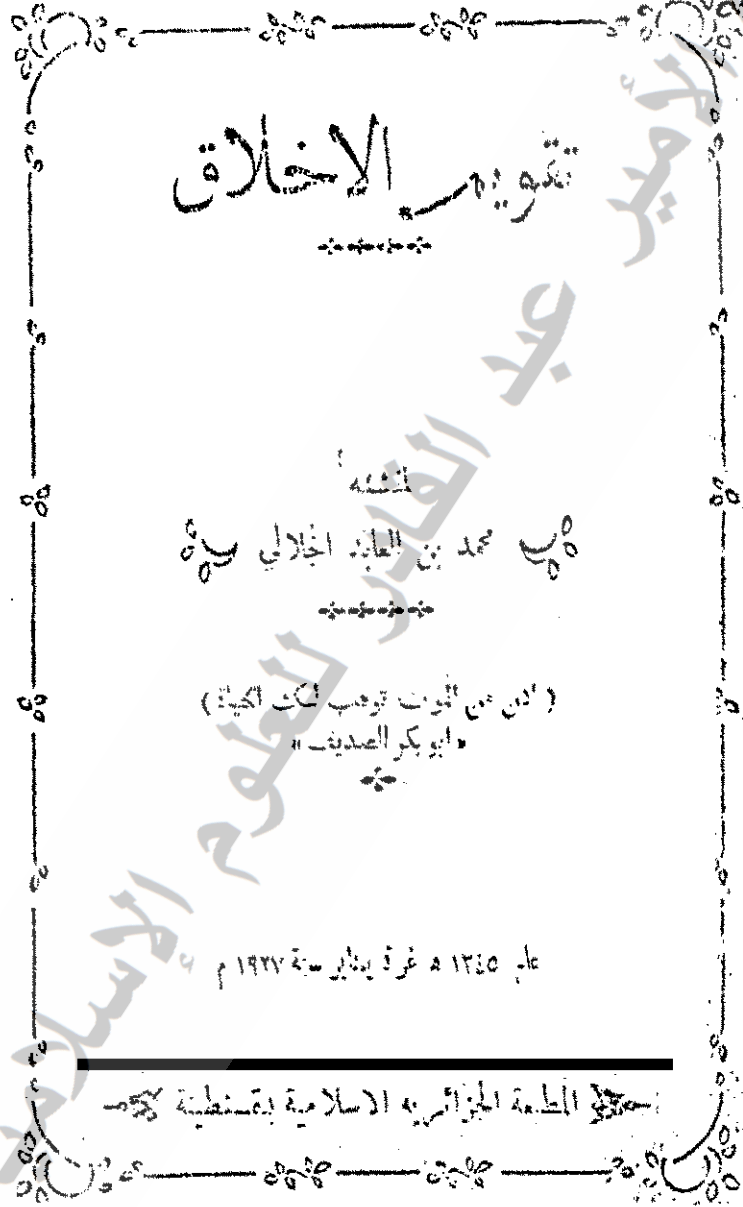
الذكرى الثامنة

٦ جمادى الثانية ١٣٦٧

١٦ أبريل ١٩٤٨

الجمهورية الجزائرية الإسلامية والمستقلة

المجلد رقم 22: صورة لكتاب "تقويم الأخلاق" طبته المطبعة الجزائرية الإسلامية
التابعة لمعوية العلماء



الفهارس

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

فهرس الآيات

الصفحة	رقمها	نص الآية	السورة
356	243	ألم تر إلى الذين خرجوا من ديارهم..	البقرة
197	19	إن الدين عند الله الإسلام.	
135 136 301 303	103	واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا ..	آل عمران
301 304 337	59	فإن تنازعتم في شئ فردوه إلى الله والرسول...	النساء
252	97	إن الذين توفاهم الملائكة ظالمي أنفسهم...	
539	3	اليوم أكملت لكم دينكم...	المائدة
248	16-15	يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم كثيرا مما.. ويهديهم إلى صراط مستقيم...	
211	31	من قتل نفسا بغير نفس أو فساد في الأرض فكأنما قتل الناس جميعا...	
157	56	ومن يؤمن بالله ورسوله والذين آمنوا...	
490	104	قد جاءكم بصائر من ربكم...	الأنعام
301	2-1	المص: كتاب أنزل إليك فلا يكن في صدرك حرج...	الأعراف
212	65	إن يكن منكم عشرون صابرون...	الأنفال
434	122	فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة...	التوبة
197 210 421	11	إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم...	الرعد
302	14	له دعوة الحق والذين يدعون من دونه يذنون...	
601	9	إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون.	الحجر

314 504	125	أدع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة...	التحلل
598	97	من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون.	
552	01	سبحان الذي أسرى بعبده ليلا.. الذي باركنا حوله.	الإسراء
249	58	وإن من قرية إلا نحن مهلكوها قبل يوم القيامة أو معذبوها عذابا شديدا كان ذلك في الكتاب مسطورا...	
487	135	قل كل متربص فتربصوا...	طه
302 303	78	هو سماكم المسلمين من قبل وفي هذا...	الحج
302	1	تبارك الذي نزل الفرقان على عبده...	الفرقان
596	76-75	أولئك يجزون الغرفة بما صبروا... خالدين فيها حسنت مستقرا ومقاما.	
236	214	وأندر عشيرتك الأقربين.	الشعراء
10	51	ولقد وصلنا لهم القول لعلهم يتذكرون.	القصاص
482	21	لقد كان لكم في رسول الله إساءة حسنة..	الأحزاب
592	36	وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمرا أن تكون لهم الخيرة من أمرهم ومن يعص الله ورسوله فقد ضلّ ضلالا مبينا.	
598	73	وقال لهم خزنتها سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين.	الزمر
486	18	ثم جعلناك على شريعة من الأمر فاتبعها...	الجنات
598	الجن - 22	أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات سواء محياهم ومماتهم ساء ما يحكمون... وهم لا يظلمون.	
242	7	إن تنصروا الله ينصركم...	محمد

301	10	إنما المؤمنون إخوة...	الحجرات
303			
304			
265	55	وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين.	الذاريات
157	22	لا تجحد قوما يؤمنون بالله.. ألا إن حزب الله هم المفلحون.	المجادلة
506	10	ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان...	الحشر
301	2-1	يا أيها المدثر، قم فأنذر .	المدثر
304			
301	1	ألم نشرح لك صدرك .	الشرح
301	2	ورضعنا عنك وزرك .	
314	3	وتواصوا بالحقّ وتواصوا بالصّبر .	العصر

فهرس الأءاءبءة:

الصفءة	نص الءءبء
601	إن الله ببعء لهءه الأمة على رأس كل مائة سنة من بءءء لها أمر ءبها.
310	بلعوا عىى... .
211	قواءه لأن بهءب الله بك رجلا واءءا ءبب لك من ءمر النعم.
252	قءع على أهل المءبءة بعء فاكتبب فبب فلقببب عبءمة فأءبببته... .
251	مءل المؤمنبب فبب ءواءهم ءءراءهم مءل البسء الواءء..
157	المؤمن للمؤمن كالببببب المرصوص بعءه بعءا... .
338	

فهرس الأعلام

حرف الألف

- ابراهيم، حافظ: 640.
- ابراهيم مولاي: 88.
- الابراهيمى، أحمد طالب 67 (هـ)-70.
- ابن أبى شنب، 142.
- ابن الأرقم، الأرقم -رضى الله عنه- 298.
- ابن أنس، الإمام مالك -رضى الله عنه: 215.
- ابن بنوح، سليمان: 142.
- ابن البسكري، عمر: 343.
- ابن التهامي (رئيس الحزب الليبرالي): 111-114.
- ابن تيمية، الامام تقي الدين: 150.
- ابن الجامع، عبد الحميد: 381.
- ابن الجفاف، عبد الرحمن: 630.
- ابن جلول، الذكور عمم الصالح: 115-118-119-121-399.
- ابن حراث، عبد القادر: 93.
- ابن حلوش، مصطفى: 342-410-411.
- ابن خلدون: 623.
- ابن دويقة، محمود: 266.
- ابن رحال: 630.
- ابن رشد (الفيلسوف): 290.
- ابن رواق، بلقاسم: 343.
- ابن سعد، علي: 489.
- ابن سماية، عبد الحلیم: 141-149-149 (هـ)- 464-467.
- ابن شميت، عمم المهدي: 173 (هـ).
- ابن الشريف، مولاي: 173.

ملاحظات: 1- لقد تكرّر ذكر العلامة ابن باديس والامام محمد البشير الابراهيمى ذكرًا مطردًا في أغلب صفحات البحث ولذلك يستغنى عن ذكره في قائمة الأعلام.

2- حرف (هاء) المشار إليه في قائمة السنحات يقصد به أن العلم قد ورد ذكره في الهامش التابع

للسنحة.

- ابن طكوك، (الشيخ): 269.
- ابن العابد، الصالح: 381.
- ابن العابد، محمد: 342.
- ابن عاشور، محمد الفاضل: 89-90.
- ابن عبد الكريم، محمد: 28 (هـ) - 38 (هـ) - 60 (هـ) - 63 (هـ) - 63 (هـ) - 85 - 90 .
- ابن عتق، محمد الصالح: 15-241 - 241 (هـ) - 375 - 375 (هـ) - 376 (هـ) - 377 (هـ) - 379 - 379 (هـ) - 380 - 381 (هـ) - 382 - 383 (هـ) - 399 - 399 (هـ) - 417 - 417 (هـ).
- ابن العربي، أبو بكر: 582-598 - 598 (هـ).
- ابن العربي، محمد: 630.
- ابن العقون، عبد الرحمن: 168-172-172 (هـ) - 174-174 (هـ) - 175 (هـ) - 178 (هـ) - 179-179 (هـ) - 180 (هـ) - 181 (هـ) - 208-235 (هـ) - 241-241 (هـ) - 275 (هـ).
- ابن عبد الله، الشريف محمد: 88.
- ابن عمر، باعزيز: 342-409-410-413.
- ابن عمر، علي: 52.
- ابن عليوة، أحمد: 176 (هـ) - 181-181 (هـ) - 269 (هـ).
- ابن قدور، عمر: 455-460-467.
- ابن قيم الجوزية: 150.
- ابن محمد، محمد الجبلاي: 336.
- ابن لفكون، أحمد: 53 (هـ).
- ابن منصور، محمد الصالح: 343.
- ابن منظور (صاحب اللسان): 10 (هـ) - 11 (هـ).
- ابن مهنا، صالح: 149.
- ابن الموفق (الدكتور): 399.
- ابن الموهوب، المولد: 149 (هـ) - 151 - 381-564.
- ابن ناصر، الشيخ ناصر: 89-343.
- ابن نافع، عقبة: 630.
- ابن نبي، مالك: 5 (هـ) - 6-6 (هـ) - 72 (هـ) - 98-98 (هـ) - 103-103 (هـ) - 140-148 (هـ) - 149 (هـ) - 156-156 (هـ) - 169 (هـ) - 188 (هـ) - 193-193 (هـ) - 201 (هـ) - 209-209 (هـ) - 214 (هـ) - 216 (هـ) - 231 (هـ) - 232-232 (هـ) - 237-237 (هـ) - 238-238 (هـ) - 213 (هـ).
- ابن نعمان، أحمد: 4-78 - 95 (هـ) - 96 (هـ) - 442 (هـ).
- ابن هشام: 580.

- ابن يحيى، عمر: 142.
 - أبو داود (الإمام)، 601 (هـ).
 - أبو سليمان، أحمد عبد الحميد: 371 (هـ).
 - أبو القظان (الشيخ): 154-154 (هـ) -155-177-325-342-460-462-467-469-470-473-489-
 495-569.
 - الأتاسي، جمال: 98 (هـ).
 - آخرون، شارل روبر: 43 (هـ) -56-56 (هـ) 57--(هـ) 68-68 (هـ) 70-70 (هـ) -90-90 (هـ)-
 92(هـ)-93(هـ)-97(هـ)-97(هـ)-101-101(هـ)-109(هـ)-125(هـ)-173(هـ)-
 569-570-570(هـ).
 - إحدادن، زهير: 50 (هـ) -153 (هـ)-457 (هـ)-457-458(هـ)-459(هـ)-477-477(هـ)-481-
 481(هـ)-498(هـ)-502(هـ).
 - أرسطو، الفيلسوف: 290-293.
 - أرسلان شكيب: 71(هـ)-132-132(هـ)-634.
 - إسماعيل، عمر: 167-171-172-173.
 - أطفيس، إبراهيم: 147.
 - أطفيس محمد: 150.
 - الأفغاني، الإمام جمال الدين: 454.
 - إمام، إبراهيم: 218 (هـ)-219 (هـ)-246(هـ)-292(هـ).
 - إمام، محمد كمال الدين: 290 (هـ)-291(هـ)-293(هـ).
 - آل خليفة، محمد العبد: 20-328-343-359-359(هـ)-360-360(هـ)-560-632(هـ)-633-633(هـ)-
 634-635-636-638-639-640-641-642.
 - آيت منصور، فاطمة: 69 (هـ).

حرف الباء

- باروكان، Barrucand: 55.
 - بالكلي، الحاج عمر: 142.
 - بالو، Ballot: 35.
 - باي، الحاج أحمد: 28(هـ)-45-88.
 - براون، كارل ليون Brown Carl Leon: 191.
 - برغسون (الفيلسوف): 234.
 - البخاري (الإمام): 157 (هـ)-211 (هـ)-252(هـ)-338 (هـ).
 - البديري، أحمد: 104 (هـ).
 - البديري، محمد: 105 (هـ).

- بسيلمان، فيكتور: 92 (هـ).
- بنافير، سيمون: 29-29 (هـ) -30-30 (هـ).
- بلانويج، أحمد: 123.
- بلاسي، أحمد نبيل 158 (هـ) -164-164 (هـ) -176 (هـ) -181 (هـ).
- بلوم : 115-117-194.
- بوتان (الجنرال): 28-169 (هـ).
- بوحدرة، رشيد: 76 (هـ).
- بوحمارة (الشيخ): 88.
- بوختاش (الشيخ): 88.
- بوردي، كلود : 54-75-85 (هـ).
- بوشمال، أحمد: 494 (هـ) -565-566-566 (هـ) -579-580.
- بوشوشة، الشريف: 89.
- بوالصفا، عبد الكريم: 15-118-167-167 (هـ) -169-169 (هـ) -170-170 (هـ) -175-198-
- 199-199 (هـ) -200-243-244 (هـ).
- بوضربة، أحمد: 28 (هـ) -44-45.
- بوضربة، عمر: 106.
- بوغيز، يحيى: 89-90 (هـ) -96-97 (هـ) -99 (هـ) -107 (هـ) -124.
- بوعمامة (الشيخ): 89.
- بوعودة، الشريف: 88.
- بوعياد، محمد: 102-102 (هـ).
- بوكوشة، حمزة: 171 (هـ) -342-417-489 (هـ).
- بولار، موريس: 108.
- بوليناك (الجنرال): 34.
- بومعزة، الشيخ: 88.
- بومي، جان: 79.
- بونابرت، نابليون: 28.
- بيحو، (الجنرال)، 38-47.
- بيدر (الجنرال): 58.
- بيير برونجر، أ: 66.
- بيوك، حاك: 71-181-
- بيل، ألفريد: 91 (هـ) -102.
- بيونس، ابراهيم: 173.

حرف التاء

- تايبي (مدير حريدة الحق الوهراني): 55.
- التيسي، الشيخ العربي: 177-230-237-245-306-309-310-311-330-342-423-469-506.
- تركي رابع: 13-213-213-213-225-367-398-402-403-404 (هـ)-413 (هـ)-243 (هـ).
- الترميذي (الإمام): 306 (هـ).
- تريبي، فيليب: 119 (هـ).
- التلمساني، أبو عبد الله الشريف: 578.
- التميمي، عبد الجليل: 86.
- تورين، أ: 95.
- تونير، أ (العقيد): 32 (هـ).
- تويني، أرنولد: 103.

حرف الشاء

- ثامر، الحبيب: 123.
- الثعالي، عبد العزيز: 545-576 (هـ).

حرف الجيم

- حدعان، فهمي: 107 (هـ)-209 (هـ)-210 (هـ)-211-216-232 (هـ)-234 (هـ).
- الجرحاني، عبد القاهر: 149.
- الجنان، عبد الحفيظ: 494 (هـ).
- جويان، شارل أندري: 185 (هـ)-191-191 (هـ).
- جونسون، فرنسيس: 414.
- الجليلي، عبد الرحمن: 150 (هـ).
- الجبلالي، محمد بن العابد: 20-408-473-560-614 (هـ)-615-615 (هـ)-628-628 (هـ)-629-629 (هـ)-630-630 (هـ)-631-631 (هـ).

حرف الحاء

- حافظ، حمدي: 27 (هـ)-32 (هـ)-39 (هـ)-40 (هـ)-105 (هـ).
- الحافظي، الشيخ المولود بن الصديق: 171-173-176 (هـ)-181-483 (هـ).
- حامد، اسماعيل: 53 (هـ)-200 (هـ).
- حجازي، مصطفى: 3 (هـ)-11 (هـ)-99 (هـ)-100 (هـ)-101 (هـ).

تريبي، محمد: 107 (هـ) 113 (هـ) - 129 (هـ) - 130-132 (هـ) - 140 (هـ).

حسنه، عمر عبيد: 259 (هـ).

- حسين، باي: 221 (هـ).

حسين، حمدي: 567.

- حسين، الداي " 25 (هـ) - 27-29-60-87.

- حسين، محمد محمد: 89-89 (هـ).

- الحصري، ساطع: 443-95 (هـ).

- الحفناوي، الشيخ أبو القاسم: 52.

- حماد، خير: 3 (هـ).

- حماني، أحمد: 156 (هـ) - 160-160 (هـ) - 161-161 (هـ) - 165-168-175 (هـ) - 224-224 (هـ) -

480-481 (هـ) - 494 (هـ).

حرف الخاء

- خالد، الأمير: 110-110 (هـ) - 111-112-113-114-115-118-127-127 (هـ) - 128-128 (هـ) -

134-134 (هـ) - 455 - 474-470.

خبناش، محمد الصالح: 473.

- الخطيب، أحمد: 15-131 (هـ) - 133 (هـ) - 134 (هـ) - 135 (هـ) - 136 (هـ) - 137 (هـ) - 141 (هـ) - 152 (هـ) -

156-156 (هـ) - 158 (هـ) - 159 (هـ) - 165-165 (هـ) - 166-166 (هـ) - 173-173 (هـ) -

178 (هـ) - 189 (هـ) - 243 (هـ) - 244 (هـ) - 245 (هـ) - 351 (هـ) - 354 (هـ) - 397 (هـ) -

400 (هـ) - 414 (هـ) - 425 (هـ) - 426 (هـ).

الخطيب، عبد الدين: 73 (هـ).

خروجة، حمدان: 28-28 (هـ) - 30-41 (هـ) - 44 (هـ) - 45-86 (هـ) - 91.

خروجة، مصطفى: 52.

- خير الدين، محمد: 9 (هـ) - 15-170-175 (هـ) - 181 (هـ) - 187-187 (هـ) - 189-190 (هـ) - 199 (هـ) - 227-

227 (هـ) - 228 (هـ) - 229 (هـ) - 230 (هـ) - 239-239 (هـ) - 301-301 (هـ) - 306-306 (هـ) -

306 (هـ) - 328-331 (هـ) - 342-398-398 (هـ) - 414 (هـ) - 419 (هـ) - 422 (هـ) - 423-

423 (هـ) - 424 (هـ) - 425 (هـ) - 427 (هـ) - 428 (هـ) - 429 (هـ) - 430 (هـ) - 431 (هـ) -

432-432 (هـ) - 489 (هـ) - 490 (هـ) - 491.

حرف الدال

- داغر، كميل قيصر: 107 (هـ).

- دبور، محمد علي: 141 (هـ) - 142-142 (هـ) - 148 (هـ) - 149 (هـ) - 150-150 (هـ) - 151 (هـ) - 152-

152 (هـ) - 155 (هـ) - 156-156 (هـ) - 164-164 (هـ) - 174 (هـ) - 396 (هـ) - 407 (هـ).

- الأندلسي، فرديناند: 343-417 (هـ) - 420 (هـ).
- الأندلسي، سنامي: 98 (هـ).
- دغبر، الشريف حسونة: 41 (هـ) - 85 (هـ).
- الدكالي، أبو شعيب: 545.
- دنندان، الصادق: 111.
- دوتيه (المورخ): 73.
- دوروفيكو (الجنرال): 29 (هـ) - 36 (هـ) - 39 (هـ) - 48 (هـ) - 86.
- دوساسي (المستشرق): 32 (هـ).
- دوماس، (الجنرال): 50.
- ديارمي، جوزيف: 166-185 (هـ) - 191 - 191 (هـ) - 193 (هـ) - 622.
- دي بورمان (الجنرال): 37-39.
- ديرلون، دروي (الجنرال): 38.
- ديرليك، أندري: 188 (هـ).
- ديسوس، أرنست: 134 (هـ).
- ديسلان (المستشرق): 66.
- ديكر، (الأميرال): 28.

حرف الراء

- راسم، عمر: 55-153 - 153 (هـ) - 154 - 454 - 467 - 569 (هـ) - 630.
- رشقي، جيهان أحمد: 11-27 (هـ) - 31 (هـ) - 206 - 206 (هـ).
- رضا، الإمام محمد رشيد: 141-142-143-143 (هـ) - 454 - 460 - 571 - 572 - 165 - 165 (هـ).
- رمضان، محمد الصالح: 573-586-599.
- روني، (الوزير) (Regnier): 122-354.
- ريشليو (القس): 187.
- ريشموند، ف: 182 (هـ) - 190 (هـ) - 191 (هـ) - 191 (هـ).

حرف الزاي

- الزاهري، محمد السعيد: 343-396 (هـ) - 417 - 447 - 460 - 469 - 470 - 483 - 489 (هـ) - 507 - 513.
- 514-565-565 (هـ) - 567 - 567 (هـ) - 589 - 589 (هـ) - 590 - 590 (هـ) - 483.
- الزهيري، محمد العربي: 28 (هـ) - 29 (هـ) - 33 (هـ) - 41 (هـ) - 45 (هـ) - 86 (هـ).
- زرقين، الدكتور: 399.
- زكريا، مفدي: 136 (هـ).
- الزمخشري (الإمام): 380 (هـ).

- زكريا، مفدي: 136 (هـ).
- الزختمري (الإمام): 380 (هـ).
- الزمولي، محمد: 173 (هـ).
- الزهار، أحمد الشريف: 23 (هـ)-32 (هـ).
- الزهار، عيسى: 574 (هـ).
- زوزو، عبد الحميد: 23 (هـ)-24 (هـ)-27 (هـ)-30 (هـ)-33 (هـ)-58 (هـ)-61 (هـ)-63 (هـ)-67 (هـ)-127 (هـ)-130 (هـ)-133 (هـ)-135 (هـ).

حرف السين

- ستوراد، لوثورب: 71 (هـ)-200 (هـ).
- ستيف Steag: 114.
- السطايبي، رابع بن الأخضر: 343.
- سعد الله، أبو: تقاسم: 1 (هـ)-14 (هـ)-15 (هـ)-27 (هـ)-27 (هـ)-28 (هـ)-28 (هـ)-29 (هـ)-32 (هـ)-42 (هـ)-
- 45 (هـ)-48 (هـ)-59 (هـ)-61 (هـ)-62 (هـ)-62 (هـ)-63 (هـ)-64 (هـ)-77 (هـ)-77 (هـ)-96 (هـ)-101 (هـ)-102 (هـ)-
- 102 (هـ)-108 (هـ)-109 (هـ)-113 (هـ)-116 (هـ)-117 (هـ)-120 (هـ)-128 (هـ)-131 (هـ)-133 (هـ)-140 (هـ)-
- 144 (هـ)-151 (هـ)-160 (هـ)-165 (هـ)-167 (هـ)-173 (هـ)-178 (هـ)-181 (هـ)-191 (هـ)-194 (هـ)-200 (هـ)-
- 295 (هـ)-420 (هـ)-561 (هـ)-553 (هـ)-577 (هـ)-614 (هـ)-628 (هـ)-636 (هـ)-639 (هـ).
- سلطاني، عبد: نظيف: 165-165 (هـ).
- سلمان، نور: 3 (هـ)-31 (هـ)-34 (هـ)-71 (هـ)-76 (هـ)-99 (هـ)-106 (هـ)-108 (هـ)-118 (هـ)-
- 295 (هـ)-329 (هـ).
- سلوادي، حسين عبد الرحمن: 2 (هـ)-14 (هـ)-216 (هـ)-217 (هـ)-224 (هـ)-571 (هـ)-580 (هـ)-
- 581 (هـ)-582 (هـ)-583 (هـ)-588 (هـ)-595 (هـ)-595 (هـ)-611 (هـ)-612 (هـ).
- سليم، المنجي: 123.
- السنوسي، الهادي: 417 (هـ)-630 (هـ).
- سورسان Syr Saint: 110 (هـ).
- سيف الإسلام، الزبير: 35 (هـ)-36 (هـ)-39 (هـ)-46 (هـ)-48 (هـ)-50 (هـ)-51 (هـ)-52 (هـ)-
- 53 (هـ)-53 (هـ)-104 (هـ)-461 (هـ)-464 (هـ)-489 (هـ).

حرف الشين

- شاتيليه، آل: 73 (هـ).
- شارل العاشر الملك: 29-31-37.
- شاهين، عبد المعبود: 5 (هـ)-98 (هـ)-105 (هـ).
- شعاعة، عبد الله: 291-291 (هـ).
- شرف، عبد العزيز: 10-10 (هـ).

- الشرقاري، محمود: 32(هـ)-37(هـ)-39(هـ)-40(هـ) / الشرقاري، غنت: 588.
- شفيق، توفيق محمد: 580.
- سلمي، عبد العزيز: 291-291(هـ)-334(هـ)-339(هـ)-345(هـ).
- الشنوق، علي: 105(هـ).
- الشوكاني (الامام): 151.
- شيان، عبد الرحمن: 200-594-594(هـ).

حرف الصاد

- صاري، الجليلي: 93(هـ)-94(هـ)-103(هـ)-107(هـ)-113(هـ)-117(هـ)-121(هـ)-128(هـ)-
- 129(هـ)-130(هـ)-136(هـ)-201(هـ)-208(هـ)-243(هـ)-354.
- الصالحي، السعيد: 343-417(هـ).
- صالح باي: 65(هـ).
- صحراوي، اسماعيل: 494(هـ).
- صفر، الشيخ البشير: 576.

حرف الطاء

- الطبري (الامام ابن حريز): 581.
- الطرابلسي، حسن: 173.
- الطالبي، عمار: 71(هـ)-72(هـ)-73(هـ)-140(هـ)-143-143(هـ)-149(هـ)-154(هـ)-224-
- 347(هـ)-354-372(هـ)-373(هـ)-573(هـ)-581(هـ)-583(هـ)-584(هـ)-599.

حرف العين

- عائشة (أم المؤمنين)-رضي الله عنها-: 217(هـ).
- العاصمي، محمد: 163(هـ)-527-630.
- عابسة، محمد: 49.
- عباس، فرحات: 76-115-118-119-120-121-122-122(هـ)-123-124-619.
- عبد الرحمن، عواطف: 34-35(هـ)-49(هـ)-51(هـ)-53(هـ)-96-107-107(هـ)-118(هـ).
- عبد العزيز، آيت أحمد: 173(هـ).
- عبد القادر، الخاج علي: 128.
- عبد القادر، (الأمير): 46-51-88-91.
- عبده، الإمام محمد: 141-142-143-143(هـ)-144-149-197-454.
- عزت، محمد فريد محمود: 9(هـ)-10-10(هـ).
- العقاد، صلاح: 10(هـ)-109(هـ)-184(هـ).
- عقاش، أحمد: 1(هـ).

- العسقلاني، الإرم ابن حجر: 157 (هـ)-211 (هـ)-252 (هـ)-338 (هـ).
- العلوي، محمد الطيب: 96 (هـ)-99 (هـ)-112 (هـ)-121 (هـ)-122 (هـ)-123-124-194 (هـ).
- علي، أحمد سعد: 601 (هـ).
- علي الشريف، محمد السعيد: 52.
- علي، محمد: 51 (هـ).
- عمار، (الحاج): 111.
- عمر (الحاج): 88.
- العمودي، محمد الأمين: 173-177-467-490-507-573 (هـ).
- العنق، الحاج عمر: 173 (هـ).
- عوض، صالح: 14-81 (هـ)-85 (هـ)-104 (هـ)-111 (هـ)-115 (هـ)-116-116 (هـ)-124-
- 124-129 (هـ)-130 (هـ)-133 (هـ)-137 (هـ)-138 (هـ).

حرف الغين

- غاندي: 96.
- غلسي، جوان: 3 (هـ)-49 (هـ)-100 (هـ)-124-128 (هـ)-130 (هـ)-137 (هـ).
- غوتنبرغ: 34.

حرف الفاء

- الفاسي، علأل: 123.
- الفاسي، محمد: 123.
- فانون، فرانتز: 98-98 (هـ)-100-100 (هـ)-101 (هـ).
- فانيلان: 65.
- الفرغاري، علي المغربي: 343.
- فرعون: 54.
- الفرقد: 630.
- فركوس، محمد صالح: 189 (هـ).
- فريد، محمد: 141 (هـ).
- فضلاء، محمد أنطون: 121-143-143 (هـ)-144-144 (هـ)-145-145 (هـ)-168-168 (هـ)-
- 227 (هـ)-396 (هـ).
- فضيلة، مجاوتة: 5-5 (هـ)-78 (هـ)-79-79 (هـ)-80.
- الفكون، أحمد: 65.
- فلوحان، إتيان: 97 (هـ).
- فوكولت أندري: 108.
- فيحانك شاملير: 66.

- فيخته (الفياسو م): 442.
- فينرمان (الثور : الفرنسي): 63.
- فيلو (رئيس اللجنة الافريقية): 93.
- فيليب، لويس: 37-50.
- فيوليت وريس: 115-117-169-194-391.

حرف القاف

- القاسمي، عبد القادر: 173.
- قداش، محفوظ: 84(هـ)-93(هـ)-103(هـ)-107(هـ)-112(هـ)-113(هـ)-114(هـ)-117(هـ)-121(هـ)-126(هـ)-128(هـ)-129(هـ)-130(هـ)-132(هـ)-134(هـ)-136(هـ)-205(هـ)-208(هـ)-243(هـ)-353(هـ).
- قطب سيد: 213 (هـ).
- القماري، علي ابن السعد: 343.
- قنانش، محمد: 8-29-96-96(هـ)-110(هـ)-112(هـ)-113(هـ)-114(هـ)-121(هـ)-126(هـ)-127(هـ)-128(هـ)-129(هـ)-132(هـ)-133(هـ)-134(هـ)-136(هـ)-136(هـ)-143(هـ)-143(هـ).
- القزاني، السعد بن عمر: 343.
- فولدزيفر، آني: 5-6-80-80(هـ)-81(هـ).

حرف الكاف

- الكبير، الباي محمد: 65 (هـ).
- الكبير، (لويس) (Le Grand Luis): 110 (هـ).
- الكتاني، محمد ابراهيم: 343.
- كحول، (الشيخ) (المعروف بان دالي): 121.
- كريمو: 105-105 (هـ).
- كلاين، فليكس: 69 (هـ).
- كلوزيل، (الجزال): 30-37.
- كلينصو: 106.
- كلود، كلود: 166-484(هـ)-488.
- كولي، شارل هرتون: 567-567(هـ).

حرف اللام

- لافيجري، الكاردينال: 69-69(هـ)-201(هـ)-228.
- لاموريسييار (المتزال): 169 (هـ).
- لخباني، محمد سيد العزيز: 234 (هـ).

- لوكوك، لويس: 80 .

حرف الميم

- مارسي، جورج: 92 (هـ).
 - مارسي، وليام: 92 (هـ)-93.
 - ماكرايد، شو: 12 (هـ).
 - المبار كافوري، محمد عبد الرحمن عبد الرحيم: 310.
 - المجاري، عبد القادر: 142-149-467-564.
 - محمد - صلوات الله عليه وسلم: 146-175 (هـ)-198-199-211-211 (هـ)-212-217-226-230-
 -236-246-248-251-252-256-264-265-292-298-299-300-
 -303-307-311-313-314-315-334-337-338-483-484-506-
 -571-582-586-593-597-601-606-610-608-610.
 - محمد، محمد سيد: 292 (هـ)-297 (هـ)-327 (هـ).
 - محمد، محمد عرد: 294 (هـ).
 - عمرد الثاني (السلطان العثماني): 51 (هـ).
 - المختار، عمر: 25.
 - المنفي، أحمد تزيق: 23 (هـ)-32 (هـ)-57 (هـ)-58 (هـ)-59-59 (هـ)-116 (هـ)-119 (هـ)-119 (هـ)-
 -120-120 (هـ)-123 (هـ)-149 (هـ)-163-163 (هـ)-164-164 (هـ)-166-167-
 -170-171 (هـ)-175-175 (هـ)-176 (هـ)-260 (هـ)-296-296 (هـ)-306 (هـ)-
 -307 (هـ)-460 (هـ)-462 (هـ)-466-466 (هـ)-569-569 (هـ)-574-574 (هـ).
 - مراد، علي: 6-6 (هـ)-8 (هـ)-13-13 (هـ)-15-15 (هـ)-51-108-108 (هـ)-109 (هـ)-113-113 (هـ)-142 (هـ)-
 -155 (هـ)-157-157 (هـ)-158 (هـ)-166-166 (هـ)-171 (هـ)-172-172 (هـ)-174-174 (هـ)-
 -180-181-182 (هـ)-222 (هـ)-224 (هـ)-231 (هـ)-234-236-236 (هـ)-237 (هـ)-245 (هـ)-
 -246 (هـ)-259 (هـ)-261 (هـ)-262 (هـ)-263 (هـ)-268 (هـ)-275 (هـ)-350 (هـ)-351 (هـ)-
 -370 (هـ)-371 (هـ)-374 (هـ)-387 (هـ)-389 (هـ)-391-400-400 (هـ)-401-401 (هـ)-402 (هـ)-
 -403 (هـ)-416 (هـ)-435 (هـ)-440 (هـ)-442 (هـ)-447-447 (هـ)-448-573-574 (هـ)-
 -575 (هـ)-586-586 (هـ)-602 (هـ)-635 (هـ).
 - مرتاض، عبد المالك: 95 (هـ)-234-235-324-325-360-361-361 (هـ)-482-482 (هـ)-492 (هـ).
 - مرحوم، علي: 165-165 (هـ).
 - مصالي، (النجار): 122-128-129-130-131-132.
 - المطبقاني، حامد مازن صلاح: 15-140 (هـ)-147 (هـ)-152 (هـ)-153 (هـ)-155 (هـ)-158 (هـ)-
 -159 (هـ)-167-167 (هـ)-171 (هـ)-172 (هـ)-175 (هـ)-182 (هـ)-

- 187(هـ)-188(هـ)-189(هـ)-190(هـ)-191(هـ)-192(هـ)-192(هـ)-
 196(هـ)-199(هـ)-378(هـ)-378(هـ)-401(هـ)-401(هـ)-413(هـ)-413(هـ).
 - مستقوي، عمر: 4(هـ)-98(هـ).
 - مسلم (الاعام): 251(هـ)-338(هـ)-483(هـ).
 - المسيح (عليه السلام): 4-516.
 - الملياني، سليمان بن الصيام: 52-53(هـ).
 - مناصرية، يوسف: 131(هـ).
 - المهاجي، الطيب: 173.
 - موسى عليه السلام: 54.
 - ميشال (وزير فرنسي): 351-351(هـ).
 - المهلي، مبارك: 20-147-169-171-173-177-230-244-296-296(هـ)-306-342-396(هـ)-
 403(هـ)-473-491-506-506(هـ)-559-560-566-567(هـ)-572-573-
 573(هـ)-574-574(هـ)-577-577(هـ)-600-600(هـ)-601(هـ)-602-603-
 605-606-607-608-609-610-610-611-613-615-616-617-618-619-620-
 621-622-623-624-625-626-627-630-634-641.
 - الملي، محمد: 14-98(هـ)-122(هـ)-195(هـ)-196(هـ)-415(هـ)-418(هـ)-443(هـ)-444(هـ).
 - ميليس، جورج: 76.
 - ميترنخ، كليمانت: 29.
 - ميرانت، جان: 5-52-71-175.
 - مورتين (باحث ألماني): 11.
 - ميرو (حاكم عام في الجزائر)-490-492.

حرف النون

- نابليون، الثالث: 5(هـ).
 - ناصر، محمد: 52(هـ)-55(هـ)-96(هـ)-112(هـ)-136(هـ)-152(هـ)-153(هـ)-154(هـ)-154(هـ)-
 158(هـ)-453(هـ)-454-454(هـ)-455(هـ)-457(هـ)-459-459(هـ)-460-464-
 464(هـ)-466(هـ)-470(هـ)-482(هـ)-484(هـ)-487-487(هـ)-488(هـ)-492(هـ)-
 507(هـ).
 - نايت بلقاسم، مولد قاسم: 442(هـ).
 - نسومر، فاطمة: 88.
 - نزشي، أنلري: 621.
 - نويهض، عادل: 149(هـ)-150(هـ)-153(هـ)-163(هـ)-181(هـ)-221(هـ)-223(هـ)-629(هـ).
 - نويهض، عجاج: 71(هـ).

- النخلي (الامام عمده): 223-223(هـ)-406.

حرف الهاء

- هاردي (الفيلسوف)، 442.

- الهاشمي، عبد الحفيظ: 96 (هـ).

- الهاملي، أبو القاسم: 150.

- هنري، جان روبر: 166.

- هوفلاند، كارل: 11.

- هويدي، يحيى: 102.

- هيريو، إدوارد: 112.

حرف الواو

- وحدي، محمد فريد: 78 (هـ).

- الورتيلاني، الفضيل: 3-54-75-85-212-212(هـ)-342-416-430-434(هـ).

- الونيسي، حمدان: 223-223 (هـ).

- ويلسون، توماس وودرو (رئيس الولايات المتحدة الأمريكية): 112-146.

حرف الياء

- البحري، السعيد: 173.

- البراتيبي، عمده الفضيل: 173.

- يحيى، جلال: 40-40(هـ)-42(هـ).

- ينفز، جورج: 86 (هـ).

4- فهرس الجداول

- I- الجدول رقم 1:** معطيات وأرقام عن التعليم الفرنسي في الجزائر
- الجدول رقم 2:** التعليم الأهلي بالجزائر من سنة 1854 حتى 1857م
- الجدول رقم 3:** عدد التلاميذ والأقسام والمدارس في الجزائر بين سنوات 1882-1898م.
- الجدول رقم 4:** المؤسسات التعليمية الجزائرية أواخر العهد العثماني وأوائل الاحتلال الفرنسي في بعض المدن الجزائرية.
- الجدول رقم 5:** المؤسسات التعليمية في قسنطينة بين 1837 و 1847م.
- II- الجدول رقم 6:** هجرة الجزائريين نحو بلدان المغرب والمشرق العربيين بين سنوات 1871-1911م.
- الجدول رقم 7:** الهجرة الجزائرية نحو فرنسا بين سنوات 1912-1954م.
- الجدول رقم 8:** عدد الفئة المثقفة بالفرنسية بين سنوات 1917-1921م.
- الجدول رقم 9:** حركة الجالية الجزائرية بين سنة 1919-1924م.
- الجدول رقم 10:** حركة الجالية الجزائرية حتى سنة 1925-1930م.
- الجدول رقم 11:** الدروس والخطب والرحلات الاشهارية الأولى لجمعية العلماء.
- الجدول رقم 12:** التقارير الرسمية التي أقيمت في المؤتمر الخامس لجمعية العلماء 1935م.
- الجدول رقم 13:** الخطب التي أقيمت في المؤتمر الخامس لجمعية العلماء 1935م.
- الجدول رقم 14:** عدد الطلبة بمعهد ابن باديس بقسنطينة بين سنوات 1947 و 1955م.
- الجدول رقم 15:** طلبة البعثات الأولى لجمعية العلماء إلى الدول العربية وكيفية توزيعهم بها سنة 1954م.
- الجدول رقم 16:** موضوع الاستعمار الاوروبي في جريدة "الشهاب" سنة 1926م.

5- فهرس الملحقاات. والصور

الملحق رقم 1	المنشور الفرنسي الذي وزع على الجزائريين قبل وأثناء عملية الغزو الأولى
الملحق رقم 2	رسالة الأمير خالد إلى رئيس وزراء فرنسا ادوارد هيريو E.Heriot
الملحق رقم 3	صورة لجريدة "الإقدام"
الملحق رقم 4	نص الميثاق المطلي للمؤتمر الاسلامي سنة 1936م
الملحق رقم 5	نص البيان الذي حرره فرحات عباس
الملحق رقم 6	نص ملحق البيان الذي حرره فرحات عباس
الملحق رقم 7	برنامج نجم شمال افريقيا في نصه الأول
الملحق رقم 8	برنامج نجم شمال افريقيا الذي قدمه في مؤتمر بروكسيل سنة 1927م
الملحق رقم 9	صورة لجريدة "الأمة"
الملحق رقم 10	القانون الأساسي لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين
الملحق رقم 11	دعوة جمعية العلماء المسلمين الجزائريين وأصولها
الملحق رقم 12	قائمة بأسماء المعتمدين من رجال الجمعية إلى مختلف جهات القطر الجزائري
الملحق رقم 13	قائمة العلماء المعتمدين للوعظ في شهر رمضان
الملحق رقم 14	صورة للمطبعة الإسلامية الجزائرية بقسنطينة (مطبعة جمعية العلماء)
الملحق رقم 15	صورة: مؤسسي المطبعة الإسلامية الجزائرية
الملحق رقم 16	صورة لجريدة "المتقدم"
الملحق رقم 17	صورة لجريدة "الشهاب"
الملحق رقم 18	صورة لجريدة "السنة النبوية"
الملحق رقم 19	صورة لجريدة "الشريعة الحمديّة"
الملحق رقم 20	صورة لجريدة "الصراط السوي"
الملحق رقم 21	صورة لجريدة "البصائر"
الملحق رقم 22	صورة لكتاب: مجالس التذكير من تأليف الامام عبد الحميد بن باديس وطبع المطبعة الإسلامية الجزائرية بقسنطينة
الملحق رقم 23	صورة لكتاب: تقويم الأخلاق طبعه المطبعة الإسلامية الجزائرية التابعة لجمعية العلماء

6- قائمة المصادر والمراجع

1- قائمة المصادر :

أولا الكتب :

- القرآن الكريم ، رواية ورش

الابراهيمى، محمد البشير:

- 1- آثار محمد البشير الابراهيمى، الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب، 1985م، ج1.
 - 2- آثار محمد البشير الابراهيمى، الجزائر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1978م، ج4.
 - 3- سجل مؤتمر جمعية علماء المسلمين الجزائريين: المنعقد بمركزها العام بناي الترقى، الجزائر، دار الكتب.
 - 4- عيون البصائر:، الجزائر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع د ت .
ابن باديس، عهد الحميد:
 - 5- آثار عبد الحميد بن باديس، رئيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، قسنطينة، دار البعث، 1984م، ج3.
 - 6- آثار عبد الحميد بن باديس، رئيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، الجزائر، قسنطينة، 1991م، ج4، ج5.
 - 7- رجال السلف ونسأوه: الجزائر، مكتبة الشركة الجزائرية، 1949م.
 - 8- مجالس التذكير: قسنطينة، المطبعة الاسلامية الجزائرية، 1927م.
 - 9- مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير: الجزائر، مطبوعات وزارة الشؤون الدينية، 1982م.
 - 10- مجالس التذكير من كلام البشير النذير، مطبوعات وزارة الشؤون الدينية، 1983م.
- ابن عتيق، محمد الصالح.
- 11- أحداث ومواقف في مجال الدعوة الاصلاحية والحركة الوطنية بالجزائر: الجزائر، منشورات دحلب، 1990م.
- الجيلالي، محمد العابد.
- 12- تقييم الأخلاق: قسنطينة، المطبعة الاسلامية الجزائرية، 1927م.
- حمالي، أحمد.
- 13- الصراع بين السنة والبدعة أو القصة الكاملة للسطو بالإمام الرئيس عبد الحميد بن باديس، قسنطينة، دار البعث، 1984م، ج2.
- خير الدين، محمد.
- 14- مذكرات: الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب، دت، ج1.
- الزاهري، محمد السعيد.
- 15- الاسلام في حاجة إلى دعابة وتيسير: دمشق، مطبعة الاعتدال، 1934م، ط2.

فضلاء، محمد الطاهر.

- 16- التحريف والتزييف في كتاب حياة كفايح، قسنطينة، دار البعث، 1982م.
- 17- دعائم النهضة الوطنية الجزائرية، التعليم الديني، الإصلاح الديني، جمعية العلماء، قسنطينة، دار البعث، 1984م.
- 18- قال الشيخ الرئيس الامام عبد الحميد بن باديس، قسنطينة، دار البعث، 1968م.
- الوتيلاي، الفضيل.
- 19- الجزائر النائرة، عين مليلة، دار الهدى، 1992م.
- منشورات وزارة التربية الوطنية.
- 20- شعراء الجزائر، ديوان محمد العيد محمد علي خليفة، الجزائر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1979م.
- الميللي، محمد مبارك.
- 21- تاريخ الجزائر في القديم والحديث، الجزائر، مكتبة النهضة الجزائرية، 1963م، ط2، ج1.
- 22- تاريخ الجزائر في القديم والحديث، قسنطينة: المطبعة الاسلامية الجزائرية، 1932م، ج2.
- 23- رسالة الشرك ومظاهره، الجزائر، مكتبة النهضة الجزائرية، 1966م، ط2.

ثانيا : الدوريات، الجرائد، المجلات :

- 24- مجموعة جريدة "البصائر" الأولى، لسان حال جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، الجزائر، دار البعث، السنة الأولى من سبتمبر 1936 - جانفي 1937م.
- 25- مجموعة جريدة "السنة النبوية".
- 26- مجموعة جريدة "الشريعة المحمدية".
- 27- مجموعة جريدة "الشهاب".
- 28- سورة مجلة "الشهاب" 1926م.
- 29- مجلة الشهاب: ج1، م5، فيفري 1929م.
- 30- " : ج12، م5 جانفي 1930، ج11، م6، ديسمبر 1930م.
- 31- " : ج9، م10، أوت 1934م.
- 32- " : ج1، م11، أفريل 1935م.
- 33- " : ج3، م12، جوان 1936م.
- 34- " : ج7، م13، سبتمبر 1937م، ج9، م13، نوفمبر 1937م.
- 35- " : ج11، م13، جانفي 1938م، ج2، م14، مارس 1938م، ج6، م14، أوت 1938م
- 36- مجموعة جريدة "الصراط السوي".
- 37- مجموعة جريدة "المتقد".

ثالثا: الوثائق:

38- وثائق الحركة الوطنية، نصوص أساسية ووثائق من 1350هـ/1931م إلى 1363هـ/1944م
رقم 7-8-9، الجزائر، مطبوعات مديرية الوثائق لولاية قسنطينة، 1982م.

ب- قائمة المراجع باللغة العربية:أولا الكتب:

ابن عاشور، محمد الفاضل.

1- المحاضرات المغربية، جمع وإعداد ابن عبد الكريم عماد، الجزائر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، تونس، الدار التونسية، 1974م.

ابن عبد الكريم، محمد.

2- حمدان خوجة الجزائري ومذكراته، بيروت، دار الثقافة 1972م.

ابن العقون، عبد الرحمن.

3- الكفاح القومي والسياسي من خلال مذكرات معاصر الفترة الأولى 1920-1936م،
الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب، 1984م، ط3.

بن نبي، مالك.

4- تأملات، سوريا، دار الفكر، 1985م.

5- شروط النهضة، ترجمة عبد الصبور شاهين، عمر مسقاوي، سوريا، دار الفكر، 1986م.

6- الصراع الفكري في البلاد المستعمرة، الجزائر، دار الفكر، سوريا، دار الفكر، 1988م، ط3.

7- مذكرات شاهد قرن، القسم الأول: الطفل 1905-1930م، دمشق، دار الفكر، 1984م،
ط2.

8- ميلاد بجمع: ترجمة عبد الصبور شاهين، مصر، مكتبة دار العروبة، 1962م.

ابن نعمان، أحمد.

9- التعريب بين المدل والتطبيق، الجزائر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1981م.

أبو داود، (الإمام سليمان بن الأشعث بن إسحاق السجستاني).

10- سنن أبي داود، تعليق أحمد سعد علي، مصر، مطبعة مصطفى البابي، 1952م، ج2.

أبو سليمان، عبد الحميد.

11- أزمة العقلم المسلم، عين مليلة، دار الهدى، 1992م، ط2.

ابن زهير.

12- بيلوغرافيا الصحافة الجزائرية، الصحافة الإسلامية الجزائرية من بدايتها حتى سنة

الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب، 1986م.

- أرسلان، شكيب.
- 13- سيرة ذاتية، لبنان، دار الطلبة للطباعة والنشر، 1969م.
- إمام، إبراهيم.
- 14- أصول الإعلام الإسلامي، القاهرة، دار الفكر العربي، 1975م.
- إمام، محمد كمال الدين.
- 15- النظرة الإسلامية للإعلام، محاولة منهجية، الكويت، دار البحوث العلمية، 1933م، ط2.
- أمين، أحمد.
- 16- زعماة الإصلاح في العصر الحديث، الجزائر، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، 1990م.
- البخاري، (الإمام أبو عبد الله محمد بن اسماعيل بن إبراهيم بن الميمون البخاري الجعفي).
- 17- سحيح البخاري، مصر، إدارة الطباعة المنيرية، د.ت، ج4.
- بفايفر، سيمون.
- 18- مذكرات أو شحة تاريخية عن الجزائر، تقديم وتعريب: أبو العيد دودو، الجزائر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1974م.
- بلاسي أحمد نبيل.
- 19- الاتجاه العربي والإسلامي ودوره في تحرير الجزائر، مصر، الهيئة المصرية للكتاب، 1990م.
- بوالصفصاف، عبد الكريم.
- 20- جمعية العلماء المسلمين الجزائريين ودورها في الحركة الوطنية الجزائرية 1931-1945م، قسنطينة، دار البعث، 1981م.
- بوعزيز، يحيى.
- 21- الأيديولوجيات السياسية للحركة الوطنية الجزائرية من خلال ثلاثة وثائق جزائرية، الجزائر، ديوان المطبوعات الجامعية. د.ت.
- بوعيايد، محمود.
- 22- جوانب من الحياة في المغرب الأوسط في القرن التاسع الهجري (15م)، الجزائر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1982م.
- توكي، رابح.
- 23- الشيخ عبد الحميد بن باديس، فلسفته وجهوده في التربية والتعليم، الجزائر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1970م.
- جدعان، فهمي.
- 25- أسس التقدم عند مفكري الإسلام في العالم العربي الحديث، لبنان، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 1981م، ط2.
- حافظ، حمدي، الشرفاوي محمود.
- 26- الجزائر، كفاح شعب ومستقبل أمة، مصر، الدار القومية للطباعة والنشر. د.ت.

حجازي، مصطفى.

27- التخلف الاجتماعي، سيكولوجية الانسان المقهور، لبنان، دار الانماء العربي، 1989م، ط5.

حزبي، محمد.

28- جبهة التحرير الوطني، الأسطورة والواقع، ترجمة كامل قبصر داغر، لبنان، مؤسسة

الأبحاث العربية، 1983م، ط2.

حسنه، عمر عبيد.

29- مراجعات في الفكر والدعوة والحركة، عين مليلة، دار المهدي. د.ت

حسين، حمدي.

30- مقدمة في دراسة وسائل وأساليب الاتصال، القاهرة، دار الفكر، 1987م.

حسين، محمد محمد.

31- الإسلام والحضارة الغربية، لبنان، مؤسسة الرسالة، 1982م، ط4.

حقي، إحسان.

32- الجزائر العربية، أرض الكفاح المجيد، بيروت، منشورات المكتب التجاري، 1961م.

الخطيب، أحمد.

33- حزب الشعب الجزائري، الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب، 1986م، ج1.

34- جمعية العلماء المسلمين الجزائريين وأثرها الإصلاحية في الجزائر، الجزائر، المؤسسة الوطنية

للكتاب، 1985م.

خوجة، حمدان عبد الرحمن.

35- المرأة: تقديم وتعريب وتحقيق: حمد العربي الزبيري، الجزائر، الشركة الوطنية للنشر

والتوزيع، 1975م.

دهوز، محمد علي.

36- أعلام الإصلاح في الجزائر 1921-1975م، قسنطينة، دار البعث، 1974م، ج1، ج2.

37- نهضة الجزائر الحديثة وثورتها المباركة، الجزائر، المطبعة التعاونية، 1965م، ج1.

38- نهضة الجزائر الحديثة وثورتها المباركة، الجزائر، المطبعة العربية، 1971م، ج2، ج3.

رشقي، جيهان أحمد.

39- الأسس العلمية لنظريات الإعلام، القاهرة، دار الفكر العربي، 1977م.

رضا، محمد رشيد.

40- تاريخ الأستاذ الامام محمد عبده، مصر، مطبعة المنار، 1324 هـ، ج1.

الزبيري، محمد العربي.

41- مذكرات أحمد باي وحمدان خوجة وبضربة، الجزائر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع،

1973م.

زوزو، عهد الحميد.

- 42- ندى صدر وثائق في تاريخ الجزائر المعاصرة 1900-1930م، الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب، 1984م.
- 43- الهجرة ودورها في الحركة الوطنية الجزائرية بين الحربين 1919-1939م، الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب، 1984م، ج 1.
- ستوفارد، لوثرورب.
- 44- حاضر العالم الاسلامي، ترجمة عجاج نويهض، تعليق الأمير شكيب أرسلان، القاهرة، مكتبة عيسى البابي وشركائه، 1352هـ، ط 5، ج 1.
- بيروت، دار الفكر، 1973م، ط 4.
- سعد الله، أبو القاسم.
- 45- أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، القسم الأول، الجزائر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1981م، ط 2.
- 46- تاريخ الجزائر الثقافي من القرن 10 إلى القرن 14 الهجري، الجزائر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1981م، ج 1، ج 2.
- 47- الحركة الوطنية الجزائرية من 1900-1930م، الجزائر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1983م، ط 3، ج 2.
- 48- الحركة الوطنية الجزائرية من 1930-1945م، مصر، مطبعة الجبلاري، 1975م، ج 3.
- 49- محمد العيد آل خليفة رائد الشعر العربي في العصر الحديث، مصر، دار المعارف، 1961م.
- 50- منطلقات فكرية، تونس، ليبيا، الدار العربية للكتاب، 1976م.
- 51- هجوم حضارية، الجزائر، دار الأمة، 1933م.
- سامان، نور.
- 52- الأدب الجزائري في رحاب الرفض والتحرير، لبنان، دار العلم للملايين، 1981م.
- سلوادي، حسين عبد الرحمن.
- 53- عبد الحميد بن باديس مفسراً، الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب، 1981م.
- سيف الاسلام، الزبير.
- 54- تاريخ الصحافة في الجزائر، الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب، 1985م، ج 1.
- 55- تاريخ الصحافة في الجزائر، الصحافة الجزائرية بين 1850-1870م، الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب، 1985م، ج 2.
- 56- تاريخ الصحافة في الجزائر، الصحافة الجزائرية نشأتها وتطورها، الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب، 1984م، ج 4.
- 57- تاريخ الصحافة في الجزائر، رواد الصحافة الجزائرية، الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب، 1984م، ط 2، ج 5.

- 58- تاريخ الصحافة في الجزائر، الصحافة العربية بين الحربين 1920-1940م، الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب، ط2، ج6.
شاتليه، آل.
- 59- الغارة على العالم الاسلامي، ترجمة عب الدين الخطيب، مساعد الياني، لبنان، مكتبة أسامة بن زيد، د.ت
شحاتة، عهد الله.
- 60- الدعوة الاسلامية والاعلام الديني، مصر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1986م، ط2.
شرف، عبد العزيز.
- 61- المدخل الى وسائل الاعلام، صحافة، راديو، تلفزة، سينما، القاهرة، دار الكتاب المصري، بيروت، دار الكتاب اللبناني، 1989م، ط2.
شلي، عبد الجليل.
- 62- الخطابة واعداد الخطيب، مصر، دار الشروق، 1987م، ط3.
صاري الجليلي، قماش محفوظ.
- 63- المقاومة السياسية 1900-1954م، الطريق الاصلاحى والطريق النورى، ترجمة عبد القادر بن حراث، الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب، 1987م.
الشالي عمار.
- 64- ابن باديس حياته وآثاره، لبنان، دار الغرب الاسلامي، 1983م، ط2، ج1، 2، 3.
عبد الرحمن، عواطف.
- 65- الصحافة العربية في الجزائر، دراسة تحليلية لصحافة الثورة الجزائرية 1954-1962م، الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب، 1985م.
العسقلاني، ابن حجر.
- 66- فتح الباري بشرح صحيح البخاري، بيروت، دار احياء التراث العربي، د.ت ط2، ج6، 8، 10، 13.
العقاد، صلاح.
- 67- مخاضات في الجزائر المعاصرة 1963-1964م، معهد الدراسات العربية العالمية، مطبعة الرسالة.
العلوي، محمد الطيب.
- 68- مظاهر المقاومة الجزائرية من عام 1830م حتى ثورة نوفمبر 1954م، قسنطينة، دار البعث، 1995م.
عوض، صالح.
- 69- معركة الاسلام والصليبية في الجزائر من سنة 1830-1962م، الجزائر، مطبعة دحلب، 1992م، ط2، ج1.

شلسبي، جوان.

70- الجزائر النائرة، تعريب خيرى حماد، لبنان، دار الطليعة، 1961م.

فانون، فوانتز.

71- العام الخاص للثورة الجزائرية، لبنان، دار الطليعة للطباعة والنشر، 1970م، ط2.

72- معذبو الأرض، ترجمة سامي الدروبي، جمال الأتاسي، لبنان، دار الطليعة للطباعة والنشر، 1984م، ط5.

73- من أجل إفريقيا، ترجمة محمد المبلي، الجزائر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1980م، ط2.

فركوس، محمد الصالح.

74- نحو تأصيل إسلامي لتاريخ الجزائر، مشروع فونسا الصليبية والمجاهمة الإسلامية، الجزائر، دار الكونتر، 1991م.

قنانش، محمد.

75- الحركة الاستقلالية في الجزائر بين 1919-1939م، الجزائر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1982م.

76- المواقف السياسية بين الإصلاح والوطنية في فجر النهضة الحديثة، الجزائر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، د.ت.

قنانش محمد، قنانش محفوظ.

77- نجم شمال إفريقيا 1926-1937م، وثائق لدراسة تاريخ الحركة الوطنية الجزائرية، الجزائر، ديوان المطبوعات الجامعية، 1994م، ط2.

كتاب الأمة.

78- مقالات في الدعوة والاعلام الإسلامي، قطر، رئاسة المحاكم الشرعية والشؤون الدينية، 1991م.

ماكبريد، شو، وآخرون.

79- أصوات متعددة وعالم واحد، الاتصال اليوم وغدا، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، اليونسكو، 1981م.

محمد، سيد محمد.

80- المسؤولية الإعلامية في الإسلام، الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب، 1986م.

محمد، عوض محمد.

81- الاستعمار والمناهج الاستعمارية، مصر، دار المعرفة، 1957م، ط3.

المدني، أحمد توفيق.

82- حرب النلاحة سنة بين الجزائر وإسبانيا 1492-1792م، وثائق ودراسات، الجزائر،

الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، د.ت.

- 83- حياة كفايح، مذكرات القسم الثاني، 1925-1954م، الجزائر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1988م، ط2.
- 84- مذكرات الشريف الزهار، نقب أشراف الجزائر، الجزائر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1980م، ط2.
- 85- كتاب الجزائر، دار المعارف، 1963م، ط2.
مرتاض، عبد المالك.
- 86- الثقافة في الجزائر بين التأثير والتأثر، الجزائر، دار الحداثة، ديوان المطبوعات الجامعية، 1982م.
- 87- نهضة الأدب العربي المعاصر في الجزائر 1920-1954م، النهضة الفكرية، النهضة الصحفية والأدبية، النهضة التاريخية، الجزائر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1983م، ط2.
مسلم (الإمام أبو الحسن مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري).
- 88- صحيح مسلم، لبنان، دار إحياء التراث العربي، 1972م، ط2، ج1، ج2.
المطبقاني، مازن صلاح حامد.
- 89- جمعية العلماء المسلمين الجزائريين ودورها في الحركة الوطنية الجزائرية 1931-1939م، سوريا، دار القلم، لبنان، دار العلوم، 1988م.
مناصرة، يوسف.
- 90- الاتجاه النوري في الحركة الوطنية الجزائرية بين الحربين العالميتين 1919-1939م، الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب، 1988م.
الميلي، محمد.
- 91- ابن باديس وعروبة الجزائر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1973م.
ناصر، محمد.
- 92- المسحف العربية الجزائرية من 1847-1939م، الجزائر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1980م.
- 93- مقالة الصحفية الجزائرية، نشأتها، تطورها، أعلامها من 1903-1931م، الجزائر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1978م، ج1.
بجي، جلال.
- 94- السياسة الفرنسية في الجزائر 1830-1860م، مصر، دار المعرفة، 1959م.

ثانيا : المجلات، الدوريات، الجرائد وأخرى :

- 95- المجلة الجزائرية للاتصال ع 9 سنة 1992م.
- 96- مجلة الثقافة، الصادرة عن وزارة الثقافة والسياحة بالجزائر، ع 79 سنة 1984م.

ثالثا : القواميس والمعاجم

أبن : ظور.

97- لسان العرب، إعداد وتصنيف يوسف الخياط، بيروت، دار لسان العرب، م.3.د.ت

الأحمدي، موسى بن محمد الملباني.

98- معجم الأفعال المتعدية بحرف، لبنان، دار العلم للملايين، 1983م، ط2.

عزت، محمد فريد محمود.

99- معجم المصطلحات الإعلامية، الإنجليزي عربي، جدة، دار الشروق، 1984م.

نويهض، عادل.

100- معجم أعلام الجزائر من صدر الإسلام حتى العصر الحاضر، لبنان، مؤسسة نويهض

للتأليف، والترجمة والنشر، 1980م، ط2.

رابعا : مراجع أخرى

101- حصة تليفزيونية، الحركة الوطنية الجزائرية 1920-1954م. الحصة بنت يوم الأحد 26

مارس 1995م على الساعة العاشرة وخمس وأربعين دقيقة ليلا.

ج- المراجع باللغة الأجنبية:

أولا الكتب:

1-Livres**Ageron, Charles Robert.**

- 1- Les Algériens Musulmans et la France 1871-1919, Paris, Presses Universitaires françaises, 1968, T2.
- 2- Histoire de l'Algérie contemporaine 1830-1870, Paris, Presses Universitaires françaises, 1980, 7 ed.

Goldzeigher, Annie Rey.

- 3- Le royaume Arabe, La politique Algérienne de Napoléon III 1861-1870, Algérie, SNED, 1977.

Ibrahimi, Ahmed Taleb.

- 4- De la décolonisation à la révolution culturelle, Algérie, SNED, 1973.

Ihaddaden, Zoheir.

- 5- Histoire de la presse indigène en Algérie dès origines jusqu'en 1930, Algérie, ENAL, 1983.

Kaddache Mahfoud, Guennaneche Mohamed.

- 6- L'étoile Nord africaine 1926-1937, Algérie, O.P.U, 1994.

Lahbabi, Mohammed Aziz,

- 7- Liberté ou libération à partir des libertés bergsoniennes, Etudes et documents, Algérie, SNED, 1974, 2 ed.

Merad, Ali.

- 8- Ibn Badis, Le commentateur du Coran, Algérie, SNED, 1971.
- 9- Le Réformisme Musulman en Algérie de 1925-1940; Essais d'histoire religieuse et sociale, Paris, Houton Ld gl, La Haye, 1972

Yahiaoui, Fadhila

- 10- Le Roman et la société coloniale dans l'Algérie de l'entre deux guerres, Algérie, ENAL; GAM, 1985.

2- Journaux, Périodiques

ثانيا : الجرائد والدوريات :

- 11- Revue Africaine Vol 1 Année 1856-1857, Algérie, OPU.
- 12- Vol 57 Année 1913. Algérie, OPU.

3- Dictionnaires

ثالثا : القواميس :

- 13- Dictionnaire Quillet de la langue française, France, 1983, T; K,P.

فهرس الموضوعات

	المقدمة
20-1	المدخل
	الباب الأول: وسائل الاتصال في الجزائر من بداية الاحتلال
203-21	الفرنسي حتى قيام الحرب العالمية الثانية
82-22	الفصل الأول: وسائل الاتصال الفرنسي بالجزائريين أساليبه وأهدافه
23	المبحث الأول: مرحلته اللدات والمناشير
33	المبحث الثاني: مرحلة الصحافة
56	المبحث الثالث: الاتصال الفرنسي عن طريق التعليم
78	المبحث الرابع: الأدببات الاستعمارية وحكمها على الاستعمار الفرنسي
	الفصل الثاني: أساليب المقاومة الجزائرية ووسائل اتصالها
138-83	بالجزائريين حتى بداية الحرب العالمية الثانية
85	المبحث الأول: بين المقاومة السياسية والمقاومة المسلحة
104	المبحث الثاني: وسائل الاتصال السياسي الاتصالية
202-139	الفصل الثالث: مسور جمعية العلماء المسلمين الجزائريين
141	المبحث الأول: سوانش ظهور الحركة الإصلاحية في الجزائر
158	المبحث الثاني: تأسيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين
171	المبحث الثالث: القانون الأساسي لجمعية العلماء
184	المبحث الرابع: أهداف وغايات جمعية العلماء المسلمين الجزائريين
	الباب الثاني: وسائل الاتصال الشفوي عند جمعية
448-203	العلماء المسلمين الجزائريين وأهدافها
	الفصل الرابع: المبررات الواقعية للاتصال الشفوي
204	عند جمعية العلماء
205	المبحث الأول: المعطيات المادية لواقع الشعب الجزائري
209	المبحث الثاني: طبيعة جمعية العلماء في التعامل مع واقع الجزائريين
214	المبحث الثالث: مبررات الاتصال الشفوي عند جمعية العلماء
257-221	الفصل الخامس: الاتصال عن طريق التعليم المسجدي
	المبحث الأول: ملامح منهج التعليم المسجدي،
223	ضرورته وأولوياته عند جمعية العلماء
257-230	المبحث الثاني: أهداف التعليم المسجدي
237	المبحث الثالث: التعليم المسجدي في الفترة الرسمية
247	المبحث الرابع: نماذج من دروس مجالس التذكير ودلالاتها
287-258	الفصل السادس: الاتصال عن طريق الرحلة

- 259 المبحث الأول : رحلات جمعية العلماء داخل الجزائر دوافعها ونتائجها
- 267 المبحث الثاني : رحلات جمعية العلماء داخل الجزائر: بعد الترسيم
- 280 المبحث الثالث : رحلات جمعية العلماء إلى خارج الجزائر: دوافعها ونتائجها
- 363-288 الفصل السابع: الاتصال عن طريق الخطابة
- 297 المبحث الأول: الخطابة في الفترة التمهيدية
- 309 المبحث الثاني: الخطابة في الفترة الرسمية
- 313 المبحث الثالث : أهمية الخطابة عند جمعية العلماء
- 332 المبحث الرابع : أنواع الخطابة عند جمعية العلماء
- 448-364 الفصل الثامن : الاتصال عن طريق التعليم المكتبي
- 367 المبحث الأول: التعليم المكتبي : أبعاده الحضارية ومعطياته التاريخية عند جمعية العلماء
- 436 المبحث الثاني: أهداف التعليم المكتبي كوسيلة للاتصال عند جمعية العلماء
- 541-449 الباب الثالث: وسائل اتصالها المطبوع عند جمعية العلماء المسلمين
- 558-450 الفصل التاسع : الاتصال عن طريق الصحافة
- 453 المبحث الأول : الصحافة الإصلاحية قبل ظهور جمعية العلماء
- 456 المبحث الثاني: مشاكل الصحافة الإصلاحية في فترة ما بعد الحرب العالمية الأولى
- 460 المبحث الثالث : علماء الجمعية والصحافة
- 472 المبحث الرابع: التعريف بمتحف جمعية العلماء المسلمين الجزائريين
- 494 المبحث الخامس: خصائص صحافة جمعية العلماء
- 502 المبحث السادس: أهم القضايا التي عالجتها صحافة جمعية العلماء المسلمين الجزائريين
- 641-559 الفصل العاشر : الاتصال عن طريق التأليف
- 565 المبحث الأول: المشاكل والصعوبات التي واجهت جمعية العلماء في ميدان التأليف وأساليبها لتجاوزها
- 579 المبحث الثاني: كتاب "مخمس التذكير" للامام عبد الحميد بن باديس
- 600 المبحث الثالث: كتاب رسالة الشرك ومظاهره للأستاذ مبارك الميلي الهلالي
- 613 المبحث الرابع: كتاب تاريخ الجزائر في القديم والحديث في جزئه الأول والثاني للأستاذ مبارك الميلي
- 628 المبحث الخامس : كتاب تقويم الأخلاق للأستاذ محمد العباب الجليلي
- 632 المبحث السادس : كتاب ديوان محمد العيد آل خليفة

الدخلة

المحقق

التصاريح

تفويض الأمانة

تفويض الأمانة بشئ

تفويض الأمانة

تفويض الجداول

تفويض الملاحظات

قائمة المصادر والمراجع

تفويض الموضوعات

القادر للعلوم الإسلامية